



روائع أندلسية إسلامية

661

ترجمة
و تقديم : صبرى التهامى

يقدم هذا الكتاب مجموعة مقالات ودراسات موثقة لكبار المتخصصين الإسبان والأجانب للعديد من الموضوعات المهمة التي تناولت مجالات شتى. وقد بدأ الكتاب بترجمة لكيفية تكوين وتشكيل شبه الجزيرة الإيبيرية من الناحيتين الجيولوجية والجغرافية، ثم تتوالى موضوعات الكتاب التي تتطرق للشاعر الأندلسي الكبير ابن الجياب، وإلى وصف أو نقش شعري لمدرسة غرناطة القديمة، وينتقل إلى الأندلس وعملاتها في مختلف عصورها.

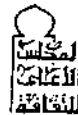
وقد أبدع كاتبو المقالات في تقديم المادة العلمية وتوثيقها بدقة، وقد شفّعوا ذلك بالاستشهادات من أهم المصادر والمراجع. وقد أبرز هؤلاء الكتاب مدى براعتهم في عرض شامل للمصوغات غير الذهبية في الأندلس، وكذلك فن الطهي، فضلا عن العلاقة بين المغرب والأندلس في العصور الوسطى.

المشروع القومي للترجمة

روائع أندلسية إسلامية

ترجمة وتقديم

صبرى التهامي



٢٠٠٤

المشروع القومي للترجمة

إشراف : د . جابر عصفور

- العدد : ٦٦١

- روائع أندلسية إسلامية

- صبرى التهامى

- الطبعة الأولى ٢٠٠٤

هذه ترجمة عن الإسبانية

لروائع أندلسية إسلامية

(عدة مقالات نُشرت فى عدة

مجلات أدبية وعلمية متخصصة)

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House. El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

إهداء المترجم

إلى روح والدي الطاهرة ،

طيبَ الله ثراه ، وأسكنه فسيح

جنّاته جزاء كفاحه من أجل تعليمنا

الفهرس

9 مقممة
15 الفصل الأول : شبه الجزيرة الأيبيرية
51 الفصل الثاني : وصف أو نقش شعري لمدسة غرناطة القديمة
69 الفصل الثالث : ابن الجباب (الشاعر الأندلسى)
115 الفصل الرابع : الأندلس وعملاتها
141 الفصل الخامس : المصوغات غير الذهبية بالأندلس
155 الفصل السادس : فن الطهى الأندلسى
183 الفصل السابع : الأندلس والمغرب فى العصر الوسيط
221 الفصل الثامن : الاقتراب من بعض المظاهر الاجتماعية للأسواق الأندلسية
237 الفصل التاسع : العصر المظلم للحمرء
271 الفصل العاشر : ملاحظات على الخزف النصرى

303	الفصل الحادى عشر : دراسة منهجية وتصنيفية لخزف مدينة إلبيرا
363	الفصل الثانى عشر : الملابس وأطقم المجوهرات والتزين والتبرج
375	الفصل الثالث عشر : المياه وتعمير الحمراء بغرناطة
	الفصل الرابع عشر : حكومة غرناطة عقب الاسترداد (الأوامر الصادرة عن
393	قصر الحمراء)
423	الفصل الخامس عشر : اقتراح لمتحف قصر الحمراء
437	الفصل السادس عشر : مجموعة متحف الحمراء

مقدمة

لقد قمت - بعون الله وحمده - بترجمة هذه المقالات التخصصية المتنوعة : الجغرافية و الجيولوجية و الأدبية و الفنية و الأثرية ... إلخ، واخترتها لتكون مادة هذا الكتاب الذى بين أيدينا . وقد يرى القارئ الكريم عدم ترابط الموضوعات التى تناولها الكتاب، وهو مُحقٌ فى ذلك كل الحق ويعضد من وجهة نظر القارئ أن المقالات متنوعة التخصص متباينة المقصد، إلا أنَّ التَّأْنى والتَّريث فى الحكم على الكتاب وفصوله المتعددة سيجعل القارئ يقتنع رويداً رويداً بأنَّ هناك خيوطاً خفيةً ونبضاتٍ حيةً ومضاتٍ متلاحقةً تربط بين موضوعاته.

فالفصل الأول - على سبيل المثال - يتناول تضاريس وشكل شبه الجزيرة الأيبيرية من الناحيتين الجيولوجية و الجغرافية، وتبرز منها فى المقام الأوَّل : إيبيريا السليكية و الجيرية و الطينية و البنية الصخرية و القطاعات الانكسارية فيها و التتابع المناخى وتنوع و اختلاف السطح و مختلف السلاسل الجبلية الداخلية و الخارجية بها و المنخفضات، و كل هذا يمدنا بمعلومات قيمة و حيوية عن شبه الجزيرة الأيبيرية جيولوجياً و جغرافياً.

و يأتى الفصل الثانى بعنوان " وصف أو نقش شعرى لمدرسة أو لجامعة غرناطة العربية " التى تأسست فى عهد يوسف الأوَّل أبى الحجاج (١٢٣٣ - ١٢٥٢) بناءً على مبادرة من الحاجب أبو نسيم الذى يرجع إليه الفضل فى تشييد سور ضاحية الباشين و توصيل المياه إلى حى أو ضاحية الـ MORO (المسلم) هذا فضلاً عن تشييده لحصون الحدود الغرناطية، حيث أمر ببناء ما يزيد على أربعين برجاً استخدمت كنقاط مراقبة لمداخل المدينة من بيرا (فى محافظة الميريا) حتى الضواحي الغربية . هذا

وقد شيدت المدرسة فى مواجهة المسجد الكبير بالمدينة، و الذى هدمه المسيحيون عقب استردادهم لها لإنشاء الكاتدرائية و المحراب أو المصلى الملكى مكانه .

أمّا الفصل الثالث و هو من أهم فصول الكتاب؛ لأنه يتناول حياة الشاعر ابن الجيَّاب . و ينقسم إلى جزأين : الأول مقدمة و الكتب و المراجع التى تعرضت للسيرة الحياتية للشاعر . و الثانى و قد تناول الحديث عن ابن الجيَّاب الإنسان فى شبابه و كهولته و شيخوخته و المناصب المهمة التى تولاها و مؤلفاته و أستاذه لابن الخطيب كما تحدث أيضاً عن نجلى ابن الجيَّاب ثم مراجع هذا الفصل .

و فيما يتعلق بالفصل الرابع بعنوان " الأندلس و عملاتها " فهو يمثل انتقالاً من الأدب و السيرة الحياتية لابن الجيَّاب إلى الحديث عن العملات الأندلسية، و كيف أن تلك العملات تم تطويرها خلال العصر الإسلامى . و لا ترجع أهميتها فحسب لكونها أداة اقتصادية فى غاية الحيوية بل أيضاً للمعلومات الوفيرة و الغزيرة التى تزودنا بها ، و توضح لنا هذه العملات دار سك النقود التى أصدرتها و تاريخ ذلك بدقة بالغة ، و إلى جانب ذلك فقد تمّ نقش أسماء الخلفاء و رؤساء الوزراء و الموظفين إلى غير ذلك من كبار الشخصيات بالدولة على هذه العملات بشكل تدريجى .

و بالنسبة للفصل الخامس " المصوغات غير الذهبية بالأندلس " ، و هو فصل أعدّه خمسة من كبار المتخصصين، و ذلك لأهمية الجواهر و مكانتها لدى الشعوب فى الماضى السحيق و القريب و عصرنا الحاضر . و قد استخدم المسلمون - بطبيعة الحال - المصوغات غير الذهبية كما استخدموا الذهبية أيضاً و الحلى من الأحجار الكريمة و شبه الكريمة .

و فى الفصل السادس " فن الطهى فى الأندلس " حيث استعرض كاتب المقال مناخ السلام و الطمأنينة الذى ساد العلاقات بين العرب و الإسبان خلال القرن الثامن و إن كان كل شعب قد عاش منعزلاً على نفسه ، ثم تغير الحال فى القرن التاسع حيث تصاهر المسلمون مع أبناء البلد الأصليين حتى انصهر الوافدون مع أهالى البلاد لدرجة أن أولئك شعروا بأن هذه الأرض وطنهم . و قد تناول الكاتب أهم الوجبات و الأطعمة الشهية كما يشير إلى ذلك كتاب الحُسبة .

وفيما يخص الفصل السابع " الأندلس و المغرب فى العصر الوسيط " (من القرن الحادى عشر حتى القرن الخامس عشر) فقد استعرض فيه فرانثيسكو بيدال كاسترو العلاقات و الروابط فى مختلف المجالات بين إسبانيا الإسلامية و المغرب و كيف كانت متصلة و مستمرة ثرية و متميزة ، و يرجع سبب ذلك إلى مدى التجانس بين الغرب الإسلامى فى العصور الوسطى، و هذا لا يمنع - بأية حال من الأحوال - من وجود كثير من نواحي الاختلاف و التميز و يقدم الكاتب فى هذا المقال بعض الأمثلة للعلاقات بين الأندلس و المغرب مثل أوجه الاتصال المشتركة و التأثيرات المتبادلة و عمليات التبادل بين الجانبين و ذلك من خلال متابعة أو تتبع لتاريخيهما إبَّان تلك الفترة .

وأمَّا عن الفصل الثامن بعنوان " الاقتراب من بعض المظاهر الاجتماعية للأسواق الأندلسية " نجد أنَّ مارجريتا لوبيث جوميث استعرضت فيه عدة جوانب منها ثقافة السوق و العنصر البشرى فى مختلف مجالات التجارة : مثل تجار المنسوجات و الأقمشة و الحرير و الخزف و الدباغة ... إلخ، ورأى ابن خلدون فيما يتعلق بأسعار السلع و البضائع فى المدن الأهلة بالسكان فى العالم الإسلامى ، ثم تطرقت فى نهايته إلى المهن و الحرف التى احترفها و توارثها خلفهم .

و بالنسبة للفصل التاسع " العهد المظلم للحمراء " فقد تحدَّث فيه فرناندو بالديس عن الاهتمام البالغ الذى أولته الدراسات فى المقام الأوَّل للقصور المشيدة فوق تل الحمراء و إغفالها بدرجة كبيرة لحصون وقلع الحمراء على اعتبار أنَّ هذه ليست إلا مجرد إطار معمارى يحيط بهذه القصور ، ثم انتقل إلى الحديث عن الفتح العربى و المؤشرات الأولى للتعمير فى العصور الوسطى و كيف أن اسم الحمراء عندما ظهر لأول مرة لم يكن يحتوى على حرف B كما فى الكتابة الإسبانية ALHAMBRA و تحدَّث أيضاً عن جسر القاضى و باب الضفاف و كيفية إعدادهما و مهامهما ، كما أشار إلى التحسينات التى أدخلها عبد الله على التحصينات الدفاعية فى غرناطة ، و اختتم الباحث حديثه فى نهاية بحثه قائلاً : إنه استطاع أن يقدم لنا موجزاً لتاريخ تل الحمراء اعتباراً من مملكة القوط الغربيين فى طليطلة فى القرن السادس الميلادى حتى منتصف القرن الحادى عشر فى عهد الزيريين .

أماً الفصل العاشر " ملاحظات على الخزف النصرى : الشكل والمضمون " حيث تطرّق فيه جيرمو روسيو بوردوى إلى أهمية الخزف الأندلسى شكلاً ومضموناً؛ لأن هذا سيجعلنا نتعرف على المجتمع الذى استخدم هذه الأوانى الخزفية وما كان يُقدّم فيها من طعام وشراب هذا من ناحية والمادة التى صنع منها والتقنية المستخدمة فى صنعها وزخرفتها من ناحية أخرى .

وفيما يخص الفصل الحادى عشر وهو بعنوان " دراسة منهجية وتصنيفية لخزف مدينة إلبيرا " من إعداد كارلوس كانو ببيدرا؛ حيث ذكر فى بدايته أن ليوبولدو توريس بالباس نشر مقالاً عام ١٩٣٩ بمجلة الأندلس عن الخزف الإشباني الإسلامى الذى كان ولا يزال بمثابة دعوة لإعداد دراسات كاملة ومتكاملة منظمة ومنهجية عن الموضوع، وخاصة فى عهد الخلافة نظراً لندرة المعلومات عن هذا الموضوع . وقد انتقد فيه جهابذة العلم من الإشباني لإغفالهم إنتاج الخزف الإشباني خلال عصرين فى غاية الأهمية : عصر الخلافة القرطبية والعصر النصرى ، ثم استعرض ما قام به المتخصصون اعتباراً من حقبة الأربعينات ، ثم تطرّق بعد ذلك إلى علم الأنماط أو نظرية الأنماط بالنسبة للأشكال ، وتناول أيضاً فى دراسته القطع والأوانى الخزفية المفتوحة والمغلقة وتقنيات الزخرفة والتكسية أو التلييس والعناصر الزخرفية بكافة أنواعها .

وفيما يتعلق بالفصل الثانى عشر " الملابس وأطقم المجوهرات والتزيين والتبرج " ويتحدث مؤلفه عن مدى التزام النساجين بالقوانين الفنية المعمول بها آنذاك، وكيف أنهم كانوا يسلمون الأقمشة مصنوعة وممشطة ومقصوصة وجافة وكان وزنها إلى جانب سقّط الخياطة والقصاصات ينبغى أن يكون مساوياً لوزن الخيط المُسَلَّم أنفأ ، ثم تحدّث عن الملابس الملكية المزركشة الفاخرة . وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الأقمشة كانت مستوردة أو من غنائم الحرب وكان أكبر مركز لتجارة الأقمشة فى شبه الجزيرة الأيبيرية فى أيدي المسلمين . وأشار الفصل الثانى أيضاً إلى سهولة التمييز بين الفارق الاجتماعى على أساس شكل الملابس أو نوعية الأقمشة من حيث الجودة والرداءة والألوان والزخارف المستخدمة فيها . وفى النهاية تحدث مؤلفا المقال عن ملابس الرجال وأصنافها .

وبالنسبة للفصل الثالث عشر "المياه وتعمير الحمراء بغرناطة" فقد تناول فيه أنطونيو مالبىكاكوي أهمية توفير المياه لمدينة تتألف من عدة قصور فوق ربوة جبلية في مكان تندر فيه المياه، وكيف أن الدراسات كانت محدودة للغاية في هذا المجال ومقتصرة على قصر الحمراء أو المنطقة التي كانت تربط بين قصرين من تلك القصور . وقد أغفلت الدراسات كيفية تغذية المدينة بالمياه وتقنيات رفعها وتوصيلها وتوزيعها على كافة أرجائها ، ونظراً للتقنية العبقريّة الفذة التي قام بها العرب آنذاك بتوصيل المياه ورفعها إلى الحمراء فإننا سنترك للقارئ الكريم يتلمس، ويعرف بنفسه هذه التقنية الفريدة في هذا الفصل المهم .

أمّا في الفصل الرابع عشر " حكومة غرناطة عقب الاسترداد : الأوامر الصادرة عن قصر الحمراء عام ١٤٩٢ " تحدث فيه كاتبه عن تلك الأوامر التي أصدرها الملوك الكاثوليك لتحسين دفاعات المدينة وحمايتها عقب تسليمها من جانب المسلمين للمسيحيين ، ثم تطرق إلى التعليمات التي صدرت بشأن محاكمة المسلمين على أيدي قضاة من بنى دينهم وفقاً لأحكام شريعتهم إذا كان النزاع بين مسلمين . أمّا إذا نشب نزاع بين مسلم ومسيحي فسيتم النظر فيه بحضور قاضيين أحدهما مسلم والآخر مسيحي . ومع ذلك فقد كانت هذه التعليمات شكلية ؛ لأن هناك أسباباً عديدة للبرهنة على عزم الملوك الكاثوليك في القضاء على الإسلام في مملكة غرناطة ، من بينها الضغوط الشديدة التي مارسها هؤلاء على أبى عبد الله لى يغادر المدينة وإلغاء الامتيازات التي مُنحت طوال الحرب للقادة المسلمين المتعاونين مع المسيحيين أو إنشاء بلدية إسلامية كانت مجرد سراب يحسبه الظمان ماءً فلم يكن لها أية سلطات حقيقية وقد ألغيت عام ١٤٩٧ . وتجدر الإشارة هنا إلى أن مدينة غرناطة كان بها ١٠٠,٠٠٠ مسلم عند تسليمها للمسيحيين .

الفصل الخامس عشر " اقتراح لمتحف قصر الحمراء " يقول مؤلفه ماثيو ريبيا أوثيدا : بعد انفصال المتحف الإسباني الإسلامي عن مجموعة قصر الحمراء بإدارة مستقلة عاد مرة أخرى للانضمام إليه . إن أصل وتاريخ هذا المتحف وتطوره مرتبط تماماً بالمجموعة النصرية ، وقد تم اعتبار المتحف أثراً وطنياً عام ١٨٧٠ ، كما تناول الباحث أيضاً في مقاله عملية البحث عن مقر لهذا المتحف في قصر الإمبراطور

كارلوس الخامس وكيف توالى النداءات لإنشاء متحف وطنى عربى إسبانى ، وقد بدأت الفكرة تتبلور فى حقبة الأربعينات على الرغم من احتجاجات العالم الفرناطى الفذ ببادار استناداً إلى عدم وجود آثار كافية لإقامة متحف . وطالب بضمه إلى متاحف أخرى وإن كان لم يعترض على استخدام قصر الإمبراطور كارلوس الخامس مقراً للمتحف . وقد تم اختيار ٢٥٥ قطعة لكى تكون نواة لإقامة هذا المتحف ثم أضيفت إليها ٣. قطعة من متحف آثار غرناطة .

ويأتى الفصل السادس عشر بعنوان " مجموعة قصر الحمراء " وهو من إعداد بوريفيكاثيون مارتينيتو سانشيث حيث أشارت إلى أن متحف الحمراء تم تكوينه بشكل طبيعى، وهذا أمر نادر الحوث فى المتاحف الأثرية بإسبانيا ، وأضافت بأن مجموعة مهمة من هذا المتحف تم تصنيفها و تجميعها فى القرن التاسع عشر وأخذت الطابع المتحفى منذ ذلك الحين ، وقد ضم هذا المتحف قطعاً إسلامية نادرة إلى جانب قطع أخرى من الشرق إلى جانب كثير من المقتنيات ، وجدير بالذكر أنه أجريت عمليات الترميم لكثير من هذه القطع .

لقد كانت هذه عجالة سريعة و مقتضبة لما يتضمنه هذا الكتاب لنترك للقارئ العزيز الحرية الكاملة لكى يتجول بين صفحاته يطويها طياً ليتعرف بنفسه على الكثير من المعلومات القيمة : الأدبية و الفنية و التاريخية.

والله ولى التوفيق .

د. صبرى محمدى التهامى زيدان

مصر الجديدة فى ١/١/٢٠٠٥

الفصل الأول

شبه الجزيرة الأيبيرية

الشكل والتضاريس :

يتميز شكل وتضاريس شبه الجزيرة الأيبيرية بكونه فى غاية التعقيد، ولذلك فإنَّ مهمتنا ستكون فى شرح الأحداث بوضوح تام؛ حيث سندرس فى المقام الأوّل العوامل التى أسهمت فى تكوين شكل وتضاريس شبه الجزيرة الأيبيرية^(١) ، وفى المقام الثانى الوحدات الرئيسية التى يكمن إبرازها فى تضاريسها .

١ - تشكيل التضاريس

إنَّ المظاهر الثلاثة الكبيرة التى سنتحدث عنها فيما بعد تختص بالبنية أو التركيبية الحجرية والبنية أو التركيبية الصخرية والنظم التشكيلية الوراثة.

المواد الجيولوجية :

وفى محاولة للإيجاز فإنَّ المواد المتنوعة التى تتشكل منها أرض شبه الجزيرة الأيبيرية يمكن توزيعها فى ثلاثة أقسام كبيرة استناداً إلى المعيار الذى استخدمه " إى إيرنانديث باتشيكو فى قسم حجرى معروف بالأراضى الإسبانية . ويمكن التمييز فعلاً بين أيبيريا سليكية وأخرى جيرية (من الحجر الجيرى) وثالثة طينية . وفى الواقع

لا نشير فقط بهذه التسميات إلى وصف الصخور بل أيضاً إلى تاريخها وزمنها وإلى طبيعتها الوراثية كما سنرى على الفور .

أيبيريا السليكية :

وندرج تحت هذه التسمية كل المناطق الكائنة بشبه الجزيرة الأيبيرية؛ حيث يكثر المرمر (السليك اللامائي) . وتسود فيها التكوينات البركانية، وخاصة الجرانيت والتكوينات التحولية المتغيرة (مثل الإردواز الغرانيتي ومعدن الكوارتزيت والإردواز والرخام أو المرمر) والمواد الترسيبية (التكوينات الرملية التي تتكون من أجزاء الصخور والتكوينات الرملية فقط والإردواز) والتي لها قيمة معقولة . وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه هي أيبيريا القديمة التي تكونت فقط من المواد المتكونة في الدهر القديم وما قبله أحياناً .

والخلاصة أن الأمر يتعلق بجزء من شبه الجزيرة الأيبيرية؛ حيث مازالت تكثر المرتفعات منذ الانكسار الأرضي في الدهر القديم والتي لم يحدث لها تغيير أو بتلك الأجزاء التي انهارت أو غطيت ثانية بمناسبة الانكسار بجبال الألب أو بعد هذا الانكسار ؛ ففي الحالة الأولى نجد نتوء الهضبة وفي طرفها الشمالي الغربي، والذي يُطلق عليه مرتفع الجالايكو والذي يمتد من جاليثيا حتى وادي الدويرو، ومجمل الأمر أن هذه المواد تظهر في قطاع عريض في غرب شبه الجزيرة الأيبيرية بحيث يغطي منطقة جاليثيا تقريباً وتلثي البرتغال والقطاع الغربي من الهضبة الشمالية وقطاع عريض من الهضبة الجنوبية وكذلك في الهضبة الوسطى وجبال طليطلة . ومن جانب آخر فإن أيبيريا السليكية تتألف من بقاع غير متصلة ترجع إلى التكوينات الترسيبية والأجزاء البارزة من المرتفعات التي اختفت تماماً ، ومثال ذلك محور جبال البرانس - بقية المرتفع البرانسي وفقاً لآراء بعض المؤلفين - وبعض البؤرات الجبلية لسلسلة الجبال الساحلية في كتالونيا - وأذكر المرتفع الكتالاني البالياري - وسلسلة جبال النهر الكبير - والتي موادها قادمة من المرتفع المجاور .

وتُشكل جانباً أيضاً من أبيبيريا السليكية بعض القطاعات الصغيرة التي تأثرت بالبراكين الحديثة نسبياً مثل النيوجينى (الجينى الحديث) والدهر الجيولوجى الرابع ولهذا فالأمر يتعلق فقط بشيوع هذه الصخور المكونة من مواد حديثة متولدة عن البراكين وخاصة المسكوبة أو المسفوكة ، وهذه البراكين تبو بالنسبة لخطوط الصدوع الخارجية عموماً التي تؤثر فى التتواءات القديمة ، وهى تنقسم إلى خمس مجموعات رئيسية :

- (١) مجموعة أولوت (فى كتالونيا) .
- (٢) القطاع الكائن بين ثينتور ولسبونة.
- (٣) مجموعة جبل كالاترايا.
- (٤) مجموعة الهضبة الجنوبية [هضبة مونشيكي فى الجاربى.
- (٥) المجموعة الجنوبية الشرقية من الوادى الوسيط لنهر السيجورا عند نهاية جاتا.

أبيبيريا الجيرية :

إن المواد التى تتكون منها ما نستطيع تسميتها بأبيبيريا الجيرية متعددة ومتنوعة عن تلك التى درسناها حتى الآن . إنها عبارة عن تكوينات رسوبية وترسيبية فقط وهى فى معظمها من أصل بحرى، والتى كانت قد أودعت فى أعماق القنوات التى كانت تفصل بين المرتفعات البارزة وفى مياه البحر المسابق على البحر الأبيض المتوسط إبان الدهر الجيولوجى الثانى (تيتيس) أو بحر الأطلسى الشرقى . ومن بين هذه المواد التى تمتد من العصر الجيولوجى الترياسى والفجرى؛ حيث تكثر الأحجار الجيرية ولكن مع وجود تكوينات ترسيبية أو رسوبية أخرى (رملية ، طقل جبرى ، والمتكورة) التى فى بعض الأحيان هى السائدة فى هذه المرتفعات .

وتتمثل أيبيريا الجيرية فى ثلاثة أقواس أحدها يمثل ما قبل جبال البرانس ، الجبال الباسكية والجزء الشرقى من سلسلة جبال كانتبريا . وثانيها فى الاتجاه الشمالى الغربى إلى الجنوب الشرقى ويتألف من معظم المناطق الجبلية من سلسلة جبال أيبيريا ، أمّا ثالثها فإنه يتمثل فى سلسلة الجبال المتاخمة للنهر الكبير . وفى البرتغال يظهر قطاع ضيق نسبى ولكنه متصل فى اكستريمادور البرتغالية . وهناك قوس آخر صغير يظهر فى الجارىبى، ونلاحظ أنّ الأحداث المذكورة أو المشار إليها يمكننا أن نستنبط منها منطقة جبلية فاصلة بين القطاع الغربى والشرقى من شبه الجزيرة الأيبيرية ، ومعظم المنطقة الغربية ينتمى إلى أيبيريا السليكية أمّا الثانية فتتسبب على وجه الخصوص إلى أيبيريا الكلسية أو الجيرية .

فوجود الحجر الجيرى أو الكلسى يحدد بكثرة وجود مناطق كارسكية من كارست أو كارسو المنطقة اليوغسلافية التى تكونت بشكل جوفى أو فى باطن الأرض (قمم جبال وكهوف) وسطحية (الجرافيت ، المنخفضات المستديرة ، منخفضات كبيرة متعددة السطوح) .

أيبيريا الطينية :

ونشير الآن إلى القسم الثالث ذى التكوين الحجرى فى شبه الجزيرة الأيبيرية المتكونة من مواد رسوبية أو ترسيبية، ولكن بميزات جبلية وزمنية أو تاريخية تختلف تماماً عن القسم الثانى .

إنها عبارة عن تكوينات من أصل قارى أو بحرى التى تغطى أو تكسو أعمال مختلف الأحواض أو التى تكون حماية أو تغطية للتنوعات فى المرتفعات القديمة . وتسود المواد الرقيقة الهشة التى تُكوّنُ مزيجاً من الطلّ الجيرى والطينى وفى بعض الأحيان قوتها عشرات ومئات الأمتار حيث تبدو فيها آفاق ملّحية متشابكة (الجص ، والملح العادى وأملاح البوتاسيوم) . وخصوصاً عندما يكون الغطاء الخضرى أقل كثافة فإنّ هذه المواد تعانى من التآكل الشديد مما يؤدى إلى وجود منحدرات ذات

خنادق وحفرات وجبال سامقة مما يتكون معه سطح متميز الشكل يشبه المسمى بالأراضي الرديئة في أمريكا الشمالية وهي أراضي شبه قاحلة .

كما أنه توجد صخور رسوبية أخرى مثل الجيرية أو الكلسية والرملية والكتلية - ومجمل الأمر أن كل هذه التكوينات التي أشرنا إليها مؤخراً قد أودعت إبان العصر الجيني الجديد في المياه البحرية كما هو الحال في القناة الخاصة بالنهر الكبير في جنوب سلسلة جبال سييرا مورينا الحالية وعلى أطراف المحيط الأطلسي أو البحرية كما هي الحال في سطح الهضاب أو في منخفض نهر إبيرو . ويرجع أصلها في الغالب إلى ما بعد عصر الانكسار الأرضي، وبالتالي لم يبدُ عليها أنها تأثرت بأي تشكيل صخري أو حركة صخرية ، وندرج رواسب العصر في إطار أيبيريا الطينية وخاصة الغرينية أو الطميية منها .

وتظهر خمس مناطق كبيرة في شبه الجزيرة الأيبيرية مغطاة بالمواد التي أسلفناها أخيراً^(٣) . اثنان منها تكون غطاءً ترسيبياً حول البروز الهضبي في وسط وشرق من الهضبة الشمالية وفي الجهة الشرقية للهضبة الجنوبية . أما المناطق الأخرى فإنها تلتقي مع المنخفضات الثلاثة الخارجية المذكورة آنفاً أي : منخفض الأيبرو ومنخفض الوادي الكبير ومنخفض وادي التاخو السادس .

٢- البنية الصخرية

إن جميع التكوينات التي تحدثنا عنها أخيراً كان لكل منها رد فعل مختلف للاندفاعات الجبلية وفقاً لخصائصها وعمرها . إن الانكسار الهيرثينياني أدى إلى ظهور البروزات أو التتواءات الجديدة الكاملة للعديد من المرتفعات وتكوين قطاعات من سطح الأرض والتي محاورها تتجه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي التي تُعرفُ باسم الرملية أو الإردوازية .

إن مختلف مراحل الانكسار الألبى (نسبة إلى جبال الألب في أوروبا) سيكون لها نتائج متنوعة وذات أهمية قصوى فيما يتعلق بالسطح الحالي لكونها عبارة عن

تحركات حديثة نسبياً . وسيُفهمُ هذا التنوع والاختلاف فى النتائج إذا أُخذ فى الاعتبار القوى الجبلية فى جبال الألب سيكون لها تأثير مكثف على مواد مختلفة تماماً مثل المرتفعات الصلبة ولكنها هشة، والتي ستكون عرضة للانكسار والمركبات الرسوبية أو الترسيبى التى تَكُونُ طوال العصر الجيولوجى الثانى وأوائل العصر الجيولوجى الثالث، وهى عامة سهلة الطَّرْقِ وبلاستيكية، وبالتالي فهى عرضة للطى والانثناء الإجبارى .

قطاعات الانكسار:

إنَّ المرتفعات قد اختلف ردود أفعالها للاندفاعات الجبلية ؛ فقد انطمر البعض وانهار تماماً كما هو الحال فى مرتفع نهر الأيبرو أمَّا الباقية فقد تركت فقط بعض الكتل الرسوبية أو الترسيبية كما حدث فى المرتفع الكتالانى الباليارى والمرتفع المجاور للنهر الكبير وفى بعض الأحيان تجمعت بسبب عمليات الطى الجديدة لسطح الأرض وفى النهاية المرتفع الكبير بالوسط بطرفه الجاليتى قد تصدَّى لعمليات دفع القوى الملموسة، ولكنه نظراً لعجزه على الانثناء فقد تفتت داخلياً .

وقد نجم عن ذلك بالقطاعات الضعيفة الهشة بالمرتفعات المذكورة قطاعات انكسارية؛ حيث تمخضت عن وجود بعض الكتل المرتفعة المنفردة وأخرى غائرة أو مطمورة . ونجد أنفسنا أمام ظهور بعض النتوءات البارزة أو عند ظهور سلسلة من جبال من الكتل أى الطراز الصخرى المُسمى بالجرمانى . وهذه القطاعات الانكسارية نجدها طبقاً للصدوع الرئيسية التى تُحددها فى الاتجاه الشمالى الشرقى إلى الجنوب الغربى بشكل عادى فى الاتجاه السائد للاندفاعات الصخرية القادمة من الجنوب والجنوب الشرقى .

وأكبر قطاع من الانكسار يبدو فى المنطقة الداخلية للنتوء الهضبي حيث يشكل السلسلة والتي نظراً لموقعها بين الهضبة وشبه الجزيرة الأيبيرية أُطلق عليها سلسلة الجبال الوسطى . أمَّا المجموعة الجبلية الأخرى والتي تتمثل فى جبال طليطلة فإنَّها

أيضاً من أصل صخري مُشابه . أمّا فى القطاع الجنوبي من المرتفع الجاليتى فقد تَكُونُ حقلاً حقيقياً من الصدوع والتشققات الذى يشمل العديد من الكتل الصخرية المنفردة البارزة أو الغائرة، والتي أدّت بدورها إلى تكوين تضاريس مُعقدة ، والاتجاه السائد أو الغالب فى هذه الحالة للكتل الصخرية غالباً ما يكون من الشمال إلى الجنوب ، وهى تركيبات أو تكوينات مشابهة تمتد فى أراضى جاليتيا . ومن ناحية أُخرى فإن خطوطاً كبيرة من الصدوع والانشقاقات أو التشققات تُحدد الحدود المستقبلية لمرتفع الوسط بشبه الجزيرة الأيبيرية . ويظهر هذا جلياً واضحاً عند الحافة الجنوبية بمجموعة من الانكسارات والانتشاءات والتي تُعرف باسم صدوع أو تشققات نهر الوادى الكبير وفى الجزء الأوسط من الحافة الغربية فى الأراضى البرتغالية .

أقواس الطى أو الانتشاء :

فهى على العكس حيث إنّ المواد الترسيبية أو الرسوبية المخزونة منذ أوائل العصر الجيولوجى الثانى فى الفجوات والقنوات البحرية القريبة من المنطقة الخالية لشبه الجزيرة الأيبيرية نجد أنها تنتمى إلى الانكسارات الألبية والتي طويت بدرجة كبيرة أو صغيرة وفقاً لتنوع مرونة المواد واختلاف شدة القوى الجبلية . وعلى أية حال بدأت فى التكوين بشكل خاص منذ أواخر العصر الفجرى الجيولوجى (المرحلة الجبلية المسماة بالبرانسية) حتى منتصف العصر الميوسينى (المرحلة الأستيرية) سلسلة من الأقواس المطوية أو المنثنية سيكون لها أهمية كبيرة فى الهندسة المعمارية لشبه الجزيرة الأيبيرية .

و جدير بالذكر أنّ عدداً كبيراً من هذه الأقواس بدأ فى الظهور عند أطراف المرتفع الأوسط الذى يمثل مداخل الدولة والذى أدّى إلى تكوين مُعظم ما نسميها بالسلاسل الخارجية . وفى أحيان أُخرى يمكن أن تقوم بنفس الدور مرتفعات أُخرى قد تورّطت فى عمليات الطى أو الانتشاء كما يحدث ربما فى الحالة البرانسية ، ووفقاً للوضع النهائى للمواد فإنّه من اللائق التمييز على الأقل بين طرازين رئيسيين . عموماً

تسود بنية أو تركيبة صخرية فى طيات أو طبقات ناعمة ومتناسقة (الطراز الجوراسى) وله أمثلة عديدة تبدأ من الجبال الباسكية حتى سلسلة جبال النهر الكبير بالاندلس وتمتد أيضاً من سلاسل ما قبل جبال البرانس حتى اكستريمادورا البرتغالية ، وأحياناً أخرى على العكس من ذلك نجد أن الطيات أو الطبقات تبدو راقدة وحتى متداخلة متراكبة بعضها فوق البعض الآخر مكونة طرازاً يمكن أن يُسمَّى برانس حيث إنه توجد على وجه التحديد أمثلة ممتازة فى جبال البرانس .

طرازان صخريان معقدان :

وتظهر حتى الآن بنية أو تركيبة صخرية تنمُّ عن وجود قوى جبلية قوية من ناحية وكذلك طبقات رسوبية أو ترسيبية تقوم بدور التلطيف والتشحيم من جهة أخرى ، وبهذا الشكل يتم تكوين أغشية لانهيالات الأرض (الطراز الألبى المشار إليه آنفاً) والذي توجد منه عدة نماذج هامة فى شبه جزيرتنا الأيبيرية . ومن جهة أخرى يمكن أن يحدث هذا أحياناً فى سلسلة جبال واحدة : أى بنية ذات انكسارات وكُتِل إلى جوار بنية أو تركيبة صخرية من الطيات أو الانتثناءات .

وعقب عشرات من التحليلات الصخرية فى هذه الاتجاهات يبدو مما لا شك فيه أن الطراز الألبى موجود فى الأرض الأيبيرية فقط فى قطاع يشمل جزءاً كبيراً من سلسلة جبال النهر الكبير بالاندلس . وهناك أمثلة أو نماذج أخرى مثل التى تظهر فى سلسلة الجبال المجاورة للنهر الكبير وفى جزر الباليار ولها أهمية محدودة وتنحصر فى بعض انهيارات الأرض الطويلة قليلاً . إن تعقيد هذا الطراز وصعوبات تفسيره أدت إلى أن أخصائى الصخور كَرَّسُوا جُلَّ اهتمامهم فى شبه الجزيرة على تحليل سلسلة جبال النهر الكبير .

وفى نهاية الأمر وعند أطراف المرتفعات فقط يمكن أن يوجد طراز جرمانى يمكن أن يؤثر على تنوء العصر الحجري القديم بينما نجد أن غطاء المواد الثانوية يبدو مقطباً

تقريباً نظراً لعمل أو لنشاط القوى الجبلية . ويتعلق الأمر ببنية هي في نفس الوقت انتثنائية وانكسارية أى من الطراز المسمى بالساكسونيكي ، وأفضل النماذج على ذلك تبدو في شبه الجزيرة الأيبيرية عند الحافة الشمالية الشرقية للهضبة وفي بعض البؤرات أو الأماكن الجبلية لسلسلة الجبال الأيبيرية ، ولكن تتكرر حالات أخرى متشابهة في سلاسل جبلية انتثنائية أو طيية خارجية أو بمواد تنتمي إلى العصر الحجري القديم في الأساس أو في الطبقات السفلية كما يحدث في السلسلة الجبلية المجاورة للنهر الكبير وفي اكستريمادورا البرتغالية .

الحركات الأخيرة :

وإبان الحقب الأخيرة تم التعرف على أهمية الحركات الصخرية الأخيرة المتزامنة أو اللاحقة للمرحلة الأخيرة - المسمّاة بالرودانيكا - في أواخر العصر الميوسيني وأوائل العصر البوليوسينو - من الانكسار الألبى ، وبالفعل فإن بعض عمليات الدفع هذه كانت لها أهمية نهائية في بلورة الخصائص والمزايا التي تظهر باتساعها وحجمها بالوحدات الحالية للتضاريس، وعلى العكس من ذلك نجد أن تحركات أخرى مثل التي حدثت في العصر الرابع، والتي كان لها صدى إقليمياً محضاً .

وطوال العصر الجيولوجي المسمى بالنيوجيني حدثت ثلاثة تحركات كان منها اثنتان حاسمتان لتشكيل الوضع الحالي للمرتفع الأوسط أو المركزي وغطائه : فمن ناحية تقوّست أو انحنت الطبقة السطحية للهضبة تحت تأثير تجمع هوائى كبير واسع مداه الانحنائى مما أدى إلى تشويه وانحناء وعدم استواء السهول الموجودة، ومن ناحية أخرى وكنتيجة لعمليات الدفع المتكررة القادمة من الشرق فإن النتوء أو البروز الهضبي في مجمله قد تآرجح قليلاً مما أدى إلى ارتفاع الطرف الشرقى وأدى إلى انحنائه قليلاً في اتجاه المحيط الأطلسى . وهناك تحرك آخر مشابه أدى إلى حدوث ارتفاع إجمالى لبعض الأماكن الجبلية الناتجة عن الانكسارات أو الانحناءات الألبية وفي هذه الحالة وكما حدث في كثير من القطاعات البرانسية فإن الارتفاعات الكبيرة التي نجمت عن

المواد المتأثرة من الانكسارات فى العصر الجيولوجى الثالث، والتي ترجع فى المقام الأول إلى الانثناءات الناتجة، وكذلك إلى التحرك اللاحق لكافة الكتلة المطوية أو المنثنية .

فالأحداث ذات الأهمية الكبرى التى وقعت إبَّان العصر الجيولوجى الرابع كانت من المرجح وراء التحركات الأويستاتيكاس لمستوى المياه البحرية مما أدى إلى تكوين الشواطئ المعلقة فى محيط شبه الجزيرة الأيبيرية، والتى سنُشير إليها بإيجاز عند الحديث عن السواحل الأيبيرية . وهناك تحركات حدثت فى العصر الجيولوجى الرابع وهى أكثر تحديداً فى مظاهرها : فقطاعات الزلازل الشائعة حالياً لها علاقة بالمناطق التى تأثرت بالانكسارات الهامة كما حدث فى صدع الوادى الكبير، ومن ناحية أخرى فقد كانت هناك بلا شك تحركات أو هزَّات سطحية مثل التى أثرت فى مواد بعض الشرفات النهرية الأمر الذى أصبح لا شك فيه حالياً بعد أن دُرِسَ إبَّان السنوات الأخيرة .

شبه الجزيرة الأيبيرية

٣ - النظم الشكلية الوراثة :

كما هو معروف فإن النظمَ الشكلية الوراثة التى ستؤدى إلى نحت وتشكيل الأشكال النهائية للتراكيب أو البنيات الجيولوجية التى درسناها حتى الآن لها علاقة وشيجة الصلة بخصائص ومميزات المناخ السائد ، ولذلك فقبل الإشارة إلى بعض النتائج للنظم الرئيسية الشكلية الوراثة فى سطح الجزيرة الأيبيرية سندرس باقتضاب التطور المناخى عبر الزمن والتوزيع المكانى فى وقت محدد للمناخ فى شبه الجزيرة الأيبيرية .

التتابع المناخى :

يوجد فى زمن العصر الجيولوجى الرابع تتابع للمراحل المناخية، وبالتالي للنظم الشكلية الوراثة المتنوعة . و لازال المجال مفتوحاً لقبول مرحلة جليدية رابعة على الرغم

من أنه لم يتم سوى البرهنة على ثلاث فقط في شبه الجزيرة الأيبيرية تفصلها عصور ما بين المراحل الجليدية ، فالتناقض معروف فيما يتعلق بدرجات الحرارة والأمطار الهامة بين كل مرحلة وأخرى .

ومن جهة أخرى فمن الملائم أن نأخذ في أذهاننا أنه حتى بين المراحل نفسها أو العصور الجليدية توجد خلافات في مدة كل عصر أو مرحلة ذات دلالات مناخية . وفي هذا الصدد فإن أهم مرحلة أو عصر جليدي يُسمى في إطار المصطلحات الجيولوجية الألبية بعصر الرئيس . وإبان هذا العصر وعلى الأقل في بعض الأماكن الجبلية كما يحدث في جبال ليون توجد أنهار جليدية على شكل قبة . وربما يرجع ذلك إلى وجود تضاريس مكتملة أدت إلى تكوين هذه التراكمات الجليدية . وعلى العكس من ذلك فإنه خلال عصر الويريم ذي الأهمية القصوى الشكلية في السطح الحالي لكونه الأخير؛ فقد ثبتت السيطرة للأنهار الجليدية بالوادي من النمط الألبى . ومن الضروري أيضاً الإشارة إلى أن كل مرحلة أو عصر مناخي ينقسم إلى عدة مراحل مختلفة مما يؤكد ويبرز تعقيد هذه المظاهر الجيولوجية أو التي يُشكل تنظيمها أو تصنيفها مشكلة شائكة في دراسة تضاريس شبه الجزيرة الأيبيرية .

وتكمن آخر خاصية أساسية أو جوهرية في أن التطور المناخي لم يقتصر في شبه الجزيرة الأيبيرية على مجرد تتابع عصرين جليديين وما بين الجليديين . توجد مناطق أو مساحات يمكننا أن نعزيها إلى الرياح الشرقية والجنوبية التي تجنح في غالبية الأحيان إلى التسبب في درجات الحرارة المرتفعة . وفي ظل هذه الظروف المناخية لم يحدث على وجه التحديد ثبات في القطاعات المستوية أو السهلية والواديانية من هذه القطاعات الحارة نسبياً، وبالتالي لم تشهد هذه المساحات مناخاً جليدياً أو شبه جليدي . وإذا حدث تساقط أمطار بغزارة فإنها لم تحدث على شكل جليد بل على شكل أمطار . وبالتالي فإنه في هذه الحالة يجب أن نضع في الاعتبار بأن التتابع المناخي الكائن هو في الواقع قد تم في فترات ممطرة وما بين هذه الفترات المطيرة . ومن جديد يتضح من هذه الحالة أن خاصية التتابع أو الانتقال التي شهدتها شبه الجزيرة بين المناخات المتعددة المعتدلة والحارة ما بين المدارية .

تنوع السطح واختلافه :

إن وجود حدود مناخية بين أو داخل عصر محدد تفصل بين عصرين كبيرين يجبرنا أو يضطرنا للحديث عن دلالة المناخ على سطح شبه الجزيرة الأيبيرية في وقت محدد ؛ لأنه إذا لم يكن الحديث صحيحاً على سبيل المثال عن العصر الجليدي في إحدى دول أوروبا الوسطى ، بمعنى أن الحركة الجليدية أثرت بشكل موحد في كل المنطقة فإنه من الخطأ الجسيم حينئذ الحديث عن فكرة مشابهة فيما يتعلق بشبه جزيرتنا الأيبيرية؛ لأنه في كل لحظة تظهر قطاعات واسعة وشاسعة بعيدة تماماً عن تأثير المناخ الجليدي . ومن الملائم التمييز خلال عصر محدد بين قطاعات جليدية وشبه جليدية ومطيرة وفي عصر آخر بين شبه الجليدية والمطيرة والقاحلة أو الجافة .

فالدراسات التي أجريت حتى الآن يبدو أنها تعضد فكرة التطابق الزمني بين العصور الجليدية والعصور المطيرة ، ولكن التنوع المكافئ كبير بلا أدنى شك . ومن جهة ثانية فإن سيطرة المناخ الجليدي فإن هذا التأثير الجليدي سيقصر على مساحات جبلية قليلة تتعلق بالسلاسل الجبلية الشمالية والوسطى . أما في بقية المناطق المذكورة فإنه يسود - في الواقع - مناخ شبه جليدي يمكن ملاحظة تأثيراته وأثاره حتى في أسفل الجبال والهضاب الداخلية أي حتى ارتفاع ٥٠٠ - ٦٠٠ متر . وفي بقية أرجاء الجزيرة الأيبيرية أي في السهول الجانبية وشبه الجانبية للجبهتين الشرقية والجنوبية بحيث تشمل الجزء الأكبر من منخفض الوادي الكبير، وقد رسخ في هذه المنطقة مناخ مطير .

ويجب أن نضع في اعتبارنا بالإضافة إلى ذلك أن بين المنطقة الجليدية والمطيرة توجد منطقة انتقالية تتباين في ارتفاعها وعرضها في مختلف العصور بما في ذلك أثناء كل عصر على حدة وفقاً لمختلف المراحل المناخية والتغيرات الفصلية .

وفي العصور ما بين الجليدية فإن الوضع يختلف تماماً ؛ فالتأثير الجليدي يتقلص بشكل ملحوظ إلى أن يتلاشى تماماً أما شبه الجليدي فإنه يقتصر فقط على الجبال العالية وفي الشتاء على الجبال متوسطة الارتفاع . وفي الواقع فإن مناخاً

مطيراً قد رسَّخ على معظم المناطق الجليدية القديمة وكذلك شبه الجليدية أو المحيطة بالجليدية . أمّا في بقية أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية - المناخ المطير المسيطر قديماً - فإنّ مناخاً حاراً وجافاً سيسود وسيغلب عليه بعض الملامح اليابسة .

الشكل الوراثي للنظام الجليدي :

سنشير بإيجاز إلى بعض الخصائص والنتائج لكل واحد من الشكل الوراثي للنظم الجليدية في شبه الجزيرة الأيبيرية ؛ حيث إننا أشرنا إلى أهميتها زمانياً ومكانياً . ففي العصور الجليدية فإنّ الجليد استقر وتركّز في الأجزاء الأكثر ارتفاعاً من سلاسل الجبال الأيبيرية ، والتي بلغت ارتفاعات قممها ١٥٠٠ متر كمتوسط في سلسلة جبال كانتبريا ، وبلغ الارتفاع ١٨٠٠ متر في جبال البرانس ، و٢٠٠٠ متراً في سلسلة الجبال الوسطى ، وحتى ٢٤٠٠ متر في سلسلة جبال سييرا نيفادا ، وكما هو منطقي فإنّ متوسط الارتفاع لابد أن يتزايد لكي يكون به جليد مستمر، ويحدث هذا كلما اتجهنا جنوباً .

واعتباراً من هذه الأغطية كثيرة الثلوج فإنّ الألسنة الجليدية كانت تتجه نحو أسفل الجبل أو قاعدته حتى بلغت في منحناها ٨٠٠ متر كأكصى حد في أراضي سلاسل الجبال الشمالية ، و١٤٠٠ متر في الجبال بالمنطقة الوسطى ، أمّا في المنطقة الجنوبية فإنّ الأنهار الجليدية بالوديان كانت تهبط ما لا يقل عن ١٨٠٠ متر ارتفاعاً . وبهذا الشكل ظلّ متأثراً بالجليد جزء كبير من جبال البرانس وقمم جبال أوروبا والمرتفعات المجاورة في سلسلة جبال كانتبرا وسلسلة جبال سيجونديرا في جبال ليون وبورتين جبليتين في سلسلة جبال أيبيريا (ديمندا أوربيون ومونكايو) وأربعة جبال بالمنطقة الوسطى (سوموسيرا ، جوادراما ، جريدوس واستريا) وسييرا نيفادا في سلسلة جبال النهر الكبير . ونتيجة للنشاط الجليدي فقد ظلّ في هذه المرتفعات والتضاريس البارزة مجموعة من أشكال التعرية (التاكل) مدرجات طبيعية ووديان ... إلخ ومستودعات للطين وركام الأنهار الجليدية ، والتي سنشير إليها في الحالات الأكثر أهمية عند الحديث عن وحدات التضاريس .

النظام شبه الجليدى :

إن عمل وردود فعل هذا النظام لم تدرس حتى الآن إلا قليلاً فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، ومع ذلك فلا يوجد مجال للشك فى أنه إبّان عصور محددة قد أثر هذا النظام على أماكن ومساحات جبلية ، ومن المرجح أن يكون تأثيره قد عمّ معظم الهضبة وكذلك منخفض نهر إيبرو . وقد أُشير مؤخراً إلى أن تأثيره قد امتد حتى وصل فى بعض الأحيان إلى نفس الساحل الشرقى . وعلى الرغم من أن النتائج الشكلية للنظام شبه الجليدى يتم ترجمتها بشيء من التفصيل فإنه من الواضح أن هذا النظام كان عاملاً مهماً فى تشكيل وتكوين مواد قُتّاتية أو فضلاتية وكذلك فى تكوين منحدرات الجبال ؛ ففي العملية الأولى تشترك ظاهرة تفتت الصخور نتيجة الضغوط الناجمة عن تجمد المياه الموجودة بداخلها مما أدى إلى وجود كتلة مهمه من الحصيات والزلط ذات أركان وزوايا مكونة مستودعاً فى أسفل المنحدر . ومن جهة ثانية فإن ظواهر انتقال المواد شبه الجليدية كان لها دورٌ فعال فى تشكيل وتكوين منحدرات الجبال المتوسطة والمرتفعة .

وتقول دراسات حديثة بأن هذا النظام تتعدى أهميته الأماكن والمساحات الجبلية ؛ فالمنحدرات الناجمة عن التعرية التى تظهر فى بعض المناطق ما بين الجبال أو فى محيطها الخارجى كما هى الحال فى بعض المناطق السابقة على جبال البرانس فإن أصلها يرجع إلى النظام شبه الجليدى . وفى الهضبة ومنخفض نهر الأيبرو نجد أن الزلط أو الحصى الناجم عن تفتت الصخور نتيجة ضغوط الماء الذى تجمد بداخلها فضلاً عن بعض المواد اللينة قد لعبت دوراً حاسماً ، وقد ألحت دراسات عديدة مؤخراً على أن كثيراً من المنحدرات الجبلية الناجمة عن التعرية فى هذه الوحدات التضاريسية يرجع الفضل فى تكوينها إلى العصور شبه الجليدية وليس إلى النظام القاحل أو اليابس كما كان يشاع فى الماضى .

النظام القاحل أو اليابس :

فالفترات التى تخللت العصور المطيرة فى أواخر عصر البوليثين والعصر الجيولوجى الرابع سواء الفترات الحارة أو الجافة فإنها تمثل مناطق متعددة من شبه الجزيرة الأيبيرية .

١ - الهضبة والسلاسل الجبلية

نتوء وغطاء الهضبة :

تغطي الهضبة مساحة ٢١٠.٠٠٠ كم^٢ تقريباً ، وسلسلة الجبال الوسطى بمئاتها ، والتي تمر بالهضبة كلها فى الاتجاه الشمالى الشرقى والجنوبى الغربى ، ببساطة من الشرق إلى الغرب تؤدي إلى تقسيم الهضبة إلى هضبتين عاليتين منفصلتين تماماً ؛ فالهضبة الشمالية يتراوح متوسط ارتفاعها ما بين ٧٠٠ و ٨٠٠ متر ، بينما يتراوح ارتفاع الهضبة الجنوبية ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ متر فى قطاعها الداخلى . ويجب أن نأخذ فى الاعتبار أنه فيما يتعلق بالقسم الثانى فإن نتيجة تأرجح الكتلة الهضبية الذى سبق أن أشرنا إليها آنفاً ، بينما نجد أن الطرف أو الحافة الشرقية فى ألبانييتى يبلغ بل يتجاوز ٨٠٠ متر ، أما الجهة الغربية التى تقع فى أراضي إكستريمانورا الإسبانية والميتخو لا يتجاوز متوسط ارتفاعها سوى ٢٠٠ متر وفى القطاعين الأخيرين فإنه إلى جانب ذلك يوجد خلل وتشوه فى مستوى متوسط الارتفاع بالهضبة، والذى يقل تدريجياً وبشكل ملحوظ كلما اقتربنا من المحيط الأطلسى .

فالنوء الهضبي يتكون من مواد توائم جبلاً فريداً فى شخصيته الجيولوجية سواء بسبب امتداده ووضعه المركزى أو لعدم تلاشيهِ عند حدوث الانكسارات الألبية على عكس ما حدث وأشرنا إليه آنفاً بالنسبة لحالات أخرى ؛ ففي هذه القاعدة الواسعة تسود أحجار الجرانيت والأردواز والكواتزيت أو المرمر ، وبوضوح فإن الأمر يتعلق بالتكوينات القديمة التى تكوّنت أو التى انطمرت قبل الانكسار الهرثينيانى الجيولوجى والذى اتجاهاه الأرموريكانى الأصلى واضح تماماً فى قطاعات كثيرة ، وأفضل مثال لهذا الحدث الأخير نلاحظه فى الحواجز المرمرية بوسط إكستريمانورا الإسبانية ، وفى قطاع ينتمى إلى منطقة مرتفعة جداً ويتطور مورفولوجى متميز أى أنه تحت تأثير عوامل التعرية الحالية بدأت فى الظهور الحالة الصخرية القديمة ، ومؤخراً ساد التمسك بأن بعض المواد المعينة للقاعدة الهضبية طاعنة فى القَدَم لوجود على ما يبدو تكوينات بلا شك قديمة .

وفى الوقت الحالى فإنَّ النتوء الذى ينتمى للدهر القديم وما قبل الكامبريكو يكثر فقط فى الجزء الغربى من مساحة الهضبة . أمّا فيما يتعلق بالجزء الشمالى فإنَّ هذا النتوء لا يبرز حتى نقترّب من وادى نهر إيلسا ويمتد فى القطاع الجبلى بتراس أوس مونتيس . وبالنسبة للهضبة الجنوبية على العكس من ذلك نجد أنَّ المواد القديمة تظهر بكثرة فى المنطقة الوسطى وفى كل منطقة أو إقليم إكستريمادورا الإسبانية وفى جزء كبير من الميخو .

أمّا بقية الهضبة الوسطى العليا فعلى العكس من ذلك حيث تظهر مكسوة بمواد نيوجينية أو من العصر الجينى الجديد ، وخاصة فى العصر الميوسينى والموجودة فى قاع حوضين واسعين تكونا عقب الانكسار الألبى بالهضبة الشمالية والجنوبية . ويتعلق الأمر بمجمع للمواد الطينية الأفقية وشبه الأفقية أو تحت الأفقية ، والتى تسببت فى تكوين شكل سطحى أو لوحى ، وهذا هو ما يميز المنظر القشستالى بشكل عام وأرض كامبوس بالهضبة الشمالية أو ديلامنشا فى الهضبة الجنوبية . وأشكال التضاريس تكاد تكون واحدة ؛ ففى هذا الأفق الواسع تبرز هضبة وحيدة أكثر ارتفاعاً (بارامو) وهى محمية عموماً بطبقة من الحجر الجيرى وكذلك بالمنحدر الذى عانى كثيراً من جَرَاء التآكل نتيجة عوامل التعرية على شكل أراضى وعرة .

وفى وحدة السطح لم تؤثر فقط العوامل الصخرية والحجرية البنية ، وفى المنطقة التى يظهر فيها نتوء الدهر القديم تظهر هناك عدة مساحات أو أسطح ناجمة عن التعرية وأقدمها السطح الذى يسبق ترياسيكا والناجم عقب الانكسار فى العصر إيرثينيانو ، ولكن أهم سطح التعرية هو الذى يطلق عليه اسم الرئيسى والذى تمكن من تكوين شبه سهل حقيقى . ومن المتعذر حتى الآن تثبيت زمن أو تاريخ صحيح أو دقيق وعصر تكوين شبه السهل هذا ، ووفقاً لما يراه شوينزنير فقد تمَّ ذلك فى وسط العصر الميوسينى ومع ذلك فإنَّه من المرجح أنَّ يكون تشكيل شبه الوادى أو السهل قد تمَّ فى فترات طويلة طوال جزء كبير من العصر الجيولوجى الثانى حتى عصر الباليوجينى الجيولوجى ، وفى بعض الأحيان إلى بدايات أو أوائل العصر الميوسينى .

وبعد مراحل الانكسار الألبى تكوّن في أواخر العصر الميوسيني الجيولوجى ما يُسمّى بشبه السهل الذى أثر في قطاعات معينة بالجزء العلوى من السطح وكذلك في المواد الثانوية المتراكمة في المحيط الخارجى للهضبة (كما في سولى سابريس) . ومن ناحية أخرى ظهرت انهيارات حديثة ذات قيمة محلية في أسفل منحدرات سلاسل الجبال في أواخر عصر البليوثيرى الجيولوجى وأوائل العصر الجيولوجى الرابع وخاصة في منطقة بيافرانكيا .

وإلى جانب المجارى النهرية الكبيرة ، وخاصة في الجزء الأوسط توجد ثلاث شرفات نهريّة ، أعلاها يبلغ ارتفاعها ٨٠ متراً بالنسبة لمجرى النهر الحالى . ويتعلق الأمر إذن بمستودع طمى أو غرينى لاحق من المحتمل أن يكون قد تمّ تكوينه خلال الفترة قبل الأخيرة أو ما قبل قبل الأخيرة من العصر الجليدى . وجدير بالذكر أن الشرفات أو المشارف النهرية اعتادت الاتصال بمنحدرات التعرية التى تكوّنت في العصر الجيولوجى الرابع ، والتى أثّرت على المواد اللينة للطبقة السطحية المكوّنة في العصر الجيولوجى الثالث .

الدور الرئيسى للهضبة :

إن وجود هذه الهضبة الكبيرة المرتفعة له أهمية كبيرة في مجموعة التضاريس الأيبيرية وعلى وجه الخصوص في إسبانيا . ولنأخذ في الاعتبار أن إسبانيا هي الدولة الثانية في أوروبا التى يبلغ متوسط ارتفاع جبالها ٦٦٠ متراً بعد سويسرا التى تحتل المرتبة الأولى في القارة الأوروبية .

ومن اللائق إبراز أن هذا الارتفاع الشاهق لا يتعلق بكونها شبه جزيرة جبلية على الرغم من ظهور أقواس جبلية قوية ومتينة كما في جبال البرانس وجبال النهر الكبير والجبال الأيبيرية بل يرجع ذلك إلى وجود الهضبة الوسطى ذات المساحة الشاسعة والمرتفعة (كما في شكل ٢ ، ٢) وبالفعل فإنّه بالنسبة لإسبانيا فإنّ متوسط الارتفاع فيها يتراوح ما بين ٤٠٠ و ١٠٠٠ متر ، وهي تشمل أكثر من نصف المساحة

الكلية وعلى وجه التحديد ٥٦,١٪ من الأراضي الإسبانية بشبه الجزيرة الأيبيرية ، بينما نجد أن الأراضي الأكثر ارتفاعاً أقل بكثير : ففي إسبانيا نجد أن الأراضي التي يزيد ارتفاعها عن ١٢٠٠ متراً لا تمثل إلا ٨,٤٪ فقط من أرض شبه الجزيرة أما في البرتغال حيث يغلب على أراضيها الوديان والسهول فإن المساحة الجبلية المرتفعة لا تمثل سوى ٠,٥٪ فقط .

كما أن الهضبة تحدد أيضاً الشكل الموحد تقريباً وهو السمة العامة تقريباً في داخل شبه الجزيرة الأيبيرية فقمم الهضاب التي تتعاقب دون انقطاع وتغطي الأفق باستثناء بعض الصحارى حتى عندما نقرب من المنحدرات الجبلية يمكن أن يحدث أن بعض الأشكال الأفقية أو شبه الأفقية تستمر حتى تصل إلى منحدرات تعرية ملساء أو بعض الكتل المرتفعة أو المنهارة في الجزء العلوى أو المنتهية بركائز أو منصات بناءية ينجم عنها محيط مرتفع الأسطح المنبسطة تقريباً (أراضي مقفرة) ، وهذا المنظر العام فريد داخل شبه الجزر الأوروبية الكائنة بحوض البحر المتوسط ، ولكي نجد شيئاً مشابهاً يجب أن نفكر في الهضاب الجزائرية أو في هضاب أناتوليا كفضل مثال .

السلاسل الداخلية :

إن الهضبة الأيبيرية المرتفعة تقطعها سلسلة الجبال الوسطى ذات التكوين الجبلى من الكتل . وتظهر من الشرق إلى الغرب أربع مساحات كبيرة تتجاوز ثلاث منها ٢٠٠٠ متر في الارتفاع وهى : جريدوس وسوموسيرراً وجواداراًما (ويبلغ ارتفاع قمة المنصور ٢٥٩٢ متراً) أما السلسلة الرابعة فهي جاتا . وفي البرتغال تبرز سلسلة إيستريا (وارتفاعها ١٩٩١ متراً وهى أعلى قمة بالدولة البرتغالية) ، والتي إلى جانب لوساوأزور وجواربونا تشكل الجانب الغربى من النظام الجبلى في البرتغال .

وعموماً فإن الأسطح المرتفعة التي تؤثر على الوجه العلوى لبعض الكتل يمكن اعتبارها بقايا انهيارات تنتمى إلى شبه السهل الرئيسى الكائن بالهضبة . وفي السلاسل البارزة (جواداراًما وجريدوس) نجد آثار العصر الجليدى واضحة جلية

وتمثل أهمية كبيرة في مرتفعات إيستريا في البرتغال حيث كانت الأمطار الجليدية - بلا شك - غزيرة . أما منحدرات التعرية التي أثرت على المواد الترسيبية أو الرسوبية القريبة من الجبل فقد امتدت صوبها وقد اشتبكت مع قاعدة مختلف هذه المساحات أو السلاسل الجبلية .

وجبال طليطلة في وسط الهضبة الجنوبية تشكل نسخة طبق الأصل لما هو في سلسلة الجبال الوسطى في الجنوب ؛ فالكتل الأولى المرتفعة لا تظهر حتى قرب المدينة ومنها أخذت تسميتها جبال طليطلة ؛

وعلى أية حال فإنَّ الارتفاع ملحوظ حيث يبلغ في هذه الجبال ١٥٠٠ متر أما في إكستريمادورا الإسبانية فإنَّ الارتفاع في بيور كاس يصل إلى ١٦٠١ متر وكذلك في سلسلة جبال ألتاميرا وفي البرتغال نجد سلسلة جبال القديس ماميد . وجدير بالذكر أنَّ الأمطار المائية أو الجليدية كانت أقلَّ أهمية نسبياً . وعلى العكس من ذلك فإنَّ تأثير النظم اليابسة أو الجافة مما أدى إلى تكوين صخور كبيرة ، وكذلك إلى تكوين جبال منفصلة فضلاً عن وجود مستودعات للحصى تغطي مساحات واسعة .

٢- وحدات خارجية

لقد أشار بدقة بالغة كاتب إسباني معاصر إلى " أنَّ قشتالة لا ترى البحر " ، والآن لن نضيف فقط في هذا التحليل المقتضب للتضاريس إلى كون الهضبة بعيدة عن البحر المتوسط أو عن المحيط الأطلسي بل أيضاً إلى أنَّ حواف جبلية بارزة تقريباً على طول المحيط الخارجي تفصل بين الهضبة الوسطى والأراضي الساحلية . والهضبة بحزامها الجبلي ظلت كقارة صغيرة داخلية في شبه الجزيرة المرتفعة المسماة بالأيبيرية ، وتبدو الهضبة الشمالية وهي محاطة تماماً بسلاسل جبالها الخارجية من كافة الجهات وكأنَّها حوض أفريقي (كما يقول ب . بيروت) .

الحافة الشمالية الغربية :

يبدأ الحزام الجبلى فى الغرب والشمال الغربى بسلاسل الجبال البرتغالية شمالاً وجبال ليون الإسبانية ، وتتكون الأولى منها من كتل مرتفعة تتجه من الشمال إلى الجنوب . ومن أهم هذه المناطق نجد خيريث ولاروكو (ويبلغ ارتفاعها ١٥٢٥ مترًا) وفى أقصى الجنوب نجد بيدريلا وماراومونتمورو . وفى الشرق نجد أن بين هذه السلاسل الجبلية والحافة الغربية توجد منطقة قاحلة عريضة وهى تراس أوس مونتيس .

وفى جبال ليون فإن الطبقة الصخرية لها أهمية كبيرة نظراً لغلبة المواد التى تنتسب إلى الدهر الجيولوجى القديم وهى مواد أقل صلابة وخاصة الأردواز ، وهناك العديد من المناطق الجبلية المرتفعة مثل سلاسل جبال خيسستريدى وسيجونديرا وتيلينو التى يبلغ ارتفاعها (٢١٨٨ مترًا) وجبال أكيليانوس التى تتجاوز ٢٠٠٠ متر ارتفاعاً . أما أسطح القمم الجبلية فقد تأثرت بالعصر الجليدى فى مرحلة ريسو تقريباً ؛ حيث تكونت قبعات جليدية مما أدى إلى ظهور أشكال هضبية كما حدث فى منطقة جبال الألب الإسكندنافية خلال عصر الورم سادت الأنهار الجليدية فى الوديان . إن جميع الأشكال والمستودعات الناتجة عن ذلك تبدو بوضوح بالقرب من جبل تريينكا فى سلسلة جبال سيجونديرا .

سلسلة جبال كانتبريا :

هى عبارة عن مجموعة من الكتل الجبلية المرتفعة والمتصلة ، وهى تمثل الحافة الشمالية للهضبة . وعلى الطرف الآخر توجد سهول ساحلية ضيقة وشبه ساحلية عندما لا تصل المنحدرات الجبلية إلى بحر كانتبريا مباشرة . والمناطق الأكثر ارتفاعاً تظهر فى القطاع الغربى ، وهى مكونة من مواد ترجع إلى العصر الجيولوجى القديم ومن أبرزها قمم أوروبا التى يصل ارتفاع فى ثيريدو ٢٦٤٨ مترًا ، وفى هذه القمم

تظهر بوضوح آثار العصر الجليدى . إن أهمية هذا المرتفع ترجع فى إعاقته للاتصالات مع الساحل، ومن هنا كان لازماً إعداد ممرات جبلية وخاصة فى بخاريس .

فالقطاع الجنوبي الذى يمتد فى الجبال الباسكية يتكون من مواد ثانوية فى معظمها أحجار جيرية ، أما الثنايا فقد كانت أقل عنفاً بصفة عامة ، ولهذا توجد أمثلة ممتازة للطراز الصخرى الذى ينتسب إلى العصر الجوراسى الجيولوجى . وفوق هذه المواد الجيرية تكون شكل كارسى الذى أثر على الأحجار الجيرية التى ترجع إلى العصر الجيولوجى القديم بالقطاع الغربى الذى يوجد به كثير من القمم والكهوف والمغارات؛ حيث عاش فيها الإنسان فى العصر الحجرى القديم (كما فى التميزا وكاستيلو ... إلخ) ومنخفضات سطحية (كما فى حوض سانتيانا على سبيل المثال) .

السلسلة الأيبيرية :

إنها تفصل الهضبة عن منخفض الأيبىرو، ويرجع تعقيد هذه السلسلة إلى تكوينها الحجرى والصخرى . وبالفعل تكثر فى بعض القطاعات المواد الأولية كما فى سلسلتى ديماندا وأوربيون بينما فى الباقى تغلب عليها المواد الثانوية ، ولكن هذه المواد تأثرت كثيراً بانكسارات النتوء الذى ينتسب إلى العصر القديم مما يؤدى فى بعض الأحيان إلى طراز ساكسونى واضح ، ويبدو استمرار شبه السهل الرئيسى للهضبة نجم عنه تكوين امتداد مرتفع ومشوه لهذا السطح المنهار أو المتهدم . إن بقايا العصر الجليدى أثرت بوضوح على بعض الأماكن وعلى وجه الخصوص سلاسل جبال أوربيون ومونكايو .

وجدير بالذكر أن جزءاً من السلسلة الأيبيرية يمكننا حصره فى محور جبلى حيث تظهر به أعلى الارتفاعات مثلما هو الحال فى سلاسل جبال ديماندا وأوربيون ومونكايو (٢٢١٢ متراً) . واعتباراً من وادى نهر خيلوكا توجد جبهتان : الأولى قريبة من منخفض الأيبىرو مع سلاسل جبال جودار وخيلامبرى وتنتهى بالقرب من البحر المتوسط ، أما الثانية فتبدأ بسلسلة جبال البرأتين وتنتهى بالحافة القطبية .

وبين الجبهتين نجد السهل الصخري لقلعة أيوب - ترويل . وجملة الأمر أن الجبهتين تشكلان أحد الأقواس الجبلية الأكثر صلابة ومتانة والأكثر اتساعاً في شبه الجزيرة الأيبيرية بأسرها .

سلسلة جبال سيّرامورينا :

تُظهر الهضبة من الجانب الجنوبي انقطاعاً واضحاً من أصل صخري ، وهناك مجموعة من الانكسارات يمكن أن تنحصر فقط في صدع أو شق واحد كبير المُسمى بصدع الوادي الكبير، والذي يتجه من الشمال الشرقي إلى الشرق والجنوب الغربي إلى الغرب ويؤثر بوضوح على البروز أو النتوء الهضبي . أما المقصورة المنهارة فإنها تنسب بجلاء إلى القاعدة المغطاة تماماً أو المتحجرة بمواد لاحقة للمنخفض الحالي للوادي الكبير .

وبهذا الشكل فإن سلسلة جبال سيّرامورينا تنحصر في الحافة الجنوبية للنتوء الهضبي الجزئي أو المقسم وبه بعض الكتل المرتفعة . أما المواد المكونة له فهي تنتسب تماماً إلى نفس المواد التي تتكون منها القاعدة الهضبية ، ومن الصعب القول بأن سلسلة الجبال في مجموعها بدأت اعتباراً من صدع حدث هناك ، أو بعبارة أخرى نتيجة انثناء . وعلى أية حال فإن التآكل اللاحق اعتباراً من المسارات الجنوبية كانت حاسمة في عملية الانفصال ؛ ولهذا الأسباب فإن سلسلة جبال سيّرامورينا تظهر من خلال الهضبة كجبهة أقل بروزاً أو ارتفاعاً حيث يتراوح متوسط ارتفاعها ما بين ٤٠٠ و ٥٠٠ متر فوق مستوى السطح الهضبي . ولنأخذ في الحُساب أن أعلى قمة في سلسلة جبال مادرونا وهي قمة بانيويلا يبلغ ارتفاعها ١٢٢٣ متراً ، وعلى العكس من ذلك فإن في قاع منخفض النهر الكبير توجد سلسلة جبال سيّرامورينا كحائط جبلي هائل مع اختلال مطرد في مستوى ارتفاعه في المنحدرات الجبلية المتفتنة من جرّاء التعرية .

٣- وحدات التضاريس الخارجية :

وندخل الآن فى دراسة وحدات التضاريس الكائنة بين الهضاب ، ونميز بين المنخفضات الأقواس الجبلية وما يمكن أن نسميه على وجه الخصوص بالجبهات الساحلية .

١- المنخفضات :

وأول خاصية تلمحها عند ملاحظة وحدات التضاريس الخارجية هى وجود ثلاثة سهول كبيرة تقوم بتوسيع أراضي شبه الجزيرة الأيبيرية فى المنطقة الشمالية الشرقية والجنوبية والغربية . ونحن نشير إلى منخفضات نهر الأيبرو والوادي الكبير والتاخورسادو. وجدير بالذكر أن المنخفضات الثلاثة لها مميزات وخصائص مشتركة لكونها متكونة نتيجة تتابع الأراضي السهلية المنبسطة والمنخفضة نسبياً ولكونها أيضاً مغطاة بمواد لينة أودعت فى آن واحد أو فى وقت لاحق لمراحل الانكسار الألبى ، كما أن المنخفضات الثلاثة تُكوّنُ إلى جانب الأماكن الرسوبية بالهضبة ما نسميه أو ما نطلق عليه اسم أيبيريا الطينية . وفيما يتعلق بأشكال التضاريس فإن شكلاً سطحياً يحاط بمواد صلبة لحماية هذا السطح المستو (مثل الأحجار الجيرية والرمال) وكذلك شكلاً يمثل المناطق القاحلة فى المنحدرات التى يغلب عليها الطفل الجبرى أو الكسى .

منخفض الأيبرو :

و لكن الخصائص المشتركة تنتهى هنا . فالتحليل لكل وحدة على حدة يبرز اختلافات عميقة بينها فيما يتعلق باتجاهها وتكوينها وتطورها المورفولوجى . فمنخفض الأيبرو أو ايبيرىكا يبدو متجهاً صوب البحر المتوسط ولكن تفصله عنه سلاسل جبال كتالونيا الساحلية ومن ناحية أخرى فإن جبهتين جبليتين كسلسلتى جبال البرانس والأيبيرية تحدان المنخفض من الجهتين الأخريين ؛ فمنذ العصر

الأوليغوثينو بدأت عملية ترسيب قارية استمرت طوال عصر الميويثينو الجيولوجى وقد أودعت بالمنطقة أملاح الصوديوم والبوتاسيوم - تسببا فى ظواهر مهمة مثل انتقال الصخور إلى المناطق العليا وقيام هذه الأملاح بتفتيت الطبقات الصخرية الكائنة بالمنطقة التى استقرت بها - وجدير بالذكر أن هذه الأملاح كانت موجودة بين الطُّفْل الجيرى أو الكلسى . وفوق هذه الصخور تكونت منحدرات تعرية مرتفعة فى المحيط الخارجى ومستمرة فى التضاريس العالية المستوية تقريباً وهى أقل ارتفاعاً فى أسفل أو فى عمق الوادى وتتصل بأعلى المشارف النهرية ، وتبدو هذه المشارف النهرية منفصلة ويبلغ عددها أربعة مشارف أو خمسة وذلك فى وادى الأيبرو الوسيط وكذلك الوادى المنخفض لروافده الرئيسية .

منخفض الوادى الكبير :

إنَّ المنخفضين الآخرين يختلفان عن منخفض الأيبرو يتجهان صوب المحيط الأطلسى إلى جانب كونها معرضة لتأثيراته لأنها تنتهى بمسطحات أفقية مائلة قليلاً تتصل بالشواطىء والخط الساحلى ، وأفضل خاصية يتميز بها منخفض الوادى الكبير أو منخفض جنوب الأندلس المطل على خليج قادش بالقرب بما يُسمى ببحر جبل طارق . ومن الجانبين الآخرين نجد أنَّ المنخفض تحُدُّه سلسلة جبال سيرامورينا فى الشمال وبالقوس الصلب لسلسلة جبال جنوب الأندلس أو النهر الكبير شرقاً وجنوباً . أما خلفية المنخفض فهى مرتفعه قليلاً ولنأخذ فى اعتبارنا أنَّ نصفه تقريباً لا يتجاوز ١٠٠ متر ارتفاعاً .

وبالإضافة إلى هذا التناقض فى الاتجاه والشكل توجد اختلافات ملحوظة بالنسبة لمنخفض الإيبرو ؛ فالوادى فى مجملها حديثة ومن أصل بحرى وتكوينها أقل سمكاً وبالتالي فإنَّ عوامل التعرية ذات تأثير ضئيل والسطح عبارة عن تتابع لتلال مرتفعة قليلاً . أما الطمى أو الغرين فقد قام بحشو الجبهة الأطلسية الواسعة التى يبلغ عرضها ٣٠٠ كم عند مدخل المنخفض المذكور آنفاً ، ولكن فى الواقع فإنَّ السهل الساحلى يمتد صوب الغرب عبر الأراضى المنخفضة فى أوليبا والغرب .

منخفض تاخو - سادو :

تفقد الهضبة من جرأ عوامل التعرية والإنكسارات والانشئات ارتفاعها شيئاً فشيئاً، وخاصة عند حافتها الغربية حتى يتلاشى هذا الارتفاع تحت مواد أكبر حوض رسوبي بالبرتغال . ويجتاز هذا المنخفض من قطاعه الشمالى نهر التاخو وكذلك بالمسارات التي تتجه صوب واديه المنخفض نهر ريبا تىخو - ويصر لاباخا . أما القطاع الجنوبي فإنه ينتمى تقريباً إلى الحوض المائى لنهر السادو وبعض الوديان حيث تتجه إلى مصبه وخليج سيتوبال .

إن المواد التي تكسو منخفض تاخو - سادو تسجل عمليات المد للمحيط الأطلسى فى هذا الخليج القديم ! أحجار جيرية ترجع إلى العصر الميوسينى من أصل بحرى طين وأحجار جيرية قارية من عصر الميوسينى الأول ومواد متنوعة تنسب إلى العصر البليوثينى الجيولوجى من أصل بحرى من جديد، وعلى الضفة اليسرى العريضة والمنبسطة - على العكس تماماً من الضفة اليمنى الضيقة جداً لقربها من الجبال التابعة لسلسلة إكستريمادورا البرتغالية - فقد تراكمت وتجمعت كميات هائلة من الطمي أو الغرين التي تنتمى إلى العصر الجيولوجى الرابع مما أدى إلى تكوين العديد من المستويات فى المشارف النهرية .

دور السهول أو الوديان :

إن دراسة هذه المنخفضات الكبيرة الثلاثة يضطرننا إلى تحليل قيمة المناطق المنخفضة والمستوية وورها فى تضاريس شبه الجزيرة الأيبيرية ، وتستضيف إلى ذلك وجود بعض السهول الساحلية التي سنتحدث عنها فيما بعد . وجملة الأمر أنه ثبت بكل وضوح أن الأراضي المنبسطة أو السهلية تلعب دوراً قليلاً أو هامشياً . ولناخذ فى حسابنا أيضاً أنه فى بعض الحالات أنها عبارة عن مناطق ارتفاعها ملحوظ كما فى منخفض الإيبىرو حيث تتجاوز خلفيته ٢٠٠ متر ارتفاعاً ، وهذا بالإضافة إلى وجود

مواد مشابهة ذات تطور شكلي وتكويني متشابهين مما جعل بعض المؤلفين يعتبر منخفض الإيبيرو والأغطية التي تنتسب العصر الجيولوجي الثالث وحدة تضاريسية هضبية .

إن أهمية المناطق السهلية هامشية فيما يتعلق بإسبانيا حيث إن ٩, ١٠٪ فقط في أراضي شبه الجزيرة الأيبيرية يقل ارتفاعها عن ٢٠٠ متر . أما في البرتغال فإن الاتساع النسبي لمنخفض تاخوسادو وقلة ارتفاع المتيخوا السفلى والعرض الذي يبلغ في بعض الحالات بالسهل الساحلي فإن الأراضي لا يبلغ ارتفاعها ٢٠٠ متر، ومع ذلك فإن الأراضي السهلية تمثل ١, ٤٣٪ من المساحة الكلية .

ولكن الهضبة في شبه الجزيرة الأيبيرية تلعب دوراً مهماً وبارزاً كما أسلفنا في تضاريس المنطقة . وبخاصية أخرى تعضد هذا الأمر . فإن الهضبة تبدو وكأنها كل متصل ومتناسق . أما المنخفضات المتنوعة والسهول بشبه الجزيرة الأيبيرية فهي بوضوح غير متصلة ومجزأة كوحدات منعزلة في مجمل أرض شبه الجزيرة ، ولا يوجد في شبه الجزيرة الأيبيرية وحدة تضاريس تشبه هذا السهل الواسع في أوروبا المطلة على المحيط الأطلسي وأوروبا الوسطى التي تتسع بشكل تدريجي كلما اتجهنا شرقاً . والمنخفضات تبدو متفرقة ومنغلقة على نفسها لكونها محدودة بجبهات جبلية مما يصعب الاتصال بينها في معظم الأحيان .

٢ - سلاسل الجبال

إن عدد وتنوع واختلاف الوحدات التضاريسية يتضاعف كلما اقتربنا من المحيط الخارجي لشبه الجزيرة الأيبيرية ، ويبرز هناك قوسان جبليان كبيران هما جبال البرانس وجبال الوادي الكبير أو جبال جنوب الأندلس، والتي تمثل المناطق الأكثر ارتفاعاً بمختلف شبه الجزيرة الأيبيرية ، ولكن تظهر بالإضافة إلى ذلك بعض الجبهات الجبلية صغيرة المساحة وسندرسها على حدة .

جبال البرانس :

من وجهة النظر الحجرية - على وجه الخصوص - لزماً علينا أن نقسم جبال البرانس إلى قطاعين مختلفي الخصائص ، هذا فضلاً عن الجبهات الجبلية البرانسية الفرنسية الكائنة بالشمال؛ ففي الوسط ترتفع وحدة تضاريسية تؤلف محور سلسلة الجبال . ولهذا فقد أطلق عليها البرانس المحورية . وقبل الوصول إلى هذه الأماكن الداخلية تظهر جبهات جبلية أخرى بمواد مختلفة أقل ارتفاعاً بشكل عام وهي التي يطلق عليها اسم ما قبل جبال البرانس .

ففي جبال البرانس المحورية تظهر تكوينات تنتسب إلى الدهر الجيولوجي القديم مكونة بهذا الشكل جزءاً من أيبيريا السليكية، ويمكن افتراض أن الأمر يتعلق بمواد ترسيبية لجبل طويل وقديم جبل البرانس الذي كان بمثابة مدخل للدولة في الانكسارات الألبية التي تجزأت إلا أنها بقيت متماسكة بالثنايا أو الطيَّات إلى أن ارتفعت من جديد بعض كتلها نتيجة التحركات الأخيرة التي أشرنا إليها سابقاً . وحديثاً فإن بعض المؤلفين قد انتقدوا وجود هذا الجبل البرانسي إبَّان العصر الجيولوجي الثاني ، ويعتقدون أن المواد المحورية قادمة من القاعدة الحجرية القديمة تنتمي إلى العصر الجيولوجي القعيري . وليكن ما يكون فإنَّ جبل البرانس الداخلي يمثل الأماكن الجبلية البارزة في كل السلسلة الجبلية وخاصة في الجزء الأوسط : يوستيس ولاراندانا أو قمة نوستيس (٣٣٧٥ متر) لاملاديتا مع أنيتو (٣٤٠٤ متر) واستناداً إلى هذا الارتفاع فإن الأمطار الجليدية كانت غزيرة إبَّان العصور الجليدية وقد بقيت كثير من الآثار بهذا الشكل المورفولوجي : مدرجات طبيعية مغلقة ، منحدرات منبسطة حيث توجد بها بحيرات (مثل ايونيس في أراجون) ، وديان جليدية وأقواس ، وقد كان العصر شبه الجليدي مهماً أيضاً ، وقد أثر في قاعدة كثير من المنحدرات وأساسها .

سلسلة جبال الوادى الكبير أو جبال جنوب الأندلس :

إننا مضطرون لاستخدام صيغة الجمع ؛ فالأمر يتعلق بقوس جبلى طويل وعريض يشمل المنطقة من مضيق جبل طارق حتى نهاية ناو ، ومن الساحل حتى منخفض الوادى الكبير أو حتى الحافة الجنوبية الشرقية للهضبة - وهو قوس معقد تماماً - كما فى حالة البرانس يبدو هذا تناقضاً داخلياً طبقاً للمواد الحجرية المختلفة ، ولكن المشكلة الحقيقية تظهر عند تحليل البنية أو التركيبية الصخرية المتنوعة والصعبة التفسير أو الشرح هذا بالإضافة إلى قرب البؤرة التى خرجت منها الاندفاعات الملموسة والخاصية الشحمية لبعض المواد ، وسنتعرف على وحدتين كبيرتين طبقاً للتسمية التى أطلقها الجغرافيون الإسبان عليها : سلسلة الجبال المجاورة للوادى الكبير بجوار الساحل بالقرب من جبل طارق وحتى نهاية بالوس وسلسلة جبال الوادى الكبير المنخفضة فى الداخل .

سلسلة الجبال المجاورة للوادى الكبير :

وهى جبال صخرية نظراً لغلبة الصخور فى تكوينها وتتألف من تكوينات تنتسب إلى الدهر الجيولوجى القديم ، وتنتمى إلى القوس الداخلى للانكسار أو الانثناء بمواد أصلية وشبه أصلية (كما هى الحال فى سلسلة جبال سيّرانيبادا) وجبال البوخاراً من جنوب سيّرانيبادا ومالقة ؛ وأفضل وأدق شرح صخرى مازال يثير الكثير من المشاكل يجب أن ندرجها فى إطار التطور الذى حدث للمناطق الخارجية لغرب البحر المتوسط ؛ فأكبر المرتفعات بسلسلة جبال الوادى الكبير أو جنوب الأندلس تظهر فى هذه الوحدة فى البؤرة الكبيرة بسيّرانيبادا؛ حيث يوجد بها أقصى ارتفاع بشبه الجزيرة الأيبيرية بأسرها قمة مولاي حسن التى يبلغ ارتفاعها ٣٤٧٨ متراً .

سلسلة جبال الوادى الكبير السفلية :

وهى لا تنتسب فقط إلى السيطرة الصخرية فى بنيتها بل إلى ما قبل الوادى الكبير وربما " بينيتيكو " مما يثير مشكلة فى التسمية يمكن أن تنطوى على خطأ،

والمعروف أن هذه السلسلة تنتمي إلى القوس الخارجى للانتشاء أو للانكسار . وتتسبب مواد هذه السلسلة إلى العصر الجيولوجى الثانى والعصر الفجرى الجيولوجى ؛ حيث تسود الجيريات والجصيات والطفلية أو الكلسية ، ولا توجد - فيما يبدو - انهيارات أرضية مهمة ، ولكن تراكمات محلية أثرت بشكل خاص على السلسلة السفلية للوادى الكبير . ويظهر أيضاً مكان جبلى بارز فى الجزء الأوسط فى سلسلة كاثورلا وسيجورا وساجرا (٢٣٨١ متر) بحيث تؤلف مركز المنخفض المائى حيث تنبع الأنهار الجنوبية مثل الوادى الكبير وسيجورا .

وجدير بالذكر أن الأهمية الهامشية للعصر الجليدى أدت إلى تحديد سطح القمم كما حدث فى سيرانيادا مما أدى إلى وجود سطح موحد رتيب وممل يتناقض تماماً مع سلسلة الجبال المستننة فى شكلها وهى جبال البرانس . وفى المواد الكلسية تظهر أمثلة ممتازة لقطاعات كارسكية فى المنخفضات المستديرة فى أنتيكيرا أو فى الأماكن الجيرية فى سلسلة مرتفعات سيجورا .

وحدات خارجية أخرى :

إن محيط شبه الجزيرة الأيبيرية محاط بعدد كبير من الجبهات الجبلية إلى جانب تلك التى أسلفنا الحديث عنها مما يضيف عليها كثيراً من التنوع ، ويتعلق الأمر بوحدات متسعة قليلاً إذا ما قورنت بالتى دُرِسَتْ حتى الآن ولكن معقدة للغاية؛ فبالنسبة لأكستريمادورا البرتغالية التى وصفت بحق على أنها متحف مورفولوجى حقيقى (على حد قول دارين) ويمكن أن ينطبق هذا الوصف على سلاسل الجبال الساحلية الكتالانية .

إن الزاوية الشمالية الغربية يظهر بها المجمع التضاريسى الجاليثى الذى تكون من مواد الجبل القديم التى تكسرت بشكل جيد ؛ ففى الوسط والجنوب - على وجه الخصوص - توجد كتل واسعة مرتفعة تتناقض تماماً مع مختلف الحفرات الصخرية التى يبرز من بينها بيرثو ومونفورتى ورأس مانشينيدا فى سلسلة جبال كيخا ، والتى يبلغ طولها ١٧٧٨ متر .

أما الثانية فإنها تمثل جبهتين متوازيتين عند الساحل يفصلها منخفض من أصل صخري ، وهى مكونة من مواد مختلفة من البقايا الجيولوجية القديمة للجبل الكتالانى الباليارى (مونتسينى وارتفاعه ١٧١٢ متر) وكذلك من القاعدة - المتراكمة فى مونتسيرات من الحوض الرسوبى فى الأيبرو .

وفى أراضي البرتغال يظهر مثالان من المسماة أيبيريا الجيرية ، وهى عبارة عن مواد تنتسب إلى العصر الجيولوجى الثانى ، وهى مودعة فى الحافة الغربية للجبل الأوسط الكبير التى انطوت فيما بعد ، وعند الجنوب حيث يطل على السهل الساحلى فى الجارى تظهر جبهة مونشيكي التى يبلغ ارتفاعها (٩٠٢ متر) وكالديراو . بالإضافة إلى ذلك نجد قوساً جبلياً أكثر اتساعاً وتعقيداً فى أكستريمادور البرتغالية وتتمثل فى سلسلة جبال مونتيخونتو (ويصل ارتفاعها إلى ٦٦٤ متر) وكانديروس .

٣- سواحل شبه الجزيرة الأيبيرية ومجموعة جزر الباليار:

إن المحيط الساحلى لشبه الجزيرة الأيبيرية متنوع جداً : فأحياناً نجد أن السهول تضيق بشكل ملحوظ وتصل إلى درجة التلاشى عندما تصل المنحدرات الجبلية إلى الساحل ، وأحياناً أخرى نجدها واسعة وعلى وجه الخصوص عندما تلامس المنخفضات الخارجية . وخلاصة الأمر تُظهر بوضوح الخاصية الجبلية للسواحل الأيبيرية المزودة ببعض النتوءات البارزة ، وهذه هى خاصية أدت إلى المساهمة فى الشكل الحالى لشبه الجزيرة الأيبيرية كما أسلفنا سابقاً .

جبهة المحيط الأطلسى :

ففى الساحل الشمالى نجد أن سلسلة جبال كانتبريا تصل كثيراً إلى البحر مما أدى إلى ظهور ساحل مرتفع ملىء بالجروف الصخرية . إن التحركات الأيوستاتيكية

تسببت فى تكوين منصات متنوعة (وهى منبسطة) عند المنحدرات الساحلية ، هذه المنصات المنبسطة تبدو وقد غلبت عليها الأسطح الناجمة عن عوامل التعرية التى يرجع أصلها إلى أصل قارى التى سوت أو بسطت بعض سلاسل الجبال مما أدى إلى إطلاق تسميات ذات مغزى عليها مثل " السلاسل المستوية أو المنبسطة " بالقرب من الساحل . ويتوغل البحر عن طريق أخاديد أو خنادق عميقة عمودية على الساحل وهى غالباً من أصل صخرى ، وتبدو المنطقة الجاليثية متأثرة فى جبهتها الساحلية بالعديد من الأنهار الصغيرة المكتظة بالجروف الصخرية وخاصة عند المحيط الأطلسى .

إنَّ السهل الساحلى يتسع بشكل ملحوظ فى البرتغال ، وخاصة بجانب المنطقة المستوية أو المنبسطة التى تحيط بالبحيرة الساحلية التى يطلق عليها اسم أيبرو وأمام منخفض تاخو- سادو . وفى الجروف الصخرية لشبه جزيرتى ثينترا وارأبيدا ، والتى يبقى بينها مصب بحر لا باخا إلى جانب قَرْنَى دوكا وإيسبيتشيل حيث توجد بعض المنصات البحرية بينما نجد أنَّ المنصات العلوية مشوهة .

وتسود الأراضى المنخفضة فى القوس الجنوبى الغربى الكبير ؛ ففى الجارى نجد أنَّ السهل الساحلى يقتصر على قطاع أو شريط طويل ضيق ، ولكن كلما اتجهنا شرقاً يتسع السهل الساحلى تدريجياً حيث منخفض الوادى الكبير . وقد أشرنا سلفاً إلى أنَّ الطمى أو الغرين ملأ مناطق المستنقعات للقطاعات المنخفضة كما يحدث فى لاس ماريسماس بأشبيلية وعلى نفس الساحل تظهر شرائط وأسهم رملية كمثال عظيم وممتاز فى شواطئ أريناس جورداس .

جبهة البحر المتوسط :

إنَّ منحدرات سلسلة جبال جنوب الأندلس توجد فى معظم الساحل الجنوبى للبحر المتوسط ، والساحل غالباً ما يكون ملئاً بالجروف الصخرية ، والشكل الأفقى فى مجمله جبلى ، وجدير بالذكر أنَّ أجزاء ساحلية مشابهة تتناوب بكثرة على الجبهة الساحلية للبحر المتوسط من قرن جاتا على قرن بالوس بسبب منحدرات سلسلة الجبال

المجاورة للوادي الكبير . ومما يذكر أن بروز قرن ناو فى سلسلة جبال الوادي الكبير وحتى قرب ساحل بالينثيا تصل سلاسل جبلية فرعية من سلسلة جبال أيبيريا ، وسلسلة الجبال الساحلية التى تمتد بالساحل الكتالانى من الجروف الجيرية فى جارف إلى الجرانيتية فى كوستايرابا بخيرونأ ، فالخنادق أو الأخاديد الساحلية محدودة وقليلة العمق بسبب التعرية التفاضلية أو الانتقائية ، وتظهر أيضاً أمثلة هامة كما فى كوبيى (محافظة مورثيا) وإفاك (محافظة اليكانتى) وبينيسكولا (فى كاستيون) .

وتناقض مع القطاعات التى درسناها حتى الآن حيث تسودها السهول الساحلية . وأحياناً تكون واجهات ضيقة حيث تراكت المواد الحديثة كما يحدث فى لامارينا فى محافظة اليكانتى وفى لاماريسما باقليم كتالونيا ، وفى بعض الأحيان تتسع السهول كما يحدث فى عمق خليج بالينثيا ، ويمكن أن تظهر حينئذ بحيرات ساحلية أو البحيرات المالحة القريبة من البحر فى حالة مختلفة من النمو : وأكبر مثال لذلك بحيرات أليكانتى وإيلشى ، والإنسان ومن ناحية أخرى - تعود بشكل حاسم إلى التقلص التدريجى لبحيرة بالينثيا بينما نجد أن البحر المسمى بالبحر الأصغر مازال يكون مثلاً ممتازاً من بحيرات هذا النوع ، والقطاعات الدلتية التى تكثر على ساحل البحر المتوسط أدت إلى وجود سطح متميز . إن هذه الدلتات تكون مخروطات من الطفح البركانى سواء فى منحدره أو لسمك مواده التى يتكون منها ، وأكبر الدلتات اتساعاً ونمواً تظهر عند مصب نهر إيبرو .

جزر الباليار:

على الرغم من أننا أشرنا بإيجاز لبعض ملامح وخصائص مجموعة جزر الباليار التى تتكون أساساً من جزيرة إيببثا ومايوركا ومينوركا (وتبلغ مساحة كل هذه الجزر (٥٠١٤ كيلو متر مربع) ، وفى كافة الاتجاهات نجد أن جزر الباليار تعتبر فعلاً امتداداً لأراضى شبه الجزيرة الأيبيرية ، وبهذا الشكل تتداخل بعمق اعتباراً من قرن ناو صوب الشمال الشرقى فى حوض غرب البحر المتوسط .

وهذا الأمر لا شك فيه فيما يتعلق بالطابع الجيولوجى فجزيرة إيبيثا يفصلها ٩٠ كيلو متراً فقط عن قرن ناو ، وتمثل مايوركا امتداداً لهذه الأراضى سواء لبنيتها الحجرية أو الصخرية ذات القوس الكبير بسلاسل الجبال المجاورة للوادى الكبير ، والجزيرة الأولى (إيبيثا) هى ذات سهول محدودة وتلال كثيرة ، وتنتمى هذه إلى العديد من القشرات المتحركة وهى قليلة الارتفاع ؛ فهى لا تتجاوز بأية حال من الأحوال (٤٧٥ متراً فى اطلاليسا) ، وتعتبر تضاريس جزيرة مايوركا مختلفة فالقاعدة المركزية تتكون من مواد تنتمى إلى العصر الميوسينى الجيولوجى والعصر الجيولوجى الرابع وهذه المواد أفقية ويحدها خليجان كبيران ، خليج بالم وخليج ألكوديا ، وكذا السلاسل الجبلية الشمالية (مثل بويج ماجورى سون توريس و يبلغ ارتفاعها ١٤٤٥ متراً وسلاسل ليبانتي الجبلية ذات التركيب أو التكوين الصخرى وأمثلة مهمة من المورفولوجى الكاريسىكى .

أما جزيرة مينوركا فهى فريدة فى تضاريسها ، لكونها موحدة حيث تسودها الأشكال السطحية ، وتظهر بالجزيرة مواد تنتمى إلى العصر الجيولوجى القديم ، وهى عبارة عن بقايا كتل الجبل الكتالانى الباليارى القديم أو القاع المغمور للعصر الجيولوجى القيعرى بالبحر المتوسط .

مضيق جبل طارق :

تمثل سلسلة جبال الأندلس أو جبال الوادى الكبير وخاصة عند طرفها الجنوبى الغربى بروزاً فى اتجاه ميديوديا كلما اقتربنا إلى الأراضى الأفريقية ، وبهذا الشكل فإن قارتى أوروبا وأفريقيا تصبحان قريبتان نسبياً ؛ حيث يفصلهما فقط مضيق جبل طارق والذى يبلغ طوله من تريس إيرماناس إلى تريس ١٤ كم فقط ، ويتزايد العمق صوب القاع الشرقى حيث يتجاوز فى قطاع ضيق ٨٥٠ متراً .

ولقد أشرنا أنفاً إلى أن المضيق وحد بين أراضى قارتى أفريقيا وأوروبا أكثر من فصله بينهما ، ومن ناحية أخرى فإن المواد الحجرية متصلة على الجهة الأخرى

أو الساحل الآخر للبحر المتوسط ، فجبال الريف المكونة من مواد تنتمي إلى الدهر الجيولوجي القديم يمكن اعتبارها امتداداً لسلسلة الجبال المجاورة للوادي الكبير ، وفي نهاية الأمر فإنها تتعلق بمواد مطمورة حتى الآن ، ولكنها صخرية متينة تنتمي إلى الجبل القديم بإقليم الأندلس .

ونظراً لوضع وموقع مضيق جبل طارق اللذين يتمتعان بأهمية استراتيجية فريدة لا يمكن أن نغفلها أو نمر عليها مرَّ الكرام ، ولناخذ في الحسبان أنه - بالفعل - القناة الطبيعية الوحيدة بالبحر المتوسط والوحيدة التي تربط أيضاً هذا البحر بالمحيط الأطلسي الواسع ، وباقتضاب يعتبر المضيق البوابة الغربية الكبرى للبحر المتوسط ، ومنها تنتقل كميات هائلة من المياه البحرية ، وعلى الصعيد البشري ، ولكي نشير إلى واقعة ليس بوسعنا الإسهاب فيها وهي أن مضيق جبل طارق يعتبر أهم مكان للمرور والملاحة العالمية وكذلك للاتصالات والنقل البحري حيث يفوق في ذلك قناتي السويس وبينما - وفي عام ١٩٦٧ ، وعلى الرغم من أن المضيق مرَّ بأزمة ما ، فقد استطاعت أكثر من ٥٠٦٠٠ سفينة عبور المضيق وهي تحمل على متنها ٤٧٥ مليون طن من البضائع والمنقولات ، أما في عام ١٩٦٦ فقد عبرت المضيق ٦٢ ٧٣ سفينة ، بينما عبرت قناة السويس ٢٠٠٠٠ سفينة فقط ، وقناة بنما ١١٨٠٠ سفينة فقط .

الهوامش

١- الجغرافية الطبيعية لشبه الجزيرة الأيبيرية - انظر الأعمال المذكورة ضمن مراجع الفصل الأول .
ويهمنا إبراز كتابين وهما يمثلان المحاولة الأولى لتقديم صورة كاملة للملامح والخصائص الطبيعية لشبه
الجزيرة الأيبيرية أو لمعظمها وخاصة تضاريسها الأول : خ. دانتين : موجز فسيولوجي لشبه الجزيرة
الأيبيرية ، مدريد ، ١٩١٢ ، وكذلك ١٩٤٨ ، والثاني إلى إيرنانديث باتشيكو موجز جغرافي طبيعي وفسيولوجي
وجيولوجي لإسبانيا ، مدريد ١٩٣٢ .

٢ - دراسات عامة عن تضاريس شبه الجزيرة الأيبيرية - وأكبر مرجع لهذا الموضوع نجده
في الجزء أو المجلد الأول من جغرافية إسبانيا والبرتغال (تحت إشراف م. تيران) وسولية سباريس ، ن
لوبيث التضاريس ، برشلونة ، ١٩٥٢ ، حيث توجد به مراجع كثيرة بكل فصل على حدة . دراسات تخصصية
ذات موضوع واحد - وسنشير فيما يلي إلى بعض المراجع والأعمال ذات الأهمية المورفولوجية ، والتي نُشرت
عقب الكتاب الذي ذكرناه . فبالنسبة للواجهة الغربية نجد كتاب ب . بيروت ول . سولية سباريس : أبحاث
مورفولوجية للشمال الغربي لشبه الجزيرة الأيبيرية ، باريس ، ١٩٥٢ ، ج. سبيثويسكي العصر الجيولوجي الرابع
والبرتغال : صحيفة الجيولوجيا البرتغالية العدد الثالث عشر (لشبونة ، ١٩٥٨) هـ . تون مناطق جاليثيا
دراسة شكلية وجيولوجية ستراسبورج ، ١٩٦٦ ، وفيما يتعلق بالسلاسل الجبلية الداخلية والخارجية للهضبة
نجد كتاب ب. بيروت ول. سولية سباريس : أبحاث عن مورفولوجي سلسلة الجبال الوسطى بإسبانيا ، مدريد ،
١٩٥٤ ، ب. بومير : مظاهر مورفولوجية لقلعة أيوب وداروكا وأطرافهما صحيفة جمعية الجغرافيين الفرنسيين
رقم ٢٦١-٢٦٢ ، باريس ، ١٩٥٦ أو . ريبا : دراسة جيولوجية لسلسلة جبال البراثين ، مدريد ، ١٩٥٩ ،
أو فرانزلي العصور الجليدية والبرتغال ، بون ، ١٩٥٩ ، وما زالت تصدر دراسات عديدة بما فيها رسائل
دكتوراه عن الوحدات الخارجية وستبرز بعض هذه الدراسات والأعمال ب. بيروت ول. سولية سباريس ، أبحاث
عن مورفولوجي للجنوب الشرقي بإسبانيا ، مجلة جغرافية البرانس والجنوب الغربي العدد الثلاثون (تولوز ١٩٥٩) ،
ب. رات دراسات نقدية لجبال الباسك وكتاتريا . ديخون ، ١٩٥٩ ، خ. هازيرا التكوينات شبه القاحلة في
إسبانيا جريدة جمعية الجغرافيين الفرنسيين رقم ٢٨٢-٢٨٣ (باريس مارس أبريل ١٩٥٩) س. مينسوا
التركيبات الجليدية في وادي الأيبير وتطوره المورفولوجي اللاحق : الإسهام الإسباني للمؤتمر الدولي العشرين
سرقسطة ١٩٦٤ ، ل. م. فروتوس اعتبارات بشأن الجغرافيا المورفولوجية للجص في وادي الأيبير الوسيط
الأستاذ لاكارا سرقسطة ١٩٦٨ . وفيما يتعلق بالجبل الأوسط الأيبيري والهضبة نجد كتاب خ. سويتشيزنر :
مورفولوجي للهضبة الوسطى وجبالها مجلة الجغرافيين العدد الثالث : ١٠ شتوتغارت ١٩٣٦ ومن اللائق
أيضاً الإطلاع على ه. لاوتنشاس واى . ماير : الهضبة الأيبيرية مجلة الجغرافيا ، ١٩٦١ ، توجد ترجمة برتغالية
جريدة مركز الدراسات الجغرافية ، لشبونة ١٩٦٢ ول. سولية سباريس : مفهوم الهضبة الإسبانية واكتشافها
تكرم للأستاذ ميلون سرقسطة ١٩٦٦ .

التطور المورفولوجي الحديث - للتركيز الحديث على بعض المشاكل المورفولوجية المتعلقة بالعصر الجيولوجي الرابع (التتابع الزمني للمناخ وعمل الأنظمة الشكلية الوراثةية ، تطور السواحل ... الخ .

الفصل الثانى

وصفٌ أو نقشٌ شعرى لمدرسة غرناطة القديمة

تأليف : داريو كيانياس

إهداء : إلى السيد / دافيد جونتالو مايسو

صديقى ورفيقى طوال سنوات كثيرة

من المعروف أنَّ مدرسة أو جامعة غرناطة العربية أُسِّسَتْ فى عهد يوسف الأول أبو الحجاج (١٢٢٢-١٢٥٢) بناءً على مبادرة من الحاجب أبى نسيم رضوان الذى يُعزى إليه أيضاً توصيل المياه إلى حى أو ضاحية مورور ، كذلك تشييد سور ضاحية البائسين والذى يُسمَّى حالياً بسور السيد / جونتالو ، هذا فضلاً عن تشييد حصون الحدود الغرناطية حيث أمر ببناء ما يزيد عن أربعين برجاً تم استخدامها كنقاط مراقبة لداخل المدينة من بيررا (فى محافظة الميريا) حتى الضواحي الغربية .^(١)

هذا وقد شُيِّدَت المدرسة فى مواجهة المسجد الكبير بالمدينة ، هذا المسجد الذى هُدمَ عقب استرداد المسيحيين لها وذلك لإقامة الكاتدرائية والمحراب أو المصلى الملكى ، وموقعها الحالى هو نفسه كما كان فى العصر العربى بالميدان الذى سُمِّى فيما بعد بالكابيلو دى بيسابون ودى لالونخا فى نهاية شارع لوس أوفيسيوس (شارع المِهَن) .

إن تأسيس المدرسة التي كانت تتمتع بحياة نسبية أطول في كل من الشرق وشمال أفريقيا لم تُعرف في الأندلس حتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي حيث كان التعليم العالي يتم بالمساجد (٢) ، وهذا الظهور المتأخر للمدرسة في إسبانيا الإسلامية يؤكدُه ضمنيًا ابن الخطيب عندما يتحدث في السيرة الذاتية لرضوان وإن كان يُشير إلى عاصمة المملكة الناصرية ، يقول ابن الخطيب : " أسس مدرسة غرناطة حيث لم يوجد بها مدرسة قط قبل ذلك " ، ويشير ابن الخطيب أيضًا إلى تأسيس المدرسة الغرناطية عند التطرق إلى يوسف الأول ، وأضاف أنه خصص عوائد للمدرسة إلا أنه لم يذكر تاريخًا لذلك ، وإن كان هذا يظهر في النقش التأسيسي كما سنرى فيما بعد . (٣)

وعلى الرغم من أن المدرسة الغرناطية تبدو دون شك أهم مدرسة خلال قرن ونصف قرن من بقاء الإسلام في الأندلس ، رغم اختفائه من بقية إسبانيا لا يمكن أن يقال إنها الأقدم في الإمارة الناصرية ؛ لأن ابن الخطيب نفسه عندما جُمع في ديوان واحد شعر أستاذه ابن الجيَّاب (١٢٧٤ - ١٢٤٨) ، يقول في عبارة التقديم لواحدة من القصائد التي جاء فيها : " لتهنئة الصوفي أبو عبد الله السهيلي لتشييده مدرسة مالقة أول عمل من هذا النوع في الأندلس " . ولكن هذه المدرسة المالقية التي تحدث عنها ابن الخطيب ويضيف عنها الكثير في عمله " إحاطة " لم تكن لها الصيغة الرسمية أسوة بالمدارس الشرقية أو حتى الغرناطية وفيما يبدو أنها احتفظت بتوجهها أو طابعها الصوفي وهذا ربما يشرح اختفائها تمامًا فيما بعد دون أن تترك أثرًا ما سواه في تاريخ أو في أسماء الأماكن في مالقة . (٤)

والجدير بالذكر أن مبنى المدرسة الغرناطية ظل محتفظًا برونقه تمامًا حتى استرداد غرناطة ؛ حيث قام الملوك الكاثوليك بمنحه عام ١٥٠٠ ليكون مقرًا لمجمع المجلس البلدي وحينئذ أدخلت عليه الكثير من التعديلات والإصلاحات لكي يتلاءم مع غايته الجديدة . وفي عام ١٥٠١ ضم إليه منزل مجاور كان ملكًا للأمير السيد / فرناندو دي غرناطة نجل مولاي حسن وثرثرا ؛ حيث أقيمت قاعة اجتماعات المجلس البلدي بسقفها الخشبي الهائل ثمانى الأضلاع ويربط خشبيتين ، وقد نُقش السقف على (النمط البلاطيرسكو) ، وهو أسلوب معماري إسباني مُقلدٌ لأشغال الصياغة

بواسطة الفنان فرانتيسكو فرنانديث عام ١٥١٣ ، وقد دُوِّنت بالسقف عبارة تُشير إلى استرداد الملوك الكاثوليك لمدينة غرناطة .

هذا وقد أُجريت إصلاحات جديدة خلال الأعوام ١٥٥٤ ، ١٥٥٥ ، ١٥٥٦ ولكن في القرن الثامن عشر تم تجديد المبنى الأول تجديداً تاماً على وجه التقريب ، وهو المبنى الذي نراه حالياً حيث تم التجديد في الفترة من ١٧٢٢ إلى ١٧٢٩ حيث زُوِّد بسلم وقبة باروكية (أسلوب معماري إسباني) وكذلك الواجهة التي نُقِشت في الأعوام التالية ويظهر عليها وعلى وجه التجديد في رُكنها الأيمن درعٌ للملوك الكاثوليك يرجع إلى مرحلة إعادة البناء في القرن السادس عشر .

ونظراً لضيق المبنى فيما يتعلق بالاحتياجات البلدية فإن البلدية قد انتقلت في عام ١٨٥١ إلى العقار الذي تشغله حتى يومنا هذا بعد أن باعت المبنى السابق لأحد الأشخاص الذي جعل منه مخزناً للأقمشة . وقد قامت البلدية بإصلاح التلفيات والأضرار التي لحقت به عام ١٩٣٩ . وبناءً على اقتراح المجلس البلدي والجامعة سوياً قامت الدولة بشرائه عام ١٩٤٢ ، وذلك لكي يقام عليه " معهد الملوك الكاثوليك " . وبعد ترميمه الأخير عام ١٩٧٦ توجد به بعض الملحقات الخاصة بالمجلس الأعلى للبحث العلمي ولجامعة غرناطة (٥) .

فالجزء الوحيد من المدرسة العربية الذي عرفناه هو مسجدهما الصغير الكائن في مواجهة مدخل الفناء ، والذي يبلغ طول أحد جوانبه ٦,٨٤ أمتار . أما زخرفته فقد اختفت تماماً عقب تحويله إلى مصلى مسيحي بعد أن تم تجصيص جدرانه في العصر المسيحي ، وفي القرن التاسع عشر شبَّ حريق في سقفه المزخرف بعناقيد من المقرنصات العربية - لم ينج منه سوى جزء من أفاريزه . هذا وقد تم ترميمه عام ١٨٩٣ ، واليوم يتمتع بشكل مهيب بعد أعمال الإصلاحات التي انتهت في ١٩٧٦ .

ومع ذلك فإن بقاء هذا الجزء الصغير فقط من المبنى الأصلي يدل على أن المدرسة كانت أحد الآثار المهمة في غرناطة الناصرية بسبب زخرفته الرائعة وواجهته الرخامية ناصعة البياض ونقوشه القرآنية وعتبة عليا ذات زخرفة مشابهة . وفي الجزء العلوي يوجد حجران كبيران من الرخام على كل منهما نقوش زخرفية وكتابية ، وقد كان

الحجران يمثلان جزءاً من فناء المدرسة حتى أصبح ملكاً للسيد / فاكندوريانو ثم بعد ذلك نُقلا إلى متحف الآثار الإقليمي بغرناطة الكائن فى منزل كاستريل بشارع الدارو .

وعلى الرغم من أن المبنى العربى ظل كاملاً حتى القرن السادس عشر ، فإن المعلومات التى وصلت إلينا كانت فى كراسة بُوّن فيها النص وترجمة نقوشه وفقاً لترجمة مترجمى المجلس الغرناطى الذين قاموا بنقل المخطوطات فى عامى ١٥٥٦ - ١٥٥٧ ليست الموجودة فقط فى قصر الحمراء ، ولكن الموجودة أيضاً فى الآثار الأخرى بالمدينة . وقد حُفّظ هذا المخطوط فى أرشيفات بلدية غرناطة حتى زمن القس خوان دى إيتشاباريا ^(٦) الذى استطاع أن ينسخ منه نسخة استخدمها فيما بعد سيمون أرجوتى ثم وقعت فى حوزة ليوبولدو أجيلاس فيما بعد - والذى قدمها لأنطونيو كارديناس الذى أفاد منها لأقصى درجة ، وذلك لكتابة مؤلفه " مذكرات أثرية عن المدرسة أو الجامعة العربية فى غرناطة " . ^(٧)

ونظراً لأننا سنتطرق فى موضوع آخر لنسخ هؤلاء المترجمين الأوائل وترجمتهم ومدى تأثيرهم فى أعمال لاحقة ؛ فقد أبرزت الاختفاء الغامض للمخطوط من بلدية غرناطة فى زمن القس إيتشاباريا الذى اهتم بالموضوع دون أدنى شك للحفاظ على شهرته كدارس متخصص فى الدراسات العربية . ^(٨)

وطبقاً لترجمة المترجمين الأوائل حيث اتبع فيها وضع النص أولاً ثم ترجمته فى المقام الثانى ووفقاً لنسخة القس إيتشاباريا فإنّ ألماجرو كارديناس يُقدّم لنا الكتابة والنقوش العربية بصورة نثرية عن المدرسة الأولى ، وذلك فى إيجاز مُخلٍ دون أن يوضح لنا مكان هذه النقوش والكتابات ، ولم يكلف نفسه مع ذلك بإجراء مقارنة بين هذه النصوص المذكورة والأجزاء المودعة فى متحف الآثار الأمر الذى كان سيسمح له بالإشارة إلى تلك الكتابات الباقية حتى الآن فى هذه الأجزاء سألقة الذكر . ^(٩)

و يمكن القول بأنّ ترجمة بعض النقوش الكبيرة التى جمعها القس إيتشاباريا ^(١٠) ، والتى نسخها ألماجرو قد نقلت إلى دليل غرناطة - مثل التى أشرنا إليها لجوميث - مورينو وجايجو بورين إلى جانب نقوش أخرى - وكذلك إلى بعض

كتب الأسفار وإلى بعض المجموعات الأثرية ، وفي كل هذه الأعمال يُلاحظ وجود تغيرات طفيفة تؤثر فقط على الأسلوب دون التأثير على المضمون بأي شكل ؛ لأنها لم تعتمد على النص العربي الذي قدّمه المأجرو .

إن مجموعة كافة النقوش والكتابات الخاصة بالمدرسة معظمها مأخوذ من القرآن أو تمّ تكوينها من جمل متكررة بكثرة في قصر الحمراء وفي مباني أخرى بالمدينة ، وتستحق الإبراز من بين هذه الكتابات والنقوش تلك الخاصة بالتأسيس الموجود في إحدى لوحتي الواجهة ، والتي كتب عليها أن التشييد تمّ تنفيذاً لأمر أبي الحجاج يوسف الأول نجل أبي وليد إسماعيل بن فرج بن نصر ، وقد انتهى البناء في شهر مُحَرَّم عام ٧٥٠ هـ الموافق (٢٢ مارس - ٢٠ أبريل ١٣٤٩) (١١) .

وطبقاً لما جاء في عنوان هذا الكتاب ليست هذه الكتابات والنقوش النثرية التي تهمننا حالياً بل يوجد نصان شعريّان مَوْجودان في المدرسة القديمة ، اللذان لا نعرف عنهما شيئاً اليوم كما لا يوجد أيُّ جزءٍ منهما في متحف الآثار .

ويقدم لنا المأجرو ترجمة للقصيدتين دون أن يقدم لنا نصهما العربي ، وقال عن الأول إنه برز بين الزخرفة الرائعة بأحد جانبي الفناء عبارة عن شكل درع ، ونأسف من عميق قلوبنا أن مخطوطنا (كراسة المترجمين الأوائل المنسوخة بواسطة القس ايتشباريا) لا يتضمن النص الأصلي لجزء في غاية الأهمية ؛ لأنه في هذه الحالة فقط يمكننا تقدير واعتبار وأهمية بكل تأكيد . إن هذا المخطوط يقدم لنا ترجمة شعرية فقط والتي من أسلوبها فإننا نجنح إلى الشك في كونه قصيدة شعرية . وقد أدرج القس ايتشباريا ترجمة أعدّها هو في مؤلفه " التجول في غرناطة " ، ولكن دون أن يذكر عمّا إذا كان النص الأول شعرياً أم نثرياً . وقد نبهنا إلى الخطأ الذي وقع فيه هذا العالم الجليل عند الحديث عن الموضوع يقول : إن الكتابة كانت موجودة على درع حديدى كبير وقد صُهرَ لأنه كان به بروز ، وليس من المستغرب أن يقع هذا الأثرى الجليل في ذاك الخطأ البسيط ربما لقراءته النص الأصلي دون تراث الذي يقول : في ممرات التنزه بالفناء يوجد درع من الجبس مكتوب عليه حروف عربية ، ونحن من جانبنا نعتقد

أن ترجمة كاهن غرناطة الشهير هي الأفضل ؛ لأن الخبرة أكدت لنا أنه أكثر المستشرقين ثقافة بل يفوق مؤلفي المخطوط نفسه ، وسوف ندرجها فوراً (١٢) .

و يعلق ألماجرو بعد ترجمة القس إيتشباريا قائلاً : " من الترجمة السابقة يمكن أن يكون للقرأء بعض الأفكار عن جدارة النص الأصلي " ، ومع ذلك فإن الثناء الذي تتضمنه هذه الكلمات التي قالها ألماجرو في شأن القس إيتشباريا سنرى أن الترجمة الغامضة والخيالية تشبه قليلاً النص الأصلي ، ومع ذلك فإن ترجمة القصيدة الثانية أقل تشابهاً مع النص الأصلي ، والتي أشار إليها ألماجرو والقس إيتشباريا بون أن يساورهما مجرد الشك في أنها أبيات شعرية : " ونواصل وصفنا قائلين شيئاً ما عن باب السلم - كان شكله مستطيلاً والجانب العلوي للمستطيل كان على هيئة صليب أعد بدقة بالغة . وتستحق اهتمامنا صورة وشكل هذا الباب ؛ لأنه كان يماثل غيره في المباني الأخرى التي ترجع إلى ذلك العصر كما في برج أبو الحشاش (ويشير بذلك إلى البرج المسمى اليوم بغرفة تسريح الملكة) وفي الجزء العلوي لهذا الباب وجدت كتابة عربية أيضاً أغفلها مترجمو البلدية ، و يترجمها القس إيتشباريا على النحو التالي : (١٣)

إن النص العربي للقصيدتين غير معروف حتى الآن قد نقله إلينا المسلم الأندلسي ألونسو ديل كاستيو في ركن خفي بيوميات عمله (مذكراته) ، والتي يتضمنها المخطوط رقم ٧٤٥٢ بالمكتبة الوطنية بمadrid - وقبل ذلك T - ٢٥٧ وقد وُصِفَ من جانب فرانثيسكو جيين روبليس تحت رقم N. ٥٩٨ (١٤) وفي المقال الذي خصصته لهذه الشخصية العجيبة منذ بضع سنوات قدمت وصفاً تفصيلياً للمخطوط (١٥) الذي تضمن إلى جانب الوظائف التي شغلها مترجماً رسمياً لبلاط فيليب الثاني، وكذلك نسخ كتابات الحمراء وترجمتها التي تمت في عام ١٥٦٤ بتكليف من بلدية غرناطة . (١٦)

وفي المقال الذي أشرت إليه مؤخراً أُلحِتُ بسرعة إلى بحث ألونسو ديل كاستيو وقد وعدت بالعودة إلى الاثنى عشر بيتاً عن المدرسة القديمة ، والتي جمعها ديل كاستيو وأيضاً لشرح بعض نواحي الشذوذ التي لاحظتها في الصفحات الأخيرة لبحثه عن كتابات قصر الحمراء . (١٧)

وبالفعل فإن مخطوط ديل كاستيو يفتقر أحياناً إلى ترقيم الصفحات ، وعندما يوجد ترقيم فإن هناك شكوكاً بشأن التسلسل العادي للنصوص العربية - من اليمين اليسار كما هي عادة العرب في كتاباتهم - والاتجاه المعاكس أو العكس للترجمات الإسبانية - من اليسار إلى اليمين - والجزء المخصص لكتابات ونقوش قصر الحمراء خال من الترقيم في المخطوط ، وفي هذا المقال المذكور قمت بتخصيص ترقيم خاص - سأحافظ عليه هنا من ١ إلى ٣٧ .

و مع ذلك فإن الشكوك المشار إليها فيما يتعلق بتسلسل النصوص العربية وترجماتها تدل على أن عمل ديل كاستيو يسير بشكل طبيعي حتى الورق ٣١ ، والتي تظهر فيها الكتابة التأسيسية للمدرسة مسبوقة بعبارة باللغة العربية وترجمتها كما يلي : (١٨)

أنقل الكتابة التاريخية الموجودة على باب مدرسة غرناطة ، والتي تُسمى حالياً " بمقر مجلس البلدية " على حجرين من الرُخام إلى جانب قصيدة منحوتة على الخشب وها هنا كلا النصين .

ولكن بدلاً من أن يُقدّم لنا على التوالى نص كتابة التأسيس الذي أعلن عنه مسبقاً في هذه العبارة يقول بحروف وبخط سيئ : " وعلى الباب يوجد التاريخ في هذه الكتابة (السطور) التالية " ، ولكن هذه السطور لم تظهر بل تحت سطر أفقى يضيف " هنا توجد السطور التي تحتها بعض الأبيات الشعرية التي تقول " وبعد ذلك يأتي بالنص العربي المكون من ثلاثة أبيات ويضيف قائلاً : وتحتها توجد ٩ أبيات تقول (١٩) .

و بالفعل فإن النص العربي لهذه الأبيات التسعة يظهر ، ولكن ليس بالصفحة التالية ٣١ (في) ولكن في الجزء الأسفل من الورقة ٣٢ (و) ، وقد نُسخَت في تلك الورقة وفي جزئها العلوى سِلْسِلَةٌ من الكلمات العربية لا تمت بأدنى صلة إلى الموضوع وقد تبعها شرح لها باللغة العربية أيضاً ونوع الكتابة المستخدم في هذه الألفاظ أو في هذه الأشعار يجعلنا نميل إلى التفكير إلى أن ذلك ما هو إلا مُسوَّدة ، وهذا الأمر يتأكد تدريجياً بواسطة تفاصيل أخرى مشابهة .

وبالإصغاء إلى ما اعتاد عمله ألونسو ديل كاستيو بصفة عامة فى بقية بحثه كان من المنتظر بعد عرض النص العربى للأبيات الشعرية المشار إليها أن يقدم لنا ترجمة له بالإسبانية ولكن بعيداً عنه وفى الورقة ٣٢ (فى) ينسخ النص العربى للقصيد المحفورة بالطنف فى القوس الثلاثى الذى يؤدى إلى داخل قصر جنة العريف من الباب الكبير لحديقة الساقية ^(٢٠) ، ومع ذلك فإنه من العجيب ظهور نص نثرى عربى فى الورقة ٣٣ (ر) والذى ينتهى بعد عدة سطور مشطوبة فى ص ٣٣ (فى) مسبوقاً بالعنوان التالى بالعربية نص من كتاب تيسفون ابن العطار حول الجوهر الموقر ^(٢١) .

وفى النهاية يقدم لنا ألونسو ديل كاستيو ترجمته للأبيات الاثنى عشر المشار إليها آنفاً ، ولكن ليس بالترتيب كما فى التسلسل العربى بل فى نهاية بحثه أى فى الورقة ٣٦ (فى) ^(٢٢) ولكن قبل ذلك يقدم لنا الترجمة التالية : ^(٢٣)

الورقة ٣٦ (فى) فى قاعات مجلس البلدية بمدينة غرناطة فى دائرة أفايز أسفل الجدران ^(٢٤) بالفناء والصهرج وكذلك على الرصيفين الذى تَحْدُ أَعْمَدَتُهُ الرُّخَامِيَّةُ . وهناك أربعة قوالب مُرَبَّعة من الجص كُتِبَ عليها بحروف متشابكة تسعة أبيات من الشعر العربى لمُدح جمال هذه المنازل التى بناها الملك يوسف أبو الهاجر (يوسف أبو الحجاج) ^(٢٥) أحد ملوك غرناطة ، ويرجع ذلك إلى عام ٧٥٠ للهروب العربى (التاريخ الهجرى) طبقاً لما يبدو من التاريخ المدون بأسفل فهرس قائمة هذه المنازل ، والذى يوافق عام ١٢٥٧ من التاريخ الميلادى ^(٢٦) ، وذلك بالورقة رقم ٣٦ (ر) وقد بُوِّنَ عليها باللغة العربية وكذلك باللغة الإسبانية .

وطبقاً للتسلسل المتبع فى هذه المقدمة الوجيزة فإنَّ ألونسو ديل كاستيو يقدم لنا أولاً الترجمة للأبيات التسعة وفيما بعد ترجمة الأبيات الثلاثة الباقية ، ومع ذلك فإنه عند نسخ النص العربى ، والذى يُكْتَبُ من اليمين إلى اليسار كما أشرنا آنفاً يبدو هذا التسلسل الأخير ؛ لأنَّ الأبيات الثلاثة كانت مكتوبة على الباب الرئيسى للمدرسة ، بينما الأبيات التسعة الأخرى كانت مُنَوَّنة فى الممر الداخلى للفناء ، ^(٢٧)

وها هنا النص العربى للأبيات الثلاثة الأولى : ^(٢٨)

- ١ - انظر إلى روض عجيب المنظر قد راق حسناً لامحاً في الحجر
 - ٢ - وتأمل الباب النسيج صناعته تبدى الجلال بوضعه المتخير
 - ٣ - وأدخل عليه للصلاة مبادراً لتفوز أنعاماً بيوم المعشر
- إن هذه الأبيات مترجمة إلى اللغة الإسبانية وقد اتبع كل من الماجرو وجوميث مورينو وجاييجو ويورين ترجمة القس إيتشيبيريا ، ولكن بإدخال بعض التعديلات الطفيفة على الأسلوب . (٢٩)

ويقدم لنا ألونسو ديل كاستيو ترجمته التي تتميز هي الأخرى بكثرة التحويلات اللغوية ، ولكنها مطابقة إلى حدٍ ما مع النص العربي : وهامى كالتالى :

ترجمة ألونسو ثم ترجمة المؤلف . (٣٠)

أما نص الأبيات التسعة التي وُجِدَتْ في فناء المدرسة فهو الآتى : (٣١)

- ١ - ألا هكذا تبني المدارس للمعلم وتبقى عهود المجد ثابتة الحكم
- ٢ - ويقصد وجه الله بالعمل الرضا وتجننى ثمار العزّ من شجر العزم
- ٣ - تفاخر منى حضرة الملك كلما تقدّم خصم في الفخار إلى خصم
- ٤ - فأجدى إذا جنّ الغمام من الحيا وأهدى إذا جنّ الظلام من النجم
- ٥ - فيا طالباً يبغى إلى العلم وجهه كفئت اعتراض البيد أو حجم الليم
- ٦ - ببابى أخط الرحل لا تنور رحلة فقد فزت في طول الإقامة بالغنم
- ٧ - فكم من شهاب في سمائي ثاقب ومن هالة دارت على قمر تمّ
- ٨ - يبيضون من ندرة مبن إلى هدى ومن ذكة تجلو القلوب إلى حكم
- ٩ - جزى الله عنى يوسف خير ما جزا ملوك بنى نصر عن الدين والعلم

وها هنا ترجمة القس إيتشباريا التي سلك منهجها كثير من المؤلفين ^(٢٢) ، ولقد ذكرت أنفأ عند الإشادة بكلمات المدح التي أطراها ألماجرو بأن هذه الترجمة تشبه قليلاً النص العربي ، والذي أخذت منه بعض المفردات على حدة ، وقد أعدت تحويلات لغوية خيالية وغامضة ومسهبية وفي بعض الأحيان خاطئة وغير معقولة .

ولنر الآن ترجمة ديل كاستيو التي نأت جزئياً عن العيوب المشار إليها والتزمت بما فيه الكفاية بالنص العربي وإن كانت رغبة منه في تحقيق مزيد من الإيضاح قد أسهب في ترجمته . ^(٢٣)

ترجمة ديل كاستيو إلى الإسبانية :

و بعد ذلك وعقب ترجمة الأبيات الثلاثة التي أشرنا إليها آنفاً يضيف ديل كاستيو (المورقة ٣٥) لقد أبرزت هذه الأبيات الثلاثة في غرناطة امتثالاً لأمر مادة محكمة التفتيش هذا إلى جانب الموضوعات الأخرى التي كلفوني بترجمتها في أي مكان وجدت به كتابات عربية ولافتات عربية . الأبيات الأصلية في نهاية الورقات الثلاث اللاحقة مكتوبة من اليسار إلى اليمين . ^(٢٤)

ثم يقدم المؤلف ترجمته لهذه الأبيات .

و ليس من الضروري إبراز أن أبيات الواجهة ، وكذلك أبيات الفناء الداخلي قد ألفت لهذه الأماكن كما يتضح ذلك من فحواها ، وهو جانب أساسي لترجمة مثل هذا النوع من الكتابات والنقوش .

ولكن من هو مؤلف هذه الأبيات ؟ ربما أن الأمر يتعلق بهيئة بالغة الأهمية مثل المدرسة يمكن التفكير بأن الأبيات موضوع الدراسة قد ألفتها رئيس ديوان الإنشاء (السكرتاري الملكية على وجه التقريب) ومن بين هؤلاء الذين تولوا هذا المنصب في ذلك العهد نجد في المقام الأول ابن الجيآب خطيب وشاعر الأمراء محمد الثاني ومحمد الثالث ونصر وإسماعيل الأول ومحمد الرابع ويوسف الأول ورئيس ديوان الإنشاء طوال ٣٠ عاماً ، ولكن ابن الجيآب توفى في عام ١٣٤٨ عقب إصابته بالطاعون قبل افتتاح المدرسة الغرناطية بشهرين بعد أن كان قد ألفت قصيدته الأخيرة التي أهداها ليوسف الأول عام ١٣٣٤ . ^(٢٥)

وقد حلَّ محلَّ ابن الجيَّاب تلميذه ابن الخطيب عام ١٣٤٩ ، ومع ذلك لم تظهر هذه الأبيات في ديوانه الذي نُشرَ منذ سنوات قليلة . (٣٦)

و أخيراً فليس من المحتمل أن يكون مؤلف هذه الأشعار هو ابن زَمْرُق المولود عام ١٣٣٧ ؛ لأنه كان في السادسة عشرة من عمره عندما أُفتتحت المدرسة وإن كان قد التحق فيما بعد " بديوان الإنشاء " كخطيب وفي عام ١٣٧١ شغل منصب الوزير الكبير ورئيس الديوان سالف الذكر خلفاً لأستاذه ابن الخطيب عندما فرَّ هذا إلى أراضي شمال أفريقيا لكي يلتحق في تريميسين بالسلطان عبد العزيز خائناً بذلك الأمير مُحَمَّد الخامس . (٣٧)

وقد كان من بين كُتَّاب ديوان الإنشاء ابن صابرين وابن صفوان وإن كانا لم يرأسا الديوان قط . وقد توفي الأول عام ١٣٤٦ قبيل افتتاح المدرسة بثلاثة أعوام وفيما يتعلق بالثاني فقد امتدَّ به العمر إلى عام ١٣٦١ ، ومع ذلك فإننا نفتقر إلى معلومات يمكن بواسطتها إسناد تأليف هذه الأبيات إليه . (٣٨)

ولعل ظهور نصوص جديدة يمكننا من إيضاح هذا اللغز يوماً ما لنعرف من هو الشاعر الذي ألَّف أبيات الواجهة والبهو أو الفناء الداخلي للمدرسة الغرناطية التي كانت بلا ريب أهم المراكز التعليمية في الغرب الإسلامي ، والتي استمرت في نشر التعليم على مدى قرن ونصف قرن من الزمان ، حيث لم يُدرَّس بها علماء الأندلس فقط ولكن أيضاً من شمال أفريقيا الذين عبروا المضيق بعد أن جذبتهم وبهرتهم هذه البؤرة الثقافية الجديدة .

وفيما يتعلق بهذا ، وعند الانتهاء من تصحيح الصفحات السابقة على لوحات المطبعة ، سنحت لي الفرصة للإطلاع على رسالة دكتورة ماريا خيسوس روبيرا وعنوانها " ديوان ابن الخطيب الشاعر الآخر للحمراء " دراسة وطبعة نقدية ، الرسالة لم تنشر بعد ، وإن كانت دار التراث بقرطاجنة مهتمة بنشرها .

ومن بين الـ ٢١٩ قصيدة التي جمعت في الديوان نجد أن بعضها ، ولكن هناك قصيدة مكونة من أربعة أبيات ومسبوقة بالعبارة التالية : (ص ٣١ من رسالة الدكتوراه

القصيد ٣٢) وقال (ابن الخطيب) من بين ما كُتِبَ على باب مدرسة غرناطة وعند البرهنة على أن هذه الأبيات ليست هي التي جمعها المترجمون الأوائل بمجلس بلدية غرناطة عام ١٥٥٦ ، والتي نُسخَت بعد ذلك بدقة باللغة بواسطة المسلم الغرناطي ألونسو ديل كاستيو عام ١٥٦٤ طلبت إذنًا من ماريا خيسوس روبيرا - والتي أقدم لها خالص شكرى حقيقية - لكى أدرج هنا هذه الأبيات الأربعة وترجمتى لها والإشارة إلى المشكلة التى تطرحها .

ها هنا النص العربى (بحر البسيط والقافية الألف)

- ١ - يا طالب العلم هذا بابه فتحاً فأدخل تشاهد سناه لاح شمس ضحى
- ٢ - وأشكر مجريك من حلّ ومرّحل قد قرب الله من مرمك ما نرحا
- ٣ - وشرّفت حضرة الإسلام مدرسة بها سبيل الهدى والعلم قد وضحا
- ٤ - أعمال يوسف مولانا ونيته قد طرزت صحفاً ميزانها رجحا

ثم ترجمة المؤلف .

والمشكلة التى تطرحها هذه الأبيات هى التالية : لِمَ لَمْ يتم إعادة نسخها - على حد علمنا - على باب المدرسة ، ومع ذلك تظهر مجموعة بواسطة ابن الخطيب فى ديوان أستاذه ؟ وربما تفسير ما حدث يرجع إلى اختفاء ابن الجيّاب الذى توفى عام ٧٤٩ فى شهر شوال (الموافق يناير عام ١٣٤٩ ميلادية) والانتفاء من تشييد المدرسة لن يتم - وفقاً للكتابة التأسيسية (شاهد التأسيس) المشار إليه آنفاً - حتى شهر مُحَرَّم عام ٧٥٠ (الموافق ٢٢ أو ٢٠ أبريل عام ١٣٤٩) وهذه الظاهرة لا تجب أن تكون شائعة فى زمن ابن الجيّاب حتى وصل الأمر إلى أن يحل اسم خليفة العاهل أو الحاكم محل هذا فى الكتابات المنقوشة أو تبديل أبيات شاعر بغيرها لشاعر آخر عقب وفاة الأول أو عند وقوعه فى محنة . ولدينا من الحاليتين ما يبرهن على ذلك من كتابات الحمراء ، ومن بينها لابن الخطيب عندما حلّ محله فى منصبه ومهامه تلميذة ابن زمرق .

ومع ذلك فمن المدهش أن ابن الخطيب لم يوضح لنا لماذا أبيات ابن الجيَّاب الموجودة بالديوان لم يتم إعادة نسخها بالمدرسة ، ولكن قد يرجع هذا ربما إلى تجميع ابن الخطيب للديوان قبل الانتهاء من تشييد المدرسة وحتى في حياة أستاذه - أمران غير معروفين حتى الآن - الذي كان يشغل منصب رئيس ديوان " الإنشاء " كان قد أعدّها مسبقاً نظراً لأهمية هذا المبنى والنور - الذي لا جدال فيه - المنوط به في المستقبل في الحياة الثقافية بقرنناة الناصرية .

وإذا لم تكن أبيات المدرسة لابن الجيَّاب فيبدو عادياً أن تكون لتلميذه وخليفته بالمنصب ابن الخطيب ، ومع ذلك فلا توجد ضمن ديوانه - كما قلت آنفاً - لكي يستمر السر حول أبوة هذه الأشعار التي زينت وازدانت بها الواجهة عند المدخل والفناء الداخلي التي يمكن اعتبارها - في الحقيقة - الجامعة العربية الوحيدة في أراضى الأندلس وإن كان تأسيسها متأخراً مقارنة بنظيراتها في الشرق وشمال أفريقيا عندما كان الإسلام في الأندلس يبعث آخر إشعاعاته بالمملكة النصرية في قرناطة .

الهوامش

(١) فيما يتعلق بشخصية الحاجب رضوان وحكمه الممتاز . إنه من أصل مسيحي وقد حظي بثقة ثلاثة من ملوك غرناطة (محمد الرابع ، ويوسف الأول ، ومحمد الخامس) نفوة لـ لويس سيكو دي لوثينا باريديس بعنوان " الحاجب رضوان ، مدرسة غرناطة ، وأسرار وقلاع البائسين ، الأندلس : ٢١ - ١٩٥٦ ص ٢٨٥ - ٢٩٦ .

(٢) يضيف ابن سيد بعد أن أبرز الاهتمام البالغ للأندلسيين بالعلوم والأدب والاحترام الفائق الذي كان العلماء يحظون به سواء من جانب الحكام أو من الشعب ، يضيف بأنه على الرغم من ذلك فإن أهل الأندلس لم تكن لديهم المدارس التي تسهل لهم عملية البحث عن العلم حيث إن مختلف أنواع التعليم كان يتم بالمساجد محاضرة بعنوان " نفح الطيب - طبعة د. إحسان عباس (بيروت ١٩٦٨/١٣٢٨ ص ٢٢) انظر أيضاً خوليان ريبيرا " التعليم بين المسلمين الإسبان " الطبعة الثالثة (قرطبة ١٩٢٥) ص ٢٤ والمُجمعة في Diserta ciones y opy scúlos مدريد ١٩٢٨ الجزء الأول ص ٢٤٧ .

(٣) إحاطة طبعة عنان الجزء الأول (القاهرة ١٩٥٥) ٦١٥ ، وقد جاءت هذه السيرة الذاتية في الصفحات من ٥١٤ إلى ٥٢١ اللامعة التبدية طبعة القاهرة ١٣٤٧ - ١٩٢٨ ص ٩٦ .

(٤) محاضرة لماريا خيسوس روبيرا بعنوان " معلومات حول مدرسة في مالقة قبل المدرسة الغرناطية " الأندلس " العدد ٣٥ (١٩٧٠) ص ٢٢٣ - ٢٢٦ .

(٥) فيما يتعلق بالأضرار التي لحقت بمبنى المدرسة عقب استرداد المسيحيين للمدينة يمكن مراجعة مؤلفات متشابهة على وجه التقريب منها مرشد أو دليل غرناطة لمانويل جوميث مورينو غرناطة ١٨٩٢ من ٣٠٨ إلى ٣١٢ وأنطونيو جايجو بورين " غرناطة " مدريد ١٩٦١ من ص ٣١٦ إلى ٣٢٠ .

(٦) عضو جمعية كنسية لرجال الدين الصغار ، وقد تم تأسيسها في أوائل القرن السابع عشر بواسطة السيد / فرانتيسكو كراكثيولو المولود في غرناطة في مطلع القرن الثامن عشر وقد درس الفلسفة وعلم اللاهوت في مدرسة ساكرامونتي ومات بمسقط رأسه عام ١٨٠٤ .

(٧) وقد نُشرت هذه المذكرات كملحق لمؤلفه المعنون " دراسة عن الكتابات العربية في غرناطة " (غرناطة ١٨٧٩) ص ١٩٧ - ٢٢٢ .

(٨) محاضرة لداريو كبانيلاس " المسلم الغرناطي ألونسو ديل كستيو " (غرناطة - ١٩٦٥) ٢٥ - ٢٧ - ٢٧ - ٢٩ - ٤٦ - ٥٠ .

(٩) وقد أُعيد نسخ هذه الأجزاء من قِبَل ليفي بروفينثال - نقوش عربية في إسبانيا (ليدي - باريس ١٩٣١) العدد ٣٧ ، ٢٨ الجزء B.C.D.Y.E.

(١٠) يمكن التجول في غرناطة وضواحيها - الطبعة الثانية الجزء الثاني (غرناطة ١٨١٤) ص ٣٦ ، ٢٥ .

(١١) محاضرة للأجرو كارديناس دراسة ٢٠٥ (النص العربي) ٢٠٦ (الترجمة) . وجدير بالذكر أن الترجمة التي استخدمها جوميث مورينو دليل (٣١٠) أشار بحروف مائلة متعرجة إلى جزء النص العربي الموجود في متحف الآثار الأمر الذي تفاضى عنه الأجرو سواء في هذه الكتابة أو في غيرها . وينشر ويترجم رودريجو أمانور دي لوس ريوس وقيلا في " مذكّرة عن بعض الكتابات العربية في إسبانيا والبرتغال (مدريد ١٨٨٢) ص ١٩٥ ، ١٩٩ ينشر ويترجم فقط بعض أجزاء هذه الكتابات الموجودة بالواجهة والتي انتقلت إلى متحف غرناطة الإقليمي . أما ليفي بروفينثال الذي يُقدّم لنا النص العربي كاملاً وترجمته الفرنسية (كتابات عربية في إسبانيا رقم ١٧٢ ص ١٥٨ ، ١٦٠) يبرز في هذا الجزء الموجود اليوم ولكنه أضاف ست كلمات على ترجمة جوميث مورينو كلمات مبتورة في السطر الأول من هذا الجزء .

(١٢) محاضرة للأجرو دراسة ٢١٤ ، ٢١٦ . بالفعل فإن ترجمة القس أو الكاهن إيتشباريا المنسوخة بواسطة الأجرو توجد في مؤلفه - التجول في غرناطة - الطبعة المذكورة ص ٤٦ .

(١٣) محاضرة للأجرو دراسة ٢١٦ ترجمة القس إيتشباريا المنسوخة أيضاً بواسطة الأجرو موجودة في مؤلف الكاهن - التجول في غرناطة - الطبعة السالفة الذكر ص ٤٧ ، والتي سأعود إليها في موضع لاحق .

(١٤) كتالوج المخطوطات العربية الموجودة بالمكتبة الوطنية بمدريد (مدريد ١٨٨٩) رقم ٢١٣ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(١٥) المسلم الأندلسي ألونسو ديل كاستيو ص ١ - ٤ .

(١٦) على الرغم من أن البحث المذكور عن ألونسو ديل كاستيو خصصت له فصلاً بعنوان " كتابات قصر الحمراء " ص ٢٥ - ٥٥ ز قد عدت إلى الموضوع بتوسع وتفصيل في المقال المعنون " كتابات قصر الحمراء " طبقاً لما أورده المسلم الأندلسي ألونسو ديل كاستيو في مجلة الدراسات العربية والعبرية العدد ٢٥ (١٩٧٦) الملزمة الأولى ص ٧ - ٢٦ مع ست صور .

(١٧) انظر المقال المذكور في الملاحظة السابقة " الدراسات العربية والعبرية الملزمة الأولى ص ٣١ والملاحظة ٣٩ .

(١٨) لمراجعة نصها العربي انظر مجلة الدراسات العربية والعبرية المعروفة باسم ميتلانيا Miscelan- ea العدد ٢٥ الملزمة الأولى ص ٢٠ .

(١٩) هذه الملاحظة تشير بوضوح إلى التسلسل الذي قدمه ديل كاستيو لكلا القصيدتين في مُسَوِّدة ترجمته : لأن وجود القصيدتين في مبنى المدرسة يقدمه لنا بكل جلاء في النص الذي سأنسخه فيما بعد .

(٢٠) يمكن مراجعة النص العربي وعبارته التقديمية ، وكذلك أشعاره في المجلة المذكورة في الملاحظة ١٨ نفس العدد : ٢٥ الملزمة الأولى ص ٣١ ، ٣٢ .

(٢١) من السهل استنتاج أنه كتابٌ من كتب سكرامونتي الشهيرة ، والذي نسخة يحاول أن يُقدّمه لنا ألونسو ديل كاستيو على شكل مُسَوِّدة ، وفيما يتعلق بالأصل وَبُتِيَتْ ورقمه ومضمونه والجدل الذي أثير بشأن

هذه الكتب يمكن أن يرى ذلك في بحثي تحت عنوان "المسلم الغرناطي ألونسو ديل كاستيو" وخاصة في الصفحات من ١٩٧ إلى ٢٢٢ بالسيرة الذاتية المشار إليها هناك .

(٢٢) في الواقع أن الورقة الأخيرة هي ٣٧ (ر) ولكن في كتاب ألونسو ديل كاستيو يقدم لنا النسخ في البداية بأحرف لاتينية لكتابة عربية - والتي سأتطرق إليها في مناسبة أخرى - مسبقة بالكلمات الآتية " في حوض البركة الكائنة في منزل صديقي لورينثو إيرنانديث شابيث يوجد هذا الوصف للمؤلف الذي يقول بعد هذا النسخ - بالعربية - فإن ستة من الألفاظ التي تظهر في مجموعة الأبيات التسعة للمدرسة الغرناطية قد سبقت الإشارة إليها .

(٢٣) وبما أن النص يتعلق بالأدب الموريسكي (إسلامي) فإن أهميته تكمن في عدة مظاهر كما أفعل ذلك مع نصوص أخرى مشابهة بدون تحديث للكتابة ، ولكنني سأضع بين علامات تنصيص بعض الألفاظ أو المصطلحات وسأضيف بعض علامات الترقيم . كما يجب أن أضيف إلى صديقي العزيز السيد / إيلادير دي لا بريس مولينا الإيضاح الكتابي لبعض الألفاظ الغامضة من جراء التعديلات الكثيرة التي أدخلها ألونسو ديل كاستيو في الأوراق الأخيرة لبحثه ، والتي نوهت بها سابقاً بأنها مجرد مسودة .

(٢٤) Alizaro Alicer هو الإفريز من القيشاني - الخزف - الذي تزدان به الأجزاء السفلية من الحوائط الداخلية .

(٢٥) ولكي يشرح ألونسو ديل كاستيو اشتقاق كلمة المدرسة ومدلولها فإنه استعان بمصطلحات لاتينية لكي يبين لنا أنه في المدرسة لابد من قَدَحَ العقل لكي يقدم لنا الأفكار .

(٢٦) هنا أخطأ ألونسو ديل كاستيو عندما أراد أن يجد التاريخ الموافق لعام ٧٥٠ هجرية بالتاريخ الميلادي فالعام هو ١٣٤٩ م وليس ١٢٥٧ كما ذكر ديل كاستيو .

(٢٧) التسلسل الأول هو الذي تبتأه القس إيتشباريا وكذلك ألماجرو وجايجو وبورين ... إلخ ، بينما نجد أن جوميث مورينو يعكس هذا التسلسل وإن كان يتفق مع ترجمة هؤلاء .

(٢٨) بحر الكامل القافية رى وعلى الرغم من أن ديل كاستيو قد قرأ النص بصورة صحيحة ، فإنه عند نُسْخه في مذكراته اليومية وقع في بعض الأخطاء الطفيفة التي يسهل تصحيحها عن طريق فن العروض في الكلمات الثلاث التالية : الرياض بدلاً من روض ، والمنسوج بدلاً من النسيج ، وفي بدلاً من في الشطر الثاني من البيت الثاني .

(٢٩) إيتشباريا " التجول في غرناطة " ص ٤٧ ألماجرو " دراسة " ص ٢١٦ جوميث - مورينو الدليل جايجو وبورين غرناطة ص ٣١٨ . والنقطة الأخيرة التي أبرزتها في النص ليست لها أدنى صلة بالأبيات الثلاثة الأمر الذي لم ينتبه له القس إيتشباريا ولا الذين اتبعوه ، وبالتأكيد فإنه يتعلق بسطر عربي كان مكتوباً عقب الأبيات مباشرة أعاد نسخه ديل كاستيو ويقول : والصلاة والسلام على النبي محمد مادامت الشمس تجوب عتات السماء .

(٣٠) يعني يوم الحشر أو القيامة .

(٣١) بحر الطويل قافية ميمية مكسورة . يبدو أن ديل كاستيو قد قرأ النص صحيحاً للأبيات التسعة إلا بعض الأشياء الطفيفة التي يمكن أن تُعزى إلى أخطاء مطبعية يمكن تصحيحها عن طريق العروض ، وعلى

هذا فالكلمة الأولى بالبيت الرابع هي الجمع "البيد" وليس المفرد "البيدا" ، والكلمة الخامسة بالشطر الأول من البيت السادس هي تنوي وليست تنو أما الرابعة في شطره الثاني فهي طول وليست طل . أما الكلمة الثالثة في البيت الثامن فهي نذرة وليست تاذرة والكلمة الأولى بالبيت التاسع هي جزى وليست جازى .

(٣٢) إيتشيباريا " التجول في غرناطة " ص ٤٦ ألالجرو " دراسة " ص ٢١٥ - ٢١٦ جوميث - مورينو الدليل ص ٢١١ جاييجو ويورين غرناطة ص ٢١٨ إلخ ..

(٣٣) لقد أشرت في ترجمة ديل كاستيو بشرطة مائلة للفصل بين البيت والذي يليه وإذا كان هذا في غاية الصعوبة لظن نص المؤلف ديل كاستيو من علامات الترقيم تماماً . وهذا دليل آخر على كون الجزء الأخير من عمله مجرد مسودة كما أشرت إلى ذلك مسبقاً ؛ لأنه قدّم لنا ترجمة أخرى لنفس الأبيات (الورقة ٣٤ في و٣٤ ر) أقل وضوحاً وتعديلات جمة .

(٣٤) وبهذه الكلمات يحاول تفسير الترتيب العادي الإسباني متخذاً ترتيباً عكسياً في الأوراق الثلاث الأخيرة من عمله عما التزم به سابقاً في بقية النصوص العربية وفي عرضه لترجماته .

(٣٥) محاضرة لخيوسوس روبيرا ماتا " قصائد النقوش لابن الجيّاب بقصر الحمراء " مجلة الأندلس العدد ٣٥ (١٩٧٠) ص ٤٥٤ - ٤٥٥ .

(٣٦) ابن الخطيب (لسان الدين) ديوان دراسة وطبعة نقدية للدكتور م . شريف القاهرة - الجزائر ١٩٧٣ .

(٣٧) إيميليو جارثيا جوميث " ابن زمَرْق شاعر الحمراء " غرناطة - (١٩٧٥) ص ٥٠ .

(٣٨) عن ابن صابرين وابن صفوان راجع محاضرة م. خيسوس روبيرا المذكورة آنفاً، مجلة الأندلس - العدد ٣٥ ص ٢٥٤ بالمصادر المشار إليها في الملاحظتين ١٠ ، ١١ على التوالي .

الفصل الثالث

ابن الجيّاب (الشاعر الأندلسي)

مقدمة

إنَّ ابن الجيّاب هو الشَّاعر الآخر للحمراء ؛ لأنه يوجد شاعر للحمراء يُدعى ابن زَمَرْق الذي كتب أشعاره فى أجمل أماكن قصر الحمراء ، هذا فضلاً عن كونه سعيد الحظ ؛ لأنَّ السيد إيميليو جارتيا جوميث قد خصَّصَ له بعض صفحاته الجميلة ، وقد خطف ابن زَمَرْق الأضواء ، وكان نجم شعراء النقوش أو الكتابة ، وقد زَوَّى رفاقه الآخرين على الهامش ، هؤلاء الذين اشتركوا معه فى مهمة زخرفة قصر الحمراء بأشعارهم وقصائدهم .

وهناك مخطوط قديم موجود بمكتبة القاهرة هو الذى أفصح عن تصحيح هذا الوضع المتميز ؛ حيث كشف لنا أنَّ قصائد أخرى بقصر الحمراء لها مؤلف مُعترفُ به هو ابن الجيّاب الذى كان حتى ذلك الحين أحد شعراء البلاط المغمورين بغرناطة النُصيرية فى النصف الأول من القرن الرابع عشر .

وقد وصل المخطوط إلى ليس من قبيل الصدفة بل لأننى انغمست فى دراسة هذا العصر الذى أصبح موضوع رسالتى للدكتوراه ، ولكن من قبيل الحظ عثرتُ على القصائد - بين صفحاته التالفة - التى ما زالت موجودة على جدران جنة العريف أو فى برج لاكوتيبيا (الأسيرة) وقد كان بلا شك صندوقاً من المفاجئات ، حيث أخرجت منه كل المعلومات غير المتوقعة على الإطلاق عن النصف الأوَّل من القرن الرابع عشر

الذى بدأت تتبلور فيه غرناطة النصرية التى ستؤدى على حد قول السيد / إيميليو جارتيا جوميث آخر نقطة وألذا للإسلام فى إسبانيا .

فديوان ابن الجيَّاب وفقاً للمخطوط أشار إلى أن ابن الجيَّاب فضلاً عن كونه شاعراً وموظفاً مرموقاً فى السلالة النصرية حيث إن ستة من أمرائهم ومن خلالهم عالم غرناطة المؤثر الذين جعلوا من قلعة قديمة قصر الحمراء العجيب .

وهذه الدراسة هى ثمرة بحث طويل لم ينته عند تقديمنا لرسالة الدكتوراه عن ابن الجيَّاب بجامعة كمبلوتنسى بمدريد (جامعة مدريد المركزية) عام ١٩٧٢ كما لن ينتهى عبر هذه الصفحات ، وفيه توجد سيرة ذاتية لابن الجيَّاب والتى حاولنا أن تشمل كافة جوانب شخصيته ودراسة عن شعره وصداه فى نفس الشخصية . لقد ترك غرناطة النصرية بسياساتها المضطربة وقصورها الجميلة .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن عدة ظروف منعتنا من تقديم طبعة كاملة فى نفس الوقت للديوان من بينها أن المخطوط الذى يتضمنها هو الوحيد من نوعه فضلاً عن تعدد الثغرات به وطولها ، وبالتالي ستكون الطبعة غير كاملة ؛ ولذلك فقد فضلنا تقديم طبعة جزئية ما هى إلا مختارات من الديوان مقترنة بفهرس تحليلى لكل المادة التى يحتوى عليها المخطوط .

وإعداد هذا العمل كان الطريق ممهداً أمامى ؛ لأننى اقتديت بدراسة السيد / إيميليو جارتيا جوميث تحت عنوان ابن زَمَرْق : شاعر الحمراء ، والتى كانت خطبته للاتحاق بالأكاديمية الملكية للتاريخ كعضو عام ١٩٤٢ ، وبالتالي فشكرى للسيد / إيميليو جارتيا جوميث على أنه أرشدنى فى خطواتى الأولى - دون أن يعرف - بغرناطة النصرية ، وكذلك لتكرمه بالتقديم لهذه الصفحات .

وأتوجه بالشكر أيضاً إلى لفيف كبير من الأساتذة ومتخصصى اللغة والدراسات العربية الذين ساعدونى بنصائحهم وإرشاداتهم وتوجيهاتهم الدءوبة وخاصة السيد / الياس تريس الذى أشرف على رسالتى للدكتوراه وهى لب هذا العمل

وجوهه وإلى السيد / فرناندو لاجرانخا والسيد / خواكين بالبية بمساعداتهم الثاقبة والدائمة على مدى سنوات وإلى السيدة / سوليداد خيبرت التي حثتني على دراسة مملكة غرناطة والموقر القيس السيد / داريو كيانياس يا له من متخصص عظيم في كتابات ونقوش الحمراء الذي أمدني بالإحفاء والإيعازات المضيئة والمنفعة .

المراجع

إن الكاتب الرئيسى للسيرة الذاتية لابن الجيَّاب هو أيضاً الذى جمع شعره وهو تلميذه ابن الخطيب ، وذلك لأن بقية المؤلفين الذين تطرقوا لشخصيتنا اقتصروا على إعادة نسخ المعلومات التى أوردها ابن الخطيب على مدى إنتاجه الضخم التاريخى - الأدبى .^(١)

١- الإحاطة فى أخبار غرناطة

توجد السيرة الذاتية لابن الجيَّاب فى المخطوط رقم ١٦٨٣^(٢) بمكتبة الإسكوريال ص ٣١٥ - ٣٢٤ ومن ص ١٢٥ إلى ١٥٢ بطبعة عنان الجزء الرابع (القاهرة عام ١٩٧٧) .
وكما فى معظم السير الذاتية التى يخصصها إلى معاصريه فإن ابن الجيَّاب يستخدم كمصدر أعمال أخرى له سابقة على هذا العمل فمقطع من عمله عيد السلا^(٣) الذى كتبه فى شبابه كاستكمال مزعوم لعمل ابن الزبير . هذا النص هو سرْدٌ لمعلومات صاحب السيرة الذاتية تحت رداء من البلاغة والإنشاء إلى جانب وصف لشخصيته .

وعنصر آخر للسيرة الذاتية هو جزء من " التاج المبلَّى فى مشكلات الكذب المعلَّى " والذى أراد به ابن الخطيب استمرار أو استكمال " اختصار الكذب المعلَّى فى التاريخ المبلَّى " (٤) لابن سعيد المغربى ، ولا يزال التاج محفوظاً فى مخطوط بالأسكوريال (٥)
أما مقطع ابن الجيَّاب الذى أعيد نسخه فى الإحاطة فما هو إلا إنشائى للتقريظ والمدح .

أمَّا بقية السيرة الذاتية فإنها تتضمن قائمة بأسماء أساتذته وقد نُسخَت من مذكرة من سيرة ذاتية أعدّها ابن الجيّاب نفسه ، وهي عبارة عن نقاط موجزة عن سيرته بها تاريخ ومحل ميلاده ووفاته كتبها ابن الخطيب وعبد الله بك جزاي .

والإحاطة تقدّم خارج هذه السيرة الذاتية بعض المعلومات المتناثرة في سير ذاتية أخرى لشخصيات مُرتبطة بابن الجيّاب مثل سير السلاطين الناصريين وهي نفس النصوص التي ظهرت في اللوحة العمل الذي سنُحلّه فيما يلي : إيان حكم محمد الثالث ونصر وإسماعيل ومحمد الرابع ويوسف الأول .

٢- اللوحة البدرية^(٦)

وهذا العمل عن تاريخ السلالة الملكية النصرية حتى محمد الخامس ، وهي تزودنا بمعلومات عن الدور السياسي لابن الجيّاب وعلى الرغم من الطابع التاريخي لكتاب اللوحة إلا أنّه يبدو مصدرًا غير مألوف للعمل الأدبي لابن الجيّاب ؛ لأنه يتضمن بعض قصائده المكتوبة أو المنقوشة بصورة صحيحة على شواهد قبور السلاطين وإن كنت هذه القصائد تبدو أنها مجهولة الأصل والمؤلف .

٣- الكتابة الكامنة^(٧)

في هذه المختارة الشعرية يهدى ابن الخطيب إلى أستاذه السيرة الذاتية رقم ٦٢ منزلاً إيّاهُ منزلة الكتاب^(٨) والنص الذي يقدم المختارة الشعرية ما هو إلا النتاج المذكور آنفًا ، والذي أعيد نسخه في الإحاطة .

٤- ديوان ابن الجيَّاب^(٩)

ويخبرنا ابن الخطيب نفسه^(١٠) بأنَّه جمع شعر ابن الجيَّاب فى ديوان واحد ، وهو المرجع أو المصدر الرئيسى للأعمال الشعرية لشخصيتنا ، ولكنه مصدر تاريخى غير مألوف عن الإمارة النصرية وعن حياة ابن الجيَّاب .

وديوان ابن الجيَّاب محفوظ بدار الكتب المصرية بالقاهرة والمقيد بكتالوج المكتبة السالفة الذكر عام ١٩٢٦ ومكتوب بخط مغربى قديم بلا رأس - ممزق ومتاكل عند أطرافه .

وفى عام ١٩٦٨ عندما طلبنا السؤال عن حال هذا المخطوط المصنف برقم ٢٤٢٤ أدب أخبرونا بأنَّه أصبح لا يُقرأ تماماً ، وأصبح لبابة مُشوَّهة لا شكل لها ، ولكن دار الكتب أيضاً أمرت بنسخ المخطوط فى عام ١٩١٧ عندما كان يمكن قراءته والمخطوط الجديد أو العدد الجديد محفوظ بالمكتبة المصرية برقم ٢٦٧٨ أدب ، وقد قام الخطاط محمد حمزة بإعداد نسخة هائلة للمخطوط بالخط النسخ الواضح جداً ، وقد شمل النص الأصى كما توضح المصادر الأخرى لشعر ابن الجيَّاب التى ما زالت موجودة وتسمح لنا بقراءة نقدية أو أسماء الأماكن والأعلام الغرناطية التى استطاع أن ينسخها بدقة بالغة . ولكن فى عام ١٩١٧ فإن المخطوط الأصى كانت به بعض الثغرات الكبيرة ، والتى أشار إليها النساخ فى موضعها ، والتى يمكن أن نضيف أنَّه ترك أماكن الكلمات التى لم يفهمها خالية .

ومن مجموع ذلك فإن ديوان ابن الجيَّاب يقدم لنا عدداً ممتازاً من الصفحات - ٢٧٠ صفحة فى كل منها ٢٠ سطراً - و٢١٩ قصيدة مما يمثل إحدى المجموعات الشعرية القيَّمة لأديب أندلسى .

وابن الخطيب الذى جَمَعَ الديوان رتبه ترتيباً أبجدياً ؛ حيث جَمَعَ جميع القصائد التى تتفق فى قافية واحدة مع الحرف الهجائى الذى يناسبها ، وانطلاقاً من الافتراض الذى يقول بأن ابن الجيَّاب ألف معشرة وتخميناً لكل حرف من حروف الهجاء ، وأن كل فصل يبدأ بمعشرة إلى جانب ملاحظات النساخ ، فإننا يمكننا تقديم تحليل للحالة النقدية للنسخة بالنسبة لما يتضمنه الديوان فى الأصل .

حرف الألف	: لا يوجد على الإطلاق .
حرف الباء	: القصائد من الأولى إلى الرابعة عشرة ، لا توجد بداية لقصائد هذه الاتفاقية .
حرف التاء	: قصائد من ١٥ إلى ١٨ وبها ثغرة مهمة بين ١٧ و ١٨ ،
حرف الثاء	: قصائد من ١٩ إلى ٢٠ ، وهي كاملة وإن كانت لها معشرة وتخميس .
حرف الجيم	: القصائد من ٢١ إلى ٢٧ ، ونعتقد أن هذا الحرف كامل أيضاً .
حرف الحاء	: القصائد من ٢٨ إلى ٣٢ ، ونعتقد أن هناك جزءاً ناقصاً على الأقل التخميس للمعشرة .
حرف الخاء	: غير موجود على الإطلاق ، ولكننا نعتقد أن هذا يرجع إلى تلف المخطوط ؛ حيث إن من المفترض أن يكون ابن الجياب قد أعدّ على الأقل معشرة إلى تخميسها كما في حرف الثاء .
حرف الدال	: قصائد من ٣٣ إلى ٥٣ ، وهي ناقصة أيضاً وبدون تخميس في المعشرة ، وقد أعقبها بشكل فجائي وبدون تمهيد الحرف التالي .
حرف الذال	: غير موجود على الإطلاق وينطبق عليه ما ذكرناه في حرف الخاء .
حرف الراء	: القصائد من ٥٤ إلى ٧٨ ، إلا أن بداية المعشرة غير موجودة ، كما أن القصيدة الأولى تبدأ من المنتصف .
حرف الزا	: القصائد من ٧٩ إلى ٨٠ ، وهو كامل على الرغم من احتوائها على معشرة واحدة وتخميس واحد .
حرف السين	: القصائد من ٨١ إلى ٨٣ تبو كاملة دون ثغرات .

حرف الشَّين	: القصائد من ٨٤ إلى ٨٧ تبدو كاملة دون ثغرات .
حرف الطَّاء	: القصائد من ٨٨ إلى ٨٩ تبدو كاملة ، ولكنها ليست بها سوى عشرة واحدة وتخمس واحد .
حرف الظَّاء	: غير موجود على الإطلاق ، وينطبق عليه ما ذكرناه في حرف الخاء .
حرف الصَّاد	: غير موجود على الإطلاق ، وينطبق عليه ما ذكرناه في حرف الخاء .
حرف الضَّاد	: القصائد من ٩٠ إلى ٩٤ تبدو كاملة .
حرف العين	: القصائد من ٩٥ إلى ١٠٤ تبدو كاملة .
حرف الغين	: القصائد من ١٠٥ إلى ١٠٦ تبدو كاملة على الرغم من احتوائها على عشرة واحدة وتخمسها .
حرف الفاء	: القصائد من ١٠٧ إلى ١١٧ تبدو كاملة .
حرف القاف	: القصائد من ١١٨ إلى ١٢٧ تبدو كاملة .
حرف الكاف	: القصائد من ١٢٨ إلى ١٢٩ ، وينقصها قصائد في النهاية (التخمس) وقد بدأ الحرف التالي فجأة بدون تمهيد .
حرف اللام	: القصائد من ١٣٠ إلى ١٥٩ البداية غير موجودة كما توجد ثغرات في بداية القصيدتين ١٣٣ و ١٣٥ .
حرف الميم	: القصائد من ١٦٠ إلى ١٨١ ، وتوجد ثغرة بين القصائد رقم ١٧٧ و ١٧٨ وفي النهاية ، كما أن الحرف التالي قد بدأ فجائياً دون تمهيد .
حرف النُّون	: القصائد من ١٨٢ إلى ٢٠٦ ، البداية غير موجودة كما توجد ثغرات بين القصائد رقم ١٩٦ و ١٩٧ وبين رقم ٢٠٠ و ٢٠١ .
حرف الهاء	: القصائد من ٢٠٧ إلى ٢٠٩ تبدو كاملة .

: القصائد من ٢١٠ إلى ٢١٢ وتبدو كاملة .

حـ حـ حرف الواو : القصائد من ٢١٣ إلى ٢١٦ غير موجود تخميس المعشرة .

حـ حـ حرف لام ألف : القصائد من ٢١٧ إلى ٢١٩ ، ونعتقد أن بعض القصائد فى النهاية غير موجودة .

ومع كل الظروف السابقة فإن طبع الديوان ستحتوى على جوانب متعددة من القصور، والتي لا يمكن التغلب عليها إلا بظهور مخطوط جديد . إن أهمية الديوان من وجهة النظر التاريخية والأدبية وحتى الأثرية - ولنتذكر القصائد الكتابية المنقوشة بقصر الحمراء - جعلتنا نقوم بإعداد طبعة لبعض المختارات من الديوان نفسه إلى جانب فهرس تحليلي لجميع قصائد الديوان المُرَقَّمة بالأرقام الرومانية (أرقام اللغة اللاتينية) ، والتي قدمنا فيه نبذة عن مضمونها وتاريخها المحتمل ، ونعنى تاريخ تأليفها .

٥ - ديوان ابن الخطيب

قام السيد / محمد الشريف قاهر بطبع ديوان ابن الخطيب عام ١٩٧٣

بالجزائر .

ومن بين قصائد ابن الخطيب نجد أن بعضها تشير إلى ابن الجيَّاب : القصيدة رقم ١٦٠^(١١) . قصيدة طويلة جاءت رداً على قصيدة لأستاذه ، وهى بالتأكيد قصيدة ابن الجيَّاب التى وضعنا لها الرقم ٨ ؛ لأن القصيدتين تتفقان فى البحر والقافية ، وهى مُهداة إلى ابن الخطيب ، كما أن القصيدة رقم ١٧^(١٢) يطلب فيها ابن الخطيب مساعدة أستاذه ضد أعدائه فى البلاط الملكى ، والقصيدة ٣٣٠^(١٣) قد كُتبت تقليداً لبيت شعري لابن الجيَّاب عن غارة مسيحية (أو هجوم مسيحي) على لافيجا دى غرناطة (أى مروج غرناطة) عام ٧٤١هـ (١٣٤٠م) والقصيدة رقم ٣٤٤ ما هى إلا تَوْرِيَّةٌ بسبب سفر ابن الجيَّاب إلى شمال أفريقيا^(١٤) .

مصادر أخرى :

ابن فرحون (المخطوط عام ٧٩٩/١٣٩٧) (١٥)
ففى الديباج (١٦) يذكر ابن الجيَّاب (وإن كان قد أطلق عليه اسم الجيَّاب) مشيراً
إلى مولده ووفاته فقط .

ابن الأحمر (المخطوط عام ٨٠٧/١٤٠٤)

هذا الأمير الناصرى شاعرٌ وأديبٌ أدرج فى عمله المُسمَّى نظير..... الجُمَان
فى نظم فحول الزمان (١٧) فصلاً عن ابن الجيَّاب وقد ركز اهتمامه على مناصب ابن
الجيَّاب السياسية وعلى كونه شاعراً من شعراء القصور والبلاط الملكى للأسرة النصرية
وقد مَجَّدَ بنى قومه ، وهذا كان جلُّ اهتمامه ؛ لهذا السبب استشهد بمقطوعات متعددة
من قصيدة السلطانية .

ابن القاضى (مخطوط عام ١٠٢٥/١٦١٦) (١٨)

اقتصصر فى عمله - دُرَّةُ الحجال - (١٩) على إعادة نسخ السيرة الذاتية لابن الجيَّاب
الكائنة فى الإحاطة ، ولكن بإيجاز مُفَرِّط .

المقرئ (مخطوط عام ١٠٤١/١٦٣٢)

- ١- أزهار الرياض (٢٠) إشارة صغيرة إلى السيرة الذاتية وقصيدة هجائية .
- ٢- نفعُ الطَّيِّب (٢١) . إن عمل المقرئ فى التجميع مفيدٌ للغاية ، وفيما يتعلق بابن
الجيَّاب يُعتَقَدُ أنه استخدم السيرة الذاتية الكاملة الأصلية بالإحاطة (٢٢) ، فضلاً عن
المعلومات الموجودة فى تلخيص الإحاطة ، بالإضافة إلى عدد كبير من القصائد أكثر
من هذا النص ونموذج نثرى لابن الجيَّاب لم تظهر فى أى مصدر آخر .

وفى السيرة الذاتية المُعاصرة توجد بعض الإشارات إلى ابن الجيَّاب بصفة عامة فيما يتعلق بعلاقته مع تلميذه الخطيب ، وعلى سبيل المثال السيرة الذاتية المختصرة التى أدرجها بونس بويجيس^(٢٢) فى السيرة الذاتية الخاصة بتلميذه ابن الخطيب . وفى عمل المصرى مُحَمَّد كمال شبانة "يوسف الأول بن الأحمر" توجد سيرة ذاتية مُوجزة جداً^(٢٤) ، وتضم بين الوثائق إعادة نَسْخِ لنص السيرة الذاتية الكائنة بالإحاطة .^(٢٥)

ابن الجيّاب : الإنسان

مرحلة الشباب والإعداد :

نُسِبَهُ : هو أبو الحسن على بن مُحَمَّد بن على بن سليمان بن حسن الناصري والمعروف بابن الجيّاب . وُلِدَ في غرناطة إبَّان شهر جمادى الأولى عام ٦٧٣ الموافق (نوفمبر - ديسمبر عام ١٢٧٤) . (٢٦)

وكانت أسرته من أهل مدينة غرناطة ؛ حيث لم يَبْرَعْ أجداده في أى جانب من الجوانب حيث إن ابن الخطيب لم يذكر شجرة نسبه على غير المألوف وربما تنتسب أسرته إلى الحرف اليدوية كما يشير لقب الأسرة في الظاهر (٢٧) . ومع ذلك فابن الجيّاب يوضح لنا في إحدى قصائده (٢٨) بأن أجداده كانوا منهمكين في الدراسة والدين كالفقهاء ، ويحدثنا عن طفولته ، وهو أمر غير معهود في الشعر العربي . ومن خلال أشعاره نكتشف أن والده علَّمهُ القرآن .

" نشأتُ تحت رعاية أو في كنف رجل الشهامة والمروءة الذي هو والدى محاطاً بالمجد والفخار والعزة بين العلم والكرم .

وكان أوَّلُ شَيْءٍ قُدِّمَ إليَّ في طفولتي دراسة إجبارية لكتاب الله ، ولم أَدخر وسعاً للاجتهاد فيه دون أن أشعر بالإجهاد أو الملل ."

وكما نرى فإن الخطوة الثانية في حياة الشاب على كانت دراسة العلوم القرآنية ؛ فالتحول الثقافي لغرناطة تحت رعاية أسرة محمد الثاني الملقَّب بحقِّ بالفقيه الذي قدَّم لجيل ابن الجيّاب جمعاً فاضلاً من كبار الأساتذة في كَنَفِ الأمير صديق الأديب والعلوم على طرف نقيض تماماً لوالده محمد الأوَّل ؛ فهو ملك جاويز كان ينتهر أبنائه عندما يجدهم يدرسون . (٢٩)

ولهذا فإن قائمة معارف ابن الجيَّاب (٢٠) تشمل كل العلوم التي تندرج في التعليم الإسلامي العالي مثل : علم القراءات أو علم القراءات القرآنية ، تفسير القرآن ، علم الحديث أو السنن ، الفقه وعلم الفرائض أو الميراث ، وكل هذا يسمح لنا أن نَصِفَهُ بالفقيه .

وإلى جانب هذه العلوم الإسلامية أضاف معارف وعلومًا دنيوية مثل : علم الأدب بشقيه الشعر والنثر ، والذي وصل به إلى درجة الرأويَّة . علم اللغة وعلم العربية أي معرفة اللغة العربية وعلم البلاغة العلم الذي لا غنى عنه لأي شاعر . وإلى جانب كل هذه العلوم والمعارف يجب أن نضيف علمًا ليس كلاسيكيًا وهو التصوف ، وهو علم نال تقدير ابن الجيَّاب ، وكان إحدى ثمار ذلك العصر . وقد استطاع ابن الجيَّاب تحصيل هذه العلوم طوال مرحلة كبيرة كما كان مُتَّبِعًا بين الدَّارسين العرب . وسنحاول التدرج في هذه المرحلة الطويلة من خلال علم التأريخ الزمني لأساتذته بالقدر الذي يمكننا التحقق منهم أو التعرف عليهم ووضعهم في مرحلة محددة في حياة ابن الجيَّاب .

وكان من بين الأساتذة الذين تردد عليهم ابن الجيَّاب ورفاقه من طلاب العلم ابن الزبير الذي كان يلقي دروسه التعليمية في مسجد غرناطة الكبير (٢١) . وهذا الفقيه المُرْعَبُ الملقب من قبل ماسيجنون بأنه صائد الساحرات . وكان ابن الزبير أول أستاذ لابن الجيَّاب ، ويؤكد أنه تَرَعَّرَ معه وذلك في السيرة الذاتية التي أعدها لأساتذته في الإحاطة (٢٢) ، والتي مُنِحَ على أثرها درجة الإجازة العالية (٢٣) .

والذي يمكننا به أن نفترض أن ابن الجيَّاب اكتسب معارف قانونية ودينية لكي يصبح فقيهاً شهيراً ، ولكن كآخرين من معاصريه استطاع أن يجمع بين الاستقامة الفقهية الأندلسية بميل عميق إلى التصوف الذي كان ظاهرة منتشرة بين كثير من شخصيات الإمارة النصرية الأمر الذي يستحق الدراسة بتعمق ؛ ولهذا فإن من بين أساتذته أحد المتصوفين المشهورين ، وهو أبو الحسن فضل بن محمد بن علي بن فضيلة (المتوفى عام ١٢٩٩/١٢٩٩) (٢٤) المنتسب إلى المذهب الصوفي لبني سيدي بونا (٢٥) ، والذي كان معسكره العام بحى البائسين . إنَّ مما له مغزى أنَّه في قائمة سيرته الذاتية لأساتذته أن ابن الجيَّاب ذكر في المقام الأول هذا المتصوف ، والذي كان

مذهبه أو طريقته قد اتبعها طوال حياته الروحية . وسنعود فيما بعد إلى هذا الجانب من شخصية ابن الجيَّاب .

وفى لحظة ما من شبابه انتقل ابن الجيَّاب وهو فى شبابه إلى مالقة عندما كان خطيباً بديوان الإنشاء فى خدمة محمد الثانى ، وهناك استمر إعداده العلمى . وقد درَّس ابن الجيَّاب القرآن مع الأستاذ أبى الحسن على بن أحمد بن محمد بن على بن أحمد البلوطى (المتوفى علم ٧٢٠ هجرية ١٣٠٢-١٣٠٣ م) والمولود فى منطقة بينتوميت ^(٣٦) وقد درس إلى جانب ذلك القراءات السبع للقرآن ، كما حضر دروس القاضى أبو عبد الله بن عيَّاش . وبعد مرور عدة أعوام تَخَلَّى ابن عيَّاش عن منصب القاضى بعد ممارسته لهذه المهنة ثلاثة أيام فقط ^(٣٧) ، كما أن هناك أستاذاً آخر شهيراً لابن الجيَّاب هو : عبد الواحد بن محمد بن أبى السداد المعروف بالباهلى (المتوفى عام ٧٠٥/١٣٠٥) ^(٣٨) الذى كان يلقى دروسه فى مسجد مالقة الكبير .

وقائمة أساتذة ابن الجيَّاب لا تنتهى بأساتذته المالقيين ؛ لأنه كما كان شائعاً لأى دارس فى العصور الوسطى فقد استمر ابن الجيَّاب فى حضور ندوات ودروس لعدد من العلماء طوال معظم حياته . وبالإضافة إلى الذين لهم ثقل فى ثقل ابن الجيَّاب والذين سنذكر فيما بعد نجد أن سلسلة من الأسماء تظهر فى قائمة سيرته الذاتية يصعب ترتيبها زمنياً ؛ لأنه فى مرحلة شبابه ونضوجه فإن أساتذة مغاربة وشرقيين منحوه الإجازة بالتاكيد دون أن يحضر دروسهم .

و سنبرز من بين هؤلاء الخطيب أبا جعفر أحمد بن على الكاھلى المتوفى عام ٦٩٢ هـ ١٢٩٢ م ، إذا كان هذه هو الشخص الذى أشار إليه ابن القاضى ^(٣٩) ، وكذلك نجد محمد بن يحيى بن ربيعة الأشارى الذى ربما يكون القاضى محمد بن يحيى المعروف بابن أبى بكر ^(٤٠) ، مالك بن المرحَّل ^(٤١) بالتاكيد ، وأيضاً أبا العباس بن الجمزة قاضى الجماعة فى تونس . ^(٤٢)

(١) ديوان الإنشاء النُصرى

لقد كان طموح معظم الأدباء الشبان بالإمارة النصرية بالتأكيد الحصول على منصب فى البلاط الملكى وخاصة كخطيب^(٤٣) . إنَّ محمد الثانى هو صانع النُّهضة الثقافية فى غرناطة ، كما زوَّد الإمارة التى ورثها من والده بالهيئات الإدارية ، ومن بينها الوزارة وديوان الإنشاء أو هيئة التحرير .

و الوزير ، كلقب ، وُجدَ فى الأندلس منذ الأقدم ، ولكنه لم يكن يمثل هذا المنصب المتميز كما فى الشرق^(٤٤) . إنَّ لقب الوزير عانى عبْر الأزمنة من الاحتقار^(٤٥) ؛ ففى إمارة النصرى محمد الأوَّل يواصل هذا التقليد بشأن غموض هذا المنصب ويعين وزارة لحكام بعض المدن^(٤٦) دون أن يعنى هذا التعيين وظيفة مستقلة عن الوالى ، وقد ورثت اللقب ذرية هؤلاء الحكام أو الولاة . وكان محمد الثانى هو أوَّل من أنشأ منصب " وزير أوَّل " ، وهو وزير ذو مهام خاصة ومحددة .^(٤٧)

ولكن من بين هذه المهام نعتقد أنَّها لم تشمَل المراسلات الرُّسمية كما قيل مستندين إلى كلمات ابن خلدون^(٤٨) - اليوم فى الأندلس لوزيرها مهامه المألوفة إلى جانب المراسلات . ويشير ابن خلدون إلى عصر محمد الخامس عندما كان ابن الخطيب وزيراً ، ولكن ابن الخطيب كان يحمل لقب صاحب الوزارتين . وقد تمتع بهذا اللقب الأشخاص الذين جمعوا بين منصبى الوزير ورئيس ديوان الإنشاء مثل ابن الحكيم دى روندا مع مُحَمَّد الثالث^(٤٩) ، وابن الجيَّاب نفسه كما سنرى^(٥٠) ، وابن الخطيب مع يوسف الأوَّل ومحمد الخامس ؛ فوزير ابن خلدون كان يحمل المراسلات لأنَّه كان بالإضافة إلى ذلك خطيباً ، والمهمة الوحيدة للوزير بالنسبة للمراسلات أو البريد كانت تكمن فى وضع علامة أو تصريح على الرسائل وهى توازى الخاتم الملكى والذى كان فى الإمارة النصرية " لا غالب إلاَّ الله " ^(٥١).

إنَّ " ديوان الإنشاء " كان مُكلِّفاً بكتابة المراسلات والوثائق الرُّسمية ، وقد ترك لنا ابن الخطيب نموذجاً لكليهما فى عمله « ريبات الكُتاب » عبارة عن نموذج أو صيغة لكى يتبعها أمناء ديوان الإنشاء^(٥٢).

ونعتقد أن من بين مهام كُتَّاب ديوان الإنشاء تأليف القصائد المدحية (قصائد المدح) القصائد السلطانية ، وبهذا يمكن البرهنة على النشاط الأدبي للشخصيات التي شغلت هذا المنصب وكروساء لديوان الإنشاء مثل ابن الجيَّاب وابن الخطيب وابن زَمَرْق أو كُتَّاب عاديين بنفس الديوان كابن صابرين^(٥٣) أو ابن صَفْوَان^(٥٤).

قابن زمرق يعتبر أنه قدَّم خدمة جليلة لتأليفه ٧٧ قصيدة من هذه القصائد^(٥٥) ، وهذا يعنى أنهم كانوا موظفين مهمتهم إلى جانب مهام أخرى هي تأليف قصائد على شرف السلالة الملكية أو الأسرة المالكة ، وقد كانت المناسبات لإلقاء هذه القصائد الأعياد الرسمية وأعياد الفطر والأضحى التي كان يُحتفل بها بشكل جليل ومهيب برئاسة السلطان في قاعة الاحتفالات^(٥٦) ، ومن بين الأعياد التي حظيت باهتمام كبير للاحتفال بها هو عيد المولد النبوي وإن كان قد دخل حديثاً بالاندلس^(٥٧).

وكانت القصائد السلطانية تشيِّد بالأحداث الأسرية للأمراء : أفراح الزواج والميلاد والأسفار والعروض العسكرية ، وكذلك العودة من الحروب منتصرين .

إنَّ قصائد الكُتَّاب كانت تتابع الأمراء النصرين حتى بعد الموت ، وذلك بقصائد الرثاء (الرثائيات) التي كانوا يودعونهم بها في الجنائز ، وكذلك بشواهد القبور التي كانت ترافقهم في قبورهم .

ولا يجب أن نستغرب كثيراً أنَّ أشعار الكُتَّاب كانت تشارك أيضاً في ديكور جدران القصور النصرية وبما نعرفه حتى الآن فإنَّ القصائد المنقوشة بقصر الحمراء هي من تأليف الكبار الثلاث لديوان الإنشاء : ابن الجيَّاب وابن الخطيب وابن زَمَرْق .

لقد انضم على بن الجيَّاب إلى ديوان الإنشاء وهو في سن المراهقة ، وقد تعرَّف على رئيسه آنذاك محمد بن علي بن العبيد^(٥٨) ، والذي توفي عام ١٢٩٥/٦٩٠ وقد عَزَلَ من منصبه من جرَّاء إيمانه للمسكرات قُبيل هذا التاريخ ، وأسباب هذا الانضمام المبكر لابن الجيَّاب يجب ألا نبحث عنها في نضح سابق لأوانه واستثنائي لشاعرنا وأديبنا ، بل يجب أن نبحث عن ذلك في بنية ديوان الإنشاء نفسها .

ونحن نعتقد بأن الديوان كان أشبه بورشة ؛ حيث كان الكتّاب يعملون فنانون يقرضون الشعر والسجع ، وكانوا يعملون فى مادة اللغة العربية تحت إشراف رئيس الديوان الذى كان يقوم بتصحيح وتهذيب قصائدهم التى من المقرر أن تُشَدَّ فى اللحظات المهيبة والمناسبات الجليلة .

وابن الجيّاب بوصفه تلميذاً أو صبيّاً بديوان الإنشاء كان رئيسه ابن الحكيم دى روندا ^(٥٩) الذى خلف ابن العُبَيْد ، وعندما يتولى ابن الجيّاب رئاسة الديوان سيقوم بتعليم الصبية الجدد ، أو التلاميذ الجدد والذى سيجد من بينهم تلميذاً قذاً هو ابن الخطيب ؛ حيث سيقدم له كل خبايا وأسرار هذه المهنة ، وفى هذا التسلسل الفنى سيتولى ابن الخطيب رئاسة ديوان الإنشاء ، وسيختار من بين تلاميذه العباقرة خطيباً جديداً واعدداً هو ابن زَمَرْق ^(٦٠) .

وقد أشرنا فى مكان سابق ^(٦١) إلى أن هذا هو سبب للهوية المدهشة لأسلوب القصائد المنقوشة بقصر الحمراء ، وهى قصائد مُتتالية لابن الجيّاب وابن الخطيب وابن زَمَرْق .

(٢) الموظف الشاعر

لقد بدأ ابن الجيّاب مبكراً فى وظيفته بوصفه شاعراً ملكياً ، وقد كانت قصيدته الأولى السلطانية مُهداة إلى محمد الثانى ^(٦٢) بمناسبة الغارات التى شنّها هذا الملك على أراضى جيان ، والتى يمكن تأريخها ما بين ١٢٩٥ و ١٣٠٠ م. ^(٦٣) ومن ذلك الحين وابن الجيّاب يقوم بشرح وتفسير أحداث الأسرة النصرية المالكة بصيغ نمطية حتى آخر قصائده التى أهداها إلى يوسف الأول عام ١٣٤٥ ^(٦٤) . وخلال خمسين عاماً كان ابن الجيّاب خطيباً وشاعراً موظفاً وفى الوقت نفسه شاهداً فريداً وحكيماً للسياسة الغرناطية المضطربة إبان النصف الأول من القرن الرابع عشر .

إن مهارة ابن الجيّاب الشعرية كانت عظيمة ؛ لأنه قبل توليه رئاسة ديوان الإنشاء تم تكليفه بتأليف قصيدة الرثاء الرسمية عند وفاة محمد الثانى ^(٦٥) التى حدثت

عام ١٣٠١ م ، وكذلك شاهد القبر الشعري للأمير نفسه^(٦٦) ، وقد كانت هذه هي المرة الأولى التي كُتِبَ فيها الخلود لأبياته الشعرية ، وذلك بكتابتها على القبر .

و ربما يكون الرئيس ابن الحكيم دى روتدا الذى كان يفتخر باتساع ثقافته ومُسَامرة شعرية راقية قد ازدري بعض الشيء عمل الشاعر الموظف وتركه فى أيدي تابعيه . والحقيقة أيضاً أن ابن الجيَّاب هو الذى احتفل بشعاره فى الأحداث الأولى لحكم محمد الثالث : حفل الجلوس على العرش للأمير الجديد^(٦٧) وبعدها مباشرة فتح بيدمار^(٦٨) ، وفى الوقت نفسه هنأ رئيسه ابن الحكيم^(٦٩) ، بثلاث قصائد عندما عُيِّنَ وزيراً . وبعد انهماك ابن الحكيم فى السياسة قام بإسناد مهامه - بوصفه شاعراً ملكياً - إلى تلميذه الذى يستطيع أن يشرح فى قصائده متعددة الآثار التى أنشأها الأمير محمد الثالث^(٧٠).

وأصاب العمى الأمير - أعمى فى غرناطة - ويجب أن يهجر السياسة التى أحب ممارستها ، ولن يرى بعد القصور الجميلة التى كان قد شيدها ، ولم يقرأ الكتب التى كان يلتهم بها ليالى الأرق^(٧١).

إن عمى السلطان كان بمثابة لحظة المجد لابن الحكيم الذى تولَّى حينذاك سلطات الأمير ، وإذا لم نعرف ذلك من خلال المصادر التاريخية لعرفناه من قصائد ابن الجيَّاب . وكبقية الغرناطيين نسيَ ابن الجيَّاب السلطان المُخْتَبَى فى أحد أركان قصر الحمراء^(٧٢) ، وأهدى إلى ابن الحكيم قصائده الملكية . وأشعارُ ابن الجيَّاب تشرح كل حدث للوزير الأول المهيمن على كل شيء : سفارته بالمغرب لإبرام التحالف الغرناطى مع الميرنيين^(٧٣) وتحالفه مع قشتالة الذى يقطع العلاقات التى أبرمتها السفارة السابقة^(٧٤) ، سفره إلى سبته لتهنئة النفوس بعد الفتح (٧٠٥ هـ - ١٣٠٥ م)^(٧٥) ، أو عندما يشغل مكان السلطان فى الاحتفال بأعياد الفطر وكذلك بأعياد الأضحى^(٧٦) . وعلى صعيد أقل مهابة هنأ ابن الجيَّاب ابن الحكيم لشفاؤه من مرض كان قد ألمَّ به^(٧٧) ، وكذلك لتسلمه هدية من تونس^(٧٨) ، أو عندما يهنئ نفسه لجدارته بحمايته^(٧٩) ، أو لكونه تلميذاً لابن الحكيم^(٨٠).

هذا وقد برّعت الإمارة النصرية تحت رعاية ابن الحكيم فى المجالين السياسى والثقافى ، فقد أصبحت غرناطة تَعِجُّ بالأدباء والشعراء ، كما أن غزو سبته أدّى إلى انتقال كثير من الأدباء والشعراء إلى العاصمة غرناطة وعلى رأس هؤلاء الأمراء الصافيين المثقفين . فسبته مرتبطة ثقافياً بمنطقة الأندلس ، وقد استقبلت كثيراً من المهاجرين القادمين من شبه الجزيرة ؛ حيث استقروا فيها على أمل العودة مرة أخرى إلى الأندلس أو الهجرة إلى مكان آخر ، كما أن ضم مدينة سبته إلى الإمارة النصرية ردّ أهل سبته إلى أرض أجدادهم ، وعلى هذا فإنّ الشاعر محمد بن على بن هانى السبّتى (المتوفى عام ٧٢٣ هـ - ١٣٣٢ م) هو من أصل أشبيلي ^(٨١) ، والقاضى أبو بكر محمد بن صابرين ^(٨٢) الذى انضم إلى ديوان الإنشاء وظل بصفة نهائية فى غرناطة ، وابن خميس دى ترميسين ^(٨٣) شاعر قديم بقصر بنى يجموسارين ، وقد أصبح صديقاً ومادحاً لابن الحكيم ^(٨٤) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن الجيّاب حضر آنذاك دروس اثنين من هؤلاء المهاجرين : ابن رُشيد الصديق الشخصى لابن الحكيم ، والذى كان قاضياً للزواج (ماثوناً) وخطيباً بالمسجد الكبير فى غرناطة حيث كان يلقي دروسه هناك ، وقاسم بن عبد الله بن محمد السطّ (المتوفى فى ٧٢٣/١٣٢٣) ^(٨٥) .

(٣) المؤامرة

وقد انتهى عصر ابن الحكيم بشكل مأساوى ؛ فقد أعدّ القائد ابن المول ^(٨٦) مؤامرة مع أفراد من الأسرة النصرية - الذى كان ينتمى إليها - لاغتيال ابن الحكيم وتنصيب الأمير نصر ، شقيق السلطان الكفيف ، سلطاناً لغرناطة . وفى يوم عيد الفطر عام ٧٠٨ (١٤ مارس ١٣٠٩) وعندما كان الشعراء قد أعدوا قصائدهم على شرف ابن الحكيم ^(٨٧) ، قام المتآمرون باغتيال الوزير (ابن الحكيم) وأرغموا السلطان محمد الثالث على التنازل عن العرش لصالح شقيقه نصر .

وفى اليوم نفسه تم اضطهاد واغتيال أصدقاء ابن الحكيم ومع ذلك فإن ابن الجيّاب لم يصب بأذى على الرغم من امتداحه لأمجاد الوزير ابن الحكيم وهى كلمات فارغة من المضمون ، والجميع كان يعلم أنها ليست صادقة ، ولكن قالها الشاعر بحكم وظيفته . ولأننا لا نعتقد أن يكون ابن الجيّاب قد اشترك فى المؤامرة ضد ابن الحكيم كما قيل فى الطبعة الأولى لمأساة ابن الخطيب - ابن زمرق ؛ لأنه كان على علاقة وطيدة فيما بعد مع نجل ذى الوزارتين ^(٨٨) أبو بكر كاتب ديوان الإنشاء التابع لابن الجيّاب وقد تبادل معه أشعاراً ودية ^(٨٩) ، ولنتذكر على العكس من ذلك القصيدة المعادية لنجل ابن الخطيب تجاه ابن زمرق ^(٩٠) ، ونعتقد ببساطة أن ابن الجيّاب استطاع بمهارة فائقة تفادى العاصفة ، وهذا هو سر بقاءه على قيد الحياة عقب المؤامرة طوال أكثر من خمسين عاماً ، ولكن هذه القدرة على المناورة لشاعرنا ابن الجيّاب لم نعرف سوى أنه ظل صامتاً أمام الجثمان الممزق لأستاذه وراعيه ^(٩١) ، وأن شاعرنا أصبح رئيساً لديوان الإنشاء فى عهد الأمير الجديد .

وعندما تولى هذا المنصب - أهم المناصب فى البلاط الملكى لغرناطة إلى جانب منصب الوزير - كان عمره يناهز الرابعة والثلاثين ولديه خبرة طويلة ككاتب ، وحينئذ سكنت قلمه مما يثير تناقضاً فى الظاهر ؛ لأنه كان من المنتظر أن يُكثف كتاباته وقصائده ، إلا أنه لم يؤلف سوى قصيدة واحدة خلال حكم نصر ولم يُهد هذه القصيدة للأمير ولكن إلى سلفه ، وهى المنقوشة على شاهد قبر محمد الثالث السلطان المخلوع الذى لقي حتفه غرقاً فى البركة ^(٩٢) . وسبب هذا الصمت يمكن أن يُعزى إلى رقابة ذاتية فرضها ابن الجيّاب على نفسه أو من جامع الديوان ابن الخطيب اللذين حذفوا كل ما يتعلق بالأمير نصر عدو إسماعيل الأول مؤسس الأسرة التى خدمها كلاهما .

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أننا لم نعرف شيئاً عن ابن الجيّاب خلال الخمس سنوات التى استمرت فيها إمارة نصر ^(٩٣) .

ويمكننا أن نفترض أن ابن الجيّاب كان من بين كبار الشخصيات بالبلاط الغرناطى الذين تأمروا للإطاحة بالأمير نصر وإعادة الأمير محمد الثالث إلى العرش

من جديد وفيما بعد حرّضوا الأمير النصرى أبو سعيد رئيس مالقة ونجّله إسماعيل على التمرد^(٩٤) ، وعندما تولى الأخير العرش فى غرناطة نجد أن صمت ابن الجيّاب قد انتهى . وسواء أكان شاعرنا أحد المتأمرين أم لا ، إلا أنه مرة أخرى استطاع السير فى موكب المنتصرين وقد احتفل بقصيدة لقدم الساهل الجديد .

وقد ثبتّ الأمير إسماعيل الأول الشاعر ابن الجيّاب فى رئاسة ديوان الإنشاء على الرغم من أنه كان قد اتخذ خطيباً آخر فى أثناء سنوات التمرد وهو ابن صفوان^(٩٥) ، وإذا كان الأمير قد اختار بين كاتبين فإن ابن الجيّاب اختار بين أميرين ، وبالتالي فإن شخصيات شهيرة من بلاط غرناطة الملكى اتبعوا الأمير نصر فى مملكة جوادكش الصغيرة ، ومن بينهم مُربّ ومعلم شهير لأبناء رجال البلاط هو عبد الله محمد بن شكرال^(٩٦) .

أمّا ابن الجيّاب وآخرون من رجال الخاصة الغرناطية ومن نوى الأعداد الفقهي الصارم فقد وجدوا فى الأمير إسماعيل الأول الساهل الذى اقترب من أيديولوجيتهم وفكرهم ؛ فالأمير اعتبر أن ركنى الدين اللذين لا غنى عنهما هما : وحدانية الله وسيفه^(٩٧) ، وقد نفذ ذلك بصرامة كمجاهد محارب للمسيحيين أو كمُشرّع بإصدار قوانينه بشأن اليهود أو عن الأخلاقيات فى العادات والتقاليد^(٩٨) .

و الأسرة الثانية التى بدأها إسماعيل الأول ستتميز بالصرامة فى الآداب والأخلاق والدين ، وهى بالتالى تفوق الأسرة الأولى فى هذه الجوانب ؛ فالسلاطين لن يكونوا شعراء وأدباء أو فلكيين ، ولكن الجميع سيرون إسماعيل الأول على رأس جنوده فى الساحات القتالية ، كما أن موتاهم سيكون لهم مدلول آخر يختلف عما كان عند سابقهم أو سلفهم ، فعند وفاة محمد الثانى كان هناك سُم ، وأمّا محمد الثالث فقد غرق فى مياه البركة الهائلة ، أمّا فى وفاة إسماعيل الأول وأنجاله سيكون هناك دمٌ ودمٌ كثير ، هذا السائل الأحمر سيُللُّ أيضاً قصائد ابن الجيّاب التى ستصبح حربية قتالية وإن كان الدمُ فيما يبدو غير حقيقى كما فى قوله :

تَبْكِي الرَّؤُوسُ مِنْ ابْتِسَامَاتِ السَّيُوفِ (١١)

وفى قصائده يجب أن يكون المسلمون هم المنتصرون دائماً ، ويتحقق له ذلك عندما يخفى فى قصائده الهزائم التى تلحق بالمسلمين ، وعلى سبيل المثال فشل إسماعيل الأول فى حصار جوادكش (١٠٠) أو كارثة جواد أورتونا (١٠١) ، ولكنه سيحتفى بحماس مُنقطع النظير بالانتصار الغرناطى على الأميرين السيد / خوان والسيد / بيدرو فى لاييجادى جرانادا (ريف غرناطة) (١٠٢) بقصيدتين (١٠٣) مليئتتين بالغضب الجامع ضد العدو المهزوم ، وخلال السنوات التالية لهذه المعركة كان يتذكر هذا الانتصار كستار لإخفاء الكوارث مثل معركة سلابو . إن مَوْتَ الوصيّين لألفونسو العاشر أبعد قشالته عن حرب الحدود وكذلك عن حمايتها للنصر الذى ظل على الرغم من ذلك فى جوادكش حتى وفاته عام (١٣٢٢/٧٢٢) ؛ حيث تمكّن إسماعيل الأول على أثر ذلك من الاستيلاء على المدينة بون مقاومة ، وقد تغنى ابن الجيّاب بقصيدتين احتفالاً بهذا الحدث (١٠٤) .

وبعد هذا الانتصار قام إسماعيل الأول بشنّ هجماته على العدو ، واستطاع أن يفتح كثيراً من المدن من بينها أويسكر ، وقد استخدم الجيش الغرناطى - وللمرة الأولى - مدفعاً الأمر الذى لفت نظر المؤرخ ابن الخطيب (١٠٥) ، ولم يجذب انتباه ابن الجيّاب هذا المدفع ؛ حيث لم يشر إليه من قريب ولا من بعيد واقتصر على وصفه للمعركة بمجازاته وكنياته المعهودة (١٠٦) .

ويزيّن الأمير إسماعيل الأول استراحته كمحارب بكثير من المنشآت والتشييدات الجميلة ، أمّا شاعره الرسمى فعليه أن يُجملها بأشعاره : وهما هو الرّواق المُعمد بجنة العريف الذى تُزيّن قصائد ابن الجيّاب (١٠٧) كواته حتى الآن (الكوة هى التجويف غير النافذ فى الجدار فهى تشبه المحراب أو المشكاة) ، وعلى الرغم من ذلك فإن قصائد أخرى لابن الجيّاب قد تلاشت من مبان أخرى شيدها إسماعيل الأول مثل المجلس أو الصالون (١٠٨) ، ربما تكون كوات أخرى (١٠٩) ، وبعض الأشياء مثل رواقيد الزينة (١١٠) (الرواقيد جمع راقود وهو الجرة الكبيرة التى توضع للزينة وهى تُزخرف من الخارج) .

هذا وفى عام ١٣٢٥ فتح إسماعيل الأول مارتوس^(١١١) بعد قتال عنيف ، وبالتأكيد كان ابن الجيَّاب سيحتفل بهذا النصر المؤزِّر لقصيدة من قصائده ، ولكنه اضطر لتغيير أغاني وأشعار السرور والغبطة بالرتاء الحزين ؛ حيث إنَّ الأمير إسماعيل الأوَّل تمَّ اغتياله بعد عودته من مارتوس بثلاثة أيام^(١١٢).

وقد ألَّف ابن الجيَّاب الرثاء الرسمى للعاهل^(١١٣) ، هذا إلى جانب قصيدة لشاهد قبره^(١١٤) ، وبعد ذلك ببضعة أيام وَجَدَ نفسه مضطراً للعودة إلى القيثارة الجنازية لموت الوزير ابن مسعود^(١١٥) فى أعقاب مبايعة الأمير محمد النجل الأكبر لإسماعيل الأوَّل ، وكان عُمرُ الأمير الجديد حينذاك عشر سنوات فقط^(١١٦).

وخلال مدة الحكم القصيرة للأمير محمد الرابع (١٣٢٥/١٣٣٣) ^(١١٧) لم يؤلف ابن الجيَّاب قصيدة سلطانية قط ، والسبب فى ذلك لا يمكن تبريره بصغر سن الأمير؛ لأنَّ هذا الظرف تكرر قبل ذلك ، ولم يمنع رئيس الشعراء من تأليف قصائد كثيرة تكريماً ليوسف الأوَّل عندما كان قاصراً ، وربما كان السبب هو نَبَذُ ما لابن الجيَّاب إلى جانب آخرين من رجال البلاط فى محاولة تأثير آخر غير تأثيرهم ، وهذا السلوك اتُّبعه كل من مُربِّيه رضوان^(١١٨) والوزير الأوَّل ابن محروق^(١١٩) .

ولكن ابن الجيَّاب لم يظل خاملاً ، وواصل ممارسته لمهنته الثانية ككاتب ؛ فالرسالتان اللتان حُفَظَتَا كان قد خطهما بقلمه وتنتسيبان لهذا العهد ، وفى الأولى^(١٢٠) يشرح ابن الجيَّاب باسم محمد الرابع للسلطان الميرينى أبو سعيد الأسباب التى أدَّت إلى الاتفاق على هدنة مع قشتالة التى كانت تكمن فى ندرة الأغذية ، ويطلب من السلطان موافقته لتنفيذ هذه الهدنة مما سيسمح لهم بالحصول على قمح من قشتالة (١٣٣٠)^(١٢١) . أمَّا الرسالة الثانية^(١٢٢) فإنَّها رسالة عزاء فى وفاة أبى سعيد (ذو الحجة ٧٣١ / سبتمبر - أكتوبر ١٣٣١) ^(١٢٣) وفى الوقت نفسه تهنئة للسلطان الجديد أبى الحسن .

أمَّا محمد الرابع فقد اغتالوه عقب سن البلوغ مباشرة (٢٥ أغسطس عام ١٣٣٣) وهو فى طريق مألوفة حيث كان متوجهاً إليها قادماً من جبل طارق^(١٢٤) الذى قُتِحَ مؤخراً ، وبعد المبايعة الاضطرارية للأمير الجديد يوسف شقيق محمد الرابع ، والتى

تمت في معسكر جبل طارق نفسه ببيع يوسف من جديد في احتفال مهيب بغرناطة حضره كبار رجال البلاط الملكي^(١٢٥) ومن بينهم ابن الجيَّاب الذي استمر في منصبه . إن صمت ابن الجيَّاب - خلال حكم محمد الرابع الذي لم يُهد له قصيدة رثاء واحدة عند وفاته - سيتبدد وسيعود الشاعر إلى نشاطه المعهود مع يوسف الأول ، وذلك في الاحتفال بعيد الفطر عام ١٣٣٣ (١٢٦) .

وقد التف رجال البلاط الملكي الغرناطي حول الحاجب رضوان ، وبهذا استطاعوا عزل الوزير إبراهيم ابن فرج بن عبد البر الذي كان قد عُيِّن في اللحظات الحرجة عند اغتيال محمد الرابع^(١٢٧) ، وكان الوزير تاجراً ثرياً للغاية يتحكم في سعر القمح بسوق غرناطة ، وهو شخصية غريبة عجيبة وقد أصابه الجنون بعض الوقت كما أن عاداته الفاجرة أدت إلى وفاته^(١٢٨) ، تدخلت الخاصة الغرناطية من كبار الموظفين وأعادوا رضوان إلى منصبه كوزير^(١٢٩) .

وستظل الجيوش بالإمارة الغرناطية دون نشاط من جرأ الهدنة مع قشتالة ، هدنة قصيرة (من السادس عشر من أكتوبر إلى الخامس عشر من ديسمبر عام ١٩٣٣) وأخرى طويلة استغرقت أربع سنوات سيشترك فيها أيضاً الميرينيون (في السادس والعشرين من فبراير ١٩٣٤)^(١٣٠) .

وبأن سنوات السلم هذه كان ابن الجيَّاب يحتفل بأعياد الأمير مثل التهنئة بمبايعته (١٣٣٦/٧٣٤) ، عيد الفطر (١٣٣٥/٧٣٦) ، (١٣٣٦/٧٣٧) أو أعياد الأضحى (١٣٣٦/٧٣٧) ، (١٣٣٧/٧٣٧) وكذلك أفسراح عرسه (١٣٣٨/٧٣٩) أو بملاذ نُجِّلُه الأول " محمد " (١٣٣٨/٧٣٩) (الذي سيلقب بمحمد الخامس فيما بعد)^(١٣١) .

وعندما انتهت الهدنة عبرت قوات الميرينيين البحر لمؤازرة القوات الموجودة في جبل طارق والجزيرات بقيادة نجل السلطان الميريني أبو مالك^(١٣٢) ، هذا وقد تحرس الأندلسيون أيضاً سواء في الجنوب - وكان الأمير مع رجال بلاطه في مالقة للاحتفال بعيد الفطر (١٣٣٩/٧٤٠)^(١٣٣) ، والتقى السلطان التُّصْرِي مع أبي الحسن عندما أنزل قواته عام (١٣٤٠/٧٤١)^(١٣٤) ، أو في الشمال حيث استطاع المسلمون

تحقيق الانتصار فى بعض المعارك مما جعل ابن الجيَّاب يحتفل بها ، وكأنها معارك كبيرة وعلى سبيل المثال معركة كاربوكى (٧٤٠) (١٢٥) وجواديانامينور (١٢٦) .

أما الأحداث التى أعقبت ذلك فهى معروفة جيداً (١٢٧) ، وهى وفاة أبو مالك ، هزيمة جوفرى تينورى وأخيراً معركة سلاو فى السابع من جمادى الأولى عام ٧٤١ الموافق التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٣٤٠ (١٢٨) .

وقد رافق ابن الجيَّاب السلطان وجيوشه الغرناطية فى هذه الحملة ، وقد اشتكى الشاعر طولها فقد استغرقت عشرين شهراً كما يتضح ذلك فى قصيدة أرسلها لصديقه الشريف الغرناطى (١٢٩) وأسباب هذه الشكوى فى المقام الأول أن ابن الجيَّاب كان لزاماً عليه الاستمرار فى تأليف القصائد السلطانية للمناسبات والأعياد والمعارك إلخ ... وفى المقام الثانى أن ابن الجيَّاب كآخرين من أصحاب المقام الرفيع ببلاط غرناطة الملكى كانوا متقدمين فى السن - حتى ولو كان رئيس ديوان الإنشاء - لم يرفضوا الذهاب إلى المعركة طلباً للاستشهاد فى سبيل الله ، ولهذا نعرف أنه قد قُتل فى معركة سلاو كل من القاضى محمد بن يحيى بن أبى بكر المولود فى عام ١٣٧٥ (١٤٠) ، والطاعن فى السن عبد الله ابن سلمون المولود عام ١٢٧٠ (١٤١) ، أو والد ابن الخطيب المولود ١٢٨٣ (١٤٢) ، وعن الأول من هؤلاء المسنين الشجعان ابن أبى بكر يُحكى (١٤٣) بعد أن خارت قواه نصحه بعض الذين رأوه فى هذا الوضع الحرج أن يمتطى بغلته ، ولكنه رد عليهم قائلاً : " إنه سيرحل هذا اليوم تغمره سعادة الشهداء كما جاء فى كلمات العلى القدير . "

ولكن ابن الجيَّاب لم يحظ بالاستشهاد ، وبقي على قيد الحياة لكى يشاهد بنفسه نتائج الكارثة وإن كان على الصعيد الرسمى قد تجاهل المعركة ، ولم يشر ابن الجيَّاب فى أية من قصائده السلطانية التى ألَّفها بعد عام ١٣٤٠ إلى هزيمة المسلمين بالمعركة ولكنه كان دائماً يتغنى بانتصارات قديمة مثل انتصار لابيغا دى غرناطة (ريف غرناطة) وهزيمة جوفرى تينورى .

وعلى الصعيد الخاص ذكر رئيس ديوان الإنشاء الهزيمة فى قصيدة وجهها إلى ابن الخطيب (١٤٤) .

والأندلس - بانتهاء الأمل الميريني - تقوّعت على نفسها ، وانتهجت سياسة حكيمة شهدت بفضلها نمواً داخلياً فقد شيّدت بها كثيرٌ من المباني مثل برج لاكاوتيبا بقصر الحمراء الذي تزيّنه أبيات ابن الجيّاب ^(١٤٥) ، والمدرسة النصرية ^(١٤٦) التي أعد لها ابن الجيّاب بعض الأشعار ^(١٤٧) التي لم تنقش بها جدران المدرسة ، هذا فضلاً عن نهضة ثقافية حقيقية .

وفى هذه اللحظة لا نعرف على وجه التحديد تاريخ تولّى ابن الجيّاب منصب الوزير أو الوزير الأوّل .

لقد عزّل الحاجب رضوان ثم سجن قبيل معركة تاريفا ^(١٤٨) ، وقد شغل منصبه القاضي أبو الحسن بن الملّ ^(١٤٩) ، ولكنه مكث زمناً قصيراً في هذا المنصب ، وبعد عام من سجن رضوان تم إطلاق سراحه ^(١٣٤١) ، حيث عرّض عليه الأمير يوسف الأوّل الوزارة ^(١٥٠) ، ولكن رضوان رفض . وفى هذا الوقت عهد بالوزارة لابن الجيّاب ، ومنذ ذلك الحين أصبح ذى الوزارتين عندما جمع بين منصّبي الوزارة ورئاسة ديوان الإنشاء ، ويمكن أن تُعزى إليه السياسة الحكيمة التي انتهجتها الإمارة النصرية عقب معركة " سلاو " . لقد كان ابن الجيّاب الشخص الملائم لتولى زمام الأمور إبّان هذه السنوات الصعبة بحكم خبرته الشخصية طوال ما يربو على الأربعين عاماً فى السلطة العامة .

وعلى الرغم من هذا فإن نشاطه كشاعر بالقصر لم يفتّر بسبب تقدّم سنّه أو لتوليه الوزارة وإن كان سيسند بعض مهامه ككاتب وشاعر ملكى إلى تلميذه ابن الخطيب ^(١٥١) . وبعد معركة سلاو ألّف سلسلة من القصائد للاحتفال بالأعياد الإسلامية ^(١٥٢) ، أو بأحداث القصر الملكى مثل ميلاد الأميرين إسماعيل الأوّل ^(١٣٤١/٧٤١) وأحمد ^(١٣٤٥/٧٤٣) ^(١٥٣) ، وآخر قصيدة مؤرخة لابن الجيّاب ترجع إلى عام (٧٤٥-١٣٤٥) أى قبيل وفاته بأكثر من أربعة أعوام ^(١٥٤) .

توفى ابن الجيّاب عام ١٣٤٩ وهو لا يزال يشغل منصّبي رئيس ديوان الإنشاء والوزير الأوّل أى بعد أن مكث أكثر من خمسين عاماً فى خدمة الأسرة النصرية ، وهو أمر غير مألوف فى البلاط الغرناطى حيث التأمّر والخنجر والسّم قد أجهزوا على كل السياسيين مهما كان بريقهم ، وبالإضافة إلى ذلك فإن ابن الجيّاب كان يتمتع بالعمل

طوال مشواره السياسى الطويل ، وعلى حد قول ابن الخطيب لقد كان ابن الجيَّاب موظفًا مُفترطًا فى غيرته على عمله . وكان دائماً يقطعاً لمهام البلاط الملكى ، كان طويل الأناة فى الخدمة ، ينفذ المراسم بحذافيرها كما أنه كان يستمتع وهو يشغل مهامه الإدارية ، ويمكن أن نضيف إلى ذلك استمتاعه بالأدب^(١٥٥) على الرغم من آلاف الأشعار التى اضطرَّ لتأليفها فإن مما لا ريب فيه أن شخصيتنا كان أحد هؤلاء المحظوظين الذين نَعَموا بالسعادة فى ممارستهم لمهنتهم^(١٥٦) .

(٤) التَّصَوُّف

وخلف شخصية الشاعر - الموظف ، الذى أُلِّف آلاف الأشعار لا تختفى شخصية التابع لمذهب اللذة فى الفلسفة ، وهى الصورة التى رافقت الكثير من شعراء البلاط الملكى فى تاريخ الأندلس وخلف هذا نجد شخصية المتصوف الذى ينتمى لإحدى الطرق الصوفية ، والتى لم يخالج الشك ابن الخطيب نفسه عندما وصفها بأنها طريقة متطرفة^(١٥٧) ، وهذا الشريان الصوفى فى شخصية ابن الجيَّاب أمر مدهش حقاً إذا وضعنا فى الاعتبار تكوينه وإعدادة الفقهى ؛ حيث إنَّ الفقه الملكى والصوفية كانا عدوين لدودين فى الأندلس ، وهو بالتالى ليس بحالة منعزلة فى الإمارة النُصيرية ، وقد أشار السيد/ إيميليو جوميث إلى هذا الازدواج فى أحد المعاصرين لمؤلفنا ونعنى بذلك ابن لويون دى الميريا^(١٥٨) ، كما أنَّ شخصيات مرموقة وشهيرة بالإمارة كانت تفتخر بالتصوف ومن بينها : ابن صفوان^(١٥٩) ، وهو من معاصرى ابن الجيَّاب وأحد زملائه ، وكذلك ابن الخطيب فيما بعد . وفى منتصف القرن الرابع عشر أصبحت الصوفية وكأنها موضوعة يُنظرُ إليها بعين الارتياح بين رجال البلاط الملكى عندما كان ابن زَمَرْق يحضر دروس التصوف التى كان يلقيها السياسى المغربى المنفى ابن مرزوق^(١٦٠) ، وذلك بالمسجد الكبير بغرناطة ، كما أنَّ الأمراء النُصريين أنفسهم كانوا يرون بعين الرضا الصوفية أو التصوف ، ونعرف أن طائفة بنى سيدى بونا كان أفرادها يقدون إلى القصر بقصد التَّبَرُّك (أى أنَّ الأمراء كانوا يستقبلون الطائفة بالقصر تيمناً وتبرُّكاً بها)^(١٦١) .

هذا وقد جعل لهذه الرعاية الملكية صدئى فى قصيدة مهمة (١٦٢) مهداة من يوسف الأول والتي قدّم له فيها جزيل شكره على رعايته وحمايته للفقهاء وتعاطفه تجاه الصوفيين (١٦٣) وتبدأ القصيدة بمدح الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم أتبع ذلك بمدح السلطان الذى يعتبره ذى قلب صوفى على الرغم من كونه محارب فى وقت القتال .

ووفقاً لهذه القصيدة تتحقق الوحدة الكاملة بين الأسرة المالكة والصوفية والفقهاء ، هذا المثلث كان بداخله خطر نشوب أى توتر أو شد سيؤدى حتماً إلى قطع الحبل عند أضعف أجزائه أى الصوفية ، وفى وقت ما فإن الصوفية يمكن أن تتحول إلى نقيصة أو إلى زندقة أو إلى كفر فى الوقت الذى تراه السياسة مناسباً ، ونعتقد أن هذا ما حدث مع ابن الخطيب عندما وقع فى محنة تذكر السلطان والفقهاء أنه ألف كتاباً دفاعاً عن الصوفية (١٦٤).

أما ابن الجيآب لم يأخذ تصوف أبى عبد الله السهيلي مأخذ الهزل بل شغل باله بتعمق (١٦٥) ، وقد حكى النادرة التالية لابن الخطيب : " ذهب لرؤية أبى عبد الله فى خلوته وقلت له : يا سيدى ! يعتقد رفاقنا أنك ترى نبي الله هل تستطيع أن تقول لى كنه هذه الرؤية هى رؤية محسوسة أم فكرية ؟ (١٦٦) فكر أبو عبد الله برهة ثم قال لابن الجيآب : هل لديك شك فى أننى أرى الآن ابن الجيآب وأكلمه ؟ فأجابه قائلاً : لا ، فرد عليه الصوفى : هكذا تكون الرؤية وقلت له " إن هذا أمر غريب " (١٦٧) ، والصحيح أن الرؤية كانت فكرية أو ذهنية ، ومع ذلك فإن الطيف المبجل سيطر عليه حتى أصبح محسوساً ؛ حيث إن الرؤية المادية ليست من الممكن تحقيقها فى مكانين (١٦٨).

ولقد كان إيمان ابن الجيآب واضحاً ، وحاول تبرير إجاباته المفرطة فى التبسيط بحجج فلسفية ؛ فابن الجيآب كان يعرف الفلسفة ، ولكنه كان يرفضها كما يتضح ذلك فى إحدى قصائده ، ثم ذكر المؤلف الأبيات التى تشير إلى ذلك (١٦٩).

ولما أدركت الوفاة أبا عبد الله عام (١٣٣٥/٧٣٥) خلفه كأستاذ للطريقة وخطيب بالمسجد الكبير بمالقة نجله أبو عبد الله السهيلي واسم شهرته هو المعمم (١٧٠) ، وفى ظل شهرة والده استطاع تجميع أموال كثيرة تمكن بها من تشييد مدرسة فى الجهة

الغربية من المسجد الكبير بمالقة هذا إلى جانب العديد من المساجد ، وقد احتفى ابن الجيَّاب بواحدة من قصائده لتشييد أول مدرسة في الأندلس وإن كانت ذات طابع مذهبي (١٧١).

ثم يضيف المؤلف بأن القصيدة الصوفية الوحيدة التي ألفها ابن الجيَّاب ما هي إلا عبارات وألفاظ مجازية لا تكشف عن كنه هذه الطريقة الخفية (١٧٢).

فكل هذه العبارات الرنانة والمجازات والصور البلاغية جاءت فقط للتعبير عن النشوة والانجذاب بشروء العقل أو القلب ، وكذلك للتعبير عن الأمور الباطنية الخفية، ولم يفصح بالقصيدة سوى عن اسم رجل ذي شأن وهو الحلاج .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن الجيَّاب ألف هذه القصيدة الصوفية بناءً على توجيه من يوسف الأول طبقاً لما اعترف به شاعرنا ابن الجيَّاب :

" هذه الأبيات أعجوبة الكمال ألفتها تلبية لتوجيه سيدنا أبو الحجاج " (يقصد يوسف الأول).

وهناك جانب آخر من جوانب روحانية ابن الجيَّاب ، وهو حبه الجم للرَّسول محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الظاهرة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالصوفية وهي تناقض صحة المعتقد واستقامة الرأي الصارمة ، وقد اشتدت هذه الظاهرة في القرن الثالث عشر الميلادي في الإسلام الغربي (الإسلام بالغرب) ، وقد انعكس هذا في الاحتفال بالمولد النبوي ، الأمر الذي انبثق عن البيئات الصوفية في مصر ، وقد جلبه إلى الغرب أمراء بنو الزَّافى في سبتة (١٧٣) ، ومن الغريب جداً أن تخلو قصيدة من ذكر النبي محمد صلى الله عليه وسلم (كمنقذ وكونه السبيل الموصل إلى عبادة الله ، وعلى وجه الخصوص هناك قصائد قصيرة (١٧٤) ، لابن الجيَّاب عن الرسول صلى الله عليه وسلم كما أفرد قصيدة للمولد النبوي (١٧٥) ، وهذا فضلاً عن الموشحات التي سنتحدث عنها في موضع لاحق . هذ وقد ذكر ابن الجيَّاب في قصائده الدينية عن الإسلام أسماء سيدات : مثل القصيدة القصيرة التي خصصها لكل من السيدة عائشة وفاطمة الزَّهراء والبتول مريم (١٧٦) ، كما خصص شاعرنا ابن الجيَّاب قصيدة طويلة لعلي (كرم الله وجهه) (١٧٧) .

ويمكن التساؤل عقب هذه النماذج ذات التدين الأدبي العميق هل كان ابن الجيَّاب صادقاً في مشاعره الدينية أم أنَّه كان يُسَّاءِر موضة التصوف التي تزايد الإقبال عليها في البلاط الفرناطي ، وعلى الرغم من أن الجواب على هذا التساؤل سيكون افتراضياً ؛ لأنَّ هذا كامن في خفايا النفس البشرية ، فإننا نميل إلى كونه متديناً ومؤمناً تقياً ورعاً ليس فقط من جرَّاء النادرتين اللتين ذكرناهما آنفاً وقصائده الدينية ، بل أيضاً لأنَّه لم يوجد في الظاهر ازدياد بين أفكاره ومظهر حياته ، ويقول ابن الخطيب في هذا الشأن : لقد كان ابن الجيَّاب يعيش عيشة مُنقشفة - (وليس لدينا أية معلومات عن أنَّه امتلك قصراً ككاتب سيرته الذاتية) - ويضيف ابن الخطيب ^(١٧٨) قائلاً : إنَّ ابن الجيَّاب كان يفضل إقامة علاقات مع الأفراد الأنقياء ، وكان يحاول جاهداً الابتعاد عمَّن لم تتوافر فيهم هذه الصفة .

أولاً وأخيراً يمكننا القول بأن ابن الجيَّاب ترك عقب وفاته صورة طيبة تنمُّ عن كونه رجلاً شريفاً .

(٥) نجلا ابن الجيَّاب

نعرفُ القليل جداً عن أسرة ابن الجيَّاب ، وكما أسلفنا فإنَّ لقبه لم يكن شائعاً ، كما أنَّ صمت ابن الخطيب عن أجداد ابن الجيَّاب يجعلنا نشك في كونهم مرموقين ، كما نجهل من ناحية أخرى أية معلومة عن حياته العاطفية والروحية ؛ ففي إنتاجه الشعري لا يوجد نسيب ولا مقدمات غزلية ^(١٧٩) وإنَّ كان هذا يُعزى إلى مميزات وخصائص القصائد الكلاسيكية الجديدة والتي افتقد معظمها النسيب مع المتنبي ^(١٨٠) .

نعرف من القصة أو النادرة التي سردناها عن زيارته إلى مالقة برفقة نجله الأصغر ^(١٨١) أنَّ ابن الجيَّاب رُزق بولدين على الأقل يُسمَّى كبيرهما أبو القاسم الذي وافته المنية وهو في ريعان الشباب كما سنعرف ترواً ، أمَّا عن الابن الآخر أو الأبناء الآخرين لابن الجيَّاب إذا كان قد كُتِبَ لهم البقاء على قيد الحياة (توجهُ الشاعر ابن الخطيب ^(١٨٢) بقصيدة رثاء إلى بني الجيَّاب عند وفاة أستاذه وإنَّ كان من الممكن أنَّ

يكون الذين توجه إليهم ابن الخطيب هم أقرباء شاعرنا ابن الجيَّاب (فإنَّهم لم يسيروا على نهج والدهم كشاعر وكاتب وخطيب وهذا أمر غريب في الإمارة النصرية ؛ لأننا وجدنا في هذه الإمارة أن الأبناء يخلفون الآباء في مناصبهم)^(١٨٣) .

كتب ابن الجيَّاب قصيدتين رثائيتين أهداهما إلى نجله أبي القاسم عندما توفي الابن في مُقْتبل العمر ، وقد تمزق قلب والده حُزناً عليه^(١٨٤) . إن الألم الصادق لفقدان الابن يتناقض تماماً مع ذلك المفتعل في قصائد الرثاء الأخرى المليئة بالمجازات الرثانة والعبارات الطنَّانة ، والتي كان شاعرنا قد رثى بها وفيَّات الأسرة الملكية^(١٨٥) .

و إذا لم يستطع أبناء ابن الجيَّاب من صُلْبِه السير على نهجه فإنَّ الشاعر وجد ابناً روحياً : أبو عبد الله محمد بن الخطيب وهو نجل أحد خطباء ديوان الإنشاء في عهد إسماعيل الأوَّل^(١٨٦) ، هذا هو سبب التحاق ابن الخطيب في هذه الهيئة المهمة رغم حداثة سنه ؛ حيث إنَّ قصائده المهداة إلى محمد الرابع^(١٨٧) يرجع تاريخ إحداها إلى عام ٧٣٢ عندما كان ابن الخطيب في التاسعة عشرة من عمره ، هذا ولم يحترف ابن الجيَّاب مهنة التدريس قط بل سخر من المدرسين مثل محمد بن شكرال^(١٨٨) ، حيث ذكَّره بالكتاب الذي ألَّفه الجاحظ عن المعلمين ، وقد أجابه ابن شكرال قائلاً : عن الجاحظ أعدُّ كتاباً عن الكتاب أيضاً^(١٨٩) ، ولكن ابن الجيَّاب رئيس ديوان الإنشاء لم يجد مانعاً في تعليم فنون وحيل وظيفه الأديب على مجموعة منتقاة من التلاميذ مثل ابن الخطيب أو عبد الله بن أبي القاسم بن يوزاعي^(١٩٠) . ويقول الذي سيُلْقِب مستقبلاً بلسان الدين بن الخطيب إنَّه كان بين تلاميذ ابن الجيَّاب^(١٩١) ، ولكن هذا لم يكن أوَّل أستاذ له بل على بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الكنانى القيَّجَتانى^(١٩٢) (المتوفى عام ١٣٢٩/٧٣٠) .

ونعتقد بأنَّ الذى علَّمه إيَّاه ابن الجيَّاب هو إعدادُه لى يكون كاتباً أى لتأليف القصائد السلطانية ؛ حيث كان يُصحح له محاولاته الأدبية الأولى كما سيفعل ذلك فيما بعد ابن الخطيب مع ابن زَمَرْق^(١٩٣) ، كما أنَّه حكى له بعض أسرار القصر أو البلاط الملكى ، والتي كان ابن الجيَّاب شاهداً فريداً عليها ، وبالتالي سيصبح مرجعاً تاريخياً لمؤرخ المستقبل^(١٩٤) ، كما أنَّ المزايا الرائعة لابن الخطيب أيقظت الاهتمام فى

ابن الجيَّاب رئيس ديوان الإنشاء آنذاك مما جعله يشحذ همة ابن الخطيب ويشجعه بأبيات مدح تجاوز الحد فيها كما في القصيدة التي جمع فيها فحول الشعراء العرب منذ العصر الجاهلي حتى المتنبى قائلاً إنَّ ابن الخطيب هو أفضلهم^(١٩٥) . مرة بدأ ابن الجيَّاب قصيدة عن غارات وهجمات ألفونسو الحادى عشر على لافيجا دى غرناطة عام ١٤٣٠ أمام جميع الكُتَّاب وبعد أن قرض البيت الأول :

العدو يبرهن على كونه مستبداً وقاسياً

إن نيران الحرب قد اصطلت

قال على الفور لابن الخطيب ارتجل وأكمل القصيدة ، ولم يتوان التلميذ واستمر مرتجلاً أمام إعجاب الحاضرين^(١٩٦) ، وكانت التجربة في غاية الخطورة ؛ لأن ابن الخطيب قد يفشل ويصبح في وضع لا يُحسد عليه أمام زملائه ، ولكنه فاز ببغيته وتحقق له النجاح الأمر الذى كان ابن الجيَّاب متأكدًا منه لاعتقاده الراسخ في قدرة وعبقريته تلميذه على نظم الشعر وقرضه .

ويجب أن تكون العلاقة قد تعمقت وتوطدت بين الرجلين بعد وفاة النجل الأكبر لابن الجيَّاب ، وقد أشرنا إلى وفاته أنفاً وكذلك بعد موت والد ابن الخطيب في معركة سلاو عام ١٣٤٠ بشكل جعل ابن الجيَّاب ؛ يتبنى ابن الخطيب كابن له ويتخذ ابن الخطيب من ابن الجيَّاب أباً روحياً له . فيقول ابن الجيَّاب لابن الخطيب : " أنت تشغل مكان ابني حباً " ^(١٩٧) . أمَّا ابن الخطيب فيرد في قصيدة مُهداة إلى أستاذه تتميز بالعبارات الطنَّانة والألفاظ الرنَّانة قائلاً : ألا يشغل مكان والدى ذاك الذى لجأت إليه ؟ ^(١٩٨)

هذا وقد طلب ابن الخطيب - عندما عُيِّن كاتب سرٍّ أو أميناً ليوسف الأول وهو منصب ذو مسئولية جلب له على الفور كثيراً من الأعداء - مساعدة ابن الجيَّاب للتصدى لمكايد الأعداء في إحدى قصائده ^(١٩٩) ، ومما لا شك فيه أنَّ الرئيس العجوز لديوان الإنشاء قد قدَّم هذه المساعدة لتلميذه ؛ لأنَّ العلاقات بين الاثنين استمرت ممتازة

بشكل جعل ابن الجيَّاب يُورثُ منصبه كرئيس لديوان الإنشاء وكوزير لابن الخطيب وفقاً لما أورده المقرئ (٢٠٠).

لقد التزم ابن الخطيب بالاحترام والوقار تجاه أستاذه وراعيه ابن الجيَّاب ، وربما يكون هذا هو السبب في أنَّه خصص له سيرة ذاتية طاهرة عطرة نقية لا تشوبها شائبة متغاضياً عن أية زاوية غير أكيدة يمكن أن تلقى بظلالها المريبة فتتال من صورة ابن الجيَّاب ، ولسوء طالع ابن الخطيب أنَّ القصة لم تتكرر مع تلميذه ابن زمرق .

(٦) ابن الجيَّاب الفكاهي المرح

لقد رأينا فيما سبق ابن الجيَّاب موظفاً غيوراً ، ورجل بلاط ماهر ، ومتصوفاً متحمساً ، والدأً محباً حنوناً ، وأستاذاً كريماً ، ولم يبق لنا سوى جانب واحد من جوانب شخصيته وهو مرجه . لقد ذكر ابن الخطيب ما تميز به أستاذه من حدة الذكاء وولعه بالدعابات والنكات (٢٠١) ، ويوضح لنا إنتاجه الأدبي ميله إلى المزاح في المفهوم وولعه بالتوريات والفوازير ، ويحكى أنَّه وهو في مرض موته كان قادراً على تأليف النكات (٢٠٢) .

وفضلاً عن نكات ابن الجيَّاب فإن شاعرنا كانت لديه القدرة على السخرية حتى من نفسه ؛ ففي إخوانية كتبها إلى صديقه أبي القاسم بن أبي ألفية (٢٠٣) وصف نفسه بصورة تهكمية عند الحديث عن غرامياته - هل كانت حقيقية أم أدبية ؟ - مع أمة طائشة عندما بلغ من العمر أرذله (٢٠٤) .

(٧) وفاته

توفي ابن الجيَّاب في شهر شوال عام ٧٤٩ هـ / يناير ١٣٤٩ م أي إبان وباء الطاعون ، وليس من الغريب أن يكون هذا الوفاء المرعب قد أجهز على ابن الجيَّاب وهو في السابعة والخمسين من العمر كما فعل ذلك مع كثير من شباب غرناطة وكهولهم .

ومع ذلك فإننا نعتقد أنَّ ابن الجيَّاب لم يمت بسبب الطاعون بل من جرَّاء مرض آخر^(٢٠٥)؛ حيث يقول ابن الخطيب : إنَّ أستاذه كان يعاني من مرضٍ عضال أفنى جسده ، ولكن لم ينل من مزاجه وشخصيته وإنَّ كان هذا الوصف يتنافى إلى حدٍّ ما مع الطاعون الرئوى الصاعق الذى حدث عام ١٣٤٨^(٢٠٦).

ظلَّ ابن الجيَّاب معتدل المزاج قادراً على سرد النكات حتى فى أثناء مرضه كما أسلفنا قادراً على نظم الشعر حيث ألَّف قصيدة قصيرة - صلاة^(٢٠٧) ، وربما لم يترك مزاولة مهام الحكومة ؛ حيث إنَّ ابن الخطيب لم يُعيَّن وزيراً حتى وفاة ابن الجيَّاب .

(٨) وفاة ابن الجيَّاب

و كان دفن ابن الجيَّاب مظاهرة كبيرة من الحزن ، وقد حضر مراسم الدفن السلطان ، هذا وقد دُفِنَ ابن الجيَّاب بمقابر لابورتا دى البيرا (باب البيرا) ، وقد ألقى الكثير من الشَّخصيات المعروفة قصائدهم الرثائية لنعى وفاة ابن الجيَّاب ، ومن هذه الشخصيات أبو بكر بن الحكيم ، وأفراد من بنى جُزاعى وابن الخطيب^(٢٠٨).

وقد كتب ابن الخطيب قصيدة أدبية للغاية ، كانت جذيرة بقبول أستاذه ، ولكنها خالية من المشاعر^(٢٠٩) .

ثم ساق المؤلف أبيات قصيدة ابن الخطيب التى أدرجها فى الملاحظة^(٢١٠) .

المراجع

- (١) عن عمل ابن الخطيب انظر م.م. أنطونيا العالم الضليع ابن الخطيب في مكتبة الأسكوريال الملكية الأسكوريال ١٩٢٦ م. عبد الله عنان الإحاطة في أخبار غرناطة من الأول إلى الرابع ، القاهرة ولسان الدين بن الخطيب وحياته القاهرة ١٩٨٦ محمد أبي بكر الطيوطاني ابن الخطيب من خلال كُتَيْبِي طيطوان ١٩٥٤ ر. لسان الدين بن الخطيب . عبود عاطي مؤتمر عن الدراسات العربية والإسلامية نابلس ١٩٦٧، ص ٦٩ - ٨١ - جال - الجزء الثاني ٢٦٠ - ٢٦٣ س الجزء الثاني ٢٧٢ الجزء الثاني ٨٥٩ - ٨٦٠ .
- (٢) المخطوط ١٦٨٣ : إذ إنه نسخة مختلفة عن الأخريات من نسخ الإحاطة . عنان : الإحاطة ، الجزء الأول، ص ١٩ - ٢٠ .
- (٣) انظر عنان : ابن الخطيب مرجع مذكور ص ٢٥١ .
- (٤) طبعة القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٩٥٠ - ٢٩٥١ .
- (٥) مخطوط ، الأسكوريال رقم ٤٥٥ أوراق ٨١ - ١٢٣ عنان : الإحاطة ص ٦٩ ، ابن الخطيب ص ٢٣٨ .
- (٦) اللوحة اليدوية في الدولة النصرية ، طبعة القاهرة (١٣٤٧/ ١٩٢٨) كانت موضوع رسالة دكتورة السيد / خوسيه ماري كاسيارو بجامعة مدريد المركزية (كمبلوتنسي بمدريد ١٩٤٩) (وهي لم تنشر بعد) .
- (٧) الكاتبة الكامنة فيمنَ لَقِينَاهُ بالاندلس طبعة ١ عباس بيروت .
- (٨) ص ١٨٣ - ١٩٣ .
- (٩) المخطوط رقم ٢٦٧٨ دار الكتب بالقاهرة .
- (١٠) الإحاطة مخطوط بالأسكوريال ص ٣١٦ .
- (١١) القافية بُ والديوان : بحر الكامل .
- (١٢) البحر: الطويل : القافية : ب .
- (١٣) بحر : الرُجَز : القافية : ج .
- (١٤) بحر : الرُجَز : القافية : س .
- (١٥) ٧٨٧ ، ٢

- (١٦) الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب طبعة القاهرة (١٣٥١/١٩٣٢) ص ١٩٣ .
- (١٧) نظير الجمان فى نظم فحول الزمان ، طبعة رضوان الدأيا بيروت ١٩٦٧ ، السيرة الذاتية لابن الجيآب ص ٢٣٩ - ٢٤٢ .
- (١٨) المخطوط رقم ٢٨٨ ، ٢ .
- (١٩) درة الحجال فى أسماء الرجال - الرباط ١٩٢٤ ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .
- (٢٠) أزهار ، لعدد ١ ص ١٩٢ و ٣٠٨ .
- (٢١) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطب ، طبعة عباس - بيروت ١٩٦٨ الجزء الخامس - ٧٥ صفحات ٤٣٤ - ٤٦٥ - ٤٩٨ - ٥٥١ - الجزء السادس صفحات ١٢٤ - ١٢٦ - ٢٦٠ - ٢٦١ .
- (٢٢) وَ لَنُذَكِّرْ بِأَن جَمِيع نَسْخ الإِحاطَةِ لَيْسَتْ صُورَةً مِنَ الْأَصْلِ بَلْ مَخْتَصِرَاتٌ فِيهَا عِدَا الْجُزْءِ الْمَوْجُودِ بِمَخْطُوطِ الْأَسْكُورِيَّالِ رَقْم ١٦٧٤ م.م. أَنْطُونِيَا الْعَمَلِ الْمَذْكُورِ أَنْقَا .
- (٢٣) ف . بونس بوجيس مقال عن السيرة الذاتية والمراجع عن المؤرخين والجغرافيين العرب والإسبان - مدريد ١٨٩٨ ص ٣٣ .
- (٢٤) ص ٤٤ - ٤٥ .
- (٢٥) ص ٢٦٣ - ٢٨٣ . إن طبعة هذا العمل سيئة للغاية - القاهرة ١٩٦٩ - لدرجة أنه يفضل قراءة النص فى المخطوط نفسه .
- (٢٦) الإحاطة - مخطوط الأسكوريال - ص ٣١٥ .
- (٢٧) الجيآب فيما يبدو اسم لهنة وفيما يتعلق بجيب فإنه يعنى الفتحة العليا فى الفستان كانت تستخدم كجيب والجيآب سيكون الذى يحيك أو يُطْرَز أو يَقْص هذه الفتحة وإن كان اللفظ لم يظهر فى القواميس العربية - إن التفسير الذى قدمه كل من ليرشوندى وسيمونيتى فى معجميهما عن المختارات العربية الإسبانية عند الإشارة بالتحديد إلى شخصيتنا .
- (٢٨) الديوان ، رقم ١٥٧ .
- (٢٩) وهذا ما فعله مع نجله فرج ، وهى نادرة أدرجها أيدر فى رسالته للدكتوراه تحت عنوان " بنو نصر فى القرن السابع الهجرى " رسالة لم تنتشر . قدمها الباحث لجامعة كمبلوتنسى بمدريد (جامعة مدريد المركزية) عام ١٩٦٣ ص ٤٥٧ .
- (٣٠) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣١٥ ..
- (٣١) ل . ماسيجنون . ابن سابين والمؤامرة حلاجيين فى الأندلس والشرق فى القرن الثالث عشر . دراسات فى الاستشراق . مُهداة إلى ذكرى ليفى بروفينسال باريس - ١٩٦٢ ، ص ٦٦٤ .
- (٣٢) ص ٣١٦ .

- (٢٣) عن الإجازات انظر خ. ريبيرا " التعليم بين المسلمين الأسبان " محاضرات وكتيبات .
- (٢٤) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٢٥٩ - ٣٦٠ .
- (٢٥) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣٥٤ طبعة عنان ص ٤٦٧ - ٤٦٩ ل . ماسيجنون المرجع السابق .
- (٢٦) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٢٣٢ - ٣٣٤ .
- (٢٧) التُّباحى - بيروت ص ١٢٨ .
- (٢٨) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٢٥٥ - ٣٦٠ .
- (٢٩) بُرَّة رقم ٢٤٥ .
- (٤٠) التباحى ص ١٢١ - ١٢٢ .
- (٤١) الإحاطة ، الطبعة الثالثة ، عنان ص ٣٠٣ - ٣٢٤ .
- (٤٢) التباحى ص ١٢١ - ١٢٢ .
- (٤٣) انظر ليفي بروفينسال مَسْنَدُ ابْن مَرْزُوق - هيسيرس - العدد الخامس عام ١٩٢٥ ص ٧٠ .
- (٤٤) ليفي بروفينسال ، تاريخ إسبانيا ، مينينديث بيدال الجزء الخامس ص ١٢٠ .
- (٤٥) ولنتذكر " وزارة " ابن قُزْمان انظر جارتيا جوميث ابن قُزْمان خمسة شعراء العمل السابق ص ١٤٨ .
- (٤٦) وقد حمل هذا اللقب بنو أشكيلولا حكام مالقة وجواديقس ، وكذلك بنو الحكيم حكام لاروندا وعبد الملك بن سنانيد حاكم خاتين ومحمد بن الرُمَيْمى حاكم الميريا .
- (٤٧) وعن هذه المهام انظر خ.م. كاسيارو الوزارة فى الإمارة النصرية غرناطة 1947 A.H.D.E. العدد الثامن عشر ص ٢٣٤ .
- (٤٨) كاسيارو المصدر السابق ص ٢٣٢ .
- (٤٩) انظر الملاحظة رقم ٣٤ .
- (٥٠) ابن الأحمر نظير ص ٢٣٩ .
- (٥١) ليفي بروفينسال بعض الرسائل الرسمية للموحدين هيسبيريس ، العدد ٢٨ ١٩٤١ ، ص ١٨ - ١٩ .
- (٥٢) ترجمها وطبعها جزئياً م. جاسبار ريميرو تحت عنوان " مراسلات دبلوماسية بين غرناطة وقاس " (القرن الرابع عشر) E.C.E.H.G. 1912 الجزء الثانى ص ١٥١ - ١٩٠ ، ٢٥٣ - ٢٦٥ ، ١٩١٣ الجزء الثالث ص ٥ - ٢٢ ، ٧٧ - ٩٦ ، ١٧٩ - ٢٠٠ ، ٢٤٨ - ٢٧٤ والجزء الرابع ص ١ - ١٣١ ، ٢٠٥ - ٢٥٢ ، ٢٨٢ - ٣٦٥ ، ١٩١٥ الجزء الخامس ص ١٢٧ - ١٨٣ ، ٢٤٣ - ٢٥٨ .

(٥٣) الإحاطة ، طبعة القاهرة ١٩٠٣ الجزء الثاني من ١٧٤ - ١٨٢ التاج المصدر السابق الورقة ٧٧ - ٧٨ النبأى ص ١٥٣ المُقرى نفح الطيب الجزء الأول ص ٧٧ الجزء الخامس من ٤٥٥ - ٤٤١ الجزء السادس ص ٢٥١ .

(٥٤) الإحاطة ، الطبعة الأولى عنان من ٢٢٩ - ٢٤٠ .

(٥٥) ابن زُمَرَق ص ٢١٠ .

(٥٦) ل . تورييس بالباس المُصَلَّى فى المدن الإسبانية الإسلامية - الأندلس - العدد الثالث عشر ١٩٤٨ ص ١٦٧ - ١٨٠ .

(٥٧) انظر فرناندو دى لاجرانخا أعياد مسيحية بالأندلس كتاب الذُر (الأندلس - العدد ٣٤ ، ١٩٦٩ ، ص ١ - ٥٣) .

(٥٨) الإحاطة - القاهرة ، الجزء الثاني من ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٥٩) ابن الحكيم لم يظهر فى قائمة أساتذة ابن الجيَّاب ، ولكن ابن الجيَّاب ظهر فى قائمة تلاميذ ابن الحكيم ، الإحاطة ، القاهرة - الجزء الثانى ص ٢٨٥ وحول هذه الشخصية أنظر م.خ. روبييرا ماتا صاحب اللوزارتين ابن الحكيم دى روندا - الأندلس، العدد ٣٤ ، ١٩٦٩ ص ١٠٥ - ١٢١ .

(٦٠) أنظر إيميليو جوميث ابن زُمَرَق شاعر قصر الحمراء فى خمسة شعراء مسلمين . مدريد ، ١٩٥٩ الطبعة الثانية ص ١٨٩ - ١٩٣ .

(٦١) م . خ . روبييرا ماتا القصائد المنقوشة لابن الجيَّاب فى قصر الحمراء ، الأندلس - العدد ٣٥ ، ١٩٧٠ ص ٣٤٣ - ٤٤٧ .

(٦٢) ديوان ، رقم ١٣٧ .

(٦٣) م.م. أنطونيا غزو كيسانو الكانديتى " الدين والثقافة " الأسكوريال ٧٥ عام ١٩٣٢ ص ٢٤٣ - ٢٤٦ .

(٦٤) ديوان رقم ١٦٢ .

(٦٥) اللوحة ص ٤٦ - ٤٧ .

(٦٦) ديوان ، رقم ٥٢ ، الإحاطة ، عنان الجزء الأول ص ٥٦٣ - ٥٦٥ .

(٦٧) ديوان ، رقم ٢٠٣ .

(٦٨) ديوان ، رقم ١٧٩ عن الغزو انظر م.خ. روبييرا ماتا ثلاثة أسماء أماكن لحدود غرناطية ، الأندلس ، عدد ٣٢ ، ١٩٦٧ ص ٢٠٧ - ٢١٩ .

(٦٩) ديوان ، القصائد رقم ٤٣ ، ٥٦ ، ١٢١ .

(٧٠) ديوان ، القصائد رقم ١٧٥ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ١٨٩ .

- (٧١) صاحب الوزارتين ، مصدر سابق ص ١١١ .
- (٧٢) الإحاطة ، الجزء الأول ، طبعة عنان ص ٥٥٢ .
- (٧٣) قصيدة رقم ٣١ ، ابن خلدون البربر ، العدد الرابع ص ١٢٠ .
- (٧٤) قصيدة رقم ١٩٩ .
- (٧٥) قصيدة رقم ٢٠٢ .
- (٧٦) القصائد رقم ٥٥ ، ٩٨ ، ٢١٨ .
- (٧٧) القصيدة رقم ١٣١ .
- (٧٨) قصيدة رقم ٥٧ عن العلاقات بين غرناطة وتونس ، انظر محمد طالبي " الاتصالات الثقافية بين شمال أفريقيا (١٢٣٠ - ١٥٦٩) والسلطنة النصرية في إسبانيا (١٢٣٢ - ١٤٩٢) أعمال الحوار الثاني الإسباني التونسي للدراسات التاريخية ، مدريد ١٩٧٣ ، ص ٦٣ - ٩٠ .
- (٧٩) قصيدة رقم ١٧١ .
- (٨٠) قصيدة رقم ١٣٠ .
- (٨١) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ١٣٥ - ١٣٩ .
- (٨٢) الإحاطة ، القاهرة ، الجزء الثاني ص ١٧٤ - ١٨٢ .
- (٨٣) انظر صاحب الوزارتين ص ١١٨ - ١٢١ .
- (٨٤) E.L. الجزء الثاني ص ٩٣٣ .
- (٨٥) الإحاطة - مخطوط الأسكوريال ص ٣٦٠ - ٣٦٢ كان هو الذي جمع برنامج أستاذه ابن أبي الربيع ، انظر بيدروشاليتا برنامج ابن أبي الربيع (أرابيكا) الجزء الخامس عشر - ١٩٦٨ ص ١٨٣ - ٢٠٨ .
- (٨٦) الإحاطة - مخطوط الأسكوريال ص ٤٨ - طبعة القاهرة ، الجزء الثاني ص ٣٠١ - ٣٠٢ .
- (٨٧) يوجد البيت الأول من قصيدة ابن خميس - أزهار العدد الثالث ص ٢٠٤ .
- (٨٨) نو الوزارتين (صاحب الوزارتين) ص ١١٤ .
- (٨٩) الإحاطة ، القاهرة ، الجزء الثاني ص ١٩٩ - ٢٠٦ قصيدة رقم ١٧٣ .
- (٩٠) ابن زمرق المصدر السابق ص ١٨٩ - ١٩٠ .
- (٩١) ابن صابرين ، خطيب أيضاً بديوان الإنشاء كان شجاعاً عندما ألف قصيدة رثاء تشریفاً لابن الحكيم ، الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٤٨ - ٤٩ وطبعة القاهرة الجزء الثاني ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .
- (٩٢) قصيدة رقم ١٨٤ .

- (٩٢) رأيه "إسبانيا المسلمة في عصر النصارين" (١٢٣٢ - ١٤٩٢) باريس ١٩٧٣ ص ٨٩ - ٩٣ .
- (٩٤) أنظر م . خ . روييرا الرئيس أبو سعيد فرج بن إسماعيل بن نصر حاكم مالقة ، مؤسس الأسرة الثانية للناصريين . B.A.E.O 1975 ص ١٢٧ - ١٣٣ قصيدة رقم ١٢٤ .
- (٩٥) الإحاطة ، الطبعة الأولى ، عنان ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .
- (٩٦) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٨٩ .
- (٩٧) اللوحة ، ص ٧١ .
- (٩٨) المصدر السابق .
- (٩٩) ديوان ، قصيدة رقم ١٣٦ . هذه الصورة البلاغية استُخدمت من قبل ابن الجيَّاب في قصائد أخرى كثيرة مع بعض التغييرات الطفيفة . وبلا شك لقد كان مسرور لهذا الاكتشاف الشعري .
- (١٠٠) ابن الخطيب كتاب آمال الأعلام طبعة ليفي بروفينسال ، بيروت ١٩٩٥ ، ص ١٨٢ .
- (١٠١) المصدر السابق .
- (١٠٢) ١. خيمينيث سولير حملة الأميرين السيد / خوان والسيد / بيدرو عام ١٣١٩ RABM العدد الحادي عشر - ١٩٠٤ ص ٣٠٢ - ٣٦٠ .
- (١٠٣) ديوان ، القصيدتان رقم ١٩٨ ، ١٤٧ .
- (١٠٤) ديوان ، رقم ٣٤ ، ١٣٦ .
- (١٠٥) الإحاطة ، طبعة عنان الجزء الأول ص ٢٩٨ .
- (١٠٦) ديوان ، رقم ١١٩ .
- (١٠٧) قصائد رقم ٤٥ ، ٧١ .
- (١٠٨) قصيدة رقم ٤٥ .
- (١٠٩) قصائد رقم ١٧٧ ، ١٠٣ .
- (١١٠) قصيدة رقم ١٧٦ .
- (١١١) الإحاطة ، الجزء الأول - عنان ص ٣٩٨ - ٣٩٩ اللوحة ص ٧٢ - ٧٣ .
- (١١٢) الإحاطة ، الجزء الأول - عنان ص ٤٠٠ - ٤٠١ اللوحة ص ٧٤ ، كتاب الآمال ص ٢٩٥ .
- (١١٣) الإحاطة ، الجزء الأول - عنان ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .
- (١١٤) قصيدة رقم ١٨٥ والإحاطة ، عنان ص ٤٠٢ .
- (١١٥) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ٢٩٧ ، ديوان ، قصيدة رقم ٤٩ .

(١١٦) كتاب الآمال ، ص ٢٩٥ .

(١١٧) انظر إسبانيا الإسلامية المصدر السابق ص ٩٨ - ١٠١ .

(١١٨) ل . سيكو دي لوثينا ، الحاجب رضوان . مدرسة غرناطة وقلاع البائسين ، الأندلس العدد ٢١ ، ١٩٥٦ ص ٢٨٧ .

(١١٩) الإحاطة ، طبعة القاهرة ، الجزء الثاني ص ٩٦ - ٩٧ .

(١٢٠) المقرئ ، نفع الطيب ، الجزء الخامس ص ٤٥٨ - ٤٥٩ .

(١٢١) تاريخ ألفونسو العاشر ، الجزء الحادي عشر ص ٢٢٧ .

(١٢٢) نفع الطيب ، الجزء الخامس ، ص ٤٥٩ - ٤٦٤ .

(١٢٣) ابن خلون بيربيريس (البربر) العدد الرابع ، ص ٢٢١ .

(١٢٤) الإحاطة ، الجزء الأول ، عنان ص ٥٤٩ ، ابن خلون بيربيريس (البربر) العدد الرابع ص ٤٧٥ ، كتاب الآمال ص ٢٩٨ ، ألفونسو الحادي عشر ، العدد ١٢٧ ص ٢٥٨ .

(١٢٥) كتاب الآمال ص ٣٠٠ .

(١٢٦) قصيدة رقم ٩٧ .

(١٢٧) الإحاطة ، الجزء الأول ، عنان ، ص ٣٣٠ - ٣٣٢ .

(١٢٨) الإحاطة ، المصدر السابق .

(١٢٩) سيكو ، الحاجب ، ص ٢٩١ .

(١٣٠) سيكو ، نفس المصدر .

(١٣١) قصيدة رقم ١٠٩ ، ١٤١ ، ١٩١ ، ٥١ ، ٢٩ ، ١٤٢ ، ١٩٥ .

(١٣٢) ابن خلون - بيربيريس (البربر) العدد الرابع ص ٢٢٩ .

(١٣٣) قصيدة رقم ٥١ .

(١٣٤) قصيدة رقم ٣٧ .

(١٣٥) قصيدة رقم ١٧ .

(١٣٦) قصيدة رقم ١٢٠ .

(١٣٧) آ . هويثي ميراندا ، المعارك الكبرى للاسترداد في أثناء الغزوات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٥٦ ، ص ٢٣١ والتالية لها .

(١٣٨) ل . سيكو دي لوثينا - تاريخ معركة سلابو - الأندلس ١٩٥٤ ، العدد ١٩ ص ٢٢٨ - ٢٣١ .

- (١٣٩) ديوان ، رقم ٣ .
- (١٤٠) الإحاطة ، طبعة القاهرة ، الجزء الثاني ص ١٢٥ - ١٢٩ .
- (١٤١) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٢٢١ - ٢٢٢ .
- (١٤٢) شبانة ، يوسف الأول ، المصدر السابق ذكره ص ٥٦ - ٥٧ .
- (١٤٣) أنظر الملاحظة رقم ١١١ .
- (١٤٤) ديوان ، رقم ٤١ .
- (١٤٥) قصائد رقم ٢٤ ، ٨٦ ، ١٠٢ ، ١١٤ .
- (١٤٦) سيكو ، الحاجب ، المصدر السابق ذكره .
- (١٤٧) قصيدة رقم ٣٢ .
- (١٤٨) سيكو ، الحاجب ، ص ٢٩٢ .
- (١٤٩) شبانة ، يوسف الأول ، ص ٥٣ .
- (١٥٠) سيكو ، الحاجب ، ص ٢٩٣ .
- (١٥١) شبانة ، يوسف الأول ، المصدر السابق ذكره ص ٦٠ - ٦١ .
- (١٥٢) ديوان ، قصائد رقم ٣٨ ، ٢٢ ، كما توجد قصائد أخرى من هذا النوع ولكن بدون تاريخ : ٣٥ ، ٤٦ ، ٩٦ ، ١٩٠ .
- (١٥٣) ديوان ، قصيدة رقم ٣٦ ، ١٠١ .
- (١٥٤) ديوان ، قصيدة رقم ١٦٢ .
- (١٥٥) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ، ص ٣١٥ .
- (١٥٦) الإحاطة ، نفس المصدر السابق .
- (١٥٧) الإحاطة طبعة عنان ، الجزء الأول ، ص ١٧٣ .
- (١٥٨) الأمثال المسجوعة لابن لويون دى المجريا (١٢٨٢ - ١٣٤٩) الأندلس ، العدد ١٧ ، ١٩٧٢ ، ص ١ - ٧٥ .
- (١٥٩) الإحاطة ، طبعة عنان ، الجزء الأول ص ٢٢٩ - ٢٤٠ .
- (١٦٠) ابن زُمرق ، المصدر السابق ذكره ص ١٩١ .
- (١٦١) الإحاطة ، طبعة عنان ، الجزء الأول ص ١٦٧ .
- (١٦٢) ديوان ، قصيدة رقم ١٤٣ .

- (١٦٣) لابن الخطيب قصيدة بنفس المناسبة مُهداة إلى يوسف الأول ، انظر ديوان ابن الخطيب ، المصدر السابق ذكره ، قصيدة رقم ١١٥ ص ٣٤٨ - ٣٥١ .
- (١٦٤) ابن زَمَرْق ، المصدر السابق ذكره ص ٢٠٣ .
- (١٦٥) انظر المصدر السابق .
- (١٦٦) سيرة ذاتية في الإحاطة ، طبعة عنان ، الجزء الثالث ص ٢٣٩ - ٢٤١ ، انظر أيضاً م . خ . رويبراماتا ، معلومات عن مدرسة في مالقة سابقة على المدرسة النُصْرِيَّة في غرناطة ، الأندلس ، العدد ٣٥ ، ١٩٧٠ ص ٢٢٣ - ٢٢٦ .
- (١٦٧) في السيرة الذاتية لأحمد بن قُتُب ، الإحاطة ، طبعة عنان ، الجزء الأول ص ١٧٢ - ١٧٤ .
- (١٦٨) في السيرة الذاتية لأبي عبد الله السهيلي ، الإحاطة ، طبعة عنان ، الجزء الثالث ، ص ٢٤١ .
- (١٦٩) ديوان ، قصيدة رقم ٦٣ .
- (١٧٠) الإحاطة ، طبعة عنان ، الجزء الثالث ، ص ١٩١ .
- (١٧١) ديوان ، قصيدة رقم ١٧٥ .
- (١٧٢) ديوان ، قصيدة رقم ٢٣ ، نفع الطَّيِّب ، الجزء الخامس ، ص ٤٣٤ - ٤٣٦ .
- (١٧٣) و. دي لاجرانخا " الأعياد المسيحية بالأندلس " ، الأندلس ، العدد ٣٤ ، ١٩٦٩ ، ص ١ - ٥٢ والعدد ٣٥ ، ١٩٧٠ ص ١١٩ - ١٤٢ .
- (١٧٤) ديوان ، قصائد رقم ٤٧ ، ١٥٠ ، ١٦٧ ، ١٨٨ .
- (١٧٥) ديوان ، قصيدة رقم ٩٧ .
- (١٧٦) ديوان ، قصيدة رقم ٥ ، أنظر م . خ . رويبراماتا " المسلمين الثلاث من جديد " الأندلس - العدد ٣٧ ، ١٩٧٢ ، ص ١٣٣ - ١٤٣ .
- (١٧٧) ديوان ، قصيدة رقم ٧٥ .
- (١٧٨) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣١٥ .
- (١٧٩) هناك قصيدة سلطانية مُهداة إلى محمد الثالث وبها نسيب ولكنها ليست موجودة بالديوان بل بالإحاطة . مخطوط الأسكوريال ص ٣١٨ ، نظير ، المصدر السابق ذكره ص ٢٣٩ - ٢٤٢ ز نفع الطَّيِّب ، الجزء الخامس ، ص ٤٣٦ - ٤٣٨ بحر الكامل ، قافية " ها " وفي الديوان توجد قصيدة مُهداة إلى فتاة تُدعى نجمة (رقم ٧٨) وأخرى أحوائية بها نسيب رقم ٢٤ .
- (١٨٠) إيميليو جارثيا جوميث ، المتنبي : أكبر شعراء العرب في خمسة شعراء مسلمين ، مدريد ١٩٥٩ الطبعة الثانية ، ص ٣٧ .
- (١٨١) انظر المصدر السابق ذكره .

- (١٨٢) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣٢٣ .
- (١٨٣) يمكن أن يكونوا بنو الخطيب ، بنو الحكيم ، إلخ ... انظر أيضاً ل . سيكودي لوثينا " بنو اسم مفكرون وسياسيون في القرن الخامس عشر الميلادي " ، M.E.A.H. العدد الثاني ، ١٩٥٣ ص ٥ - ١٤ وخ . بوش بيلا بنو سيماك بمالقة وغرناطة : أسرة من القضاة M.E.A.H. العدد الحادي عشر ، ١٩٦٢ ، ص ٢١ - ٣٧ .
- (١٨٤) ديوان ، القصيدتان رقم ١٠ ، ٨٢ .
- (١٨٥) ديوان ، قصيدة رقم ٨٢ ، الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣١٨ - ٣١٩ ، نفع الطيب ، الجزء الخامس ، ص ٤٤٠ - ٤٤٢ .
- (١٨٦) المصادر والمراجع عناوين الخطيب كثيرة ، انظر الملاحظة ١ (في النص الأسباني خطأ مطبعي حيث أوصى بالنظر إلى الملاحظة ٢ وهذا خطأ والصواب الملاحظة رقم (١) .
- (١٨٧) ديوان ابن الخطيب ، المصدر السابق ذكره ، قصيدة رقم ١١٨ - ٨٣ .
- (١٨٨) سيرة ذاتية ، الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٨٩ .
- (١٨٩) الإحاطة ، المصدر السابق .
- (١٩٠) سيرة ذاتية ، نفع الطيب ، طبعة القاهرة ، ١٩٤٩ ، الجزء الثامن ص ٥٤ - ٥٥ .
- (١٩١) نفع الطيب ، الجزء الخامس ، ص ٧٥ .
- (١٩٢) سيرة ذاتية ، الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .
- (١٩٣) ابن زمرق ، المصدر السابق ذكره ، ص ١٩٣ .
- (١٩٤) ابن الجياني يظهر كمرجع لابن الخطيب عدة مرات في الإحاطة ، طبعة عنان ، الجزء الأول ، ص ١٧٣ ، ١٨٥ ، ١٩٩ .
- (١٩٥) بالكعب أخذ ابن الخطيب هذه القصيدة وأدرجها في عدة مواضع من أعماله ، ديوان ، قصيدة رقم ١٨٦ ، الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣٢١ ، كاتيه ، ص ١٨٨ ، مقرر أيضاً أعاد نسخها في نفع الطيب ، العدد السادس ص ١٢٧ ، ١٢٨ .
- (١٩٦) أزهار الرياض ، الجزء الأول ، ص ١٩٢ وديوان ابن الخطيب ص ٦١٩ .
- (١٩٧) قصيدة رقم ٤١ .
- (١٩٨) ديوان ابن الخطيب ص ٢٥٤ .
- (١٩٩) ديوان ابن الخطيب ، رقم ١٧ ، ص ٢٥٧ .
- (٢٠٠) أزهار الرياض ، الجزء الأول ، ص ١٩٢ .
- (٢٠١) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ، ص ٣١٥ .

- (٢٠٢) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال نفس الصفحة .
- (٢٠٣) سيرة ذاتية ، الإحاطة ، طبعة عنان ، الجزء الأول ، ص ٥٠٢ - ٥٠٨ ، الكاتبة ، ص ١١٧ ،
 الثأج ص ٧٨ - ٧٩ ، المركبة ، ص ١٤٩ - ١٥٢ ، ابن فرجون ، ص ١١٥ .
- (٢٠٤) ديوان ، قصيدة رقم ٣٩ .
- (٢٠٥) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣١٥ .
- (٢٠٦) ر . أريية " إسبانيا الإسلامية " المصدر السابق ذكره ، ص ٣٩٧ - ٣٩٨ .
- (٢٠٧) ديوان ، قصيدة رقم ١١٥ .
- (٢٠٨) الإحاطة ، مخطوط الأسكوريال ص ٣٢٢ - ٣٢٤ .
- (٢٠٩) بحر الكامل ، قافية " أكي " .
- (٢١٠) طبقاً لهذا البيت فإن لون وثائق ديوان الإنشاء كان اللون الأحمر ، وكأنه شِعَارُ الأسرة الملكية
 النُصيرية .

الفصل الرابع

الْأَنْدَلُسُ وَ عُمَلَاتُهَا

إعداد : ألبرتو كانتو

فى إطار المظاهر الفنية والثقافية والاقتصادية التى طورها الإسلام فى الأندلس نجد أن العملة تُعتبر أحد هذه المظاهر المهمة ليس لقيمتها فحسب كأداة اقتصادية بل للمعلومات الوفيرة والغزيرة التى تزودنا بها ، وهذه الميزة الجوهرية لدار سك النقود وشكل العملة الإسلامية التى منذ أن تم تثبيت نماذجها الشكلية نجد أن هذه العملات قد احتوت على كتابات تشير لنا وتوضح بجلاء مكان سكها والتاريخ الدقيق والصحيح لهذا السك (بشكل سنوى) وبصورة تدرجية تم إدراج أسماء الخلفاء ورؤساء الوزراء (الوزراء الأوائل) والموظفين الذين تتفاوت أهميتهم إلى غير ذلك من كبار الشخصيات بالدولة .

ولهذا فإن هذه الوثائق التاريخية تمدنا بمعلومات هائلة ووفيرة من الدرجة الأولى أو على جانب كبير من الأهمية فى الوقت الذى تندر فيه الوثائق فى جوانب أخرى من الحياة بالأندلس الأمر الذى تميّز به العصور الوسطى .

وبالإضافة إلى ذلك فإن وضع الأندلس مُلّت للنظر خصيصاً فى العالم الغربى الأوروبى ؛ حيث إنه ولأول مرة قامت إحدى الممالك التى خلفت الإمبراطورية الرومانية (مملكة القوط الغربيين فى طليطلة) بمواصلة تقاليد النقديّة أو فى العملات ، إلا أن هذه المملكة حل محلها حكم يتميّز باختلاق بنيته الاقتصادية

والاجتماعية ، والذي سينتهج طوال عدة قرون تجربة أو بالأحرى محاولة لتكوين مجتمع إسلامي في الغرب وهو المثال الوحيد والفريد الذي عُرِفَ في القارة الأوروبية إبَّان هذا التاريخ المبكر .

ولذلك ومع أخذ أهمية وتأثير العملة الأندلسية الإسلامية في الاعتبار فإنَّ هذه العملة سيكون لها تأثير على عملات بقية الممالك في شبه الجزيرة الأيبيرية لا يمكن أنْ ينقسم عن باقى المظاهر النقدية فى إسبانيا ، وفى الوقت نفسه تُشكِّلُ جزءاً لا يتجزأ من هذه العملات ، ولم يحدث فى أى بلد أوروبى آخر هذا التفاعل العميق بين العملات ، كما أنه لن يوجد هذا الاقتناع بأن المجموعات النقدية المذكورة ستشكِّلُ جزءاً لا يتجزأ من تاريخنا .

فالانتقال إلى النموذج النقدي الإسلامى فى الأندلس وثيقُ الصلة بالأسرة الأموية المألقة فى دمشق ، والتي فى عهدها بدأت عملية فتح شبه الجزيرة الأيبيرية ، وقد كان أحد ممثلى هذه الأسرة هو المؤسس لدولة مستقلة فى الأندلس ، ولهذا فإنَّ التقاليد الأموية التى كانت فى طريقها للزوال فى أجزاء إسلامية أخرى ستبقى وستُخلَّدُ فى الأندلس ، كما أنَّها فى نفس الوقت مهَّدت الطريق أمام تأثيرات شرقية أخرى وخاصة العباسية منها ، فى وقت لاحق الناجمة عن النشاط الفكرى والثقافى فى بغداد (بيدرو شالميتا ١٩٩٤) .

ومن الاعتبارات الأولى التى يجب مراعاتها فيما يتعلق بوجود العملة الإسلامية فى الأندلس ، نجد اختلافها الجذرى بالنسبة للعملات الأخرى التى كانت موجودة قبل ذلك بشبه الجزيرة الأيبيرية ، كما أنَّها رفضت تبني أو اتخاذ النماذج المحلية فى التصميم والشكل خاصة البيزنطية المنتشرة فى شمال أفريقيا (بارثيلو ١٩٧٥) ، وهى عملية بسيطة ستفتح المجال أمام النماذج الأموية المعدلة والتي أقرها الخليفة عبد الملك فى دمشق (٦٥ - ٨٦ هجرية) (٦٨٥ - ٧٠٥ ميلادية) والمحددة بأنماط الكتابة بشأن أى مظهر شكلى ليست غريبة أو بعيدة عن سياسة التطرف الأيدولوجى الذى تنتهجه العملة البيزنطية (وريثة عملة الإمبراطورية الرومانية ونموذج العملة الانتقالية من العالم القديم إلى الوسيط) فى تلك السنوات فى صراع واضح مع السلطة المتزايدة لبنى أمية .

وأهم ميزة أساسية للعملة الإسبانية العربية في تلك الفترة فيما يتعلق بالمعادن المستخدمة هي العودة النظرية إلى استخدام المعادن الثلاثة في إصدار عملات ؛ فعلى سبيل المثال كان الذهب يستخدم لإصدار الدنانير والفضة للدراهم والنحاس للفولس (جمع فلس) وهذا التنظيم المبدئي يوضح مدى الارتباط بين النماذج النقدية البيزنطية والأسبانية التي تشكل مصدر العملة الأموية ، وفي الوقت نفسه فإن العملة الأموية تنطوي على اختلاف كبير مع النظام النقدي لعصر القوط الغربيين السارية المفعول في إسبانيا ، ومع ذلك وكما أشرنا آنفاً ؛ حيث قلنا إنها عودة نظرية ، لا نعرف جيداً أن الدينار لم يتم سكّه وإصداره في عهد الأمراء المستقلين في قرطبة ، ولكن حدث ذلك في عصور لاحقة .

وهذا الوضع سيقودنا إلى نقطة التحليل الرئيسية للعملة الأموية في الأندلس : الفضة حيث سيكون الدرهم الوحدة الملكية والثابتة ؛ حيث يتم من خلاله تقنين كل العلاقات بين الدولة وشعبها . أمّا الذهب فإنه تحت شكل الدينار سيستخدم دائماً كأداة للمحاسبات القانونية الإجبارية، وذلك بإصدار وتداول صغير ومحدود ، وهو أمر منطقي من ناحية أخرى ؛ لأنه يتعلق بمجتمع ديني أو متدين مثل الأندلسي الذي يتبع المذهب المالكي ذا الطابع السنّي التقليدي .

وهذا لم يمنع سكّ وإصدار الدينار في عصور الخلافة (القرن العاشر الميلادي) ، وملوك الطوائف (القرن الحادي عشر الميلادي) ، وذلك بكثرة لاستكمال النظام النقدي في نفس الوقت وخلال العصر الأول من العصور التي أشرنا إليها نجد أن الدينار قام بدور مهم يتناسب مع وقار وأهمية الوضع السياسي الجديد .

ومن جهة أخرى فإنّ الفلس (وريث الفوليس البيزنطي ، والذي عرفه الأمويون الدمشقيون في فلسطين ومصر وشمال أفريقيا) له مهمة تكميلية في إطار النظام النقدي وبلا أدنى شك فإنّ الفلس هو أحد عناصر النظام النقدي الذي يطرح أمامنا العديد من المشاكل عند دراسته وفهمه ؛ نظراً لضالة قيمته أو بمعنى أدق لانعدام قيمته الجوهرية ، ولذلك فقد عُثِرَ على بعض قليل منه أو عُثِرَ على أجزاء صغيرة من مجموعات ، والدراسات الإقليمية وحدها - التي تجمع مزيداً من المعلومات عن العديد

من المستودعات أو الأماكن السكنية حيث يمكن جمع هذا النمط من العملة - ستفتح لنا الأبواب اللازمة لاستكمال البحث (دومينتش ١٩٩٤) .

و تنعكس هذه السّياسة في شكل وتطور الإصدارات النقدية الانتقالية وارتباطها بالإصدارات المشابهة في شمال أفريقيا (بالاجير ١٩٧٦) : فالمسكوكات الذهبية التي أصدرها موسى بن نصير تُمثّل تحسّناً واضحاً دون أدنى شك بالنسبة لتدهور العملات القوطية الغربية إبّان السّنّوات الأخيرة لمملكة القوط الغربيين بطليطلة ، ومع ذلك فإنّ رتم الإصدارات الجديدة لازال بطيئاً وغير منتظم في صناعته مما يشير إلى الانعدام النسبي للرقابة على جودة هذه العملات ، واستخدام العملة المذكورة إبّان فتح إسبانيا يبدو واضحاً وإنّ كانت هذه العملات غير منتظمة إلى حد كبير ثم تلى ذلك إصدار عملات باللغتين العربية والإسبانية وقد جاء هذا في إطار عملية إعادة تنظيم للعملية النقدية الذي تمّ في عهد الخليفة الأموي سليمان (٩٦ هـ - ٩٨ هـ - ٧١٥ - ٧١٧ م) بغية زيادة وضمان وحدة الشكّل وانتظام العملة (باتيس ١٩٩٠) .

و تُمثّل هذه الإصدارات أيضاً الخطوات الأولى لعمليات سك النقود بالأندلس ، وذلك للابتعاد عن التّعامل بالعملات الأفريقية وللاعتماد على عملات خاصة بالأندلس ، وجودة هذه العملات تفوق ما كانت عليه في عهد القوط الغربيين ، ولكن بدون مستوى من الصّفاء الخالص كما تشير إلى ذلك التّحليلات التي جرت في هذا الصّد ، والتي تحدد درجة الصّفاء أو النّقاء بشريحة تتراوح ما بين ٧٢ ٪ و ٨٥ ٪ في أفضل الحالات المعروفة ، كما أنّ هذه الدّرجة كانت تتفاوت بشكل ملحوظ بين بعض الإصدارات وبعضها الآخر .

وهناك مظهر مهم ، وستكون مراجعته ضرورية لا غنى عنها ، وينطوي هذا المظهر على مشكلة هامة تتمثّل في عملية قياس ووزن الإصدارات الأولى للعملات الانتقالية من الذهب سواء اللاتينية منها أو التي صدرت بلغتين ووزن هذه العملات سواء في عملية الإصدارات الأفريقية أو في الأندلسية يفوق وزن العملات المسكوكة في دمشق وإنّ كانت هذه الزيادة لا تتجاوز نسبة ١ ٪ إلا أنّها أدت إلى إمكانية تسريب الذهب الغربي صوب الشّرق نظراً للفائدة الكبرى التي يمكن أن تتحقق من جرّاء ذلك (باتيس ١٩٩٠) .

أماً فيما يتعلق بالفُضة (الدُرهم) نجد أن الوضع أكثر تعقيداً ؛ لأنَّ إدخاله شمال أفريقيا والأندلس تم بشكل أكثر بطناً مما حدث في الجزء الشرقي من الإمبراطورية الأموية ، وهذا الوضع منطقي طالما أنَّ التقليد النقدي أو العُرف النقدي السَّاساني كان يعتمد على معدن واحد في إصدار عملاته وهو الفُضة مما يبرر استبدالها بالعملات المعدلة التي أصدرها عبد الملك . وبعد عشرين عاماً من التَّأخير نجد أنَّ الدُرهم المُحسَّن أو المُعدَّل بدأ يظهر في الغرب ولكن سرعة ظهوره في شمال أفريقيا فاقت بمراحل سرعة ظهوره في الأندلس ومن المحتمل أيضاً أن يكون قد رافق ظهور الدُرهم الفضي المعدل إصدارات لعملات نحاسية أخرى وإنَّ كان النحاس لا يزال حتى الآن المعدن الذي لم يحظ بدراسة مستفيضة وخاصة في وقتنا هذا (بارسيلو ١٩٧١ - ١٩٧٢) .

وعلى الرغم من أنَّ النماذج المعروفة تملأ رويداً رويداً الثَّغرات الزمنية الموجودة، فإنَّ قلة المكتشفات في شبه الجزيرة الأيبيرية يطرح العديد من المشاكل الهامة بشأن تداول العملات في الأندلس ، وكذلك افتراضات جديدة بشأن مكان إصدار مثل هذه العملات هذه النُدرة في العملات المذكورة ترتبط إلى حد كبير بالمشاكل الاقتصادية، وبالتالي بعدم الاستقرار السَّياسي الذي واكب الحَقَب الأولى لفتح إسبانيا ، وبلا أدنى شك فإنَّ التَّتابع المضطرب للحكام مما أدَّى إلى ندرة الإصدارات واستمرارها . ويجب أن يكون صدق ذلك كبير في الهيكل المالي للإدارة الأموية الجديدة في أراضٍ ضُمَّت حديثاً للإسلام . والقيم القياسية والوزنية المعروفة للعملات الأولى من الفُضة التي سَكَّت بالأندلس يبدو أنَّها كانت تُقدَّر بـ ٢,٩٠ جراماً . وبالتالي فإنَّها تشبه إلى حد كبير وحدات القياس والموازين المستخدمة في الشَّرق وعلى وجه التَّحديد في دمشق وإنَّ كانت تزيد عمماً في مصر (٢,٨٣) جراماً ، وكذلك بعض ورش سك العملات في العراق وإيران ، وهذا يوضح كما يشير باتيس (باتيس ١٩٩٠) إلى أنَّ الوحدة الأصلية للعملات الأموية كانت تختلف إلى حد ما فيما يتعلق بالإصدار الحقيقي والمادى لهذه العملات بمختلف أرجاء الإمبراطورية الأموية .

وفيما يتعلق بجودة الدَّراهم فإنَّها تقل في مستواها عن المعروف في دور السَّك الأموية ؛ ولهذا فإنَّ درجة النَّقاء كانت تتراوح ما بين ٩٣ - ٩٨ ٪ ولكن كانت في تدهور

مستمر بمرور الوقت أما قيم أو قيمة النماذج الصادرة عن نور سك أموية أخرى فقد كانت أعلى كما هي الحال في الوسيط الذي بلغت درجة نقائها ٩٩ ٪ وإن كانت هذه الدرجة من النقاء قد وُجِدَتْ في نماذج صدرت في أفريقيا .

وكما أشرنا آنفاً فإن ندرة هذه العملات قد ربطها (م . باريسيلو) مع سياسة المركزية لدور سك العملة وإمكانية سك نقود في الوسيط باسم سك الأندلس أو أفريقيا نظراً لتشابه النموذج المتداول للعملة بين المكتشفات في الأندلس والمغرب وكذلك بالمحافظات الشرقية بالعالم الأموي (باريسيلو ١٩٨٨) ، وسبب هذه الظاهرة يمكن أن يرجع إلى التنظيم المالي للدولة الأموية وسياسة المركزية لدور السك ، وبهذا يمكن تفسير النموذج الشاذ للتداول النقدي الموجود في السنوات الأولى لفتح الأندلس .

وخلاصة الأمر أن فترة الفتح تعنى استبدال النموذج النقدي القوطي الغربي المصنوع من معدن واحد بنموذج آخر مصنوع من ثلاثة معادن في بادئ الأمر ، ثم سرعان ما اقتصر على معدنين فقط الذهب والفضة حتى ينتهي في خاتم الأمر إلى معدن واحد وهو الفضة . وندرة المسكوكات في ذلك العصر يبدو أنها تشير إلى وضع انتقالي تحت رقابة صارمة من جانب الحكومة المركزية المتأثرة من جراء الاضطرابات والثمرات التي حدثت في ذلك الوقت . ووقف الإصدارات النقدية وتوافق ذلك زمنياً مع فترة الاضطرابات السياسية التي حدثت أو الثمرات التي وقعت ضد السلطة الجديدة ، وهذا يوضح الارتباط الوثيق والعلاقة الوثيقة بين هذين المظهرين (وقف إصدار العملات والاضطراب السياسي) خاصة إذا وضعنا في الاعتبار عمليات فرض الضرائب التي تفرضها الدولة على مواطنيها ، وهذا المظهر مهم للغاية ، وسيكرر في أوقات أخرى من التاريخ النقدي بالأندلس .

وبوصول عبد الرحمن الأول إلى الأندلس عام ١٢٨ هـ ٧٥٦ ميلادية لم يقم خلال السنوات العشر الأولى لحكمه بإصدار عملات بصورة منتظمة بل كانت على فترات ونادرة ، واعتباراً من عام ١٥٠ هـ ٧٦٧ م فقد أصبحت الإصدارات النقدية منتظمة وكانت في تزايد مستمر في عهد خلفائه ثم عانت هذه العملات من تراجع كبير

حتى اختفت تماماً فى عهد الأمير الأخير عبد الله فى نهاية القرن التاسع الميلادى
(٢٧٥ - ٣٠٠ هـ ، ٨٨٨ - ٩١٢ م) (كانتو مارسال ١٩٨٨) .

ومن الناحية العملية فقد وُضِعَ موضع الاستخدام نظام نقدى دورى باستصدارات سنوية من العملات الفضية (دون إصدارات للدراهم) (باريسيلو ١٩٧٥) التى تعكس إلى حد ما أوضاعاً ونزعات اقتصادية نرى كيف أن إنتاج العملات بدأ يتزايد فى عصر عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ ، ٨٢٢ - ٨٥٢ م) ومعروف الجُهد الذى بذله هذ الأمير فى أثناء حكمه وإن كنا لا نستطيع إيجاد علاقة مشابهة (كانتو مارسال ١٩٨٦) . وغيبة الذهب يُعتبر أحد العوامل التى تُمَيِّزُ بشكل واضح العصر الأميرى لقرطبة إزاء عصر المحافظين أو الحكام وإن كان التزويد أو التمويل بالمعدن النفيس قد حدث بفضل استيراد الدينارات من شمال أفريقيا كما يثبت ذلك من بعض الاكتشافات .

ومن الناحية القياسية والوزنية فإن هذه الإصدارات الفضية كان وزن القطعة منها ٢,٧٠ جراماً ، ولكن بتغيرات طفيفة سنقوم بشرحها فيما بعد ، وبالنسبة لكون المعدن حقيقى أو لا ، وكذلك فيما يتعلق بدرجة نقاء النماذج ، فإن المعلومات المتوفرة لدينا ضئيلة ، كما أنه لا توجد بحوزتنا تحليلات كافية لإيضاح هذين الأمرين ومع ذلك فإن درجة النقاء بلغت ٩٠ ٪ ، وهذا يعنى أن القيمة أقل من المألوفة فى أجزاء أخرى من البلدان الإسلامية ، ولكنها فى حدود المعقول .

والاختلاف مع المرحلة السابقة كبير بسبب كثرة وتنظيم إصدار المجموعات النقدية الأموية والأندلسية، والتى ستستمر فى الإصدار بدون توقف (إلا فى مناسبات معنودة) حتى بدايات أو أوائل القرن الحادى عشر الميلادى .

وهذا الظرف أو الوضع الخاص يجعلنا نتصل مباشرة باستخدام ومهمة العملة الإسلامية فى الأندلس التى تتطور كأداة للرقابة المالية من جانب الدولة على مواطنيها ورعاياها . ولهذا يمكن فهم نقص العملة النقدية المبدئية فى أثناء حكم الأمير الأول خلال فترة طويلة من السلام والرقابة بجميع أطراف وأرجاء الدولة الذى يجب أن يتم بنفس الشكل حتى مع آخر الأمراء الذى ذكرناه آنفاً ، كما أن أزمات التمردات

المتلاحقة والمتتابعة أثرت على كيفية سير الأمور بالدولة وخاصة في فهم الضرائب المفروضة على مختلف المناطق التي تكون منها إقليم الأندلس إدارياً .

وتفهم بهذا الشكل العلاقة الوشيعة الموجودة بين طرح عملات للتداول وبين الحكم المركزي أو السلطة المركزية في قرطبة (بارسيلو ١٩٧٩ - ١٩٨٤ - ١٩٨٥ ، بيدرو شالميتا ١٩٨٦ ب) .

ويجب أن نأخذ في الاعتبار فضلاً آخر في استخدام العملة الأميرية ، ويمكننا أن ندرك ذلك من الاكتشافات ؛ حيث إن الأغلبية الساحقة منها مصنوعة من معدن واحد وهذا يعني أنها عملات فضية ؛ لأننا كما اشرنا آنفاً نجد أن الذهب لم يسك ، كما أن البرونز كان غير معروف لنا ، كما أنه ليس على درجة العملة الفضية ولا قيمتها ، وهذه العملة كانت الأداة الضريبية والمالية .

وهذه الاكتشافات ذات تاريخ زمني متسع ، بمعنى أنها تشمل عملات تغطي من الناحية العملية ممالك الأمراء كافة ، وبنفس الشكل فإن وجود العملة الفضية العربية غير الأندلسية لم يكن شائعاً ، كما أن وجود العملة العباسية كان نادراً ، وكذلك شمال أفريقيا ، ومن ناحية أخرى نجد أن ظاهرة هامة تتألف من وجود كميات هائلة من العملات المجزأة أو المقطعة انضمت إلى قائمة الاكتشافات .

وهذه الظاهرة موجودة أيضاً في أجزاء أخرى من أوروبا بفضل استيراد العملات الإسلامية من الشرق ، ومع ذلك فإنه بالنسبة للأندلس يبدو أننا نوجد أمام تلاعب محلي من قبل الشعب ومن جانب العملاء آخر الأمر الذين كانوا يتزودون بأجزاء العملات التي لم تقدمها الدولة .

والأغلبية الساحقة لأجزاء أو كسور العملات يبدو أنها تتراوح بين $\frac{1}{2}$ و $\frac{1}{4}$ درهم مما يؤكد أن سك أو إصدار عملات برونزية كان يتم بكميات قليلة للغاية أو أنها لم تصدر بأي شكل وربما يكون أيسر بالنسبة للدولة قبول مثل هذا الوضع إزاء عجزها الأكيد في ضمان تزويد مواطنيها بالثمن من المعادن غير الثمينة أو غير النفيسة ، وبنفس الشكل نعرف أن النوبة كانت تتاهض هذه التلاعبات والتغيرات للعملة وكانت تحتم أن تكون الضرائب المالية من عملة محددة وفي حالة جيدة (كانتو ، مرسال ، ١٩٨٨) .

وخلاصة الأمر يمكننا القول إن العصر الأميري يعنى من وجهة النظر النقدية أو العملاتية إنشاء خطة لاستخدام وتوفير العملات بشكل إجبارى من خلالها تقوم الدولة بطرح كميات من النقود كل عام للمواطنين من المرجح أن تكون متعلقة بالمتطلبات الضريبية والمالية التى ستقوم الدولة بالمطالبة بها ، وهذا يؤكد العلاقة الوثيقة بين العملة والضريبة مبتعدين بذلك عن أى اعتبار اقتصادى وهذا ليس بعائق كما رأينا فى موضوع كسور العملات لكى تستخدم كأداة اقتصادية عند طرحها للتداول .

ويمكننا القول إن الإمارة بدأت بنشاط محدود فى إصدار العملات ثم توسع هذا النشاط فيما بعد إلا أنه عاد إلى التراجع فى نهاية هذا العصر حتى أدى الأمر إلى اختفاء إصدار العملات تماماً فى أواخر عهد عبد الله نتيجة للوضع السياسى الصعب الذى عانى منه الحكم أو السلطة القرطبية ، وقد امتدت نتائج هذه الأزمة حتى السنوات الأولى لعبد الرحمن الثالث أول خليفة لقرطبة .

وعندما تولى عبد الرحمن الثالث عرش قرطبة عام ٣٠٠ هـ ٩١٢ ميلادية ، فإن هذا يعنى بداية تأسيس الخلافة فى قرطبة أى عندما حصل الحكام القرطبيون على امتيازات كانوا يعتقدون أنها حق لهم بعد الإطاحة بأسرتهم فى الشرق على أيدي العباسيين ، وآخر الأمر لم يكن هؤلاء هم الأوائل ؛ لأن الفاطميين فى شمال أفريقيا قاموا بعمل مماثل ، وبالتالي أصبح فى العالم الإسلامى ثلاث خلافات : الخلافة العباسية فى العراق ، والفاطمية فى شمال أفريقيا ، والأموية فى الأندلس .

ومن وجهة نظر المعادن المستخدمة فإن العملات فى عصر الخلافة كانت مصنوعة من الذهب والفضة وهناك بعض النماذج القليلة من النحاس وإن كانت الإصدارات الذهبية كانت لها أهميتها الخاصة وإن كان إنتاج العملات الفضية أكثر بكثير من الذهبية والنحاسية استمراراً لما كانت عليه العملات فى القرون السابقة ، وعلى أية حال فإن النولة القرطبية الأندلسية كانت تستهلك إنتاجها من الفضة ؛ لأنها لم تقم بتصدير هذا المعدن إلى خارج (وخاصة على شكل عملات) الحدود الإسبانية إذا كانت تصدرها إلى الممالك المسيحية الكائنة فى شمال إسبانيا أمّا وجود العملات القرطبية فى أوروبا الوسطى أو وسط أوروبا وشمال أفريقيا فقد كان نادراً للغاية .

وعلم القياس والموازن هو المجال الذى قدّم لنا العديد من التّغييرات والاختلافات فى عملات عصر الخلافة فقد ثبت أنّ هذه العملات لا تنتمى إلى نموذج أو موديل واحد فيما يتعلق بالفضة (بيشير ، ١٩٨٦ ، كانتو ، ١٩٨٩) .

وبصفة عامة يمكننا اعتبار أنّ كل واحد من الخلفاء الثلاثة الأوائل عبد الرّحمن الثالث والحكم الثّانى وهشام الثّانى استخدم موديلاً قياسياً ووزناً مختلفاً إلى حدّ ما ، وإن كان موديل عبد الرّحمن الثّالث هو الأكثر تقليدياً ؛ حيث كان يتراوح وزنه ما بين ٢,٧٠ جراماً و ٢,٨٠ جراماً ، ولكن هذا الوزن تناقص فى عهد خليفته أى الحكم الثّانى إلى ٢,٥٩ جراماً ، ولكنه قد ازداد ليصل إلى ٣ جرامات أو ٣,١٠ جرامات فى عهد آخر الخلفاء المذكورين (هشام الثّانى) .

وهذا الوضع المعقد يجعلنا ندرك التّفاوت فى موديل ووزن العملات إبّان حكم الخلفاء الثلاثة ، وكذلك التّعديل الذى طرأ على الموديل الذى كاد أن يكون ثابتاً قبل بدء حكمهم بسنوات قليلة ، كما كثرت تسميات أو مسمّيات العملات فى ذلك العصر (بيدرو شالميتا ١٩٨٦ أ) ، وظهور عدد كبير من وحدات الوزن الأندلسية مكتوب عليها ما يشير إلى هذه المسمّيات النّقديّة قد ألقى بكثير من الضوء على هذه المشكلة (أى أسهم فى إيضاح هذه المشكلة) .

أمّا الذهب فإنّه أكثر ثباتاً ؛ حيث كان يتم إصدار الدينار بوحدة وزن تتراوح ما بين ٣,٩٠ جراماً وأربعة جرامات وكسور الدينار مثل نصف دينار وثلاث دینار والتّفاوت فى هذا المعدن هو أقل بكثير مما حدث فى الفضة ، كما أنّ الإصدارات النّقديّة الذهبية كانت قليلة إلى حدّ كبير .

ويبدو أنّ نقاء الإصدارات النّقديّة من الذهب والفضة ظلّت فى الإطار المعقول والمقبول وقد تراوحت ما بين ٨٠ - ٨٦ من النّقاء مع تفاوتات قد تصل إلى ٧٠ ٪ بالنّسبة للعملات الفضية ، بينما نجد أنّ الدينار قد ظلّ درجة نقائه تتراوح ما بين ٨٠ و ٩٠ ٪ .

هذا وقد بدأت مشكلة أو أزمة العملات فى عصر الخلافة خلال السّنوات الأولى من القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى (رودريجيث مارينهو بيتوتو كابرال ،

١٩٨٨) وإن كانت جودة هذه العملات ستستمر حتى عصر الحموديين إبَّان التُّلث الأول من القرن الحادى عشر الميلادى (بيثيرا ١٩٨٦) .

ومن وجهة نظر علم الأنماط فإننا وجدنا ظهور اسم الخليفة على ظهر العملة فى المنتصف هذا إلى جانب ألقابه ، وبعد ذلك ظهرت أسماء بعض رجال الدولة أو كبار الشَّخصيات من ذوى المناصب العليا : مثل الوزير الأول وكذلك المسؤولين الإداريين المرموقين وخاصة رجال الاقتصاد ثم نُقِشت أيضاً أحداث حلِّ الخلافة ، وهذا يعنى أسماء أولياء العهد .

وعموماً فإنَّ هذا التتابع للأسماء المكتوبة قد أفادنا كثيراً فى تحديد زمن وتاريخ العملات إذا لم يكن مدوناً على العملات نفسها أو إذا كان التاريخ ممسوحاً؛ ولهذا فإننا نعرف تاريخ جميع عملات هذا العصر وزمن صدورهما وظهورها .

وبصفة عامة يمكننا اعتبار أنَّ الأنماط النَّقدية فى عهد الخلافة كانت مُحافضة، وهذا يعنى أنَّها شهدت قليلاً من التَّغيير ، وخاصة فى توزيع الكتابات والنُّقوش الخاصة بالألقاب وأسماء الخليفة ، وفيما يبدو أنَّ الخلفاء كانوا يبحثون عن نموذج نقدى ذى تصميم سهل ويمكن التَّعرف عليه بفضل أنماطها الكتابية والنَّقشية وفى بعض الحالات بفضل التركيبة الزخرفية الذى يمكن أن يتحول إلى موديل أو نموذج محدد .

و هذا المفهوم مهم ؛ لأننا نعلم أنَّ العملة نقشية أو كتابية تماماً كما هى الحال فى العملة الإسلامية ، ولذلك فإنَّ الكتابات أو النُّقوش فى هذه العملة تقوم مقام العنصر التَّصويرى الجمالى فى العملة الكلاسيكية غير الإسلامية ، وإذا كانت العملات فى عصر الخلافة لم تشهد تطوراً كبيراً فإنَّها فى عصر ملوك الطوائف قد تنوعت وحدثت بها كثير من التَّعديلات والتَّغييرات بعد عصر الخلافة بقرن من الزَّمان ، ومع ذلك كان من السهل التَّعرف على عملة عهد الخليفة من جانب العملاء فى الممالك المسيحية بشمال شبه الجزيرة الأيبيرية ؛ حيث إنَّها كانت العملة الوحيدة الموجودة فى ذلك الوقت .

وبالنَّسبة لاستخدام العملة فى عصر الخلافة فإنَّها قد التزمت بنفس استخداماتها فى العصر الأميرى، وهذا يعنى أنَّها ظلت أداة ضريبية لخدمة الدولة ، كما أنَّ

السُّنُوات الأولى من عصر الخلافة وخاصة الخليفة الأول خلت من العملات ، كما أنَّ هناك فترة أخرى من الصِّراعات كانت بدون عملات ، وهى الفترة التى حاولت السُّلطة المركزية خلالها فرض سيطرتها وسلطانها على المحافظات والأقاليم ، وهذا يجعلنا نتذكر أمراً مشابهاً أيضاً إبَّان العصر الأميرى .

وبعد أنَّ أصبحت سُلطة النُّولة مركزية عادت العملة إلى الاستخدام ؛ حيث تزايدت كميات الإصدارات من العملات بشكل مدهش وذلك بإعطاء مزيد من الاهتمام إلى الاختتام (بيثير ، ١٩٨٨ ب ، كانتو ١٩٨٨) . وإذا أُضيفت إلى هذه التحليلات الاكتشافات الضخمة التى تمَّت فى منطقة قرطبة وضواحيها يمكننا القول إنَّ الخطة التى اُنْتُهجتْ هى الصَّحيحة ، وأنَّ الواقع يثبت أنَّ الدَّولة فى ذلك الوقت كانت مركزية قوية ، ويُعْضِدُ هذا المفهوم كثرة الورش بالعاصمة والمناطق المجاورة لها .

إنَّ قوة الدَّولة القرطبية وتحسن اقتصادها فى القرن الرَّابِع الهجرى العاشر الميلادى تنعكس كما أشرنا آنفاً فى إنتاج عملات ؛ فمن ناحية نجد أنَّ المصادر تشير إلى أنَّ دخول (جمع دخل) الدَّولة العامة كان يتمثل معظمها فى عوائد الحقول والضرائب المفروضة عليها وهى كمية تفوق بكثير أى دخل مالى للنُّولة من المصادر الأخرى كالرُّسوم الجمركية على سبيل المثال والتَّجارة إلخ... وهذا الوضع هو انعكاس للوضع الاجتماعى الحقيقى الذى هو الأساس الجوهرى للمجتمع الأندلسى .

والاكتشافات فى عصر الخلافة يبدو أنَّها تواصل نفس النَّهج فى العصر السَّابِق وهذا يعنى أنَّ الاكتشافات من العملات تؤكد صنعها من معدن واحد من الفضة فى المقام الأوَّل مع بعض الاكتشافات للعملات الذهبية التى تقل فى كميتها كثيراً عن الاكتشافات الفضية ، وفى تلك الفترة كانت هناك كسور للعملات، وقد أُكِّدَتْ الكشف وجود كميات كبيرة من كسور العملة ، وتؤكد كسور هذه العملات أنَّ وزنها إذا جمعت لتكون واحداً صحيحاً لا يختلف تماماً عن وزن العملة الواحدة ؛ فمثلاً الدِّينار نجد أنَّ كسوره إذا وُزِنَتْ تعطينا واحداً صحيحاً يتفق تماماً مع وزن الدِّينار الواحد .

وهناك معلومة تعكس التأثيرات والعلاقات الموجودة مع أجزاء أخرى من العالم الإسلامي ، وتكمن هذه المعلومة في الوجود الملحوظ لعملات أسر ملكية أفريقية في الاكتشافات الأندلسية ، وخاصة أنه توجد عملات فاطمية ذهبية وفضية تتواءم مع الاكتشافات في عصر الخلافة واستمر هذا الوجود في أثناء القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ، ولا يمكن أن ننسى الوجود الأموي في شمال أفريقيا وكثمة لسياستها الرقابية على المنطقة المذكورة التي كانت في صراع دائم مع الفاطميين ، وقد أدى ذلك إلى إصدار وسك نقود باسم خلفاء قرطبة في ورش تصنيع العملات في شمال أفريقيا في أماكن مثل ناكور أو مدينة فاس (ساينث - دييث ١٩٨٤) .

ولكى ننهي حديثنا عن العملة في عصر الخلافة يجب علينا أن نُبرز أهميتها الخاصة في العلاقة التي جمعت بينها وبين الممالك المسيحية في شمال شبه الجزيرة الأيبيرية والتي لم يوجد بها عملات خاصة بها إلا في المقاطعات الكتالانية من جراء تأثير شربلمان . وقد أصبحت العملة في عصر الخلافة نموذج الحسابات لكافة الصفقات في معظم الممالك المسيحية في الشمال ، كما أن التسميات المسميات المستخدمة تخص الشخصيات الموجودة على العملات وليس لنفس الخليفة ، وهذا يزيد قيمة التعليق الذي ذكرناه سابقاً عن مهمة الأنماط الكتابية في ذلك الوقت ، كما أن الحديث عن عملة قاسمية أو جعفرية في الوثائق المسيحية له مغزى كبير (بيدرو شالميتا ١٩٨١ ، كانتو ١٩٨٦) ، وهذا يوضح الأهمية والاستمرار في المبادلات التي تمت بالعملية الخليفة القرطبية .

وخلاصة الأمر ولكي ننتهي مما يتعلق بالعالم الأموي سواء في عصر الإمارة أو في عصر الخلافة ، فإن عملته كانت عنصر استقرار يحدث نصف سنوياً تقريباً (باستثناء الفترات التي أشرنا إليها سابقاً) بكثرة ملحوظة وكانت انعكاساً لاحتياجات ومتطلبات الدولة ، والخط الذي بدأته العملة الأميرية قد ازداد وامتد في أثناء الخلافة ويمكن القول إنه منذ خلافة عبد الرحمن الأول حتى وصول الحمويين أي قرابة ثلاثة قرون تقريباً فإن العملة الأموية (وخاصة الفضية منها) كانت عاملاً مستقرراً لم يشهد سوى القليل من التغييرات والتعديلات في الوزن والقياس ، كما أن جودتها كانت دائمة ومستمرة .

وقد كانت للعملة أهمية بالغة فى العلاقات الاقتصادية بالمجتمع الأندلسى ، إلا أن أثر هذه الأهمية لم يُدرَس بعمق ، ومع ذلك نأخذ بعين الاعتبار الوضع المضطرب الذى سيحدث إبَّان عصر الطوائف الأولى وكذلك التَّظلمات التى حدثت من جرَّاء السَّياسة النَّقدية ، كما يجب أن نأخذ فى الحسبان أن العملة الأموية كانت إحدى الأدوات الفعَّالة فى الدَّولة الأموية القرطبية .

كما أن أزمة الدَّولة الأموية المركزية فى نهاية القرن العاشر ومطلع القرن الحادى عشر الميلاديين ستعنى تغييراً جذرياً فى فهم واستخدام العملة ، والذى سيكون تطورها صوب وضع مختلف وأكثر تعقيداً بالنسبة للوضع السَّياسى المختلف بالأندلس .

وعالم الطوائف فى القرن السابع الهجرى الحادى عشر الميلادى ، وهذا يعنى ما يسمى طوائف الخلافة أو الطوائف الأولى بشكل بانوراما معقد ، والذى حدثت خلاله الأزمات والمشاكل النَّاجمة عن السَّياسة التى انتهجها المنصور الحاجب المهيمن على مقاليد السُّلطة فى عهد الخليفة هشام الثَّانى ، وذلك فى أثناء الجزء الأخير من الخلافة وقد ظهرت هذه المشاكل لتبرز مدى التَّغيير والضُّرر الذى لحق بقواعد وأساسيات المجتمع الأندلسى .

ويمكن القول إنَّ القرن العاشر كان بمثابة المحاولة القصوى لإقامة مجتمع إسلامى فى الغرب والقرن الحادى عشر يمثل الأعراض الأولى لتمرقه وتفتته .

وأفضل مثال لذلك موجود فى عملات هذا العصر وبشكل تقليدى تم اعتبارها على عملات أكثر العصور تعقيداً كما كان العصر المجهول فى تاريخ العملات الإسلامية فى إسبانيا وإنَّ كان اهتمام الدَّرَاسات الكلاسيكية والتَّحقيقات قد عُنىنا بالعملية الأندلسية (بيبس ١٨٩٣ ، برييتو ١٩٢٦) .

وهذه الكثافة مُحددة لتنوع السُّلطات المحلية لوجود حكام كثيرين والعديد من دور السُّك وأسماء الأشخاص هذا إلى جانب العجز عن فهم كيفية السير الاقتصادى للعملة فى عصر الطوائف ؛ حيث كانت تُمثَّل نظاماً نقدياً مختلفاً تماماً عما كان عليه فى العصر الأموى .

إنَّ التفسيرات الجديدة أو الحديثة عن استخدام عملات عصر ملوك الطوائف والتي شرحت على أساس نصٍ شهير لابن حزم القرطبي تؤكد وتوضح أنَّ العملات في ذلك العصر لم تعد تقي أو تحترم أى مفهوم ديني أو قانوني ، كما أنَّها لم تنطبق على أى نمط من أنماط الضَّرْبِية والمالية المتفق عليها ، بل أصبحت أداة أو وسيلة للضغط والاضطهاد والضرائب الباهظة الظالمة لأفراد المجتمع الأندلسي (بارثيلو ، ١٩٩١) .

وفقط من هذا المنطلق أو من وجهة النظر هذه يمكن فهم التَّنوع والهائل لأنماط العملات والكتابات والنقوش والمسميات والمعادن والأسماء أى تمزيق كل ما كان وحدة وصالحاً عاماً إزاء ظهور لكل نوع من الفوائد والأنشطة المحلية والإقليمية .

والخطوة نفسها من المجتمع الخلافي إلى طوائفي (المعبر عنه بألفاظ نقدية) يذهلنا بكثرة حيرته وتردده عقب التدهور الخلافي (أى عصر الخلافة) وبعد الكثير من التجارب المتنوعة والخبولة فإنَّ الأسرة المحمودية ستصدر عملة بشكل مستمر ومنهجي منتظم أمَّا بقية السلطات المهيمنة فى بقية أرجاء الأندلس فقد أبت إصدار عملات مما أدى إلى وجود فترة أخرى خالية من العملات بما فى ذلك المدن بالغة الأهمية من الناحية التجارية ، ويمكن القول إن بقايا عملات عصر الخلافة هى التى كانت مطروحة للتداول حتى اختفائها تماماً مما أدى إلى وجود عصر أو فترة دون عملات وهى ظاهرة معروفة ، وتضع موضع الجدل أو تشكك فى أهمية العملات كأداة اقتصادية (وفقاً لما يراه جيتشارد ١٩٩٠) .

والخلاصات الكبيرة فى موديلات ونماذج وشكل وتماسك الكائنة بين بعض الإصدارات وبعضها الآخر تعكس بجلاء الأزمة التى عانت منها مختلف الممالك وتذبذباتها إزاء الضَّغط المسيحي الكاثوليكي ، وتحليلات الجودة بالنسبة للعملة تعتبر عنصراً أو عاملاً فى غاية الأهمية لتحديد العملية الكبيرة للتدهور والافتقار الذى عانت منه العملات (كما يرى نونان ١٩٨٨) .

وتحليل دقيق للعملة فى عصر ملوك الطوائف يؤكد ويصدق على هذا الرأى ؛ فمن ناحية - وبمنظرة بسيطة - فإنَّه من السهل تقدير التدهور السريع لجودة العملة الذهبية أو الفضية مع الأخذ فى الاعتبار كثرة إصدارات العملات من الذهب الرديء

(فيما يتعلق بالدينار وكسوره) وتدهور الفضة حتى أصبحت مسكوكات من الفضة والنحاس (كما فى الدرهم وكسوره) ومن ناحية أخرى استخدام أكثر من ثلاثة موديلات أو نماذج مختلفة ومتباينة بالنسبة للدرهم فيما يتعلق بالوزن ١٠, ٣ جرامات ذى الوزن الخلفى (أى فى عصر الخلافة) وكذلك ٨, ٤ , جرامات وكذلك ٦٦, ٤ جرامات , وقد استخدم النموجان الوزنيان الأخيران فى ملوك الطوائف بالمنطقة الشرقية من الأندلس .

وهذا الوضع المعقد سيقترن بوجود قيمة أو سعر فى بعض الأحوال منها الدرهم المزوج (أى ضعف درهم) وكذلك أنصاف الدراهم .

وهذا التنوع فى التسميات أو المسميات والنماذج أو الموديلات إلى جانب كثرة التصميمات وأنماط العملات تنم عن بانوراما مختلف تماماً عن العصر الأموى السابق؛ لأن التفاوت فى الوزن والجودة للعملات كانا كبيرين للغاية ، كما أن استخدامها كان مفروضاً على أفراد الشعب بشكل تعسفى ومأساوى .

وهذه البانوراما الشاذة أو غير المنتظمة استمرت بطرح كميات كبيرة من كسور العملات من الذهب والفضة المخلوطة بالنحاس ، وذلك على شكل أثلاث وأرباع الدينار، هذا إلى جانب إصدارات أخرى أكثر أو أقل انتظاماً من الفضة أو خليط من الفضة والنحاس ، كما حدث ذلك من قبل فى العصر الأموى حتى استمر الموديل أو النموج من الذهب حيث أشير عليها الكميات المطروحة ، ولكن معظم المدفوعات كانت تتم بالعملة اليومية المعتادة . ومن الواضح أن القيمة الزهيدة للدرهم فى عصر الطوائف أدى إلى بث الثقة فى كسور العملات الذهبية ، ولهذا نرى أن بعض ممالك الطوائف ركزت إنتاجها بشكل أساسى من هذا المعدن النفيس كما هو الحال فى عملات دونيبس فى طليطلة أو أميرييس فى فالينثيا .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن التنوع الكبير فى الإصدارات النقدية والنماذج أو الموديلات للعملة المتداولة يعنى اختلافاً كبيراً لما كانت عليه العملة من ثبات إبان القرون السابقة ، ويمكن القول أيضاً أن الإصدارات الخاصة قد كثرت لعدة أسباب (سواء كانت ضريبية أو استثنائية) التى يمكن أن تؤدى إلى تغييرات اضطرارية أو كونها سبل وأدوات الصفقات الكبيرة الهائلة .

والضغط الذى عانت منه ممالك الطوائف منذ منتصف القرن الحادى عشر الميلادى وضرورة سداد الضرائب على شكل عملات وفقاً لما كان متبعاً فى الدول الإسلامية بالأندلس ؛ حيث كانت تقوم هذه الدول بدفع ضرائبها إلى الممالك المسيحية بالشمال مقابل الحماية والمساعدة والدفاع ، وهذه النقطة الأخيرة التى عصفت بتوازن نظمها النقدية ومثال للحلول المقترحة فى هذه العلاقات يكمن فى الإصدارات التى قام أحمد المقتدر بسرقسطة عند سداده للضريبة إلى سانشو الرابع جارتيس دى ناباراً (بيبثير ١٩٨٨ أ) وذلك بالعملة الذهبية ، إلا أن الدفع كان يتم بالدراهم التى تم إصدارها خصيصاً لهذا الأمير .

واكتشافات عصر الطوائف تفيدنا فى تحديد النماذج والموديلات المطروحة للتداول من عملات هذا العصر ، والنماذج أو الموديلات تميل إلى الحفاظ على الخط نفسه أو الاتجاه العام للعصور السابقة وذلك بالتمييز الواضح بين المعادن ، ويكفى إبراز عملية الاختفاء المطلق للعملة الفضية التى كانت موجودة فى عهد الخلافة التى اختفت تماماً عقب العصر الحمودى حتى الاكتشافات التى اقتصررت فقط على إنتاج ممالك الطوائف من العملات ، كما أن مسألة كسور العملات استمرت بشكل محدد ولكن ببعض القيود المفروضة وفقاً للظروف الضريبية والمالية لهذه العملات .

وتجب الإشارة أيضاً إلى وجود العملة الفاطمية والصقلية فى الاكتشافات وخاصة الذهبية منها .

وكختام لعصر الطوائف يمكننا إيجاز انهيار وتداعى بنية الدولة فى عهد الخلافة أيضاً ، والذى ينعكس فى العملة ؛ حيث فقدت معظم خصائصها التى كانت قد تحدت وعُرفت فى العصور السابقة ، حيث سيحدث فى غضون سنوات قليلة بعد ذلك تدهور شامل فى إنتاج العملات وتداولها .

ولقد تسببت أزمة الدول الإسلامية فى الأندلس فى أثناء القرن الحادى عشر فى تدخل المرابطين وهم أسرة من البربر تجمّعوا حول حركة دينية (كاسيس ، ١٩٨٥) ، ووجود المرابطين يعنى نهاية ممالك الطوائف بالأندلس ، كما أن قوتهم العسكرية أدت إلى تقويض وتقليص القوة العسكرية للممالك المسيحية وإن كان ذلك بصفة مؤقتة .

وهكذا فقدت الأندلس استقلالها السّياسى وبالتّالى النّقدى ؛ حيث أصبحت على مدى قرنين من الزّمان تقريباً جزءاً من الإمبراطوريات الأفريقية (المرابطين والموحدين) ومنذ تلك اللحظة فإن تاريخ العملات بالدول الإسلامية فى شبه الجزيرة الأيبيرية أصبح وشيخ الارتباط أو الصلة بشمال أفريقيا ، وقد كان لهذا الأمر أثراً بالغة الأهمية لتاريخ العملات فى الأندلس وكذلك لتأثيراته فى دول أخرى بشبه الجزيرة الأيبيرية مثل مملكة قشتالة .

وإذا كان تدخل المرابطين سياسياً فى غاية الأهمية فإنّه فى مجال العملات لن يقل عن ذلك أهمية بل يزيد ؛ لأنّ العملة فى هذا العهد أُدخِلَ عليها كثير من الإبداع ؛ فالعملة المرابطية تعنى العودة إلى النّماذج أو الموديلات القانونيّة للعملة فيما يتعلق بدرجة الثّقاء والوزن والإنتاج المنتظم فى العديد من ورش تصنيع العملات (دور سك العملة) إذا ما قارنًا هذا بالتّخبط والإضطراب اللذين تميز بهما عصر الطّوائف فيما يتعلق بالعملات والعملة المرابطية تمثل نموذجاً أو موديلًا كاملاً تتوافر فيه كافة المواصفات الوزنية والقياسية والجودة .

وتتميز الإصدارات المرابطية بالكثرة الوفرة وخاصة الدنانير التى أُعدت فى كثير من الورش وقد كان وزن الدّينار ٤ جرامات ، كما أنّ كثرة الدنانير جعلتها المرجع الأصلي ، وقد كانت لها أهمية بالغة فى العملات الصّعبة الدّولية بمنطقة غرب البحر المتوسط طوال النّصف الثّانى من القرن الحادى عشر الميلادى والنّصف الأوّل من القرن الثّانى عشر ، وهذه الوفرة فى الذهب المسكوك على شكل نقود أو عملات جاء نتيجة السيطرة والتّحكم فى طرق القوافل الصحراوية ومداخل مناجم الذهب فى أفريقيا والسودان .

ولقد تصدّى المرابطون لإحدى المشاكل التى تعرضنا لها آنفًا ، وهى كسور العملات أو بمعنى آخر نقص كسور العملات ، وذلك بإصدار وحدات العملة من الفضة بوزن جرام واحد إلى جانب مجموعة من أجزاء أو كسور العملة $\frac{1}{4}$ ، $\frac{1}{6}$ ، $\frac{1}{8}$ ، $\frac{1}{16}$ ، مما قدم لشعب الأندلس العديد من التّسميات ، وبالتّالى أغناهم عن الحاجة إلى إحداث تغييرات أو تخفيض للعملات ، وبالتّالى استطاع المرابطون إيجاد وضع من الشّرعية فى إنتاجهم من العملة ، وبهذا قضوا تماماً على أى نوع من التّلاعب بها .

وقد نجمت أزمة المرابطين في شمال أفريقيا على أيدي حركة الموحدين ، وقد تفاقمت عندما تولّى السُلطة تاشفين بن علي في عام ٥٢٧ هجرية ١١٤٢ ميلادية ، وقد لقي حتفه على أيدي الموحدين فيما بعد ، كما أنّ الصراعات والنزاعات على خلافة تاشفين بن علي عجّلت بالفعل اختفاء سلالة أو أسرة المرابطين .

هذا وقد ركّز الموحدون على تقوية دولتهم عسكرياً في شمال أفريقيا مما سمح بظهور حركات بديلة في شبه الجزيرة الأيبيرية لمواجهة الموحدين وهناك عدة تفسيرات أو افتراضات لظهور مثل هذه الحركات منها أنّ الموحدين استعانوا بالمرتزقة المسيحيين في مواجهتهم للمرابطين وكذلك هناك افتراض آخر يتعلق بعجز المرابطين في الدفاع عن الأندلس إزاء ضغوط الممالك المسيحية ، ويجب أن نضيف إلى هذا وذاك العداء الصريح أو التّفصاوت الثقافي بين شعب الأندلس والموحدين والمرابطين ، وقد اتضح ذلك من المشاكل الناجمة عن المعاشرة أو التّعاش .

وهكذا بدأ عصر تاريخي غامض ومعقد لم تُفسره المصادر الأدبية تفسيراً كافياً، وبالتالي فإنّ العملة تصبح عنصراً هاماً وإحدى الشّهادات الموثّقة لإيضاح المشاكل الزمنية والسلالية (الأسر الحاكمة) والتأريخية التي حدثت في ذلك العصر .

وبزعامة أحمد بن قاسي دي ميترولا ، حمدين بن محمد دي قرطبة وسيف الدولة أحمد عبد الملك بن هود وابن وزير وآخرين مرموقين ، وقد تبع هؤلاء كثير من المتمردين الثائرين على المرابطين مما أدى إلى امتداد التمرد في أرجاء الأندلس وقد طلب هؤلاء مساعدة الموحدين ، وبالتالي وضعوا أقدامهم في شبه الجزيرة الأيبيرية ولكنهم وجدوا معارضة شديدة من جانب جماعات المتمردين الذين كانوا قد طلبوا نجدتهم ، ولم ينج من ذلك إلا ابن ماردينيس في سيطرته على مورثيا وفالينثيا .

وقد قام هؤلاء الحكام المستقلون بتقليد النماذج والمويولات النّقدية التي كان قد أدخلها المرابطون ، والتي نالت شهرة كبيرة وصيتاً عظيماً وسيقوم هؤلاء الحكام بإصدار دنانير في مدن مثل غرناطة وقرطبة ومورثيا وفالينثيا ومايوركا وجيان وسيليبس ، وقد أصدروا أيضاً عملات فضية القراريط وكسورها .

لقد كان لعملات المرابطين والذين خلفوهم تأثيراً هاماً في عملة مملكة قشتالة التي اعتادت على استخدام الدينار المرابطي وعندما لم يتم تزويد المملكة القشتالية بهذه الدينار المرابطية فقد فضلت سك عملة تقلد في شكلها الخارجي ووزنها ، ولكن بتغيير المضمون الديني للكتابات التي كانت بالعملة المرابطية ؛ ولهذا فقد اختار ألفونسو الثامن لسك العملة على غرار العملة التي كانت موجودة عقب عصر المرابطين (وعلى وجه التحديد لابن مارانيس) بعد إدراج رموز مسيحية مثل الصليب إلى جانب الكتابات العربية ولكن بتغييرات جوهرية في النص حيث حلت الكتابات المسيحية محل الكتابات القرآنية أما فيما يتعلق بالوزن فلم يتغير كثيراً عن النموذج أو الموديل المرابطي ، وقد أدى هذا إلى وجود عملة تسمى " مرابيدى " ؛ حيث أصبحت من أهم التسميات الكلاسيكية والتقليدية للعملة القشتالية والإسبانية .

هذا وقد خلف الموحدون المرابطين في شمال أفريقيا ، وقد توسعت دولة الموحدين وضمت إليها الأندلس ، وقد أدى هذا إلى تقويض بل فرملة التوسع المسيحي ، ونعني بذلك توسع الممالك المسيحية في أراضي الأندلس .

وفيما يخص الإصدارات النقدية للموحدين فإن العملات في عهدهم قد انتابها تغيير جذري في مظهرها وشكلها سواء كان ذلك في الدرهم أو في الدينار . ومن وجهة النظر التاريخية فإن العملات الموحدية قد خلت من تاريخ السك ، ولكنها مع ذلك دون على الذهبية منها أسماء سلف الحاكم واسم من سك العملة ، وهذه الخاصية تعتبر مصدراً مهماً للمعلومات التكميلية الإضافية .

وسيكون لهذه العملات تأثير كبير في مثيلاتها بالممالك المسيحية وخاصة مملكة قشتالة ، وهكذا قامت هذه الممالك بإصدار عملات ذهبية على شكل الدينار ووزنها ٤,٦٨ جرامات ، وقد سُمي " دويلا " في مملكة قشتالة التي اتخذت من العملة الذهبية نموذجاً لإصداراتها إلى جانب $\frac{1}{4}$ و $\frac{1}{8}$ س دينار ، وهذه القطع الذهبية هي التي ستخذيها مملكة قشتالة لإصداراتها الذهبية منتهجة بذلك وحدتي القياس والوزن الإسلاميتين ، كما حدث ذلك أيضاً في فترة سابقة عند قيام هذه الممالك بتقليد عملات

المرابطين ، وهذه النماذج أو الموديلات ستستمر في العملة القشتالية حتى التعديلات التي سيدخلها الملوك الكاثوليك .

وفيما يتعلق بالفضة فقد أدخلوا الدرهم بشكل مربع بوزن قدره ١,٥٦ جرام مقترناً بكسوره نصف الدرهم وربع الدرهم (فونتيللا ، ١٩٨٨ ، رودريجيث مارينهو ١٩٨٦) .

وكما حدث مع العملة المرابطية ، فإن إصدارات الموحدين قد أمدت شبه الجزيرة الأيبيرية بقطع ذهبية وفضية من العملات مما مهد الجول ظهور تقليدات للدرهم الموحدى في مدن بفرنسا وإيطاليا (على شكل المدعو مياريس) ، وكذلك اتخاذ الذهب كما ذكرنا سلفاً لكي يكون نموذجاً أو موديلاً للعملة القشتالية .

وكما حدث في عهد المرابطين فإن إمبراطورية الموحدين شهدت انهياراً وتدهوراً من جرأ تمردات بنى مارين أو تمرد الحفصيين فضلاً عن المواجهة المستمرة بين المرابطين مع قشتالة في الأندلس مما أدى إلى ظهور طوائف الموحدين في شبه الجزيرة الأيبيرية وهذه الطوائف ظهرت لمواجهة سلطة الموحدين ؛ حيث عاد أفراد من الأسر الكلاسيكية الأندلسية إلى تولى السلطة والحكم وقد أصدر هؤلاء عملات بأسماء العديد من الشخصيات في أماكن مثل فالينثيا الجارابيوأشبيلية أو سبته ، وقد اعترف هؤلاء في بعض الأحوال بحكم الحفصيين في تونس ، وأهم هؤلاء جميعاً هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود في مورثيا في الفترة من ٦٢٥ - ٦٦٨ هـ / ١٢٢٨ - ١٢٧٠ م . وقد استقلت في تلك الفترة مملكة غرناطة عن اليهوديين في مورثيا ، وذلك بالاستعانة بالحفصيين في تونس أو بالعباسيين في بغداد ، كما أعلنت تبعيتها لمملكة قشتالة لضمان بقائها .

والسلالة أو الأسرة النصرية في غرناطة كانت خاتمة العملات الإسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية ، وقد اتبعت نهج النماذج الأصلية للموحدين ، وأسر أخرى بشمال أفريقيا مثل الحفصيين (رودريجيث ١٩٨٣ ، رودريجيث ، فونتيللا ١٩٨٨) ، وطوال تاريخها نجد أن هذه الأسرة قد أصدرت عملات بالمسميات الثلاث : الدينار والدرهم والفيلوس النحاسية ، كما عرفت هذه الأسرة أيضاً العملة الفضية المخلوطة بالنحاس

ولكن فضة العملة الأخيرة كانت رديئة ، وكانت كل هذه العملات باستثناء الفيلوس كانت تطابق موديلات ونماذج عملات الحفصيين ؛ والموحدين وإن كانت موديلات الموحدين تفوق بكثير نماذج الحفصيين حيث شهدت عملة الموحدين تطوراً فى الكتابة أثر فى توزيع النقوش أو الكتابات على وجهى العملة .

وكانت الدينارات تزن ٤,٦٠ جرامات ، أما نصف الدينار فكان يزن ٢,٣٥ جراماً مع وجود بعض القطع الصغيرة من الذهب المسماة الدنانير الصغيرة (الدينارينز) ، وكانت مربعة الشكل وأوزان ضئيلة لم تتجاوز ٠,٢٠ جراماً ، أما الدرهم فكان يصدر درهماً ونصف درهم وربع درهم وثمان درهم بأوزان ١,٥٠ ، ٠,٧٥ ، ٠,٥٥ ، ٠,٢٦ جراماً على التوالى ، وكل هذه العملات كانت تحافظ على الشكل المربع لدرهم الموحدين ولكن بتغييرات فى الكتابة لتواكب عصر الإصدار .

أما بالنسبة للعملة النحاسية (الفيلوس) فقد عاد إلى الظهور من جديد بعد فترة توقف طويلة لم يكن بين العملات المسكوكة والمطروحة للتداول ، وكانت الفيلوس النصرية تتميز بشكلها الخاص المتعدد الزوايا ؛ حيث كانت السبائك تقطع قبل سكها بدون أسماء الأمراء ولكن كان مدوناً عليها اسم دار السك وتاريخ الإصدار فى الفترة من ٨٧٩ إلى ٨٩٤ هجرية .

وهكذا كانت العملة الإسلامية فى الأندلس إبان القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين نموذجاً يُحتذى بالنسبة لعملات مملكة قشتالة وليون ؛ حيث شهدت عملتا هاتين المملكتين تطوراً مميزاً اختلف عما كانت عليه العملات فى ممالك أخرى يشبه الجزيرة الأيبيرية وباقى أوروبا ، والتى لم تضاهها حتى القرن الخامس عشر .

وداخل الدول الأوروبية الغربية نجد أن العملة الإسلامية بالأندلس تمثل مجموعة استثنائية فريدة نظراً لأهميتها فى التاريخ السياسى والاقتصادى لشبه الجزيرة الأيبيرية ، ولكونها تمثل حالة فريدة فى إطار الإصدارات النقدية التى اختلفت فى تطورها عما كانت عليه فى باقى الدول الأوروبية .

المراجع

- (١) ألفارو أسينس ، د . ، ١٩٩٢ ، " مجموعة العملات الإسبانية - العربية " محاضر ندوة العملات الإسبانية - العربية ، مدريد ، ص ٣٩ - ٧٥ .
- (٢) بلاجير ، أ . م . ، " إصدارات العملات العربية - الإسلامية في إسبانيا " برشلونة ، ١٩٧٦ .
- (٣) بارثيلو ، م . " في العملات الذهبية في الأندلس " ١٢٧ - ٢١٦ / ٧٤٤ (٥) - ٩٣٦ (٧) العملة والقروض / ١٣٢ ، ١٩٧٥ .
- (٤) بارثيلو ، م . ، " العملات الأندلسية أثناء الإمارة الأموية " (١٣٨ - ٣٠٠) العملات والقروض ، ٨ ، ٣١٣ - ٣٢٣ ، ١٩٧٩ .
- (٥) بارثيلو ، م . ، " دراسة عن الهيكل المالي والعمليات الحسابية في الإمارة الأموية في قرطبة " (١٣٨ - ٣٠٠ / ٧٥٥ - ٩١٢) والخلافة (٣٠٠ - ٣٦٦ / ٩١٢ - ٩٧٦) أكتاميديفاليا (محضر العصر الوسيط) (١٩٨٤ - ١٩٨٥) ، ٥٠ - ٤٥٦ - ٧٢ .
- (٦) بارثيلو ، م . ، ١٩٨٨ ، " أشكال العملات الإنتاج الجديد للعملات والممارسة المالية الإدارية أثناء الخلافة الأموية ، مشاكل العملات في شبه الجزيرة الأيبيرية . ٢ سانتاريم ١١٧ - ١١٨ .
- (٧) بارثيلو ، م . ، " العملات في عهد ملوك الطوائف ، دوفارتير / ريفيتيرو (١٩٩١) ١٥ - ٢٤ .
- (٨) باتيليس ، م . ل . " العملات في إسبانيا أثناء الخلافة الأموية في الشرق " ٧١١ - ٧٥٠ محاضر الملتي الثالث ، مدريد ، ١٩٩٠ .
- (٩) البرتو كانتو " الإصلاح النقدي للملك القاسم " القنطرة ، ٧ ، (١٩٨٦) ٤٠٣ - ٤٢٨ .
- (١٠) البرتو كانتو " المسائل الاقتصادية والعملات الأندلسية " أراجون في العصر الوسيط القرن التاسع (١٩٩١) سرقسطة ٤٢٩ - ٤٤٤ .
- (١١) كانتو البرتو مارسال ، م . " العملات الفضية في الإمارة الإسبانية " مشاكل إصدار العملات في العصور الوسطى في شبه الجزيرة الأيبيرية ٢ (١٩٨٦) أفيليس ، ١٦٧ - ١٨٠ .
- (١٢) البرتو كانتو " حجم إنتاج الذراهم في الأندلس أثناء السنوات العشر من ٣٢٠ هـ إلى ٣٤٠ هـ " مشاكل إصدار العملات في العصور الوسطى في شبه الجزيرة الأيبيرية ٢ (سانتاريم ، ٩١ - ٩٨) ، كانتو البرتو مارسال ، " العثور على عملات من عهد الإمارة (غرناطة) ، القنطرة ، ٩ ، (١٩٨٨) ٤٢٩ - ٤٧٠ .

- (١٣) كانت و ألبرتو " إصدارات العملة الفضية في الأندلس ومدينة الزهراء أثناء الخلافة القرطبية " في الفترة من ٣٢١ هـ إلى ٣٩٩ هـ / ٩٣٣ - ١٠٠٨ م ، مجلة العملات ، ٩٤ ، ٩٥ (١٩٨٩) ٤١ - ٥٤ .
- (١٤) كانت و ألبرتو " العملات في إسبانيا خلال القرن الثامن ملوك الطوائف " إشراف : رامون مينينديث بيدال ، مدريد ، ١٩٩٤ .
- (١٥) بومينتش ث . " تداول العملات النقدية في عصر الإمارة بباليثيا " مشاكل الإصدار الأولى من النحاس ، المحاضر التمهيدية للمؤتمر التاسع للعملات ، العملات الوطنية ، إيلشي ، ١٩٩٤ (صحافة) .
- (١٦) أويستاتش . د . " العملات العلوية تاريخ العملات في المغرب القرن الرابع " بنك المغرب ، الرباط ، ١٩٨٤ .
- (١٧) بيدرو تشاليتا " دقة العملات الأسبانية - العربية (الدرهم القاسميوالدرهم العربي " JESHO) ٣ ، ٢٤ (١٩٨١) ٣٢٤ - ٣٢٤ .
- (١٨) بيدرو تشاليتا " الدرهم العربي ، القرطبي ، الأندلسيوقيمت " أكتانومانيسيتكا (مجلة محضر العملات) العدد ١٦ (١٩٨٦) ١١٣ - ١٢٦ .
- (١٩) بيدرو تشاليتا " إعفاء العملات من الضرائب والرسوم بالأندلس " مجلة الدراسة العربية ، العدد ٥ ، ٦ (١٩٨٦) ١٥٥ - ١٦٦ .
- (٢٠) بيدرو تشاليتا " العملات النقدية والعملات المالية " وثائق الإسلام في العصور الوسطى ، طابيل ، ٢٩ (١٩٩١) ٦٥ - ٨٨ .
- (٢١) بيدرو تشاليتا " الغزو ونشر الإسلام " مافري ، ١٩٩٤ .
- (٢٢) فوتيتلا بايستا . س . ، العملات المرباطية ، اللقاء الأول ، سرقسطة (١٩٨٨) ٦٧ - ٨٨ .
- (٢٣) جوريتشارد . ب . " تأملات حول العملات الأولى للوك الطوائف الأندلسيين " (١٠٠٩ / ٤٠٠ - ١٠٥٩ - ٤٥١) اللقاء الثاني ، ليريدا ، ١٥٥ - ١٦١ .
- (٢٤) هازارد انتش . ديليو . " تاريخ العملات في العصور الوسطى المتأخرة في شمال أفريقيا " مجلة العملات الأمريكية (أمريكيان نوميسماتيك سوسيتي) نيويورك ، ١٩٥٢ .
- (٢٥) كاسيس ، إتش ، إي " ملاحظات على العقود الثلاثة الأولى لأسرة المرابطين ، ٤٥٠ - ٤٨٠ هـ ، ١٠٥٨ - ١٠٨٨ م " دراسة العملات ، مجلة الإسلام ، العدد ٦٢ (١٩٨٥) ٣١١ - ٣٢٥ .
- (٢٦) كاسيس ، إتش ، إي " العملات وتاريخ نماذج العملات في الإسلام الغربي " المؤتمر العاشر للعملات (١٩٨٥) ، لندن ، ٤٠٩ - ٤١٦ .
- (٢٧) كاسيس ، إتش ، إي " طوائف المرابطين " اللقاء الثاني (١٩٩٠) ليريدا ، ٥١ - ٩٢ .
- (٢٨) ميدينا . إ . " عملات إسبانية إسلامية " كتاب القراءات والتصنيفات ، طليطلة ، ١٩٩٢ .
- (٢٩) مايلز ج . د . " إصدار العملات الأموية في إسبانيا " نيويورك ، ١٩٥٠ .

(٣٠) نونان ت إتش . " بداية أزمة الفضة في الإسلام - دراسة مقارنة بين أسيا الوسطى وشبه الجزيرة الأيبيرية " مشاكل إصدار العملات في شبه الجزيرة الأيبيرية ، ٣ ، سانتاريم (١٩٨٨) ١١٩ - ١٤٤ .

(٣١) ديكسو تو كابرال خ . م . ، ساينز ديث . خ . ، إي . " الذراهم الفضية أثناء العصر الثوري للخلافة الأموية في إسبانيا - مشاكل إصدار العملات في العصور الوسطى في شبه الجزيرة الأيبيرية ، ٢ / أبيليس (١٩٨٦) ١٦٧ - ٢٠٦ .

(٣٢) ديكسو تو كابرال خ . م . ، رودريجيث مارينهو ، خ . " تحليل لإصدارات المرابطين من العملات الفضية - مشاكل إصدار العملات في العصور الوسطى في شبه الجزيرة الأيبيرية ، ٣ ، (١٩٨٨) ١٤٥ - ١٧٤ .

(٣٣) بيستير ، خ . " تأملات في الوثيقة المتعلقة في سداد ديون أحمد المقتدر في سرقسطة إلى سانشو الرابع جارتيس في إباراً " مشاكل إصدار العملات في العصور الوسطى في شبه الجزيرة الأيبيرية ، ٣ ، (١٩٨٨) سانتاريم ، ١٩١ - ٢٠٨ .

(٣٤) بيستير ، خ . " إصدار العملات الفضية باسم هشام الثاني المؤيد بالله (٣٦٦ - ٤٠٣ هـ / ٩٧٦ - ١٠١٣ م) " مشاكل إصدار العملة في العصر الوسيط في شبه الجزيرة الأيبيرية ، ٢ ، (١٩٨٦) أبيليس ١٨١ - ١٩٦ .

(٣٥) بيستير ، خ . " دراسات لإصدارات مختلفة لدار سك النقود بمدينة الزهراء وتقدير العملات (٢٤٠ - ٣٥١ هـ / ٩٥١ - ٩٦٢ م) " إيقاع الإنتاج النقدي (١٩٨٨ ب) باريس .

(٣٦) برييتو إي بيبيس ، أ . " ملوك الطوائف - مدريد ، ١٩٢٦ .

(٣٧) رودريجيث لورينتي ، خ . ، خ . ، العملات النصرية - مدريد ، ١٩٨٣ .

(٣٨) رودريجيث لورينتي ، خ . ، خ . ، فونتينا ، س . ، الفضة النصرية إسهام الإسلام في إسبانيا في تطور ودقة وزن العملات ، مشاكل إصدار العملات في العصور الوسطى في شبه الجزيرة الأيبيرية ، ٣ ، سانتاريم ، ٢٣١ - ٢٤٢ (١٩٨٨) .

(٣٩) رودريجيث مارينهو ، خ . ، بيسوتو كابرال ح . م . " الذراهم الفضية في عهد هشام الثاني في عام ٤٠٣ هـ (١٠١٢ - ١٠١٣ م) " مشاكل إصدار العملات في العصور الوسطى في شبه الجزيرة الأيبيرية ، ٣ ، (١٩٨٨) ، سانتاريم ، ٩٩ ، ١٠٦ .

(٤٠) رودريجيث مارينهو ، خ . " العملات التي أصدرها أحمد بن قاسي وبداية سمات ومميزات الإصدارات النقدية للموحدين " مشاكل إصدار العملات في العصور الوسطى في شبه الجزيرة الأيبيرية ، ٢ ، (١٩٨٦) ٤٣ - ٥٨ .

(٤١) ساينز - ديث ، خ . إي . " إصدار العملات النقدية في خلافة قرطبة في شمال أفريقيا - مدريد ، ١٩٨٤ .

(٤٢) بيبيس إيسكودرو ، أ . " عملات الأسر العربية الإسبانية - مدريد ، ١٨٩٣ .

الفصل الخامس المصوغات غير الذهبية بالأندلس مقابر باب البيرا

إعداد : إدواردو فريسنيدا باديا ، مانويل لوبيث ،
إيماكولادا أليمان أجيليرا ، أنخيل رودريجيث أجيليرا ،
خوسية مانويل بينيا رودريجيث .

كانت للجواهر مكانة مهمة في نفوس الشعوب في الماضي السحيق . وفي النصوص التاريخية والأدبية تبين أن المسلمين قد استخدموا المجوهرات أيضاً ، ويكفي للتدليل على ذلك أن أول قطع من المجوهرات غير الذهبية بالأندلس صنعها الحرفيون المستعربون (المسيحيون الأندلسيون) وفقاً للعرف الإسباني القوطي . وبعض المؤلفين ومن بينهم ابن إداری جمعوا معلومات قيمة عن التجارة ووصول مجوهرات قادمة من المشرق . وكذلك ابن حوقل يحكى عن كثرة القطع غير الذهبية التي كانت لدى عبد الرحمن الثالث في قرطبة . وفي هذا الصدد فإنه من المعروف بواسطة المقتبس أن هذا العاهل اتخذ حزاماً من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة والقسطل النفيس . وإبان هذا العصر فإن عدداً كبيراً من اليهود قد عهد إليهم بصناعة الحلى والمجوهرات من مختلف المعادن (فضة وذهب) لسيدات قرطبة من الطبقة العليا (الأرستوقراطية) ؛ ولذلك فإن استخدام المصوغات لتزيين الملابس والعمائم والقروط لم يكن حكراً على مجتمع النساء فقط ؛ لأن استخدامهما وفقاً للشاعر ابن درّاج القسطلی كان شائعاً بين بعض الشخصيات الملكية في فالينثيا في أثناء القرن الحادي عشر .

وفي القرن الحادي عشر الميلادي كان يُفضل استخدام الأحجار شبه النفيسة مثل العقيق الأحمر والزركون والزبرجد . وقد أشار ابن الخطيب أيضاً إلى استخدام

الأحجار شبه النقيسة فى عصر النُصريين فى جواهر الأسر النبيلة وأسر البلاط الملكى مثل الزُّركون والزُّمرد واللآلىء والياقوت الأصفر، وقد أشار أيضاً إلى تفضيل السيدات المسلمات للمجوهرات من الذهب الخالص بين أبناء الطبقات الأرستوقراطية ومن الفضة بين نساء الطبقات المتواضعة (أر بى ١٩٨٤ : ٢٩٩) .

وهذه الإشارات التاريخية تسمح بالاقتراب من المستوى الاجتماعى الاقتصادى للمترنين بالجواهر وكذلك التمييز بين مختلف المعادن المستخدمة فى صنعها .

ولعلَّ أفضل مرجع تعرض لتنوع المجوهرات المستخدمة فى نهاية العصر النُصرى وأثناء الحقب الأولى من القرن السادس عشر يتمثل فى الوثائق الموجودة فى أرشيف الحمراء وفى كتاب بيريت دى ايتا (مارتينيث ١٩٦٧) .

والسَّابقات الأولى بشأن اكتشاف أحجية من العصر الإسلامى نجدها موثقة فى غرناطة إبَّان العصر أو القرن الحالى . وقد تمَّ الاكتشاف بعد فتح أساس منزل كائن أمام قبو محراب الكاتدرائية وقد تمثل الاكتشاف فى إثناء بداخله العديد من عملات المرابطين والموحدين وبينها العديد من الأحجية النحاسية ذات النقوش تدلُّ على التقوى والحماية . وفى تلك اللحظة نجد أنَّ فرناندو دى باولا جمع هذه الأحجية ، والتي كان يحملها الأشخاص المدفونون فى مقبرة ترينفو (ببادار : ١٩٠٥) والمؤلف عندما أشار إلى التوافق وتشابه كلا الاكتشافين ، وأضاف أنَّ الحفريات التى تمَّت بالمنطقة أدَّت إلى اكتشاف أكثر من عشرين نموذجاً دون التمكن من تصنيفها وطبقاً لما أورده ببادار (ببادار : ١٩٠٥ : ٦٦) فإنَّ الحجاب أو التَّيممة كانت عليها نقوش تدل على المدح والثناء على وجهيها .

كما أنَّ العثور على بعض القرط فى المدافن جاء نتيجة الحفريات بالمدافن الإسلامية فى تورينثيا (أريناس ديل رى ، غرناطة) (وفقاً لما أورده أريياسوريو ، ١٩٧٩ : ٣١) ، والتي مميزاتها الشكلية تتوافق مع الموجودة فى هذا الكتاب .

كما أنَّ الحفريات التى تمَّت فى مقبرة المسلمين بباب البيرا سواء بطريق الدُستور - النصر كما بالمستشفى الملكى سهلت عملية توثيق بعض القطع ذات الزينة الشخصية مثل القرط والخواتم والأحجية والدُّلَّيات من العصر الأندلسى .

وعند التّطرق إلى الدّراسة الخاصة بالقطع المعدنية ، وفي محاولة لإيجاد أوجه شبه كان من الضروري البحث عن قرائن ثقافية قريبة يمكن العثور عليها فى شمال أفريقيا لفهم عالم المعتقدات ومظاهر السّحر والتّنين التى كانت سائدة فى العصر الأندلسى .

إنّ حفريات مدافن مدينة غرناطة وقطع التّزين الشخصية (الحلى الشخصية) تمثل العناصر الشّائعة ، والتى برز من بينها الحلقات أو القرط ، كما أن نظام إغلاق هذه الحلى كان متشابهاً ؛ فالنظام المستخدم بسيط فى ميكانيكيته ، ويتم ذلك بتوصيل أحد الأطراف بالطرف الآخر ثم يثنى أو يطوى عند الطرف الآخر حتى يمنع سقوط أو فقدان الحلية .

إنّ الحلقات ذات أشكال دائرية ، وهى مصنوعة من خيط معدنى فى البداية ، ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع :

- (١) الحلق من النّحاس المذهب ، والذى يتراوح قطره ما بين ٢٢ إلى ٢٥ ملليمتر .
- (٢) الحلق الفضى ، وهناك نموذجان : أحدهما قطره يتراوح ما بين ١٥ إلى ٢٠ ملليمتر وهو الأكثر شيوعاً ، والآخر قطره ٢٥ ملليمتر .

وقد لوحظَ فى القروط أو الحلقات المميزات الشكلية القياسية والمواد المستخدمة فى صنعها ، ونتيجة هذه التكوينات تشير إلى القيمة الاقتصادية لنفس الحلية أو الجوهرة وأهمية الشخص الذى يرتديها ، وكذلك لكتابة الحفظ المنقوشة عليها عندما يجمع بينها فى حلية واحدة وفيما يلى المجموعات التى استقر الرأى بشأنها :

فمن بين الحلقات التى أدخل فيها خيط معدنى نجد أنّها تتنوع وفقاً للمعدن المستخدم ، وعموماً توجد أفضلية ما بالخرز المعدنى كما يستخدم الخرز أيضاً من الرّجاج والأصداف ، ومن بين الخرز المعدنى نجد المصنوع من النّحاس المطلى بالذهب وتسود الخرزة السّطحية ذات الفصوص أو الحبوب ، والتى تذكرنا بتشابهها مع ثمرة التّوت ، وهذا النّمودج أيضاً يصنع من الذهب (HR ٣٠٠ ١٣) .

وعادة ما تكون الخرزة منقوشة بأربعة قواطع أو فواصل قطرية فى كل غطاء ، وهى كائنة حول محور النّقْب وهى توحى بكونها صليب مزدوج .

وفى مجموعة القروط أو الحلقان المكونة من عنصرين متداخلين فإن مجموع هذه العناصر العديدة من التشكيلات لقطع الحلي ، ولهذا فإنه تسود التشكيلات البسيطة وذلك بإدراج خرزتين من المعدن أو من الزجاج أو من خليط من الزجاج والمعدن ، ويبرز بين قطع هذه المجموعة قرطٌ بخرزة معدنية على شكل شبه منحرف أو معين بثمانية قواطع أو فواصل قطرية وتمثيل ليد القديسة فاطمة (HR ١٣٤٧٤ أ ، ب) .

عقد أو قلادة :

وأما مجموعة القروط أو الحلقان التي تتركب من ثلاثة عناصر متداخلة ؛ فهي تُمثلُ كثرةً تفوق سابقتها ، ويتم التمييز بين بعض النماذج الأساسية ؛ حيث إن تنوع المواد يتيح المزيد من التشكيلات الجمالية كما هي الحال في القرط ذي الخرزة الزجاجية والخرزتين المعدنيتين في المحيط وهما ذوات فصوص وهي الأكثر شيوعاً ، وهذه التركيبية تعاني من بعض التغييرات في نظام تركيبها ؛ ففي بعض الأحيان نجد أن الخرزة الزجاجية توجد بين الخرزتين المعدنيتين أو في أحد الطرفين ، وهناك بعض القروط بها خرزتان زجاجيتان توجد كل منها في أحد طرفي القرط ، أما الخرزة المعدنية فتقع في المنتصف بينها أو بخرزتين معدنيتين ذات فصوص في المحيط عند الطرفين وصدفة في الوسط .

وفى هذه المجموعة تبرز القروط أو الحلقان ذات الخرزة المعدنية الخارجية ذات الفصوص في الوسط وخرزة زجاجية وأخرى معدنية توجد كل واحدة منها في أحد الطرفين (AYE - HR ١٥١٧٨) .

أما المجموعة ذات الأربعة عناصر المتداخلة فإنها إلى جانب تقديم مزيد من التشكيلات الجمالية فإنها ذات مغزى مفهومي إلى حد ما ، فإن وجود عنصرين معدنيين في الوسط وزجاجيين في الأجناب هي السائدة والشائعة ، فالنتيجة الجمالية للتكوين تشير إلى نموذج مفهومي يقوم على التناصب ، وعلى الرغم من ذلك فإن التنوع يوثق عندما يتم استبدال خرزة جانبية بأخرى صدفية (أ ، ب ٣٠٢٥ TR) .

فى هذه الحالة فإن الإطار المفهومى الرمزى الخاص بالحماية أو الحفظ نظراً لوجود الصُدفة يؤدى إلى عملية انفصال أو انكسار للنظام التناسى .

أما فى مجموعة القروط المكونة من أكثر من أربعة عناصر فإنها تبرز من الناحية الجمالية ليس فقط لوجود نموذج واحد بل نظراً لعدد العناصر المستخدمة فى صنعه وطبيعة كل منها ؛ فهو ذو صناعة متطورة وبه ١٢ خرزة زجاجية خارجية تحيط بأخرى من الزركون كبيرة الحجم ، وتوجد فى المنتصف ذات اللون الأحمر شفافة ولها ٢٠ مستوى .

الدبل - الخواتم التى تم تصنيفها فإنها تمثل ثلاثة أنماط ذات طرق صناعة مختلفة ، وتبرز منها الدبلة الدائرية أو المستديرة (HR13432 و HR1620) الأكثر عرضاً وسمكاً فى منطقة الوسط ، وهذا السمك له شكل بيضاوى أو دائرى ، واتحاد الطرفين يتم بإخفاء هذين الشكلين أو يتم وصل الطرفين بطريق التقابل لى ينطبقا بدقة كبيرة ، ويتم الوصل فى كلتا العمليتين بواسطة لحام لمنطقة الوصل .

وهناك نماذج أخرى تمثل حجر ثمين وخرزة من الزجاج ذات اللون الأزرق القاتم (HR14143) أو بدون لون (HR ١٢٢٠١) .

وهناك نموذج موثق وهو المشبك أو الأبريزم (TR ١١١٤) والخاص بتعليق بعض الملابس مثل العباءة التى تغطى الصدر . إن النموذج الذى يعنينا فى الحقيقة له مميزات شكلية واضحة مما يجعله يماثل أو يشابه المشابك أو الأبرازيم الإسبانية الرومانية ذات القوس أو التى على شكل قوس .

والحفريات تمكنت من توثيق قلادة أو عقد (٤٠٣٤ - خ TR4) المكون من عشر خرزات من الزجاج، وهى ذات ألوان متعددة (الأبيض والأسود والتركوازى والأمر) ويمكن القول وفقاً للمصادر التاريخية إنه تم استخدام المنسوجات ، وعلى سبيل المثال " الحرير " لنظم مثل هذا النوع من الحلى ، ولهذا فإن النسيج لم يتم حفظه .

أما الدبابيس الموثقة فهى بسيطة فى شكلها فهى عبارة عن دبوس من النحاس شبه المبروم فى أحد طرفيه كراس للدبوس ووجوده فى المدافن إلى جوار جمجمة يجعلنا نفكر فى أنه كان يستخدم لتثبيت بعض التّسريحات أو الكفن فوق الرأس .

ومن بين الأحجية والدلائيات ذات المغزى الرّمزى يبرز نموذجان الأول : على شكل مثلث ذى اللون الأسود (ب - ١٣٤٢٤ - HR) طوله ١٦ مليمتر وسمكه ٥ مليمتر ذو أطراف مستديرة وهو مثقوب بالطول . أما المثال أو التّموذج الثّانى فهو عبارة عن صفيحة أُخذت من صفيح مدلفن وصُنِعَ من الرّصاص بزخارف كتابية فى الوجه والظهر (HR ١٢٠٤٠) .

ومن بين المواد المستخدمة فى صنع هذه الحلى الخاصة بالزّينة ضمن مجموعات المعادن يبرز النّحاس كعنصر شائع الاستخدام نظراً لسهولة ويسر الحصول عليه إلى جانب سهولة صهره ، وقد استخدم فى القروط والطلقان والمذهبات . إنّ تذهيب المعادن أى طلاؤها بالذهب (قد عُثِرَ عليه أيضاً فى المغرب خلال العصر الحالى) (EUDEL 1902) أمّا العناصر المعدنية الأخرى الأقل استخداماً فقد تمثّلت فى الذهب والفضة .

إنّ استخدام الفضة يُعدُّ رمزاً للطهارة والنقاء إذا لم يتم تقدير قيمتها الاقتصادية. ومن النّادر جداً استخدامها دون خلطها بالمعادن الأخرى مثل النّحاس والرّصاص والقصدير .

أمّا الزّجاج فهو عنصرٌ يكثر استخدامه فى تزيين المجوهرات ، وذلك بملاً الحجر المعدنى للخاتم أو الدبلة أو على شكل مستدير كخرزة من مكونات قُرطٍ أو قلادة . ومن الشّائع استخدام الزّجاج الملون بالعديد من الأكسيدات المختلفة ، أو الكربونات مثل المنجنيز والنّحاس والحديد والكوبالت للحصول على درجات ألوان متعددة ، ولكن الأكثر استخداماً يكمن فى الخزرات الزّجاجية المعتمدة ذات اللون التّركوازى (الفيروزى) .

وهناك عناصر أخرى شائعة الاستخدام مثل الرّخويات البحرية نظراً لقيمتها التّجارية العالية وكذلك الجيرية ، ومن بين الأحجار شبه النّفيسة ثبت استخدام حجر الزّركون وذلك لتقليد بعض الأحجار النّفيسة التى كانت تستخدم فى تلك الفترة ، وفى هذه الحالة يمكن أن يُعدَّ القسطل من بين هذه الأحجار ، وهو متنوع مثل الزّركون ذى اللون الأحمر البرتقالى الشفاف اللامع كمعان الزّجاج وذى الشكل المخروطى .

إن دراسة القروط والحلقان تسمح بالتعرف على طريقة العمل المستخدمة بواسطة الحرفيين أو الفنانين اليدويين الذين كانوا يهتمون بالمصنوعات أو المجوهرات غير الذهبية ، وكذلك للتعرف على المستوى الفنى الذى وصل إليه هذا النشاط الحرفى فى الأندلس . وفى هذا يرجع إلى التوثيق الأثرى وكذلك للمعلومات الخاصة بدراسة السلالات البشرية التى تمت فى شمال أفريقيا وعلى وجه التحديد فى المغرب والجزائر (رواتس ١٩٨٩ ويوخيا ١٩٣١) .

فهناك بعض المؤلفين الذين أبرزوا مدى هذا التشابه بين هذه القطع ونماذج ترجع إلى العصر ما قبل الرومانى (جوميث مورينو ١٩٥١) وكذلك بالعصر الإسبانى الرومانى أو القوطى (ثوثيا ١٩٩٢) . وهذا المظهر ملحوظ فى استخدام وسيلة لإدراج اللؤلؤ فى صناعة مجوهرات الأحجار الكريمة ؛ حيث يبرر ذلك فى هذه المجوهرات الرخيصة باستخدام العناصر الزجاجية المستديرة أو البيضاوية ، والتى تتنوع درجات ألوانها ، وذلك فى تقليد واضح للأحجار أو الجواهر النفيسة .

ويمكن أن توجد روابط قليلة بين صناعة المجوهرات غير الذهبية فى شمال أفريقيا والأندلس ، ومع ذلك فإن التأثير والتأثر الثقافى بين ضفتى البحر المتوسط كان وثيقاً ومكثفاً ، وقد رحل كثير من الحرفيين أو الصيّاغ من الأندلس إلى شمال أفريقيا ومعهم تقنياتهم ؛ ففى القرن الثانى عشر استقر كثير من الصّاعة الأندلسيين فى الجزائر وخلال العصر النصرى شهدت صناعة المجوهرات غير الذهبية تطوراً كبيراً فى شمال أفريقيا ، وإن هذا التأثير قد امتد حتى بعد فتح غرناطة (كامبيس - فابريز ١٩٩٠) ؛ فطرد المسلمين نهائياً فى القرن السابع عشر أدى بهؤلاء إلى الاستقرار فى كل من المغرب والجزائر حيث عاش فيها حرفيون يمثلون كل الحرف ، وبالطبع صانعى مجوهرات غير ذهبية ، كما بدأ كل هؤلاء الحرفيين تقنية التثقيب أو التخريم فى شمال أفريقيا خاصة فوق الطلاء ، وقد تخصص فى هذا النشاط أو الحرفة أسر معينة مثل أسرة بنى بئى (كامبيس - فابريز ١٩٩٠ : ١٥) .

والتقنيات الموثقة سواء على الصعيد العرقي البشرى أو على الصعيد الأثرى فى هذه المدافن أو المقابر يمكن تجميعها وفقاً لخطة كامبيس - فابريز (كامبيس - فابريز ١٩٩٠ : ٣٩ إلى ٤٢) على النحو التالى :

- ١ - تقنيات النار ، والتي من بينها عملية صهر الفضة والصبّ وعمليات اللحام .
- ٢ - تقنيات النقر ، وهى تقنية تتم فى الوقت نفسه مع التقنيات السابقة ، وذلك لتغيير شكل المعدن المستخدم بواسطة الشاكوش أو الأزميل .
- ٣ - تقنيات التّشطيب والتي يتم فيها تعديل طفيف للشكل الناتج عن التقنيات السابقة حيث تفقد القطعة شيئاً من مادتها كما هى الحال فى ختم القوالب عند نقشها وتحريرها وبردها .

وفيما يتعلق بالتقنيات المستخدمة لصناعة القطع سنحلل فيما يلى بعضها، حيث يمكن ملاحظة تكوين مختلف تقنيات العمل .

ومن بين القطع التى نفذت فى قالب باستخدام اللحام النّهائى تبرز بصفة رئيسية الخزرات الخارجية المصنوعة من المعدن ذات السطح الأملس أو المفصص . إن طريقة الصنع معقدة للغاية ؛ ففي المثال الأول يُعدّ القالب أو النموذج (من الطين الصلصال عامة) ، وهذا القالب مكون من جزء أو من جزئين به عليهما نقوش أو زخارف ، وبعد إعداد القالب الفخارى يُصبّ عليه المعدن المنصهر ، وعند سحب القطعة من القالب توضع فى ماء بارد لى يتم تصحيح العيوب ، ثم تأتى مرحلة التّشطيب ، وتنتهى عملية الصنع باللحام للغطائين شبه الخارجيين وثقبهما من الطرفين لى يتم نظمهما .

و الخواتم والدّبّل التى تم تصنيفها تنم عن ثلاث تقنيات عند التنفيذ . إن أبسط طريقة (HR ١٣٤٣٢ و HR ١٦٢٠٩) ، وذلك بإعداد صفيحة سُمكها يتراوح ما بين ١,٥ ملمتر عن طريق الصّهر والتّصحيح أو التّرقيق للمعدن العريض والسّميك فى وسطه ، بينما تقل مساحته كلما اتجهنا إلى الأطراف ، وفيما بعد يتم قطع المعدن فى قطعة واحدة . ويكون السّمك فى وسط المعدن على شكل دائرى أو بيضاوى .

ووصل الطرفین يتم بإخفائهما أو بوصلهما دون إخفاء ، وسواء هذا أو تلك فإنَّ العملية تتم باللحام النهائي لمنطقة الوصل .

أما الطَّريقة التَّقنية للتَّصنيع نجدُها موثَّقة في (HR ١٤١٤٣) ، وذلك بإعداد صفيحة مستوية سمكها ١ ملليمتر، يزداد هذا السُّمك في المنطقة الوسطى، وهى عبارة عن شكل بيضاوى وعن طريق اللحام يتم ثقب القطعة بحيث تستوعب الخرزة المعدنية .

أما الطَّريقة الثَّالثة الموثَّقة في (HR ١٣٣٠١) ، والذي تم فيها إعداد خاتم من خلال لحام عنصرين : بالتَّقب من جانب ووصل الصفيحة شبه المستوية من جانب آخر ، أما طرفا الصفيحة في هذه الحالة يتم تثبيتهما بواسطة اللحام أسفل قاعدة الثَّقب .

وفيما يتعلق بتذهيب المعادن فقد كان يتم باستخدام خليط من الزُّنْبُق ، والذي كان يُطلق عليه اسم " على النَّار " ، وذلك عن طريق خلط الذهب بالزُّنْبُق وطلاء القطعة المراد تذهيبها ثم يُسخَّن على النَّار حتى يتم تبخير الزُّنْبُق ويتبقى اللون الذهبى .

أما تقنية النُّحاس المذهب فهى معروفة منذ القدم ، أى فى عصر الخلافة كما نستطيع التاكيد من ذلك فى كنوز لالوخا (غرناطة) ، وفى جارتوشا فى ألبيريا، وكلاهما فى معهد بالينسيا لخوان تشاريلا (فى المتحف الإقليمى ببيان) ، وكذلك يُلاحظ فى كنز لوركا بمووثيا فى فترة ملوك الطوائف خلال القرن الحادى عشر .

أما طريقة سحب الأسلاك فإنَّها تقنية أساسية ، وتكمن فى تقليص قطر السلك المستدير ثم يُدرَج أو يُدخل فى صفيحة مثقوبة فى قالب لسحب الأسلاك ذات ثقوب متعددة وذات مقاسات تدريجية ، وذلك بجذبه أو بشده بسرعة وحيوية .

ويعد تحليل التَّقنيات ومواد التَّصنيع المستخدمة نجد أنَّ هناك العديد من الأمور المتعلقة بالبحث تتعلق بالهوية الاجتماعية والقبلية للذين تحلَّوا بهذه المجوهرات والذين صنعوها ، وفى هذا الصَّد يتضح لنا من خلال الدِّراسات العرقية أو السُّلالية إلى جانب الأنثروبولوجية (الخاصة بطبائع الإنسان) التى أُعدَّت عن المجوهرات ، والذين تزيّنوا بها فى المغرب (روميرو دى تيخادا - ١٩٨٠ ، مورين باردى ١٩٩٠) ، يمكن

استنباط مستويين : الأول : يشير إلى أصل ووجود شعب متنوع السلالات والأعراق (عرب وبربر ويهود) ذى هوية قبلية . والمستوى الثانى : يتعلق بالمكان حيث لا يجب التمييز فقط بين الرّيف والحضر بل أيضاً بين المناطق والمقاطعات .

فبعض المؤلفين لا يستطيعون التمييز الواضح بين المجوهرات العربية والبربرية ؛ لأنه فيما يتعلق بالبربرية فإنّ أوجه الشبه والاختلاف كبيرة ومتفرقة ، ومع ذلك فإنّه على ما يبدو توجد أفضلية عند اختيار بعض المواد ، ولهذا فإنّ المجوهرات الرّيفية العربية أو البربرية نجدها مصنوعة من الفضة أو النحاس ذات زخرفة هندسية بسيطة جداً ، أمّا الذهب فليس شائعاً ؛ لأنه لم يظهر إلا فى منازل الأعيان (مورين باردى ١٩٩٠ - ٢١) ؛ وبهذا الشّكل فإنّ نموذج التّسريحات أو تصفيقات الشعر ولوازمها البسيطة ؛ وهذا ما يحدث أيضاً بين اليهود حيث يستخدمون الفضة المطلية بالذهب أو النحاس الأصفر .

ومن ناحية أخرى فإنّ المجوهرات فى الحضر يسود فيها استخدام الذهب أو الفضة المطلية بالذهب بزخرفة أساسية ملتوية أو زجاجية زهور أو ثقب أو تخريجات (روميرو دى تيخادا ، ١٩٨٠ - ١٢) ، أمّا فيما يتعلق بالمقابر الغرناطية فإنّ المجوهرات المدروسة بها تشابه كبير مع مجوهرات الجنوب (تيراسى ١٩٣٠) ، والتي اتبعت العرف السائد من حيث التّقنيات أو الزّخارف التي تم إبرازها هنا .

ويتضح جلياً أنّ المجوهرات كانت مكملةً للملابس أو للتّصفيقات ، وإذا كانت عناصر التّسريحات أو التّصفيقات ليست مقصورة على مجموعة معينة ، فإنّها تُبرز هوية واضحة فى أشكالها وتكويناتها (مورين باردى ١٩٩٠ - ٢١) ، ولذلك فإنّ شكل التّسريحة ولوازمها أو مكملاتها (مجموعة الجواهر إلخ) تمثل عناصر التّعريف على مجموعة قبلية معينة .

إنّ كثرة النّمازج واضحة ومع ذلك وحتى عندما تُميز نماذج تصفيقات الشّعْر هذه بين قبيلة وأخرى فإنّ هناك بعض المدلولات التي يمكن من خلالها التّعريف على المستوى الاجتماعي والاقتصادي لمن يرتدون هذه المجوهرات وإنّ كانت الحلى التي تستخدمها

النساء العربيات والبربريات واليهوديات اللائى يعشن فى قرية واحدة لا تختلف فيما بينها (روميرودى تىخادا - ١٩٨٠ - ١٥) .

ويمتد استخدام المجوهرات إلى الرجال أيضاً والأطفال وإن كان ذلك يقتصر على استخدام التعويذة أو التميمة أو الحجاب عبارة عن كيس من الفضة أو الجلد به آية قرآنية ، وكذلك القلادة للوقاية من الحسد (آدم - ١٩٥٢ - ٤٦٦) ، وأبزيماة الأحزمة .

ففى المغرب كان الحرفيون اليهود هم صانعو المجوهرات ؛ لأن المسلمين شعروا بجاذبية بسيطة صوب العمل بالمعادن (روميرودى تىخادا - ١٩٨٠ - ١٤) . وفى الوقت الحاضر توجد بعض الأماكن الصغيرة للحرفيين من البربر فى المنطقة المواجهة لجبال أطلس المغربية (مورين باردى ١٩٩٠ - ٢١) الذين يتوارثون الحرفة من جيل إلى جيل ومن الآباء إلى الأبناء (روميرودى تىخادا - ١٩٨٠ - ١٤) .

وفى المقام الأخير يجب أن نعرف المغزى الثقافى والقيمة الرمزية للمجوهرات ؛ ففى شمال أفريقيا نجد أن للمجوهرات قيمتان جوهريتان : الأولى اقتصادية والثانية وقائية للحماية من السحر . فالقيمة الأولى فى الأزمات كانت تجعل من المجوهرات مادة للمبادلة أو المقايضة (بيسانسنوت ، ١٩٥٢ - القرن الثانى عشر) ولها لذلك قيمة للشهرة وتؤكد مهر الخطيبة أو العروسة . ومع ذلك فإن القيمة الوقائية للسحر هى الأكثر أهمية ؛ ففى مختلف الأوساط نجد أنه لحماية الأسرة وممتلكاتها تبرز أهمية الأحجية والتأائم والتعاويز وتلك التى كانت تمثل الشخصيات التى تقوم على تنفيذ الوصايا أو التعاليم الدينية أو القانونية أشياء تبهر مثل (الفضة والمرايات والأصداف) وصيغ وآيات من القرآن (تشامباولت وبيربورجى ١٩٦٥ : ٢٣) ؛ فالتأائم هى التى بها رموز منقوشة أو مكتوبة من هنا تكتسب معناها السحرى (كنعان ١٩١٤ - ٧٧ وكارلوس ١٩٨١ - ١٠٩) ، أما مصطلح التعويذة فإن القوة السحرية للحماية تأتى من المادة نفسها المصنوع منها التعويذة . وعلى الرغم من التعريفين السابقين فإن الحدود الفاصلة بين التعويذة والتميمة غير مرئية أو غير واضحة إذا وضعنا فى الاعتبار أن كليهما صنع لغاية واحدة وهى الوقاية من السحر .

والتَّعْوِذَةُ والتَّمِيمَةُ يلبسها الرُّجَالُ والنِّسَاءُ على حدٍ سواء كما يقول (البيريتش ١٩٤٩) وكذلك كان من الشُّائع استخدام العدد خمسة للوقاية من الحسد ، وكذلك استخدام اليَدِّ وفقاً لما يقوله بروسبر ريكارد كما جاء في استشهداد (مورين باردى ١٩٩٠ - ٢١) ويوحى بأنَّ هذا الرقم أحياناً يكون خفياً أو مستتراً ، وإذا لم توجد - أحياناً خمسة عناصر - فإنه توجد بالفعل خمسة مواضع لهذه التَّعَاوِيز أو التَّمَانِم .

المراجع

- (١) آدم . أ - عادات قبائل البربر في المناطق المواجهة لجبال أطلس - هيربيريس ، العدد التاسع والثلاثون ، باريس ، ص ٤٥٩ - ٤٧٩ ، ١٩٥٢ .
- (٢) أرين راكيل - إسبانيا الإسلامية من القرن الثامن إلى الخامس عشر ، برشلونة ، ١٩٨٤ .
- (٣) أريباس بالاو أنطونيو ريو ريو مانويل (١٩٧٩) - المقابر منطقة تورينيا محافظة غرناطة - دراسة أثرية ، حوليات ، الدراسات بالعصور الوسطى ، ٩ برشلونة ، ص ١٩ - ٧٤ .
- (٤) أنوار رويث رفاثيل - آثار إسلامية - أليكانتي ، ١٩٨٩ .
- (٥) بيسانسينيون . خ . - المجوهرات العربية والبربرية في المغرب - الدار البيضاء ، ١٩٥٣ .
- (٦) بوجيخا . م . - المجوهرات الجزائرية (١٩٣١) ص ٢٠٣ - ٢٢٤ .
- (٧) كامبيس فابريس - المجوهرات البربرية في الجزائر - ١٩٩٠ .
- (٨) كولا البيريتش . خ . - التعاويذ والتماثيل المغربية - مدريد ، ١٩٤٩ .
- (٩) تسامبلوت . دو بير بروجي - ستة أشكال - متحف الإنسان ، باريس ، ١٩٦٥ .
- (١٠) روتية - أي - السحر والدين في شمال أفريقيا - الجزائر ، باريس ، ١٩٨٤ ، ١٩٠٩ .
- (١١) أوديل باول - المجوهرات غير الذهبية الجزائرية والتونسية - الجزائر ١٩٠٢ .
- (١٢) جوميث مورينو مانويل - المجوهرات في الفن العربي الإسباني حتى الموحدين - مدريد ١٩٥١ .
- (١٣) كانوس . ل . - كتالوج التعاويذ والتماثيل الإسلامية - باريس ، ١٩٨١ .
- (١٤) مارتينيث رويث خوان - ملابس المسلمين طبقاً لبيريت دي إيتا - وثائق الحمراء ، كراسات الحمراء ، ٣ غرناطة (١٩٧٦) ص ٥٥ - ١٢٤ .
- (١٥) مورين باردى . م . - مجوهرات النساء في المغرب في المنطقة المواجهة لجبال أطلس ، باريس ١٩٩٠ .
- (١٦) بيريث هيجيرا تيريسا - أشياء وصور من الأندلس - مدريد (١٩٩٤) ص ١٣٩ - ١٤٦ .
- (١٧) روليس أنطونيو - التَّعْوِيزَة - بيت إسلامي في مورثيا ، دراسة لمجوهراته (القرن الثالث عشر) مورثيا (١٩٩١) ص ٨١ - ٨٦ .

- (١٨) روميرو دى تيخادا بيلار " جواهر المغرب بالمتحف الوطنى للسلالات البشرية " مدريد (١٩٨٠) .
- (١٩) رواتش . . د . " المجوهرات البربرية فى المغرب والتقاليد اليهودية والعربية " ١٩٨٩ .
- (٢٠) ترأس هنرى " أصول المجوهرات بجنوب المغرب " هيسبريس ، باريس ، الجزء الحادى عشر ، رقم ١ ، ٢ (١٩٣٠) باريس ص ١٢٥ - ١٣٠ .
- (٢١) دى باولا بايادار فرانتيسكو " اكتشافات الطريق الكبير " الحمراء ، الجزء الثامن ، رقم ١٦٦ ، (١٩٠٥) غرناطة ص ٦٤ - ٦٧ .
- (٢٢) ثوثايا ستابل مانسين خوان " البطاقات الفنية لمجوهرات الأندلس " الفنون الإسلامية فى إسبانيا ، مدريد ١٩٩٢ ، ص ٢٢٠ - ٢٢٣ - ٢٠٠ - ٢٠٣ .

الفصل السادس

فن الطهي الأندلسي

إعداد : أكسيبر أثيون جارتيا سانثيث

لقد تعايش العرب والإسبان في أثناء القرن الثامن دون التفاهم بينهما دون وعى بالمستقبل ، وكل جماعة تعيش فيما بينها ، وهذا الوضع المبدئي المتميز بالطلاق المشترك والجهل السلبي لا يمكن أن يستمر كثيراً ، وبالتالي فقد تغيرت الحال في القرن التاسع وإن كانت التغييرات قد بدأت قبل ذلك .

فمن جهة نجد أن ساكني الأرض الجدد قد تصامروا مع أبناء البلد الأصليين ، ويمرور الوقت أصبح الجدد يشعرون بأن هذه الأرض وطنهم .

ومن جهة أخرى ، فإن الثقافة الأندلسية نمت بخطوات عملاقة ، وإن كانت قد تأثرت كثيراً من قبل الحكام الأمويين للأندلس ؛ فقد وصلت تأثيرات ألف ليلة وليلة من بغداد كطود جارف وحقيقي ، وفي عصر الأمير عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ - ٨٥٢) نجد أن قرطبة عاصمة الإمارة قد شهدت عملية تأثير عراقي لا مثيل له ، وقد ساعد على ذلك قدوم زرياب المطرب الشرقي الشهير ، والذي أطلق عليه " العصفور الأسود " الذي لم يجلب معه فقط أغاني وموسيقى بل أيضاً جلب معه وصفات للتجميل وللطهي وموضات في الزى أو في الملبس وقواعد للارتقاء بالذوق والتّهذيب لاستخدامها ونشرها في الأندلس ، وعلى هذا الأساس فالطعام الجيد يجب أن يحتوي على عدة أطباق لا يرجع اختيارها لمجرد الصدفة ، وقد قيل إنه ليس من اللائق أن يُقدّم في وجبة ما نوعان من

الأطعمة لا يتجانسان . إنَّ هذا الشَّخص الذى عاش فى البلاط القرطبى علَّم الأندلسيين عدداً كبيراً من الأطباق الجديدة وبعضها حمل اسمه " على الطريقة الزَّيبائية " ، وكان من بين هذه الأطباق وأكثرها شيوعاً الجنجلون القمحي الذى كان يُطهى بعدة طرق .

إنَّ مناخ السلام النسبى السائد فى الأندلس فى عهد عبد الرَّحمن الثَّالث (٩١٢ - ٩٦١) أدى إلى ظهور ابتكارات ثقافية وفنية متنوعة ، وفيما يتعلق بفن الطَّهى فإنَّ الوجبات والأطباق الجديدة قد انتشرت بسرعة ، وأول معلومات فى هذا الصَّد وجدناها فى كتاب الحُسبة التى تمَّت كتابته ما بين القرن الثَّاسع إلى الحادى عشر ، وعلى الرَّغم من ذلك فإنَّه اعتباراً من القرن الحادى عشر بصفة أساسية أو الثَّانى عشر ، بدأ بالفعل أدب حقيقى لفن الطَّهى كنتيجة لطبخ ثرى ومتنوع الوجبات والأطباق .

فالوثائق العربية متعددة ، وقد أمدتنا بالكثير عن الغذاء الأندلسى وإنَّ كان بوسعنا تصنيفهم فى مجموعات اقتداءً بكتاب الحُسبة الوصفات والنتائج والمواسم الزراعيَّة والأعمال الطَّبية الخاصة بالتدبير الغذائى ، التَّاريخية والجغرافية والأدبية ، الأعمال الأدبية ، كتب الرُّحلات أو الأسفار ، النُّصوص القانونية ومعادلات فن الطَّهى ، وإنَّ كان فيما يتعلق بالأخيرة لا نعرف سوى مؤلف أندلسى أو عن الطَّعام الأندلسى (١) وآخر إسبانى مغربى (٢) .

ومن كل هذه الأعمال فإنَّ أهمها وأقدمها كتاب الحُسبة ، وقد أعدَّه المتزنون (وهم الأشخاص الذين ليس لهم هم سوى السُّهر على الحفاظ على العادات الطَّبية العامة للمسلمين ، وخاصة لتفادى حدوث غش فى التَّجارة بالأسواق) . وهذه النُّصوص فى العديد من المجالات اهتمام فائق الوصف ، وهى المجالات الاجتماعية والاقتصادية واللغوية والعلمية إلخ ... وهى ذات طبيعة شعبية ومحلية محضة .

وبالتَّركيز على فن الطَّهى فى هذه الكتب أو الأعمال نجد أنَّها أشارت إلى الأطعمة التى كانت تُعدُّ فى الأسواق فى الهواء الطلق ثم تُباع بعد ذلك ، أو كانت تُؤكل هناك فى الأماكن المغلقة ، أو فى المطاعم المعدة لذلك أو تُحمل إلى المنازل ، مثل هذه النُّصوص لا تذكر فقط أسماء الوجبات أو الأطعمة أو الأطباق الشَّعبية وطريقة إعداد

بعضها بل أيضاً العناصر الرئيسية للطهي الأندلسي مثل أنواع الزيوت المستخدمة وتنوع التوابل إلخ ... ومن ناحية أخرى فإنها تأخذ كثيراً من المصطلحات الإسبانية الأصل إلى جانب الشرقية ، والتي انتقلت إلى الإسبانية في صورة ألفاظ ومصطلحات عربية . وعلى الرغم من ذلك كله فإنها تقدم لنا معلومات توضح وتكشف عن العادات الغذائية للأندلسيين ، ومنها ميل المنطقة الجنوبية من إسبانيا - وهي الأندلس الحالية - إلى تناول الحلوى والمحمرات أو المقلبات ، وهو الأمر الشائع حتى يومنا هذا .

ومن بين هذه الأعمال يبرز عملان هما الأكثر شهرة ، وفي الوقت نفسه يقدمان لنا المزيد من المعلومات ، الأول : الذي ألفه الإشبيلي ابن عبيون^(٣) (القرن الحادي عشر - القرن الثالث عشر) . والثاني الذي ألفه المالقي السقائي^(٤) (في مطلع القرن الثالث عشر) . إن وصفات هذه الأطباق الشعبية التي كانت تعد بالأسواق هي التي نتحدث لنا عن المطبخ أو الطهي الأندلسي - إنها أطباق بالرغم من كونها شرقية في الأصل فإنها كانت تستخدم عناصر أندلسية أصلية ، وبالإضافة إلى ذلك نجد طبيعتها الشعبية أدت إلى تأصيلها وتأثيرها فيما بعد .

كل هذه الأطباق أو معظمها وردت أيضاً في كتب وصفات الطهي الأندلسي ، والجديد أن الجودة غلبت الكثرة للعناصر أو المكونات المستخدمة ، وهذا ما يميز بين الوصفات الرأقية والمعقدة من الأطباق البسيطة التي كانت تُعد في الأسواق . وفي الأطعمة المعدة في هذه الأماكن العمرانية المفتوحة كانت تستخدم في طهيها العناصر الأكثر توافراً وبالتالي الرخيصة والميسورة .

١ - الغذاء النباتي :

أ - الخبز والحساء

إن الحبوب تحتل مكانة بارزة في غذاء الأندلسيين ، وفي سوق الحبوب ، وهو أهم الأسواق الأندلسية ؛ حيث يُخصَّص له جاب أو محصل للضرائب في أغلب الأحيان^(٥) ، ويُبَاع فيها القمح بأنواعه المختلفة والحبوب الثانوية والشعير والجادوار والذرة ، وكذلك

البقوليات مثل الفول والعدس والحمص والبسلة ، ومع ذلك فإن القمح هو الذى يُراقب بعناية فائقة من جانب المتزنين (نُظَّار الأسواق) .

ففى المقام الأول نجد أنه فى هذا النوع من الغذاء يحتل الخبز المرحلة الرئيسية ؛ ففى الأندلس وعلى وجه التَّحديد فيما يُسمى بمنطقة الأندلس ، حيث تزرع مساحات كبيرة بالحبوب فإنَّ السُّكَّان يتناولون خبز القمح ، وإن كانت هناك أنواع متعددة طبقاً لنوعية الدقيق المستخدم ؛ فالدقيق الأول والدقيق الفاخر يُخصص لصناعة الخبز الطرى الفاخر ، وهذا النوع من الدقيق الذى يمكن صناعة الخبز منه أدى إلى إصدار تشريع دقيق بشأن نقابة الطَّحَّانين ؛ حيث كانت تحدث عمليات غش كثيرة مثل خلط الدقيق الفاخر بدقيق من أنواع أخرى أقل جودة ، ففى المناطق الساحلية كان يتم طحن عظام حيوان النسيبَاء ونباتات أخرى ومنتجات بحرية أخرى يشبه إلى حد كبير ما يبيعونه من دقيق .

وفى الفترة التى يندر فيها الدقيق يرتفع ثمنه فإنَّ الأندلسيين وخاصة سكان المدن كانوا يستعينون بالدقيق الثَّانوى وبالبقول مثل (الفول والعدس والحمص والبسلة والأرز والدُّرَّة إلخ ...) ، وكل هذا يتبع للاستهلاك العادى والمألوف فى المناطق الريفية .

وعندما تنتشِبُ الحروب وتنتشر الأوبئة والمجاعات والظُّروف الصعبة الأخرى يضطر الشَّعب إلى العودة إلى أغذية كانت فى طى النسيان أو إلى أغذية أقل جودة وأعدَّ الخبز من البقوليات الجافة أو اليابسة بعد خلطها بفواكه ذات القشرة الصلبة مثل أبو فروة والبلوط وكذلك حبوب وجذور أشجار برية (ربَّانية) الذى يتناولها كتاب الأغذية للطبيب الأشبيلي أبو مروان عبد المالك بن زُهْر (القرن الثَّانى عشر) الذى ذكر فيه ١٨ غذاءً متنوعاً^(٦) .

وكان الخبز يعجن ويقطع فى البيوت ثم يُحمل ليُخبز فى المخبز العام^(٧) ، ومع ذلك كان يُمكن شراؤه أيضاً من السُّوق أو فى الطَّواحين نفسها ، وإنَّ كان ينظر بسوء إلى هذا الأمر حيث كان العرف السائد إعداد الخبز عجيناً بالمنزل كما يحدث حتى الآن فى كثير من البلدان فى شمال أفريقيا .

ومن بين الأطباق التي كانت تُعدُّ على أساس من الحبوب الشُّوربات الغليظة أو القصعة أو العصيدة وهي من أقدم الأطعمة التي تناولها الإنسان ، وهي تمثل الغذاء الشعبي الأكثر بساطة والأكثر يُسرًا في المناطق التي تنتشر فيها الحبوب . إنَّها تتعلق بأغذية عادية للفقراء والأثرياء (٨) ، وإنَّ كانت أكثر شيوعاً بين الفقراء - وواقع الأمر أنَّ أساس هذه الأطباق كان الدقيق أو الحبوب المبشورة ، وكانت تختلف وفقاً للقوة الشرائية للمستهلك ، ومن هنا كان التَّنوع والجودة لبقية المكونات أو العناصر (خضروات ولحوم ودهون) .

وفي إطار هذه المجموعة من الشُّوربات غليظة القوام التي تُعدُّ أحد الأطباق الشعبية شهرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي نجد الهريسة ، وقد شاع ذلك في المطبخ الأندلسي كما يحدثنا كتاب الحُسبة ، وقد كانت للهريسة طرق عديدة لإعدادها وطهيها (٩) . إنَّ هذا الطُّبق الذي يشتق اسمه من هريس ، وكان يُعدُّ بعد هرس القمح المنقوع مسبقاً وكان يُضاف إلى شوربة غليظة القوام من اللحم المطهى جيداً والمفتت تقريباً هذا إلى جانب دهن حيواني ، وعند إعدادها بالأسواق كانت تتم عمليات غش كثيرة لهذه الوجبة كان يتم صبغ ماء العجين لكي يصبح لونه أحمر ، وبهذا الشكل يمكن إقناع المستهلكين بأنَّه مُعدُّ باللحم ، وبالتالي يقوم البائعون برفع سعره .

وهناك نوع آخر من الطَّعام كان شائعاً بين الطُّبقات الشعبية كان يُعدُّ من الدقيق المطحون جيداً ثم يُضاف إليه العسل والدُّهون ويُرش بالسُّكر وهو طعام ذو قيمة غذائية هائلة يساعد على السَّمنة وفقاً لكتاب فن الطَّهى الإسباني المغربي (١٠) .

التُّريد كان أحد الأطباق الشعبية الذي يُعدُّ من فتات الخبز ، ومن هنا أخذ اسمه وقد كان يوضع فتات الخبز في شوربة دسمة وعادة ما كان يُغلى في بعض اللحم ، وتشير كتب الطَّهى إلى وصفات عديدة لتجهيز هذا الطُّبق ، وهناك وصفة لطهى التُّريد على أساس إضافة لحم الخروف والسبانخ واللبن والمنفحة ، وكان يُعدُّ هذا في قرطبة الإسلامية ، وقد اشتهر به القرطبيون وفقاً لما سرده الجغرافي الشهير الإدريسي (القرن الثَّاني عشر) (١١) .

وفى النهاية كانت تُطهى فى الأسواق أمعاء الحيوانات ذات الأسعار الرخيصة وهذا لا يعنى أنها أقل قيمة غذائية من لحوم الدرجة الأولى ، وقد كان من بين الأطباق الأكثر شيوعاً واستخدماً إلى جانب رأس الخروف طبق الشُوربة المُعد باللحم المخلّى بعد خلطها بالماء وكثير من البهارات وبعد أن تُطهى تكون الشُوربة فى غاية الدسامة لذويان دهون اللحم بها ثم يُضاف إلى الشُوربة فُتات الخبز .

و إلى جميع هذه الأطباق كان يُضاف إليها عادة الخضروات التى كانت متوفرة لدى الأندلسيين طوال العام نظراً لوفرتها وتعددتها وتنوعها .

ومن المعجنات كانت الرقيقة والغليظة مثل الشعرية (١٢) ، والكسكسى (١٣) أصبحت أغذية شعبية وإن كانت فى عصر متأخر اعتباراً من القرن الثانى عشر عندما بدأت المصادر العربية فى التعرّض للحديث عنها .

أما الأرز وإن كان لم يكن من الأطعمة المألوفة والأساسية بين سكان الأندلس كان يُستهلك بكثرة وخاصة فى القرن الثانى عشر والثالث عشر عندما انتشرت زراعته وزاد إنتاجه ؛ فهناك الأرز باللبن والزبد والسكر أو العسل ، وكان يُعتبر من طعام الجنة أو طعام فردوسى ، كما كان يدخل إعداد طبق الأرز بالسّمك المزود بالبهارات ، وكان الأندلسيون يتناولون هذا الطّبق فى بعض الأعياد الأسرية والدينية ، وقد ساد الاعتقاد بأنّ هذا الطّبق هو الذى سبق الطّعام الإشباني الشهير باسم (Paella باييا) (١٤) .

ب - الفواكه والخضروات :

إنّ إنتاج الخضروات والفواكه كان ملحوظاً فى منطقة الأندلس ، وبالفعل اعتباراً من القرن الحادى عشر كنتيجة للتّقدم الرّزاعى الذى تمّ فى أثناء حكم ملوك الطوائف الذين أدخلوا أنواعاً جديدة من الفواكه والخضروات ، وبهذا تمكّن الأندلسيون من الحصول على الخضروات والفواكه الطازجة طوال معظم العام خاصة لأنّ القرع العسلى والبادنجان والبطيخ والخيار والفاصوليا كانت تجمع حتى شهر أكتوبر ، وكانت تتناوب مع خضروات وفواكه الشّتاء مثل اللفت والجزر والكرنب والكرّات إلخ ... والتى

كانت تبدأ فى الظهور اعتباراً من شهر نوفمبر، هذا إلى جانب تطور طريقة حفظ وتخزين هذه الفواكه والخضروات سواء طازجة أو جافة مما أدى إلى الحفاظ على نظام التدبير الغذائى بين الأندلسيين .

وقد وُجدَ بالسوق الفاكهى ، وهو إلى جانب ذلك كان الخضرى أو بائع الفواكه والخضروات ، وكانت لمهنته أهمية عظيمة الشأن فى التجارة والاستهلاك ، وكانت اللوائح - كما فى بقية النقابات المتعلقة بالأغذية - صارمة ، ولكن هناك أمر عجيب أورده ابن عبدون فى هذا الشأن " كانت الخضروات تُغسل جيداً فى مياه النهر النظيفة وليس فى البرك وأحواض المزارع نفسها " (١٥) .

إن منتجات الخضروات والبساتين كانت تدخل فى كثير من الأطباق الأندلسية إذا لم نقل فى كل هذه الأطباق كما هى الحال فى العصيدة أو القصعة وكذلك فى شوربة البقوليات المذكورة آنفاً . أمّا الفواكه فكانت تؤكل وحدها طازجة أو مجففة أو على شكل عصائر أو كسلطة فاكهة ومربّات .

ج - المشروبات :

لقد تناول الأندلسيون كثيراً من عصائر الفاكهة (الشراب) ، وكان من بين المشروبات الشعبية الأخرى مثل المستو وهو عصير من أنواع مختلفة ، ومشروب الربو هو عصير من العنب المطهى جيداً والخالى من التفل . ومن ناحية أخرى التبيذ (١٦) والخمر على الرغم من كونها مُحَرَّمة بنصوص القرآن فإنها تُشربُ فى جميع أرجاء العالم الإسلامى سواء فى المشرق أو فى المغرب ، وكان الأندلسيون يجنحون إلى الخمر الذى يُعده الخمارون النصارى أو اليهود ، وقد كان شائعاً بين جميع أبناء الشعب الأندلسى واستهلاكه أمراً ثابتاً ومؤكد لوجوده فى كتاب الحسبة ، وقد كان يُحرَّم على صانعى الزجاج صناعة أوان يمكن أن تستخدم لحفظ الخمر (١٧) ، لدرجة أن السكر كان ثمة عادة عامة بين الطبقات العليا ، وقد كان المسنول أو الشخصىة البارزة التى لا تشرب خمرأ من أصحاب الفضائل الكبرى .

وأخيراً فإنَّ القصائد التي نظمت في شأن الخمر (الخمریات) تثبت لنا بدرجة كافية أنَّ تناول الخمر لم يكن أمراً منعزلاً أو أقل شيوعاً في المجتمع الإسلامي بل كان على نقيض ذلك تماماً حتى إنَّ الشعْر الأندلسي في القرن الحادي عشر يقدم لنا قائمة طويلة بأسماء الأدوات والأواني المستخدمة في الاحتفالات الدنيوية لتناول الخمر وكذلك سلسلة من القواعد واللوائح يجب مراعاتها عند تقديمها (١٨).

٢ - غذاء من أصل حيواني :

أ - أطباق مجهزة باللحم :

كما في حالات أخرى فإنَّ المعلومات الأكثر دقة بشأن اللحوم ذات الاستخدام الشائع نجدها منصوصاً عليها في كتاب الحُسبة ، وكان أفضلها لحم الخروف وهو غذاء الأقلية ، وهو يوضح بجلاء المستوى الاجتماعي للمستهلك ، وكانت لحوم الماعز تُباع في الأسواق أيضاً واللحم البقري إلى جانب لحوم الصيد من السَّمان والأرانب إلخ ... هذا فضلاً عن أحشاء الحيوانات وخاصة الأمعاء والرأس (١٩) .

ومن جميع هذه الأنواع المذكورة من اللحوم كانت تُعدُّ أطباق مختلفة بالأسواق ، وكانت الكفتة أو الكباب أكثرها مبيعاً والميركاس والأسفيدا .

إنَّ أطباق الكفتة كانت طعاماً شعبياً للغاية ، وكانت تُباع بالأسواق ، أمَّا في المطابخ الراقية فلم تكن الكفتة طبقاً وحيداً بل كانت إلى جانب عناصر أخرى يعد منها أطعمة معقدة .

أمَّا الميركاس فهو عبارة عن نقانق محشوة بلحم مفروم مخلوطة بكثير من الدهون والبهارات ، وبعد حشو النقانق بهذه العناصر تُقلَى وتُقدم مع صلصة معينة .

ومن بين الأطباق التي كانت تُقدَّم في الأسواق من اللحوم الكباب كان يُعدُّ من لحوم الصيد إلى جانب أحشاء الحيوان التي كانت تُشوى بكثرة ، ومع ذلك فإنَّ شواء الخروف كان يُباع أيضاً في الأسواق وكان يُعدُّ طعاماً فاخراً . ولكن في مناسبات

معينة وذات أهمية دينية كان الفقراء يتناولونه في عيد الأضحى كغذاء ذى طابع رمزى أو شعائرى .

وعلاوة على هذه الأطباق من اللحم فقد كانت هناك أنواع أخرى حازت إعجاب الأندلسيين بالأسواق منها لابلالجا التى ارتكبت عمليات غش فى إعدادها ، والسقأتى ويحضر بإعداد الكبد مع كثير من الخبز ولكن مع قليل من الزيت والبهارات (٢٠) ، وهناك طبق آخر يسمى "التفايا" وهو طبق من اللحم كان يُعدُّ مع عدة توابل ثم يُطهى، وقد كان يُلَف اللحم فى قطعة من القماش لإعطائه نكهة خاصة دون إفساد الشُّورية ، وقد دخل هذا الطبق الأندلس على يد المذكور زرياب ، وكان من الممكن أن يُعدُّ أبيض أو أخضر طبقاً للون الكزبرة التى كان يُتبَّل بها وعادة كان هذا الطبق مُعَقَّدًا فى إعدادهِ (٢١) .

وكانت لحوم الصيد تُعدُّ فى الفرن بعد رشها بالزيت الملون بالزعفران ، وعندما تُحْمَرُ من كل جانب كانت تُسقى بصلصة من الخل ومعجون من الملح والعسل والدقيق سوف نتحدث عنه فيما بعد وكثير من الثوم والزيت ، وقد كان يحوز إعجاب نزلاء السوق الأمر الذى لم يحدث مع البسطرمة من اللحم ؛ ففى رأى ابن عبدون الذى حرم بيعها لأنها كانت تُصنع من اللحوم الفاسدة وقد كانت سُمًا قاتلاً (٢٢) .

وهناك أطباق أخرى من اللحم كان قوامها اللحوم المخلية وكثير من الخل والبهارات ويدون ماء وهى السيكياج أو المخلل والثيرياج ، وهى أطباق ذات قيمة غذائية كبيرة ؛ لأن الخل له خصائص تجعل من اللحم ليناً طرياً وخاصة لحم الكندوز مما يجعلها سهلة وسريعة الهضم .

ب - أطباق كانت تُعدُّ بالأسماك :

لقد كان السمك يُستهلك بكثرة بين الطبقات الشعبية بالأندلس نظراً لوفرتة فى السواحل وأنهار شبه الجزيرة الأيبيرية ، وكانوا عادة يتناولونه بارداً فى مختلف فصول السنة، س وعندما كان السمك يندُر كانوا يلجأون إلى ما لديهم من أسماك

محفوظة ، أمّا بيعه سواء كان طازجاً أو مقلّياً أو مملحاً فكان يقوم به عدد كبير من الأشخاص بالأسواق .

ومع ذلك فإنّ الأسماك لم تكن تحظى بإعجاب أفراد الطبقات العليا بالأندلس مثلما كان يحدث أيضاً في العالم الإسلامي بالعصور الوسطى ، وقد كان ذلك نتيجة تأثير عدة عوامل : اجتماعية ، دينية ، ثقافية ، غذائية إلخ ... وإن كانت الأسباب الاجتماعية الاقتصادية قد يكون لها مبرر في الأندلس حيث رغب المسلمون مخالفة المسيحيين الذين كانوا يتناولون الأسماك بكثرة في الصيام .

ولهذا ففي كتاب الأطعمة الإسبانية المغربية الذي ضم أكثر من ٥٠٠ وصفة غذائية نجد فقط عشرة أطباق كانت تُجهز بالأسماك ، وغالباً ما تُعدّ بالقرن أو مطهية بالصلصة . وفي كتاب "الفضالة" الذي ضم ٤٠٠ وصفة غذائية لم نجد سوى ٣٠ وصفة بالسّمك ، وهذا يشير إلى كثرة الأطباق السّمكية مقارنة بما جاء في كتاب الأطعمة الإسبانية المغربية ، وربما يرجع هذا إلى كون هذا الكتاب أندلسي محض .

ج - منتجات الألبان والبيض :

لقد انتشرت في الأسواق الأندلسية الإسلامية تجارة منتجات الألبان ، نظراً للدور الرئيسي الذي كان للبن في الغذاء الشعبي ، ومن هنا نجد الرقابة الصّارمة المفروضة على تجار الألبان الذين تحتم عليهم مراعاة العديد من القواعد واللوائح المتعلقة بالصّحة ونظافة الأدوات والأواني المستخدمة في تعبئة الألبان وأخرى تتعلق ببيع الجبن والزبد واللبن الخاثر (اللبن الرايب) ، وعلى الرّغم من هذه الرقابة الصّارمة على تجار الألبان ، فإنّ الغش كان سائداً ، فضلاً عن غيبة العناصر الأساسية المتعلقة بالنظافة والصّحة العامة خاصة عند إعداد بعض منتجات الألبان مثل اللبن الرايب أو الخاثر الذي كان يُعدّ في مستنقعات الوادي الكبير وقد حدث في كثير من الأحيان أن حرّم بيعه ؛ لأنّ النّاس لو رأوا صناعته لن يجرؤ أحد منهم على تناوله (٢٣) .

وقد كان الجبن واللبن الخائر أكثر العناصر بيعاً في الأسواق إلى جانب الحليب ؛ لأن الحليب إلى جانب تناول الناس له وحده كان يدخل في إعداد كثير من الأطباق مثل الحلوى والشوربة والبقوليات ... إلخ .

وفيما يتعلق بالبيض ، ونظراً لكون إنتاجه منزلياً نجم عن ذلك استهلاك الأندلسيين للبيض بكثرة لدى كل الطبقات الاجتماعية والاقتصادية وإن كان مع بعض الفوارق الملحوظة لأنه إذا كان البيض يمثل الأساس الغذائي للطبقات الشعبية ؛ ففي الموائد الأرستقراطية كان البيض يظهر كأحد العناصر المكونة للأطباق الفاخرة أو مجرد زينة على هذه الموائد .

٣- المطبخ :

أ - المواد الدهنية :

لقد كان استخدام الأندلسيين لزيت الزيتون أسوة ببقية بلدان البحر المتوسط؛ حيث يفضل سكان هذه المناطق زيت الزيتون على بقية المواد الدهنية ، وذلك على الصعيد الشعبي ، كما أن زيت الزيتون كان متنوع الاستخدام وفقاً للمستوى الاقتصادي والاجتماعي ، وإلى جانب زيت الزيتون كانوا يستخدمون أيضاً الزبد والدهون الحيوانية حتى في حالة قلى أو تحمير اللحوم التي كانوا يطهونها أولاً .

وكانت المقلبات تقدم في الأسواق ، وهي أطباق سهلة التجهيز وإن كان لا ينصح بتناولها في رأي أطباء الأندلس الذين فضلوا زيت الزيتون على الدهون والزيتون الحيوانية والنباتية كافة .

ب - البهارات والتوابل :

إن زراعة النباتات العطرية والملونة والإتجار فيها كانت تحتل مكانة مرموقة في الأندلس .

لقد ورث الغرب عن روما حب البهارات ، وعلى الرغم من أن استخدامها كان فى حالة تراجع تدريجى حتى الاختفاء تقريباً ، فإنها عادت للظهور مرة أخرى فى القرن الثانى عشر فى الوقت الذى بدأت فيه أفضلية الطهى والطعام الأندلسى ؛ حيث كانت البهارات تستخدم بكثرة فى أطباق اللحوم والسّمك والشُوربات وحتى فى الحلويات والمشروبات .

وقد كان استخدام البهارات والتوابل مرتبطاً بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية كما كان أيضاً لمحاكاة ومجارة الأنواق الشرقيّة ، وكذلك فى محاولة لكسر رتابة النكهات المحلية ، كما يجب ألا ننسى مزايا هذه الأعشاب فى الأغراض الطّبية كما جاء هذا فى كثير من كتب الأطباء والصيادلة والنباتات الزراعيّة والطهى ... إلخ .

وقد أصبحت هذه البهارات والتوابل أمراً مألوفاً ومعتاداً بين الأندلسيين بعد أن كانت سلعةً لرفاهية ؛ حيث تزايدت المساحات المزروعة بها وبالتالي تزايد إنتاجها ، وأهم هذه المنتجات الزعفران الذى تركّزت زراعته فى طليطلة وبالينثيا وبياثا أوبيدا وبريجو وباثا ، وقد كان إنتاج بلدة باثا غزيراً ووافراً حتى إنه كان كافياً لاستهلاك كل سكان الأندلس وفقاً لما أورده الجغرفى الشرقى العمرى (القرن الرابع عشر) .

وإلى جانب الزعفران فإن التوابل الأخرى التى كانت تستخدم على الصعيد الشعبى نجدها تتمثل فى الكمون والكراوية والينسون والشمر والنّعناع والزّعتر والكزبرة والسّمسم والسذاب والزّعتر البرى ، أمّا التوابل الأجنبية فكانت تتمثل فى الفلفل الأسود والأبيض والقرفة والقرنفل وجوز الطيب ؛ فالكزبرة التى كان الإغريق أول من استخدموها كانت من التوابل الشائعة الاستخدام فى البلدان الإسلامية فى الشرق والغرب ، كما كان الثوم أيضاً أحد التوابل المستخدمة بكثرة فى الأطباق الأندلسية .

إن وفرة التوابل فى الأطباق الأندلسية تعتبر إحدى المميزات البارزة ، كما أن استخدامها سيؤثر على حدٍ سواء فى النكهة والطعم ، وكذلك اللون السائد فى هذه الأطباق ، وكذلك الكزبرة التى كانت تضافى اللون الأخضر على الطعام ، كما أن

مكونات الأكل الأخرى كانت تضاف لونها خاصاً لهذه الأطعمة مثل البيض والترجسية من زهرة الترّجس^(٢٤) ، و خلاصة الأمر أنها النّزعة الجمالية للتّلفذ من خلال النّكهة والرائحة .

ويقدم لنا كتاب الطّهى الإشباني المغربي تعريفاً للدور البارز الذي تقوم به البهارات في المطبخ :

"إن معرفة التّوابل تمثّل الأساس الجوهري للأطعمة ، وبها تتميز الأكلات طعماً ورائحة ونكهة " .^(٢٥)

وإلى جانب الخل والملح نجد أنّ أحد التّوابل الأندلسية تكمن في معجون من العسل والملح والدقيق ، وكذلك السائل الناجم عن تخليل أمعاء أنواع خاصة من الأسماك .

ج - الحلوى :

نجد بين طبقات المجتمع الأندلسي كافة ميل إلى الحلويات متعددة الأنواع والأشكال والمذاق كما تحدّثنا بذلك كتب فن الطّهى .

لقد كانت الحلويات تعد بكثرة ، ولكنها تنقسم إلى مجموعتين : الأولى المقلّيات التي كانت تُسمى قطايف ، والثّانية الحلويات التي كانت تُطهى في الفرن . وعلى الصّعيد الشّعبي كانت المقلّيات أكثر استخداماً والقطايف التي تمثّل المجموعة الأولى كانت عبارة عن نوع من الكعك بعد قليها وتحميرها كانت توضع في عسل مغلي .

أمّا النّوع الثّاني فهو عبارة عن حلوى من الجبن والسكر ، وكانت تُجهز من الدقيق والزيت والماء واللبن حتى يكون لها قوام لكي يتكون منها كعكة أو عجينة ثم تُقلى بعد ذلك وتوضع في العسل ، والفرق بينها وبين المجموعة الأولى يكمن في طبقة الجبن التي توضع في منتصف هذه المجموعة الثّانية ، وقد كانت هذه الحلويات تؤكل في مختلف طوائف وطبقات المجتمع الأندلسي ، كما حظيت باهتمام الشعراء الذين تغنّوا بها مثل القاضي ابن أزدق (القرن الخامس عشر) ، وفي كتاب الحُسبة هناك

انتقادات لازعة لصانعي الحلوى من النوعين لحثهم على عدم الإقدام على غش الحلويات فضلاً عن إرشادهم عن الطريقة المثلى لإعدادها^(٢٦) .

و إلى جانب المجموعتين السابقتين من الحلوى كانت هناك أنواع أخرى تُباع بالأسواق ، وهى حلوى غير مقلية كانت تُسمى الفطير والمسمنات والبسكويت ، وفى كل هذه الحلوى كانت تُعجن بماء الورد وكذلك اللبن ، وقد كان السكر يُستبدل بالعسل نظراً لكونه أكثر حلاوة وأرخص سعراً ، أمّا المكسرات فقد كانت أحد مكونات هذه الحلويات وخاصة اللوز والجوز .

٤ - المطبخ المنزلى وأدواته :

إنَّ المنزل الأندلسى يتكون من بهو فسيح على غرار المنازل الإسلامية يؤدى إليه ممر ، وكانت كل غرف البيت وملحقاته تفتح على البهو أو الفناء الموجود بوسط المنزل . أمّا المطبخ فقد كان صغير المساحة ، وكان يوجد بجوار مدخل البيت وبالقرب من غرفة التخزين التى كانت تغلق بمفتاح يوضع مع ربة البيت ، وقد كانت المطابخ تختلف من طبقة اجتماعية إلى أخرى^(٢٧) .

وكان المطبخ العادى يتكون من التَّنُور (نوع من الفرن حُفِرَ فى الأرض) على شكل دائرى أو مخروط ، وهو بذلك يُستخدم فى إعداد الخبز وكذلك لإعداد بعض الأطباق . أمّا الجزء الثانى فكان المستوق دوكان فى المشرق يوضع على ارتفاع ٨٠ سم^(٢٨) ، حيث كانت تُطهى به كلُّ الأطعمة .

٥ - طعام التَّقايا البيضاء :

يؤخذ من لحم الكباش وخاصة من صدره ويديه وجانبيه وما يقع عليه الاختيار من لحوم الكباش، يُنظَّف اللحم ويُقَطَّع ثم يوضع فى قَدْرٍ جديد ويُضاف إليه الماء والزيت . وتؤخذ خرقة جديدة ثم يوضع فيها الزنجبيل والملح والكزبرة اليابسة وقليل من

البصل المُقَطَّع ويُلَفُّ كل هذا فى الخرقة جيداً وتلقى فى القَدْر مع اللحم ، ويترك اللحم حتى يُطهى جيداً ، ومن أراد أن يضع فى القَدْر كفته فليضع ، فإذا طهى اللحم يترك قليلاً على نار هادئة حتى يتحمَّر ثم يُقدم طبقاً شهياً بإذن الله تعالى . ويمكن إعداد هذا الطعام أيضاً من لحم الجدى الرضيع والدجاج بنفس الطريقة التى أشرنا إليها آنفاً .

الفرن وهو مصطلح فى معناه الواسع ينطبق على الفرن العام ، وهو المكان الذى كان يُحمل إليه الخبز وبعض الأطعمة الأخرى لإعدادها وبالتالي فهو عنصر كائن خارج المنزل .

و بالنسبة للنار المستخدمة فى الإشعال فقد كان الفحم فى المقام الأول ثم يليه الحطب .

و تقنية إعداد الطعام كانت تكمن فى تجهيزه على البخار كما هى الحال مع الكسكسى وإن كانت بعض الأطعمة تُعدُّ بعد تحميرها فى زيت الزيتون على الصُعِيد الشعبى كما جاء فى كتاب الحُسْبَةِ ، وهذه التُّقْنِيَةُ لم تستخدم فى كتابى فن طهى الآخرين الأندلسيين المعروفين ، وإذا حدث وتمَّ اتباع هذه التُّقْنِيَةُ فإنَّ ذلك لم يتم مباشرة بل بعد إعداد عدة أطباق أخرى ثم بعد ذلك تُقلى الأطعمة كما أشرت آنفاً . وأخيراً كانت عمليات الشواء اللحم والأسماك وإن كان ذلك أكثر شيوعاً فى اللحوم مستخدماً لذلك حلة أو صحيفة أو على شوايات فوق النار وإن كانت هذه الأطعمة لم يكن يُنصح بها وفقاً للقواعد الطَّبَّيَّة (٢٩) . وتوصى كتب الطب والطهى إعداد الطعام فى أوانٍ خزفية سواء أكانت مطلية أم لا ، كما توصى هذه الكتب ذاتها بعدم إعداد الأطعمة فى أوانٍ نحاسية ، وإن كان لا مانع من استخدام الأوانى المعدنية غير النحاسية .

وكتاب الطهى الإشباني المغربى يشير إلى الأدوات التى يحتاج إليها من يحترف هذه المهنة ، وهى أدوات مصنوعة من المرمر الأبيض أو من الخشب الصُّلب مثل الملاعق والمغارف وكذلك من الخشب ، والشئ نفسه بالنسبة لمنضدة العجين والتوزيع (٣٠) .

وقد كانت أكثر الأدوات استخداماً في المطبخ الأندلسي وفقاً لكتاب الحُصْبَة وكتب
فن الطهي الأخرى الحلة أو القدر أو المرجل والطاسة (المقلادة) والصينية والقصة
والأنجر ، وهناك كثير من الأدوات والدُّوَارِق والجرار التي كانت تُستخدم في المطبخ
وعلى المائدة ، وكانت متعددة الأشكال والأحجام ، هذا فضلاً عن الخوابي
أو الخابيات التي كانت تُستخدم في تخزين الطعام .

وجدير بالذكر أن كثيراً من التَّوصِيَّات التي ذكرها مؤلف وكتب الطهي نجدها
بعينها مكررة في الأعمال المشابهة اللاحقة وهذه الوصايا إما طبية وإما خاصة بفن
الطهي مثل ابن الخطيب (٣١) وأربؤلى (٣٢) وفضالة (٣٣) .

وطبقاً للطبيب الأشبيلي فإن أفضل الأواني المستخدمة في الطهي كانت الأواني
الفخارية والخزف المزجج ؛ لأن الأواني الفضية أو الذهبية لم تكن في متناول الجميع ،
فضلاً عن أنها غير محببة دينياً ؛ فالأواني الفخارية غير المطلية كانت تستخدم في
الطهي من مرة إلى خمس مرات لأسباب صحية ، وإن كانت هذه القاعدة لم تطبق
حيث كان الناس يستهلكونها بكثرة ، وإن كان لا يفضل استخدام الآنية نفسها للطهي
عدة مرات بل كان يفضل وجود مزيد من الأواني لاستخدامها على التبادل ، وكان يجب
غسل وتنظيف الأواني يومياً بالماء الساخن والردّة (٣٤) .

والنحاس على الرغم من شيوع استخدامه في صنع أواني الطهي مثل الحلل
والمقلادة ، فإن الأطباء كانوا يرفضونه تماماً وكذلك من قبل نُظَّار ومراقبي الأسواق
حتى ولو كان مطلياً بطبقة من القصدير نظراً لتفاعل هذا المعدن مع بعض مكونات
الوجبات الغذائية في أثناء طهيها وإعدادها .

أمّا الأدوات المصنوعة من الحديد كانت من الأدوات المفضلة الاستخدام في
المطبخ الأندلسي ، أمّا الأواني من الرصاص والقصدير التي كانت تستخدم كثيراً
في المطبخ وعلى المائدة كانت من بين الأواني التي أوصى بها مؤلفو كتب الطهي .
وأخيراً فإن الزُّجاج كان يستخدم في الأواني مثل الدُّوَارِق والاكواب والكؤوس نظراً
لكونه هشاً (٣٥) .

وخلاصة الأمر فإنَّ الطَّعام كان يُقدَّم على موائد منخفضة مغطاة بمفرش من القماش أو الجلد ، ولم تكن تستخدم شوك أو سكاكين ولكن كانت هناك ملاعق من الخشب للشُوربات التي كانت تُقدَّم فى قصعة أو أنجر من الخزف .

٦ - التأثير اللاحق :

بعد أن استعرضنا عادات الطَّهى الأندلسية سندرس فيما يلى مدى استمرار هذه العادات حتى الآن على الأصعدة الشَّعبية وفى المناطق الرُّيفية .

فبعد انتهاء استرداد الأراضى الأندلسية ، وعلى الرُّغم من أن المسيحيين المسنين أرادوا محو وطمس عادات الطَّهى الأندلسية وذلك باستبدالها ، فإنَّ عادات المسلمين استمرت ليست فقط بين المسلمين ولكن أيضاً بين المسيحيين ، وفى كثير من الأحيان نجدها قد اختلطت مع عادات المسيحيين المسنين .

وقصة " لالوثانا الأندلسية " التى تنتمى إلى القرن السادس عشر تقدم لنا أحد الكتالوجات الكاملة للغذاء الأندلسى فى عصر الملوك الكاثوليك ، وذلك عندما تصل الدونثا - لالوثانا - إلى روما فتلتقى بعدد من السيدات ذات الأصل الأندلسى اللاتى استضيفن فى منزلهن حيث سردت عليهن كثيراً من الوجبات التى كانت قد تعلمتها من جدتها بقرطبة :

" لقد تعلمت طهى القطايف والمحشيات والكسكى بالحمص والأرز والكفتة المستديرة والمسطوحة الممزوجة بالكزبرة الخضراء ، هذا فضلاً عن الباذنجان بالتُّوم والخل والكمون والكعك ولحوم الجدى أو التيس بالليمون وكذلك طنجرة السَّمك والحلويات الممزوجة بالعسل^(٣٦) "

وكذلك نجد أن استنتاجات مؤتمر جاويديكس عام ١٥٥٤ وكذلك فى أوامر غرناطة فإنَّ الموسوعة الغذائية لم تتغير كثيراً : الكسكى والأرز والتَّين والزَّبيب والخضروات والفواكه واللوز والجوز والزَّيتون ولحم الخروف أو الكبش ولحوم الصَّيد ، هذا فضلاً عن

المشروبات مثل عصير البرتقال أو عصير فواكه أخرى والقرع العسلى والحلويات الطرية إلخ ... (٣٧) ، كما أن وصفات الأطعمة الأندلسية نجدها مدونة أيضاً فى كتاب الأطعمة للمؤلف روبرتو نولا .

ولكن ماذا بقى من هذه الأطعمة الأندلسية أو الإسلامية ؟ إنها وجبات أو أطباق عديدة كل المعجنات ، فئات الخبز ، الملح ، الزيت ، الخل ، الماء ، والكفتة والكسكسى وكثير من القصعات أو التريد المحلى بالسّمسم .

و لكن على وجه الخصوص فى مجال الحلويات حيث يمكن ملاحظة هذا التأثير : الأزهار وحلويات الطّاسة والمقليات المغمورة فى العسل والجلاش بالسّمسم ومعجون الدقيق المعطرة بالليمون وكذلك الفواكه المعدة كحلويات .

و أخيراً ، ينبغى على أن أبرز أن كثيراً من مصطلحات الطهى وكذلك مكونات بعض الأطباق قد انتقلت من العربية إلى الإسبانية ومازالت تستخدم حتى الآن وكذلك بعض المصطلحات الفارسية ومن بينها الزيت والسكر والزبيب والبرتقال والليمون والمشمش والتّرمس والأرز والبادنجان والزعفران والشّراب والجرة والكوز .

و يجب أن نشير إلى الاستنتاجات التالية :

فى المقام الأوّل : إنّ الفضل فى معرفة الوجبات والأطعمة الأندلسية وطريقة إعدادها يرجع إلى كتاب الحُسبة ومختلف الكتب الخاصة بالطهى .

من المنطقي ظهور اختلافات فى النّظام الغذائى وفقاً للحالة الاقتصادية والاجتماعية لمختلف طبقات الشّعب الأندلسى : أى اختلاف واضح تماماً بين المطبخ الفاخر للطبقات الأرستوقراطية ومطبخ الكادحين من العمال الفقراء .

وبطريقة موجزة يمكننا القول إنّ كتاب فن الطهى الإشبانى المغربى ضم ٥٠٠ طبق منها ٣٠٠ تُعدّ من اللحوم المختلفة مثل لحوم الأرانب والخراف والكباش ، وهى أكثر الأطباق استهلاكاً ، وتلى هذه الأطباق فى الأهمية الحلوى ومعظمها مقلبات، وتحتوى على كثير من المكسرات ، أمّا فيما يتعلق بالأسماء فلا توجد سوى ٢٠ وصفة

لإعداد هذه الوجبات ، أمّا البقية القليلة من وجبات الكتاب فهي عبارة عن أطباق مُعدة من المعجنات والبيض والشُّوربات غليظة القوام أو القصعات ، وهذه الوجبات تنتمي إلى أصول متعددة شرقي وبربري وأندلسي، وبعضها ينتمي إلى مدن أندلسية خاصة في غرب الأندلس .

أمّا بالنسبة لكتاب الفضالة ، وهو كتاب خاص بفن الطهي الأندلسي وهو أكثر تنظيماً وتنسيقاً من سابقه ، ويضم الكتاب ٤٠٠ طبقٍ منها ١٦٠ قوامها اللحم و٨٠ طبقاً قوامها الحبوب و٨٠ طبقاً من الحلويات منها ٥٠ نوعاً من الحلوى المقلية أمّا الأنواع الباقية فهي عبارة عن حلويات صلبة أو مغمورة في العسل ، أمّا بقية وصفات هذا الكتاب فهي عبارة عن أطباق من الخضروات وبعض المحفوظات أو المعلبات في خل .

إنّ النظام الغذائي في الأسواق يخضع تماماً لمميزات الطّعام بحوض البحر المتوسط ، أمّا وصفات كتابي الطهي في الأندلس فإنّها تخضع للطابع الإسلامي المميز .

وعلى الرّغم من ذلك فإنّنا نجد كثيراً من الملامح الجوهرية المشتركة على جميع الأصعدة والمستويات : كثرة استخدام التّوابل والبهارات ، خلط الطّعوم والنكهات ، كثرة استهلاك السّمون والدهون والحلويات ، تفضيل اللحوم على الأسماك إلخ .. ولكن من الملائم أن نذكر أنّ معظم هذه العادات الخاصة بالطهي نجدها في المطابخ الرّومانية كما هي الحال في ضرورة سلق اللحوم قبل طهيها أو شيّها ، وهي عادة قديمة جداً من تأثرهم بشعوب المشرق وفقاً لما أورده خ . أندريه ، وهي نزعة تهدف إلى الحصول على لحوم طرية لينة سهلة المضغ في مقابل اللحوم المقرمشة الصلبة ^(٣٨) ، وهذا يعني أنّ التّأثير الشرقي يتقارب في الأندلس عن طريقتين المطبخ الرّوماني والمطبخ العربي .

ويمكن استنتاج حدوث تغيير ما في بعض المظاهر في العادات الغذائية للأندلسيين على المستوى الشّعبي . أمّا العادات الرّومانية والبحر متوسطة فلا يزال

لهما ثقل كبير وإلى جانبهما توجد تأثيرات شرقية معينة ، هذا فضلاً عن نظام غذائي حكيم من ناحية ، وشعبي من ناحية أخرى ، فضلاً عن استناده إلى زراعة قائمة على أساس علمي ، كل هذا كان له تأثير السحر على النظام الغذائي الأندلسي ، ويفضل الاستغلال الحكيم لموارد الأندلس الطبيعية التي تنتجها أرضه ، ومن هنا تنوع غذاء الأندلسيين فكان موفوراً ومتوازناً أكثر من غذاء وطعام سكان الممالك المسيحية في شبه الجزيرة الأيبيرية .

الهوامش

(١) لقد كان هذا الموضوع عنوان رسالة الدكتوراه لفرناندو لاجرانخا ، والتي نُشر منها جزء : " الطعام العربي في الأندلس " وفقًا لمخطوط لم ينشر بعد ، مدريد ١٩٦٠ . ومع ذلك فإن النص كان عرضة لنشر مرتين ابن رزين التجيبي " فضلات الخوان في طيبات الطعام والألوان " طبعة م . بن شقور ، الرباط ، ١٩٨١ الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٤ .

(٢) هويش ميراندا " الطهي الإسباني المغربي في عصر الموحدين " طبقًا لمخطوط لم يطبع "كتاب الطبخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين " طبعة مدريد ١٩٦٥ ، ترجمة لمؤلف مجهول من القرن الثالث عشر عن الطهي الإسباني المغربي ، مدريد ١٩٦٦ .

(٣) لقد طبع هذا النص العربي إلى جانب نصي كتابين آخرين بواسطة ليفي بروفينسال " وثائق عربية لم تنشر بعد عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمسلمين في العصور الوسطى " السلسلة الأولى ، وصفات ونظريات كتاب الحسبة (طبعة المعهد الفرنسي للآثار بالقاهرة) القاهرة ١٩٥٥ وكتاب ابن عبدون يشغل الصفحات من ٢ إلى ٦٥ . أما الترجمة الإسبانية فقد قام بها جارشيا جوميث وليفي بروفينسال ، أشبيلية في بدايات القرن الثاني عشر ، كتاب ابن عبدون الطبعة الثانية ، ١٩٨١ ، أشبيلية .

(٤) النص العربي قام بنشره ج . س . كولين وليفي بروفينسال كتاب الحسبة كتاب أبو عبد الله محمد السكات دي مالقة عن الغش في الأطعمة الإسبانية العربية في إسبانيا المسلمة (طبعة دراسات معهد هاوتيس الحادي والعشرين) باريس ١٩٣١ وقد قام بالترجمة إلى الإسبانية بيدرو تشاليتا خيندون " الكتاب في أداب الحسبة " كتاب الرقابة الصارمة على السوق ، للسكات ، الأندلس العدد الثاني والثلاثين ١٩٦٧ ، ١٢٥ - ١٦٢ و٣٥٩ - ٣٩٧ والأندلس العدد الثالث والثلاثين (١٩٦٨) ١٤٣ - ١٩٥ و٣٦٧ - ٤٣٤ .

(٥) ابن عبدون " كتاب الحسبة " رقم ١٠٠ النص العربي ص ٤١ الترجمة ص ١٢٩ - ١٣٠ ، والذي ينص على أن جابي الضرائب يأسواق الغلال والحبوب (إن وجدت) لا يأخذ من البائع أكثر من مد في القفين وهو مكياال من المكاييل .

(٦) أبو مروان عبد الملك بن زهر " كتاب الأغذية " ترجمة وتقديم : إيميليو جارشيا جوميث (مصادر عربية إسبانية ٤) مدريد ١٩٩٢ النص العربي ص ١٠ - ١٣ والترجمة ص ٤٦ - ٤٩ .

(٧) عن إعداد الخبز انظر ليفي بروفينسال " إسبانيا الإسلامية حتى سقوط الخلافة في قرطبة " (٧١١ - ١٠٣١) من الميلاذ الجزء الخامس من تاريخ إسبانيا لمينينديث بيدال ترجمة : إيميليو جارشيا جوميث ، مدريد ، الطبعة الثالثة ١٩٧٣ ص ١٣٢ .

(٨) م . م . إحسان " الحياة الاجتماعية في ظل حكم العباسيين " لندن ١٩٧٩ ص ١٣٠ - ١٣٣ .

(٩) من الغريب أن يقوم المراقب أو الناظر الأشبيلي بتحديد الطهارة والباحثين لهذا الطبق وكذلك الوظيفة أو الحرفة الناجمة عن ذلك " الحُرَّاس " ابن عبدون وكتاب الحُسْبَة رقم ١٩٨ والنص العربي ص ٥٥ ترجمة ص ١٦٩ .

(١٠) ١ - هويش ميراندا " كتاب الطهي الإسباني المغربي " النص العربي ص ١٨٠ الترجمة ص ٢١٩ .

(١١) إيميليو جارثيا سانثيث " غذاء الأندلس الإسلامية " الأندلس الإسلامية نصوص ودراسات ، العدد الأول والثاني والثالث (١٩٨١ - ١٩٨٢) ص ١٧٠ .

(١٢) العطرية هو الاسم القديم الذي كان يُطلق على الشعيرة والذي لا يزال يستخدم في موريتانيا بين يهود المشرق وأول كتاب يذكر ذلك هو كتاب الأغذية لابن زاهور (المخطوط ١١٦٧) وفيما بعد السكات أبو مروان عبد المالك بن زهر " كتاب الأغذية " النص العربي ص ١١١ و٧٥ الترجمة ص ١٢٩ و٩٨ ، السكات كتاب في آداب الحُسْبَة ، النص العربي ص ٢١ الترجمة (الأندلس العدد) ص ١٦٢ .

(١٣) القاضي الغرناطي ابن أزيق (القرن الخامس عشر) يتذكر هذا الطبق باشتياق وحنين في المشرق ، وقد قدم كتابا الطعام في الأندلس وصفات لهذا الطبق كما في كتاب إيميليو جارثيا سانثيث ابن الأزيق أرجوزة عن بعض الأطعمة الغرناطية المفضلة بالأندلس الإسلامية ، نصوص ودراسات (١٩٨٠) ص ١٥٥ .

(١٤) ف . جارثيا سانتا ماريا " الأعياد المسيحية في الأندلس " الأندلس ، العدد الرابع والثلاثين (١٩٦٩) النص العربي ص ٢٠ ، ٢١ الترجمة ص ٣٤ ، ٣٥ .

(١٥) ابن عبدون " كتاب الحُسْبَة " رقم ١٠٧ النص العربي ص ٤٢ الترجمة ص ٣٢ .

(١٦) الرُب مشتق من اللغة العربية من لفظ رُب وهو عصير العنب - وإن كان قد أُعد من بعض الفواكه الأخرى - بعد طهيهِ وتنقيته من الثقل دون أن يصل إلى درجة التخمر . ومن ناحية أخرى فإنه بالنسبة لغالبية الأطباء المسلمين في العصر الوسيط وكذلك بالنسبة للحاليين فإن مصطلح نبيذ يختص بكل شراب مُسكر سواء كان خمرًا أو نبيذًا حقيقيًا ، وقد كان الأخير يجهز من الخمر المأخوذة من التمر وإن كان الأندلسيون قد استبدلوا التمر بالعنب أو الزبيب عند إعدادهم للنبيذ وكانوا يضيفون له العسل . وحول خصائص الأغذية العلاجية لهذين النوعين انظر كتاب أبو مروان عبد المالك بن زهر ، كتاب الأغذية النص العربي ص ٤٤ الترجمة ص ٧٢ .

(١٧) هذه وإجراءات أخرى دافع عنها ابن عبدون لمنع بيع الخمر وهي موجودة في كتاب الحُسْبَة رقم ١١٦ ، ١٢٩ ، ١٨٦ النص العربي ص ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٣ الترجمة ص ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٦٣ .

(١٨) عن هذا الموضوع يمكن الإطلاع على كتاب ج . ه . بيرث " الشعر الأندلسي بالعربية الفصحى " في القرن الحادي عشر الميلادي ، باريس ١٩٥٢ ص ٣٧٠ - ٣٧٢ .

(١٩) وعن أنواع اللحوم التي يتحدث عنها السكات لم يسمح لأحد من الباعة أن يبيع في نفس المحل لحم الخراف والماعز ، ولم يسمح أيضًا بوضع لحم الماعز بين محلين يبيعان لحم الخراف حتى لا يُخدع الغشماء فكل لحم يجب بيعه في محلات مختلفة ومميزة " كتاب في آداب الحُسْبَة " النص العربي ص ٣٤ - الترجمة (الأندلس العدد ٢٣) ص ١٧٠ .

(٢٠) عن إعداد هذا الطهي فإن السكات قد أعدد كثيرًا من القواعد المحددة ، النص العربي ص ٤٠ الترجمة (الأندلس العدد ٢٣) ص ١٨١ .

(٢١) " الفضالة " (ص ٨٣) وصفة للتفايا الأندلسية التي كانت تُعدُّ مقلية بدلاً من المسلوقة كما هو معتاد وهذا دليل قاطع على ميل الأندلسيين إلى المقلات أو المحمّرات .

(٢٢) ابن عيّدون " كتاب الحُسْبَة " رقم ١٢٢ النّص العربي ص ٤٥ التّرجمة ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢٣) ابن عيّدون " كتاب الحُسْبَة " رقم ١١٨ النّص العربي ص ٤٠ التّرجمة ص ١٣٣ .

(٢٤) " الفضالة " ص ٧٢ .

(٢٥) ١ . هويش ميراندا " كتاب الطّهى الإسباني المغربي " النّص العربي ص ٦٥ التّرجمة ص ٨٥ .

(٢٦) بالنّسبة لهذا القاضي الغرناطي فإنّ المُجْدَنَة اسم مشتق من الجين ، وهي من الخارج تشبه الوردة ، ولكنها من الدّاخل كالسّوس ، وهذا التشبيه يشير إلى العسل الذي كان يغطى هذه الطلوى وإلى الجين الذي كان بداخلها ، إيميليو جارتيا سانثيث ، ابن أزرقي ، أرجوزة عن بعض الأطعمة الغرناطية الفضلة ص ١٥٤ .

(٢٧) محاضرة ف . دي لاجرانخا سانتا ماريا " الأعياد المسيحية بالأندلس " الأندلس ، العدد الثّالث والثلاثين ، الجزء الثّاني (١٩٧٠) ص ١٢٤ .

(٢٨) عن وضع الطّهى في مختلف البلدان الإسلامية ، محاضرة ومقال لعدة أشخاص ، المطبوع في الموسوعة الإسلامية ، الجزء الرابع ، ص ٧٩٧ - ٨٠٥ .

(٢٩) أبو مروان عبد المالك بن زهر " كتاب الأغذية " النّص العربي ص ٧٤ التّرجمة ص ٩٨ .

(٣٠) ١ . هويش ميراندا " كتاب الطّهى الإسباني المغربي " النّص العربي ص ٧٠ التّرجمة ص ٩٠ .

(٣١) ابن الخطيب " كتاب الأصول لحفظ النّصحة في الفصول " طبعة وترجمته إلى الإسبانية ث . بانكيث دي بينيتو سلمنكا ، ١٩٨٤ ، النّص العربي ص ٦٠ ، ٦١ التّرجمة ص ١٢٧ .

(٣٢) ١ . ديات جارتيا ، كتاب نصري عن الأغذية " الكلام على الأغذية للأربول " طبعة وترجمة ودراسة دفاتر الدّراسات في العصور الوسطى ، العددان العاشر والحادي عشر (١٩٨٢ - ١٩٨٣) رقم ١٠٩ النّص العربي ص ٢٥ ، ٢٦ التّرجمة ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٣٣) " الفضالة " ص ٤ .

(٣٤) ١ . هويش ميراندا " كتاب الطّهى الإسباني المغربي " النّص العربي ص ٧٠ التّرجمة ص ٨٩ .

(٣٥) هذه التّوصيات حول المواد التي يجب استخدامها لصناعة أنواع الطّهى والمائدة وردت في كتاب الأغذية لابن زهر النّص العربي ص ١٣٦ - ١٣٨ التّرجمة ص ١٤٧ - ١٤٩ .

(٣٦) ف . ديليكانو لاولثانا الأندلسية ، طبعة برونو . م . داميان ، مدريد ١٩٧٢ .

(٣٧) م . اسباداس بورجوس " مظاهر اجتماعية دينية للأغذية الإسبانية " إسبانيا ١٣١ (١٩٧٥)

ص ٥٤٥ .

(٣٨) خ . أندريه " الغذاء والطهي في روما " باريس ١٩٨١ ص ٢٢٠ - ٢٢٣ ، ويشير هذا المؤلف أيضاً إلى أن الطعام في روما قد ورث معظم الطعام الإغريقي وهو مطبخ أو طهي يتميز بالحلويات ويفرط في استخدام التوابل والبهارات ويبرز فيه أيضاً خلط الطعام والنكهات المتناقضة مثل العسل والخل في أطباق متنوعة .

المراجع

- أبو مروان عبد المالك بن زهر " كتاب الأغذية " طبعة وترجمة وتقديم : إيميليو جارثيا سانثيث (المصادر العربية الإسبانية ٤) مدريد ١٩٩٢ .
- إحسان . م.م. " الحياة الاجتماعية فى ظلّ حكم العباسيين " لندن ١٩٧٩ .
- أندرية . خ . " الغذاء والطهى الرومانى " باريس ١٩٨١ .
- أريية . ر . " إسبانيا الإسلامية فى عصر النصريين (١٢٣٢ - ١٤٩٢) باريس ١٩٧٣ ، رينيب ١٩٩٠ .
- " خصائص الغذاء لدى المسلمين فى إسبانيا فى أثناء العصور الوسطى " دفاتر دراسات العصور الوسطى ، العددان الثمانى والثلاث (١٩٧٤ - ١٩٧٥) ٢٩٩ - ٣٢١ .
- بولينس . ل . " الطهى الأندلسى فى أثناء القرنين الثمانى عشر والثالث عشر " باريس ١٩٩٠ .
- كولين خ . س . وليفى بروفينسال " كتاب الحُسبة باللغة الإسبانية " للمؤلف عبد الله محمد السُّكاتى دى مالقة وقوانين محاربة الغش فى الأطعمة والحبوب بإسبانيا الإسلامية ، (مطبوعات معهد هاوتيس) الجزء الحادى والعشرين ، باريس ١٩٣١ .
- تشالميتا خيندرون بيدرو " الكتاب فى أداب الحُسبة " (للسُّكاتى) الأندلس العدد الثمانى والثلاثين (١٩٦٧) ١٢٥ - ١٦٢ ، ٣٥٩ - ٣٩٧ ، والأندلس العدد الثالث والثلاثين (١٩٦٨) ١٤٣ - ١٩٥ ، ٣٦٧ - ٤٣٤ .
- ديليكادو . ف . أ . لالوثانا الأندلسية ، طبعة برونو . م . داميانى ، مدريد ١٩٧٢ .

- دياث جارثيا . أ . كتاب نصرى عن الأغذية " الكلام على الأغذية للأربولى " طبعة وترجمة ودراسة " دفاثر دراسات العصور الوسطى (١) السَّابع والثَّامن (١٩٧٩ - ١٩٨٠) ٥ - ٢٧ ، (٢) العاشر والحادى عشر (١٩٨٢ - ١٩٨٣) ٥ - ٩١
- اسباداس بورجوس . م . " المظاهر الاجتماعية الدينيَّة للغذاء الأندلسى " إسبانيا ، ١٣١ (١٩٧٥) ٥٣٧ - ٥٦٥ .
- جارثيا جوميث إيميليو وليفى بروفينسال " أشبيلية فى أوائل القرن الثَّانى عشر " كتاب ابن عبدون ، الطبعة الثَّانية ، أشبيلية ١٩٨١ .
- جارثيا جوميث إيميليو " الغذاء فى الأندلس الإسلامية " الأندلس الإسلامية نصوص ودراسات (١) العددان الثَّانى والثَّالث (١٩٨١ - ١٩٨٢) ١٣٩ - ١٧٨ ، (٢) العددان الرَّابِع والخامس (١٩٨٣ - ١٩٨٤) ٢٣٧ - ٢٧٨ .
- ابن أزدق " أرجوزة عن بعض الأفضليات الغذائية الغرناطية " الأندلس الإسلامية ، نصوص ودراسات (١) ١٩٨٠ ص ١٤١ - ١٦٢ .
- جرانخا سانتا ماريا . ف . " من الطَّهى العربى الأندلسى وفقاً لمخطوط لم يطبع بعد " مدريد ١٩٦٠ .
- الأعياد المسيحية بالأندلس - الأندلس (١) العدد الرَّابِع والثَّلاثون (١٩٦٩) ١ - ٥٣ ، (٢) الأندلس العدد الخامس والثَّلاثون (١٩٧٠) ص ١١٩ - ١٤٠ .
- هويش ميراندا . أ . المطبخ الإسبانى المغربى فى عصر الموحدين وفقاً لمخطوط لم يطبع بعد " كتاب الطَّبَّيخ فى المغرب والأندلس فى عصر المرابطين " طبعة مدريد ١٩٦٥ .
- ترجمة إسبانية لمخطوط مجهول المؤلف من القرن الثَّالث عشر عن المطبخ الأسبانى المغربى ، مدريد ١٩٦٦ .
- ابن الخطيب " كتاب الأصول لحفظ الصحة فى الفصول " طبعة وترجمة ث . باتكيث دى بينيتو سلمنكا ١٩٨٤ .

- ابن رزين التوجيبي " فضلات الخوان في طببات الطعام والالوان " طبعة م . بن شيقرون ، الرباط ، ١٩٨١ ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٨٤ .
- ليفي بروفينسال " وثائق عربية لم تطبع بعد عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الغرب الإسلامي في العصور الوسطى " السلسلة الأولى ثلاث كتب إسبانية عن الحُسبة (مطبوعات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة) (القاهرة ١٩٥٥) .
- " إسبانيا الإسلامية حتى سقوط الخلافة في قرطبة (٧١١ - ١٠٣١ من الميلاد) الجزء الخامس من تاريخ إسبانيا لرامون مينينديث بيدال ، ترجمة : إيميليو جارتيا جوميث ، مدريد ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٣ .
- نولا . ر . " كتاب الأطعمة " طبعة ودراسة دينوسيو بيريث (بوست ثيبوسين) مدريد ١٩٢٩ .
- ج . هـ . بيريث " الشعر الأندلسي بالعربية الفصحى في القرن الحادي عشر " الطبعة الثانية ، باريس ١٩٥٣ .
- رودينسون . م . " الغذاء " الموسوعة الإسلامية ، الجزء الثاني ص ١٠٨١ - ١٠٩٧ .
- تأثيرات الحضارة الإسلامية في الحضارة الأوروبية إبان العصور الوسطى وخاصة في مجال الغذاء والأطعمة " محاضر المؤتمر الدولي الثالث عشر " الشرق والغرب خلال العصور الوسطى ، الفلسفة والعلوم ، ٩ - ١٥ أبريل ١٩٦٩ روما ، ١٩٧ ص ٤٧٩ - ٥٠٠ .
- روسية بوردوى . ح . " أسماء الأشياء في الأندلس " اقتراح لمصطلح خزفي ، بالما دي مايوركا ١٩٩١ .
- السُّكَّاتِي " الكتاب في آداب الحُسبة " طبعة ج . س . كولين وليفي بروفينسال (كتاب إسباني عن الحُسبة) للمؤلف أبو عبد الله محمد السُّكَّاتِي دي مالقا

- عن قوانين مكافحة الغش في الأطعمة والحبوب في العهد الإسلامي بإسبانيا
(مطبوعات معهد هاوتيس للدراسات المغربية) باريس ١٩٣١ ، الجزء الحادي والعشرون .
- عدة مقالات في الموسوعة الإسلامية عن المطبخ ، الجزء الرابع ص ٧٩٧ - ٨٠٥ .
 - وينيس ، د . " المطبخ في عصر الخلافة العربية بالعصور الوسطى " الطهي
في العصر الحديث ، لندن ، ١٩٨٩ .

الفصل السَّابع

الأندلس والمغرب فى العصر الوسيط (منذ القرن الحادى عشر حتى الخامس عشر)

إعداد : فرانشيسكو بيدال كاسترو

١ - مقدّمة :

إنَّ العلاقات والروابط فى مختلف المجالات بين إسبانيا الإسلامية والمغرب مستمرة ومثيرة ومثمرة ، وهى ترجع إلى وحدة الغرب الإسلامى فى العصر الوسيط وتجانسه ، ومع ذلك فإنها تحتوى على كثير من نواحي الاختلاف والتميز . وفى ظل هذا الإطار العام الشامل المغرب - الأندلس تظهر الاتصالات والارتباطات والروابط التى تصل الأندلس بالمغرب^(١) . لقد كانت المظاهر والعوامل السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية هى وسائل الربط والاتصال بين ضفتى مضيق العدوتين (مضيق جبل طارق) .

و الفحص الدقيق لتاريخ الجانبين يُظهر أنَّه اعتباراً من أواخر القرن الحادى عشر الميلادى على وجه الخصوص يجد أنَّ التاريخ كان واحداً ومشتركاً ولا يتجزأ وإن كان متوازياً ، ومن هذا المنطلق كان عنوان هذا المقال : التاريخ المشترك إبَّان القرون من الحادى عشر إلى الثالث عشر عندما وحدَّ المرابطون والموحدون الأندلس والمغرب فى دولة واحدة ، هذا فضلاً عن التاريخ المتوازى خلال القرون من الثالث عشر إلى

الخامس عشر ، وذلك عند قيام الممالك المستقلة إثر سقوط الموحدين ؛ حيث نشأت هذه الممالك على شاطئ المتوسط التي تتشابه فيما بينها (وخاصة بين المرينيين فى فاس والنُصريين فى غرناطة) فى تطورها وتاريخها هذا بعض عن أوجه الشبه الأخرى ونقاط وعناصر الاتصال المشتركة .

ويهدف هذا البحث تقديم بعض هذه العناصر وبعض الأمثلة للعلاقات بين الأندلس والمغرب من نقاط الاتصال المشتركة والتأثيرات المتبادلة وعمليات التبادل وخاصة فى الأندلس والمغرب ، وهذا سيتم من خلال فحص ومتابعة لتاريخيهما إبان الفترة المعنية بذلك ، والتي سنوضح فيها النقاط المشتركة أولاً ثم المتوازية فيما بعد وذلك اعتباراً من ظهور إمبراطورية الموحدين فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر إلى أواخر الخامس عشر نهاية عصور الأسرة النُصرية فى غرناطة والميرينية فى فاس .

وعلى الرغم من أننا سندرس الجوانب السياسية ، فإننا سنُعطي جانباً من الأهمية للجانب الثقافى وكذلك فيما يتعلق بالعنصر البشرى والشعبى .

وستتبع فى ذلك ترتيباً زمنياً فى عملية العرض وستقدم عرضاً تاريخياً موجزاً لكل مرحلة من هذه المراحل ؛ فالأمر هنا لا يتعلق بتقديم عرض تاريخى ولا إعداد متابعة مستفيضة لكل العوامل المشتركة والاتصالات إلخ بل سيقنصر الأمر على إبراز بعض الملامح والحالات الهامة وذات المغزى فى هذه العلاقة والتأثير المتبادل والتبادل والتقارب والاندماج .

وقبل الخوض فى الموضوع فمن اللازم إعداد نظرة عامة عن الوضع التاريخى ؛ ولذلك يجب أن نذكر أنه بعد سقوط الموحدين الذين حلّوا محل المرابطين وانتزعوا إمبراطوريتهم نجد أن تمزقاً سياسياً أصاب الغرب الإسلامى نجم عن ظهور أربع ممالك مستقلة : النُصريون فى غرناطة ، والمرينيون أو بنى مرين فى فاس ، والزيانيس فى ترميسين ، والحفصيون فى تونس ، كما أن مصالحهم المتباينة فيما يخص الأهداف الجغرافية والسياسية والاقتصادية (طرق التجارة بالبحر المتوسط) جعلتهم يقيمون كافة التحالفات بما فى ذلك مع المسيحيين . وبعد أن انحسرت الأندلس فى

مملكة النُصريين بفرنطة نجد أنها شهدت غزواً بربرياً ثالثاً أقل أهمية من الغزوين السابقين وقد تمثل هذا فى قيام بنى مرين من المغرب بغزو الأندلس ، وبهذا الغزو تنتهى مشاركة شمال أفريقيا فى تاريخ الأندلس ، هذه المشاركة التى بدلاً من أن تنقذ الأندلس من المد المسيحى بشكل نهائى كانت سبباً فى أزماتها وتقويض مساحتها من الأرض وفقاً للملاحظات المهمة التى أبدتها ماريا خيسوس بيجيرا^(٢) .

وفى إطار هذه الاعتبارات العامة يجب أن نتذكر عامل الاتصال الهام ألا وهو عنصر الهجرة التدريجى والمكثف لجزء من الأندلسيين الذين بدلاً من اللجوء والاحتواء فى أماكن تخضع للسيطرة الإسلامية نجدهم قد اختاروا الرحيل إلى المغرب اعتباراً من القرن الثانى عشر فى الوقت الذى تزايد فيه زحف المسيحيين وكذلك تقليص مساحة الأندلس .

وفى المجال الثقافى فإن الاتصالات والعلاقات يجب ألا ننظر إليها على أنها بين كيانين مختلفين ، ولكن بين جزأين من الوحدة نفسها . وقد لعب الغرب الإسلامى (الأندلس) دوراً هاماً حيث بدأ فيه النشاط الثقافى قبل المغرب^(٣) ، وبذلك كان للأندلس أهمية حيوية فى تكوين الثقافة العربية الإسلامية التى كان لها أكبر الأثر فى تلك الوحدة المشار إليها آنفاً . واعتباراً من القرن الحادى عشر وخاصة المغاربة نجد أنهم قاموا باكتساب ومحاكاة وإعادة إنتاج الثقافة الأندلسية ، أما فى القرن الثالث عشر وطوال عصر النُصريين أصبح المغاربة مؤهلين لإقامة علاقة تعاون وتكامل على قدم المساواة مع أساتذتهم^(٤) .

٢ - بعض الأمور السالفة على هذا العصر:

لكى نتحدث قليلاً عن تاريخ هذه العلاقات الأندلسية الشمال أفريقية ومنحها مزيداً من الاستمرارية فإنه بوسعنا العودة إلى القرون السابقة والبحث عن بعض المقدمات التى تمنع من تقديم المسألة بشكل منعزل وغير مرتبط فيما يتعلق بالفترات السابقة ؛ ولهذا يمكن أن يؤخذ فى الاعتبار الأحداث والبيانات التالية :

لقد بدأ الاتصال فعلاً عندما بدأ الفتح العربى للأندلس ، وقد تزعم ذلك العنصر البشرى الشمال أفريقي ؛ فمعظم القوات التي وصلت مع طارق بن زياد كانت من البربر المغاربة وقد قام هؤلاء إلى جانب فرق عربية أخرى بتأسيس بعض المستوطنات بالأندلس : كما فى سيرا مورينا والأندلس الشرقية ووادي وجنوب نهر الوادى الكبير .

كما أن التمرد البربرى الكبير الذى وقع عام ٧٤٠ فى الأندلس كان قد بدأ فى المغرب ، وقد أُخمدَ هذا التمرد على أيدي القوات السورية التى كانت قد استُدْعِيَتْ خصيصاً لهذا الغرض .

وفى عام ٨١٨ حدثت هجرة مهمة من قرطبة إلى شمال أفريقيا ؛ فبعد القمع الدامى لتمرّد أرّبال ، فى قرطبة فإن الحكم الأوّل الذى لقب بالربضى بسبب هذه الواقعة قام بنفى جميع سكان أرّبال ؛ ولهذا فقد خرجت آلاف الأسر من قرطبة حيث استقر الكثير منها فى مدينة فاس ، ويدعوه من الأمير إدريس الثانى الذى أراد تعمير المدينة ، وقد أقامت هذه الأسر فى أحد الأحياء الجديدة الذى أطلق عليه فيما بعد أسم " مدينة الأندلسيين " فى مواجهة الضاحية المسماة " بالقيراونيين " ، وقد أسهم هذا الإسكان الأندلسى فى تطوير ونمو المدينة وكذلك دولة المغرب ؛ نظراً للخبرة الهائلة لهؤلاء فى الحياة الحضرية ، وكذلك نظراً لباعهم الطويل فى مجال تنسيق وتزيين الحدائق والبناء والحرف اليدوية (٥) .

وفيما بعد فإن تدخل بنى أمية فى شمال أفريقية أدى إلى تحويل المنطقة إلى نوع من المحمية الأندلسية ؛ حيث أشرفت على كثير من الأراضى بالاحتلال المباشر لبعض المستوطنات كما هى الحال فى سبته ، هذا فضلاً عن اعتراف بعض الأمراء المغاربة بخليفة قرطبة ، وذلك لأسباب تتعلق بالنفوذ السياسى والمصالح التجارية ، كما أن هذا الإشراف سمح لها بتجنيد جنود لخوض الحروب ضد المسيحيين ، وخاصة اعتباراً من عام ١٩٧١ (٦) .

وإبان حكم ملوك الطوائف يجب أن نشير إلى أنه على الرغم من عدم وجود إسهامات جديدة من القوات المغربية وأن كلا جانبي المتوسط قد انغلق على نفسه داخليا ، ولهذا توقفت العلاقات السياسية والعسكرية ، فإنه يجب إبراز قيام بعض

ممالك الطوائف البربرية ، فإن بعض المجموعات المحددة التي تكونت من البربر المغاربة، والتي انضمت للجيش الأندلسي في أواخر القرن العاشر وأوائل الحادي عشر قامت بتأسيس طوائف غرناطة ومالقة وروندا وقرمونة ومورون وأركوس .

و إعادة توحيد المرابطين في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي تعنى تغييراً جذرياً وشاملاً في العلاقات السياسية بين الجانبين على حد قول الأستاذة ماريّا خوسيه بيجيرا ؛ حيث أبرزت أنه انطلاقاً من السيطرة الأندلسية على المغرب (الأسبقية الأموية على شاطئ المغرب الغربي) في أوائل القرن وبعد توقف شبه كامل للعلاقات في أثناء فترة ممالك الطوائف، ثم تأتي فترة السيطرة المغربية على الأندلس بالخضوع السياسي وإدراج الأندلس في إمبراطورية المرابطين في أواخر القرن الحادي عشر ^(٧) .

٣ - المرابطون ^(٨)

ويرجع أصل المرابطين إلى الحركة السياسية الدينية للإصلاح على المذهب المالكي التي ظهرت ونمت اعتباراً من التحالف القبلي " شينايا " ، والتي كانت ترعى وترحل في الصحراء الموريتانية في منتصف القرن الحادي عشر ، وقد كان أهم زعمائها عبد الله بن ياسين ، وهو عالم مالكي كان واعظاً ومؤسساً للحركة ، ويحيى بن عمر الذي تولّى السلطة العسكرية في السنوات الأولى ، وأبو بكر ويوسف بن تاشفين وقد جمع هذان الأخيران بين السلطتين الدينية والعسكرية ، وقام هؤلاء بتأسيس إمبراطورية المرابطين بعد غزوهم لجميع أراضي المغرب والوصول حتى تريسين وتأسيس مراكش عاصمة لها ثم قاموا بغزو الأندلس ، وقد جعلوا حدود إمبراطوريتهم عند نهر السنغال في الجنوب ونهر الإيبرو في الشمال .

ومع ذلك لم يستطيعوا غزو الأراضي المسيحية المجاورة ، واكتفوا بحماية حدود إمبراطوريتهم . ويمرور الزمن فإن الضغوط المسيحية صعبت المقاومة على المرابطين ، كما أن هناك بؤرة أخرى أضعفت مقاومة المرابطين تركّزت في حركة الموحدين بالمغرب،

والتي إلى جانب الاستياء الاجتماعي والديني والفكري والسياسي في الأندلس مما أدى إلى قيام بعض الحكام بإعلان راية التمرد والعصيان ضد المرابطين كما حدث في (قرطبة وخائين وغرناطة والبرتغال وباداخوث ومالقة وقادش ومورثيا وباليثيا) الأمر الذي تسبَّب في قيام ممالك للطوائف مرة أخرى ^(٩) ، وهي ممالك مستقلة طلبت أحياناً مساعدة الملك ألفونسو السادس (قرطبة) ومن الموحدين (قادش) أحياناً أخرى . وبعد مرور وقت قصير طالب ملوك الطوائف الجدد من الموحدين التدخل من إسبانيا مما أدى إلى إلحاقهم الهزيمة بالمرابطين ، وبهذا بسط الموحدون نفوذهم على الأندلس ^(١٠) .

ولعل أهم حدث بارز في العلاقات بين الأندلس والمغرب يكمن في دعوة ملوك الطوائف للمرابطين لكي يساعدهم في حروبهم ضد النصارى تلك الدعوى التي فتحت باب الخلافات والضعف السياسي والعسكري للوك الطوائف مما أدى إلى فتح وإعادة توحيد إسبانيا الإسلامية على أيدي السلالة البربرية .

وقد تمت هذه الدعوة من خلال بعثة أرسل بها ملوك أشبيلية وباداخوث وغرناطة إلى بلاد المغرب ضمت كبار القضاة في العواصم المذكورة ، وقد انضم إليهم قاضي قرطبة ^(١١) .

وفي هذا الوقت الحرج أصبحت عبارة شهيرة للملك الشاعر الذائع الصيت المعتمد بن عبادة (المتوفى ١٠٩٥) والذي حكم من ١٠٦٩ إلى عام ١٠٩١ عندما هُزم على أيدي أمير المرابطين يوسف بن تاشفين) والذي قال قبل السقوط تحت النفوذ المسيحي أو اللجوء لمساعدة هؤلاء الوحوش الغلاظ من البربر المرابطين : " أَفْضَلُ أَنْ أَكُونَ رَاعِي إِبِلٍ فِي أَفْرِيْقِيَا عَلَى أَنْ أَكُونَ رَاعِيًا لِلْخَنَازِيرِ فِي قَشْتَالَةِ " . هذه العبارة الشهيرة كانت تعبر بإيجاز عن الوضع ، وكانت بمثابة تخمينة للنهاية التي كان التاريخ يخفيها للوك الطوائف ، ومن ناحية أخرى ، كان في غاية الأهمية قيام الفقهاء باستدعاء المرابطين وذلك بتأييد من الشعب والذين إلى جانب الغاية العسكرية أدرجوا مآرب أخرى مثل : عودة الأخلاقيات إلى الحياة العامة وتخفيف الأعباء الضريبية ، وقد أدى هذا إلى حتمية عزل ملوك الطوائف ؛ ولهذا نجد أن المفتيين المشهورين وذوى النفوذ أصدروا فتواهم ضد ملوك الطوائف ولصالح تدخل المرابطين ^(١٢) .

وكان أول عنصر اتصال بين شاطئ المتوسط هو العنصر البشرى (١٣) ؛ فالجيوش الغازية للمرابطين التي دخلت الأندلس واستقرت فيها كانت من البربر المغاربة الذين استقبلوا أعظم استقبال من جانب شعب الأندلس كمحررين ، ولكن سرعان ما تدهور الوضع السياسى والاجتماعى فتغيرت الحال رأساً على عقب فأصبح هؤلاء البربر مستبدين ومضطهدين لشعب الأندلس ، وبزغت من جديد نزعة النفور من البربر وكراهيتهم لدى أبناء الأندلس ، والتي سجلها التاريخ ولكن بعد فوات الأوان؛ حيث كان تزايد البربر فى الأندلس أمراً لا يمكن الرجوع فيه أو العدول عنه .

وإلى جانب هؤلاء الجنود البربر يجب أن نشير إلى وجود أسر العلماء الذين ينتمون إلى البربر الذين وصلوا قبل ذلك إلى الأندلس ، وقد انصهروا تماماً فى المجتمع الأندلسى ، وكان لهم ثقلاً خاصاً فى تكوين الهوية التاريخية المغربية وعلم التاريخ الخاص بها ، وهذا يخدمنا عند المغرب الخاضع لثقافة مادية راقية وسيطرة فكرية ، والذي سيتحول فيما بعد إلى الضيف والوريث (١٤) ، يعنى بذلك البربر الذين غزوا الأندلس .

وفى هذا المعنى أيضاً يجب أن نتذكر الشخصيات التي لا تحصى التي قَدِمَت إلى الأندلس بغرض الدراسة أو لتحسين واستكمال دراساتهم منذ القرن الحادى عشر وأبان كل الفترة التي هيمن فيها المرابطون على مقاليد السلطة ، ومن هؤلاء : عبد الله بن غالب الهمداني (المتوفى ١٠٤٢ أو ١٠٤٣) وأبو عمران الفاسى (المتوفى عام ١٠٣٧ أو ١٠٣٨) وموسى بن حماد السناجى (المتوفى عام ١١٤٠ أو ١١٤١) (١٥) . إن أسفار هؤلاء العلماء المغاربة إلى ضفتنا استمرت منذ العصر الوسيط حتى قبيل الأحداث والاضطرابات التي سبقت سقوط غرناطة (١٦) .

ومن المناسب أيضاً إبراز التأثير على الصعيد اللغوى الذي حدث من جانب المرابطين على الجزء المسيحى من شبه الجزيرة الأيبيرية نظراً للعلاقات الوثيقة والزاهرة التي كانت تربط بين المرابطين والممالك المسيحية ، وهكذا فإن اللغة القشتالية أخذت عن العربية الكثير من المصطلحات والألفاظ فى تلك الفترة من بينها كلمة مرابطين (١٧) وكلمة ثيد (١٨) التي تعنى السيد ومرابيدي (١٩) وكلمة صنهاجا (٢٠) ... إلخ .

من ناحية أخرى ، فإنَّ التَّدْفِقَ البشري حدث أيضاً في الاتجاه المعاكس من الأندلس إلى المغرب ؛ فانتقال الأشخاص من على ضفة المضيق إلى ضفته الأخرى كان مستمراً ، ولكن بينما كان معظم القادمين من المغرب إلى الأندلس محاربين نجد أنَّ القادمين من الأندلس إلى المغرب كانوا علماء ؛ فالعديد من الفقهاء والعلماء والمثقفين والأمناء الأندلسيين قد تقلدوا كبريات المناصب في إدارة الإمبراطورية بالضفة الأخرى لمضيق جبل طارق ، هذا فضلاً عن انتشار حضارة الأندلس وثقافتها في المغرب ، فالأمر يتعلق بانتقال العاصمة الثقافية إلى المغرب ؛ حيث إنَّ مقر بلاط الإمبراطورية والسلطة السياسية كان في مراكش ، أمَّا الأندلس فقد أصبحت محافظة أو إقليمًا ^(٢١) . وقد شجع كل هذا على زيادة العلاقات والاتصالات من القرن الحادي عشر الميلادي ، وأمثلة لذلك نجد الفيلسوف ابن باجة (المتوفى ١١٣٨ تقريباً) أستاذ ابن رشد الذي هاجر من سراقسطة وأقام في المغرب مدفوعاً بمصالحه السياسية ، والشاعر الفتح بن خاكان (المتوفى عام ١١٢٤) والذي ترك منصب أمين سر حاكم المرابطين يوسف بن تاشفين في غرناطة لكي يقيم في مراكش حيث لقي حتفه في ظروف مأساوية ، هذا فضلاً عن الكثيرين الآخرين من الشخصيات التي بحث عنها حكام المرابطين من بين أمناء السُرِّ البارزين لكي تعمل في خدمتهم ^(٢٢) . ويُضاف إلى الحدث السابق أن كثيراً من علماء الأندلس - بطبيعة الحال - كانوا يتوقفون في المدن المغربية التي كانوا يَمرون بها في أسفارهم إلى المشرق ذهاباً وإياباً .

كما يجب ألا ننسى أيضاً نفى المستعربين أيضاً عام ١١٢٦ من جرَّاء تعايشهم وتأييدهم لألفونسو الأول المقاتل في أثناء حملته على الأندلس ؛ فقاضى قرطبة والجد ابن رشد انتقل إلى مراكش (حيث توفى هناك) لكي يبلغ المسؤولين عن خيانة هؤلاء المسيحيين وإصدار فتوى حكم فيها عليهم بالنفى إلى شمال أفريقيا ، وقد شمل هذا النفي اليهود أيضاً ^(٢٣) ، ولكن لم يكن اليهود والنصارى فقط الذين اضطروا للذهاب إلى المغرب ؛ فعبد الله آخر ملك زيري في غرناطة خُلِعَ من عرشه على يد المرابطين ونُفِيَ إلى المغرب وكذلك تميم بن معلقة والمعتمد الإشبيلي وملك الميريا رحل في سفينة إلى قلعة بنى حمود في وسط المغرب عام ١٠٩١ للفرار من اضطهاد المرابطين .

وهناك عنصر مشترك على الصعيد السياسى والاجتماعى فى الإمبراطورية بأسرها وهو التجانس بين الضفتين فى الأندلس والمغرب المرابطية وهو القانون أو المذهب المالكى ؛ فالدفاع إلى جانب أتباع هذه المدرسة الشرعية من جانب الأسرة المالكة ، والتي أعتبر حكامها أنفسهم الزعماء الدينيين المصلحين (زعماء الإصلاح) مما منح الفقهاء من الأندلسيين فى المقام الأول سلطة كبيرة ونفوذاً وشهرة ، فقد كانوا بمثابة أساس أيديولوجية الدولة وعنصر مهم فى الرقابة الشعبية من خلال التطبيق الصّارم للمذهب المالكى فى كل نواحي الحياة ^(٢٤) . وقد برز العديد من الفقهاء نوى الفكر الأصيل والإنتاج الغزير ، والذين ذاع صيتهم خارج حدود مناطقهم الجغرافية ، ومن بينهم ابن رشد الجد (ابن رشد الجد المتوفى ١١٢٦) أو قاضى إشبيلية العظيم ابن العربى (المتوفى عام ١٠٩٩) .

وعلى الرغم من ذلك فإن صرامة المذهب المالكى خنقت حرية الفكر ، كما قيد تطور الشعر ، وفى مقابل ذلك كان له أثر عظيم فى ازدهار التصوف وفى مرونة بعض مظاهر الحياة الاجتماعية مثل وضع المرأة التى تمتعت بوضع أكثر حرية فى المجتمع ؛ فعلى الرغم من شيوع المذهب المالكى وتطبيقه بصرامة فإن بعض عناصر القانون العرفى للرحل من قبيلة الصنّاجى كانت مسموحاً بها فى المغرب ، ومن بينها الطريقة التى عاشت بها المرأة بشكل متحرر مما جعلها تتمتع بحرية معقولة فى مجتمع يسوده الرجال ، الأمر الذى سبب فى الغضب الجامح لمهدى الموحدين ابن تومارت ^(٢٥) .

كما أن الفن المرابطى نظراً لتطوره البدائى قد تأثر بالفن الأندلسى الراقى المزدهر وإن كان قد احتفظ ببعض ملامحه الأصلية مثل البساطة والتلقائية المغربية . وفى هذا الصدد يجب أن نبرز أن أحد إنجازات المرابطين فى المغرب فضلاً عن توحيدها قبلياً وسياسياً وإدارياً تمثل فى محاكاة الحضارة الأندلسية ، وخاصة فيما يتعلق بتقنيات التشييد والتعمير .

إنَّ الأسرة المالكة التي حلَّت محل المرابطين في الحكم امتدت إمبراطوريتها لتشمل الغرب الإسلامي بأكمله من تسريوليتانيا (الطرابلسية) حتى الأندلس - هي أسرة الموحدين ، وهي تشترك مع سالفاتها في العديد من الملامح الأساسية ، كما أنها من البربر ومن أصل مغربي ، وقد بدأت بأيدولوجية جديدة متمزمة .

لقد ظهرت الحركة الدينية السياسية التي أسسها ابن تومارت (المتوفى عام ١١٣٠) المهدي (اللهم من قبل الله) الذي بدأ في مواجهة المرابطين منذ عام ١١٢٠ وبعد أن نشر أيدولوجية بين البربر في قبيلته الأصلية والمصمودة في جبال أطلس لجأ إلى مكان بعيد عام ١١٢٣ تيسمايال جنوب مراكش حيث تحصَّن وبدأ كفاحه ضد الصنهاجي المرابطي . ويقوم فكره أو أيدولوجيته على توحيد الله ، وقد لُقِّبَ أنصاره بالموحدين وقد طالب بالعودة إلى الاستقامة وإلى المصادر الأصلية للدين والشرعية وهما القرآن والسنة ، وبهذا هاجم انحرافات الفقه المالكي الذي اتبعه المرابطون ، كما انتقد كذلك (تدهور التفسير الشرعي والديني والابتعاد عن صفاء العقائد ونقاها والممارسات الدينية التي وصل إليها المرابطون .

هذا قد لُقِّبَ خلفاء المهدي أنفسهم بالخلفاء ، وقد أطلحوا تماماً بالمرابطين من المغرب بعد أن استولوا على عاصمتهم مراكش عام ١١٤٧ ، وقد امتد سلطانهم حتى إفريقية (تونس الحالية) وبعد عبورهم مضيق جبل طارق وغزوهم للمنطقة الإسلامية بشبه الجزيرة الأيبيرية نجد أن توسع إمبراطوريتهم قد فاق بكثير مساحة إمبراطورية سلفهم من المرابطين.

ومع ذلك فإن فتحهم للأندلس قد كلَّفهم الجهد الجهد ، وقد تأخروا في تحقيق ذلك عدة مرَّات نظراً للمقاومة الشديدة التي بدأتها بعض الأماكن والمناطق في مواجهة الغزاة الجدد من البربر ، وقد برز من بين المدافعين عن استقلال الأندلس ابن ماردنيس وابن حمشك اللذين سيطرا على المنطقة الجنوبية الشرقية (ليبانتى ومورثيا) كما احتلوا لفترة زمنية مؤقتة بعض المدن الهامة مثل خائين وغرناطة وقرمونة .

وقد استغرق بسط الموحدين سيطرتهم على المتمردين والقضاء على كافة القلاع والحصون والاستحكامات التابعة للمقاومة حوالى ربع قرن من الزمان ؛ لأنه لم يتم لهم ذلك إلا فى عام ١١٧٢ .

ولم تستمر حياة هذه الأسرة المالكة زمناً طويلاً ؛ لأنه اعتباراً من الحقبة الثانية من القرن الثالث عشر بدأت تتفاقم عوامل عدم الاستقرار والتمزق ؛ فالانقسام الداخلى من جرأء الصراع على الخلافة أدى إلى ضعفهم فى أعقاب هزيمتهم فى لاس ناباس دى تولوس على يد المسيحيين فى ١٢١٢ مما سهل تمرد الأندلسيين أنفسهم وكذلك ظهور طوائف ثالثة ^(٢٧) ، كما فى مورثيا بزعامة ابن هود وفى بالينثيا بقيادة زيّان بن ماردانيس وكذلك عبد الله البياسى الذى خرج من باييسادو استولى على قرطبة وجيان وكيسادا وأهمها خلافة محمد بن يوسف بن نصر الذى سُميت دولة بنى نصر باسمه ، وجدير بالذكر أن ابن نصر تمرد فى أرخونا ، وفى عام ١٢٣٧ غزا غرناطة لكى يقوم بتأسيس الأسرة المالكة التى حملت اسمه ، والتى ضمت إليها كل الأراضى النائية فى الأندلس وآخر بقاعها ، أما باقى أراضيتها فقد وقعت فى أيدي المسيحيين ؛ أشبيلية وقرطبة وجيان وجزر البليار .

هذا وقد صمد الموحدون لهجمات المرينيين فى المغرب حتى عام ١٢٦٨ ؛ حيث استولى هؤلاء على مراكش عاصمة إمبراطورية الموحدين المحتضرة .

وجدير بالذكر أن المهدي قد أنشأ نظاماً سياسياً ذا بنية طبقية كبيرة يرأسه مجلس استشارى يتألف من خمسين شخصاً من الأعيان .

أما خليفته عبد المؤمن (المتوفى عام ١١٦٣) الذى لقّب نفسه بالخليفة فقد تبنى هيئات للحكم مستلهمة من النظام الأندلسى ؛ حيث اتبع نظام الخلافة فى قرطبة وأبقى فى المقام الأول على بنية دولة المرابطين ، والتى كان أمناؤها ووزراؤها أندلسيين فى الغالب ؛ حيث استعان بهم عبد المؤمن فى إدارة شئون البلاد ، واعتباراً من القرن الثالث عشر الميلادى فقد أطلق على الشئون المالية اسم أشغال كما هى الحال فى الأندلس وقد لقّب مسئولها بصاحب الأشغال ، بينما نجد أيضاً أن كلمة مشرف من أصل أندلسى وهو مفتش مالى أو محصل رسوم الجمارك والضرائب ، والذى كان

مقره فى دار الأشراف (٢٨) ، وفى هذا الصدد يجب أن نشير إلى بعض التغييرات التى أدخلها الموحدون فى الأمور الضريبية مثل إلغاء بعض الضرائب التى لم ترد بالقرآن الكريم ، والتى كان المرابطون قد أقروها وفرضوها من قبل مثل القبالات (٢٩) ، وهى ضريبة على كل الصفقات التى تتم فى الأسواق .

وهناك عامل آخر تشبّع به الموحدون من الأندلس وهو الجيش ؛ لأنّ الخليفة الثانى للموحدين عبد المؤمن أخذ الحرس المسيحى للمرابطين كما قام خلفه فيما بعد بالاستعانة بالمرتزقة المسيحيين كما هى الحال بالنسبة لآخر خليفة للموحدين المأمون (المتوفى ١٢٣٢) الذى حصل على ١٥٠٠٠ رجل من ملك قشتالة ، وقد سمح لهم بممارسة شعائر دينهم على الملأ (٣٠) .

وليس من الغريب أن وجود واتصال الموحدين بشبه الجزيرة الأيبيرية سيكون له تأثير لغوى كما حدث مع المرابطين فى اللغة الإسبانية ؛ حيث دخلت كلمات عربية كثيرة اللغة القشتالية ، وإذا كانت عملة المرابطين "المرابطى" فإنّ عملة الموحدين كانت "المصمودى" وهى من الذهب ، وسبب تسميتها كذلك أنها نُسبتُ إلى قبيلة مصمودة وهى قبيلة بربرية ينتمى إليها الموحدون ، والتى أدت إلى وجود عملة إسبانية قديمة ماوئمودين بمعنى مسكوكة ذهبية (مرابطى) .

واعتباراً من القرن الثانى عشر بدأ الإسلام ينحسر فى الأندلس ؛ حيث بدأ المسلمون الهجرة من أراضيهم واستقر معظمهم فى المغرب ، ولقد قام المهاجرون من المزارعين بتطوير الزراعة بشكل ملحوظ وكذلك تدبير شئون المياه والرى ؛ بينما تفوق ذو الصناعات والحرف اليدوية على أقرانهم من أبناء البلد الأصليين ، أمّا العلماء فقد تولوا مناصب رفيعة الشأن فى الإدارة والحكم كوزراء وأمناء ... إلخ . حتى إنّه كانت لهم الأولوية على المثقفين الوطنيين (٣١) .

وفى هذا الصدد يمكننا أن نذكر بنى سعيد دى الكالا لاريال ، هذه الأسرة الشهيرة ذات النفوذ التى كان من بينها المفكرّون السياسيون وخاصة فى القرن الثانى عشر ، حيث شغل أفرادها مناصب هامة فى كل من الأندلس والمغرب على حد سواء . هذه هى حال محمد بن أبى جعفر بن سعيد الذى كان حاكماً لأشبيلية

وغرناطة وساليه ومراكش^(٣٢) . وبالطريقة نفسها فى مجال الطب^(٣٣) نجد أن أطباء أجلاء من الأندلس مارسوا مهنتهم النبيلة فى بلاط الموحدين لخدمة ملوكهم مثل ابن الطفيل (المتوفى عام ١١٨٥ أو ١١٨٦) والعالم الكبير ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨) وابن تملس دى الثيرا (المتوفى ١٢٢٣) ، وأيضاً كانت هناك مجموعة من الأطباء زاولوا مهام مهنتهم فى المستشفيات التى شيدها الموحدون واستمروا يزاولون عملهم بعد ذلك فى أثناء حكم المرينيين . ومثالاً لذلك أبو اسحاق ابراهيم الدانى وأنجاله (القرن الثالث عشر) الذين تولوا منصب أمين مستشفى مراكش .

وبهذه الطريقة أيضاً ليس من الغريب أن تؤكد بعض المصادر أن مدينة فاس فى عصر الموحدين جمعت بين علم قرطبة والقرويين^(٣٤) .

٥- الغرب الإسلامى إثر سقوط الموحدين

من القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر^(٣٥)

١-٥- مقدمة

ويمكن من خلال هذه الفترة التاريخية تطبيق نظريات فيلسوف التاريخ العظيم ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) على حياة الإمبراطورية ، وهذا يرجع لكون هذه الفترة هى عصره^(٣٦) التى استخلص منها ملاحظاته وتأملاته بشأن تخصيص ١٢٠ عاماً فى التاريخ لإمبراطورية من أصل بنوى ، والتى انقسمت إلى ثلاثة أجيال : -

الجيل الأول : يرتبط بالفتح أو الغزو وتأسيس الدولة . والجيل الثانى : يرتبط بالاكتمال والنضج لحضارة مستقرة . أمّا الجيل الثالث : يرتبط بالتدهور وقدم أسرة أخرى لتحل محلها فى غزو البلاد . ولهذا فإن المرابطين بعد أن فتحوا المغرب والأندلس استقروا فى السلطة ووسّعوا إمبراطوريتهم التى نالها الضعف والتمزق فيما بعد ممّا أدى قيام الموحدين بالإطاحة بهم من السلطة ، ولكن الموحدين لا قوا المصير نفسه أيضاً ، وإبان النصف الأول من القرن الثالث عشر وقعت بعض الأحداث التى أُنذرت

بنهاية الإمبراطورية التي أسسها الموحدون لانتهااء طورها الحيوى لثلاثة أجيال طبقاً لتصنيف ابن خلدون فضعف ملوكهم الذين سيطرت عليهم طوائف مختلفة جعلتهم لا يستطيعون بسط سلطانهم على كافة الأراضى ؛ ففي الأندلس كما ذُكر لقي الجيش هزيمة مريرة على أيدي المسيحيين فى ١٦ يوليو ١٢١٢ ، مما أدى إلى نهاية السلطة العسكرية للموحدين .

ويُضاف إلى التمزق السياسى فى شبه الجزيرة الأيبيرية وظهور طوائف جديدة تمزق المغرب أيضاً فى ممالك مستقلة وأول حاكم يعلن تمرده وعصيانته للسلطة المركزية هو حاكم إفريقية (تونس حالياً) عام ١٢٢٩ ، وفى سنة ١٢٣٦ أعلن استقلاله التام ، وكان يُدعى باسمه فى خطب الجمع وبهذا ظهرت الأسرة الحفصية . وفى عام ١٢٣٥ نجد أن الأسرة البربرية زاناتا من بنى عبد الواحد بقيادة يجموراسان بن زيان (١٢٣٥-١٢٨٣) استقلت فى تريمسن والمنطقة المجاورة لها التى كانت تديرها بتفويض من حكومة الموحدين ، وهناك قبيلة بربرية أخرى زناتى والتى تربطها قرابة بالأسرة السابقة ، وكذلك بنو مرين الذين استولوا على مدينة فاس عام ١٢٤٨ ، واتسع سلطانهم لى يُصَوِّبوا بعد ٢٠ عاماً الضربة النهائية للموحدين فى عام ١٢٦٨ ويستولوا على العاصمة مراكش .

وجدير بالذكر أن الممالك الثلاثة سيكون لها علاقة مرتبطة ومستقلة ذات مصالح مشتركة فى التوسع بالمنطقة وطموح فى السيطرة وعلى المغرب بأسره لى تصبح كل واحدة منها سلفاً لإمبراطورية الموحدين وكذلك لهم عدو مشترك (وهو صديق وفقاً للزمن) ويتمثل فى النصارى ، ولن تحقق أية مملكة مأربها فى توحيد المغرب تحت سلطانها ؛ لأنه بالإضافة إلى عدم توافر القوة الكافية لها والمساندة اللازمة فإن هذه الممالك كانت كل منها تعوق تقدم الأخرى وزحفها .

وهناك عامل آخر مهم شهد ذلك العصر وهو زحف المسيحيين فى شبه الجزيرة الأيبيرية الذين كانوا يفتحون الأراضى الأندلسية ، وبدأوا فى سياسة توسعية فى المغرب وكذلك إقامة علاقات دبلوماسية مع مختلف ممالك المنطقة حتى بلغ بهم الأمر توقيع معاهدات وتحالفات بين المسيحيين فى شبه الجزيرة الأيبيرية ومسلمى ما وراء مضيق جبل طارق .

وهذا الزحف التوسعي للمسيحيين فى شمال أفريقيا سيكون له خلال القرن الخامس عشر نتيجة خاصة ومهمة بسبب تورطاتهم السياسية والاجتماعية ، ويتعلق الأمر برد الفعل الدينى وقيام المسلمين برد هذا الاعتداء الذى تمثل فى ثورة اجتماعية شاملة ذات طابع سياسى ودينى ، والتي تزعمتها الحركات الروحانية المنظمة (٢٧) .

وفيما يلى سنقوم باستعراض الممالك الأربعة بإيجاز ، تلك الممالك التى قامت على انقاض إمبراطورية الموحدىين فى الأندلس والمغرب لإلقاء نظرة شاملة على اللوحة التاريخية لهذه الفترة .

٥-٢ الحفصيون فى أفريقيا (٢٨)

لقد كان صاحب التسمية صديقاً لابن تومارت ، ومنذ ١٢٢٩ وحتى ١٥٧٤ حكم الحفصيون فى إفريقية (تونس الحالية) ، وقد تولى الحكم خلال هذه الفترة ٢٥ عالماً حفصياً وأهمهم هو أبو زكريا (١٢٢٨ - ١٢٤٩) مؤسس هذه الأسرة الملكية ونجله المستنصر (١٢٤٩ - ١٢٧٧) الذى قوى أركان الدولة ، وقد أطلق على نفسه لقب خليفة ، وبعده بدأت فترة من التمردات والانقسامات القومية التى سهّلت غزو البلاد على أيدي المرينيين مرتين فى ١٢٤٧ أو ١٢٤٨ و١٢٥٣ أو ١٣٥٤ ، هذا وقد عادت السلطة إلى الحفصيين على أيدي أبو العباس (١٣٧٠ - ١٣٩٤) الذى وحد الدولة بعد أن أخضع لسيطرته التمردات المختلفة ووضع أسس الدولة الجديدة المزدهرة التى ستستمر طوال القرن الخامس عشر ، بينما نجد أن الممالك المجاورة المرينية والزيبانية كانت تتقهقر وتنكمش .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الملكين العظيمين اللذين تولى العرش خلال هذه الفترة هما : أبو فارس ١٣٩٤ - ١٤٢٤ وأبو عمرو عثمان (١٤٢٥ - ١٤٨٨) اللذان دعما الدولة وعملا على تقويتها حتى نعمت بالرّخاء والازدهار السياسى والاقتصادى والثقافى ، ويعد ذلك حلّاً بها التدهور الحتمى .

أماً علاقاتها مع مملكة الزياني ستكون ذات غزو عبوانى وتدخل فى شئون حكمها وأحياناً بتوقيع التحالفات (٣٩) .

أماً الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية فهى بصفة عامة مزدهرة ونشطة وذات علاقات خارجية واسعة .

ولقد كانت الجباية العامة أو الضرائب العامة تقوم على أساس الصدقة الجزية (ضريبة على الأفراد) فى ضرائب متعددة سواء على الأراضى أو على المحاصيل أو على التجارة وكذلك الضرائب على المعمار ، ولقد كانت الضرائب تدفعها القبيلة لشيخها ، والذي كان من حقه منح الامتيازات الضريبية .

ولقد كان الجيش ذا تكوين غير متجانس : عرب رُحْل (كانوا أكثر عدداً) والبربر والشرقيون والأندلسيون والمسيحيون ، فقد كانت كتيبة ميليشيا من الفرسان المسيحيين القادمين من إسبانيا وإيطاليا تمثل حرس العاهل ، ويوجد أيضاً (قائد البحرية) فضلاً عن أهمية القرصنة التى كانت تمولها الحكومة ورجال الأعمال وتقوم بمهاجمة سفن الأعداء .

وفيما يتعلق بإدارة العدل فقد كان العاهل يقوم برد المظالم فى جلسات عامة كل أسبوع ، بينما كان القاضى فى تونس يعتبر القاضى الأعلى (قاضى الجماعة) ، وكان من بين اختصاصاته تعيين العدول فى كل بلد الذين تحولوا إلى موظفين وفى كل مدينة مهمة كان هناك قاض معين من قبل السلطان بعد استشارة القاضى الأعلى فى تونس وكبار رجال الدين . وقد تحول المفتى إلى موظف أيضاً اعتباراً من النُصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى حيث كان يُعَيَّنُ السلطان ، وكان يتقاضى راتباً مقابل عمله ، وقد تزايدت أهمية ونفوذ المفتى بحيث تجاوزت أهمية ونفوذ القاضى الذى تحول إلى منفذ لفتاوى المفتى .

٥ - ٣ أسرة عبد الواحد فى وسط المغرب تريمسين (٤١)

وهم يُسمَّونَ أيضاً بالزيانيين نسبة إلى اسم زعيمهم الأول بجموراسان بن زيَّان (١٢٣٥ - ١٢٨٣) الذين بسطوا نفوذهم على وسط المغرب واتخذوا تريمسين عاصمة لهم (٤١) طوال ما يربو على ثلاثة قرون منذ ١٢٣٦ وحتى ١٥٥٤ . وعلى الرغم من أنَّ الدولة بدأت بملك استطاع التغلب على العقبتين الرئيسيتين للدولة الجديدة وهما النزعات القبلية بين البربر والكفاح ضد الميرينيين ، فإنَّها لم تحقق وضعاً سياسياً قوياً وصلباً ؛ حيث وقعت مرتين فى أيدي الميرينيين (١٣٣٧ - ١٣٤٨ ، ١٣٥٢ - ١٣٥٩) الذين كانوا يمثلون تهديداً دائماً للزيانيين طوال تاريخهم وبنفس الصورة وكما أسلفنا فإنَّ الحفصيين أقحموا أنفسهم فى السياسة الداخلية لدولة عبد الواحد وخلعوا ملوكاً وتوجَّوا آخرين وفقاً لمصالحهم وإخضاع هذه الدولة بالتبعية .

وعلى وجه التحديد ، منذ ١٣٨٩ - ١٥٥٤ العام الذى استولى فيه الأتراك على تريمسين ، أصبحت هذه المملكة تابعة لفاس أو تونس ، ولم تنعم بحياة مستقلة منذ ذلك الحين .

ويرجع سبب الضعف السياسى لهذه الدولة أنَّها كانت خاضعة لسيطرة وقوة بعض المجموعات ذات الأصل العربى فى وسط المغرب والحمية الجغرافية التى وضعت المملكة الزيانية بين نارين : فى الشرق الحفصيون وفى الغرب الميرينيون كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ؛ ولذلك فليس من المستغرب أنَّه فى عام ١٥٠٩ وقعت تريمسين تحت السيادة الإسبانية التى كانت تبسط سيطرتها على وهران .

ومع ذلك فإنَّ نشاطها الاقتصادى والتجارى لم يتدهور على الإطلاق ، كما أنَّ حياتها الثقافية كانت بارزة ومثمرة .

وكان جيش هذه المملكة يتألف فى المقام الأول من الفرق الهلالية وإنَّ كان بجموراسان لديه قوات من التركمان والاكرد والنصارى ، وقد كانت الإدارة أو الحكومة منظمة وبها أشخاص أكفاء ، وقد كان الوزراء يُعينون من قبل السلطان وهم دائماً من أفراد الأسرة الحاكمة فى البداية ، ولكن فيما بعد أسندت هذه المناصب إلى

الأندلسيين ، وكان الوزراء يتولون قيادة ورئاسة الجيش هذا إلى جانب سلطة قوية ، وقد كان الحاجبُ عالماً فى القانون والمالية .

وفيما يتعلق بالضرائب يجب أن نبرز الامتيازات الضريبية التى منحوها لقواتهم العسكرية من الهلاليين ، والذين كُلفوا بجباية الضرائب مقابل حصة معينة منها .

٥-٤ المرينيون فى المغرب (٤٢)

لقد قوى التحالف القبلى الزناتى لبنى مرين منذ عصر الموحدين ، كما قوى وضعهم حتى عام ١٢٤٨ حيث استولى أحد قادتهم أبو يحيى (١٢٤٤ - ١٢٥٨) على فاس ، وانطلاقاً من هذه المدينة استطاع التقدم وغزو بقية أرجاء إمبراطورية الموحدين، وقد تُوِّجَ ذلك بالاستيلاء على مراكش فى عام ١٢٦٨ ، على يد أبى يوسف (١٢٥٨ - ١٢٨٦)، وبهذا بدأ حلم بنى مرين فى التحقق : وهو خلافة الموحدين فى إمبراطوريتهم ، وقد كان التوسع فى هذه الفترة ملحوظاً : حيث قام المرينيون بحملتين عام الأندلس فى ١٢٧٥ ، ١٢٧٧ ، كما تم تأسيس مدينة فاس الجديدة .

وقد تمَّ الحفاظ على هذا الوضع رغم الصُّعوبات (تمردات داخلية) فى أثناء حكم أبى يعقوب (١٢٨٦ - ١٣٠٧) ثم سيتداعى ذلك بعد وفاته حتى مجيء أهم قادة هذه الأسرة وهو أبو الحسن (١٣٣١ - ١٣٥١) حيث عاشت فى عصره دولة المرينيين أوج عظمتها وازدهارها ، هذا إلى جانب عصر نجله الذى خلفه فى الحكم (١٣٤٨ - ١٣٥٨) ، وتعيش الدولة أوج مجدها حيث خصصت قواتها للتوسع فشنت الحملات على الأندلس وإن كانت هذه الحملات لم يكتب لها كل النجاح ، وقد تم افتتاح تريمسين فى ١٣٧٧ و١٣٥٢ وتونس فى ١٣٤٧ ، ١٣٥٧ كما تم فى ذلك الوقت تحقيق أكبر منجزات هذه الأسرة مثل المساجد فى فاس والمنصورة والكثير من المدارس، وقد تمَّ أيضاً ترميم مستشفى فاس ... إلخ .

وفيما بعد بدأت فترة التدهور الطويلة التى تميزت بالفوضى وضعف الملوك التى ستنتهى عام ١٤٢٠ بفقدان السلطة الفعلية للعاهل لكونه قاصراً لصالح أحد أفراد

بنى وطّاس ، الأمر الذى أدى إلى فقدان أسرة الميرنيين للحكم لصالح الأسرة المذكورة عام ١٤٦٥ وعلى وجه التحديد حدث تمرد فى مدينة فاس فى العام السّالف الذّكر حرّض عليه الخريفيون الذين تمتعوا بنقوذ ملحوظ فى الحياة الدينية بالمدينة . وقد حدث هذا التمرد فى غياب السلطان عبد الحق آخر حاكم مرينى ، ويرجع سبب ذلك إلى زيادة الضرائب ، وقد بوع الخريفي إدريس محمد الجوتى زعيماً ، وإن يسترد الوطاسيون مدينة فاس حتى عام ١٤٧٢^(٤٣) ، وينتهى بذلك المشروع السّياسى الطّموح للميرنيين لإصلاح إمبراطورية الموحدين .

وعلى الرغم من ذلك فإن إنجازات الميرنيين فى المجالات الدّينية والفنية والثقافية مهمة ؛ فهناك الكثير من الإنجازات المعمارية ، وكذلك ازدهار العلوم والأنشطة الدينية وإعادة أحلال المذهب المالكى الذى كان قد انزوى أو اختفى بسبب الموحدين .

وعلاوة على ذلك فقد وقعت بالمدينة بعض الأحداث التى كانت لها أهمية فى الحياة الاجتماعية بالدولة ؛ ففى عام ١٤٣٧ تم اكتشاف مقبرة مولاي إدريس ، وقد شجع المسؤولون على زيارتها ، هذا فضلاً عن الحركة الدينية الصوفية وحركات الإخاء التى نمت بشكل ملحوظ كما كان لها تأثير كبير فى الحياة السّياسية^(٤٤) .

وفى المجال الضريبي فقد فرضت الحكومة ضرائب ليست قرآنية ، وقد حصلت القبائل والعشائر العربية على امتيازات أراضٍ كثيرة حيث عهد إليهم بجباية ضرائبها ، وقد تلقى الخريفيون والأولياء كمية محددة من الخزانة العامة ، كما أن جمعيات الإخاء قد تمتعت بإعفاءات ضريبية ، وقد تولّى اليهود فى نهاية العصر الميرينى مهمة جباية وتحصيل الضرائب نون أن يأخذوا فى الاعتبار النصوص والتعاليم القرآنية ولا مراعاة التنازل عن جزء من الجزية للخريفيين والمرابطين وفقاً للعرف السائد آنذاك .

لقد كان الجيش الميرينى فى بداية الأمر محدوداً ، ويتكون من سلاح فروسية هائل ثم زاد عدده فيما بعد حيث انضم إليه أفراد من الزناتيين من وسط المغرب وعرب فضلاً عن التركمان والفرنسيين والأندلسيين ، وقد أنشأ أبو يوسف ترسانة فى مساليه بينما كانت سبته القاعدة البحرية الرئيسية ، ولكن البحرية أو الأسطول بدأ فى التدهور فى عصر أبى الحسن .

وفى إطار العدالة يمكن إبراز شخصية قاضى فاس الجديدة الذى كان بمثابة القاضى الأعلى ، والذى كانت له ضيعة ممنوحة من الدولة فضلا عن راتبه الكبير والهدية السنوية .

٥ - ٥ الوطاسيون فى المغرب (٤٥)

بعد أن تولى الوطاسيون الحكم بشكل صورى أو اسماً فقط عام ١٤٢٠ ، والذين كانوا ينتمون إلى أسرة لا تتمتع بأهمية سياسية واصلت هذه الأسرة نفس النهج السياسى للميرنيين فى التصدى لهجمات البرتغاليين .

وبعد اختفاء آخر مرينى عام ١٤٦٥ تم تأسيس الوطاسيين بشكل رسمى فى مدينة فاسوكان أول عاهل منهم هو محمد الشابى (١٤٧٠ أو ١٤٧١ حتى ١٥٠٤ أو ١٥٠٥) والذى سيتبعه محمد البرتغالى (١٥٠٤ أو ١٥٠٥ إلى ١٥٢٦) (٤٦) ، وقد اعترف بالأول منهما كسلطان فى عام ١٤٧٠ أو ١٤٧١ من قبل فاس وإبان حكمه الذى استمر ٣٥ عاما واجه العديد من الصعوبات .

ففى السياسة الخارجية نجد أن الهجمات المسيحية البرتغالية والقشتالية حدثت من نفوذ كثير من المدن المغربية ، أمّا على الصعيد الداخلى فإن ادعاءات الاستقلال من جانب بعض الزعماء المحليين وبعض الخريفيين وزعماء جمعيات الإخاء أدت إلى تعريض سلامة وترابط الدولة للخطر الداهم ، وقد أدّى بالفعل إلى تمزيق الدولة حتى انحسر سلطانها فى المنطقة الشمالية من أراضيها ، وقد أدى كل هذا إلى توقيع هدنة إجبارية مع البرتغاليين إثر سقوط مدينة أرسيل .

إن زحف المشركين وتوقيع الاتفاق سالف الذكر إلى جانب أسباب أخرى اجتماعية وسياسية أدت إلى رiod فعل شعبية خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر والأول من القرن السادس عشر ذات طابع دينى قومى (٤٧) شجعت على التصدى والنضال ضد الغزاة ، وقد تزعمت هذا النضال جماعات الإخاء التى كانت تعمل بشكل مستقل ، وفى عام ١٥٠١ قُضت الهدنة مع البرتغال ، ولم تستطع هذه الأسرة المغربية

التصدي لفتوح البرتغاليين ، كما أن التمردات الداخلية قد تزايدت ، وفي النهاية فإن هذا التمرد قد سمح للخريفيين بطرد الأسرة الحاكمة وإعادة توحيد الدولة عام ١٥٥٢ .

ومن جانب آخر ومن وجهة النظر الثقافية يجب إبراز الازدهار العام في الحياة الفكرية والجامعية في فاس الميرينية والوطاسية ^(٤٨) ، وعلى وجه الخصوص في الفقه حيث شهد تطوراً لم يسبق له مثيل ؛ حيث حجب أو غطى على كل أنواع المعرفة الأخرى ؛ فالعلماء كانوا في المقام الأول ، وكان الفقهاء في الدرجة الأولى يليهم في الترتيب علماء النحو والفلك والرياضة والمؤرخون ... إلخ .

٥-٦- النصريون في غرناطة

إن تاريخ مملكة النصريين في غرناطة معروف لنا إلى حد كبير بفضل دراسات راتشيل أرييه (انظر المراجع) ، ولذلك فإننا سنتقصر فقط على إعطاء فكرة شاملة عن ذلك فضلاً عن الملامح البارزة .

لقد بدأت هذه المملكة نتيجة التمزق السياسي للموحدين كواحدة من ممالك الطوائف الثلاثة ، وهي مملكة غرناطة التي بدأت عام ١٢٣٢ عندما أعلن محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر عن استقلاله في أرخونا ودخوله غرناطة فيما بعد عام ١٢٣٧ ، وإن كان النصريون في بداية الأمر قد خضعوا لقشتالة لتدعيم قوتهم ونفوذهم ، وبعد ذلك تحالفوا مع أشقائهم في الجهة المقابلة لمضيق جبل طارق ثم تأرجحوا في التحالف بين هؤلاء وأولئك .

إن الازدهار الثقافي والفني الذي شهده القرن الرابع عشر الميلادي جاء نتيجة توقف الكفاح ضد الزحف المسيحي ، هذا التوقف الناجم عن الحرب الأهلية في قشتالة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر .

ومع ذلك ففي القرن الخامس عشر الميلادي نجد أن غرناطة عاشت فترة من الثورات والانتفاضات والنزاعات الداخلية وعدم الاستقرار السياسي والضعف

العسكري فضلاً عن التقدم والزحف النصراني . إن ضعف الميرينيين لم يسمح بتقديم المساعدة والمساندة لأشقائهم الأندلسيين مما سهل الأمر على المسيحيين .

ويتحسن الوضع بقولى أبى الحسن على (١٤٦٤ - ١٩٨٢) ، ولكن فى عام ١٤٦٩ تم زواج فرناندو ملك أراجون مع إيزابيل ملكة قشتالة ، وقد نجم عن ذلك توحيد إسبانيا المسيحية ، وبعد سنوات قليلة بدأ هذان الملكان هجومهما النهائى على غرناطة ، والذى بدأ عام ١٤٨٢ بالاستيلاء على قصر الحمراء هذه القلعة الحصينة التى سمحت للأندلسيين بالبقاء طوال قرنين ونصف من الزمان فقدت فعاليتها وتهافت قلاعها وحصوننها ، واستحكاماتها النصرية الحصينة أمام فعالية المدفعية المتقدمة المدمرة ، وقبل هذا الزحف الكبير للأعداء نجد أنه قد تمت الإطاحة بمولاي حسن ؛ حيث قام الغرناطيون بزعامة أبناء ثيراخيث بمبايعة نجله أبى عبد الله محمد ملكاً عليهم خلفاً لوالده فى نفس العام أى ١٤٨٢ .

إن نشوب الحرب الأهلية فضلاً عن تقدم وزحف الملوك الكاثوليك أدباً إلى استسلام غرناطة عام ١٤٩٢ ، واعتباراً من هذا التاريخ تزايدت الهجرة من الأندلس إلى المغرب خاصة وإلى شمال أفريقيا بصفة عامة ، وبعد غزو غرناطة تزايد الأمر نظراً لقسوة وصعوبة الظروف المعيشية للمسلمين تحت السيطرة المسيحية .

وفى مجال الهيئات يجب الإشارة إلى أهمية السلطان الذى كان يتدخل فى كل الشئون كما تزايدت أهمية الهيئات القضائية ؛ فكان للقضاة والعدل وكتاب العدل والموثقين والمفتيين إلخ مقام عظيم .

وقد أفاد الفن النصري من فنون العصر السابق وطوره فى مجال الهندسة المعمارية والفنون الزخرفية ، ومع ذلك ففى القرن الخامس عشر الميلادى ظهر تأثير الميرينيين قوياً .

وفى مجال الأدب نجد أن ازدهار القرن الرابع عشر الميلادى لن يتحقق فى القرن الخامس عشر ، وقد برزت بعض الشخصيات فى مجال الأمثال وفى فن الفروسية أو المختارات الشعرية .

٦ - علاقات بنى ميرين والنُصريين فى الفترة من القرن الثالث عشر حتى الخامس عشر .

ونظراً لأن المساحة الجغرافية التى تحتلها المغرب فى الوقت الحالى هى المنطقة التى كان يحتلها الميرينيون وكذلك النُصريون (كلتا الأُسرتين ظهرتا فى أعقاب تفتت إمبراطورية الموحدين التى انتهت فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر) ، وسيتركز اهتمامنا عن هذه الفترة فى العلاقات التى ربطت الميرينيين مع مملكة غرناطة آخر معقل للإسلام الأندلسى .

ففى بداية أسرتهم ولتدعيم وتوطيد سلطانتهم خضع النُصريون للملك قشتالة ، ولكن اعتباراً من الربع الأخير للقرن الثالث عشر تخلص النُصريون من هذه التبعية ولجأوا إلى الميرينيين فى فاس ، ويمكن اعتبار عام ١٢٧٤ بداية تدخل الميرينيين فى الشؤون الداخلية لغرناطة .

وخلال الفترة من القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر نجد أن الميرينيين قد تدخلوا سياسياً فى الأندلس وإن كان الأمر لا يتعلق بغزو أو احتلال شامل كما حدث فى عصر الموحدين والمرابطين من البربر ، فإن الأمر يتعلق باحتلال هؤلاء الزناتين لفترة محدودة ولأماكن محددة أقل مما كان للصناجة والمصمودية السابقتين ؛ لأنهم لم يحتلوا سوى ثلاث مدن هى الجزيرات وجبل طارق وروندا . ومع ذلك كان لهم تأثير أخلاقى وأنوا إلى تأخير وإعاقة الفتح المسيحى ؛ لأنه من نهاية القرن الثالث عشر فإن السلاطين الميرينيين ذهبوا إلى الأندلس شخصياً خمس مرات ، وإبان النُصف الأول من القرن الرابع عشر اشتركوا بشكل مكثف فى المعارك التى نشبت من أجل إحكام السيطرة على مضيق جبل طارق (وعلى سبيل المثال فى ١٢٢٣ عاد الميرينيون واحتلوا جبل طارق التى كان تحت سيطرة القشتاليين) ، كما أن هزيمة الميرينيين فى معركة سلاو وبلاشتراك مع النُصريين (فى عام ١٢٤٠) أدى إلى فقدان الميرينيين للمدن الثلاث التى كانت تحت سيطرتهم (الجزيرات وجبل طارق وروندا) وعودتهم إلى فاس لتفادى مزيد من التدهور الداخلى الذى سيكون أمراً حتمياً فيما بعد .

ومن جهة أخرى يجب إبراز أن الاحتلال الذي قام به الميرينيون لبعض المدن كان نتيجة لتحالفهم مع النصريين في بداية الأمر وإن كان التفاهم والانسجام بشأن المصالح لم يكن شاملاً فضلاً عن استياء وغضب السلاطين الغرناطيين تجاه تزايد سلطة بنى مرين، وقد أدى هذا الأمر إلى فك التحالف بينهما^(٤٩)؛ فقد استمر ينبض بالمشاعر الأندلسية ضد بربر شمال أفريقيا^(٥٠).

ولهذا فإن التدخل المفرط لبنى مرين في الشؤون الداخلية للنصريين أدى إلى قيام النصريين في بعض الأحيان بالتحالف من جديد مع المسيحيين^(٥١) والبحث عن التحالف مع الزناتيين في تريمسين؛ فالقطيعة بين النصريين والميرينيين ستكون نهائية في ١٣٧٢ عندما أقام محمد الخامس علاقات ودية وطيبة مع تريمسين وتونس واحتل جبل طارق آخر معاقل الميرينيين في الأندلس.

ومن وجهة النظر الثقافية في الأندلس نجد أن الأسفار إلى المشرق قد تراجعت، وقد تعلق النظر بالاتجاه صوب الطرف الثاني لمضيق جبل طارق العدوى؛ حيث تقدم المملكة الميرينية سلسلة من العناصر الاجتماعية الثقافية والسياسية مشابهة لما كان تقدمه مملكة النصريين في غرناطة تجعلها قبلة وكعبة للعلماء الغرناطيين، كما أن ملوك الميرينيين كانوا يستقبلون هؤلاء العلماء والمفكرين في بلاطهم، وقد أنعموا عليهم بالثراء والتشريف والتكريم وفي بعض الأحيان منحوهم اللجوء السياسي، ومع ذلك فإن هذا لم يتحقق فيما بعد ففي عصر الوطاسيين خلال ما يعرف باسم أول عصر للهجرة الكبيرة من الأندلس إلى المغرب بسبب الغزو المسيحي، وإبان هذه السنوات عاشت البلاد ظروفاً من الاضطراب السياسي والتدهور الاقتصادي والاجتماعي الذي كان له أكبر الأثر السلبي على حياة ومعيشة المهاجرين^(٥٢).

هذا، وقد تزايد حجم الاتصالات والتبادلات الثقافية، وظهر كثير من الأندلسيين الذين كانوا يدرسون في المدن المغربية مثل فاس ومكناس، كما أنه في غرناطة تم استخدام كتب تعليم ألفت وكتبت في المغرب مما جعل بنية التعليم في غرناطة والمغرب متشابهة تماماً في القرن الخامس عشر أكثر من أي وقت مضى وكذلك البنية العلمية لمختلف الممالك^(٥٣)، ويعتبر هذا تنويجاً لعملية طويلة انتهت بالتشابه الثقافي العربي

الإسباني من جانب المغرب خاصة فى عهد الميرينيين فوقاً لبعض المصادر فإن جانباً من المغرب أصبح كالأندلس^(٥٤) ، وأمثلة هذا التكامل بين الصفقتين " العدوتين " متعددة ، ويمكن رؤيتها فى مختلف المجالات من النشاط الفكرى : التعليم والعلوم اللغوية والفنون والتاريخ والعلوم^(٥٥) .

ولهذا فإن كثيراً من العلماء الأندلسيين (الغرناطيين) الذين اتجهوا إلى الشاطئ الآخر لمضيق جبل طارق مثل العلامة الكبير الوزير ابن الخطيب الذى ارتبطت حياته بالمغرب بشكل وثيق حتى إنّه مات فى فاس عام ١٣٧٥ وقد اتهم بالزندقة والكفر ، كما أن كثيراً من الشعراء الغرناطيين مثل ابن بياش العبدري الذى درس فى سبته ، وابن الصباغ العقيلي الذى ترك الإدارة الغرناطية لى يعمل بالأمانة الملكية فى فاس حيث توفى فى عام ١٣٥٧ ، ومحمد بن الأوزاعى (المتوفى عام ١٣٥٦) الذى بعد أن أساء النُصرى يوسف الأول معاملته هجر غرناطة وأقام فى فاس ؛ تحت حماية أو فى كنف السلطان أبى عنان فارس الذى أهدى إليه كثيراً من قصائد المدح وإبراهيم النميرى (المتوفى ١٣٨٣) الذى استقر به المقام فى فاس حيث خدم السلاطين الميرينيين أبى الحسن وأبى عنان وأبى القاسم البارى (المتوفى ١٣٨٤) ، والذى كان أميناً لأبى عنان وكاتب المراسلات الرسمية له وقد تمّ تعيينه قاضياً للعاصمة ، وابن الأحمر (المتوفى عام ١٤٠٤ أو ١٤٠٧) الأمير النُصرى الذى فرّ من غرناطة لى يلجأ إلى فاس ؛ حيث كرّس حياته لتأليف الأعمال الأدبية والتاريخية عن الأندلس والمغرب إلخ.....^(٥٦).

وإلى جانب هؤلاء الأدباء تجدر الإشارة هنا إلى مجموعة من الفقهاء البارزين الذين زاروا أو درسوا فى المدن المغربية الرئيسية .ومثال ذلك الرحلات العلمية إلى المغرب للفقهاء الغرناطى المنتورى (المتوفى عام ١٤٣٠) الذى أتم دراسته فى فاس^(٥٧).

ويمكن ملاحظة ذلك أيضاً فى مجال الطب ؛ حيث خرج من غرناطة معظم الأطباء الذين وصلوا إلى المغرب ؛ حيث شاركوا فى دفع الحركة العلمية فى عصر الميرينيين ، ومن بينهم يمكن ذكر التالية أسماؤهم الطّبيب وعالم الفلك ابن رُكّا

(المتوفى ١٣١٥) ، وفيما يبدو أنه من مورثيا ، وقد هاجر ليستقر به المقام فى بوجيا؛ حيث عاد منها إلى الأندلس وكان الملك النُصرى محمد الثَّانى قد استدعاه ليعيش هناك ، وأبو تَمَام غالب الشَّاقُورِى (القرنين الثَّالث عشر والرَّابع عشر) الذى مارس الطَّب فى بوجيا وغرناطة قبل أن يقيم فى فاس كطبيب للعاهل المرينى أبى الحسن ، والمالقي محمد بن قاسم القرشى (١٣٠٣ - ١٣٥٦) الذى درس فى شمال أفريقيا، وقد عُيِّنَ مديراً لمستشفى فاس عام ١٣٥٣ . وقبل عام ١٣٦٥ أو ١٣٦٧ كان قد أقام هناك أبو عبد الشَّدِيد ، وهو من مواليد جيان مثل سابقه ، والذى كان ناظراً للأسواق فى مالقة والغرناطى فرج الخزرجى ، وقد تولَّى منصب مدير مستشفى فاس فى عهد حكومة محمد الوطَّاسى (١٤٧١ - ١٥٠٤) ، وقام ببعض الإصلاحات وأدخل على ما يبدو موسيقيين فى غرف المرضى الذين كانوا يعانون من اضطرابات عقلية (٥٨) .

ولم يكن الطَّب فقط هو الذى شهد الانتقال الثقافى بل أيضاً علومٌ أخرى مثل الفلك ، والتى يمكن أن نشير إلى التَّأثير الكبير اعتباراً من القرنين الثَّالث عشر والرَّابع عشر لأعمال أزار قيل وأزاكلوه (القرن الحادى عشر) فى الفلكيين المغاربة (٥٩) .

وبالإضافة إلى ذلك وكما قيل من قبل ففى الاتجاه المضاد فقد استمرت الأسفار والرحلات العلمية ؛ حيث ظلَّ المغاربة يتوافدون على غرناطة حتى السَّنوات الأخيرة السابقة على سقوط المدينة . ومن بين هؤلاء الفاسيان الزقاق (المتوفى عام ١٥٠٦ أو ١٥٠٧) وأحمد الداقون (المتوفى عام ١٥١٥) أو قاض طيطوان محمد القراسى (المتوفى عام ١٥٥٦ أو ١٥٥٧) (٦٠) .

وفى المجال الثقافى أيضاً يجب أن نشير إلى التُّراث الموسيقى الأندلسى الذى تلقته المغرب ، وطبقاً لكلمات محمد المنونى فقد تمت مغربة هذه الموسيقى ، وذلك بتطبيع وتكييف مقطوعاتها وأشعارها وأنغامها (٦١) .

وكل هؤلاء العلماء قد تركوا أثراً ثقافياً وعلمياً فى الثقافة العربية استمرت حتى يومنا هذا كما يعترف بذلك المفكرون المغاربة الحاليون (٦٢) .

الهوامش

- (١) في الفترة التي ندرسها فإن المغرب لم تكن موجودة ككيان سياسي وقومي محدد ومستقل. ومع ذلك فإنني قد سمحت لنفسى باستخدام مصطلح المغربي وإن كان من الأصح الحديث عن المغرب أو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى لتحديد الموقع الجغرافي في شمال أفريقيا الذي تحتله حالياً المغرب .
- (٢) ب. بيجيرا المداخلة ، رقم ٢٤٤ .
- (٣) وحول هذه الأسبقية اطلع على زانيبا - تايتر - ٧٦ - ٧٩ ، المقال الذي يتناول تأثير الثقافة الأندلسية في المغرب وأثره في التطور العلمي على صفتي المضيق .
- (٤) المنونى نماذج ١٤٤ .
- (٥) ليفى بروفينسال ، إسبانيا ١٠٨ - ١١١ .
- (٦) عن التدخل الأموي في شمال أفريقيا - انظر ب. بالية المداخلة ، وبيجيرا ، العلاقات ٣٥٨ - ٣٦٤ وبيجيرا ممالك الطوائف .
- (٧) ب. بيجيرا ، العلاقات ، ممالك الطوائف ١٥٥ - ١٦٤ ،
- (٨) الدراسات المتخصصة الحديثة عن هذه الأسرة : هاجر ، المرابطون ، باستور المرابطون ، انظر أيضاً المراجع المذكورة في الملاحظات التالية وكذلك المدرجة في القائمة الأخيرة .
- (٩) عن ممالك الطوائف بعد عصر المرابطين انظر دندش ، الأندلس ٧٠ - ١٠٠ ، وبيجيرا ممالك الطوائف ١٨٩ - ٢٠١ .
- (١٠) عن ضعف المرابطين وأسباب سقوط هذه الأسرة الحاكمة ، انظر التحليل الذي أعده دندش في هذا الصدد ، الأندلس ، ٢٣ - ٢٥ .
- (١١) لا جاردير المرابطون ، ١٠٧ .
- (١٢) بوش المرابطون ١٤٩ - ١٥٠ بيجيرا الرسائل ، بيجيرا ممالك الطوائف ١٧٢ - ١٧٤ .
- (١٣) توجد عدة أعمال تتحدث عن أهمية وتأثير هذا العنصر البشري وقضية القبلية في المجتمع الأندلسي مثل عبد الكريم ، العنصر ، بوش الأندلس ، بوش البربر ، بوش العنصر ، ابن عبود البنية شاليتا الفتح ، هذا فضلاً عن الأعمال المعروفة لجيتشارد .
- (١٤) شاتزميلر التراث (ذا ليجانس) فيليبى " الأسر " .

(١٥) عن هذه الشخصيات ومغاربة آخرين ذهبوا ليدرسوا في الأندلس انظر زانبيار تابتير ٩٣ - ٩٧ .

(١٦) المنونى نماذج ١٤٥ - ١٤٦ .

(١٧) كلا المصطلحين مشتقان من العربي المرباط ويعنى الزاهد ، الراهب المحارب الذى يعيش فى دير أو قلعة بعيداً أو منعزلاً عن الناس يعيش حياة متقشفة مخصصة للعبادة والصلاة والحرب لأسباب تتعلق بالعقيدة ، وفى اللغة الإسبانية هناك عدة كلمات مرابطو ، مورابوطو ، ومارابوطو فضلاً عن كلمة مارابو ، وهو طائر مغربى يشبه البجع ولكن أكبر حجماً حيث يستخدم ريشه فى الزينة وهذه الكلمة من أصل فرنسى ، وقد أطلقها الفرنسيون على المرابطين أيضاً فى القرن التاسع عشر لتشابه سلوك الطائر مع عبادة المرباط ، وقد استعان الفرنسيون بهذه الكلمة بعد استنادهم إلى كلمة مرابطو الإسبانية .

(١٨) من العربي سيدى وهى نطق موجز لكلمة سيدى وهى صيغة احترام وتبجيل فى إسبانيا الإسلامية وقد أطلقت على الشهير رودريجو دى بيبار الذى نُقِيَ من قشتالة فى عهد الفونسو السادس وعاش بين المسلمين ، وكان فى خدمة طوائف سراقسطة ، وقد انتقل ذلك إلى اللغة الإسبانية "Cid" أى السيد أو سيدى .

(١٩) من اللغة العربية مرابيطى : عملة صغيرة من الفضة من عصر المرابطين وكذلك صفة مشتقة من اسم المرابطين والتي بصفة عامة تشير إلى المرابطين ومن هذه الكلمة أُشتق فى اللغة الإسبانية لفظ مرابييدى ومشتقاتها مرابيدينو ، مرابيدين ، موربى وموريبيديل .

(٢٠) من اللغة العربية صناعى مشتق من صناجة مجموعة قبائل بربرية من البدو الرحل من الصحراء الغربية التى خرج منها المرابطون وقد انتقلت إلى اللغة الإسبانية " cehegi " بينما نجد أن اسم القبيلة أصبح فى اللغة الإسبانية " Zanhaga " .

(٢١) ومع ذلك فليس لهذا السبب لم يلق عناية خاصة من جانب الأمراء المرابطين الذين انتقلوا فى مناسبات عديدة من الغرب إلى الأندلس إما فى حملات حربية أو لأنشطة سياسية وعلى سبيل المثال الأمير الأول يوسف بن تاشفين عبر إلى الأندلس خمس مرأت (١٠٨٦ ، ١٠٨٨ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩٧ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣) بينما قام نجله بالذهاب إلى الأندلس أربع مرأت .

(٢٢) المنونى نماذج ١٤٣ .

(٢٣) د. سيّرانو " فتونان " بالبية " الهجرة " ، ١١٠١ أو ١١٠٢ وصول سياسة المرابطين المتسامحة مع المسيحيين مقال بوتشيش بعنوان " المرابطون " .

(٢٤) ومع ذلك كان هؤلاء الفقهاء الذين ساندوا السلطة والحكومة المرابطية بعد أن استدعت الأمير يوسف بن تاشفين لعزل ملوك الطوائف الذين ثاروا ضد حكامهم فى الأندلس وأسسوا ممالكهم الخاصة . انظر فى هذا الصدد ثورة القضاة دندش " الأندلس " ٧٦ - ٩٤ دراسة للسيرة الذاتية لكبار القضاة فى هذا العصر وكذلك يمكن وجود ذلك فى عمل لاجارير " السلطة " .

(٢٥) عن هذه القضايا وأخرى تتعلق بوضع المرأة فى عصر المرابطين فى عدم وضعها للحجاب عند خروجها من منزلها انظر دندش " الأندلس " ٣١٥ إلى ٣١٧ وخاصة ٣١٦ ودندش " أنوار وخاصة ٤٩ - ٥٠ .

(٢٦) عن هذه الأسرة فإلى جانب الأعمال الكلاسيكية أ. هويتش ميراندا وآخرين انظر بيجيرا المالك ٢٠٣ - ٢٢٨ وحول بدايتها فى الأندلس دندش " الأندلس " ١٠١ - ١٢٠ .

(٢٧) حول التَّمَرُّق السِّيَاسِي بعد الموحدين في الأندلس انظر بيجيرا ، " الممالك " ٣٢٩ - ٣٤٧ .

(٢٨) إدريس " المغرب " ٥ - ٧ .

(٢٩) إدريس " المغرب " القبالي ، جمع قبلاّت ضريبة ليست قرآنية عن القيمة الشرائية في الأسواق أي ضريبة على أية صفقة تتم في السوق (وهي تُشبه ضريبة المبيعات في عصرنا الحاضر) . وقد انتقلت إلى البنية الاقتصادية المسيحية وقد استخدمها الإسبان بنفس اللفظ لتعني الضرائب التي تحصل على عمليات البيع والشراء في الأسواق وقد اشتق منها قبلاّت الربح ، وهي ضريبة كانت تؤخذ من الأجنبي على السلع التي كان يبيعها أما كلمة الكابلايرو فتعني جابي هذه الضرائب .

(٣٠) إدريس " المغرب " ١٣ .

(٣١) بالية " الهجرة " ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣٢) مورال ، شعراء ، ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٣٣) كاستيلس ، الطب ١١٦ ، ١١٨ ، ص ٩ ، ١٢٢ ص ٤ .

(٣٤) المنوني نماذج ، ١٤٣ .

(٣٥) المصادر والمراجع المستخدمة في إعداد هذا الجزء فإلى جانب ما ذكر ، ابن مرزوق ، المسند ، ابن خلدون التاريخ وخاصة الأجزاء ٢ ، ٣ ، ٤ نصرى ، الاستقصاء ، ابن نصر ، التاريخ ، ماركاييس ، البربر ، ٢٧٧ - ٣٠٤ جولين ، التاريخ ص ١٣٢ - ٢٠٣ (الحفصيون ١٣٥ - ١٥٤ ، الزناتيون ١٥٤ - ١٦٢ ، المرينيون ١٦٢ ، ١٨٢ ، الوطاسيون ١٨٢ - ٢٠٣) ابن شقرون ، حاجي ، مصادر وهناك أعمال أخرى عن هذا العصر يمكن أن نجدها في إنتاج باحثين مثل عطا الله دينا وجورج ماركاييس وفيرمين ريكينا وروبرت برونشفيج وجاستون ديفيردون ومايا تشاثر ميلر الخ ...

(٣٦) وبالإضافة إلى ذلك فقد كان المؤرخ في خدمة السلاطين في الممالك الإسلامية الأربع في الغرب (التُصْرِيين والحفصيين والميرانيين والزّنَاتِيّين) مما يجعله شاهداً فريداً على الأحداث ويجعل أيضاً عمله أحد المراجع الأساسية لدراسة هذه اللحظة .

(٣٧) كور لاستباليشمينت ٢٢ - ٣٥ - ٥٢ - ٥٣ .

(٣٨) العمل الرئيسي عن هذه الأسرة المالكة للمؤلف برونشفيج " البربر " انظر أيضاً إدريس الحفصيون والمراجع المذكورة في ص ٧٢ وابن شقرون " لاميلية " ٤٠ - ٤٣ وكذلك الأعمال المذكورة في الملاحظات السابقة وخاصة ابن خلدون " التاريخ " الجزء الثاني ص ٢٨٦ - ٤٧٦ والجزء الثالث من ص ١ إلى ١٢٢ الجلالى " تاريخ " الجزء الثاني ٧ - ٦٨ .

(٣٩) في أثناء حكم أبي فارس حدثت عدة تدخلات في مملكة عبد الواحد لى تتضمن حكومته بعض العاهليين من التابعين للدولة ففي عام ١٤٢٤ تم خلع عبد الواحد ابن أبي حمو وتوج محمد بن تاشقين، وفيما بعد قام السلطان المخلوع في عام ١٤٢٨ باسترداد عرشه بمساعدة الحفصيين ولكنه قُتِلَ في صراعه على السلطة التي تولاها محمد مرة أخرى . وقد أدى هذا إلى تدخل عسكري آخر من جانب تونس التي احتلت ترميسين عام ١٤٣١ وقد توج أبو العباس أحمد بن حمو . والسلطان التونسي الذي خلفه : أبو عمرو عثمان بعد

أن أعاد السلام إلى ربوع البلاد الداخلية ليتمكن من التدخل في تريمسين عام ١٤٦٢ عندما خُلع حليفه على يد الأمير الثائر بى عبد الله بن أبى زيان الذي استطاع الاستيلاء على العاصمة ، ولكنه إزاء الوجود العسكرى اضطر لإعلانه تابعاً للحفصى المذكور . إن هذا الخضوع قد تم تعزيزه أيضاً بالأسلحة ففى عام ١٤٦٦ إثر محاولات الاستقلال التى قادها أبو عبد الله .

(٤٠) وإلى جانب المراجع فى الملاحظتين السابقتين انظر تناسى ، تاريخ ، ابن خلدون ، تاريخ الجزء الثالث ص ٢٢٦ - ٤٩٢ ، الحيات " أبو حمو " الجلالى : تاريخ الجزء الثانى ص ١١٤ - ٢٦٩ وابن خلدون ، بارخيس - تكملة " بارخيس تليمسان ، ماركائس عبد الواحدى والمراجع المذكورة فى ص ٩٦ - ٩٧ وابن شقرون ليميلية ٤٤ - ٧ . كما يجب الأخذ فى الاعتبار أيضاً أعمالاً أخرى لعطا الله دينا عن هذه الأسرة .

(٤١) ووفقاً لبعض المؤلفين فهو اسم بربرى مكون من كلمتين تليم التى تعنى اجتماع وسان التى تعنى اثنائالتى تشير إلى الموقع الطبيعى للمدينة بين الصحراء ، والتلال ، والونسارى إيضاح ٤ الملاحظة ٤ .

(٤٢) أضف إلى الأعمال المذكورة ما يلى : ابن الأحمر - روضات - ابن أبى ثار - الأنيس ٢٧٨ - ٤١٤ النص العربى الجزء الثانى ص ٥٣٠ - ٧٤٦ ترجمة ، ابن خلدون تاريخ الجزء الرابع ص ٢٥ - ٤٨٦ ، نصيرى الاستقصاء الأجزاء الثالث والرابع ، الجلالى تاريخ الجزء الثانى ص ٦٩ - ١١٣ ، ابن شقرون لابية (الطريق) ص ٢٠ - ٣٠ باسم ، بريجنون ، تاريخ ص ٨٢ - ١٣٣ (مراجع تتضمن قائمة مراجع مقارنة من ص ١٥٦ - ١٦٣ ز بيجيرا التاريخ ...

(٤٣) ليفى بروفينسال ، التاريخ الجزء الثالث ، ابن ناصر التاريخ ص ١٣٥ .

(٤٤) بريجنون " تاريخ المغرب " ص ١٧٢ .

(٤٥) عن الأسرة النصرى ، الاستقصاء الجزء الرابع ص ٩٩ - ١٦٦ كور الأسرة المالكة ، كور لاستباليشمينت ٤٧ (شجرة النسب) ابن شقرون لامييلية ، ابن شقرون لابية ، ص ٣١ - ٣٣ ، باسم بريجنون ، تاريخ ، الفصل ١٣ ، ١٦٦ - ١٨٢ ، ليفى بروفينسال الوطاسيون ، روسسينبرجر " لاريتشرشى " . أما المصدر الأساسى لهذه الفترة الذى يتناول تاريخ هذه الأسرة لعام ١٥٤٧ هو كراسى عروسات الأرجوزة رقم ٤١٢ وهى عبارة عن أبيات شعرية حيث يتم فيها استعراض جميع عاهلى أو ملوك هذه الأسرة .

(٤٦) يوجد خلاف حول تواريخ أو زمن حكم هذين السُلطانين . اذكر المرجع كور : الأسرة ص ٧٦ - ١١٣ ، ١٥٣ .

(٤٧) كور : الأسرة ١٠٠ - ١٠٥ ، باسم .

(٤٨) بيريكية ، المدينة والجامعة .

(٤٩) لقد كانت هناك بعض المناسبات أو المرات التى أيد فيها الميريونيون المعارضة ضد السُلطان الرسمى . وقد حدث هذا فى البداية عندما طلب بنو أشقيلولا ملاك مائة مساعدة سلطان فاس فى ١٢٧٤ الذى سلموه مائة ١٢٧٨ وقد تحققت لهم مساعدته . وقد وقعوا التحالف الثلاثى معه ومع ملك قشتالة (الميريونيون ، وأشقيلولا والقشتاليون) ضد السلطان النصرى محمد الثانى . ومع ذلك لم يقدمهم بشئ ؛ لأنه فى عام ١٢٨٨ قام آخر حاكم من بنى أشقيلولا بتسليم قادش للنصرى محمد الثانى حيث استقر به المقام فى المغرب .

- (٥٠) أريية " العلاقات " بيجيرا التّدخل .
- (٥١) وعلى سبيل المثال " أرياس " بنو مرين .
- (٥٢) رازوق : التجربة ، ٦٧ - ٦٨ .
- (٥٣) ابن شريفة " من العام " ٣٤ .
- (٥٤) المتونى ، نماذج ١٤٤ .
- (٥٥) أمثلة لكل واحد من هذه المجالات فى المتونى نماذج ، ١٤٥ - ١٥٦ .
- (٥٦) انظر عن هؤلاء الشعراء وآخرين مورال " شعراء " ص ٢٧٠ - ٢٧٥ .
- (٥٧) حول هذا الموضوع ابن شريفة من العام .
- (٥٨) عن هؤلاء الأطباء جميعهم كاستيلز " الطب " ١١٥ ، ١١٩ - ١٢٢ ، ١٢٤ - ١٢٥ ، ١٢٦ - ١٢٧ .
- (٥٩) كوميس " أبروموس " .
- (٦٠) المتونى نماذج ، ١٤٥ - ١٤٦ .
- (٦١) المتونى نماذج ، ١٥٢ ، المتونى المستقى .
- (٦٢) ابن شريفة من العام ، ١٥ .

المراجع

- عبد الكريم ج . " العنصر الشمال أفريقي وإسهاماته فى التاريخ السياسى والثقافى للأندلس " ، فى المؤتمر الإشبانى الأفريقى لثقافات البحر المتوسط ، الأسس التاريخية لعلاقة جوهريّة (١ - ١٩٨٤) غرناطة ، ١٩٨٧ (٢٦٩ - ٢٨٠) .
- ابن نصر خ . م " تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى " ، جامعة كمبردج برس ، ١٩٨٧ .
- أريية " المملكة النُصْريّة فى غرناطة " ، مدريد ، مافرى ١٤٩٢ ، إسبانيا الإسلامية فى عصر النُصْريين ، ١٢٣٢ - ١٤٩٢ ، باريس ، بوكارد ، ١٩٩٠ .
- أريية " علاقات المملكة النُصْريّة فى غرناطة بالمغرب " من ١٣٤٠ إلى ١٣٩٠ .
- جارتيا أرينال علاقات ٢٠ - ٤٠ .
- أريباس بلاو ماريانو " بنو مرين فى المعاهدة الموقعة بين أراجون وغرناطة " فى مؤتمر الدّراسات العربيّة والإسلامية (١ ، ١٩٦٢ ، قرطبة) مدريد ١٩٦٤ ص ١٧٩ - ١٨٨ .
- بارخيس خ . خ . ل ، تكملة تاريخ بنى زيّان ملوك تريمسين ، دوبرات ، ١٨٥٩ .
- ابن عبود محمد ، البنية الاجتماعية فى الأندلس إبّان عصر الطّوائف : مسألة القبليّة فى الحوار الإشبانى المغربى (٢٦٣ - ٢٧١) .
- ابن شقرون م . ب . أ ، العناصر الثقافية (دراسة اجتماعية وثقافية وفنية لعصر الميرينيين والوطّاسيين ، الرّباط ، ١٩٧٠ .

- ابن شريفة م . من العام فى الحوار الإشباني المغربى ١٥ - ٤١ القسم العربى .
ابن شقرون (الطريق الفكرى المغربى فى عصر الميرينيين والوطاسيين خلال القرون
من الثالث عشر حتى السادس عشر) الرباط ، ١٩٧٤ .
- بيركية جاكيس ، المدينة والجامعة " تاريخ مدرسة فاس " ، مراجعة تاريخية
لدوريت ، السلسلة الرابعة عام ٢٧ (١٩٤٩) ٦٤ - ١١٧ .
- بوش خايننتو " المرباطون " دراسة تمهيدية أعدها إميلو مولينا لوبيث ،
غرناطة جامعة ، ١٩٩٠ (١٩٥٦) .
- بوش . خ . " الأندلس الإسلامية العرب والبربر " ملاحظات وأفكار على
موضوع قديم ، الأندلس الإسلامية نصوص ودراسات ١ (١٩٨٠) ص ٩ - ٤٢ .
- بوش خايننتو " البربر فى الأندلس " البربر فى الأندلس فى المؤتمر الإشباني
المغربى لثقافات البحر المتوسط ، الأسس التاريخية لعلاقة جوهريّة (١ ، ١٩٨٤)
غرناطة ، ١٩٨٧ ، ٢٦١ - ١٦٨ .
- بوش . خ . " العنصر البشرى الشمال أفريقى فى تاريخ إسبانيا الإسلامية "
مذكرات المكتبة الإشبانية فى طيطوان ، (١٩٦٤) .
- بوش . خ . ، إمبراطوريات الصحراء فى خ . بيرنيت وآخرين . " الإسلام
من القرن الحادى عشر إلى الثالث عشر " مذكرات التاريخ ١٦ رقم ٢٣
ص ١٨ - ٢٥ .
- بوتسيس إبراهيم القادري " الموحدون وسياسة التسامح مع النصارى فى
الأندلس " الجزء الثانى ، ١٤١٤ - ١٩٩٤ ، ص ٣٢ - ٣٤ القسم العربى .
- بريجنون . خواخرون ، تاريخ المغرب ، باريس ، هاييتير ١٩٦٧ .
- كاستيلزمار جارثيا " الطب فى الأندلس والمغرب " القرون من السابع إلى
التاسع الهجرى ومن الثالث عشر للخامس عشر الميلادى ، فى الحوار الإشباني المغربى
١١٥ - ١٢٧ .

- شالميتا بيدرو الغزو ٧١١ - ٧١٣ وتكوين الأندلس ، الحوار الإسباني المغربي ، ١٦١ - ١٦٨ .
- الحوار الأسباني المغربي للعلوم التاريخية " تاريخ وعلوم ومجتمع " (الثاني ، ١٩٨٩ غرناطة) مدريد ايكما ١٩٩٢ .
- كوميس مرسية ، تأثير السرقوه فى شمال أفريقيا ، الحوار الإسباني المغربي ١٤٧ - ١٥٩ .
- كور أوجست " أشر الوطاسيين " (١٤٢٠ - ١٥٥٤) قسطنطينية ، ١٩٢٠ .
- تأسيس أسرة أشرف المغرب (١٥٠٩ - ١٨٣٠) باريس ، لوركيس ، ١٩٠٤ .
- دندش . أ . أنوار سياسية فى دولة المرابطين ، الحوار الإسباني المغربي ٤٩ - ٦٥ (القسم العربى) .
- دندش عصمت ، الأندلس فى نهاية المرابطينومستهل الموحدين (٥١٠ - ٥٤٦ / ١١١٦ - ١١٥١) التاريخ السّياسى والحضارة ، بيروت ، دار الغرب الإسلامى ، ١٩٨٨ .
- ديفوركو شارليز إيمانويل ، العلاقات بين شبه الجزيرة الأيبيرية وشمال أفريقيا خلال القرن الرابع عشر الميلادى ، حوليات الدّراسات فى العصور الوسطى ، الجزء السابع (١٩٧٠ - ١٩٧١) ص ٤١ - ٦٥ .
- فيليبى هلينا " أسر العلماء من أصل بربرى فى الأندلس " الحوار الإسباني المغربي ، ١٦٩ - ١٨١ .
- جارثيا أرينال مرسيدس وبيجيرا م . خيسوس (طبعة العلاقات بين شبه الجزيرة الأيبيرية والمغرب من القرن الثالث عشر وحتى الخامس عشر) جلسات الحوار ، مدريد ، المجلس الأعلى للبحث العلمى وايكما (معهد التعاون مع العالم العربى) ، ١٩٨٨ .
- جاوتيرير أى . ف . شمال أفريقيا إبّان العصور المظلمة ، باريس ، بايوت ، ١٩٥٢ .

- التاريخ العظيم لألفونسو العاشر ، طبعة دييجو كتالان ، مدريد ، جريدوس ، ١٩٧٧
- هاجر سها عبود وآخرون " المرابطون في الأندلس " تاريخ ١٦ - ٢١٣ يناير (١٩٩٤) ٤١ - ٧٤ .
- حياة عبد الحميد " أبو حمد موسى الزياني " ، الجزائر ، الشارقة ١٣٩٤ هـ . ١٩٧٤ م .
- حاجي . م . " المصادر العربية لتاريخ المغرب والأندلس في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين " ، في جارتيا أرينال علاقات ، ٢٧٣ - ٣٨٨ .
- ابن أبي زار الفاسي (القرن الرابع عشر) دار المنصور ١٩٧٢ ترجمة ، أ . هيويتشي ميراندا بالينثيا ١٩٦٤ .
- ابن الأحمر ، (١٤٠٤) روضة النُسرين في تاريخ بنى مرين ، تقديم وترجمة ميجيل أنخيل مانتانو ، مدريد ، المجلس الأعلى للبحث العلمي ، ١٩٨٩ .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن (١٣٣٢ - ١٣٨٢) تاريخ البربر في الأسر الإسلامية بشمال أفريقيا ، ترجمة البارون دي سلاي ، باريس ، بول كازانويا ١٩٢٥ - ١٦٥٦ .
- ابن خلدون ، يحيى (١٣٧٨) بنو عبد الواحد وتاريخهم ، ترجمة : ألفريد بيل ، الجزائر ، الطبعة الشرقية ، ١٩٠٣ - ١٩١٣ .
- ابن مرزوق (١٣١٠ - ١٣٧٩) المسند ، أحداث أبي الحسن سلطان المرينيين ، دراسة وترجمة للإسبانية ماريا خيسوس بيجيرا ، مدريد ، احاق ، ١٩٧٧ .
- إدريس هادي روجرز " الحفصيون " " إف " الجزء الثالث ، ٦٨ - ٧٢ ، الخامس .
- إدريس هادي روجرز " مغرب المرابطين تحت السيطرة التركية " أبريل ١٩٧٩ ١٦- ١ .

- جولين تشى - أندرية ، تاريخ شمال أفريقيا الجزائر وتونس والمغرب منذ الفتح العربى وحتى ١٨٣٠ ، باريس ، بايون ، ١٩٦١ .
- كراسى محمد عروسات المسائل فى حكم بنى وطّاس ، طبعة عبد الوهاب ، المنصور الرباط ، ١٣٨٣ / ١٩٦٣ .
- لا جاردبير بينست " المرابطون فى عهد يوسف بن تاشفين " ١٠٣٩ - ١١٠٦ ، باريس ، لارماتان ، ١٩٨٩ .
- لا جاردبير " القضاء فى عصر المرابطين " القنطرة ، العدد ٧ (١٩٨٦) ص ١٣٥ - ٢٢٨ .
- ليفى بروفينسال " الأدب التاريخى فى المغرب من القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين " ، باريس ، لاروس ١٩٢٢ .
- ليفى بروفينسال " تاريخ إسبانيا الإسلامية حتى سقوط خلافة قرطبة " (٧١١ - ١٠٣١) مدريد ، اسباسا كالبى ، ١٩٨٢ .
- ليفى بروفينسال " الوطّاسيون " فى مجلة إل العدد الرابع ، ١١٩٤ - ١١٩٦ .
- المنونى محمد ، الموسيقى الأندلسية بالمغرب ، البحث العلمى ، ١٤ - ١٥ ص ١٤٧ - ١٧٧ .
- المنونى محمد ، نماذج من التّكامل التّقافى بين المغرب والأندلس فى عصر غرناطة الحوار الإشبانى العربى ١٤٣ - ١٥٧ (القسم العربى) .
- ماركاييس جورجيس ، عبد الواحد فى مجلة إل العدد الأول . ص ٩٥ - ٩٧ .
- ماركاييس . ج . البربر المسلمون ، باريس ، أوبيير ١٩٤٦ .
- مورال مولينا تيلياديل " شعراء غرناطيون فى شمال أفريقيا " فى الحوار الإشبانى المغربى ص ٢٦١ - ٢٧٧ .
- ناصرى أ . (المتوفى عام ١٨٩٧ الاستقصاء فى دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، دار الكتب ١٩٥٤ - ١٩٥٦ .

- باستور مونيوثويدال كاستروفرانثيسكو ، المرابطون " اقتراب من تاريخهم في حملة المهد للمرابطين والمدن المفقودة في موريتانيا " ، غرناطة ، سييرانيفا ، ٩٥ ، في الصحافة .
- رازوق محمد " التجربة الأندلسية في المغرب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر " في الحوار الإسباني المغربي ، ٦٧ - ٧٤ (القسم العربي) .
- مراجع عن العلاقات بين شبه الجزيرة الأيبيرية وشمال أفريقيا خلال القرنين الخامس والسادس عشر ، طبعة جارشيا أرينال م . أجيلار ، مدريد ، ١٩٨٩ .
- روسينبرجر بيرنارد " المغرب الحديثة " دراسة إسلامية ، ٦٨ (١٩٨٨) ص ١٤٧ - ١٦٩ .
- سيّرانو ديلفيننا " فتوتان عن طرد المستعربين عام ١١٢٦ ، رف الدراسات العربية ، العدد الثاني (١٩٩١) ١٦٣ - ١٨٢ .
- ساتز ميلر مايا " تاريخ الميرينيين لابن خلدون " ، أبريل ، ١٩٨٢ .
- ساتز ميلر مايا " تراث البربر بالأندلس في القرن الرابع عشر " وكذلك في جارشيا أرينال علاقات (٢٠٥ - ٢٣٦) .
- تناسي محمد (المتوفى ١٤٩٣) تاريخ بنى زيّان ، ترجمة خ . خ . بارخيس ، باريس ، دويرات ، ١٨٥٢ .
- بالبية خواكين " التدخل الأموي في شمال أفريقيا " ، دفاتر المكتبة الإسبانية في طيطوان ، ٤ (١٩٦٧) ٧ - ٣٩ .
- بالبية . خ . الهجرة الأندلسية في المغرب خلال القرن الثالث عشر ، في جارشيا أرينال : علاقات ٨٧ - ١٢٩ .
- بالبية . خ . ، العلاقات بين الأندلس وشمال أفريقيا عبر مضيق جبل طارق من القرن الثامن حتى الخامس عشر " المؤتمر الدولي ، مضيق جبل طارق (العدد الأول ١٩٨٧ سبته) مدريد ١٩٨٧ العدد الثاني ، ص ٩ - ٣٦ .

- بيجيرا ماريًا خيسوس ، تاريخ زاكور (ترجمة ، مدريد ، الجمعية الوطنية لأمناء المكتبات والأرشيفات والأثريين ، ١٩٧٤) ص ٥١٥ - ٥٣٩ .
- بيجيرا ماريًا خيسوس ، رسائل الغزالي والطرطوسي إلى العاهل يوسف بن تاشفين ، الأندلس ، العدد ٤٢ ، ١٩٧٧ ، ص ٣٤١ - ٣٧٧ .
- بيجيرا ماريًا خيسوس ، تدخل بنى مرين فى الأندلس وفى جارشيا أرينال : علاقات ص ٢٣٧ - ٢٤٧ .
- بيجيرا ماريًا خيسوس ، العلاقات بين المغرب والأندلس فى القرن الحادى عشر ، الحوار الإشباني المغربى ، ٣٥٧ - ٣٦٩ .
- وانشرىس أحمد ، المتوفى عام ١٥٠٨ ، أضحل المسالك إلى قواعد الإمام مالك ، طبعة أحمد ابن طاهر الخطابى ، الرباط ، صندوق إحياء التُّراث الإسلامى ١٩٨٠/١٤٠٠ .
- الجلالى " تاريخ الجزائر العام " الجزائر ، ١٩٥٥ .
- زانبيار محمد ، تأثير الثقافة الأندلسية بالمغرب وأطروحة فى التطور العلمى بين البلدين ، فى الحوار الإشباني المغربى ص ٧٥ - ١٠٨ ، القسم العربى .

الفصل الثامن

الاقتراب من بعض المظاهر الاجتماعية للأسواق الأندلسية

إعداد : مارجرىتا لوبيث جوميث

ثقافة السوق :

توجد عوامل وعناصر متعددة لفهم ما يمكن أن يُسمى سوقاً ومن بينها العوامل الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والتنظيمية والإدارية والعمرانية والعرقية والإنتاجية والاجتماعية... الخ .

وثقافة السوق فضلاً عن سخونتها الاقتصادية والتجارية بوسعها أن تقدم لنا معلومات مكثفة عن :

- ١ - الثوابت الخاصة عند التعرف على البنية الداخلية للسوق .
- ٢ - الأطوار الموسمية والتي تشير لنا دوريات السوق لتحديد مواعيده الموسمية .
- ٣ - بعض المعلومات عن الأماكن التي كانت تُقام بها الأسواق .
- ٤ - التزعات الفنية اليدوية لعصر معين (التعرف على حرف معينة في أسواق المدن) .
- ٥ - أنواق العصر التي يُحددها الإقبال الكبير على المنتجات الطبيعية والفنية اليدوية ونوع التجار .

٦ - مختلف العناصر البشرية الموجودة بالسوق ، وكذلك مختلف الطبقات الاجتماعية التي تتحدد فى إطار السوق .

و مما لا شك فيه أن هذه الفترة الواقعة بين أوائل العصر الوسيط أو العصور الوسطى وأواخره احتوت على كثير من المصاعب عاقت التعرف جيداً على الأندلس حتى بدء ما يسميه المؤرخون بالعصر الحديث ، وخاصة فيما يتعلق بالأشخاص الذين عاشوا هناك ومارسوا أنشطة أو حرفاً قليلة الشأن فى الظاهر مثل البيع فى أحد الأسواق .

ولم يستطع المؤرخون الإسبان المسلمون رغم دقة كتاباتهم إيضاح هذا الأمر .

عناصر البحث :

ومن بين العناصر التى تخدمنا فى التحليل لأحد الأسواق نجد أن العنصر البشرى مجهول تماماً بالنسبة لنا ، ولكى نتعرف على وجوده نجد أنه من الضرورى التزود بالمعلومات من هنا وهناك ، وهذه المعلومات المبعثرة تكمن فى التعليقات التاريخية ، رسائل حسبة ، وثائق العدل وموثقى العقود ، الأوصاف الأثرية ، الأدب الأندلسى ، كتب الرحالة والجغرافيين ، دواوين الخطب (وبها حصص الغزاة من الأراضى المفتوحة) ، كتب الأوقاف ، اقتفاء المهن والحرف الإسلامية الأندلسية ، أدب العصر الذهبى (القرن السادس عشر) القواميس والمعاجم الحديثة للمراجع والدراسات لمقارنة التعرف على المهن والحرف والتجار والفنانين اليدويين عصور أخرى ودول أخرى بالعالم الإسلامى وتلك التى مازالت باقية فى المغرب وخاصة فى مراكش .

وما سنحصل عليه لن يزيد عن كونه معلومات يجب تجميعها وترتيبها مع وضع افتراض للبحث دون أن نستعين بالكثير من التساؤلات التى ستطرأ أمامنا مهما كانت صيغانية فى الظاهر .

كيف كان التجار الأندلسيون ؟ وما المهن أو الحرف التى كانت شائعة آنذاك ؟ وما سبب شيوعها ؟ وهذا التساؤل الأخير يمكن تحديده بإشارات إلى توريث المهن

أو الحرف ، عدم وجود كفاءات أو قرص أخرى للعمل ، إلى كثرة الربح ، إلى كثرة الطلب على منتجات معينة ، ... إلخ.

والموازنة في المنتجات المطلوبة يمكن أن تقرينا من نظرة شمولية اجتماعية واقتصادية وكذلك سياسية في المجتمع الأندلسي ، وهذا العنصر أو العامل سيطراً عليه تغيير بمرور الزمن ؛ حيث إن الفترة التي نحن بصدها حوالى ثمانية قرون تقريباً ، وقد شابتها الكثير من الأزمات السياسية والاجتماعية والدينية ، وقد نجمت هذه الأزمات نتيجة عوامل داخلية وأخرى خارجية (تقدم عمليات الاسترداد المسيحي للأراضي الأندلسية وصعوبة استيراد المواد الخام من بلدان إسلامية أخرى بسبب عدم تأمين الملاحة بالبحر المتوسط) .

وحيثما نتحدث عن التجار فإننا نشير بذلك إلى كبار تجار الأقمشة والمنسوجات والمطرزات والبهارات والصاغة من تجار المجوهرات الذين تصاهروا مع طبقة النبلاء بالأندلس وكذلك الباعة والفنانين اليدويين بسوق المدينة من أعلامهم إلى أدناهم (أى من كبار التجار إلى السوق) ولكن المقصود دائماً هو تجار المدينة .

اقتراب من العنصر البشرى :

تجمعهم حرفة التجارة كما يقول ابن عبدون (القرن الثانى عشر الميلادى) فإن هؤلاء التجار فى أشبيلية تركوا أثراً واضحاً فى أسماء الأماكن بالمدينة مثل الشوارع والأسواق الصغيرة (السويقات) وفقاً لحرفهم ومهنتهم .

تجار البهارات والعطور (العطارين) : فى قرطبة ولوركا ومايوركا وأشبيلية وطليلة وغرناطة ومالقة ...

تجار الأقمشة (البزازين) قرطبة .

تجار المنسوجات والترزية (الخياطين) قرطبة وأشبيلية .

تجار الحرير غرناطة .

تجّار الروباييكيا (السقّاطين) غرناطة .

تجّار الأحذية (الكراكين) غرناطة وقرطبة وأشبيلية .

الحلّاقون غرناطة .

القصابون (الجزّارون) غرناطة وأشبيلية وطليلة وقرطبة .

تجار الخزف وصانعوه (الفخّارين) غرناطة .

الدباغون طليلة .

وهناك علاقة وطيدة بين المهن وأصحاب الحرف اليدوية ؛ ففي أشبيلية إبّان القرن الثّاني عشر وفقاً لابن عبدون في رسالته أو مؤلفه الحسبة حيث صنّف التّجار وفقاً لأنشطتهم وخدماتهم .

البناء : البناءون وتجار الجص وتجار الجير والطوب وفيما يتعلق بالملابس والمنسوجات والأصباغ والروباييكيا والخياطين والصباغين وتجار الجلود . وفيما يتعلق بالحداء أو الأحذية الكوركيروس (صانعو الصنادل التي نعالها من المطاط وتجار وصناع الأحذية) .

وفيما يخص بتوريد الأغذية وإمداد النّاس بها : تجار ويائعو الألبان والبيض والخبازون ويائعو الجبن والسماكون والصيداؤون وتجار وصناع السجق أو النقانق وتجار الخل والطباخون ويائعو الهريسة ويائعو الزبيب والتين والملح والزعفران والكعك المقلّى .

وبالنسبة للأعمال الخشبية : النّجارون والنشّارون ، وفيما يخص الأعمال الصحية الحجامون أو القصادون والأطباء والصيدالة والمبخّرون وبشأن تصنيع أدوات متواضعة الاستخدام مثل صناع القفف والأحبال والمناخل والقذور أو الغلايات .

مهن متنوعة : الحدّائون ، الفخّامون ، الحمّالون ، تجّار البذور والزّجاج وتجار الألباد والفتائل وصنّاع المناخل والصيّادون والأجراء وصنّاع الرّق من الجلود وكذلك معلمو المدارس .

بعض الاستنتاجات الاجتماعية :

من الوظائف التي أشرنا إليها آنفاً يجدر التنبيه على الآتى :

- إنَّ معظم هذه الحرف أو المهن المتواضعة تنتمى إلى أصحاب المحلات والحرفيين اليدويين (السُّوق وأرباب الصنایع) .
- إنَّ بعض الحرف تحتاج إلى معلم لكى يتتلمذ على يديه الصبية ، والبعض الآخر مجرد باعة لمنتجات أولية (مواد خام) والبعض الآخر مجرد عمال .

وفى تنوع الخدمات نلاحظ الآتى :

إنَّ عروض المواد الغذائية سواء الطبيعية أو المجهزة كانت هائلة ، مما يؤكد أنَّ السُّوق لم يكن فقط للبيع والشراء ، بل كان أيضاً مكاناً للتسامر والاجتماع على مائدة الطعام .

وقد جَمَعَ بيدرو تشالميتا فى مؤلفه المتكامل عن السُّوق هذه الافتراضات ، حيث ميز الفارق بين المجتمع الريفى والحضرى .

وفى إطار هذا المظهر من الاحتياجات الحضرية وقد تمثلت إحداها وأهمها فى الصناعات التحويلية ؛ ففى المجتمع الريفى نجد أنَّ النساء والرُّجال كانوا يتناولون طعاماً جماعياً أمّا فى المجتمع الحضرى فلا . ويوجد مجتمع الحريم المنطوق على نفسه فى حجرة الحريم كان قليل الخروج والمشاركة ، وهناك فى المقابل مجتمع آخر منفتح يعيش فى الأسواق ولا يكاد يعود إلى المنزل إلا للنوم وهو مجتمع الذكور أو الرُّجال ، وهذا المجتمع كان بحاجة ماسة للغذاء . (بيدرو تشالميتا - رجل السُّوق فى إسبانيا أثناء العصور الوسطى والحديثة - ١٩٧٣ ، ص ١٧٥ - ١٧٦) .

وبعد ذلك أشار إلينا ب ن . اليسيف الذى فى مؤلفه مجتمع النساء (أرابيكا ، ١٩٥٦ - الجزء الثالث) إلى أنَّ الطبقة الشَّعبية أو عامة الشَّعب فى سوريا العصور الوسطى كانت لا تُعِدُّ الطعام وتكتفى بشراء الجاهز منه فى الأسواق .

وعودة إلى النموذج أو العينة المشار إليها نجد أن الأبحاث الحديثة لمؤلفين قد أعدوا دراسات مستفيضة عن هذا الموضوع قد أشاروا إلى أن المعلومات التي ساقها ابن عبدون عن ناس السوق في أشبيلية في عصر المرابطين (القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين) يمكن أن تشمل العصور التالية مع بعض التغييرات .

وفي عصر الموحدين (القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين) فإن حرف السقطى تشبه إلى حد كبير الحرفة السابقة ، ولكن بإدخال بعض التطور عليها ، كما كان هناك أيضاً العرافون والسحرة وأمانة الإماء .

و هذه الحرف والمهن الجديدة ستكرر في عهد النُصريين (القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) ، وقد ازدادت بحرفة المهرجين وتجار القروء في الأسواق .

والكتاب المسمى بالأوقاف (كتاب مقييس المنازل والمساجد ومحلات الكنائس في غرناطة وأوقافها وتجهيزها من قبل الملوك الكاثوليك) يُعطينا فكرة عن محلات أخرى وعقارات كائنة بين السقاطين وشارع البيرا التي انضمت إلى الأوقاف الكنسية في غرناطة في أثناء الحقب الثلاث التي استغرقتها عملية استرداد إسبانيا من المسلمين على أيدي المسيحيين .

وفي إحصائية أشارت إلى مجموعة من الحرف والمهن التي كانت كلاسيكية في عصر النُصريين بغرناطة ، وربما كانت هذه الحرف أو المهن مهمة بسبب أنشطتها في هذا العصر المسيحى مثل القصابين (الجزارين) وتجار البهارات والتوابل وخياطة الملاحف ، وذلك لأن الطلب لاستمرار هذه الوظائف أو الحرف كان كبيراً من قبل المجتمع الإسلامى في غرناطة الذى كان لم يتفرق ويتبدد بعد .

مهن الرقاهية :

ومن بين مهن تجار الصفوة وجِد الصاغة أو الجواهرجية في الأندلس وكذلك بائعو المنسوجات والحرفيون اليدويون لصناعة الحرير الموجودون في مدينة القيصرية أو السوق المغلق لسلع الرقاهية .

والمصوغات عمل يدوى يحتاج إلى تعليم راقى وذوق رفيع لتكوين الأحجار الكريمة والمعادن النفيسة وكذلك لإعداد المصوغات العاجية الممتازة .

و بما أن العمل فى المصوغات والجواهر عمل مرفه فإن من اشتغل فى هذا المجال هم أفراد ينتمون إلى الطبقة المتوسطة ، وقد بلغ الأمر أن أصبحت هذه المهنة هى حرفة كثير من الأندلسيين المرموقين الذين تعرضوا لنوائب الزمن مثل نجل المعتمد بن عبّاد (القرن الحادى عشر الميلادى) الذى بعد الإطاحة بوالده والطرده إلى المغرب (مراكش) عمل صائغاً .

و يدون هـ . بيريس فى عمله " الشعر الأندلسى باللغة العربية الفصحى " فى القرن الحادى عشر الميلادى النصوص التى تحتوى على شهادات ووثائق التّقنيات التى استخدمها الصّاعّة الأندلسيون الذين طلوا الفضة بالذهب أو الذين استخدموا الهيماتيت (حجر الدم وهو معدن) لتلميع وصقل الجواهر .

و كانت أفضل ورش صناعة المجوهرات فى قرطبة وأشبيلية ، ويتحدث ابن الخطيب فى القرن الرابع عشر فى عمله " إشراق بدر البدر على الأسرة النّصرية " عن حب السيّدات الغرناطيات للجواهر والطلّب المتزايد على هذه السلّع النفيسة .

و من بين المزخارف التى كانت الأميرات والسيّدات الغرناطيات تطالبن به الأحزمة وشرايط الزّينة وأغطية الشّعر وأريطة الجوارب ، وكانت تُصنع من الذهب والفضة المصنوعة بنق رفيع ودقة رائعة ، ومن المؤسف أننا وجدنا الغرناطيات يقرطن إفراطاً باهظاً فى زيّهن وملابسهن حتى بلغ ذلك حد الهذيان .

(ابن الخطيب " اللّمة الدرية فى الدولة النّصرية " ترجمة لافوينتى الكانتارا ، تاريخ غرناطة ، الجزء الثالث ص ١١٣) .

و فيما يتعلق بتجار المنسوجات والأقمشة والمطرزات فإنهم تمتعوا بسمعة اجتماعية كبيرة ، ومما لا شك فيه أن أناقة الأندلسيين الذين اعتنوا تماماً بملابسهم ومظهرهم ، ومن هنا فإنّ علاقات المهن بالسوق نجد أنّ معظمها مرتبط بالأقمشة والملابس .

وقد كانت المنسوجات تُستورد من إيران (بلاد فارس) وتونس ، ولكن أغلبيتها كانت تُنسج في ألبانيا بنفس التقنيات الأصفهانية (بلاد الفرس) والبغدادية (العراق) الانطاكية (سوريا) ، وكانت هناك منسوجات تحتوى على خيوط من الذهب ومطرزة بجريش اللؤلؤ وقد صُنعت في الأندلس .

ويدون بيريس في عمله المشار إليه أنفاً تصنيفاً لحلل النساء والرجال في الأندلس إبّان القرن الحادى عشر الميلادى (ويعتقد أن هذا التصنيف كان متعلقاً ببيع الطبقات الاجتماعية الأرستقراطية ، وكانت السيدات يرتدين القميص والجاكيت والمعطف والعباءة والجلباب والإزار (نوع من الملابس كان يُخصّص لتغطية الجزء السفلى من الجسم) والمشملة لتغطية الجسد كله وكذلك البلوزة والسرّوال والدكة (حزام لضبط البنطلون أو السرّوال والخمار والنقاب) .

وكان الرجال يرتدون الجلّباب الخفيف والدثار (الملابس الداخلية) والقميص والسرّوال أو البنطلون ، البرنس ، وبدلة السهرة ، وكان البرنس بمثابة معطف مزود بغطاء للرأس (هـ . بيريس " رخاء الأندلس " ترجمه إلى الإسبانية ل : م . جارثيا أرينال ص ٣٢) .

وكان أهم تجّار الحرير في أثناء عصر الخلافة هم القرطبيون ، أمّا غرناطة النصرية فقد بلغت صناعة الحرير الغرناطى شأواً عظيماً ، وقد كان لاستغلال تجارة الحرير الأثر الكبير في اقتصاد مملكة غرناطة ، والطلب المتزايد على هذه المنتجات الفاخرة أدّى إلى زيادة المهنيين في هذه الحرف ، كما أنّ مكاسب كبار التجّار قد ازدادت أيضاً .

رأى ابن خلدون في هذا الموضوع :

إنّه في غاية الأهمية ذكر رأى ابن خلدون في هذا الصدد (القرن الرابع عشر الميلادى) وخاصة فيما يتعلق بأسعار السلع والبضائع في المدن الآهلة بالسكان في العالم الإسلامى ومن بينها العديد من المدن الأندلسية ، وأهمية ملاحظات عالم

الاجتماع التونسي الأصل تكمن فى كونه معاصراً لغرناطة النُصيرية فى مجدها وأوج ازدهارها ، وبالتالي فإنَّ كلماته بشأن غرناطة صائبة تماماً .

وابن خلدون ينتقد فى الفقرة الثَّالِية الحرفيين اليدويين إلى جانب قيامه بتحليل اجتماعى عن استهلاك هذه السلَّع الغنية الراقية .

وَمَعَ ذلك ففى مدينة ذات تطور اجتماعى ملحوظ واحتياجات متزايدة من السلَّع الفاخرة الرَّاقية نجد أنَّه كانت هناك أسباب كافية لتزايد الإقبال على طلب هذه المنتجات ، وكان كل فرد يشتري هذه السلَّع حسب إمكانياته المادية .

أمَّا فيما يتعلق بالفنون فإنَّ ارتفاع أسعار منتجاتها فى المدن الأهلة بالسكان يرجع إلى أسباب ثلاثة :

١ - تزايد الطلب والإقبال على هذه المنتجات نتيجة للرَّفاهية التى سادت هذا المجتمع وهذا أمر مرتبط تماماً بالتطور الاجتماعى .

٢ - كثرة مطالب العمال فى هذا المجال على الرِّغم من عدم رغبتهم فى العمل المُضنى وإرهاق أنفسهم ؛ لأنَّهم كانوا يستطيعون العيش الرِّغد بأقل كسب نظراً لكثرة المواد الغذائية ووفرته ورخص أسعارها .

٣ - كثرة عدد المرفَّهين والأثرياء الذين وجدوا أنَّه من الضرورى أن يعمل آخرون لخدمتهم ؛ ولذلك تعاقدوا مع الكثيرين من كافة الحرف والمهن .

ولهذه الأسباب نجد أنَّ الحرفيين اليدويين كانوا يتقاضون مرتبات كبيرة تفوق بكثير ما يقدمونه من أشغال وأعمال ، وكان هناك صراع بين هذه الطَّبقة من الحرفيين لاحتكار المنافسة بالأسواق بغية الحصول على هذه السلَّع الفاخرة وبيعها ، وبالتالي أصبح العمال والحرفيون اليدويون مغالين فى مطالبهم وقد رفعوا قيمة خدماتهم ، وقد أدى هذا إلى إنفاق معظم الموارد التى كان يمتلكها سكان المدينة " (مقدمة ابن خلدون ترجمة .أى - طرابلس ص ٦٤٤ - ٦٤٥) .

و يضيف ابن خلدون قائلاً : إنَّ هناك علاقة حميمة بين المدن الكبيرة وهذه السلَّع الغنية الفاخرة ؛ لأنَّه فى المدن الصغرى لا يتم بيع مثل هذه المنتجات .

وفيما يتعلق بالسَّلع الفاخرة أو سلع الرِّفاهية فإنَّ الإقبال عليها ضئيل نظراً لقلّة عدد سكانها فضلاً عن ضآلة مواردهم وبخولهم ، ولهذا فإنَّ مثل هذه السَّلع لا يوجد تكالِبٌ عليها ، ولهذا كانت أسعارها زهيدة .

السَّحر وشعبية السُّوق :

وكان من بين المهن الكائنة بالأسواق الأندلسية ، والتي استمرت طوال عدة قرون مهنة السَّاحر والسَّقَطى (تاجر الروباييكيا) وكذلك العُرافون والمنجِّمون ، وكان معظم هؤلاء قادمين من مصر ، وكان من بين فنونهم ممارسة السَّحر ، ويؤكِّد ابن خلدون أنَّ السَّحر وخفة اليد وعلم الأحجية والتَّعاويذ والتَّمنائم كانت موجودة فى عصر الأشروريين والكلدانيين فى بابل بالعراق وبين الأقباط فى مصر الذين توافرت لديهم معلومات غزيرة عن هذا الموضوع .

وقد كانت لهذه المهن والحرف أهمية بالغة وقيمة كبيرة فى كل من قرطبة وأشبيلية والميريا ، وكذلك فى حفلات الأعيان والأمراء الأندلسيين .

وقد كان لحرفة السحر تلاميذ موهوبين ومتفوقون ، وقد وقع على كاهلهم بعد ذلك تعليم من أراد احتراف هذه المهنة ، وقد وجدنا الأمثلة كثيرة فى أدب عصر النهضة وكذلك القرن الذهبى فى إسبانيا على بعد خطوات تاريخية قليلة من غرناطة النُّصرية، وعلى سبيل المثال فإنَّ الكوميديا المأساوية المُسمَّاة بسلسيتنا وبطليها كالسيتو ومليييا هى عمل أُلِّفَ فى أواخر القرن الخامس عشر ، وكانت سلسيتنا تقوم بدور القوادة السَّاحرة التى كانت خدماتها مطلوبة بإلحاح فى ذلك الوقت .

لقد كان لها ست مهن هى : " فلاحه وتاجرة عطور وحلاقة وقوادة وقليل من السَّحر ، كما أنَّها كانت تُرَقَّعُ غِشاء البكارة للنِّسائ اللائى أخطئن ، وكانت أهم مهنتها التستتر على الآخرين أى القوادة " (ف . روخاس لاسليستيا ، بورجوس ، ١٤٩٩ ، طبعة نادى القراء ، ١٩٦٦ ، ص ١٢٤) .

وممارسة مهنة السحر فى الأسواق تحتاج إلى مكان واسع أو ميدان لكى يستطيع المشاهدون الالتفاف حول ساحرهم عند ممارسته لألعابه السحرية ، وربما يكون ميدان بيبالبوينت فى غرناطة ، وهو الميدان الذى شهّد تمرد المسلمين خير شاهد على هذه التجمعات الشعبية أو سوق دوبر فى طليطلة .

ومما لا شك فيه أن السوق كان خير مكان لمشاهدة أكثر الأحداث جاذبية فى كل عصر ، وهناك الكثير من الإشارات بشأن التجمعات التى حدثت فى الأسواق وتسببت فى حدوث تمردات كبيرة مثل واقعة استشهاده المستعربين فى قرطبة خلال القرن التاسع الميلادى والتى تزعمها ألبارو وأوخينيو وقد وقع الحادث فى السوق القرطبى ، سوق القطاعى أو التجزئة عندما جاء إلى السوق أحد القساوسة الفارين من الجبل بغية الشراء ، وقد تعرّف عليه أحد زملائه وأبلغ عنه .

ونظراً لكون السوق مركزاً لتجمع الناس فقد كان المكان الأنسب لعرض المتهمين المحكوم عليهم بالإعدام ؛ حيث يتم الإفصاح والتنديد بجريمتهم أو بما ارتكبه من أثم وكذلك لافتضاح أمرهم على رؤوس الأشهاد لكى يتعظ أبناء الشعب ، ويكون ذلك رادعاً لهم ، وفى حوليات قصر الخليفة القرطبى الحكم الثانى الذى أعدّها عيسى بن أحمد الرأزى (مقبس ابن حيان أشار إلى الإهانة الشعبية التى تعرض لها أحمد بن عمر الملقب بالواهب وهو لص تمرّس فى سرقة أهل قرطبة ، وقد عُرِضَ اللص الملقب بالواهب فى سوق قرطبة تنبية لأمر الخليفة الحكم الثانى ، وقد اصططحبه المنادى على مدى يومين بالسوق القرطبى لكى يراه الحرفيون اليدويون ومختلف الطبقات الأخرى بالسوق من التجار ، ثم أعقب ذلك وصول الأمر بسجنه) المصدر سالف الذكر ، ترجمة إيميلو جارشيا جوميث ، ١٩٦٧ ، ص ٤٤ .

التّوارث الأسرى للمهن والحرف :

وجدير بالذكر أن الافتخار داخل المجتمع الأندلسى بالأصل والطبقة الاجتماعية ، وخاصة بين العرب كان سمة سائدة بين الناس فى الأندلس ، وكذلك

كانت هناك فوارق بين الطبقة العليا (خاصة الناس) والناس من أصل متواضع الطبقة الدنيا (عامة الناس) ، ولهذا فإن المهنة الوضيعة كان يعمل بها أفراد الطبقة الدنيا .

وبمرور الزمن وتتابع الأجيال فإن كثيراً ممن ينتمون إلى الطبقة الدنيا أو عامة الناس استطاعوا التدرج فى المناصب فكان من بينهم العالم والوزير .

وكانت عادة العرب إعطاء لقب أو كنية لكل شخص لكى ينبئ عن انتسابه إلى قبيلة أو عشيرة أو إلى مكان معين أو إلى مهنة احترقها أجداده وأبائه كانت بوسعها إعاقاة الرغبة فى تصنيف الطبقة الجديدة من النبلاء ليس فقط بغية نسيان أصلهم الحقيقى بل أيضاً نظراً للرفض الضمنى من قبل الأعيان الأندلسيين .

وهذا ما حدث مع أحد أعيان سراقسطة فى عصر المؤتمر (القرن الحادى عشر الميلادى) يدعى أبو مطاريف ابن الدبّاغ الذى رأى ذات يوم وزير المؤتمر المدعو أبو الفضل بن حصداى يقرأ كتاباً وكان من أصل يهودى ، ولكنه اعتنق الإسلام ، وقد أراد ابن الدبّاغ أن يمزح معه فقال له هل كنت تقرأ التوراة ؟ فأجابه قائلاً نعم . وتجليد الكتاب من جلد قام بدباغته هذا الذى نعرفه جميعاً هـ . بيريس المصدر المذكور أنفاً ص ٢٧٢ .

وفى هذه الحالة كان الافتخار بالأصل محل تهكم من جانب المتحاورين بسبب الأصل الأسرى ، ومع ذلك فهذا لم يمنع كليهما من المحافظة على الصداقة التى كانت تجمعهما .

ولم يكن الأمر هكذا فى جميع الحالات ؛ لأنه فى حالات أخرى قام المتحاور بالدفاع باستماتة عن أصله المتواضع كما هى الحال فى أمر القصاب الذى كان من سراقسطة والمسمى يحيى السراقسطى ، والذى احترق مهنة الشُّعر فى بلاط المؤتمر قرر العودة إلى جزارته ، ولم يلق بالاً لمطالب العامل لكى يستمر شاعراً فى البلاط .

مهن وحرف المسلمين :

إن التوارث أو القدر قد حدد مصير كثير من الأندلسيين الذين مارسوا مهناً أباً عن جد حتى بعد استرداد غرناطة من جانب المسيحيين وحتى فترات لاحقة لذلك ، وهى مهن أو حرف كانت لا تشير فقط إلى الأصل العرقى أو الجنس للشخص بل إلى ديانتة .

وكارو باروخا قد تعمق كثيراً فى هذا الأمر كما عودنا التمحيص والدقة فى أبحاثه ، وذلك عندما تحدث عن عمال البلدية عام ١٥٥٢ ميلادية ، وكانت الأوامر البلدية تتضمن الإشارة إلى ٧٤ مهنة أو حرفة يشغلها مسيحيون ومسلمون ، وكانت لهذه المهن أو الحرف أسماء عربية من الناحية الفنية وإشارات إلى توليها من جانب المسلمين المغاربة على وجه الخصوص . (كارو باروخا ، مسلمو مملكة غرناطة ، ص ٩٦) .

وبالإضافة إلى ذلك كما يشير نفس المؤلف فإن الأدب نفسه خاصة فى القصائد الشعبية قد دون هذه المهن والحرف بين جنبااته ، ولكن على هيئة هجاء أو ذم لهذه المهن أو الحرف ، وقد أكدت هذه القصائد أن المسلمين منهزمون ، وقد كان النبلاء والوضعاء على حد سواء ؛ لذلك فإن الحرفة التى كانوا يعملون بها كانت تضعهم على قدم المساواة لا فرق بين نبيل ووضيع على الصعيد الاجتماعى .

إنَّهَا فاطمة وشريفة

تبعان الثَّين والزُّبيب

و يحكى لاجارتو إيرنانديث

أنَّهما ترقصان فى قصر الحمراء

و تفتلان الأحبال من ليف النُّخيل

و تزرعان الكرنب

وَتَجْتَثَّ أَنْتَ
وَيَأْتِي أَرْبُولَانُ بَعْدَهُ
يَكُونُ قَدْ حَفَرَ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ حُفْرَةٍ
مُقَابِلَ حُفْنَةٍ مِنَ الدَّقِيقِ
وَقِطْعَةٍ عَمَلَةٍ مَثْقُوبَةٍ
وَالزَّجْرَى مَعَهُ جَحْشَانُ
لَمْ يَمْلِكْ مِنْ سَكَبِ الْمِيَاهِ
وَالصَّبَى الْآخِرَ يَرْسُمُهُ مُحْطَمًا لِلرَّمَاكِ
يَقُومُ مَوْكَا بِإِعْدَادِ كَعَكَاتِهِ الْمُقْلِيَةِ
وَيَقُولُ الْآخِرَ ابْتَعِدْ
ابْتَعِدْ لَقَدْ جَاءَ مَوْكَا الشُّجَاعُ
فَارَسَ نَبَاتَاتِ الْغِيَابِ

لقد أصبح الرجال والسيدات الآن بانعين لثمار التين والزبيب وجادلات لافوخ
وسعف النخيل وكذلك لرى البساتين وزراعتها وحفارين ومأجورين وحمارين
وسائقى القوافل .

وفى نصوص أخرى ذكرت وظائف أو مهن أخرى للمسلمين مثل بائعى الحلوى
والعسل والعريف العالم أصبح بناءً متواضعاً أو نجاراً ، وكل هذا يمثل كارثة تاريخية
بالمعنى القديم ، ويمثل أيضاً نهاية طور من الأطوار .

(كارو باروخا ، التقويم التاريخى والثقافى لكل ما هو مسلم وما هو
مسلم أندلسى فى إسبانيا ، الأندلس ثمانية قرون من التاريخ ، مدريد ، ١٩٨٩ ،
ص ٤٠ - ٤١)

المراجع

- (١) المقرئ (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) طبعة القاهرة ١٩٤٩ .
- (٢) السُّكَّاتى الملكى كتاب الحُسبة ، نص عربى تقديم وهوامش وشرح للكاتب ح . س كولنوليفى بروفينسال ، باريس ١٩٣١ .
- (٣) أبيلا . م . أ " المجتمع الإشباني المسلم فى نهاية الخلافة " ، الاقتراب من دراسة سكانية ، مدريد ١٩٨٥ .
- (٤) كارو باروخا . غ موريسكيو " مملكة غرناطة " مجموعة فوندا مينتو ، مدريد ١٩٨٥ .
- (٥) كارو باروخا . ح " التَّقْوِيم التَّارِيخِي لما هو مسلم وموريسكى فى إسبانيا " الندوة الأولى للثقافة الإسلامية - الأندلس ثمانية قرون من التاريخ ، طليطلة ١٩٨٧ ، مدريد ١٩٨٩ ص ٣٧ إلى ٤٢ .
- (٦) بيدرو تشالميتا " سيد السُّوق فى إسبانيا خلال العصرين الوسيط والحديث " إسهام فى دراسة تاريخ السُّوق ، المعهد الإشباني العربى للثقافة ، مدريد ١٩٧٣ .
- (٧) بيدرو تشالميتا " الجمعية الحرفية التُّجارية للمدينة الإسلامية " ندوة دولية عن المدينة الإسلامية ، سرقسطة ١٩٩١ ص ٩٣ - ١١١ .
- (٨) شريف خا . أ ولوبيث جوميث . م . لغز المياه فى الأندلس ، طبعة لونويجرح ١٩٩٤ .
- (٩) إيميليو جارثيا جوميث " حوليات قصور خليفة قرطبة " الحكم الثَّانِي لعيسى بن أحمد الرَّاى (مقتبس من ابن حيَّان ، ترجمة جارثيا جوميث ، رابطة الدُّراسات والطبوعات ، مدريد ، ١٩٦٧ .

- (١٠) جويتشارد ب . " البنية الاجتماعية الشرقية والغربية فى إسبانيا الإسلامية " مدرسة الدراسات الاجتماعية ، مركز الأبحاث التاريخية ، الحضارة والمجتمع ، ٦٠ موتون باريس ١٩٧٧ .
- (١١) جويتشارد بيير " الأندلس ، البنية الأنثروبولوجية لمجتمع إسلامى فى الغرب " دار نشر بارأل ، برشلونة ، ١٩٧٦ .
- (١٢) ابن عبدون أشبيلية فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ، طبعة وترجمة ليفى بروفينسال وجارثيا جوميث ، دار نشر أشبيلية ، ١٩٨١ .
- (١٣) ابن خلدون . م . " المقمة " ترجمة إلى طرابلس . إف . إى . ث . المكسيك ، ١٩٧٧ .
- (١٤) لا فونيتى الكانترا م . " تاريخ غرناطة " ١٨٤٣ إلى ١٨٤٦ .
- (١٥) مارين . م . " الفرد والمجتمع " مجموعة مافرى ١٩٤٢ ، مدريد ، ١٩٩٢ .
- (١٦) بيريس . إتش . " ازدهار الأندلس " ترجمة جارثيا أريئال ، دار نشر كتب إيبيريون ، الطبعة الثانية ، مدريد ، ١٩٩٠ .
- (١٧) ريموند . أ . " الحرفيون والتجار فى القاهرة خلال القرن الثامن عشر " المعهد الفرنسى فى داماس ، داماس ، ١٩٧٣ ، فى مجلدين .
- (١٨) روخاس . إف . " لاثيلستينا (القوادة) " نادى القراء ، مدريد ، ١٩٦٦ .
- (١٩) سانشيت ألبورنوٹ . ث . " إسبانيا الإسلامية " الجزء الأول والثانى ، بوينوس أيرس ، ١٩٤٦ .
- (٢٠) سيمونيت . إف وخ " تاريخ المستعربين فى إسبانيا " أربعة أجزاء ، دار نشر تومر ، مدريد ١٩٨٣ .
- (٢١) توريس بالباس . ل . " المدن الإسلامية " الطبعة الثانية ، المعهد الإشباني العربى للثقافة ، مدريد ١٩٨٥ .
- (٢٢) بالبوينا ريكوم . ث . " المنازل والمساجد ومحال أوقاف وكنائس غرناطة " المعهد الإشباني العربى للثقافة ، مدريد ، ١٩٦٦ .

الفصل التاسع

العصر المظلم للحمراء

إعداد : فرناندو بالديس

فى السياق العام للمعمار الأندلسى الذى لا يُعرف عنه إلا القليل على عكس الاعتقاد السائد نجد أن واقع غرناطة يتمتع بمزايا خاصة للغاية .

فالقصور المشيدة فوق تل الحمراء لفتت أنظار وانتباه أبناء المدينة والغرباء على حدٍ سواء ، ولم تحظ حصون وقلاع الحمراء بالاهتمام نفسه الذى حظيت به القصور بسبب اعتبار القلاع والحصون مجرد إطار معمارى فقط وإن كان البعض قد أمعن النظر فيها ، ولكن بدرجة أقل مقارنة بالقصور .

ومما لا جدال فيه أن هناك عدم ترابط بين الأبحاث المخصصة لقلاع المنطقة السكنية والمدينة ، وكأنها فى مفاهيم التحليلات المعمارية لا تُشكل مجموعة واحدة متجانسة لا تتجزأ ناجمة عن الاحتياجات التكتيكية والإستراتيجية لكل لحظة تاريخية بشكل مستقل بغض النظر عن الاستخدام الذى خصص لكل وحدة منها على حدة .

ومن ناحية أخرى فإن الانبهار الكبير بالقصور التى أقام فيها النصريون جذب إليها أنظار الباحثين الذين حاولوا فى مرآت معدودة معرفة تاريخ المكان قبل أن تُشيد هناك هذه المباني الرائعة التى لا زالت خالدة حتى الآن ، وترجع هذه المشكلة إلى التقسيم التنظيمى الداخلى العايب والمجازى الذى يُقصر الأبحاث الأثرية داخل حدود ضيقة وتقليدية للغاية مما يضطرننا إلى وضع حدود وهمية غير موجودة أصلاً لا فى الزمن ولا فى الثقافة .

الفتح العربي والمؤشرات الأولى للتعمير فى العصور الوسطى :

نشر توريس بالباس مقالاً عام ١٩٤٠ عن العصور الأولى للحمراء ؛ حيث نظم ورثب المعلومات والأنباء الواردة بشأن الحمراء ، نعى المكان قبل أن يتحول إلى مركز عصبى واستراتيجى للمدينة فى حد ذاتها ولمملكة غرناطة ككل^(١) ، وهناك اتجاه خاص لدراسة البقايا الأثرية لعصور ما قبل الإسلام التى تم العثور عليها فى التل خلال أوقات مختلفة أو ظروف متباينة وبمحض الصدفة فى مكان الاكتشاف^(٢) .

وعلى الرغم من أنه فى بعض الحالات المعينة فإن الصدفة قد تتأكد نظراً للوجود الذى لا جدال فيه لمدينة إلبيرا الرومانية فى تل البائسين ، كما أن قرب المكانين هو المؤشر البسيط على إمكانية اكتشاف هذه الآثار بالصدفة مع قبول تأكيد اكتشاف بعضها ليس لمجرد الصدفة بل كانت على الطبيعة ونتيجة الحفريات .

والمسألة فى نظرنا متميزة ، وذلك لتفنيد ودحض رأى قاطع يتمثل فى النقوش اللاتينية الكائنة بمتحف الحمراء ، والتى ظهرت عند حفر أساس كنيسة سانتا ماريا فى الثمانينات من القرن السادس عشر^(٣) .

ويشير إلى ذلك النص الذى نُشرَ عدة مرّات وقرأ هو ترجمه السيد / مانويل جوميث مورينو مارتينيث^(٤) .

باسم السيد المسيح الرب تم تأسيس كنيسة سان إيستيبان (الشهيد الأول) فى المكان الذى يُسمى ناتيبولا ، وذلك على أيدي الحبر سان باولو عام ٧٧٧ ميلادية كما تم تشييد كنيسة سان خوان وكنيسة سان بيثينى الشهيد الفالينثى على أيدي الحبر أو البابا ليليو فى ٢٢ يناير عام ٩٤٥ فى عهد الملك ريكاردو ، وهذه المعابد المقدسة الثلاثة شُيدت من أجل التثليث العظيم ، وقد تعاون القديسون فى بناء هذه الكنائس بسواعد أبناء المنطقة تحت إشراف المهندس الشهير جوديليويا^(٥) .

وقد أدلى كثير من المؤلفين بأرائهم حول النقش اللاتينى أو الكتابة اللاتينية والتى تنطوى على كثير من الصعوبات الأكيدة عند قراءته^(٦) وترجمته ، ولعل أهم المسائل

هى تلك التى تشير إلى الشخصية المذكورة ومعرفة موقع ناتييولا حيث شيدت كنيسة سان استيبان .

وأول هذه الصعوبات فضلاً عن العديد من التلعثمات فيما يتعلق باسم الشهير جوديليو^(٧) يبدو أنها قد تلاشت بفضل النبأ المنشور فى الإحاطة من قبل د . بوزى^(٨) .

واستناداً إلى الوصف الذى أعده هذا المؤلف الذى يشير إلى مؤلف آخر - ابن الصيرفى - " كان للمسيحيين فى غرناطة كنيسة شهيرة ليست بعيدة عن بوابة إلبيرا ، وقد شيدها أحد كبار الضباط فى المكان الذى كانت به مقابر صلاح بن مالك ، وقد هُدمت الكنيسة تماماً فى جمادى الثانى عام ٤٩٢ هجرية (الموافق ٢٣ مايو ١٠٩٩ ميلادية) وذلك استجابة لأمر سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين ، ويشير د . بوزى إلى أن الضابط المشار إليه هو جوديليو باو يحدد هدم المعبد أحد المعابد التى أنشأها فى أواخر القرن الحادى عشر^(٩) . والفكرة معقولة وتساعد على إيضاح المنصب الذى كان يتولاه هذا الشخص^(١٠) القوطى الاسم^(١١) .

كما أن تحليل نقش الكتابة أو النقش الكائن بكنيسة سانتا ماريا لم يرد على المسألة الثانية من تلك التى أشرنا إليها ويقتصر فقط على افتراض بدون أساس ؛ فتحن فى احتياج إلى الاطلاع على بعض المراجع العربية التى تستطيع أن تقدم لهذا الأمر جرعات من الترجيح .

فأول مرة يظهر اسم الحمراء ظهر باسم الحمراء يعنى أنه لم يكن يحتوى على حرف B كما فى الكتابة الإسبانية Alhambra ومعنى الاسم هو صفة من أفعل فعلاء وتعنى اللون الأحمر للمؤنث ، وقد جاءت هذه التسمية نتيجة المواجهات الدائمة التى حدثت بالمنطقة بين العرب وأهالى البلاد إبّان حكم الأمير عبد الله^(١٢) .

ويذكر الواقعة ابن إدارى^(١٣) لقد وجد القائد العربى سوار بن حمدون القيسى نفسه مضطراً إلى اللجوء بقواته للحمراء للاحتماء فيه ؛ حيث استطاع مقاومة أعدائه حتى وصل به الأمر أنه كان على وشك إلحاق الهزيمة بهم^(١٤) ، وتشير هذه

الواقعة إلى أن الحمراء كان بها مبنى كبير يستطيع أن يأوى عدداً كبيراً من القوات في النصف الثاني من القرن الحادى عشر ليس هذا فقط بل استطاع رد هجمات المعتدين بنجاح ساحق ، وبالتالي فالحديث عن حصن كبير لن يكون مبالغة بأية حال من الأحوال .

وقد أكد خ . م . رولدان بشكل قاطع استناداً إلى كتاب المقتبس لابنحيان^(١٥) الأصل القوطى للقلعة أو الحصن وربط ذلك بالمدعو إيستيبان من قبل المؤرخ القرطبى ، وطبقاً لهذا المؤلف فإن القلعة كانت تشكل جزءاً من النظام الدفاعى عند الحدود ، والذي أعدته المملكة القوطية الغربية فى طليطلة ليكون فى مواجهة الأراضى التى كان يحتلها البيزنطيون اعتباراً من القرن السادس الميلادى^(١٦) ، وعندما غادرت القوات الإمبراطورية شبه الجزيرة فى عام ٦٢٥ فإن حصون وقلاع الحمراء المشيدة خارج إلبيرا المحاطة بالقلع والحصون أيضاً^(١٧) لم تعد تلعب دوراً استراتيجياً بارزاً وإن كان قد انتعش بضع سنوات عقب الفتح العربى بمقتضى توزيع الأراضى الذى قام به الفاتحون العرب أمّا فى القرن الحادى عشر فقد وقعت معارك دامية بين العرب وأهالى البلاد ، وبالنسبة لرولدان فإن اسم إيستيبان يتم تبريره ببناء كنيسة للقديس المسمى بنفس الاسم ، والذي شيدها جوديليويا ، وكان يعتبر بمثابة احتفال بالنقوش الموجودة بكنيسة سانتا ماريا ، وقد ظهرت النقوش أو الكتابة على الطبيعة . أما اسم ناتيبولا فإنه كان اسم التل الذى أقيمت عليه فيما بعد الحمراء أو أحد أجزائها^(١٨).

ويشير المجلد الخامس من كتاب المقتبس إلى القلعة المسماة باسم إيستيبان عدة مرات^(١٩) ، حيث ترتبط بالعديد من الحوادث التى حدثت فى عهد عبد الرحمن الثالث فى الفترة من ٩١٣ هـ - ٩٢٦ ، ويشير الناشرون فى كتاب التاريخ إلى أن الاسم ظهر بصيغتين : إيشتيبان وشانت أستيبان ويشيران إلى أن الاسمين هما لاسم واحد ، وهو يشير إلى سان استيبان المعروف حالياً بسان إستيبان ديل نورتو فى محافظة جيان^(٢٠) ، ولكن المسألة ليست بسيطة بهذا الشكل .

وهناك مؤلفان عربيان آخران هما التاريخ المجهول لعبد الرحمن الثالث^(٢١) وبيان المغرب^(٢٢) اللذان يصفان الأحداث بنفس الألفاظ هذا فضلاً عن أنهما يشيران إلى

وجود مصدر مشترك موثق^(٢٣) يساعد على التمييز بين المكانين المشار إليهما بالمسمين السابقين والكائنين بالبيراوجيان على الترتيب كما أشار إلى ذلك من قبل ف . خ . أجير يوم . ث . خيمينيث^(٢٤) .

ويوجد اسم إيستيبان فى المقتبس بمناسبة الغارات العسكرية لعبد الرحمن الثالث عام ٩١٣ .

وبعد ذلك كان عبد الرحمن الثالث هو الذى شنَّ هجماته على قلاع وحصون الفاسد عمر بن حفصون فى البيرا بعد أن دمر قلاع الخائن، وبعد ذلك ذهب الناصر إلى قلعة إيستيبان التى تطل على عاصمة البيرا ، وعند عودته كان الهدوء قد عمَّ ، وعلى الرغم من ذلك فقد حاصرها عدة أيام محصناً قلاعها وطائفاً جانلاً بضواحيها التى زارها مراراً وتكراراً^(٢٥) ، وهناك فى سلسلة جبال (سيراً نيقادا) عرف أن المتورد ابن حفصون قد اقترب بجيشه من عاصمة البيرا قاصداً فتحها وذلك بخداع أهلها ، وحينئذ سافر الناصر إلى المدينة المسماة بسالورينا ؛ حيث قوى حصونها وحافظ على مصالحها وشرع الخليفة الناصر فى العودة عن طريق إيستيبان وقلعة بنيافوراتا الخاضعين لنفوذ الملعون ابن حفصون التى ألحقت قواته الأذى بأهالى قلعة غرناطة وبالعاصمة البيرا اللتين كانتا حصينتين قويتين لا يمكن اختراقهما^(٢٦) .

وقد قام عبد الرحمن الثالث بتدميرها عن آخرها حتى تم وقف القتال يوم الاثنين الحادى عشر من ربيع الأول الموافق السادس من يونيو عام ٩٢٥ ، وذلك بقلعة إيستيبان الحصينة للغاية أخر حصون وقلاع البيرا ، والتى أظهر أهلها الخضوع والاستسلام ولكنهم أضمروا المكائد، واقترح عليهم الناصر النزول من القلعة إلى السهول المجاورة والمحيطة بها، إلا أنهم ترددوا ولم يتحلوا بالعقل ، ولهذا واصل هجماته عليهم حتى أزعجهم وحاصروهم وأحاط بهم من كل جانب حيث بلغت الهجمات والاعتداءات ذروتها ، وقد تمَّ تشييد ستة قلاع وحصون احتياطية خلف الحصون والقلاع الأصلية ، وكانت الحصون والقلاع فى مواجهة بعضها ، وتم تجهيزها وإعدادها عسكرياً حتى كونت هذه القلاع والحصون دائرة حولهم وضيق عليهم الخناق تماماً^(٢٧) .

وقد تآقت نفس عبد الرحمن لرؤية نجله ولى العهد الحكم الذى كان قد تركه فى قرطبة فأرسل رجالاً يحظون بثقته لإحضاره وكان الطفل يبلغ من العمر عشر سنوات وثمانية أشهر ونصف ، كما أحضروا أيضاً من القصر أخاه الشقيق عبد العزيز ، وكانت هذه أول رحلة للحكم ولى العهد ثم اعتاد على الأمر بعد ذلك . هذا وقد تسلى عبد الرحمن مع نجله وسعد به أيما سعادة ، ولكنه إزاء قسوة الظروف فى قلعة إيستيبان وطول أيام إقامته هناك احتاج الطفل العودة إلى العاصمة فقام عبد الرحمن بتقوية التحصينات والتجهيزات بالقلاع والحصون الاحتياطية وعهد إلى الوزير سيد عيسى بن أحمد بن أبى عبده القيام مع مجموعة من المرتزقة بمهاجمة العدو من أحد الجوانب على حين يقوم عميله قائد الشرطة دُرّى بن عبد الرحمن على رأس مجموعة أخرى من الرجال بالهجوم من جانب آخر بعد أن جهزهم بالمعدات العسكرية . حينذاك رجع عبد الرحمن إلى قرطبة ، وقد دخل قصره يوم الخميس الثانى من ربيع من نفس العام الموافق السابع من يوليو عام ٩٢٥ بعد حملة عسكرية استغرقت خمسين يوماً .

ولم يتوان المكلفان بمهاجمة القلعة عيسى بن أحمد ودُرّى فى غزوها وإجبار أهلها على الاستسلام ، وقد تم اختيار بعضهم للانضمام إلى خدمة السلطان (٢٨) .

ومما هو أكيد أن اسم إيشتيبان أو إيستيبان عندما يظهر بمفرده إنما يشير إلى بلدة فى إلبيرا ليست بعيدة عن عاصمتها - حاضرة إلبيرا - ولا عن غرناطة نفسها (٢٩) ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه فى النبأ الأول يلاحظ أن الناصر توجه إلى قلعة إيستيبان التى تطل على عاصمة إلبيرا ، وكان يُطلق على قلعة إيستيبان حصن إلبيرا وعلى غرناطة حصن غرناطة .

وعلى هذا الأساس فإن نظرية خ . م . رولدان تبدو موثقة للغاية وعلى ضوء ما ذكره ابن حيان فهو قاطع وحاسم بعد معرفة الأحداث التاريخية .

مذكرات عبد الله والحمراء :

إنَّ المُسمَّاة بمذكرات عبد الله آخر عاقل لأسرة زيري الغرناطية تحتفظ ببعض الإشارات القيمة لمعرفة الحمراء إبَّان الحقب الأخيرة من القرن الحادى عشر (٢٠) ، ومن بينها الصيغة الثنائية لكتابة الاسم ، والتي تستخدم حتى يومنا هذا وثلاث إشارات غير مباشرة للإصلاحات والترميمات التي أجريت على جدرانها وحوائطها ، وكانت الترميمات الأولى من عمل ابن النجرايا الوزير اليهودى لباديس بن جانوس الملك قبل الأخير لغرناطة من أسرة زيري ، أمَّا الإصلاحات الثانية والثالثة فإنَّها ترجع إلى عبد الله نفسه الذى اهتم بحماية عاصمته من النوايا غير الخفية والتوسعية للأمير ابن تاشفين أمير المرابطين .

وإذا لم يُعرف ما عرض أو ما تقدم فى الجزء الأول من هذا العمل يمكننا أن نعتبر أنَّ الإشارة الأولى فى هذا المقام إلى التحصينات والقلاع للحمراء هى تلك التى أشار إليها عبد الله نفسه عند سرد قصة المؤامرة الفاشلة التى دبرها لتسليم الوزير ابن النجرايا لتسييم غرناطة إلى ملك أو عاقل الميريا ابن صُمَاح ويؤكد :

وعندما خاف الوزير اليهودى من غضب الشعب الجامح انتقل من بيته إلى القسبة فى انتظار تنفيذ مخططاته ، ولكن الناس لم يستحسنوا عمله الدنىء ولا تشييد قلعة الحمراء حيث كان الهدف الاحتماء بها هو وأسرته عند دخول ابن صُمَاح حتى يستتب الأمن وتهدأ الأمور " (٢١) .

وقد وقعت هذه الأحداث بضع سنوات قبل عام ١٠٥٦ أى عام وفاة الوزير على الأرجح (٢٢) ، ومع ذلك سنتجنب الجدل الذى أُثير عن امتلاكه لقصر قبل قصور النُصريين (٢٣) ، فليس من الملائم اعتبار ابن النجرايا هو الذى شيد قلعة الحمراء ، فمن الواضح والبدهى وجود حصن عسكري قديم بالمكان ، وإذا كان الوزير قد فعل شيئاً فلم يتعد قيامه بعمليات الترميم الجزئية أو الشاملة أو ربما التوسيع لهذه القلعة وإن كانت هذه الاستنتاجات لا يمكن استخلاصها بسهولة من النص ؛ فالدراسة الأثرية للعمل والموجودة حتى الآن لا تسمح بالرد على الاستفهامين الأول والثانى ، ومع ذلك فإنَّها ترفض تماماً الاستفهام الثالث (٢٤) .

فالتبأ الثانى مرتبط بالسياسة المعقدة والمتشابكة لشبه الجزيرة الأيبيرية فى تلك الأزمنة التى أدت إلى مواجهات لا حصر لها بين كل الممالك بشبه الجزيرة بين المسيحيين والمسلمين ، وفى إطار المواجهات التى تمت بين بنو عباد بأشبيلية وبنو زيرى فى غرناطة استطاع ألفونسو السادس دى ليون التوصل إلى اتفاق مع الأشبيليين على القيام بشن هجوم على عاصمة الدارو من أية جهة أو جانب ، ولكى يتم تنفيذ الهجوم قاموا بتشديد وإعادة تشييد قلعة بيليوس^(٢٥) . ودير بالذكر أن وجهة نظر المؤرخ فى العصور الوسطى لا تتفق مع المؤرخ أو الكتب الحديث ، وبالتالي تفتقر إلى الدقة الخاصة باللغة العلمية ، ولهذا السبب لا يمكن فهم كلمات أو ألفاظ أو مصطلحات مثل يشيد أو يبنى بمعناها الحرفى أكثر من كونها تؤكد الواقعة أو الحدث ، وهذا لا يعنى (بعيداً عن أى تخمين أو تأمل أثرى) عدم وجود مرحلة تشييد سابقة ، وهذا كله يعتمد على السياق وكذلك على المظاهر المادية ، وفى حالتنا هذه يبدو أن بيليوس قد شُيِّد من جديد ، ومع ذلك فإن هذا ممكن على الرغم من وضوح النص على اعتبار ذلك توسعة لمبنى قديم أو سابق ، كما أن الهجمات قد كلفت بها قوات مسيحية أرسلها الملك الليونى ، وقد تحمل تكاليفها العاهل العبادى .

و لتحسين مبنى هذه القلعة قام ابن عمّار بتأجير جيش من ملك ليون ألفونسو السادس مقابل مبالغ كبيرة من المال ، وإن كان العاهل العبادى يفضل إعطاء الأموال للمسيحيين أنفسهم من خلال وعود صادقة أحياناً وكاذبة أحياناً أخرى حتى انتهت الأعمال التى كلفوا بها^(٢٦) .

وقد أراد عبد الله صدّ الهجمات والاعتداءات معتمداً على قواته ، ولكنه لم يتحقق له ذلك فقرر شراء سلبية أعدائه بفضل المساعى الحميدة للمأمون بطليطلة على قرطبة^(٢٧) ، وقام حُرّاس قلعة بيليوس بمغادرتها بفك معداتهم الدفاعية التى احتلتها على الفور القوات الغرناطية . والفقرة التى تصف الواقعة واضحة للغاية :

عندما وقعت هذه الأحداث المساوية فى قرطبة وعلم بها حُرّاس قلعة بيليوس قام هؤلاء بمغادرتها ، وقد احتلها على الفور ألف رجل ، وأصبحت فى حوزتى بمعداتها وأسلحتها وما فيها التى لم تُصَب بسوء ، ويفضل هذا تمكنت من دراسة التحصينات

الدفاعية التى قمت بتنفيذها فيما بعد بتحسينات وقلاع غرناطة ، وبهذا أصبحت عاصمتى بعيدة عن تهديد قلعة بيلوس (٢٨) .

أما النبأ الثانى فمتعلق بهذا الحدث . التحسينات الدفاعية التى أدخلت على القسبة فى العاصمة الزيرية لم تؤثر فقط على الجزء القديم للمدينة بل شمل أيضاً القلاع الخارجية للمدينة كما يبدو ذلك من النادرة التى حكاها عبد الله نفسه (٢٩) :

" عندما أمرت بتشديد الجدار المجاور للحمراء بدافع من الأحداث البارزة التى وقعت ، والتى فاضت على بالتعليقات ."

و طبقاً لرأينا فإن الحصون والقلاع التى شيدها العاهل الغرناطى لم تكن صغيرة كما أنها لم تقتصر على البائسين ، فتشديد الحمراء خارج النطاق العمرانى للمدينة والجدار المجاور لها يجب أن يكون قريباً منها ، وهذا الافتراض يتأكد أو يتحقق استناداً إلى قصيدة الشاعر السمسير الذى سخر فيها من حمس عبد الله للاهتمام من المرابطين (٤٠) :

إِنَّ مَلِكَ غِرْنَاطَةِ غَبَى
إِنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ الرَّجُلَ الْأَكْثَرَ عِلْمًا
إِنَّهُ يَتَعَامَلُ مَعَ الْفُونَسُووَالْمَسِيحِيِّينَ
(يَسْأَلُهُ مِنْ حُكْمٍ مَتَحَفِظ !)
إِنَّهُ يُحَصِّنُ الْمَبَانِي عَاصِيًا
اللَّهُو الْأَمِيرُ (يَوْسُفُ بْنُ تَاشْفِينِ)
إِنَّهُ يُشَيِّدُ فِيمَا حَوْلَهُ بَغِيَاءَ
و كَأَنَّهُ دَوْدَةُ قَسْرٍ
و لَكِنْ دَعَا يَبْنَى ، فَإِنَّهُ سَيُثَوَّبُ إِلَى رَشْدِهِ
عِنْدَمَا يَحُلُّ عَلَيْهِ أَمْرُ الْقَادِرِ الْقَهَّارِ

وطبقاً لرأى إيميليو جارثيا جوميث^(٤١) فإن الأعمال التى يسخر منها الشاعر السمسير تكمن فى عمليات الترميم للقلاع والحصون الإستراتيجية للمملكة التى قام بها عبد الله والتى سرد حكاياتها الملك نفسه^(٤٢) ، ولكننا نفهم بأن السخرية ليست محدودة بل إنها تشير إلى الدفاعات الخاصة بالعاصمة عندما يقول " إِنَّهُ يُشِيدُ فيما حوله بغباء " ، ولم يستطع أى موضوع أثير أن يحل هذه المعضلة . ومن كل ما تقدم لا يمكن استخلاص استنتاجات بعيدة المدى ولا أمور جديدة ، وبالكاد تم إظهار العلاقة بين التحصينات العسكرية لعبد الله فى غرناطة وبعض نواحي التقدم التقنية من أصل مسيحي شمالي ، والذي يكمن فى الاتصال أو الارتباط بينهما فى أشغال بيليوس والسر يكمن فى مقارنة المعلومات الموثقة بالآثار المعمارية القليلة للزيريين التى ما زالت موجودة حتى الآن .

جسر القاضى :

و يتفق جميع المؤلفين على أن المسمى بجسر القاضى والكائن على الضفة الجنوبية لنهر الدار وأحد جوانب تل الحمراء أنه كان يُشكّل جزءاً من الجدار المجاور المشار إليه آنفاً .

وبصعوبة تم الحفاظ على الجانب الجنوبي من القوس (الذى شُيّد على شكل حدة حصان) الكائن بـ برج ذى قاعدة سداسية الشكل بجانبين أو ضلعين بمحاذاة حوض النهر .

ولبرج هو عبارة عن حائط ذى أوقاب أو غرف صغيرة جداً أو دعائم حديثة الأجر (الطوب اللبن) والدبش (أو الحجر غير المصقول) ، أما ارتفاعه الأولي فلم يكن معروفاً ، وبلا أدنى شك تجاوز كثيراً ارتفاعه الحالى ، وفى داخله يوجد سُلمان يفصلهما جدار ، وكلاهما لهما صندوق خماسي الشكل ولكل منهما دعامة خشبية بالوسط من الحجر غير المصقول وألواح حجرية بين صفوف من الأحجار ، أما أجزاؤهما فقد غطيت بقباب^(٤٣) ، أما فتحاتها فكانت تفتح للخارج ؛ حيث كانت توضع بها قوّهات المدافع والأسلحة الأخرى .

والسُّلَّمان يؤديان من ناحيتهما الداخلية إلى ممر بمخرج إلى باقى كلٍ منهما وهى محصنة بأحجار متقاربة وهى محاطة بالأجر ، وكانت تطلق استناداً إلى رأى ل . توريس بالباس بباب من جزئين وتبدو الأحجار رومانية الأصل^(٤٤) ، واليوم هى على ارتفاعها ما فوق منسوب المياه ، ويمكن تبرير هذا بغزارة مياه النهر وانخفاض مجراه .

و الجزء الباقي من القوس قد بُنى من الأحجار الجيرية المربعة - تقريباً فى حجم الطوب اللبن أو الأجر - المحكمة التركيب والبناء وفى الواجهة تبدو الأحجار بالتناوب بارزة وغائرة والمنحنى الخارجى للعقد يزخرف قاعدة سيقان النباتات المنحنية الخطوط وعلى شكل أزهار كبيرة فى الأحجار الغائرة ، وكل هذا وذاك كان محاطاً بحلية معمارية على شكل إطار الشباك أو طُنف التافذة .

والدائرة ما زالت تحتفظ بالعديد من التجاويف والفتحات ، اثنتان متوازيتان تقطعهما من أعلى إلى أسفل بحيث تتكيف مع الشكل الجانبى للقوس .

ومن خط أفاريز الجدران تجاه الجزء الأعلى يوجد فى الفتحتين زوجان من الغرف المستطيلة المفتوحة كل اثنتين مع بعضهما بنفس المستوى ، أما الأجزاء السفلى فلها عمق مسطوح .

وفى الإطارين اللذين يحددان الفتحتين الرأسيتين يوجد حزان أو أخدودان على خط واحد مع زوج آخر مجسم فى وسط منحنى العقد الخارجى وإن كان يزيد ارتفاعه - ١٠ سم - عن الاثنين الأوليين ، وهذه الأخاديد أو الحزوز الأربعة والزوج العلوى من الأوقاب هى أقل عمقاً فى جزئها العلوى .

وبعد أن أعدنا عملية إعادة البناء المفترضة لكل النظام باستكمال دائرة القوس، وجعلها تستند على برج آخر فى المواجهة ربما يشبه البرج المرئى^(٤٥) يمكن محاولة إيجاد شرح أو تفسير لهذه المجموعة العجيبة من الأخاديد والفتحات والتجاويف ، أما الوقبان السفليان فإنهما يُستخدمان لإدخال الكمرتين للجزء المستطيل التى كانت تتقاطع قطرياً داخل القوس ، أما بقية الحزوز أو الأخاديد والأوقاب العلوية فإنها تتكيف مع الدائرة وقد استخدمت لتثبيت الهياكل الخشبية أو المعدنية - الخشبية المغطاة بصفائح معدنية - ولهذا فإن شكلها الجانبى منحنى .

جسر القاضي وباب لوس تابليروس :

من الوثائق المكتوبة نعرف أن قوسنا كان يشكل جزءاً من الباب المسمى بباب الضفاف (باب لوس تابليروس) على الرغم من أن اسمه الحالي ، ولم يكن له أية علاقة كما أوضح ذلك جيداً ل . توريس بالباس ^(٤٦) مع جسر القاضي الأول الذي شُيّد فوق مجرى نهر الدارو ، والذي اختفى منذ زمن طويل ^(٤٧) .

ويمصطلحات تاريخية يجب أن نفترض عملية موسعة في هذه المنطقة من القلعة أو الحصن في أثناء حكم عبد الله ^(٤٨) ، وإذا كان المسمى حالياً بجسر القاضي والجدار كله الذي كان يرتفع على الضفة بجوار أو في مواجهة الحمراء هما من إنشاء هذا العاهل وفقاً لتأكيد الشخصى وباب الضفاف يجب أن يكون همزة الوصل بين طرفي الجدارين في منطقة القلعة القديمة ^(٤٩) في اتجاه نهر الدارو . ويفترض سيكودي لوثينا (١٩٦٨ - ٢١٠) الذي يتفق مع وجهة نظرنا بأن البناء تم في عصر الملك بارييس بن زيري وهذا صحيح (٤٢٩ - ٤٦٦ هجرية ١٤ أكتوبر ١٠٣٧ - ٢٦ أغسطس ١٠٧٤) ، ومع كل ذلك فإن هناك اختلاطاً أو لبساً بين البرج الكبير الذي ما زال موجوداً بجسر القاضي مع برج بجانب باب الضفاف ، ويجعل من هذا مدخلاً وحيداً مشتركاً للنهر والناس بالإضافة إلى أنه يجعل الجدار ذا بنية مزبوجة مستحيلة (نفس المصدر ص ٢٠٣ وخريطة أو رسم تصميمي للقلعة القديمة وأيضاً سيكو لوثينا - باريديس ل . ١٩٧٥ مخطط ص ٢٩ ، ٨٥) ، ولكن الرابط بين الحمراء والجدار لم يكن في تشييد جدار بل تنظيم جزء متوسط له تجويفان للسماح بالمرور في آن واحد ، ومن مكان مختلف للنهر والمارة . وإذا كان باب الضفاف قد وُجد فمن المحتّم أن يكون قد تم تغييره اللهم إلا إذا كان قد أعيد تشييده من جديد ، وكل هذا قام به آخر ملوك الزيريين لسد ثغرة كائنة بالنطاق المعماري أو بالأجزاء المحيطة بالنطاق المعماري ، ومن هنا جاءت الأبيات الساخرة للشاعر السمسير ^(٥٠) .

وتنقصنا بعض الآراء الرصينة لإعادة بناء الباب مع بقاء آثار ومؤشرات أثرية تبرهن على معرفة كيفية عبور النهر من أسفل الجدار ، وإذا حكمنا على حجم الدائرة فإن القوس كان له سهم وضوء يبلغ ارتفاعه ٣,٨٠ متر بنفس مستوى ارتفاع خط

الأحجار غير المصقولة (الدبش) ، ويبدو أنَّ الفتحيتين الطويلتين الموازيتين كانتا تستخدمان لتركيب قفل مزوج ، والنظم المستخدمة فى أبواب القلاع الأندلسية حتى أواخر القرن الحادى عشر يُخفّض الاحتمالات النظرية إلى احتمالين مع وجود هامش أو مساحة للتغيير ، أو أنه كان عبارة عن تجويف مزوج وهو متوسط على جانبيه برجان أحدهما الذى اختفى وكان يحمل قوس النهر أو إذا قبلنا ظهور الأدوار أو الطوابق المتتوية خلال هذا القرن وفقاً لنموذج مونايثا أو نموذج لوس بيسوس (الأثقال) فى غرناطة نفسها والممر سيكون متعرجاً أو ملتوياً - مغطى أو مكشوفاً - بتجويفين عند فرضات النهر أو فتحاته ^(٥١) .

ويتفق معظم المؤلفين أنه كان مكوناً من شبكات مزدوجة من الحديد للسماح بمرور المياه وتجنب المعتدين المحتملين ^(٥٢) ، ولكن لم ينتبه أحد إلى ما سُمى ببوابة الضفاف رغم أنها كانت قطرة متناسين احتياج المارة إلى الدخول والخروج من غرناطة من مكان جافوياس ، والشك الوحيد يتأتى من التأكد من التجويف الوحيد الذى ل . توريس بالباس عند ترجمته لباب الضفاف بباب لوس تابليروس بدلاً من باب الخبازين ^(٥٣) ، مستنداً إلى ترجمة بيرموديث دى بيدراثا ؛ لأن معنى الضفاف (باب خشبي) ، كما يقول بيدرو دى الكالا ^(٥٤) ، يقع مؤلفنا بهذه الصورة فى تناقض واضح ، وإذا كان إغلاق التجويف كان عن طريق قنطريتين أو بابين أو بوابتين كانتا بمابة هويس ومن حين لآخر كان يتم رفعها لتفادى الفيضانات الخطيرة فإن التسمية تكون ملائمة . وإذا كان أثراً كما قال بيرموديث دى بيدراثا فإن التجويف ظل محمياً ، وقد سمح بحرية مرور المياه ، ولكن الإشارة إلى لوس تابليروس أو الخبازين لن يكون لها مغزى ^(٥٥) .

واستخدام قوائم خشبية له عيبان فى نظرنا : العيب الأول أنه كان يضعف دفاع القلعة عندما تكون مفتوحة ، كما أنه يجعل البوابة أو الباب لا فائدة له عندما يكون مفتوحاً بين أخدودى قوائم الباب ، أو دعاماته التى تكمن مهمتها كما قلنا فى السماح بأخذ الماء دون أدنى خطر وبجرفاء مزدوجة فى باب الحصن كان التزود بالماء ممكناً أما فى بوابة مزدوجة فلم يكن ذلك ممكناً ؛ لأنه فى حالة البوابة المزدوجة تظل هذه

مرفوعة قليلاً ودائماً ، وبالتالى فإن هذه الوسيلة تفقد جزءاً كبيراً من كفاءتها عندما يكون الماء ضحلاً لوجود فاصل بينه وبين مجرى النهر . أما العيب الثانى فإن هذه الوسيلة تجعل من المحتم تركيب جهاز مشابه لتشغيل دفتى البوابة وإنشاء غرفة علوية لإدخالهما أو جزء منهما عند دفع البوابة . والعنصران أو الجهازان يصعب تخيلهما مع الأخذ فى الاعتبار أن الجدار ضيق ^(٥٦) ، وبمصطلحات أثرية فإنهما يخلوان من أقل وضوح مادى .

والاعتراض الأكثر قوة الذى يمكن طرحه على هذه النظرية يكمن فى الاسم القديم للبوابة مع افتراض وجودها فى تجويف النهر ليس على الجانب المفتوح افتراضاً على أرض يابسة ، وإذا كان الذى يغلق القوس حاجز فلماذا سُمى بباب أو بوابة الخبازين ؟ فمن وجهة نظرنا إن هذا يرجع إلى استخدام قطع كبيرة وضخمة من الخشب فى بعض أجزاء الإغلاق ، وتفسير مثل هذه النظرية يجبرنا على إعادة النظر فى دور الحروز أو الأخاديد وكذلك الأوقاب الصغيرة فى دائرة القوس .

وبعد التحقق والتعرف على الفتحتين الطويلتين المتوازيتين كفتاتين لاحتواء أطراف القضبان فإنه يبدو جلياً الافتراض بأن الأوقاب الأربعة الكائنة بها كانت تستخدم لإدخال الكمرات الخشبية الأربع المتقاطعة رأسياً للقضبان الحديدية للحاجز، أما السفلية فإنها كانت تتوافق مع القطر النظرى للأقواس أما العلوية فكانت تقطعه بشكل واضح . أما فيما يتعلق بأن بعض التجاويف كانت أعرض من الفتحات نفسها، فإن هذا يرجع إلى السُمك الكبير للقضبان الجديدة ، ومن ناحية أخرى فإن كون التجويفين العلويين لهما مخرج يجعلنا نفكر فى وجود شكل متعرج الخطوط متكيف مع الجزء العلوى للقوس حيث كانت تتداخل الأطراف العلوية لسيخان الحديد للحاجز أما السفلية فكانت مغروسة فى رمال المجرى .

أما الزوجان الآخران من الأوقاب فإن لكل واحدٍ مخرجاً وكانت المتوازية منها والموجودة فى الجزء المختفى من القوس تستخدم لاحتواء أو إدخال الطاولات المخصصة لإغلاق وتقوية تجاويف المجرى حيث توجد كل الأجهزة التى كانت تتلقى ضغط المياه وخاصة على الجزء الأسفل للحواجز . أما الألواح أو الطاولات المستندة إلى الأخاديد أو فُرض النهر الخارجية يجب أن تكون مبطنة برقائق أو صفائح معدنية

لحمايتها . وعلى الرغم منذ أن الحواجز المخصصة لإغلاق الأبواب كانت معروفة من زمن طويل فإنها كانت فيما يبدو من الخشب المُبَطَّن بصفائح معدنية ، وفقط فى نهايات العصور الوسطى انتشرت بالغرب الأوروبى تلك التى صُنِعَتْ فقط من أسياخ حديدية (٥٧) .

فوجود هذه الأخشاب فى نهاية القوس يُفسر إلى حد كبير سر تسمية البوابة بذلك الاسم ، والتى كان لها تجويف دون أن نتخيلها مغلقة بقطعتين كبيرتين من الخشب ويجعل للمزغلين (المزغل هو فتحة فى المبانى المحصنة لإطلاق النيران) الموجودين على الجانبين مغزى كبيراً ، وجدير بالذكر أن المزغلين كانا يستخدمان كنقطتى مراقبة ورماية لمنع تسلل أى شخص يحاول الدخول متسلقاً عن طريق القضبان الحديدية مستنداً إلى الألواح الخشبية لتفادى حاجز الجدار من أضعف نقطه به .

ويكمل هذا المخطط غرفة سداسية الشكل بالبرج لها رصيف ومقدمتان لحماية البناية أو المبنى من الفيضانات النهرية الدورية ، ومن هنا نفهم المغزى الواضح لعملية تقوية قاعدته التى تم ترميمها فى الآونة الأخيرة ، ولم يختلف عن هذا برج الحدود .

وهذا البناء الجديد قائم على عدم وجود عناصر أثرية تساعد على افتراض حركية أو تحرك الحاجزين ، وللصعود إليه أو الهبوط منه يتحتم تركيب جهاز مشابه - بنفس المواصفات البنائية - لوضع وتركيب قناطر أو أهوسة خشبية تجعل الفتحات أو التجاويف الأربعة لا مغزى لها ولا فائدة بالكمرات الأمامية وخاصة السفليتين منها ، وبعد التعرف على أن طول المنور بين القوائم الخشبية بالقوس بلغ ٧,٩٠ متراً واعتباراً من أبعاد ومقاسات الأوقاب (الغرف الصغيرة أو الحلوق) ١٨ × ٠,٤٢ × ٠,٣٠ متراً ، أمّا العلوية ١٨ × ٠,٤٥ × ٠,٣٠ متراً ، أمّا السفلية فيمكن قياس أبعادها ٨ × ٠,٤٠ × ٠,١٥ متراً تقريباً ، وبإعطاء الخشب كثافة قدرها ٨٥٠ كيلو جراماً للمتر المكعب فإن وزنها سيصل إلى ٤٠٠ كيلو جرام .

والشبكة الحديدية لى تكون فعالة لا يمكن أن تكون أسياخها الحديدية لا يقل قطرها عن ٥ سم ولا يزيد عن ذلك حتى لا يجرح أو يشرخ الكمرات ، كما أنه لا يمكن

أن يزيد الفاصل بينها عن ١٥ سم ؛ حتى لا تسمح بتسرب أجسام صغيرة على سبيل المثال فى حجم طفل ، أما عددها فلا يمكن أن يزيد عن ٣٥ والطول الشامل لكل قضيب من الحديد من أعلى أول كمره حتى مجرى النهر يبلغ ٨,٨ متر متوسط طوله . والوزن التقديرى لكل كمره أو قضيب علماً بأن كثافة الحديد تبلغ ٨٠٠٠ كجم فى المتر المكعب هى ٤,٨٠٠ كجم ؛ ولهذا فإن كل واحد من الحاجزين بلغ وزنه التقريبى حوالى ٥,٢٠٠ كجم وإمكانيات تركيب فرملتين يدويتين فوق الجدار - ٢,٥٠ / ٢,٦٠ م عرضاً - لرفع الشبكتين الحديديتين أى حوالى ٩,٦٠٠ كجم تقريباً غير كافيتين على الإطلاق بل نستطيع القول بإنها منعدمة تقريباً ، هذا يستدعى أن يكون الجهازان ثابتان وضروريان ، وكل جهاز يجب أن يكون ملائماً ومتكيفاً تماماً مع القوس منذ لحظة تشييده .

تحسينات عبدالله :

وبالعودة مرة أخرى إلى شهادة عبدالله بن زيرى بالنسبة لمنجزاته الدفاعية فى غرناطة متجاهلاً الأحداث المعينة التى وصفها الغرناطى ، فإن أهم ما جاء فى روايته هو تشييد بيليوس (حصن أو قلعة بيليوس التى ذكرناها آنفاً) على أيدي متخصصين من ليون ، واستناداً إلى صعوبة النص أنه تم استخدام عناصر دفاعية جعلت من القلعة حصينة لا يمكن فتحها أو غزوها مهما كانت إمكانات المعتدين التكتيكية (٥٨) ، وهذه العناصر المذكورة التى لم تُمس عندما غادرت القوات الحصن أو القلعة ، وقد دُرست بعناية واستفازة من جانب الفنيين الغرناطيين ، وفى النهاية أفادت فى تحسين الأشغال التى أنجزت بعد ذلك بقليل فى قلعة غرناطة .

و طوال سنوات اعتُبرت بدءاً من مؤلفات ل . توريس بالباس (٥٩) العناصر التى أضيفت من قبل العاهل الزيرى الأخير على قلعة غرناطة يمكن أن تكون ثلاثة أبراج شبه مستديرة ومربعة فى هذا المكان ، وقبول هذه الأبراج الآن على كونها معاصرة يجعل من غير الملائم اعتبارها تجديدات أو ابتكارات إبداعية فى عالم مثل العالم الأندلسى الذى اعتاد على تشييدها متوازية السطوح ؛ نظراً لألفة استخدامها فى الممالك

المسيحية الواقعة على الحدود وفي الحصون الرومانية التي ما زالت باقية في الأراضي الإسلامية ، ولم يبق نموذج واحد يرجع تاريخه في الظاهر إلى عصر الخلافة (٦٠) ، وبات من الواضح استخدامها في قصر الجعفرية الذي أنشئ بضع سنوات قبل ذلك (٦١) .

ولا الأبواب المتعرجة التي ظهرت أول نماذج لها في شبه الجزيرة الأيبيرية هي باب مونايتا وباب لوس بيسوس وكلاهما في قلعة غرناطة ، يمكن أن تكون موضوعاً أو أساساً لحل أو لإجابة عن تساؤلاتنا . وإذا آمناً بصلاحية نظرية مانويل جوميث مورينو (٦٢) فإنه لا يساورنا أدنى شك في الأصل الشرقي لهذا النوع من المداخل ولا في وصوله إلى شبه الجزيرة الأيبيرية في العصر الإسلامي ، ولكن إذا لم يكن هذا الرأي صحيحاً ، وكان مصدر هذه المداخل الممالك الشمالية كيف نبرر عدم وجودها في المباني والمنشآت المسيحية المعاصرة ، وهذا الشك يبدو أكثر وضوحاً عند اعتبار العدد الكبير للنماذج المحفوظة (٦٣) في النصف الجنوبي لشبه الجزيرة الأيبيرية والمؤرخة كلها عقب القرن الحادي عشر (٦٤) .

ووفقاً لرأينا فإن الابتكار المستخدم بواسطة القوات الليونية (قوات منطقة أو مملكة ليون الإسبانية الواقعة في الشمال) في بيليوس والمقتبسة من مدينة غرناطة قامت على أساس استخدام الحاجز كعنصر حماية للأبواب أو البوابات ، والذي تكيف هنا مع وظيفة متشابهة نسبياً ألا وهي السماح لمياه نهر الدارو بدخول القلعة أو الحصن في غرناطة ، وكذلك خروج الماء أيضاً باستخدام جهاز أو وسيلة مماثلة، واستخدام هذا النوع من النظام أو الجهاز ربما كان جديداً بالنسبة للعصور الوسطى الإسبانية ولكنه موثق في العالم البيزنطي منذ عصور مبكرة ، ويصف بروكوبيو دي كساريا واحداً مشابهاً بتجويف تحميه أسياخ أو قضبان حديدية للسماح بمرور الماء في النهر من خلال القلعة في الحصون والاستحكامات الكائنة في داراسو التي تم إصلاحها في عهد الإمبراطور جستينيان ٥٢٧ - ٥٦٥ من الميلاد (٦٥) .

ووصول تأثيرات أوروبية معترف بها إلى الممالك المسيحية الشمالية إبّان القرن الحادي عشر لا يجب قصرها على مجالات أخرى من النشاط البشري ولا في وضع عسكري متغير كثيراً وغير ثابت ، والمنطقي هو افتراض دخول تقنيات عسكرية جديدة

بين تأثيرات ثقافية أخرى إلى عالم غير مستقل حتى هذه اللحظة ؛ حيث كان يعتمد إلى درجة كبيرة على تقاليد هو تقليد النماذج المستوردة من الدول الأندلسية المزودة بتنظيم وسبل بشرية أكثر رقياً أو كفاءة .

والخلاصة فإن بقايا المسمى " بجسر القاضى " والمعلومات الواردة فى التبيان لا تسمح فقط بالتحقق وإعادة بناء أحد العناصر الهامة التى شكلت جانباً مهماً من الدفاعات الخاصة بالحمراء فى أحد قطاعاتها الضعيفة جداً ، ولكن أيضاً تجسيد لظاهرة التأثير الثقافى ، ولأول مرة بدأت الأندلس تعاني من تقهقر فنى حتى فى المجال العسكرى بالنسبة لجيرانها المعتدين فى الشمال الذين اتخذوا أنظمة وابتكارات جديدة قادمة من القارة الأوروبية ، وكانت قادرة على استخدامها لصالح استراتيجية هجومية وليست فقط دفاعية جاعلة من الحاجة ميزة ، وقد كان ذلك مالوفاً منذ بضع سنوات مضت ، كما أن الحمراء نفسها ستعاني من ذلك بعد قرن من الزمان .

التوافق بين الأنباء الموثقة والهندسة المعمارية :

وأخر عنصر فى الاعتبار هو التوافق الزمنى بين العناصر المعمارية المحفوظة فى قلعة الحمراء والمخطط المتطور الموصوف أنفاً الذى لقى مساعدة خاطئة فى الوثائق المكتوبة .

و على الرغم من التغيرات أو التعديلات العميقة التى عانى منها النظام الدفاعى فى التل أواخر العصر الوسيط والعصر الحديث ، هذه التغيرات تُصعّب عمل وتحليل اللوحات والأبراج التى يرجع تاريخها إلى ما قبل العصر النُصرى ، والتى تسمح بعزل أنواع متباينة من الأجزاء المعمارية ووضع نظام لوصف طبقات الجدران اعتباراً من وضعها الجغرافى ، وهذا التغيير الشكلى يلاحظ أكثر فى النُصف الشمالى للقلعة ولكن يجب تقييمه بحذر شديد ؛ نظراً لارتفاع مؤشره كأمر غامض أو من قبيل الصدفة ^(٦٦) .

وهناك يمكن التمييز بين تركيب ثلاثة أنماط أو أنواع من الأعمال حدث بها إصلاحات عن طريق الترقيع وهذه الأعمال كانت مختلفة التراكيب أو البنيات والمواد ، الطبقة العلوية والسفلية هي أشغال لحوائط أو حواجز من الملاط والجص أو الزلط، ولكنها تختلف فيما بينها بواسطة كثرة الجير والشكل المسطوح أو المستوى للجص أو الزلط أحياناً أردوازي ، وهي أكثر وضوحاً في الطبقات السفلية .

أما الحلية المركزية فإنها مشيدة على أساس خاص من الأحجار غير المصقولة (الدبش) السمكية والمثبتة بالملاط الرملي والجيري بين صفوف من الطوب اللين (٦٧) .

وهذه ميزة أو ملمح مشترك في كافة الأنماط البنائية ، وتكمن في لونها الأحمر في جزء من الحائط المُجَهَّز من الطَّيْن المدقوق ؛ حيث نجد أكاسيد الحديد تغطي سطح الجدران حتى وهي مطلية باللون الأبيض حتى تنتهي بصبغتها ، وربما تكون هذه الظاهرة (نغنى ظاهرة الاحمرار) هي المسئولة أو هي أصل التسمية العربية للقلعة مما أدى إلى نسيان اسمها اللاتيني القديم .

وبالفاظ ذات تحديد رمزي وزماني نجد أن الفرق واضح بين منوعات الدبش المذكورة ، ويصعب التحقق من بعض هذه الأحجار غير المصقولة (الدبش) ومقارنتها بأي من المذكورة في الوثيقة المكتوبة .

وفتح مجسات في بعض النقاط أو أماكن بالسياج أو الحاجز حتى الوصول إلى المستوى الجيولوجي الذي استخدم قاعدة لها هو السبيل الوحيد القادر على نقل تشابه لمخطط نسبي إلى حد كبير ، وحينذاك نستطيع وضع مقارنة صارمة بين الأخبار الموثقة والإيضاحات المادية للإجابة على بعض التساؤلات المتعددة التي تنبعث من البنية الشكلية للقلعة أو الحصن العسكري .

الخلاصة أو الاستنتاج :

من كل ما تقدم نستطيع بهذا الشكل إيجاز أو وضع تاريخ لتل الحمراء ، وقد كان هناك حصن أو قلعة يمثل جزءاً من النظام الإستراتيجي الذي أقامته المملكة القوطية

الغربية فى طليطلة ليكون فى مواجهة الأراضى المفتوحة خلال النصف الثانى من القرن السادس الميلادى على أيدى القوات الإمبراطورية لبيزنثىو ، فمن الممكن أن يكون قد أعيد بناؤها أو تمت الإفادة من بناء سابق نظراً لمميزات المكان لحماية الجانب من التل أو المرتفع حيث شيدت قلعة إيلبيرى ، ويعد ذلك بقليل قام قوطى شهير - وبالتأكيد أحد العسكريين - بتشيد كنيسة وخصصها لسان إستيبان فى المكان المسمى بآتيبولا ، وهذا المكان عُثرَ عليه فوق تل الحمراء ، وإن كنا نجهل موقعه الحقيقى ، فمن الممكن أن تكون الأرض التى أقيمت عليها فيما بعد كنيسة سانتا ماريا بالحمراء وخارج أسوار الحصن العسكرى .

وبعد الانتهاء من فتح الأراضى التى كان يحتلها البيزنطيون فإنَّ القلعة فقدت الكثير من قيمتها الإستراتيجية ، وقد استخدمت فى الدفاع عن مدينة إيلبيرى، وستستمر كذلك حتى الغزو العربى حيث أصبحت نقطة للمراقبة للملاك الجدد للأندلس، والتى استخدموها أيضاً كمخبأ فى أثناء الصراعات والنزاعات الأهلية التى وقعت فى المنطقة بأسرها خلال النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى ، ولأول مرة أُطلقَ عليها وصف الحمراء .

والقلعة موضع الجدل ستصبح جزءاً من الأماكن الخاضعة لسيطرة المتمردين عمر بن حفصون حتى استولى عليها عبدالرحمن الثالث عام ٩٢٥ ، وفى ذلك الوقت كانت تعرف بقلعة إيستيبان (أو حصن إيستيبان) تخليداً للقديس الذى يحمل الاسم نفسه الذى سُميت الكنيسة باسمه والتى شيدها جوديليوبا .

ولم نعرف شيئاً عنها حتى منتصف القرن الحادى عشر بفضل الشهادة التى أدلى بها الزيرى عبدالله ، وفى تلك الأثناء وقع حدثان أثرا بشكل ملحوظ على النظم الدفاعية لغرناطة ، الأول : إعادة تشيد القلعة القديمة التى أقيمت بأعلى قمة الحمراء ، والثى شُيدت بناء على مبادرة من الوزير اليهودى ابن النجرايا الذى فكر فى استخدامها كمخبأ له ولأسرته وممتلكاته .

أما الحدث الثانى : فقد وقع فى نهاية القرن نفسه ؛ حيث تم استكمال تحصين القلعة الغرناطية ، وقد اتصلت على الأقل بواسطة جدار البائسين وفى تلك اللحظة تم

تشبيد المسمى بجسر القاضى لإمدادها بالمياه وكذلك للسماح بدخول نهر الدارو إلى داخل المدينة دون الإخلال بأمنها وأمانها .

وجانب من هذه الاستنتاجات يقوم على أسس وثائقية ، وهى تفتقر إلى التأكيد والتوثيق مما يحتاج إلى إجراء بحث أثرى تكميلى .

و من الصعب أن يؤكد أو أن ينفى علم الآثار بشكل قاطع المعلومات التى أوردها المؤرخون فى هذا الصدد ولكن بلا أدنى شك ستساعدنا على التوصل إلى استنتاجات ملموسة عن تطور القلعة فى فتراتنا المظلمة أى غير المعروفة أو المجهولة ، وربما يكون جزء من جدار القلعة يُشكل جانباً مما شيده القوط فى مملكة طليطلة عندما لم تكن الحمراء غير معروفة بهذا الاسم ، وكانت تستخدم للحماية وكواجهة خارجية لإلبيرى القديمة .

الهوامش

(١) تورييس بالباس . ل . د . (١٩٤٠) لقد أثبت أن غالبية المؤلفات الأكثر انتشاراً التي اشتملت على أنباء نادرة عن الحمراء ما قبل القرنين الثالث عشر والرابع عشر فترة الازدهار الكبرى ، والتي تم فيها تشييد معظم المباني التي لا تزال باقية ما هي إلا أنباء غامضة في كثير من الأحيان وخاطئة وليست بها إشارة إلى المراجع أو النصوص التي أخذت منها (ص ١٥٥٠) .

(٢) بعض الأجزاء المعمارية والأحجار المتنوعة بنقوش وكتابات - كلها رومانية موجودة بالقصر أو بالجدران أو بإنراج الحمراء يمكن أن يكون قد تم نقلها إلى الحمراء من تل القلعة القديمة إلى الضفة الأخرى لنهر الدارو حيث كانت مدفونة تحت الأرض في القرن الثامن عشر أما بقايا أو آثار المدينة الرومانية المعروفة باسم إلبيري نفس المرجع ص ١٥٦ . وهذا الرأي كان سائداً حتى الوقت الحالي لدى كثير من المؤلفين على الرغم من قلة الأدلة ذات الطابع الأثري . كيانيلاس . د . د . (١٩٩٢) ص ١٢٢ الملحوظة - ١ .

(٣) جوميث مورينو . م . (١٨٨٩) ص ٩ - ١١ والمعلومات عن ظهورها يقدمها ف . بيرموديث دي بيدراثا (١٦٣٨ ، ١١ - الفصل الحادي والعشرين) وهو الحجر الجيري المرمى الأبيض ومقاساته ٠.٦٠ × ٠.٥٢ × ٠.١٣ م . ولا زال هناك سطران من النص ولكن تنقصه الزاوية اليسرى العلوية واليمينى السفلية .

(٤) فلوريت . أ . (١٧٥١) ص ٣٣ - ٣٤ و ١٧٥٤ - ١٥٠ و ١٥٢ ، هوينر . أ . (١٨٧١) ص ٢٣ رقم ١١٥ (١٩٠٠) ص ٥٨ ، فيتا . ف . (١٨٩٢) ص ١١ و ١٩٠٢ ص ٢٥٣ ، جوميث مورينو مانويل (١٨٨٨) ص ١١ ، (١٨٩٢) ص ١٢٠ - ١٢١ ، ديهيل . أ . (١٩٦١) ص ٢٥٦ رقم ١٨١٥ ، بيبيس خ . (١٩٦٩) ص ١٠٠ - ١٠١ رقم ٢٠٣ ، جارتيا مورينول . أ . (١٩٧٤) ص ٥٢ ، باستور مومينوثا . أ . (١٩٨٧) رقم ١٥٢ ص ٢٩٣ - ٢٩٦ صورة ٩٨ ، كانتو . أ . في الرواية الجديدة التي يقدمها في نفس عمله رقم ١٨٨ .

(٥) جوميث مورينو مانويل (١٨٨٩) ص ١٠ .

(٦) من بين المظاهر الأخرى يجب أن نشير إلى رأى خ . بيبيس (١٩٦٩) رقم ٢٠٣ ص ١٠١ ، والذي يعتقد فيه أن تم تنفيذها كاملة في الفترة من ٦٠٣ إلى ٦١٠ في أثناء حكم ويتيريكو . ويرى أيضاً أن تاريخ تطويع تكريس الكنائس يتعلق بالثانية والثالثة أما فيما يخص الأولى فلم يظهر تاريخ اليوم ولا الشهر ولا السنة .

(٧) إن قراءة هذا الاسم الذي قدمه كل من هوين روجوكيث مورينو الأول في عام ١٨٧١ ص ١١٥ والثاني في سنة ١٨٨٩ ص ١٠ وشكا في صحته قد قبله إي - ديهيل عام ١٩٦١ ص ٢٥٦ رقم ١٨١٥ وقد شكك فيه من جديد

(٨) من جانب خ . بيبيس (١٩٦٩ ص ١٠١) الذي يستبدله بتحفظ بجوديليو وقد قبل رأى ف . فيتا (١٩٠٢ ص ٢٥٣) .

- (٩) نفس المصدر ص ٢٠١ الملاحظة ١.
- (١٠) يسميه بتحفظ كوميتي كل من ف. فيتا (١٩٠٢) ص ٢٥٣، وخ. بيبس (١٩٦٩) ص ١٠١. أ. جارثيا مورينو (١٩٧٤) ص ٥٣ ويعتقد أن الأمر يتعلق بأحد الأثرياء من الملاك بالمنطقة، وهذا الرأي يشاركه ف. سلفاد بيتورا (١٩٩٠) ص ٣٣١ - ٣٣٢.
- (١١) المصدر السابق ذكره.
- (١٢) صفر ٢٧٥ ربيع الأول ٣٠٠ هجرية (الموافق ٢٩ يونيو ٨٨٨ / ١٦ أكتوبر ٩١٢).
- (١٣) البيان (١٩٠٤) ص ١٣٨ - ١٣٩ و ٢٢٠ - ٢٢١.
- (١٤) للسرد الكامل لجميع الأحداث انظر دوزي ر. (١٩٣٢) الجزء الثاني ص ٢٩ - ٣٤ وكبانيلاس (١٩٩٢) ص ١٢٧.
- (١٥) مقدمة للطبعة الثانية لمناويل جوميث مورينو ١٩٨٨.
- (١٦) جارثيا مورينو ل. أ. (١٩٩١) ص ١٦٢ و ١٨٢ وياخو خيريس م. (١٩٩٣) ص ٣٨٤.
- ٣٨٨.
- (١٧) سوتو مايور م. سولا م. وتشوكلان. ث. وروكا مانويل مورينووماريا أ. وليثكاينو. ر (١٩٨٨).
- (١٨) اعتبر جوميث مورينو أن كنيسة سان إستيبان لم تنشئ في مكان الاكتشاف، ولذلك فإن هذا الاسم لم يُعَيَّن تل الحمراء ومع ذلك قَبِلَ بأن الكتابة أو النقش يمكن أن يكون قد زُيِّن أو زُخِرَف كنيسة سان بيسينتي والتي يمكن أن تكون قد تأسست في الحمراء أو في مكان آخر، جوميث مورينو م. (١٨٨٩) ص ١١ فإنه يصدق ضمناً في عام ١٨٩٢ ص ١٢٠ - ١٢١.
- (١٩) ابن حيّان (١٩٨١) ص ٣٧ - ٣٨، ٤١، ٤٢، ٨٦، ٨٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ٢٤٢، ٥٧، ٥٨، ٦١، ٦٢، ١٠٧٥، ١٠٨، ١٥٤ - ١٥٥ و ٣٦٨.
- (٢٠) نفس المصدر السابق ص ٤٤١.
- (٢١) التاريخ المجهول (١٩٥٠) ص ٤، ٧ والطبعات التالية ص ١٠١، ١٠٧.
- (٢٢) البيان (١٩٠٤) ص ٣١٤ و ٣٧١ و ٣١٤.
- (٢٣) التاريخ المجهول (١٩٥٠) ص ١٥ - ٢٤.
- (٢٤) " في رأينا أنهما قلعتان مختلفتان إحداهما تقع في البيرا والثانية ربما تكون سان إستيبان ديل يوريتو " (١٩٧٩) ص ١٤٧ - ١٤٨ ملحوظة ٤٤.
- (٢٥) ابن حيّان (١٩٨١) ص ٣٧ والطبعة التالية ص ٥٧.
- (٢٦) ابن حيّان (١٩٨١) ص ٤١ - ٤٢ والطبعات التالية ٦١ - ٦٢، البيان (١٩٠٤) ص ٢.

(٢٧) ابن حيان (١٩٨١) ص ١٢٩ والطبعات التالية ص ١٥٤ - ١٥٥ ، البيان (١٩٠٤) ص ٣١٣ - ٣١٤ .

(٢٨) ابن حيان (١٩٨١) ص ١٣٠ والطبعات التالية ص ١٥٥ .

(٢٩) في النص العربي للتواريخ الثلاثة فإن الناشرين قد وضعوا كلمة سان أو شان مقدمة على إيشتيبان أو إيشتيبان في المرات التي لم توجد فيها كلمة سان دون التنبيه أو التحذير من عيب التفسير الضمني . وفي نهاية الأمر فإن سان إيشتيبان كان شائعاً لإطلاقه على المكانين ولكن في أحدهما فقد استعملت شانت عندما ذكره المؤرخون أو الكتاب العرب في مؤلفاتهم .

(٣٠) ابن عبده (١٩٨٥) (١٩٨٧) (١٩٨٩) ، شالميتا بيدرو (١٩٧٣) ، إدريس . هـ . ر . (١٩٦٤) و (١٩٦٥) و (١٩٦٥ مكرر) ، خيمييث خ . (١٩٩٢) ، ليفي بروفينسال أيجارثيا جوميث إي (١٩٨٠) ومينينديث بيدال (١٩٤٤) وتيبى . أ . ت (١٩٨٤) ، (١٩٨٦) والقاضي (١٩٩١) .

(٣١) ليفي بروفينسال . أي وجارثيا جوميث إي (١٩٨٠) ص ٢٦ ب ، والطبعات التالية ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٣٢) المصدر السابق ذكره ص ٣٢ .

(٣٣) باراخيريو . ف . ب . (١٩٥٦) ، (١٩٦٨) وبريتش . ي . (١٩٦٩) .

(٣٤) ليفي بروفينسال . إي (١٩٦٠) .

(٣٥) ف . إيرنانديث ، حدد موقع هذه القلعة بالقرب من غرناطة بين بينوس موييتي وأليورا ، ليفي بروفينسال إي (١٩٣٦ / ١٩٢٩) ص ٣٠ - ٣١ .

(٣٦) ليفي بروفينسال وجارثيا جوميث . إي (١٩٨٠) ص ٢٤ والطبعات التالية ١٥٤ .

(٣٧) وقد حدثت هذه الواقعة في يناير ١٠٧٥ ستة أشهر قبل وفاة المأمون ، دوتلوب . د . م (١٩٦٥) ، ليفي بروفينسال . إي ومينينديث بيدال ر . (١٩٤٤) ص ٣ .

(٣٨) ليفي بروفينسال وجارثيا جوميث (١٩٨٠) ص ٣٤ والطبعات التالية ص ٥٦ .

(٣٩) يشير إلى ظهور برطمان أو إناء من الفخار به ثلاثة آلاف مثقال ، وذلك في أثناء القيام بعمليات تقوية الحصون في منزل اليهودي أبو ربيع أمين خزانة باديس بن زيري ، المصدر السابق ذكره ص ٦١ والطبعات التالية ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٤٠) ليفي بروفينسال . إي (١٩٣٦) ص ١٢٥ ، ليفي بروفينسال وجارثيا جوميث (١٩٨٠) ص ٥٦ ملحوظة ٥٣ .

(٤١) المصدر السابق ذكره ص ٥٦ - ٥٧ ملحوظة ٥٣ .

(٤٢) المصدر السابق ذكره ص ٥٧ والطبعات التالية ٢٢٢ الشكل ٢ إعادة تشكيل افتراضية .

(أ) الهيكلان الأوليان الخارجى والداخلى فى القسم نجد أنَّ الأوقاف أو الغرف الصغيرة تظهر حمراء اللون والخطوط المتصلة من الرقائق المعدنية التى تحمى الخشب وأماكن دق المسامير .
أما الخطوط المنقطعة الحمراء ستكون ألواح الهيكل .

(ب) أما الهيكلان الآخران نجد أنَّ الهيكل ذا اللون الأسود من اليسار إلى اليمين يتعلق بالأخابيد أو الفتحات حيث كان يوجد الحاجز أما الهيكل ذو اللون الأحمر من اليمين إلى اليسار فإنه يتعلق بالأوقاف حيث كانت تدخل الكمرات المثبتة للشبكة التى كانت تمسك ألواح الإغلاق .

(ج) الهيكلان الداخليان -

(٤٣) طبقاً لتوريس بالباس (١٩٣٤) ص ٣٦٣ حيث نجد أنَّ الأكثر شرقية كانت محشوة بالأحجار غير المصقولة (النبش) عندما شُيّد المنزل الذى كان فوقها أما الأخرى فقد كانت محشوة بالانقاض .

(٤٤) المصدر السابق .

(٤٥) استناداً إلى ف . إنريكيث دى خوركيرا (١٩٣٤) الجزء الثانى ، ص ٥٦١ ، ل . توريس بالباس المصدر السابق ذكره ص ٣٦٣ يفترض الهدم الكامل للبرج عام ١٦٠٩ عندما تم تنظيم المجرى الحالى لنهر الدار " كان قد هدم البرج القوى الكائن بالنهر وقد أنشئ مكانها جسر قوى " انظر أيضاً ف . إنريكيث خوركيرا (١٩٣٤) الجزء الأول ص ٨ .

(٤٦) توريس بالباس . ل . (١٩٣٤) .

(٤٧) جسر القاضى الحقيقى كان قد شُيّد وفقاً لنبا أورده ابن الخطيب فى أثناء حكم باريس بن زيرى بواسطة القاضى الغرناطى على بن محمد بن توية (المصدر السابق ص ٢٢) وقد تمّ هدمه عام ١٥٩٠ .

(٤٨) ليفى بروفينسال . إى وجارثيا جوميث (١٩٨٠) ص ٦١ والطبعات التالية ص ٢٣٧ .

(٤٩) كان الرصيف قوياً متيناً (ريكاردو . ر . ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ ، ١٩٦١) الذى كان يربط بين القلعة الاولى (القلعة القديمة) ومجرى نهر الدار والسماح بعملية السقاية . سيكو دى لوشينا . ل . (١٩٦٨) .

(٥٠) سيكو دى لوشينال (١٩١٠) ص ٤٠ - ٤١ .

(٥١) توريس بالباس . ل . (١٩٦٠) .

(٥٢) أوليبر أورسادو . خ و م . (١٨٧٥) ص ٢٠٢ . كان يعبر الجدار فوق نهر الدار فوق الجسر العربى الذى بقى منه رأسه وبه مؤشرات تدل على إنزال الحاجز الذى كان موجوداً هناك لإغلاق مجرى النهر " ، جوميث مورينو ، م . (١٨٩٢) ص ٤١٨ ، توريس بالباس . ل . (١٩٣٤) ص ٣٦٣ و (١٩٤٩) ص ٢٢٣ - ٢٢٤ . عنصر احتياطى للمساعدة فى استخدام الحاجز الثابت تقوم به بعض الأجهزة الخاصة بالنظافة عام ١٩٣٧ والمحافظة فى بلدية غرناطة (المصدر السابق ذكره) ص ٤٢٠ - ٤٢١ . حيث يذكر أنَّ باب الشبكة فى نهر الدار وباستخدام المصطلح شبكة فى مدلولها كحاجز مفتوح أو شبكة .

ومن الذين يؤيدون استخدام مصطلح هويس أو قنطرة المؤرخ ف. بيرموديث دي بيدراثا (١٦٣٨) الجزء الأول، الفصل الثالث والعشرين، الورقة ٣٣١ في المذكرة بواسطة م. و.خ. أوليبيير أورتانو (١٨٧٥) ص ٢٠٢ وكذلك ل. توريس بالباس (١٩٤٩) ص ٤٢٤ وأمام البرج المحفوظ هذا الآن كان هناك برج آخر وبينهما هويس أو قنطرة كان يتم بها إغلاق النهر عند دخوله المدينة.

(٥٢) توريس بالباس، ل. (١٩٤٩)، ص ٤٢٤.

(٥٤) (١٦٣٨) الجزء الأول، الفصل الثالث والعشرين، الورقة ٣٣١.

(٥٥) توريس بالباس، ل. (١٩٤٩)، ص ٤٢٤.

(٥٦) سمك الجدار اعتباراً من عرض القوس كان يتراوح ما بين ٢,٦٠ و ٢,٥٠ متراً.

(٥٧) انظر توى. س. (١٩٣٩).

(٥٨) إن أفكار عبيد الله في هذا المقام معبرة جداً ليس فقط كسرد لواقعة من الوقائع بل أيضاً كوصف لوضع عسكري عام في الممالك الأندلسية، وهو الاعتراف بأهميته بعد انسحاب المعتمد والقوات المسيحية أعددت جيشاً تدريباً للاستيلاء على القلعة، ولكنني لم أستطع ذلك؛ فالاستيلاء على القرية بحد السيف كان يعتبر عملاً رائعاً ومفخرة لأمير مسلم مثلي ولكن ما حدث أن القلعة كانت أمامي، ولكنني لم أستطع غزوها بسبب دفاعاتها وتحصيناتها والتجهيزات الداخلية بها كما أنني لم أتمكن من محاصرتها حتى تنفذ احتياطاتها لأن العدو استمر يستقبل الإمدادات والمساعدات. وفي النهاية اضطرت إلى رفع الحصار، والسيطرة على الحصن في هجمة كان يستطيع الأقوى القيام بها، ولكننا كنا في هذا الوضع سواء ولم يكن أمام جميع الملوك سوى دفع رواتب الجيش وإذا أراد أي عامل تدمير هذا الجيش كان يتحتم عليه أن يدفع مزيداً من المال، ليفي بروفينسال. إيواي جاريثا جوميث (١٩٨٠) ص ٢٩، ٢٩ والطبعات التالية ص ١٥٥.

(٥٩) توريس بالباس، ل. (١٩٤١) ص ٤٤٢، جوميث مورينو مانويل (١٩٥١) ص ٢٥٥.

(٦٠) مارتينيث، س. (١٩٨٧) ص ٢٠٣ - ٢٠٥.

(٦١) شيد قصر الجعفرية في الفترة من ٤٤١ / ٤٧٤ - ٤٧٥ هجرية الموافق الخامس من يونيو ١٠٤٩-١٠٥٠ والحادى والثلاثين من مايو ١٠٨٢ / ٢٠ مايو ١٠٨٣ (انظر أويرت، تش (١٩٧٩) ص ١٠.

(٦٢) جوميث مورينو، م. (١٩٥١) ص ٢٥٥.

(٦٣) ولا باب من البوابات المحفوظة في مملكة ليون حيث درست دراسة منهجية والمؤرخة بين أصولها والقرن الثالث عشر ولها محور متعرج. وهناك حالة واحدة في جدار ثامورا - سان ميغيل المختفية - كان لها مدخل في المنحنى، ولكن لن يكون هذا قبل القرن الثاني عشر، انظر جوتيريث خ. أ. (١٩٩٠) ص ٢٨.

(٦٤) توريس بالباس، ل. (١٩٦٠).

(٦٥) بروكويدي سيباريا (١٩٦١) ص ١٨٠، ٥.

(٦٦) وبالفعل فإن الإصلاحات التي أجريت على الأجزاء القديمة للوحة لم تكن منتظمة دائماً، كما لم تتبع نهجاً أفقياً اعتباراً من ارتفاعات متجانسة ووجود انحرافات عميقة أو عدمه يجعلنا ندرك وجود طلائع متأخرة في المناطق المنخفضة والعكس بالعكس .

(٦٧) والنسيج القريب جداً بين البرج الثاني والثالث لأبراج اللوحة كان ينظمها بشكل خاص ، فالوسطى بها الطوب اللبن بالعرض أما البرجان الآخران فالأجر بهما يرى وجهه .

المراجع

- (١) أجيرى ، ف . خوخيمنيث ماريا ، ث " مدخل إلى جيان الإسلامية " دراسة جغرافية وتاريخية ، جيان ١٩٧٩ .
- (٢) أرييه . ر . " الملكة النصرية بغرناطة (١٢٣٢ - ١٤٩٢) " مدريد ١٩٩٢ .
- (٣) برجيبوهر ، ف . ب . " قصر الحمراء فى القرن الحادى عشر " صحيفة واينبرج والمعهد الثقافى العدد ١٩ ، ١٩٥٦ .
- (٤) نفس المؤلف " قصر الحمراء مجموعة دراسات فى القرن الحادى عشر فى إسبانيا الإسلامية " برلين ١٩٦٨ .
- (٥) " البيان تاريخ أفريقيا وإسبانيا " ترجمة أى فجنان ، الجزائر ، ١٩٠٤ .
- (٦) ابن عبده " كتابة تاريخ الأندلس أثناء عصر ملوك الطوائف " مجلة الغرب الإسلامى والبحر المتوسط ، العدد ٤٠ ، ١٩٨٥ ، ص ١٢٣ - ١٤١ .
- (٧) ابن عبده " جوانب من الواقع الأندلسى فى القرن الخامس الهجرى " طيطوان ، ١٩٨٧ .
- (٨) بيرموديث دى بيدراثا ، ف . " تاريخ الكنائس بدايات وتطور المدينة والدين الكاثوليكى فى غرناطة - غرناطة ١٦٣٨ .
- (٩) ابن عبده " مباحث فى التاريخ الأندلسى " الرباط ، ١٩٨٩ .
- (١٠) بريستش . ك . " أحداث شرقية " ١٩٦٩ ، ص ٦٩ - ٧٢ .
- (١١) كبانيا س . د . " الحمراء " مقدمة تاريخية فى مجلة الأندلس الفنون الإسلامية فى إسبانيا ، مدريد ١٩٢٢ ص ١٢٧ - ١٢٣ .

- (١٢) تشالميتا بيدرو " تاريخ متقطع وغير محدد " إسبانيا ١٢٠ ، ١٩٧٣ ، ص ٢٧ - ٧٥ .
- (١٣) كريزويل ، ك . أ . ث . " الهندسة المعمارية الإسلامية " أكسفورد ، ١٩٤٠ .
- " تاريخ مجهول " لعبد الرحمن الثالث الناصر ، نُشِرَ لأول مرة وترُجمَ مع مقدمة وهوامش وفهرس بواسطة ليفى بروفينسال وإيميليو ديهيل إى وجارثيا جوميث ، مدريد - غرناطة ١٩٥٠ ، نقوش لاتينية مسيحية . رلين ، ١٩٦١ .
- (١٤) بوزى ، ر . " تاريخ المسلمين فى إسبانيا غزو المرابطين للأندلس (٧١١ - ١٧١٠) " ليدن ، ١٩٣٢ .
- (١٥) بونلوب . د . م . " تاريخ المسلمين فى الأندلس " ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ، ١٩٦٥ .
- (١٦) أيبورت . تشى " اكتشافات إسلامية فى بلاجيرو الجعفرية بسرقسطة " مدريد ١٩٧٩ .
- (١٧) فيتا ، ف . " عبارات يونانية فى شواهد قبور قوطية غربية " صحيفة أكاديمية التاريخ الملكية ، ٢١ ١٨٩٢ ، ص ٥ - ١٩ .
- (١٨) فيتا ، ف . " القديسة أولاليا فى برشلونة " إحدى كنائسها فى القرن الخامس الميلادى ، صحيفة أكاديمية التاريخ الملكية ، ص ٤٣ ، ١٩٠٣ ، ص ٢٥٠ - ٢٥٥ .
- (١٩) فلوريت . إى " إسبانيا المقدسة " الجزء السابع ، مدريد ، ١٧٥٤ .
- (٢٠) جارثيا مورينو . ل . أ . " وصف لمملكة القوط الغربيين فى طليطلة " سلمنكا ، ١٩٧٤ .
- (٢١) جارثيا مورينو . ل . أ . " الغزوات وإحتلال شبه الجزيرة ومراحل نحو توحيد أراضى إسبانيا " فى إسبانيا القوطية الغربية . تاريخ إسبانيا ، مينينديث بيدال ، الجزء الثالث ، ١٩٩١ ، ص ٦١ - ٢٦٨ .

(٢٢) جوميث مورينو مانويل " آثار معمارية فى إسبانيا " غرناطة ، مدريد ، ١٩٠٧ .

(٢٣) جوميث مورينو مانويل " الفن الإسلامى حتى عصر الموحدين " الفن الإسلامى ، فى مجلة فن إسبانيا ، الجزء الثالث ، مدريد ١٩٥١ .

(٢٤) جوميث مورينو مانويل " آثار رومانية وقوطية غربية فى غرناطة " ١٩٨٨ ، الطبعة الأصلية ترجع إلى عام ١٨٨٩ .

(٢٥) جوتيريث . خ . أ . " تحصينات واستحكامات مدينة ثامورا " دراسة أثرية وتاريخية ، ثامورا ، ١٩٩٠ .

(٢٦) إنريكيث دى خوركيرا . ه . " حوليات غرناطة " طبعة مادين أوثيتى ، غرناطة ، ١٩٣٤ .

(٢٧) إيرنانديث . ف . " منارة أو مؤذنة عبد الرحمن الثالث فى المسجد الكبير بقرطبة " غرناطة ، ١٩٧٥ .

(٢٨) هوينر باتش " المسلمون فى إسبانيا " زيوريخ ، شتوتجارت ، ١٩٧٠ .

(٢٩) هوينر . إى . " نقوش مسيحية إسبانية " برلين ١٩٠٠ .

(٣٠) هويسى ميراندا . أ . غرناطة ، ١٩٧٧ ، ١٠٣٥ - ١٠٤٣ .

(٣١) ابن حيان " تاريخ الخليفة عبد الرحمن الثالث الناصر فى الفترة من ٩١٢ - ٩٤٢ (المقتبس " ترجمة وهوامش وفهارس ماريا خيسوس فيجيريا وفيدريكو كورنيتى وتمهيد خ . م . لكاراً ، سرقسطة (١٩٨١) .

(٣٢) إدريس . ه . ر " الزيريون فى إسبانيا " الأندلس ، العدد ٢٩ ، ١٩٦٤ ، ص ١١٩ - ٢٩ .

(٣٣) إدريس . ه . ر . " أهل فرمونة " مجلة الأندلس ، العدد ٣٠ ، ١٩٦٥ ، ص ٢٧٧ - ٢٩٠ .

- (٣٤) إدريس . هـ . ر . " أهل باداخوث " مجلة الأندلس ، العدد ٢٠ ، ١٩٦٥ ، ص ٢٧٧ - ٢٩٠ .
- (٣٥) خيمينيث . خ . " الأمير عبد الله " تاريخ ، العدد ١٦ ، ١٩٤ ، ١٩٩٢ ، ص ١١٠ - ١١٨ .
- (٣٦) خيمينيث ماتا . م . ث . " غرناطة الإسلامية " إضافة إلى دراسته الجغرافية السياسية والإدارية من خلال أسماء الأماكن ، جامعة غرناطة ١٩٩٠ .
- (٣٧) ليفي بروفينسال . إي " مذكرات عبد الله في غرناطة " مجلة الأندلس ، العدد ٣ ، ١٩٣٦ / ١٩٣٩ ص ٢٩ - ١٤٣ .
- (٣٨) ليفي بروفينسال . إي " أجزاء من مذكرات الملك الزيري عبد الله في غرناطة " مجلة الأندلس ، العدد السادس ، ١٩٤١ ص ١ - ٣ .
- (٣٩) ليفي بروفينسال . إي " مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني الزيري بفرناطة (٤٦٩ - ٤٨٣) " المسمى بكتاب التبيان من النسخة الوحيدة المحفوظة بجامع القرويين بفاس ، القاهرة ١٩٥٥ .
- (٤٠) ليفي بروفينسال . إي " العباديون " ١٩٦٠ ، ص ٥ - ٧ .
- (٤١) نفس المؤلف " عبد الله بلوجين " ١٩٧١ ، ص ٤٥ .
- (٤٢) نفس المؤلف وإيميليو جارثيا جوميث ، القرن الحادي عشر على لسان المتكلم " مذكرات عبد الله آخر ملك زيري في غرناطة الذي أطيح به من عرشه على أيدي المرابطين (١٠٩٠) " ترجمة ليفي بروفينسال (١٩٥٦) وإيميليو جارثيا جوميث ، مدريد ١٩٨٠ .
- (٤٣) مارتينيث . س . " بعض مظاهر الحصن الإسلامي في تالاييرا دي لارينا " المؤتمر الثاني للأثار الإسبانية في العصر الوسيط ، الجزء الثاني ، مدريد ١٩٨٧ ، ص ٩٩ - ٢٠٥ .
- (٤٤) أولييرا أورتادو . خ وم . " غرناطة وأثارها العربية " مالقة ١٨٧٥ .

(٤٥) باستور مونيث . م وميندوتا إيجواراس . أ . " نقوش لاتينية فى محافظة
غرناطة " جامعة غرناطة ، غرناطة ١٩٨٧ .

(٤٦) بابون مادونادو . ب . " ملاحظات على الفنون الأثرية الإسبانية الإسلامية "
اعتبارات أثرية عن غرناطة ومنارة سان خوسيه (القديس يوسف) ، الأندلس
الإسلامية ٢ - ٣ / ١٩٨١ / ١٩٨٢ ص ٢١٩ - ٢٢٨ .

(٤٧) بيّار . تش . " ابن عمّار " مجلة إيف (EF) العدد الثالث ١٩٧١ ،
ص ٧٢٧ - ٧٢٨ .

(٤٨) برييتو بيبيس . أ . " ملوك الطوائف " دراسة تاريخية ولعملات المسلمين
الإسبان فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) " مدريد ١٩٢٦ .

(٤٩) لروكيو دى سيساريا " غرناطة الإسلامية فى القرن الحادى عشر " ترجمة
ه . ب . دوينج ، لندن ، كمبردج ما بين ، ١٩٦١ .

(٥٠) القاضى محمد ، التبيان لعبد الله بن بلوجين . مذكرات أم سيرة ذاتية فى
أعمال الحوار الجامعى التونسى الإسبانى والتراث الأندلسى والثقافة العربية
الأسبانية ، تونس ١٩٩١ ، ص ٣٥ - ٥٢ .

(٥١) ريكاردو . ر . " الفن المعمارى " مجلة الأندلس ، العدد التاسع عشر ،
١٩٥٤ .

(٥٢) ريكاردو . ر . " الفن المعمارى " مجلة الأندلس ، العدد العشرين ، ١٩٥٥ ،
ص ٤٥٢ - ٤٥٤ .

(٥٣) نفس المؤلف " الفن المعمارى " مجلة الأندلس ، العدد السادس والعشرين ،
١٩٦١ ، ص ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(٥٤) روكا . م . ومورينو . م . أ . ليتكانو . ر . " البائسين وأصول مدينة غرناطة
" غرناطة ، ١٩٨٨ .

(٥٥) رولدان إيرياس . خ . م . " آثار " فى مجلة تاريخ غرناطة ، الجزء الأول
١٩٨٣ ، ص ١٣٥ - ٣٦٣ .

(٥٦) سلفادور بينتورا . ف . " إسبانيا الجنوبية بين روما والإسلام ، الاقتصاد والمجتمع ، جامعة غرناطة ١٩٩٠ .

(٥٧) سيكو دي لوثينا " خريطة لغرناطة العربية " غرناطة ، ١٩١٠ .

(٥٨) سيكو دي لوثينا " حول القلعة القديمة في غرناطة " مجلة الأندلس ، العدد الثالث والثلاثين ، ١٩٦٨ ، ص ١٩٧ - ٢٠٣ .

(٥٩) سيكو دي لوثينا باريديس . ل . " غرناطة النصرية في القرن الخامس عشر " غرناطة ، ١٩٧٥ .

(٦٠) سوتومايور . م . ، سولا . أ . وتشوكلان . ث . " الآثار القديمة في غرناطة الأيبيرية - الرومانية والعربية " غرناطة ١٩٨٤ .

(٦١) تيبى . أ . ت . " الأمير عبد الله بن بلوجين -٤٦٥- ٤٨٣ هجرية ١٠٧٣ / ١٩٠ ميلادية ، آخر أمراء بنى زيرى في غرناطة وكتابه التبيان " في دراسات وبحوث في تاريخ الأندلس والمغرب وليبيا وتونس ، ١٩٨٤ ، ص ٢٠٠ - ٢١٨ .

(٦٢) نفس المؤلف " التبيان مذكرات عبد الله بن بلوجين آخر ملوك الزيريين في غرناطة " ليدين ١٩٨٦ .

(٦٣) توريس بالباس . ل . " منارة القديس يوسف وتشبيحات الزيريين في غرناطة " مجلة الأندلس ، العدد السادس ، ١٩٤١ ، ص ٤٢٢ - ٤٣٤ .

(٦٤) نفس المؤلف " جسر القاضى وباب لوس بناديروس (باب الخبازين) في غرناطة " مجلة الأندلس ، العدد الثانى ١٩٣٤ ، ص ٣٥٧ - ٣٦٤ .

(٦٥) نفس المؤلف " الحمراء في غرناطة قبل القرن الثالث عشر " مجلة الأندلس ، العدد الخامس ، ١٩٤٠ ص ١٥٥ - ١٧٤ .

(٦٦) نفس المؤلف " مسجد غرناطة الكبير " مجلة الأندلس ، العدد العاشر ١٩٤٥ ، ٤٠٩ - ٤٣٢ .

(٦٧) نفس المؤلف " باب الخبازين المفترض وجسور غرناطة " مجلة الأندلس ، العدد الرابع عشر ، ١٩٤٩ ، ص ٤١٩ - ٤٣٠ .

(٦٨) نفس المؤلف " الأبواب المنحنية أو المتعرجة فى الفن المعماري الإسباني الإسلامي العسكرى " مجلة الأندلس ، العدد الخامس والعشرين ، ١٩٦٠ ، ص ٤١٩ - ٤٤١ .

(٦٩) توى . س . " القلاع ، تاريخ مختصر للتحصينات والاستحكامات منذ عام ١٦٠٠ قبل الميلاد إلى ١٦٠٠ بعد الميلاد " لندن - توريننتو ١٩٣٩ .

(٧٠) بايخو خيربيس . م . " بيتانثيو وإسبانيا القديمة القرون من الخامس إلى الثامن " فصل عن تاريخ البحر المتوسط ، جامعة الكالا دى ايناريس ١٩٩٣ .

(٧١) بيبيس . خ . نقوش مسيحية فى إسبانيا الرومانية والقوطية الغربية " برشلونة ، ١٩٦٩ .

(٧٢) تامباور - إى - " تاريخ الإسلام " هانوفر ، ١٩٢٧ .

الفصل العاشر

ملاحظات على الخزف النُصري الشَّكل والمضمون

إعداد : جيريرو روسيو بوردوى

إنَّ العثور على أجزاء من الخزف تحت سطح الأرض بالنسبة لعالم الآثار أو الأثرى لهُمَّة رائعة ومشجعة للغاية ؛ لأنها تقربنا من الرجال والسيدات الذين قاموا باستخدامها آنذاك ، ولكن لكي يتحقق للأثرى ذلك يجب عليه اتباع منهج ثابت ودقيق يحتوى على عدة مراحل وهى : التَّنظيف والتُّلميع ، وإعادة التُّركيب والترميم ، وأحياناً تكون هذه الأشغال مخيبة للأمال .

فالوثيقة الخزفية ليست شكلاً فقط بل إنَّ أهميتها تكمن فى معظم الأحيان فى المضمون أو المحتوى الذى تتكون منه (أى المواد الخام التى استخدمت فى صنعها) فالخزفيات تتعدد استخداماتها وتتنوع ، ويمكننا من خلالها إدراك كثير من المدلولات - التى فى غالبية الأحيان قد تتأى عنا - إذا قمنا بتحليل القطعة الخزفية فى هدوء وتهيث وروية وبأعين وعقلية أثرية محضة .

وبصفة عامة ، فإنَّ المتَّخصص المُدرَّب والمُتمرَّس فى دراسة الخزف لعصر ما يصل به الأمر فى وقت ما إلى أنَّ اهتمامه الصارم - بالقطعة الخزفية نفسها : شكلها وجودتها والتقنية المستخدمة فى صنعها ، والبراعة الفنية للشخص الذى زخرفها - قد يتبدد ويتلاشى حيث يدفع به حماسه فى البحث عن أبعاد وأمور أخرى مثل :

ما الذى احتوت عليه هذه القطعة الخزفية ؟ وفيم استخدمت وما هو استخدامها الدقيق على وجه التحديد ؟

وفى هذا الصدد فإن مقالى قد يبدو أنه خرج عن صلب الموضوع ولكن لا ؛ لأنَّ التطرق إلى الخزف الأندلسى فى وجهة نظرى له أهمية كبيرة شكلاً ومضموناً ، فإذا كان المحتوى أو المضمون هو الطين المطبوخ فإنَّ ما يحمله الإناء الخزفى أو ما يوضع فيه ليس خزفاً بل شيئاً إيجابياً أو على الأقل شيئاً لذيذاً شهياً ، ودون أدنى ريب فى غاية الأهمية للتعرف على المجتمع الذى استخدم هذا الإناء الخزفى وما فيه .

وفىما يتعلق بالذين اتبعوا مسلكى أو منهجى العلمى فإنَّهم يعرفون جيداً اهتمامى الجَمَّ بدراسة النماذج الخزفية الخاصة بالعصر الإشباني الإسلامى فى بلدنا، ويكمن هذا المنهج فى دراسة مراحل أو عصور محددة جيداً ، وفى بادئ الأمر أوليت شكل الأشياء اهتماماً بالغاً إلى جانب زخرفتها ، وقد حاولت البحث عن تسلسلها الزمنى^(١) ثم تعمَّقت - بكل الحماس والاجتهاد - فى دراسة الأسماء التى أطلقها المسلمون على مختلف الألوان الخزفية^(٢) .

وتلك المحاولات سواء أفادت أم لم تُفدِ ليس من سلطتى أن أحكم على عملى أدت مؤخراً إلى اهتمامات أكثر غرابة وعلى وجه الخصوص الكشف عن استخدامات المنتجات الخزفية الأندلسية وفى مشروع طموح للكشف عن المواد الخام التى تكون منها غذاء المسلمين الإشباني^(٣) .

وفى هذا المجال تلتقى - كما هو منطقى - المادة والتقنية والزخرفة والشكل والتسلسل الزمنى وأسماء الأدوات الخزفية ، كما أن هناك أموراً أخرى فى غاية الأهمية ذات طابع اجتماعى تسمح لنا بالتعمق فى المظاهر الخفية لكيفية حياة المجتمعات أو الجماعات التى استخدمت هذه النماذج الخزفية .

ولهذا فلم يبق سوى أن نتذكَّر تلك الأبيات الشعرية لشاعر قديم نسيناه تقريباً :

يا لها من روح خفيفة ،
روح الخمر —————
يا صانعي الفخار !
لهذه الروح الخفيفة
اجعلوا للأوعية حوائط ملساء .
يا ناقشي (مزخرفي) الكؤوس ،
جورقوها بخشب ،
بالشُّكل الذي يجعل
هذه الروح الشهوانية
جسداً يمكننا مداعبته
بلطف في هذا الإناء الأزرق .

واعتباراً من هذه الرباعية لعمر الخيام فقد بات تماماً في غاية الوضوح أنَّ الخزف مرتبط تماماً بالذِّقة والمتعة ، المتعة المحرَّمة - على الأقل نظرياً - للمشروبات الروحية التي تُوهِنُ العقل وتُضعِفُ الأعضاء ، والإبريق هو النصر الأساسي لسِقاية الخمر ، وفي بعض الأحيان يُطلق عليه اسم عام كالإناء أو الوعاء في معناه المجرد ، والآن حسنٌ ، فإنَّ الكؤوس يجب أن تكون من البلُّور أو الرُّجاج ، فمن الطبيعي أن تُحافظ الخزفيات المطلية على رائحة وشذا الخمر ، والخزفيات بدون الطلاء الرُّجاجي لكونها مسامية فإنها تُغيِّرُ الطعم الهام لهذا السائل ، ولتناوله فإن استخدام كؤوس من الفخار ليس ملائماً لأنَّ عبير الخمر يتبدد .

وعلى الرُّغم من ذلك فإنَّ الأواني الخزفية غير المطلية المستخدمة لحفظ الخمور لها ميزة كبيرة وهي الرُّشح الذي يملأ جدرانها ويغطي سطحها ، وعندما يتبخر الرُّشح فإنَّه يرطب الإناء والسائل الموجود بداخله ؛ فالإبريق الخاص بحفظ الماء رطباً يجب أن

يكون مصنوعاً من الفخار الأبيض دون طلاء لكي يستطيع أداء هذه المهمة على أكمل وجه .

فالماء والخمر عنصران حيويان وخاصة الأول منهما ، والحصول عليهما باهظ التكاليف وتخزينهما أمرٌ ضروريٌ وأساسى لاستخدامهما وقت الحاجة ، ونظم وطرق استخراج المياه فى الحمراء تكشف أسرارها رويداً رويداً ، وتحدثنا عن صعوبة ومشكلة الحصول على الماء ، وخاصة عملية تخزينه على مستوى المدينة ، ومع ذلك ففى كثير من الأحيان فإننا نتجاهل هذه المشكلة على الصعيد المنزلى .

وتقوم الخابية أو الخابئة بهذه المهمة فى أحسن صورة ، وهذا الإناء المعين ضرورى لاستخدامات المنازل ، ولذلك فإن خابيات الحمراء كنماذج للخزف النُصرى أصبحت عيّنات نموذجية أو مثالية ، ولقد نُسِىَ اسمها العربى وحلّ محله لفظ مُبتذل وأحياناً غير ملائم وهو باللغة الإسبانية خارُون (أى الراقود أو الخابية التى تستخدم لتزوين المنازل) ، ورواقيد الحمراء قطع خزفية متميزة ، والنماذج القليلة التى عُرِفَتْ تُحفظ بعناية بالغة فى أهم متاحف العالم ولكن هذه القيمة الخاصة ليست وليدة عصرنا هذا ، ففى القرن الرابع عشر الميلادى كانت تُصدّر إلى الشرق ، وفى مُتحف القاهرة نجد أجزاء لخابيات الحمراء الكبيرة التى تؤكد هذا الأمر (٤) .

ويكفى للتدليل على ذلك مثال واحد لتقف على أهمية الخابية فى عصرها فى بيانات بعيدة عن الأندلس فالراقود الكبيرة أو الخابية الكبيرة الموجودة فى متحف ستكهولم من أصل قُبرُصى ، وقد روى لنا قصته الأستاذ / أوتو كورتز .

إن أول شخص ذكر هذا الإناء هو الراهب ديجو دى ميريدا وذلك فى الرسالة التى وصف فيها حجه إلى الأراضى المقدسة (فلسطين - بيت المقدس) عام ١٥١٢ ، وقد أشار إلى إقامته فى بلدة فاما جوستا : فى كنيسة صغيرة بأحد أديرة الراهبات توجد خابية من الحجر ؛ حيث استطاع مُخَلَّصُنَا أن يصنع معجزة عندما حوّل الماء إلى خُمُرٍ فى حفل زفاف بالجليل . إن الخابية كاملة وجميلة للغاية تستحق الرؤية أو المشاهدة ، ومن البديهي يشير كورتز إلى أن الراهب ديجو لم يستطع إدراك أن هذه الخابية الجميلة التى رآها يرجع أصلها إلى إسبانيا وطنه ومسقط رأسه (٥) .

وفى عام ١٥٧٨ استولى الأتراك على الجزيرة ، وقام القائد التركى مصطفى باشا بالاستيلاء على ست من الخابيات لكى تكون ضمن غنيمته ، وبعد وفاة مصطفى باشا ألت هذه الخابيات إلى السلطان ، وفى عام ١٥٩٨ قام بزخرفتها أحد الفنانين ويسمى جورج حابر الذى وقّع على إحداها مما أدى إلى التعرف عليها بعد مرور قرون من الزمان .

وفى وقت لاحق اشترى سفير النمسا لدى الباب العالى (تركيا) هذه الخابية ، ثم ألت إلى مجموعة رودلفو الثانى ، وفى عام ١٦٤٨ قامت القوات السويدية بسلب ونهب مدينة براج لتتضم الخابية من جديد كغنيمة حرب إلى مجموعة عاديات الملكة كريستينا عاهلة السويد ، واليوم تُعدُّ هذه الخابية من أهم القطع الأساسية والرئيسية بالمتحف الوطنى فى ستكهولم .

إنَّ مصائب الدهر التى ألت بهذه الخابيات وتقلب أحوالها منذ فخاراتها الأصلية بالغرب ووصولها إلى الشرق وعودتها من جديد إلى الغرب من خلال آلاف المغامرات والمخاطر وطرق النُّقل التى لا يمكن تصورها ، كل هذا يُعدُّ أكبر دليل على قيمتها الثمينة وأهميتها التى لا تُقارن ، كما يدل أيضاً على الاهتمام البالغ الذى حظيت به منتجات الحمراء الخزفية خارج إسبانيا ، كما أنَّ الخابيتين الموجودتين بالحمراء كانتا أسعد حظاً من شقيقاتهما ، وقد تعرفنا عليها بفضل رسومات كفناه مورفى^(٦) ؛ لأنَّ إحداها إذا كانت تعتبر أهم قطعة خزفية بمتحف الحمراء فإنَّ الأخرى قد اختفت منذ زمن طويل دون أنْ تترك أثراً لها .

ومع ذلك فإنَّ مصانع الفخار أو فخارات القصور لم تصنع هذه القطع الفريدة بل كرّست جهودها أيضاً لسد احتياجات القصور والمنازل من أواني وأوعية الخدمة الأخرى . إنَّها خزفيات من نوع خاص مرتفعة الأسعار غالية القيمة ، وقد انتشرت بشكل كبير فى إيطاليا ومايوركا (مايوركا هى إحدى جزر الباليار الإسبانية الواقعة فى البحر المتوسط) فى النصف الأول من القرن الرابع عشر نجد أنَّ الخزف الراقى جداً والفاخر وصل إلى مجتمع مايوركا لاستكمال أوانيه وأوعيته المعتادة ، وجدير بالذكر أنَّ هذا الخزف كان الخزف النَّصرى^(٧) ، ويكفى أنْ نذكر أنْ أهميته قد فاقت

الوصف وبلغ درجة عالية من الإتقان وتبع ذلك ارتفاع مما جعل صانعى الخزف الفالينسيين يسرعون فى تقليد خزف الحمراء والعمل على انتشاره فى جميع أنحاء البحر المتوسط ^(٨) . وإنصافاً للحق فإن الخزف الفالينسى (نسبة إلى مدينة فالينسيا الإسبانية المطلة البحر المتوسط) نعى التقليدات الفالينسية للخزف النُصرى ، كانت ذات جودة فنية راقية وكبيرة ، ويصعب التمييز بينها وبين الخزفيات النُصرية ، وفى كثير من الأحيان فقد عُرِفَت على أنها خزفيات نصرية ، كما يتضح ذلك فى كثير من المتاحف الأجنبية . وعلى أية حال فإن جودة الرسوم والزخارف والتركيبية الغربية من الأزرق والأصفر ، نعى المذهب أو المذهب فقط ، يجعل للخزف النُصرى رقة خاصة مما يجعل من الصعب الخلط بينه وبين الخزف المصنوع فى أماكن أخرى ، وقد اكتُشِفَ فى هذا الإنتاج وجود قطع خشنة الصنع فظة الزخرفة أرضيتها خضراء وزخارف مذهبة أو صفراء من المنجنيز ، ولكنها حالياً غير معروفة جيداً ، ولم تستحق اهتمام الدارسين .

ومن المؤلفات عادة أن المراكز المنتجة للخزف النُصرى تركزت بشكل رئيسى فى ألميريا ومالقة ، ومن اسم مالقة اشتق اسم ماليقا ، وأطلق على أحد أنواع الخزف . وإذا لم يكن هناك برهان وثائقي على تصنيع الخزفيات فى أماكن أخرى من المملكة النُصرية ، فإن علم الآثار أمدنا بمؤشرات عن نشاط الفن اليدوى فى أماكن أخرى بما فى ذلك الحمراء .

وفى الواقع ، فإن مالقة وألميريا كانا المينائين اللذين انتشر عبرهما الإنتاج الخزفى النُصرى بمنطقة البحر المتوسط ، وعلى ذلك يجب ألا نستغرب أن يطلق اسم ماليتشا كمرادف للخزف المذهب ، كما فى إيطاليا ؛ حيث كان يطلق اسم مايوليتشا على الخزف المطلق بالزجاج والمزخرف ، نظراً لكون مايوركا مركز توزيع الخزف المزجج أو المطلق بالزجاج ، وإن كانت مايوركا منذ أوائل القرن الثالث عشر لم تعد تنتج هذا النوع من الخزف الفاخر نتيجة لاستردادها على أيدي المسيحيين .

ويمكن دراسة الخزف النُصرى من خلال أرصدة متاحف متعددة ومجموعة متحف الحمراء تمكننا من التعرف على تنوع كبير سواء فيما يتعلق بالمظهر أو الجوهر ^(٩) ، وتبرز من بينها مجموعة الصوانى ذات القاعدة الصغيرة أو الفوهة الكبيرة (أى أنها صغيرة من أسفل وواسعة من أعلى) وأهم هذه النماذج تميزاً هو الصينية الكائنة فى جناح

فيكتوريا وألبرت بمتحف لندن ؛ حيث أُعد لها جناح أو حوض كبير مستدير وبه ثلاثة صواري وكائنها أحد المراكب ، وفي الصاري علّق أو رُفِعَ مركب شراعى مربع وعليه الكينا البرتغالية . هل نجد أنفسنا أمام رمز لنشر الخزف النُصرى ؟ إن هذا أمر مُحتمل ؛ لأن السفن البرتغالية كانت الوسيلة الملائمة لنقل ونشر هذا النوع من البضائع والسلع (يعنى هنا الكاتب الخزف) .

والدراسات الخزفية التي فى متناول أيدينا اعتادت على الاهتمام الخاص بالقطع والنماذج الخزفية الفريدة ؛ نظراً لأهمية قيمتها الزخرفية وأهمية استخدامها ، وهذه النزعة أيضاً تُلاحظ فى المجموعات الكائنة بأهم المراكز المتحفية (يعنى المتاحف)؛ حيث أولت القطع الفريدة اهتماماً بالغاً على حساب القطع العادية ، والتي فى واقع الأمر كانت تستخدمها البشرية ، وإذا كُسِرَت قامت بإصلاحها لكى يتم استخدامها من جديد ، إنَّها القطع العادية التى لم يكن لها قيمة استثنائية ، ولكنها كانت تُرمَّم ويتم إصلاحها لصعوبة استبدالها . وهذا الطابع اليومي هو الذى يهم عالم الآثار ؛ لأنَّ هذا يُقرِّبه من المغامرة الإنسانية اليومية أكثر من تلك القطع الفريدة ذات القيمة الثمينة ، والتي لم تتعد فى كثير من الأحوال أن تكون اقتناءً للرفاهية فحسب أو بمعنى أصح فإنَّها كانت بمثابة قطع لوضعها فى فترينات زجاجية أو بعرفنا اليوم. إنَّها قطع للديكور فقط .

وفى منهج اكتشاف الخزف النُصرى لدينا نموذج واضح جلى من خلال الحفريات التى تمَّت فى كاستيخو وجواخاريس جنوب محافظة غرناطة . وقد عرفنا عن الحفريات التى تمَّت منذ بضع سنوات من خلال التقارير المكتوبة والمناقشات العلمية ، ولكن لم تجر محاولة واحدة لتقديم الجانب المنزلى الذى يُستشَفُّ من خلال الخزف المُكتشف فى ذلك المكان (١٠) .

وأصل الخزف النُصرى يجب أن نبحث عنه فى أواخر المنتجات الخزفية للموحدين التى بلغت شأناً عظيماً فى الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادى ، وخزف جواخاريس هو همزة الوصل بين خزف الموحدين وخزف النُصريين ، واعتباراً من الخزف المفقود فى منطقة كائنة فى قمة الجبل فإنَّه يمكننا تحديد الثمط الجديد اعتباراً من النصف الثانى من القرن الثالث عشر وهو الخزف النُصرى .

ولكن كيف كان المتاع المنزلى من الخزف لسكان كاستيخو؟

فى المقام الأول يُلاحظ وجود عناصر وأنوات التَّخزين المُثَلَّة فى الجرار والخايبات والملائمة لتخزين أو حفظ الحبوب والسوائل ، وبعضها ثابت ذو حجم كبير وقاعدة مستوية كمخازن منزلية لهذه المواد ، والبعض الآخر متحرك وقاعدته مدببة حتى تتكيف مع القُفِّف أو الزناويل الطويلة التى توضع على ظهر الراحلة أو الدابة كوسيلة للنقل . واعتباراً من هذه النماذج اشتُقَّت الخزفيات النُصْرية ، ونعنى بذلك الخايبات التى أطلق عليها الإسبان لفظة خارُون ، واشتهرت هذه الخايبات فيما بعد باسم خارُونات الحمراء ، وأعلى نسبة من الخزف المنزلى يتعلق بأوانى وأدوات طهى الطَّعام اعتباراً من الموقد أو الكانون المتحرك الملائم للطهى ، وكذلك كمدفأة ، وكذلك سلسلة متنوعة من المراحل أو القدور والحلل والطناجر المختلفة الأشكال والأحجام وتقنيات اللانفاذية (ويعنى بهذا التشطيب المُحكم لهذه الأوانى حتى لا تتسرب منها الأطعمة السائلة) . ويمكن أن نؤكد أن القدور أو المراحل والطناجر كانت متنوعة أو متعددة الاستخدامات ليس فقط لطهى الأطعمة بل أيضاً كأدوات خدمة وكذلك كأوانٍ وأوعية للأكل الجماعى .

ويمكن القول إن أطقم السفرة كانت غير موجودة ، وفى هذا المجال يمكن ملاحظة أن عملية صقل الصُّوانى كانت غير مألوفة ، وخاصة الصُّوانى ذات اللون الأخضر بفتحات مزدوجة أو ثنائية لإدراج الرصاص المصهور ، وهذه القطع متميزة وتندرج تحت أنماط عصر الموحدين ، وستكون سبباً فى إنتاج الصُّوانى المخروطية الكبيرة التى سبق وضعها كميزات للخزف النُصرى .

وما زالت هناك بعض الأباريق أو الدوارق لسقاية السوائل بين متاع المنازل ، هذا إلى جانب أغطية متعددة الأشكال .

وبصفة استثنائية ظهرت بعض القطع يمكن اعتبارها خارجة عن الموضوع مثل حاملات المشاعل ، وطبلة صغيرة وحَمَّالة للخايبية أو الخارُون كما يُسميها الإسبان ، وهذه القطع لها أهميتها بين متاع المنزل، ومع ذلك لم تكن شائعة أو مألوفة بصفة عامة .

ونموذج جواخاريس يسمح لنا بوضع نقطة انطلاق لما سيكون عليه المتاع أو الأثاث الخزفي المنزلي إبان العصر النُصرى بالأندلس .

ويمكن التعرف على التعقيدات الشكلية اعتباراً من ازدهار الفُخَّارات (مصانع الفخار) النُصرية وعلى وجه الخصوص فى النُصف الثانى من القرن الرابع عشر وحتى سنوات طويلة من القرن الخامس عشر ، وتنوع الأشكال ليس موازياً أو مقترناً بنوع الاستخدام ؛ فقد استمر إنتاج صوانى أو أطباق وأحياناً فناجين الخدمة وكذلك أوانى أو أدوات شرب السوائل مثل الأباريق ، وقد أدخلت صناعة الخزف النُصرية عنصراً جديداً لم يكن معروفاً من قبل ، وهو الكأس وبرطمان الصيدلية وإن كان البرطمان ينتمى إلى حقب وعصور سابقة إلا أنه إبان العصر النُصرى بدأ يتسع انتشاره بشكل كبير .

واستخدام المتاع أو الأثاث الخزفي المنزلي وهو مظهر لم يَكْدُ يَدْرَس حتى الآن ولدراسته لدينا مصدر إعلامى خاص جداً ؛ وهو كتب أو وصفات المطبخ ^(١١) . والأنباء التى علمناها نادرة حقاً ؛ لأنه فى مثل هذه الكتب لا توجد فقط ضوابط عن شكل هذه الأوانى بل أيضاً عن كيفية استخدامها .

وعلى سبيل المثال فإنَّ الرجل أو القدر يجب أن تُطابق الطَّعام الذى سِيُطهى بها فحياناً يكون جديداً ، نظيفاً ، كبيراً ، أو أنه جديد ومطلى بالزُّجاج ، صغير ، مقلق أو مزود بجسد كبير وواسع ورقبة (لها جوف واسع وعنق) ، وإلى جانب القدر الكبيرة توجد القدر الصَّغيرة وتصغيرها باللغة العربية قُديرة . ومن المعلومات التى وصلت إلينا نستطيع التمييز على الأقل بين أربعة أحجام مختلفة من الحلل الكبيرة والعادية والصَّغيرة والصَّغيرة جداً ، الأمر الذى تأكَّد لنا من خلال الاكتشافات الأثرية ، ومن بين هذه القدور أو الحلل يجب علينا أنْ نشير إلى قِدر أو حلة الكُسْكُسى التى تتميز بكثرة فتحاتها وثقوبها ، وقد توثِّق لنا ذلك من خلال النماذج التى عُثِرَ عليها فى بيرا ^(١٢) بالميريا وجواخاريس .

أمَّا الطناجر والصَّوانى والأطباق وطسوت الغسيل فإنها يمكن أن تكون من الفخار فقط أو الفخار المزجج (المطلى بالزُّجاج) ، والتغيرات الشكلية تشمل جوانب

متخصصة للغاية مثل الغطاء المثقوب فى الوسط فتحة لا غنى عنها لإدخال عصاة لتقليب مكونات الطَّعام فى أثناء عملية الطَّهى ، ولكن بقى لنا فضولٌ للتعرف كيف كان شكل هذه العصاة .

والتغييرات والتنوع فى القطع التى عُثِرَ عليها لا حصر لها ، والدِّراسة الخاصة بالآثاث أو المتاع الخزفى المنزلى من خلال كتب وصفات الوجبات أو الأَطعمة قدَّم لنا كثيراً من الأشياء الجديدة العجيبة ومن بينها شىء متميز : الدَّرْجَة الرفيعة فى التخصص المطبخى ، وقد انعكس ذلك فى إحدى الوصفات التى تحدَّثت عن مثقوب القاعدة وعند الإمساك بالقطعة من مقبضها فإن إصبعاً من نفس اليد المسكة بها تستطيع تغطية الثقب وكشف الثقب وفقاً لإرادة ورغبة الطباخ بحيث يقع أو يسقط محتوى القطعة فى القلاية وبهذا الشكل يمكن عمل صور وأشكال من العجينة المسكوبة ^(١٣) ، و خلاصة القول جهاز يشبه جهاز تحمير بلح الشام أو ما يعرفه الإسبان بـ " لوس تشورُّوس " وهو أمر يجب ألا نستغربه على الإطلاق ؛ لأنَّ هذه الحلوى - بلا أدنى شك - يرجع أصلها إلى الأراضى الإسلامية .

وما هو استخدام الوعاء الخزفى ؟ فالإجابة عن هذا السؤال يمكن أن يكون حقيقة بديهية ؛ لأنَّ استخدام وعاء خزفى هو أساساً متعدد ، والمادة الخزفية بالرَّغم من كونها هشة فإنَّها تحتاج إلى صقل باستمرار ، ويمكن أن تكون فى النِّهاية قصيرية أو أوصيص للزرع . وطبقاً للمستوى الاجتماعى والاقتصادى للجاليات أو الجماعات التى تستخدم هذه الخزفيات وبالشكل الذى نتعمق به فى معرفتها (أى الخزفيات) نجد أنَّ الإفادة منها من جديد وإعادة صقلها وإعادة استخدامها كانت تمثل عنصراً مشتركاً طوال العصر الإسلامى بالأندلس .

ومع ذلك فإنَّ استخدام الأوعية الخزفية لا يعتمد على إعادة صقلها ودرجة المحافظة عليها سواء كانت فطرية أو مكتسبة من جانب الجماعات التى تستخدم مثل هذه الخزفيات ؛ حيث إنَّ كل قطعة مصنوعة من الطَّين أو الفخار المطبوع ، كان لها استخدامٌ معينٌ ، وهذه بإيجاز المهمة التى يهمننا تحديدها .

وإعداد خطة تكون قاعدة لعملية تصنيف القطع من حيث الاستخدام قد سبق إعداد ذلك فى مرأت متعددة^(١٤) ، ويكفى قبول أية محاولة تصنيفية والقيام بتنميقها وتكييفها مع الاحتياجات الخاصة للفترة التى ننوى دراستها ، وفى الأساس فإن كل خطة تصنيفية يجب أن تقدم تنوعاً صارماً للاستخدامات ، وإذا كانت المتغيرات أو التنوعات ستتعدد فإن التصنيف سيطرح لنا لوحة معقدة أو جدولاً معقداً وغير ملائم لوضع خطة مترابطة .

والواقع أن الاحتياج لحصر المصطلحات الصارمة لهذا التصنيف أو التبويب يعد من المهام الشاقة للغاية ، فضلاً عن كونه معقداً ؛ لأن أهمية الخزف فى الحياة اليومية واستخداماته المعقدة تدفعنا إلى عمل تصنيفات تفصيلية بالشكل الذى لا يدع مجالاً للشك فى أن هذه المحاولات ستكون سدى ولا طائل تحتها . فتبويب أو تصنيف يضم أكثر من خمسة عشر استخداماً فى وجهة نظرى سيكون مجرداً ومعقداً وسينأى عن صلب الموضوع وغير فعال كعنصر تصنيفى .

وربما تكون نزعتى المفرطة فى النقد فى هذا المجال ، يمكن أن تكون مغالى فيها والخطة التى سأقترحها قد تبدو مفرطة التبسيط ، واستناداً إلى الحكمة القائلة الرجوع عند الحق فضيلة إذا كانت الآراء المعارضة ستكون مقنعة فإننى على أتم الاستعداد لتحديد الدلول ، وإذا لزم الأمر التصحيح أو العدول عن رأىى .

وأود وضع خطة للاستخدامات الخزفية مكونة من خمسة أقسام رئيسية ، وهى فى حد ذاتها قد تقبل مجموعات فرعية .

١ - التخزين والنقل .

٢ - الاستخدام المنزلى .

٣ - التغذية .

٤ - الاستخدام التكني والمعمارى .

٥ - طبيعة اللعب واللهو .

وفي إطار هذه التقسيمات الرئيسية يمكن - كما ذكرت آنفاً - إدراج ملامح أو علامات متوسطة أو وسطية تحدد بدقة استخدام الخزفيات دون أن ننسى أن عينة أو نموذجاً معيناً يمكن أن يكون متعدد التكافؤ نظراً لشكله وسعته إلخ وبالتالي فإن إمكانية استخدامه في مجالات مختلفة واردة .

والقسم الأول لا يحتوى إلا على مشاكل قليلة في التفسير أو الشرح ، والجسم الخزفي يمكن أن يوضع به سوائل أو أشياء صلبة ، كما يمكن أن يكون هذا الإناء ثابتاً أو متحركاً بشكل خاص .

ونوع السوائل أو الأشياء الصلبة سيؤثر قليلاً على الشكل وعلى أية حال فإن الإناء الخزفي سواء كان لحمل السوائل أو الأشياء الصلبة فإن هذا لن يغير من مادته الخام اللازمة لصنعه ولا من تقنية تصنيعه ، فإناء الماء مثلاً يمكن أن يكون من الطين المسامي بغية ترطيب الماء ، بينما نجد أن إناء الزيت يجب أن يكون غير مسامي محكم التشطيب ومطلياً بطبقة عازلة تمنع تسرب السائل من الإناء بحيث لا يلوث جدرانها والمكان الموجود به .

و العناصر الصلبة سواء كانت حبوباً أو ملابس (لدينا دليل على أن خايبات خبيراً كانت تستخدم لحفظ الملابس وخاصة الخايبات الكبيرة) يجب أن تكون غير مسامية حتى لا تسمح بتسرب الرطوبة أو الماء إلى داخل هذه الخايبات فتؤدي إلى تلف ما فيها من ملابس أو حبوب .

أما فيما يخص أواني أو أوعية النقل فإن علاقة حجمه وثقله فارغاً أو وزنه وهو مملوء يجب تقييمها دائماً بالنسبة للشكل وسهولة إمساكه واستعمال هو التحكم فيه وفقاً لنوع النقل سواء أكان هذا بشرياً أم حيوانياً ، وفيما يتعلق بالنقل الحيواني يجب أن تكون القطعة الخزفية ذات شكل خاص بحيث يتكيف مع الخرجة التي تحملها الدواب .

ولذلك وفي إطار مجموعة التخزين والنقل فإن سهولة الاستعمال تعتبر شرطاً أساسياً . ومن جهة أخرى فإن مميزات الفنية يجب أن تلائم في شكلها وحجمها مختلف الأشياء التي ستُنقل فيها .

وفى القسم الثانى : التّخزين نجد أنّ التّغييرات بالنّسبة للاستخدامات الفرعية كثيرة ومتعددة ؛ حيث إنّ تعقيد المواد التى تدور فى إطار هذا المفهوم متعددة ، ومتنوعة وعملية إعداد الأغذية أو الأطعمة فى غاية التعقيد أحياناً . وفى البداية يمكن التفكير فى خمس مجموعات فرعية جديدة تتواءم مع استخدامات أخرى ذات طابع غذائى :

- أوانى للطهى ، ونعنى بذلك الأوعية الخاصة بالوقود والنّيران .
- أوانى لوضع الأغذية وهى ضرورية لعملية الطّهى .
- أوانى للإعداد والتّجهيز المسبق للأغذية أو الأطعمة قبل طهيها .
- أدوات مطبخية أخرى لازمة لتتبيل وتجميل وتزيين الأطعمة واستخدامها اللاحق فى خمة السفرة أو المائدة .
- أوانى مساعدة لتجهيز وتتبيل وتزيين الأطعمة قبل الطّهى وبعده ، وبمعنى دقيق فإنّ هذه المتغيرات تنحصر فى ثلاثة :

١ - الأوانى التى تحتوى على الوقود والنيران .

٢ - أوعية الطّهى .

٣ - أوعية أو أوانى الخدمة والمائدة .

وعلى الرغم من ملاحظة وجود تداخلات بين كل مجموعة وأخرى أو بين البعض والبعض الآخر ، فإنّ الحالة الأولى نجد أنّ وعاء النار سواء كان كانوناً أو مجرد جذوات من النيران موضوعة على الأرض يبيو أنه قد تميز تماماً .

أمّا فيما يتعلّق بقسم أو مجموعة تجهيز الأطعمة فإنّ التنوع فيها أكبر والعلاقة المتبادلة مطلقة ؛ لأنّه يمكن تجهيز الطّعام فى الوعاء نفسه الذى سيطهى فيه على النّار أو فى وعاء آخر مختلف تماماً ، وفى هذه المجموعة أو القسم يجب أن ندرس الحلل والطناجر والمراجل أو القنور وقطعا أخرى كثيرة من الخزف دون أن ننسى أنّ أطعمة

معينة يمكن أن تقدم على المائدة فى الوعاء نفسه الذى طُهِيت فيه ، وبالتالى سنجد تداخلاً بين هذه المجموعة والتالية لها .

كما أن أدوات السفرة يمكن استخدامها فى إعداد وتجهيز أطباق معينة بغض النظر عن أن شكلها وزخرفتها تجعلها مُخصصة للقيام بوظيفة لخدمة المائدة أو السفرة ، وفى هذا القسم يجب إدراج أوعية شرب السوائل المُعدة تماماً لخدمة المائدة أو السفرة ، ولكنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً مع أوعية الحفظ وإن كان حجمها أصغر .

وفى هذا القسم يجب أن نُفسح المجال للأباريق الصَّغيرة ذات الفوهة الواسعة ، ويطلق عليها - بشكل صائب فى اللغة العربية - لفظ " مِشْرَب " الذى حُرِفَ إلى " مِشْرَبٌ " أو أوانى الشرب ، وفى هذه الحالة فإن كمية كبيرة من الأباريق التى عُثِرَ عليها فى المستودعات الأندلسية ليست فى الحقيقة أوان لحفظ السوائل ، بل هى أكواب للشرب ، وهو ارتباط متبادل فى هذه المحاولة التصنيفية .

وأطباق الخدمة أيضاً: الكبيرة منها مثل الصَّوانى أو الأطباق هى متعددة الاستخدامات ، ولم يكن الطَّبَق الفردى على المائدة الأندلسية شيئاً مألوفاً ، ولكننى لا أستطيع التجرؤ لتأكيد ذلك فيما يتعلق بأوانى الخدمة فى القصور ، وإن كانت تساورنى الشُّكوك ، ولكن فى الأوانى المنزلية للأندلسى العادى فإنَّ الطَّعام كان يُقدَّم فى صينية أو طبق كبير مشترك للأكل الجماعى ، وكان تناول الطَّعام يتم بأصابع اليد، فغيبية الملاعق كانت أمراً عادياً ، أمَّا تناول السَّوائل مثل الشَّوربة فكان يتم رشقاً ، وإن كان فى الأنماط الأندلسية السابقة على العهد النَّصرى لم يُعرَف وجود القصعة أو السُّلْطَانِيَّة أو الصُّحْفة التى ستكون أحد الأنماط الرئسية المسيحية ، أمَّا الشُّوكَّة فهى اختراع لاحق ، وعلى الرغم من أن هناك مؤشرات على وجود أداة مشابهة للشُّوكَّة فإنَّها لن تعدو أن تكون بسنين أو بثلاثة أسنان على الأقصى لإمساك الطَّعام عند تقطيعه بالسُّكين أكثر من كونها شوكَّة بمعناها المعروف لدينا اليوم .

ومن خلال المعلومات التى حصلنا عليها من حفريات كاستيخودى لوس جواخاريس (اسم مكان) بغرناطة يلاحظ أن الصينية أو الطبق كان أداة مهمة ؛ لأنَّ النماذج التى عُثِرَ عليها كانت بها مؤشرات تدل على عمليات ترميم متلاحقة قد حدثت

لها ، فضلاً عن إصلاحات لها عن طريق رقائق من الرصاص لتثبيتها والحفاظ عليها ، وفى مجتمع منعزل مثل جواخريس فإن بقاء الطَّبَق أو الصَّيْنِيَّة كان واضحاً ، ومع ذلك لم يكن اقتناؤه أمراً ميسوراً لعامة الناس .

وفى إطار القسم ذى الطابع المنزلى يمكن إدراج متغيرات عديدة ، فمن ناحية تجد النظافة الصَّحِيَّة سواء الشَّخْصِيَّة أو المنزليَّة ، الإضاءة ، الزُّخْرَفَة والتَّدْفئة البيئيَّة (تدفئة الجو) ... إلخ .

وانطلاقاً من المعلومات الأثرية من الممكن توثيق هذه المظاهر المتنوعة بشيء من الدَّقة .

ففى القسم المخصص للمهمة التقنية والمعمارية نجد أن لدينا سلسلة واسعة من الأوانى المختلفة ، والأثرى انطلاقاً من مكتشفاته لا يستطيع دائماً دراسة هذا التَّنوع الكبير من الأدوات والأوانى الخزفية ، وفى البداية يمكن تخصيص قسم لمواد البناء :

● الطُّوب اللبن أو الآجر .

● قرميدة (التى تستخدم فى تغطية أسطح المنازل على شكل هرمى كى تسمح بنزول مياه الأمطار وعدم تراكمها على الأسطح ، وهذا أمر شائع فى أوروبا) .

● القيشانى .

● ماسورة صرف المياه أو التَّنور .

وكل هذه الأنماط موثقة تماماً ، ومن ناحية أخرى سيكون لدينا أوانٍ معينة خاصة بصانع الفخار نفسه (الفخارى) .

● الحواجز التى يضعها بين أرضية الفرن والقطعة الخزفية .

● بكرة أو أسطوانة .

● وحلقات على شكل حرف " s " (اس) ضرورية لوضع القطع الخزفية فى الفرن . ولكل قطعة من أوانى صانع الفخار لها وظيفتها المميزة فالحاجز يستخدم لفصل الأطباق المزجَّجة (المطلية بالزُّجَّاج) عند وضعها فى الفرن

أحدها فوق الآخر ، وذلك حتى لا يلتصق الطلاء الأخضر للطبق العلوى بالطبق الذى تحته أو أسفله .

أمَّا البُكرَات فتعزل بدورها القطع الخزفية المرصوفة وقت تصنيعها أى وهى بالفرن ، كما أنَّ البكرات توضع فى جدران الفرن لتكوين عدة طوابق ، وبهذا الشكل يمكن ملء الفرن تماماً ^(١٥).

أمَّا حرف " s " (اس) فلم يُعثر عليه حتى الآن فى مايوركا ودينيا (اسمى مكان) ، فلم يُعرف على وجه التحديد مهمتهما أو وظيفتهما وربما استُخدِمَ لتعليق إناء صغير له مقبض فى آخر كبير بغية استغلال المساحة المتاحة على أفضل ما يكون .

ووجود القواديس يسمح بوضع قسم فرعى فى إطار الخزفيات التى لها استخدام تقتنى ، فضلاً عن استخدامها الأساسى للحصول على الماء سرّاً فى الرِّيف أو فى المدينة ^(١٦) . إنَّ نمط القادوس شهدَ تغييراً طوال العصر الأندلسى ، ولكن اختلافاته الشكلية الضرورية لكى تتواءم القطعة (مع عجلة السَّاقية أو النَّاورة ، والتى تُحْتَمَّ أنَّ يكون للقادوس عُتْق ضيق يسمح بربطه جيداً على أنَّ تكون الفوهة واسعة من أسفلها بالشكل الذى لا يسمح بانسكاب الماء عندما يكون القادوس فى وضع رأسى ، ونابراً ما نجد قطعة خزفية يكون شكلها مرتبطاً تماماً باستخدامها أو بوظيفتها وبالتالي فإنَّ القادوس يجب أن يسمح بالعمليات التالية :

١ - النزول فارغاً فى وضع مقلوب .

٢ - دخوله فى الماء بالشكل الذى يسمح بملء جوفه أو مستودعه عن آخره .

٣ - الصُّعود فى وضع رأسى وهو مثبت جيداً فى عجلة النَّاورة أو السَّاقية مع رد فعل لبقية القواديس بسبب ثقل الماء المجمع فى مختلف القواديس .

٤ - سكب المياه فى وضع مائل أولاً وأفقيّاً ثم فى النِّهاية مقلوباً تمهيداً لبدء العملية من جديد .

ولوازنة المجهود اللازم لرفع القواديس المملوءة بالماء فى هذه القطع التى تنتمى إلى العصور الوسطى المسيحية والحديثة فإنَّ القادوس كان به فتحة بقاعدته بالشكل

الذى يسمح بالتنقيط أو تسرب الماء نقطة نقطة مما يخفف إلى حد كبير من هذا الجهد أو المجهود ، وعلى الرغم من ذلك فإن معظم القواديس فى العصر الإسلامى ، والتي تمكنت من دراستها فإن هذه الظاهرة لم تكن موجودة (يقصد الفتحة أو الثقب الذى بالقاع) .

و الوثائق المكتوبة عن وصفات الطعام تشير لنا إلى أن السكر كان عنصراً مهماً فى النظام الغذائى الأندلسى ، ولدينا مؤشرات قديمة جداً عن تصنيع السكر . ويصف ابن أعوان - على سبيل المثال - عملية التصنيع بدقة بالغة فى القرن الحادى عشر وإن كان لا يوجد دليل على تصنيع السكر بالأندلس على الأقل فى الفترة ما بين القرن العاشر والرابع عشر الميلادى ، كما أن هناك وثيقة عن تصنيع السكر بطريقة يدوية منزلية بين المسلمين الأندلسيين فى غرناطة ، فى أثناء القرن السادس عشر وتشير لنا الوثيقة أن عملية التصنيع كانت أمراً شائعاً ومعروفاً ، ومن ناحية أخرى فإنه منذ القرن الثالث عشر لدينا دليل على نوع من السكر أطلق عليه فى النصوص " جماعة السكر " ومنطوق إذا وجد دليل لفظى لهذه الجماعة يجب أن نتفق على وجوده الفعلى ومع ذلك فحتى وقتنا الحاضر لم يكن ممكناً التحقق من ذلك بكل تأكيد زمنى هذه الجماعة الأندلسية .

و الآن فإن التقنية الخاصة بتكرير السكر تحتم وجود طريقة معينة ، وهذه تكمن فى متحف الآثار بغرناطة ، وذلك فى القطعة التى عُثِرَ عليها فى البحر دون تاريخ محدد أو زمن معلوم ، والجماعة الأندلسية دون أدنى شك يجب أن تكون كذلك لا يهم أن تكون كبيرة أو صغيرة ، بل المهم أنها ستكون تماماً كالقطعة التى عُثِرَ عليها فى البحر من حيث الشكل (١٧) .

و فى كل أثاث أو متاع منزلى نجد أنه من المؤلفات تنوع استخدامات القطعة الخزفية ، ولذلك فإن قطعة خزفية معينة يمكن أن تخصص لعدة مهام أو وظائف ، ولنرى ذلك فى القصعة أو الجفنة (وهى الإناء الذى يوضع تحت البرميل ليجمع الماء الذى يتساقط من الميزل (الصنبور) نجدها تستخدم فى مهام الطهى مثل عجن دقيق الخبز ومهام النظافة والصحة مثل غسل الملابس واستحمام الأشخاص والمهام البنائية

مثل إعداد الملائمات بكميات صغيرة ومع ذلك ففي بعض المظاهر المعينة نجد أن نماذج خزفية محددة تُصنع لغاية معينة . وسوف أسوق بعض الأمثلة مثل الأواني التي توضع تحت الخابيات لجمع نقاط الماء المتساقطة منها التصميمات أو الماكينات المعمارية بمنطقة مورثيا التي فُسِّرَت كما يتضح ذلك من النموذج الفريد الكائن بمتحف الميريا (١٨) ونماذج أخرى عُثِرَ في مورثيا ولوس جواخاريس .

فالأواني التي توضع تحت الخابيات مفيدة للغاية فضلاً عن أن لها مهمة خاصة جداً :

١ - إنها تستخدم كمسند للخابيات .

٢ - إنها تجمع الماء المتبخر من جدران الخابيات ، وذلك في جزئها العلوى .

٣ - وبعد تصفية الماء من جديد عبر قناة صغيرة أو مجرى صغير تأخذ الماء لاستخدامه من جديد .

و من الملاحظ أن القطعة متطورة تناسب مجتمعاً متطوراً ، وفي الواقع فإن هذه القطعة ليست لها مهمة أو وظيفة عملية ، ويمكن القول إن هذه القطعة لم تكن سوى مبتكر رفاهية وخيال للمسلمين الأندلسيين .

وفي هذا الصدد أيضاً نجد القطع المسماة بالتصميمات أو الماكينات الهندسية المعمارية في مورثيا والمعروفة باسم مساقى الحمام وفقاً لتفسير مانويل خورخي أراجونيسيس (١٩) ، وقد أعاد تفسيرها خوليو نابارو مساند الإبريق (٢٠) ، وفي الواقع إننا أمام قطعة خزفية رائعة الرخفة بغض النظر عن مهمتها أو وظيفتها ، كما أن فائدتها الحقيقية لم تتحدد حتى الآن .

وفي فصل أو قسم عناصر وأدوات الإضاءة نجد أن المصباح أو القنديل ليست هناك مشاكل للتعرف عليه أو لشرحه ، ولكن في أوانٍ أو أدوات أخرى كحوامل الشمعدان من الممكن أن يصعب تعريفها أو شرحها .

وفيما يتعلق بنموذج متحف الميريا الوارد من القصبة فإننا نجد أنفسنا أمام شكل ناقوسى وفتحة تسمح بإخراج الشمع الذائب أو المنصهر ، وكذلك سنبلة طويلة في

وسط المصباح تسمح برفع الإضاءة إلى ارتفاع معين^(٢١) ، وانتهاء السنبلة بنتوء أو بحدبة يسمح فقط بوضع شمعدان أو شمعة واحدة ، ويتعلق الأمر بجهاز ثابت يسمح برفع بؤرة الضوء ، وبالتالي توسيع مدى الإضاءة ، وفي إطار الخط نفسه يمكن إدراج قطع مورثيا ولوس جواخاريس ولكن بتحفظات معينة ؛ حيث إنه يمكن الخلط بينها وبين الأغصية وإن كانت الحافة السفلى لقطع جواخاريس خشنة وفضة مما يجعلنا نتكهن بعدم استخدامها للغرض الذي نحن بصدده ، ولا يمكنني أن أخوض في مزيد من التفاصيل عن النموذج الذي عُثِرَ عليه في مورثيا ، والذي عُرِفَ من خلال مظهره الأثري .

وفانوس أليكانتي^(٢٢) يُعتبر عينة متنقلة ضمن هذه المجموعة من عناصر الإضاءة ويسهل نقله بفضل يده العلوية ، ونظام الإضاءة سيكون على أساس جَذِيٍّ أو جمرات ؛ لأنه لا يوجد فراغ يتسع لوضع وعاء به أى نوع من الوقود ، وفتحات التهوية كائنة بالجزء العلوى للقطعة (أعنى الفانوس) ، وتقوم هذه الفتحات بالتخلص من الدخان الناتج عن عملية الإشعال أو الاحتراق .

وتوقفى لدراسة مختلف أصوات الإضاءة مصدره نُدرة وجود مثل هذه الأدوات بين أمتعة البيت الأندلسى المألوفة أو المعهودة ، إنها عبارة عن أدوات أو قطع خزفية معينة ، وإننى أتجرأ على تسميتها أو وصفها بكونها نماذج فريدة أو شبه فريدة .

وفى إطار هذه القطع الفريدة يجب منح مزيد من الاهتمام لزجاجات الحبر ، والمادة التى تصنع منها هذه الأدوات متنوعة ومختلفة من بينها الفضة وهى التى صُنِعَتْ منها حَبَّارة كوبريس^(٢٣) فى جنوب فرنسا ، والتى أصبحت اليوم كوعاء لحفظ الذخائر الدينية ، كما أن من بين عناصر صناعة الحَبَّارات نجد الفخار أو الخزف^(٢٤) .

ويمكننا أن نُدْرِسَ اثنين منها مختلفى الاستخدام ، نموذج أليكانتى وهو أسطوانى ذو تجويفات كبيرة لحفظ الحبر وتجويفات صغيرة القُطْرِ لوضع الأقلام ، وحَبَّارة المتحف الوطنى للأثار تُعْتَبَرُ نموذجاً صالحاً للسفر^(٢٥) ، والقطعة

ذات الشكل الأسطواني مغلقة بأنبوبة محقنة أو غاية صغيرة فى وسطها تسمح بإيلاج
الحبر فيها وكذلك القلم وهى مصنوعة بشكل إذا وقعت الحبارة لا ينسكب الحبر .

وكما يمكن أن نلاحظ الرفاهية والخيال قد جاوزا كل المقاييس بل قد بلغا حد
الإفراط ، ولكن يجب أن نعترف بأن شعباً رحالة ؛ حيث نجد أن كُتَّابه ومؤلفيه كانوا
أيضاً كذلك ، وقد لعبوا دوراً مهماً فى الحياة ، وبالتالي فإن صناعة الحبارة بهذه الدقة
والمواصفات كان أمراً ضرورياً لموائمة الترحال الدائم والكتابة فى نفس الوقت .

أما فيما يتعلق بأمتعة اللعب واللهو المصنوعة من الفخار (الطين المطبوخ) فإن
تطوراً ضئيلاً طرأ عليها ^(٢٦) . لقد تمكناً مؤقتاً من البرهنة على وجود طبقات ومزامير
أو صقافير . وفى الشرق يوجد دليل قاطع على وجود أنقرة أو أبواق ، ولكن حتى الآن
لم يتمكن من إثبات ذلك فى الأندلس الإسلامية . وقد وجد اللهو فى فن الخزف أكبر
معاون ومساعد ويفضل الطين المطبوخ (الفخار) استطاع الإسبانى تسليية أوقات
فراغه وذلك بالدق على الطبول الخزفية وكذلك لطرد الأرواح الشريرة عن طريق
العزف . وفى إطار المزايا المتعددة للطين يجب أن نفكر أيضاً فى قيمته كعنصر
سحرى عجيب ؛ فهو كالحجاب أو التعويدة التى تبقى الإنسان الشؤر كافة ، كما
أن الطين يمكن دراسته أيضاً كعنصر أساسى للألعاب أو اللعبات التى تسبب
جلبه وضوضاء ، فضلاً عن أن الخزف كان يُستخدم لمكافحة الحسد ، وهذا مظهر
جانبي فى الآثار الإسلامية ، وفى العصر النصرى نجد اهتماماً خاصاً بهذا الجانب
حيث وجدنا كمية كبيرة من نماذج هذا النوع ظهرت فى مستودعات أثرية تنتمى لهذا
العصر ، فمن ناحية يبدو أنه مُحَرَّم بالنسبة للعالم الإسلامى ؛ لأن هذه التماثيل
المصنوعة من الفخار أو الخزف لكونها تصويرية أى لها شكل وهيئة فهى تشبه
الأيقونات والإسلام يحرم ذلك . ومن جهة أخرى فإن الأثريين أو علماء الآثار اعتادوا
تجاهل هذه القطع فى معظم الأحيان لعدم إمكانية تحديد زمنها بدقة وأحياناً أخرى
يتجرأ الأثريون فى تحديد زمن معين ، ولكن النتيجة قد تكون مخيبة للأمال أو مخزية .

فاللعبة من الطين المطبوخ أو الفخار بصفارة أو بدونها هى أدوات أو عناصر
مشترك بى كافة الحضارات ، وقد تتبعنا ذلك فى كل أوروبا وفى مناطق كثيرة أسيوية

مجاورة للقارة الأوروبية كما أكتُشِفَ وجودها فى أمريكا اللاتينية (أمريكا الجنوبية) ولا ندرى هل وصلت عن طريق الحملات الاستعمارية أم كانت أصلية موجودة قبل حدوث هذه الحملات . فوجود الصفارة له قيمته الخاصة ، فهو يحول أداة من أدوات اللهو والتسلية إلى عنصر سحرى عجيب وكذلك إلى أداة تُحدث ضجيجاً والضجيج يستخدم فى عدة أمور منها تنبيه الصديق من حدوث خطر مفاجئ أو مباغت ، إثارة غضب الجار ، طرد الأرواح الشريرة أو لتنبية الماشية ، فالضجة هى القيمة الأساسية للأداة وفى هذا الصدد يجب التركيز على وجود هذه الظواهر أو المظاهر فى المضمار الاجتماعى الأندلسى .

وقد كان المرحوم توريس بالباس^(٢٧) هو أول من تعرّف على اللعبات الفخارية أو الخزفية التى عُثِرَ عليها فى الحمراء : مثل الجياد الصّغيرة وحيوانات أخرى وخاصة المفترسة والهرية (نسبة إلى الهر) ، كما أثبت بالإضافة إلى ذلك الكثير من الدلائل النصية التى ألفت بالضوء على أصل هذه اللعبات وذلك من خلال فتوى لجد العالم الجليل والفيلسوف القدير ابن رشد وقد دونها أحد فقهاء ترميسين^(٢٨) ، وقد أوصى فيها المؤمنين بعدم استخدام هذا النوع من اللعب الذى كان يُباع عادة فى المهرجانات والاحتفالات والمولد والأسواق ، وبالتالى كانت عادة مسيحية أو تقليداً مسيحياً ، ولكنه كان مذموماً لدى المسلم التقى الغيور على دينه .

وهذه الفتوى التحريمية كانت لها أهمية بسيطة ؛ لأن وجود تماثيل حيوانات كان شمة دائمة فى طول وعرض الأندلس بأسرها ، ولم تكن الجغرافيا النّصرية استثناء من ذلك لأنّه ؛ ربما تكون المكان الذى ظهرت فيه أكثر اللعبات التى عُثِرَ عليها من هذا النوع ، ولكنّها فى الحقيقة لم تحظ باهتمام زملائى ومحاولاتى فى هذا المجال معروفة للجميع وخاصة فيما يتعلق فى استمرارية هذا النمط من اللعب حتى الآن وكانت تُسمى فى البرتغال " أبيتوس " وفى أندوخار " بيكيروسوييتوس " وخارج شبه الجزيرة الأيبيرية وعلى وجه الخصوص فى جزيرة مايوركا كانت تُسمى " سيرولس أو شيلنس " .

وسوف أركز اهتمامى على لعبات الحمراء ، وأهم مجموعة تتكون من الجياد التى عليها فارس أو بدون فارس وتليها فى الأهمية مجموعة الحيوانات الهرية أو القطية

وسواء هذه أو تلك فإنها متعددة الأشكال والأحجام ومتباينة التقنيات كما يوجد نموذج فريد لثعبان ومن الممكن أن هذا الثعبان كانت له أهمية كبيرة لحماية المنازل وخاصة أسقفها أو سطوحها ، وثعبان الحمراء لم يكن لها صفارة ، أما الثعبان الذى عُثِرَ عليه فى الحمامات العربية بجيان فكان لها صفارة ^(٢٩) ، والأول يعنى ثعبان الحمراء كان فى وضع مثنى أو سترٍ وجسمه متعرج كما لو كان يزحف ، أما ثعبان بجيان فيبدو فى وضع استراحة ملتفًا حول نفسه فى وضع انتظار . وسيكون فى غاية الأهمية التعمق فى موضوع اللعب لدى المجتمعات الإسلامية ، هل سيكون هذا الموضوع متأصل فى الأندلس والمجتمع المسيحى ووصل إلى المجتمع الإسلامى بالأندلس ؟ أم أن ذلك يُعتبر بقاءً بربرياً فى الأندلس ؟ إنها تساؤلات يطرحها الإنسان بصوت مرتفع ولكن حتى الآن ما زالت بدون إجابة .

أما بقية قطع الحمراء فإنها تندرج فى مجموعة الأدوات التى تُقَلَّد تغريد العصافير ، ونماذج متحف الحمراء ذات طبيعة تشبه الإنسان ، وفى هذه الأدوات نجد أن الماء عنصرٌ فى غاية الأهمية ، وعند تحريكها بواسطة الهواء المدرج من جانب الشخص نفسه الذى يلعب بالقطعة فإن هذا ينجم عنه صوت العصافير أو تغريدها ، والقطعة لها ثلاث عناصر : مستودع للمياه وفتحة لإدراج الهواء وإدخاله ، ونهاية فى الحمراء جرت العادة على أن يكون شكلاً لرجل مُلتحى . وهذه الأداة يطلق عليها اسم العصفور أو البلبل ، وذلك فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية حتى الآن ، أما فيما عدا ذلك فإنها أداة مشتركة وعامة بين مختلف كثير من الحضارات .

ولم يبق فى النهاية سوى أن ندرس الجرس الصغير ، وهو عبارة عن تمثال نسائى له تنورة (جونلة) على شكل جرس الجسد رفيع ونحيف والساعدان على الخصرين على شكل مقبضى الجرس ، هل هى قطعة من أصل مسيحى ؟ لا يمكننا الجزم فى هذا الموضوع ؛ لأن القطع التى عُثِرَ عليها فى المحيط النُصرى ، وخاصة فى الحمراء ليست بها قرينة تسمح بتأريخها بدقة وبشكل صحيح ؛ فالجرس له قيمة رمزية بالنسبة للمسيحى أما فيما يتعلّق بالشخص المسلم فإن الجرس لا يمثل أى مغزى هذا إذا لم يكن يكره الناقوس فى حد ذاته لكونه رمزاً لتعدد الآلهة والشرك ، ولكن هذا أمر آخر ليس موضوع دراستنا الحالية .

لقد تناولنا فيما سبق العديد من الاعتبارات حول مهمة استخدام الأثاث والمتاع الخزفي الأندلسي ، أما الجزء الثاني من دراستي فإنه يتعلق بمحتوى الخزف نفسه .
وهي قضية ليست أثرية بدرجة كبيرة ؛ لأن المادة العضوية باستثناء العظام هي أمر غير ملموس أو محسوس بالنسبة لنا نحن الأثريون فإننا نوثق موضوعاتنا استناداً إلى البقايا المادية التي تفضلت وتكرمت الطبيعة الأم بتركها لنا ، ومع ذلك فإن قراءة وصفات الطعام قَدِّمَتْ لنا معلومات نموذجية وفريدة بشأن استخدام الأواني الخزفية ومهمتها والمكوّنات التي استخدمها أجدادنا الأندلسيون طوال حياتهم .

وليس بوسع الاستطراد والتوسع في هذا الموضوع ؛ لأن الأمر يتعلق ببحث يتم إعداده حالياً على فترات مستغللاً أوقات الفراغ دون التمكن من إعطائه الوقت اللازم للانتهاء منه ، وعموماً فإن المعلومات شهية وفي غاية الأهمية ، خاصة وأننا نتحدث عن الطعام .

و لنرَ بعض الأمثلة : فالطباخ الأندلسي كان بوسعه إعداد سمك بالملح باستخدام وعاء أو إناء خزفي مخصّص لمهمة مختلفة تماماً أرى طرف نقيض من إعداد السمك .

تؤخذ قرميدة جديدة وتُملأ بالملح ثم يوضع السمك ويغطى بالملح ثم توضع قرميدة أخرى كغطاء ثم يوضع في الفرن ، وسيكون لذيذاً شهياً بإذن الله .

و الحمد لله كانت تستخدم في هذا الأمر قرميدة جديدة ، وفي هذا الصدد فإنّ الإشارات بشأن جودة الأوعية أو الأواني المستخدمة في المهام المطبخية عجيبة .
والجمل أو التعبيرات مثل حلة أو إناء جديد ووعاء نظيف أمرٌ غير مأكوف تماماً ، وقد تكون غريبة بالنسبة لعقليتنا في موطننا على الأقل نجد أنّ الحلال والقدر أو المراحل والطناجر الجديدة تحتاج إلى عملية إعداد مسبق قبل تخصيصها لطهي الأطعمة، ولا يمكنني أن أتصور إعداد الطعام طهيًا في قدر أو طنجرة أو حلة غير نظيفة .

ومن العجيب فعلاً ملاحظة كثرة الأشكال والأحجام والمميزات الخاصة التي يجب أن تكون عليها القدر أو الرجل وجمعها قدور أو مراحل أو حلال:

١ - قدرٌ جديدة .

٢ - قَدْرٌ نَظِيفَةٌ .

نوع المادة الخام

١ - قَدْرٌ مَزْجَجَةٌ .

٢ - أو مطلية بالزُّجاج .

٣ - قدر من النُّحاس .

٤ - قَدْرٌ من الحجر .

٥ - قَدْرٌ من الخزف أو الفخار .

٦ - قَدْرٌ غير مزججة أو بدون تزجيج .

أما المظاهر الشكلية فهي متعددة وفقاً لكتاب الطبخ وهي كما يلي :

١ - قدر كبير مثقوب لطهى الكسكسى .

٢ - قدر كبير .

٣ - قدر جديدة مزججة لها جوف وعنق .

٤ - قدر مثقوبة .

٥ - قَدْرٌ مغلقة .

٦ - قَدْرٌ لها جوف .

٧ - قَدْرٌ صغيرة .

٨ - قُدَيْرَةٌ .

وفى المصدر الثانى فضل الجوعان نجد أنَّ الشكل الباروكى (نزعة أدبية وفنية

سادت إسبانيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر (بلغ أموراً مبالغاً فيها،
وجدير بالذكر أن مؤلفه أعرب عن سعادته عند إيضاح هذه المتغيرات والمميزات :

١ - قدرٌ نظيفةٌ وجديدةٌ كاملة

٢ - قدرٌ للكسكىسى .

٣ - قدرٌ ذات فوهة واسعة .

٤ - قدرٌ واسعة .

٥ - قدرٌ جديدة مزججة ومجففة

٦ - قدرٌ مدهونة .

٧ - قدرٌ مجهزة لإعداد الكسكىسى أى مثقوبة من أسفلها أو من قاعدتها .

وفى الواقع فإن المعلومات التى حُصلَ عليها بالسُّبل الأثرية تُغطى تماماً هذا
التنوع الكبير .

حسناً الآن ففى هذه العينات أو النماذج التى حصلنا عليها من أدب المطبخ
أو الطهى يطيب لى أن أسرد بعض الاعتبارات المحددة عن مضمون ومحتوى القطع
الخرفية وكيفية استخدامها ، فمثالان بسيطان كافيان لتوضيح الموضوع كما يجب
وبالشكل اللائق .

الأول : يتعلق بإعداد أو تفصيل الزُّلابيات ، كما جاء فى كتاب فضل الجوعان
الذى ترجمه السيد / فرناندو لاجرانخا (٢٠) الذى أشرنا إليه آنفاً :

ويعد ذلك يُملأ بها قدحٌ أو كوب الذى فى أسفله ثقب أو فتحة
صغيرة تكفى لإدخال أصبع الخنصر (الإصبع الصغيرة) ثم
توضع طاسة على النار (مقلاة) وبها زيت كثير ، وتُغطى
الفتحة بالإصبع وعندما يكون القدح أو الكوب فوق المقلاة يتم
إخراج الإصبع فيتساقط مُحتوى القدح أو الكوب يتم تحريك
اليد التى تحمل القدح فينجم عن ذلك أشكالٌ متعددةٌ مستديرةٌ .

وبإيجاز فإن هذا القدح مع المقلاة عبارة عن جهاز لتصنيع لوس تشوروس (بلع الشام) .

وبالنسبة لى فإن هذه العملية المعقدة إلى حد كبير لا يمكن أن تتم بدون إبريق له مقبض أو يد بالشكل الذى يستطيع معه إنسان أو شخص ماهر القيام على أكمل وجه بالعمل وذل بمفرده .

وفى الحقيقة فإن روعة هذه الصفات كانت تقترن دائماً بالصلاة والدعاء ؛ لأن المؤلف كان يحتاط دائماً عند إنهاء المعلومة بقوله : " هذا سيكون طيباً شهياً بمشيئة الله " . وهى صيغة موضوعية إلى أقصى درجة ؛ لأنها تخلص الكاتب من كافة الخطايا ذاك الذى خطرت له هذه الفكرة الرائعة لتجميع تلك الصفات .

أما فيما يتعلق بالمثال الثانى فإنه مذكور فى كتاب الطَّبِيعِ ، طبقاً لترجمة هويسى دى ميراندا ^(٣١) ؛ حيث يشير إلى الخصائص اللازمة والواجب توافرها فى الهون أو الصَّلاية لهرس الأطعمة . فالهون أو الصلاية (المهراس) من الحجر الرخامى الأبيض أو من الخشب الصلب مثل جنور الكروم وأشجار الزيتون والمران والبَقْس والقَسْطَل والبَطْم أو الضَّرَاوة المُعَدُّ لهرس الأشياء التى لا يتلاءم هرسها فى النحاس بنية حال من الأحوال مثل الملح والثوم والبصل والخردل والنّعناع والكزبرة الخضراء والليمون وكثير من النباتات الأخرى - الخضروات والفواكه مثل التفاح والسُفْرَجْل والرُّمَان واللحوم والدهون واللوز والحشو الخاص بالكحك والأطعمة التى قوامها الخبز أو الدقيق .

فوجود المهراس المعدنى موثق تماماً ، أما المهراس الحجرى فيصعب التحقق منه والبحث عن هويته لأسباب جليلة ؛ فوجودها يمكن تجاوز أى حدود والمهراس الأندلسى يمكن أن يكون قد بقى بسهولة تامة ، أما المهراس الخزفى فعلى العكس من ذلك تماماً لم نستطع التعرف على هويته ، ولكن هذا الإناء أو الوعاء وَجَدَ بكل تأكيد قبيل العصر الإسلامى . ونماذج تم التعرف عليها حديثاً من هذا النوع ستؤكد أننا على صواب ^(٣٢) .

وبعد هذا الاستطراء المسهب والمفرط عن الخزف ومضمونه ومحتواه فإننى أود فقط تحديد بعض المظاهر لبحث مازال فى حيز الإعداد وأتمنى الانتهاء منه فى يوم ما ، ومهمة الخزف متصلة اتصالاً وثيقاً بالعناصر والمكونات التى كانت فى حوزة الطباخ الأندلسى ، وهذه المعلومات يمكن أن تصلنا فقط من خلال قراءة متأنية لكتب المطبخ أو الطهى ؛ لأن البقايا المادية التى يمكن أن يتعرف عليها الأثرى قليلة ونادرة : بعض العظام وقشر البيض وبشكل فريد شوك السمك والأسنان العظمية لبعض الحيوانات البحرية التى لا يمكن إعداد جدول منها كمادة خام مترابطة ولو إلى أدنى درجة . فقراءة كتب المطبخ تعلمنا جيداً أن الإسبانى المسلم لم يكن شربياً (كثير الشراب) كما يريد أن يوهنا بذلك ، وإذا لم يكن يمتن ويزدى تناول الخمر أو شربها ، وهى خطيئة يمكن غفرانها بسهولة فإن حياة بدون الخل كانت ستكون فوضوية ، استناداً إلى مرقعة التخليل كان تملح الأسماك واللحوم وتدخينها أمراً ميسوراً لدى الأندلسى لحفظ الأغذية ، ومن جهة أخرى فوجود الخبز والمكونات الأخرى المأخوذة من القمح كانت تمثل العناصر الأساسية التى لا غنى عنها لتدبيره الغذائى ، ونعنى بذلك المسلم الأندلسى ، وكل بحث أثرى أعد بمعايير نقدية مبالغ فيها يجب أن يطرح تساؤلاً ، وهو ما الأشياء التى يمكن العثور عليها فى مستودع أندلسى قبل اغتباطنا من دراسة الذى سيظهر فى المستودع نفسه ؟

إن الخزف النصرى فى السياق الثقافى الأندلسى هو صفوة وخلاصة الفن الخزفى ، ويعنى ذلك أنه بمثابة وسام مجيد يضع نهاية لتقليد دنيوى استخدم الخزف كرمز للسلطة اللون الأخضر والمنجنيز بمدينة الزهراء وفقاً للافتراض الذى ساقه الأستاذ م. بارثيلو (٢٣) ، وهذا الوسام أو البروش سيتحول إلى رمز للازدهار الثقافى من خلال الخابيات بالحمراء ، والتى غزت حوض البحر المتوسط باليرمو ومصر وقبرص لدرجة أنه عقب اختفاء الثقافة النصرية بسنوات قليلة فإن هذه القطع الخزفية الفريدة تحولت فى عيون المسيحيين وأسماعهم إلى قارورات أسطورية جليبية وعنصراً للتقدير والتبجيل ؛ لأنها تشكل جانباً من معجزات الرب وإن كانت الحقيقة هى أن المعجزة الحقيقية فيما يتعلق بالخابيات تكمن فى استمرار بقائها على مر العصور والأزمان كرمز للحمراء الخالدة ولم لا وهى إنتاج خزفى تميز به العالم الأندلسى ؟!

المراجع

- (١) (أ) روسيو بوردي .ج. " الخزف العربى فى مايوركا عرض موجز لأنماطه وتاريخه " مايوركا ، بالمادى مايوركا ، ١٩٧٥ ص ٢١٥ - ٢٣٠ .
- (ب) روسيو بوردي .ج. " تجربة لتنظيم الخزف العربى فى مايوركا " مايوركا ، بالمادى مايوركا ، ١٩٧٨ .
- (ج) روسيو بوردي .ج. " الخزف العربى فى مايوركا (مشاكل تأريخية) " الخزف فى العصور الوسطى بحوض البحر المتوسط الغربى ، فالبون ، ١٩٧٨ ، باريس ، ١٩٨٠ ص ٢٩٧ - ٣٠٩ .
- (د) روسيو بوردي .ج. " الخزفيات فى المرحلة الأولى (العصر الأول) بعض الملاحظات المنهجية " فى خزف أواخر العصور الوسطى بجنوب الأندلس ، غرناطة ، ١٩٩٣ ، ص ١٣ - ٣٥ .
- (٢) روسيو بوردي . ج . " اسم الأشياء فى الأندلس " اقتراح لمصطلحات خزفية ، بالمادى مايوركا ، ١٩٩١ .
- (٣) بعض العروض التى قُدمت فى ملتقى أو ندوة ليريد أو خاطبا (اسمى مكان) عن التغذية أو الغذاء فى العصور الوسطى المنعقدين فى عامى ١٩٩١ ، ١٩٩٢ على الترتيب . والتأخير طُبعت فى محاضر جلسات الملتقيين يجعلنا نعتقد بأن هذه المحاولات قد باءت بالفشل أو ذهبت مع الريح .
- (٤) كاسمار مانويل " أجزاء من أباريق مالقية فى مُتَحَف القاهرة " مجلة الأندلس ، العدد السادس والعشرين ، مدريد ، ١٩٦١ ، ص ١٨٩٥ - ١٩٠ .

- (٥) كورتيس أوتو " التاريخ الغريب للحمراء " مجلة الأندلس ، العدد الخامس والأربعين ، مدريد ، ١٩٧٥ ص ٢٢٠٥ - ٢٢١٢ .
- (٦) كافانا مورفي ، روبرت " العاديات العربية أو الآثار العربية في إسبانيا " الحمراء ، غرناطة ، ١٩٨٧ ، ص ٤٧ - ٤٨ .
- (٧) فلوريس اسكوبوسا ايسابيل ومونيوت مارتين ، ماريًا ، الحياة أو العيش في الأندلس ، ألميريا ، ١٩٩٣ .
- (٨) بلاكي هوجو " الخزف والزخرفة الإسبانية " الملتقى الدولي الثاني للخزف في العصور الوسطى في غرب البحر المتوسط ، طليطلة ١٩٨٤ ، مدريد ١٩٨٦ ، ص ٣٦٥ - ٤٠٧ .
- (٩) فلوريس إيسكوبوسا إيسابيل " دراسة تمهيدية عن الخزف الأزرق والمذهب في عهد النصريين بالحمراء " مدريد ، المعهد الإسباني العربي للثقافة ، ١٩٨٨ .
- (١٠) كريسيير باتريك ماريًا ماجدليتا ريبيرا فراو ، رسيو بورديو جيرمو " الخزف في أواخر عصر الموحدين وأصول الخزف النصري " الخزف في العصور الوسطى بغرب البحر المتوسط ، لشبونة ١٩٨٧ ميرتولا ١٩٩١ ، ص ٢١٥ - ٢٤٦ وتوجد طبعة منفصلة دفاتر العهد المسيحي ، العدد الثاني ، بالمادى مايوركا ، ١٩٩١ .
- (١١) هويش ميراندا ، أمبرو سيو " ترجمة إسبانية لمخطوط مجهول الهوية من القرن الثالث عشر عن المطبخ الإسباني المغربي " مدريد ١٩٦٦ - دي - لا جرانخا - سانتا ماريًا - فرناندو " المطبخ العربي الأندلسي طبقًا لمخطوط لم يطبع ، مدريد ١٩٦٠ .
- (١٢) دو مينجيث بيدمار ، مانويل . فلورنس إيسابيل . مونيوت ماريًا ديل مار " بعض الخزفيات الإسلامية في ثل روح القدس (ثيروديل ايسبيريتو سانتو) بيرا ، ألميريا ، الملقى الأول للثقافة بالبحر المتوسط ، ألميريا ١٩٨٦ ، ص ٢١٩ - ٢٣٠ .

(١٣) دى لاجرانخا سانتا ماريّا فرناندو ، " المطبخ العربى - الأندلسى وفقاً لمخطوط لم يطبع بعد " مدريد ١٩٦٠ ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(١٤) ياثانا ، أندرية " الخزفيات فى العصور الوسطى " مناهج الوصف التحليلى التطبيقى على منتجات شرق إسبانيا ، بيت بيلاثيكث ، العدد ١٥ ، ص ١٣٥ - ١٨٥ .
نابارو بلاثون ، خوليو " منزل إسلامى فى مورثيا " دراسات لمناخ وأثاث المنزل ، مورثيا ، ١٩٩١ .

فلوريس أسيكو بوسا ، إيسابيل ومونيوث مارتين ماريّا ديل مار " الحياة أو العيش فى الأندلس " ألميريا ، ١٩٩٣ .

(١٥) أميجيس فرانسوا باثانا أندرية " الخزفيات فى العصور الوسطى فى غرب البحر المتوسط " .

(١٦) باثانا أندرية " ساقية عربية فى بستان زيتون " المؤتمر الثانى عن أثر إسبانيا فى العصور الوسطى ، مدريد ١٩٨٧ الجزء الثانى ، ص ٤٢١ - ٤٣٢ .

بوستس فيروومارينا شينشليا جوميث " أشكال خزفية مساعدة : الكوانين والقواديس وأشياء أخرى " المؤتمر الثانى عن الآثار الإسبانية فى العصور الوسطى ، مدريد ١٩٨٧ الجزء الثانى ، ص ٤٩١ - ٥٠٠ .

(١٧) روسيو بوروى ، جيرمو " الخزف والسُّكر فى العصور الوسطى " فى الصحافة فى الملتقى الدولى الرابع عن قصب السُّكر .

(١٨) دودا دوروتيا " الخزف الإشباني الإسلامى فى ألميريا من القرن الثانى عشر حتى الخامس عشر " هيديلبرج ، ١٩٧٠ ، انظر رقم ٨٠ من تصنيفها .

(١٩) خورخى أراجونيسيس ، مانويل ، متحف القلعة العربية فى مورثيا ، مدريد ، ١٩٦٦ .

(٢٠) نابارو بالاثون ، خوليو " الأشكال المعمارية فى الأثاث الخزفى فى الأندلس " دفاتر الحمراء ، العدد ٢٣ ، غرناطة ، ١٩٨٧ ، ص ٢١ - ٦٥ .

(٢١) بودا دوروتيا " الخزف الإسباني الإسلامي في ألبيريا من القرن الثاني عشر حتى الخامس عشر " هيديلبرج ، ١٩٧٠ ، أنظر رقم ٨٠ من تصنيفها .

(٢٢) أثوار رويث ، رفائيل : كاستيو دي لا توزي جروثا (حيخونا) أليكانتي ، ١٩٨٥ ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢٣) ألتاجرو باتتش مارتين " دواية الحبر أو زجاجة الحبر العربية في عصر الخلافة " بكنيسة كوربوريس (روسيون) العدد الرابع ، ثي إن أ . اشبيلية ١٩٦٣ ص ٤٨٧ - ٤٩٠ .

(٢٤) أثوار رويث ، رفائيل : كاستيو دي لا توزي جروثا (حيخونا) أليكانتي ، ١٩٨٥ ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢٥) ثوثايا خوان ، واي ياجوستيراس " تحليل بالأشعة لزجاجة حبر أو محبرة من عصر الخلافة " مجلة أ . ب . ر . م العدد ٧٥ ، مدريد ، ١٩٧٧ ، ص ٩١١ - ٩١٥ .

(٢٦) تحديث القضية اليوم يمكن الإطلاع عليه في محاضر حوار ألبيريا عن علم موسيقى الأجناس بالبحر المتوسط تحت الطبع وخاصة محاضراتي عن الآلات الموسيقية من الطين المطبوخ (الفخار) الباقية من العصور الوسطى .

(٢٧) توريس بالباس ليوبولدو " حيوانات اللعب " مجلة الأندلس ، العدد الحادي والعشرين ، مدريد ، ١٩٥٦ ، ص ٣٧٣ - ٣٧٥ .

(٢٨) طالبى م . " الخزف العربى والإسلامى فى القرن الخامس عشر بالغرب الإسلامى " مجلة أرابيكا ، العدد الأول ، ليدين ١٩٥٤ ، ص ٣٠٤ .

(٢٩) روسيو بوردوى ج . " الزخرفة الحيوانية فى الجزر الشرقية بالأندلس ، بالملا دي مايوركا ، ١٩٧٨ ، ص ٦٢ .

(٣٠) دي لا جرانخا سانتا ماريأ فرناندو " المطبخ العربى الأندلسى طبقاً لمخطوط لم يطبع ، مدريد ، ١٩٦٠ ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٣١) هيوشى ميراندا ، أمبروسيو" ترجمة إسبانية لمخطوط مجهول الهوية من القرن الثالث عشر عن المطبخ الإسباني المغربى " مدريد ١٩٦٦ .

(٣٢) فلوريس اسيكوبوسا ، ايسابيل ومونيوث مارتين ماريًا ديل مار " الحياة أو العيش فى الأندلس " ألميريا ، ١٩٩٣ .

(٣٣) بارثيلو . م . " الملك الأخضر والأبيض ، أوانى الخلافة بمدينة الزهراء " الخزف فى أواخر العصر الوسيط فى جنوب الأندلس ، غرناطة ، ١٩٩٣ ، ص ٢٩١ - ٢٩٩ .

الفصل الحادى العاشر

دراسة منهجية وتصنيفية لخزف مدينة إلبيرا

إعداد : كارلوس كانو بييدرا

نشر ليوبولدو توريس بالباس مقالاً عام ١٩٣٩ بمجلة الأندلس عن الخزف الإسباني الإسلامي^(١) الذى كان ولا يزال بمثابة دعوة لإعداد دراسات كاملة ومتكاملة جادة ومنظمة ومنهجية عن الموضوع ، وفى إحدى فقرات هذا المقال اهتم الكاتب بالخزف فى عهد الخلافة وندرة المعلومات التى فى حوزتنا عن هذا الموضوع^(٢) ، وبالتأكيد فإنه قد ظهرت خلال تلك السنوات إشارات أكثر أو أقل اتساعاً وكثافة بشأن الخزف فى مدينة الزهراء^(٣) ومدينة إلبيرا^(٤) وبويسترو^(٥) ومدينة ثيلى (مدينة سالم)^(٦) ، ولكن على الرغم من ذلك لا توجد دراسات متكاملة ومنهجية لهذه المادة الخزفية . وقد انتقد ليوبولدو توريس بالباس قيام العديد من جهابذة العلم الإسبان بإعداد دراسات وتطويرات كاملة عن الخزف الإسباني^(٧) كانت تتخللها بعض الثغرات خلال أوقات مهمة نتيجة لعدم وجود وثائق ومعلومات فى هذا الشأن ، ثغرات كانت تتوافق مع اثنين من أكبر فصول إنتاج الخزف الإسباني : عصر الخلافة القرطبية والعصر النصرى .

وقبيل عقد الأربعينيات أُجريت محاولات بالفعل لتصنيف الخزف فى العصور الوسطى بإسبانيا ، وقد تزعم هذه المحاولة مانويل جوميث مورينو مارتينيث فى

سلسلة محاضرات بجامعة برشلونة عام ١٩٢٤ ، والتي نُشرت فيما بعد من قِبَل الجامعة ذاتها^(٨) .

واعتباراً من الأربعينيات توالى الاشارات و المقالات عن حقول جديدة كانت تُمدنا بالمادة الخزفية الوفيرة^(٩) ، كما ظهرت دراسات أكثر تكاملاً عن بعض القطع التي سبق اكتشافها من قبل ، وفى هذا الصدد سنذكر ما قام به جوميث مورينو نفسه^(١٠) ، وكامبوس جاثورلا^(١١) ومانويل جونثاليث مارتى^(١٢) ولويس م. يلوييا^(١٣) وباسيليو بابون مالدونادو^(١٤) وإيميليو فرنانديث سوتيلو^(١٥) وجييرمو روسيو بوردوى^(١٦) وخوان ثوثايا^(١٧) وأندريه باثانا^(١٨) وخوسيه أجواو بيبالبا^(١٩) ورفائيل بويرتاس تريكاس^(٢٠) وخوليو نابارو بلاثون^(٢١) وآخرون الذين اهتموا بتجميع وتصنيف القطع الخزفية المتعددة الأصول ، ولكن على أية حال فإن ما أعده جوميث مورينو وضمه إلى مؤلفه عن مدينة إلبيرا لم يتم مراجعته إلا بشكل وجيز ومقتضب وأحياناً عشوائى^(٢٢) ، وحتى الآن ما زلنا نفتقر إلى دراسة كاملة متكاملة مزودة بالصور والرسوم التخطيطية .

وهذه هى المهمة التى تعهدنا القيام بها و ثمرتها تكمن فى المقال الذى بين أيدينا ، ونأمل فى هذا المقال - بصفة أساسية - تقديم هذه القطع الخزفية مصنفة وفق نظم تقنية وشكلية وزخرفية .

والمجموعة التى نحن بصددھا تتألف مما يقرب من مائتى قطعة خزفية (ما بين قطع كاملة ، أو مُرَمَّمة أو أجزاء) ، والتى تم تجميع مُعظمها فى الربع الأخير من القرن الماضى من مركز الطرف^(٢٣) - من بين أطلال وبقايا مدينة إلبيرا - والتى توجد مودعة حالياً بمتحف الآثار بغرناطة^(٢٤) ، وقد دُرِس معظم هذه القطع ونُشِرت وجرِدَت بواسطة مانويل جوميث مورينو مارتينيث عام ١٨٨٨^(٢٥) وإن كانت قد وصلت بعض القطع التى تنتمى إلى مجموعات أخرى أصلية تنتمى إلى المكان نفسه .

وعبر هذه الصفحة نود أن نُعرب عن خالص شكرنا وعظيم تقديرنا للسيدة / أنخيل ميندوثا المديرية السابقة للمتحف الإقليمى للآثار فى غرناطة للاهتمام والعناية

الذين أولتنا إياهما فى كل لحظة إبان إعداد الدراسة مما جعل عملنا البحثى ممكناً وسهلاً وميسوراً .

نعرف أن مدينة إلبيرا كانت عاصمة للمنطقة التى تحمل اسمها إبان الإمارة والخلافة القرطبية وفقاً لما تؤكدُه لنا الوثائق والمصادر الإسلامية (٢٦) وإن كان بعض المؤرخين والرحالة يقولون إن وسط الحى ينتسب إلى كاستيليا (٢٧) ، والأصل الاشتقاقى لكلمة إلبيرا مشتق من كلمة أو لفظ البيريس الذى يعنى أهم المراكز الحضرية بالمنطقة فى العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى .

ولقد كُتِبَ الكثير عن مكان البيريس وإلبيرا والعلاقات الفعلية بين كليهما من ناحية التسمية مع التركيز على الأهمية الأثرية لقطاعات معينة بالبائسين (البيريس ، إلبيرا فى رأى بعض الجهابذة من العلماء) أو الأطلال الكائنة بين بلدتى الطرف و بينو بوينتى (من هذا المكان يأتى خزفنا ، المكان الحقيقى للبيريس إلبيرا طبقاً لآراء آخرين) وعلى أية حال لقد اتضحت القضية فيما بعد اعتباراً من القرن الماضى ، وذلك بحل وسط اقترحه ف . سيمونيتا تلك النظرية التى ارتضاها علامتنا السيد / مانويل جوميث مورينو مارتينيث (٢٨) ، والتى ما زالت صالحة حتى يومنا هذا وتكمن فى التحقق من اسم المدينة الرومانية القديمة البيريس ، وذلك من خلال البقايا الأثرية فى البائسين (٢٩) وعاصمة المنطقة الإسلامية وبقايا منطقة لافيجا وبالقرب من قرية الطرف ، ووفقاً لهذه النظرية فإن وصول المسلمين إلى إسبانيا أدى إلى تغيير العاصمة ومدينة البيريس لم تصبح الحاضرة الأهم بالمنطقة بل أصبحت العاصمة كاستيليا والتى بمرور الوقت أصبح اسمها إلبيرا طبقاً لاسم المحافظة ، وقد انحسرت البيريس فى مدينة صغيرة كان يسكنها المسيحيون واليهود الذين بدأوا فى إطلاق اسم جارناتا عليها ، هذا الاسم الذى سيتأكد من جديد كعاصمة بعد تفتت الخلافة وتمزقها .

وانطلاقاً من هذه الاعتبارات فإنّ البقايا أو الآثار الخزفية التي جمّعها مانويل جوميث مورينو مارتينيث وأعضاء اللجنة الإقليمية للآثار من منطقة لافيجا وأودعوها متحف الآثار بغرناطة تنتسب هذه القطع الخزفية بالفعل إلى أهم مركز ثقافى فى المنطقة فى أثناء الخلافة القرطبية .

إنّ غياب الحفريات الأثرية فى المكان وقلة ما كتبه المؤرخون و الرُحالة المسلمون عن مدينة إلبيرا ^(٢٠) تجعل من هذه الآثار الخزفية - إلى جانب غيرها من المواد غير الخزفية التي جمّعت فى الوقت نفسه فى عمليات الكشفو إبان القرن الماضى ^(٢١) أهم ما حفظ ، وهى بلا شك تشهد بجلاء على مدى القيمة الثقافية للعاصمة الإقليمية خلال عصر الازدهار لأراضينا الجنوبية .

أ - نظرية الأنماط أو علم الأنماط

بالنسبة للأشكال

لقد وضعنا خطة تتكون من فصلين كبيرين : أشكال مفتوحة (مسطوحة وشبه مسطوحة) و أشكال مغلقة ، والفارق بين النمطين يكمن فى غيبة أو وجود حائط رأسى أو عنق مغلق إلى حدٍ ما تصدّد بشكل قاطع مكان تطوير النقوش الزخرفية وكذلك طريقة التركيب فى النماذج المزخرفة ، وانطلاقاً من هذه الازدواجية فإن تنوع الرسوم التخطيطية و الإضافات واستخدامات الألوان و الأدوات ستؤدى إلى إكمال خطتنا الشكلية ، ومع ذلك يجب أن ننبه على صعوبة تحقيق و إجراء هذا التصنيف أو التبويب فى القطع الزخرفية ، هذه الصعوبة ترجع فى المقام الأوّل إلى الحرية التى تمتع بها صانع الفخّار دائماً عند ممارسته لعمله والمواد التى كان يستخدمها وفى المقام الثانى للإيهام الإصلاحى (أو الإصلاحات المبهمة) الموجودة عند تسمية الأنماط والأشكال .

١- الأشكال المفتوحة

١ - أ - الأطباق أو الصواني

ولهذه المجموعة عدد كبير من أجزاء الأطباق أو الصواني المعروفة باسم (التيفور) وهذه الكلمة تُبرز أهمية هذه الأوعية والأواني في الخزف المنزلي في عصر الخلافة ، وبعضها ذو مقاسات وأحجام كبيرة مما يُسهّل إعادة تركيب شكلها و كل زخرفتها ، وتنقسم هذه الأطباق أو الصواني بسبب جوانبها إلى ثلاثة أنماط أو أنواع :

● تلك الأطباق أو الصواني التي تتميز بقاعدتها الحلقية أو الحلقية (قطع مُسجلة برقم ٧٧١ / ٧٨٠ / ١١٤٢ / ١٢٤٠ / ١٢٦٩ / ١٢٨١ / ١٢٨٣ / ٢١٤٧ / ٢٢٩٨ / ٢٣٠٣ / ٢٣٠٥ / ٢٣٠٦ / ٢٣١٠ / ٢٣١٧ / ٢٣٢٣) وجوانب ذات بروز جانبي على شكل حرف (S) بِشَفَّةٍ تتجه نحو الخارج بخفة وأحياناً مُختنقة الأرقام (٧٨١ / ٢٥٠ / ١٢٥٢ / ١٣٠٠) والمقاسات يختلف قطرها من ٢٠ مليمتر إلى ٢٤٠ مليمتر . وهي قطع جيدة الصنع متقنة الزخرفة ، وفي معظمها (باستثناء القطعة رقم ٢٣١٢) تستخدم الألوان البنفسجي والأخضر فق لون أبيض للتعبير عن موضوع متنوع يكمن في منتصف الطبق أو الصينية وتتجمع هذه الخطوط الزخرفية متبعة تخطيطات تكوينية إشعاعية أو نصف قطرية (موضوعات في الأصل أمّا زهرية أو شبه كتابية أو نقشية) ، أمّا خارج الإناء أو الوعاء فقد تزخرفت باللون العسلي / الأخضر ، وهو المألوف في هذا النوع من الأطباق أو الصواني ، أمّا الظَّهر فمزخرف باللون الأبيض وحالة استثنائية فريدة تكمن في القطعة رقم ٢١٤٧ بزخرفة مرسومة على كلا الوجهين وموضوعات تُحاكي الإنسان .

ويكثر هذا النمط في الحقول الخلفية - ومعظمها يقترن بزخرفة هائلة ثنائية اللون على أرضية بيضاء - ويتميز بمسقطها الخلفي المهم .

وقد عثر روسيو على عدد كبير من هذه الأواني في مايوركا^(٣٢) ، كما تم إثبات وجود مثل هذه الأطياف أو الأشباح في بلدة ميساس دي أستا^(٣٣) نيبلا^(٣٤) تالابيرا^(٣٥) قرطبة^(٣٦) مدينة الزُّهراء^(٣٧) ألميريا^(٣٨) طليطلة^(٣٩) مالقة^(٤٠)

مورثيا (٤١) فالينثيا (٤٢) ثوثايا قد أثيرت فى بعض الأحيان (٤٣) الأصل الصينى لشبح هذه الأوانى أو الصوانى .

• الأوانى ذات القواعد المسطوحة و الحوائط المنحنية و الخفية البروز الأرقام (٧٧٤ / ٨٥٥ / ٩٦١ / ١٢٤١ / ١٢٤٣ / ١٢٤٤ / ١٢٤٥ / ١٢٤٦ / ١٢٥٤ / ١٢٥٥ / ١٢٥٨ / ١٢٥٩ / ١٢٦٧ / ١٢٧١ / ١٢٧٧ / ١٣١٣ / ١٣٢٨ / ٢٣١٨ / ٢٣٢١) .

• وتختلف الأحجام والمقاسات بشكل ملحوظ (من ٢٠٠ مليمتراً إلى ٣٥٠ مليمتراً " نعنى قطر الفم ") ، ويجب التمييز الهام بين النماذج التى زُخِرَتْ وجوهها الداخلية على أرضية بيضاء (أحياناً بموضوعات إيحائية مثل الجواد أو صائد الصقور) وبين تلك الأخرى التى على الرغم من أنها من الخزف المزجج المطفى التى تخلو من الأرضية البيضاء أو حتى من أى تخطيط زخرفى .

• وهذا النوع أو النمط يكثر أيضاً فى بقايا أو أطلال مدينة الزهراء (٤٤) والميرينا (٤٥) وطليلة (٤٦) مورثيا (٤٧) ومالقة (٤٨)

• ونُدْرِجُ فى النهاية خلال الفصل الحالى القطعة (رقم ٢٢٩٩) التى تنتمى إلى شكل مألوف قليلاً ذى جسد مُنخفض وقاعدة مسطوحة وجناح أفقى متطور جداً . والمساحة الداخلية تُزخرف فوق أرضية بيضاء ، ويمكننا التمييز بين بقايا شبكة كتابية أو نقشية فوق مسطح الجناح ، وتوجد قطع مشابهة فى طليطة (٤٩) ومورثيا (٥٠) .

١ - ب - حوامل ذات ثلاثة قوائم

لقد حَفَظَ نموذجان (رقم ٦٥١ - ٧٦٥) وهى خالية من الخزف المزجج ، أولاً القطعة (رقم ٦٥١) لها قوائم متطورة جداً ، بينما الآخر يقترب بشبهه أو طيفه بيدين رأسيّتين واسعتين ، وتتفق القطعتان فى تقديم أليكيات بالطرف فى اتجاه رأسى وحلّات ذات قطع ثلاثى ، وهذه القطع للاستخدام العام ، وهى معروفة بأنّها أفران صغيرة أو مدافئ صغيرة ، وقد عُثِرَ على قطع مشابهة فى مايوركا (٥١) .

١ - ج - الجفّنات أو القصّعات

وهو نوع خاص من القصّعة أو الجفّنة ذات المقاسات أو الأبعاد الكبيرة ، وقد وصلت هذه القطع كاملة غير منقوصة إلى متحف الآثار بفرنطة (شكل ٧٥٣) ، وهى عبارة عن قطعة ثريدية ذات جدران سميكة وتشطيب بدائى ، وكانت تستخدم لغسل الملابس والأواني (الشكل و الاستخدامات استمرت حتى أيامنا هذه) وقد أطلقنا عليها اسم القصّعة أو الجفّنة استناداً إلى المصطلح الذى أطلقه عليها روسيو^(٥٢) الذى يؤكد وجود مثل هذا النوع بين المنتجات الفخارية الإسلامية بـمايوركا ، ويصنفها نابارو^(٥٣) بين الآثار أو البقايا الخزفية بمورثيا وباتانا^(٥٤) وفالينثيا .

١ - د - الأغطية

ولنتناول فى هذا الجزء نماذج متنوعة - أو قطع منها - تتفق فى كونها أوعية أو أواني مسطوحة أو شبه مسطوحة ولها استخدام مشترك (رقم ١٢٥٦ / ١٣١٨ / ٢١٤٤ / ٢١٤٥) ورسم أطرافها أو أشباحها وجودتها الزخرفية تختلف بشكل ملحوظ .

وإحدى هذه القطع ما زالت موجودة برمتها وهى كالثريد (رقم ١٢٨١) ، وهى على شكل خزانة البارود فى البنادق القديمة ولها مقبض أو علاقة صغيرة فى وسطها وتقوم بمهمتها موضوعة فوق جرّة أو قدر أو مرّجل ، وقد عثر عليها أيضاً فى مايوركا^(٥٥) ومدينة الزّهراء^(٥٦) ومورثيا^(٥٧) وفالينثيا^(٥٨) .

أما القطع رقم ١٢٥٦ / ٢١٤٤ / ٢١٤٥ فلها أغطية نوات مقاسات كبيرة مسطوحة بحوايط قصيرة ومستقيمة ، ولها خنّوص واسع بالوسط ، وهى مزخرفة بروعة فائقة على أرضية بيضاء ، وقد يقال إنه نظراً لحجم قطرها فإنّها صنّعت خصيصاً لتغطية الأواني أو الأوعية الكبيرة ، أما النموذجين رقم ٢١٤٤ / ٢١٤٥ فهما الأفضل احتفاظاً ، وقد نُشِروا بواسطة مانويل جوميث مورينو مارتينيث^(٥٩) كغطاء وجسد

إناء على التوالي (حيث إنّه - بالصدفة - يمكن تركيبهما أو وضع إحدهما على الأخرى) . وتفتقر إحدى هاتين القطعتين إلى الجزء الذى يحمل المقبض أو العلقة فى الوسط .

هذا ولم نستطع إثبات وجود مثل هذا النوع من الأغطية فى أى حقل إسباني إسلامي آخر .

٢- الأشكال المغلقة

٢- أ - الجرار أو الأباريق

ومن بين قطعنا الزخرفية التى تنتسب لعصر الخلافة وجدنا نوعين من الجرار والأباريق يختلفان فيما بينهما بوضوح تام ، فمن ناحية نجد الأباريق ذات المقاسات أو الأحجام المتوسطة (١٠٠ ملليمتر و ١٥٠ ملليمتر من حيث الارتفاع) لها رقبة كبيرة وفم كبير واسع ، ويقوم مقبضها الرأسى الذى يربط فيها بوسط الجسد (الأرقام ٦٤ / ٦٤٥ / ٦٤٩ / ٧٥٧ / ٩٢٥ / ١٠٢٣ / ١٠٢٤ / ١٠٢٥ / ١١١٠ / ١١١١ / ١١١٢ / ١١٣٦) ومن ناحية أخرى تلك القطع التى ذات المقاسات أو الأحجام الكبيرة ٢٠٠ ملليمتر - ٢٥٠ ملليمتر من حيث الارتفاع ، والتى لها رقبة ضيقة وفم صغير ، ويربط مقبضها وسط الجسد بمنتصف الرقبة (٦٤٤ / ٦٤٧ / ٦٤٨ / ١٠١٩ / ١١٣٤ / ١١٣٥ / ٢٠٦٥) وفى كلا النمطين أو النوعين نجد أن الفم ثلاثى الفصوص بثقب صغير .

ونظراً لكم الهائل من هذه النماذج فإن الاعتقاد السائد يقول بأن مثل هذه الأواني كانت شائعة الاستعمال أو الاستخدام فى المنازل الإسلامية، وأن كل شكل من هذه الأشكال له استخدام معين أو أنه مخصص لحفظ سائل مُحدد (ماء / خمر / زيت) على سبيل المثال) .

أمّا الزخرفة فهى فى معظم هذه النماذج غير موجودة ، وأحياناً توجد بصمات صانع الفخار فى الجزء الأسفل للبطن أو خطوط قليلة بيضاء متوازية فى أعلى

البطن ، وهذا هو كل الزخرفة الموجودة فى هذه الأوانى إن وُجِدَتْ ، ومع ذلك فقد وجدنا بعض النماذج المزججة (النموذج رقم ١١٣٤) . وعندما يتعلق الأمر بقطع تنتمى إلى النمط الثانى (عنق ضيق و فم صغير) فإنَّ المقبض يستمر من خلال حُلِيَّة حَلَقِيَّة تُقَسِّم الرقبة من منتصفها .

ويمكننا إيجاد علاقة بين هذه الأطياف أو الأشكال من الأباريق أو الجرار مع نماذج قوطية غربية (القوط الغربيون هم أحد الشعوب التى احتلت إسبانيا قبيل الفتح الإسلامى) كما ظهرت فى حقول خليفية وستظل موجودة إلى فترة طويلة . ويوثق روسيو النمطين من الخزف بخزف مايوركا (٦٠) وبيلانكيث بوسكو (٦١) وصامويل دى لوس سانتوس (٦٢) وكاثورلا (٦٣) جوميث مورينو (٦٤) وخوان ثوياس (٦٥) يؤكِّون وجود مثل هذا النوع فى بقايا مدينة الزُّهراء ، دورو تيانورا (٦٦) ونابارو بلاثون (٦٧) يؤكِّد أنَّ على بقاء جرتنا أو أبريقنا بين قطع القرون اللاحقة لالميرا ومورثيا على التوالي .

٢ - ب - أوانٍ أو أباريق بيزبوز

وقد وجدنا فى ثلاث محاولات أوانى أو أباريق مغلقة وكبيرة البطن التى لها البزبوز المخروطى لسكب السوائل من الداخل (رقم ٧٥٤ / ٧٦٧ / ١١٨٤) والأوانى الثلاث تختلف فى شكلها ، كما أن وضع إضافاتها مختلف أيضاً ، فالقطعة رقم ٧٥٤ لها فم أو فوهة واسعة والبزبوز يميل إلى كونه أفقياً أمَّا رقم ٧٦٧ فإن رقبته أو عنقها ضيق ولها فتحة لسكب السوائل فى وضع رأسى تقريباً أمَّا رقم ١١٤٨ فهو فى النهاية أقل حجماً و ذو صناعة بدائية فظة فهو أشبه بالرضَّاعة ؛ ففى النُّمُودجين الأوَّل والثانى نجد زخرفة رائعة باللونين الأخضر والبنفسجى على أرضية بيضاء وتشغل الزخرفة النِّصْف العلوى من القطعة أمَّا فى النموذج الثالث فإن القطعة تظهر بلون التريد .

وفى معهد فالينثيا دى بون خوان بمدريد يوجد نموذج مزخرف ينتمى إلى مدينة البيرا أو مدينة الزُّهراء (٦٨) والذى شكله يُشبه تماماً النموذج رقم ٧٦٧ ، أوانى لها

بزبورز وجدنا أيضاً فى علم الأنماط أو نظرية الأنماط أو التصنيف التى أعدها روسيو والمخصصة للخزف الإسلامى بمايوركا^(٦٩) أو فى تصنيف نابارو عن الخزف المورثيانى (مورثيا)^(٧٠) أو تيويب باثانا عن خزف فالينثيا^(٧١) أو ترتيب ثوثايا^(٧٢) لخزف السامرة .

٢ - ج - القارورات أو القنينات

وتوجد نماذج كثيرة لهذا النوع من القارورات أو القنينات (ذات الجسد الكبير والعنق الضيق) وهى موجودة بمتحف الآثار بقرناطة قادمة من الطرف ، وتختلف فى أحجامها وزخرفتها ، وإذا استثنينا الأنية رقم ٧٥٩ ذات الجسد الأسطوانى والعنق المنخفض وفم أو فوهة واسعة ، أمّا القطع أو النماذج الباقية فإنها تنتمى إلى نفس النمط ذو البطن التى على شكل بالونه والعنق الضيق . والآن يمكننا الحديث عن مجموعتين كبيرتين : تلك الزجاجات التى لا مقبض أو يد لها و التى جسدها منبعج أو مقلطح ، وهى هائلة الزخرفة على أرضية بيضاء (رقم ٦٧٧ / ١٠٣٤ / ١٢٦٨ / ١٢٧٢ / ١٢٨٥ / ٢٢٩٤ / ٢٢٩٥ / ٢٢٩٧ / ٢٣٠٩) وتلك الزجاجات الشائعة أو العادية ذات اليد أو المقبض الرأسى والجسد الأسطوانى الكروى أو الدائرى وهى خالية من الزخارف أو بها زخارف جزئية (رقم ١١٨١ / ١١٨٢ / ٢٠٦٠ / ٢٠٦٤ / ٢٠٧٤ / ٢٠٧٨ / ٢٠٧٩ / ٢٠٨٠ / ٢٢١٢ / ٤١٦٦ / ٤٢٠٧ / ٤٢٠٨) . وإلى الفصل الأول ينتمى النموذج الرائع رقم ٦٧٧ الذى يحمل زخرفة لأرانب برية على بطنها ، أمّا الفصل الثانى فيه كمية لا بأس بها من القارورات أو القنينات الكاملة التى وصلت إلى متحف الآثار بقرناطة وأصبحت تمثل جانباً من محتوياته الثمينة .

وعلى الرغم من أن النمطين من الأوانى يتفقان فى العناصر الرئيسية، فإنه من الواضح أنها صُنعت خصيصاً لاستخدامات واحتياجات مختلفة ، ولا نشك فى أن نماذج المجموعة الأولى ذات الزخرفة الهائلة يمكننا أن نطلق عليها أوانى المائدة ،

أما قطع أو نماذج المجموعة الثانية من الزجاجات والقارورات ذات المقابض فإنها من أدوات المطبخ وربما تكون مزيت (جمع مَزِيَّة) .

ومن الشائع العثور على مثل هذه القطع فى الحقول الإسبانية الإسلامية سواء كانت تنتسب إلى عصر الخلافة أم لا . وفى ميسا دى أستا على سبيل المثال وجو أستيفى جيريرو^(٧٣) زجاجة مزخرفة ذات جسد مُنبعج تشبه المجموعة الأولى التى تحدثنا عنها . وفى أشبيلية أيضاً^(٧٤) وفى بالما دى مايوركا^(٧٥) عُثِرَ على قطع من هذا النوع وجوميث مورينو^(٧٦) يعيد إنتاج نموذج هائل من مدينة الزَّهراء وباسيليو بابون^(٧٧) يجمع نماذج أصلية من نيبلة . ومما تُبرزه دودا^(٧٨) فإن الأشكال المستديرة الشائعة فى القنينات المزججة (المظلية بالزجاج) القادمة من ألبيريا بعد الخلافة قنينات قد جُمِعَت أيضاً من أراضى سبته^(٧٩) وطليلة^(٨٠) ومورثيا^(٨١) أو فالينثيا^(٨٢) .

٢ - د - الفناجين

بعض القطع التى تحمل الأرقام (١١٨٦ / ١١٨٧ / ١٢٨٢ / ١٣٠٥ / ١٣٠٨ / ٢٠٧٧ / ٢٣٠٧) هى ذات شكل أسطوانى وهى مزودة بمقبض أو يد رأسية (أحياناً بإضافة مسطوحة فى الجزء العلوى من المقبض أو اليد على شكل ذراع للكتف يُسهِّل من مسكها) وقد صُنِعَت هذه الأوانى من طين أصفر ، وقد طُلِّيت بطبقة من الزجاج العسلى اللون (بدرجات خضراء) نعى هنا اللون وجدير بالذكر أن اللون تلاشى من المقبض بسهولة .

هذا وقد وجدنا أشكال فناجين متشابهة بين بقايا مدينة الزَّهراء^(٨٣) وألبيريا^(٨٤) وفالينثيا^(٨٥) ومورثيا^(٨٦) فى عصر ما بعد الخلافة . ويعتقد ثوثايا بأنَّ الفناجين ذات الإضافة بمقبضها أو بيدها تنتمى إلى المرحلة الأولى من الخلافة أما السابقة عليها فيجب البحث عنها فى النماذج الإيرانية التى صُنِعَت من الزجاج^(٨٧) .

٢ - ه - القُدُورُ أو المِراجِل

لقد جَمَعْنَا في تصنيفنا ثلاثة نماذج من الحُلل : اثنتان منهما برقمى ٧٧٣ / ٨٣٦٥ وتتشابهان كثيراً في شكلهما الجانبى وكذلك في وضع مقبضيهما . الآنية أو القُدِر رقم ٧٧٣ تبدو مزججة أى مطلية بالزجاج ، وهى مزخرفة بالشُّحْبُ القاتمة أما الآنية رقم ٨٣٦٥ فإنَّها تشبه الثريد أو البقسماط فقط وهو أمرٌ مألوف فى مثل هذا النوع من الأوانى ، ولكن بالإضافة إلى هذين النموذجين يمكن أن نضيف واحدة من أجمل وأعقد القطع فى صناعتها التى وصلتنا من الطرف إنها الآنية رقم ٢٠٦٣ المزججة والمزخرفة ، وهى ذات جسد إسطوانى وبها أربعة مقابض على مسافات متساوية ، وهى مُتَوَجَّة بحلالي أو أحليَّات زخرفية كبيرة وعُرفٌ فوق الشُّفَّة ، وتشكل الحلات من إضافات مثلثية ، إنها قطعة نادرة لا مثيل لها هى والاثنتان السابقتان وتكمل القطع الثلاث بغطاء مسطوح على الفوهة أو الفم وتتميز الآنية رقم ٢٠٦٣ بوجود مكان معين لهذا الغطاء .

وقد خصص جييرمو روسيو^(٨٨) من عمله باباً خاصاً للقُدور أو المِراجِل الإسلامية التى ظهرت فى مايوركا ، وقد أعد المؤلف تصنيفاً موسعاً لأشكالها الجانبية ، وتتفق اثنتان مما تحدَّثنا عنهما مع أحد أنماطه (ب - أ) كما جَمَعَ يوبيا أيضاً بين صفحاته العديد من القُدور أو المِراجِل تنتسب إلى تطور الخزف الإِسباني الإسلامى^(٨٩) ، وقد أمعنا النظر على وجه الخصوص فى قطعة قادمة من قرطبة والتى وإن كانت مزخرفة على أرضية بيضاء إلا أنَّها تشبه كثيراً فى شكلها نموذجنا رقم ٧٧٣ ، وفى النهاية فإنَّ دوروتيا دود^(٩٠) وخوليو نابارو^(٩١) يبرزان لنا بقاء هذه الأشكال بين الخزف باليريا ومورثيا بعد القرن الثانى عشر الميلادى ، وعلى أية حال فإنَّ نموذجنا رقم ٢٠٦٣ لا يزال يبرهن على أصالته المطلقة .

٢ - و - الجرار أو الجرّات

لقد وجدنا نموذجاً كبير الجسد مُزوَّداً بمقبض رأسى و بقية مقبض آخر فى الطرف المقابل (رقم ٢٠٦٩) ، والمساحة الخارجية تبدو مغطاة بطبقة من الزجاج غير متساوية وبها زخرفة مُسننة وحزامين بلاستيكيين مُلتصقين بالنصف العلوى للجسد ، وعلى الرغم من أن هذه القطعة مزججة ومزخرفة فإنها قطعة بدائية فُتِلَ صُنِعَت بسرعة لتأدية مهمة محددة وهى التخزين .

ولم نستطع ملاحظة أى نموذج آخر بشكل واضح يمكن أن ينطبق على تلك الأشكال المزودة بدورق بمساحة خارجية مزخرفة على أرضية بيضاء المألوفة الاستخدام بين بقايا مدينة الزَّهراء ، ومن المحتمل أن يكون أحد نماذجنا المصنفة كقارورات أو قنينات (رقم ٢٢٩٤ / ٢٣٠٩ على وجه الخصوص) ينتسب إلى هذا النمط من الأوعية أو الأوانى ولكن على أية حال سأواجه هذا الفارق العددي اللعين بين نماذج حقل ونظائره من الحقل الآخر .

٢ - ل - قطع كبيرة للتخزين

إنَّ القطع المُسجَّلة بأرقام (٤٦٥ / ٨٥٤ / ٢٠٧٠) نظراً لجسدها وعنقها تنتسب إلى القطع الكبيرة المخصصة للتخزين سواء للسوائل أو للحبوب ، وهناك عناصر مشتركة أخرى بالإضافة إلى حجمها وذلك مثل وجود مقابض أو أيدي وكذلك الطين أو الفخار الذى يشبه الشريد أو البقسماط و نعومة الملمس وبدون زخرفة تقريباً .

والنموذج رقم ٤٦٥ عبارة عن قطعة كبيرة البطن بيضاوية الشكل بفوهة أو بقم مفتوح جداً و مقابض أو أيدي على شكل إضافات مثثية كثيفة مثبتة فى وضع رأسى وشكله الذى أعيد بناؤه يجعلنا نتذكر على الفور أوانى التخزين الكبيرة الطليطالية أو الأشبيلية التى وُثِّقَت أو سُجِّلَت اعتباراً من القرن الحادى عشر^(٩٢) ، وعلى العكس

من ذلك لم نجد شيئاً مماثلاً فى المؤلفات عن حقول عصر الخلافة أو بمستودعات عصر الخلافة .

و العنق رقم ٨٥٤ له مقبض واحد رأسى وثقب صغير فى القطاع المقابل (كان مخصصاً كإنبيق أو لنقل أو لتخزين الماء) وشكله يمكن أن يرتبط بتلك الجرأت الكبيرة ذات الفوهات أو الأفواه الثلاثية الفصوص سواء المزخرفة منها أو لا فى عصر الخلافة (٩٣) .

أمّا العنق رقم ٢٠٧٠ فعلى العكس من ذلك له قم ومقبضان رأسيان ، ومن الشائع العثور على قطع مشابهة فى مايوركا (٩٤) وقرطبة (٩٥) وفالينثيا (٩٦) أو فى قلعة بنى حمود وكذلك فى شمال أفريقيا (٩٧) .

٢ - م - الأكواب و الكلن

وكما أسميناه العديد من النماذج أو القطع ذات الأحجام الصغيرة - فى غيبة التسميات أو المسميات الدقيقة - (٤ ، ٥ سم من حيث الارتفاع) بأشكال متنوعة من الأسطوانى المستدير أو الذى يشبه البالونة حتى الكروي أو الثنائى المخروط بفوهات واسعة ومساحات مزججة ، ويمكن أن تكون قد استُخدمت لاحتواء مواد صلبة كانت تستعمل بكميات ضئيلة مثل الملح و التوابل و البهارات على سبيل المثال ، وأرقام هذه القطع هي ٦٥٥ / ٨٤٦ / ٨٤٨ / ٨٤٩ / ٩٣٥ / ٢١٤٢ وفقاً لتصنيفنا وقد أدرجنا فى هذا الفصل إناء صغير له مقبض يجب أن تكون له علاقة فى الاستخدام مع القطع التى نتحدث عنها الآن أكثر من تلك التى درسناها آنفاً .

والمساحات الخارجية دائماً مزججة (التلوين النمطى المألوف العسلى على طين أو فخار أصفر) ، وبعض النماذج تتم زخرفته على أرضية بيضاء بدون بقايا أو آثار زخرفية من لونين (رقم ٦٦٥) على سبيل المثال .

وعلى الرغم من أننا نعتبرها طريقة مألوفة و شائعة فى الخزف بأيّة بلدة إسبانية إسلامية فإنّ غيبة الزخرفة أو المميزات الخاصة يجعل إدراجها ضئيل فى

المراجع والمصادر التي أطلعنا عليها ، وقد أدرجها روسيو^(٩٨) فى سلسلته وقد أعاد إنتاج نموذج يجمع العديد من أوجه الشبه مع القطع التى ندرسها هنا . يوبيا^(٩٩) وكامبوس^(١٠٠) يقدمان لنا الأدلة القادمة من مدينة الزُّهراء واثاناً يجمع نموذجاً من فالينثيا^(١٠١) ودورثيا دورا^(١٠٢) تُبرز لنا شيوع هذا النمط من الأوانى - التى تشبه فى شكلها أوانى مدينة إلبيرا - فى الخزف الذى تلى عصر الخلافة فى ألميريا .

٢ - ن - القناديل

إن أكبر عدد من النماذج التى هى محل الدراسة هى عبارة عن قناديل (أرقام ٦٢٣ / ٦٢٤ / ٦٣٥ / ٧٦٠ / ٧٧٦ / ٩٠١ / ٩٣٦ / ٩٣٧ / ١٠٢٧ / ١٠٥٨ / ١١٣٧ / ١١٣٨ / ١١٣٩ / ١١٤٠ / ١١٨٥ / ١٢٤٣ / ١٣٤٤ / ١٣٤٥ / ١٣٦٤) ، وإذا استثنينا الخمسة نماذج الأخيرة (قناديل ذات قائم مرتفع) فإن غالبية هذه النماذج تتبع النمط التقليدى ذات التطور الأفقى : على شكل حلة مسطوحة و عنق ضيق و ثقب أفقى طويل على عظمة و مقبض كبير و رأس فى الجهة المقابلة للثقب ، وداخل هذه النماذج يمكننا تقديم الفوارق التى تحدد الشكل الجسد (البطن) الثنائى المخروط أو القوسى أو خط أعناقها (رأسية أو جرسية الشكل) وهناك استثناءان آخران يتمثلان فى النموذجين رقمى ١١٣٧ / ١١٣٨ المزودين بأربعة ثقوب (ومقبض أفقى على الفم أو الفوهة) وثلاثة ثقوب على التوالى ، وعموماً فإن القناديل مصنوعة من الطين الفظ الغليظ و سطوحه خالية من الزجاج والزخرفة (على الرغم من كونه شائعاً نسبياً فإن وجود رسومات مزججة و ملائمة كنظام زخرفى - رقم ٩٠١ / ١٠٢٧ على سبيل المثال) ، أو فى بعض الأحوال بتغطيتها تماماً بطبقة زجاجية كما فى رقم (١١٨٥) .

وتؤلف القناديل الخمسة ذات القوائم المرتفعة فصلاً على حدة ، وتوضح لنا البقايا الموجودة تنفيذاً أو صناعة دقيقة ، كما أن الأجزاء المميزة لأشكالها (الطبق أو الإناء والقضيب الأسطوانى أو المحاط بدرايزين وخزائنه ذات ثقوب) قد ظهرت مغطاة بالزجاج (القطعة رقم ١٣٦٤) أو فوق أرضية بيضاء تقريباً نظيفة خالية من الزخرفة .

إن أوجه الشبه التي وجدناها بين قناديلنا بمدينة إلبيرا والقادمة من أماكن أخرى عديدة وكثيرة . ومن المعروف أن هذه القطع (الأفقية بدون قوائم) يرجع أصلها إلى القدم الكلاسيكي وبتغييرات طفيفة وصلت إلى العصر الحديث ، وفي المستويات الأثرية الإسلامية على سبيل المثال لا الحصر بجزيرة مايوركا وجد روسيو أنماطاً متنوعة من بينها القنديل ذي القوائم الرأسى ^(١٠٢) الذي يظهر أيضاً في مدينة إلبيرا ، وقد وُجدَ أو عُثِرَ بين بقايا مدينة الزُّهراء ^(١٠٤) ونيبلا ^(١٠٥) أليريا ^(١٠٦) مالقة ^(١٠٧) سبته ^(١٠٨) مدينة سالم ^(١٠٩) طليطلة ^(١١٠) مورثيا ^(١١١) إلخ على قناديل بكميات كبيرة مما يجعل هذه الأواني أو الأدوات المخصصة للإضاءة تُشكل جانباً مهماً من الجوانب الغنية لصناعة الفخار النعام الإسباني الإسلامي .

٢ - ي - القواديس والتُّنُور

ومن بين القطع المغلقة تتناول في المقام الأخير القواديس (رقم ٦٤٥ / ٦٥٦ / ٦٥٧ / ٩٣٤ / ٢٠٧١ / ٢٠٧٢) و التُّنُور (رقم ٨٥٧) التي وصلت ناقصة إلى مُتحَف الآثار بقرنطة قادمة من بلدة الطرف ، ومن بين مميزات أشكالها وجود شقين أو أخدودين عميقين في الأرقام (٦٥٤ / ٦٥٦ / ٦٥٧ / ٢٠٧١ / ٢٠٧٢) أو البروزات المحددة في رقمي (٨٥٧ / ٩٣٤) والتي تتأصل في هذه الأواني وفقاً للاستخدام المخصصة له .

قطع تشبه في لونها الثريد أو البقسماط (باستثناء القادوس رقم ٩٣٤ المغطى بطبقة زجاجية لا لون لها) وقد تمّ تصنيعها بسرعة وبطريقة فظة (وتوجد بصمات صانع الفخار عليها) ، كما أنّها خالية تماماً من الزُخرفة .

يجب علينا أن نفترض أن القادوس كان للساقية أو الناعورة والتُّنُور (قطع من الطين المطبوخ) ، إنّها قطع مألوفة في أيّ مصنع فخار خلال أي عصر من العصور ، كما أنّ تطوّر أشكالها نادر جداً على مدى قرون طويلة ، ولقد صادفتنا صعوبات جمة عندما أردنا إجراء مقارنة بين القطع التي نحن بصدد دراستها وبين قطع من مستودعات أخرى في نفس العصر ، وعلى سبيل المثال فإنّ روسيو لم يُدرج في

نظرية أنماطه القادوس ولا التنور من بين الخزف العربى فى مايوركا (١١٢) ، وقد استطعنا فقط إيجاد قطع أو أجزاء نموذج مشابه فى كتاب أو مؤلف ميليدا عن بقايا مدينة سالم (١١٣) أو النموذجين اللذين ينتسبان إلى العصر النصرى وهما من ألميريا (١١٤) وفى الكتالوجات أو التصنيفات الحديثة عن الخزف بفالينثيا (١١٥) ومورثيا (١١٦) فى العصر الإسلامى نجد أنها تضم بعض القطع من هذا النوع .

٣- أدوات الفخارى أو صانع الفخار

(الحواجز التى كان يضعها الفخارى بين القطع الطرية و الفرن)

وفى المقام الأخير سنذكر و سنعلق على الأشياء الصغيرة أو الأدوات الصغيرة من الطين أو الفخار التى كان يستخدمها صانع الفخار داخل الفرن لكى يسند بها قطعة الزجاجية ، ثلاثة من هذه الأدوات تحمل الأرقام (١١٤١ / ١٤٠٧ / ١٤٠٨) قد وصلت إلينا من مدينة إلبيرا ، إنها حوامل ذات ثلاثة قوائم صُنعت باليد و هى ليست مستوية الصُّنع ، و هى مزودة بإضافات صغيرة مثلية باستثناء الأجزاء المغطاة ببقع الزجاج مما يوضح لنا استخدامها فى الأفران .

ومن الشائع استمرار رؤية هذا النوع من القطع فى يومنا هذا بنفس الأشكال (الآن مصنوعة من مادة مقاومة للحرارة) فى ورشة صانع الخزف ؛ و لذلك فقد كانت قطعة شائعة فى صناعة الفخار الإسبانية قبل و أثناء و بعد الوجود الإسلامى ، وقد عثرَ روسيو - على سبيل المثال - على حاجز مشابه بين بقايا جزيرة مايوركا (١١٧) وكذلك فى أجوادو فى طليطلة (١١٨) و باثانا فى فالينثيا (١١٩) أو نابارو فى مورثيا (١٢٠) .

ب - تقنيات الزخرفة و التّكسية أو التّلبيس

لقد جمعت صناعة الخزف الإسلامية العديد من طرق التّكسية أو التلبيس والزخرفة الجزئية - بعضها قديم جداً مثل صناعة الخزف نفسها - كما أنّها في نفس الوقت طوّرت ونشرت في أراضى الغرب طرقاً أصلية جديدة ، هذا وقد أعدت الكثير من نظريات التّصنيف أو التّبويب المعقدة تقريباً عن التّقنيات الزخرفية التي استخدمها صنّاع الفخار المسلمين ^(١٢١) ، وليس هنا المقام للتعلّيق عليها بل سنقتصر فقط على تأكيد هذا التنوع من خلال القطع الواردة من مدينة إلبيرا وسنعلق فيما بعد على جدول خاص بالأنماط الذي يشير أو يتناول بوضوح نوع الخزف الذي نحن بصدد دراسته .

١- قِطْعُ بِلُون الثَّرِيد أو البقسماط

١- أ - بدون تغيير أو تعديل لون السطح الخارجى

- ١ - قطع خالية من الزخرفة .
- ٢ - قطع بها بصمات واضحة .
- ٣ - قطع بها تشكيل زخرفى .
- ٤ - قطع بها خطوط مُسنّنة أو أخاديد أو حروز .

١- ب - قطع بتغيير أو تعديل جزئى لون السطح الخارجى

- ١- قطع بها خطوط متوازية باللون الأبيض .
- ٢- قطع بها طرطشة أو بُقْع أو نقاط مُزجّجة .

٢- قَطَعْ مُزَجَّةً أَوْ مَطْلِيَّةً بِالزَّجَاجِ

٢- أ - طَلَاءٌ زَجَاجِيٌّ بَسِيطٌ وَ مُتَجَانِسٌ

١- طَلَاءٌ زَجَاجِيٌّ شَفَّافٌ (دَرَجَةُ اللَّوْنِ : الْعَسَلِيُّ) .

٢- طَلَاءٌ زَجَاجِيٌّ بِدَرَجَاتِ اللَّوْنِ الْأَخْضَرِ .

٣- طَلَاءٌ زَجَاجِيٌّ أَخْضَرٌ فَوْقَ زَخْرَفَةٍ مَخْطُوطَةٍ .

٤- طَلَاءٌ زَجَاجِيٌّ بَنَى اللَّوْنِ فَوْقَ زَخْرَفَةٍ مَخْطُوطَةٍ .

٢- ب - مُزَجَّجٌ بَسِيطٌ بِزَخْرَفَاتٍ أَوْ بِقَعٍ بِلَوْنٍ آخَرَ

١- مُزَجَّجٌ أَوْ طَلَاءٌ زَجَاجِيٌّ شَفَّافٌ (عَسَلِيُّ) يَبْقَعُ أَوْ رَسُومَاتٌ بَنِيَّةٌ .

٢- طَلَاءٌ زَجَاجِيٌّ شَفَّافٌ (عَسَلِيُّ) يَبْقَعُ أَوْ رَسُومَاتٌ خَضِرَاءُ .

٣- طَلَاءٌ زَجَاجِيٌّ شَفَّافٌ (عَسَلِيُّ) يَبْقَعُ أَوْ رَسُومَاتٌ بَنِيَّةٌ وَخَضِرَاءُ .

٤- طَلَاءٌ زَجَاجِيٌّ أَخْضَرٌ يَبْقَعُ أَوْ رَسُومَاتٌ بَنِيَّةٌ .

٥- طَلَاءٌ زَجَاجِيٌّ بُنِيَ يَبْقَعُ أَوْ رَسُومَاتٌ بَيَاضَاءُ .

٢- ج - خَزَفٌ مُزَجَّجٌ مَغْطًى بِأَرْضِيَّةٍ بَيَاضَاءُ مُسَبِّقًا

١- أَرْضِيَّةٌ بَيَاضَاءُ بِدُونِ زَخْرَفَةٍ .

٢- أَرْضِيَّةٌ بَيَاضَاءُ وَ زَخْرَفَةٌ بِاللَّوْنِ الْبَيْنَفْسَجِيِّ .

٣- أَرْضِيَّةٌ بَيَاضَاءُ وَ زَخْرَفَةٌ بِنَفْسَجِيَّةٍ وَ خَضِرَاءُ .

٤- أَرْضِيَّةٌ بَيَاضَاءُ وَ زَخْرَفَةٌ مِنْ لَوْنَيْنِ إِلَى جَانِبِ اللَّوْنِ الْعَسَلِيِّ .

الخزف ذو السطح الخارجى باللون الثرىدى أو البقسماطى

و طرق زخرفته

من الشائع جداً وجود قطع خالية من الزخرفة وطريقة إضافية للتكسية أو التلبيس ، ويتمشى هذا مع صور الاستخدام العامة أو التى تتعلق بالمطبخ أو التخزين أو الخزين وهى مصنوعة من طين غير مصفى جيداً ودرجات لونه متعددة ، وبرنامج العجين لهذه الأنماط لم يعتن به جيداً ، كما أن النار تلامس فى كثير من الأحيان الحوائط أو الجدران الخارجية للقطع مما يؤدى إلى ظهور بقع سوداء اللون عليها ويجعلها دخيلة على اللون الطبيعى للطين . وفى تصنيفنا سُجِّلَت كقطع ثرىدية اللون أو بقسماطية اللون وبدون زخرفة معظم القنينات والأباريق و الجرات وبعض القدور أو المراجل ذوات الحوامل الثلاثة والقواريس أو الرضاعة التى تكمل هذا الجزء الأول .

وتُرى فى هذه القطع أخاديد أفقية تتفق مع البصمات التى يتركها صانع الفخار على القطعة فى أثناء إعدادها بالعجلة (يستخدم الفخارى عجلة لإعداد وتشكيل قطعته الفخارية أو الخزفية) ، وهذه البصمات التى عُمَّت القناديل والأباريق والجرار أو الجرات فى المقام الأول نجدها تشغل الجزء السفلى لجسد القطعة ، وتؤكد هذه البصمات مدى رداءة التقنية والمنهج السريع لتنفيذها .

وفى حالتين فقط (فى الحامل رقم ٧٥٦ و القطعة ٢٢٥٥) لاحظنا وجود خطوط مُسننة على قطعة ثرىدية اللون (وعلى العكس من ذلك نجد أن الخطوط المُسننة تقترن بالعديد من القطع المزججة أو المطلية بالزجاج كما ستتاح لنا الفرصة فيما بعد لتحليل مثل هذه القطع) ، ومن النادر أيضاً وجود زخرفات جمالية أو تشكيلية فى هذا النوع من الخزف الوارد من بلدة الطرف (أحبال الجفئات أو القصعات كما فى القطعة رقم ٧٥٢ أو لمكيال الزيت رقم ٤٦٥ اللذين يمكن اعتبارهما شيئاً استثنائياً) .

ويتم تغيير لون السطح الخارجى لغرض زخرفى فقط وذلك بإضافة لون إلى الطين أو الفخار بحيث لا يزججها أو يحولها إلى زجاج أو عن طريق الرش

أو الطرشرة بأكسيد الرصاص ، وهذا هو شأن الأباريق المزخرفة بخطوط ذات لون أبيض خطوط رفيعة ومتوازية كائنة بالجزء العلوى للبطن أو جسم الإناء أو فى القناديل المزخرفة بخطوط منقوطة باللون العسلى أو الأخضر التى تجول بأنطراف وشعاعات جسد القطعة . ولن ندرج فى هذا الفصل موضوع الحواجز التى كان يستخدمها صنّاع الفخار أو الفخاريون عند إعداد قطعهم الخزفية بالفرن ، وجدير بالذكر أن هذه الحواجز كانت قد ظهرت بها بقع سوداء اللون نتيجة اتصالها المباشر بنيران الفرن .

ويمكننا أن نختم هذا الفصل أو هذا الجزء الصغير المخصص للخزف الثرىدى أو البقسماطى اللون مؤكدين غيبة الحلول الخزفية الخاصة بهذا النوع أو النمط من الخزف (الخطوط المستنة ، الزخرفات التشكيلية و الانطباعات أو التأثيرات والأخايد أو الحزوز) (١٢٢) ، وأثبتنا أيضاً ندرة الزخرفات أو الزخارف على أرضية أخرى سوى البيضاء بقليل من النماذج و باستخدام الخطوط المتوازية فقط التى كان صناع الفخار يقومون بها بمساعدة عجلة ورشتهم . (١٢٣)

الخزف المزجج (المطفى بالزجاج) مباشرة على السطح الفخارى

إن القطع المزججة كثيرة التى سطحها المرئى أو سطحها مغطيان بطبقة زجاجية ، ولهذه الطبقة الزجاجية وظيفة فى غاية الأهمية وهى اللانفاذ بالأوانى المطلية بها ، وإن كنا يجب أن نقبل أن بريقها أو الألوان المتنوعة التى تنجم عنها ما هى إلا عناصر زخرفية .

وأحياناً نعثر على قطع بها زجاج متجانس الألوان ، إمّا العسلى (أملاح الرصاص البسيطة عند الاتصال بلون الطين نفسه) ، أو الأخضر (عند إضافة أكسيد النحاس لتركيبه الزجاج) وليس بها أى نوع آخر من الزخرفة ، وهذا ما يحدث بالنسبة للفناجين أو مع بعض القناديل المدونة فى قائمتنا و لكن على وجه الخصوص فى معظم الفناجين والزجاجات لا لون لها (درجات اللون العسلى) ، ويطفى بها فخار أو طين أصفر فإن لون الطبقة الزجاجية حينئذ يتحول إلى أخضر وهو أكثر رسوخاً وثباتاً

- وإن كان في بعض الأحيان لا يتم الطلاء بشكل منتظم - و من الشائع ملاحظة حالات من التلون الوسط بين هذا و ذاك (بين الأصفر و الأخضر) نتيجة محتملة أو ممكنة للوجود العرضي لأكسيد النحاس في تركيبة الورنيش (البريق) (١٢٤).

وهناك بعض القطع إلى جانب طلائها زجاجياً ؛ فقد أضيفت عليها بقع أو نقاط أو رسومات ذات لون مختلف عن لون الزجاج و من الشائع جداً إيجاد بقع أو نقاط بنية اللون (الحديد أو المغنسيوم) خضراء (النحاس) أو اللونين معاً (١٢٥) مقترناً بلون السطح الخارجى ذى اللون العسلى ، لقد وجدنا أيضاً بعض النماذج المزججة ولونها أخضر ذى رسومات بنية اللون أو السطح الخارجى نبياً بتصميمات أو رسومات بيضاء وهو على العموم نظام أو طريقة أو أسلوب زخرفى متصل تماماً بداخل كما أن العناصر الزخرفية تكمن فى كونها نقاط غير متساوية أو موحدة الشكل القصة أو أشكال ورسومات هندسية .

ومن بين النماذج المطلية بالزجاج يسهل إيجاد زخرفات أو زخارف بها أخاديد أو حزوز الشئ الذى لم يعم القطع الثريدية اللون أو البقسماطية اللون وهو أمر يصعب إدراكه أو فهمه وفيما يبدو أن رغبات المُرَّخَرَف تكمن فى ترسيخ وتثبيت عدة درجات لونية للون واحد للزجاج و التصميمات الهندسية المحضة ، ويُطبَّق هذا على بطن الأنية أو الوعاء و يقوم على استخدام الخطوط المستقيمة المُجمَّعة فى خطوط متوازية أو فى التقاء الخطوط فى تقاطعات على شكل صليب أو حرف (X) أو أجنحة المروحة . (١٢٦)

خَرْفٌ مُزَجَّجٌ (مطلى بالزجاج) و مُزَخَّرَفٌ على أرضية بيضاء

وبهذا الشكل نكون قد وصلنا إلى أهم فصل فى دراستنا ، وهو النظام الزخرفى أو الأسلوب الزخرفى القائم على تطبيق فرشاة من أكسيد النحاس (أخضر) والمنجنيز (البنفسجى) على أرضية بيضاء لإخفاء اللون الأصلى أو الطبيعى للطين والذى بعد زخرفته يُطلَّى بطبقة شفافة من أكسيد الرصاص ، وهذا الأسلوب من أصل شرقى (١٢٧) ، وقد تمَّ اكتشافه لأول مرة لخزفنا فى بقايا بلدة الطرف ، كما أن القطع

المزخرفة بهذا الشكل تمثل أهم سلسلة من خزفنا في عهد الخلافة (١٢٨) ، وبإبداعات طفيفة فإن الخزف الأخضر أو البنفسجي قادم من فخاراتنا الإسلامية الأندلسية حتى عهد قريب من العصر الحديث (١٢٩) .

لقد وجدنا بين القطع التى يتألف منها تصنيفنا بعض النماذج للفناجين والقناديل (ذات القوائم المرتفعة أو الطويلة فى المقام الأول) ، والتى تتميز بأرضيتها البيضاء و الطلاء الزجاجى ولكنها خالية من الزخرفة ثنائية اللون (١٣٠) ، وبهذه الطريقة وصلت إلينا بعض القطع التى تبرز استخدام أكسيد المنجنيز كملون ، ولكن الأكثر شيوعاً هو استخدام المنجنيز إلى جانب أكسيد النحاس (الذى يستخدم للحشو فقط) لعمل تصميمات زخرفية متنوعة على أرضية بيضاء .

والقطع المزخرفة هكذا تتميز بجودتها الشكلية وتشطيبها الرائع وتنتمى إلى نمط القطع أو النماذج المغلقة وكذلك إلى المفتوحة ، أما الزجاجية أو القارورات البطنية والعنق الضيق و غير المزودة بمقابض فإنه تم زخرفتها على أرضية بيضاء مثل القطع المزودة ببزبوز والأمثلة كثيرة ومتعددة خاصة فى مجموعة الأطباق والصواني ، ومن الواضح أن هذا الأسلوب الزخرفى يطبق على السطح المرئى (فى حالة الأشكال المغلقة) أو المعروضة للخارج (فى حالة الأشكال المفتوحة) أما الوجه الآخر فسيطلى بطبقة زجاجية عسلىة أو خضراء أو سيتم الاكتفاء بالطبقة البيضاء دون زخرفة .

والرسم على أرضية بيضاء سيسمح بتطوير تنوع موضوعى رائع وأفضل زخارفنا - العناصر الزخرفية الهندسية والنباتية والحيوانية وحتى البشرية - تظهر على قطع أو نماذج مغطاة بالأبيض وهكذا ستسنع لنا الفرصة لفحصها فى الجزء القادم .

وفى النهاية يجب التنويه بأن ضمن هذا الأسلوب الزخرفى وجدنا تنوعاً بإدخال لون ثالث العسلى الذى يُطلَى مُسبقاً على سطح الأنية وقد ظل احتياطياً فى مناطق محددة ومعينة وهو يرافق الأخضر والأبيض والأسود فى الزخرفة (١٣١) ، وعلى

العكس من ذلك فإنَّ تقنية الحبل الجاف وبقايا الديكور أو الزُخرفة ذات العاكس أو الانعكاس المعدني غير موجودة على الإطلاق في قائمة تصنيفنا .

ج - العناصر الزخرفية

في الفصل السابق وضعنا العديد من أساليب الزُخرفة وطرقها التي ظهرت بالقطع الأصلية الواردة من مدينة إلبيرا والآن يأتي الدور على دراسة العناصر الزخرفية التي تتحدد من خلال هذه التقنيات ؛ حيث سنقوم بتنظيمها أو ترتيبها وسنبحث عن أوجه التشابه بين الآثار الخزفية لمستودعات أخرى .

وإذا استثنينا نماذج قليلة مزخرفة بأخاديد أو حروز فإنَّ معظم الخزف الذي عُثِرَ عليه في بلدة الطرف تحلُّ عناصره الزخرفية بواسطة الرسم وستتوقف على وجه الخصوص عند تنوع الموضوعات و التركيبات التي ينتهجها الخزف ذو اللون المزدوج أو ثنائي اللون في السلسلة ذات الأرضية البيضاء .

نظرية أو علم العناصر الزُخرفية

أ- العناصر الهندسية

- ١- دوائر ذات خطوط مستقيمة أو مساحات ذات خطوط مستقيمة محددة بواسطة حروز أو أخاديد في بعض القطع المزججة ذات اللون الواحد .
- ٢- خطوط بسيطة متوازية تمَّ تنفيذها بمساعدة عجلة صانع الفخار و محددة برسومات بيضاء على أباريق أو جرار لم تُطلَّ بالزجاج .
- ٣- عناصر زخرفية أكثر تعقيداً تمَّ تنفيذها واليد مرفوعة ذات اللون البني أو البني والأخضر على قطع مطلية بالزجاج ليست لها أرضية ، وأحياناً تكون عبارة عن شُجْب أو براويز بسيطة .

٤- عناصر متنوعة تمّ تنفيذها و اليد مرفوعة مع المنجنيز و النحاس على قطع مغطاة بأرضية بيضاء و سنكمل هذا الجزء بقائمة أخرى .

ب - عناصر نباتية أو زهرية

و تتعلق هذه العناصر فقط بالزخارف المرسومة على سطح مطلى مسبقاً بأرضية بيضاء ، و سوف نُعد قائمة كاملة لهذه الأنماط فيما بعد .

ج - عناصر تشبه الإنسان و الحيوان

و تتعلق فقط بالزخرفة المرسومة على سطح قد غُطى مسبقاً بأرضية بيضاء .

د - عناصر نقشية أو كتابية أو شبه نقشية أو كتابية

و ترتبط هذه العناصر فقط بالزخرفة المرسومة على مساحة أو سطح سبق له أن طُلّي بأرضية بيضاء .

أ - العناصر الهندسية

١ - عناصر محزّزة أو ذات أخاديد

و فى العديد من النماذج المزجّجة من تصنيفنا (القارورتين رقم ٢٠٦٠ / ٤١٦٦ وعنق الزجاج رقم ٢٠٦٤ والقدير أو الرجل رقم ٢٠٦٣ و الطبق رقم ٢٠٦٩) . لقد وجدنا تطويراً للعناصر الزخرفية الهندسية ذات الخطوط المستقيمة على أساس حزوز أو أخاديد عريضة تقريباً التى تمّ تنفيذها قبل طلائها بالزجاج على سطح القطعة . وإذا استثنينا عنق الزجاج ذات الخطوط المسننة و المتوازية وغير المنتظمة التى

تغطيها تماماً في كافة القطع المدروسة نجد أن هذه الزخرفة تتجمع في مجموعة أفقية وحيدة عريضة تقريباً ، والتي تحتل أكبر جزء من جسد المقبض أو المقابض التي تكمل الشكل دائماً لأية قطعة تفصل هذا الشريط المزخرف وكما هي الحال في القدر أو المرجل تشارك بشكل إيجابي في التجزئة التكوينية للمجموعة .

وفي كل النماذج نجد أن هذا الشريط الأفقي قد انتهى بتقسيم الخطوط الرأسية أو المائلة مكونة دوائر متتالية جاهزة لحشوها أو ملئها .

فالعناصر الزخرفية التي تشغل الفراغ الفاصل بين الواجهتين و الناجم عن التقاء الخطوط بعضها ببعض الآخر هي عناصر زخرفية بسيطة جداً : شبكية من الخطوط المائلة ودوائر من الخطوط المتوازية أو حرف (X) بسيط أو مزيج (شائعة جداً ، وتكرر في ثلاث نماذج) ، وربما يكون العنصر الأكثر تكاملاً (في إطار بساطته) تقدمه لنا القدر في إحدى دوائرها لتناولها موضوعاً يُذكرنا بتركيبة السنبلة أو ورقة لنبات الخنشار أو السرخس .

ومن الصعب إيجاد أوجه شبه بين البقايا الخزفية بالمستودعات الإسبانية الإسلامية لهذا النوع من الزخرفة والتكوينات الزخرفية . ومن الشائع جداً استخدام أختام الأمر الذي لا نجده في بقايا مدينة إلبيرا . ويحدثنا كاساما (١٣٢) عن أسلوب زخرفي مشابه (الذي ينضمن أيضاً تقنية التطبيق تقنية المشط) بين القطع الواردة من الكالا لابيخا (القلعة القديمة) أو بيرلاسدي تاخونيا ، ومن العجيب أنه توجد عدة تشابهات بين زخرفة قطعنا الخزفية وبعض النماذج الشمال أفريقية التي عُثِرَ عليها في قلعة بني حمود (١٣٣) .

ب - مزخرف أبيض

يجب أن نتناول أيضاً ضمن العناصر الزخرفية الهندسية الطيات البيضاء التي تبرز في النصف العلوي للجسد المعتم لبعض الأباريق أو الجرار ، وعدد هذه الخطوط المرسومة بمساعدة عجلة الفخاري متنوعة ؛ فأحياناً يكون وضعها كما في

الرقمين (٦٤٥ ، ١٠٢٣) لا يندرج تحت أى نمط تكوينى وإن كان من المؤلف العثور على خطوط متساوية كما فى (رقم ٦٤٩) أو مجموعات تتكون الواحدة منها من ثلاثة خطوط كما فى (رقم ٦٤٤) .

ولقد وجدنا فى مدينة الزَّهراء نفس التقنية الزخرفية وإن كان صانعوا الفخار القرطبيون اعتادوا على ملئ كل السطح الخارجى للقطعة مكونين بذلك حصيلة واسعة من العناصر الزخرفية .

وطبقاً للوثائق التى فى حوزتنا من الصعب العثور على قطع فى مدينة الزَّهراء أو فى أى مستودع آخر من عصر الخلافة بها هذا النوع من الحليات البيضاء .

ج - عناصر زخرفية هندسية مطلية أو مرسومة

إنَّ التخطيطات الهندسية فى الزُّخرفة المطلية أو المرسومة مألوفة جداً إذا كان الأمر يتعلق بالقطع المزجَّجة سواء كان الطلاء الزُّجاجى مباشراً على الطين أو كانت الزُّخرفة فوق أرضية بيضاء .

لقد جمعنا وحللنا فى المقام الأول القطع الكاملة والأجزاء الوفيرة المزجَّجة ذات الأرضية العسلىة أو الخضراء وذلك بتنفيذ تركيبة من العناصر الهندسية (الوحيدة) المنفذة على سطوحها المرئية محاولين فى نفس الوقت وضع أسس بشأن تكوين الأوانى أو الأوعية .

إنَّ نماذج القطع المغلقة المزخرفة مباشرة على الطين وتحت هذه الطبقة الزجاجية قليلة جداً ، ومن الأكثر شيوعاً إيجاد القارورات أو القنينات ، القصور أو المراحل ولقناجين والأباريق أو الجرأت أو القناديل المطلية بالزجاج بدون بقايا زخرفية من أى نوع ، وعلى الرغم من ذلك فإن قارورتين من المجموعة التى نحن بصدد دراستها (رقم ٧٥٩ ، ٤٢٠٨) وقدر أو مرجل (رقم ٧٧٣) المزجَّجة أو المطلية بالزجاج العسلى بها شُحِبَ أو بزَابِيز زخرفية أو رسومات سريعة غير منظمة نُفِذَتْ باللون البنى

كما أنه أكثر شيوعاً زخرفة داخل الأواني أو الأوعية المفتوحة مثل الصواني أو الأطباق في المقام الأول ذات الأبعاد الكبيرة فالطلاء الزجاجي الخارجى أو السطحى هو غالباً من اللون العسلى ، وإن كان فى بعض الأحوال كما فى النموذج (رقم ١٢٦٧) يظهر مطلياً باللون الأخضر .

وفى القطع القليلة التى أعيد تركيبها أو تشييدها تماماً (الصينية أو الطبق رقم ٩٦١) وكذلك فى الأجزاء التى تنتمى إلى نفس القطعة ، يظهر تركيب ثابت غالباً يكون على شكل مُعَيَّن داخل دائرة كما فى الأرقام (٩٦١ / ٢٣١٢ / ١٢٧٧) ، وأحياناً يكتمل هذا التركيب الموجود فى الوسط بخط زخرفى كما فى رقم (٢٣١٢) ، أو حتى فى القطعة رقم (١٢٧٧) ، حيث يوجد عنصر زخرفى شبه نقشى يملأ داخل المعين . وفى مكان آخر وجدنا تركيبة داخلية على شكل شبكية كما فى (رقم ٢٣٠٨) أو تطوير زهرة نباتية كبيرة أكثر تعقيداً أو مستوحاة من تلك التى ترسم على أرضية بيضاء . وعلى أية حال فإن اللون المستخدم لتثبيت هذه العناصر الوسطية هو اللون البنى القاتم وأحياناً اللون الأخضر يكملها كما فى رقمى (٦٩١ ، ٢٣١٥) .

وفى مكان آخر مخصص على وجه التحديد فى زخرفة الصواني أو الأطباق هو القطاع الداخلى لحافة أو طرف هذه الأواني (الشكل ٨ ج) . وفى جميع الحالات تظهر عناصر زخرفية مبسطة تقريباً يبدو أنها تنتسب إلى نفس الأصل : المقرعة أو زهرة اللوتس (عروس النيل) ، وأحياناً يكون هذا العنصر باعتماد تكوينى إشعاعى مما يبرز أصله النباتى (رقم ١٢٦٧) ويتم تركيبه وتجريده تدريجياً (رقم ١٢٣٨) حتى يتحول إلى خط بسيط متعرج متموج كما فى (رقم ١٢٨٤) أو تتابع أجزاء دائرة ملونة كما فى رقم (٩٦١) وفى بعض الأجزاء تمت زخرفة الطرف أو الحافة بواسطة حلية بسيطة كما فى (رقم ١٢٥٩) .

وكذلك فى زخرفة وتزيين الطرف أو الحافة يظهر اللون البنى القاتم الأكثر شيوعاً بين بقية الألوان وإن كان فى بعض الحالات النادرة يوجد شريط أخضر صغير كما فى (رقم ١٣١٣) أو التناوب بين كلا اللونين كما فى رقمى (٩٦١ / ١٢٥٩) .

وسنستشهد فى النهاية بوجود بعض الأجزاء التى تنتمى إلى قطع شبه مسطوحة زُخِرَتْ بِشُخْبٍ غير متساوية أو يبقع واسعة بنية اللون ، والذى يصعب معه تعريف حدودها كما فى الأرقام (١٢٤٩ / ١٢٥٤ / ١٢٥٨) .

وفى الفصل السابق اعترفنا بالصعوبة التى واجهتنا لإيجاد أوجه تشابه بين هذه القطع الواردة من مدينة إلبيرا (و الذى تكمن زخرفتها فى الطلاء بالمنجنيز أو النحاس لتثبيت العناصر الزخرفية مباشرة على الطين أو الفخار فوق غطاء أو طبقة ذات لون بُنى أو أخضر) وبين قطع مستودعات أخرى .

وعلى أية حال فإن دراسة خوسيه أجوانو^(١٢٤) حول الآثار الطليطالية تُثبت بجلاء استخدام هذه التقنية وهذه العناصر الزخرفية على أرضية الصوانى أو الأطباق ، كما استطعنا توثيق وجود قارورات أو قنينات بِشُخْبٍ أو بزائيز غير متساوية وكذلك رسومات هندسية نُفِذَتْ دون تمهل وبلا أدنى تأنٍ فى بعض المستودعات الأخرى .

إننا نُصِرُّ على أن هذا النوع من الزُخرفة هو مشتق من تلك الأخرى التى كانت تُنفَّذُ فوق أرضية بيضاء وفى نهاية هذا الفصل استطعنا التوصل إلى أصل هذه العناصر الزخرفية المثبتة مباشرة على لون الطين أو الفخار .

د - عناصر هندسية مرسومة على أرضية بيضاء

إن العناصر الزُخرفية الهندسية التى تظهر على سطوح سبق طلاؤها بأرضية بيضاء أو طبقة بيضاء متنوعة وذات تنفيذ كامل و متكامل ، كما يتضح ذلك من نماذج الأوانى اللوكس الممتازة ، ومن النادر جداً أن تظهر هذه الأوانى بدون عناصر زهرية أو حيوانية أو حتى شبه إنسانية وعند تنفيذها يتدخل اللون الأخضر (من النحاس) والبنفسجى (من المنجنيز) ، أما وضعهما على أرضية القطعة فإنه كان يُعتمد على رِتم الصانع وشكل الآنية نفسها (والاستخدام فى آخر المطاف) التى يُراد زخرفتها .

لقد أعدنا جدولاً للأنماط يجمع ١٧ عنصراً زخرفياً مختلفاً ، ولم ندرج فيها تلك الأشكال الهندسية التى تنجم عن التقسيم التكويني لأيّة قطعة ككل ، ولكننا فقط أخذنا

فى الاعتبار الاهتمام بالعناصر الزخرفية الخالصة سواء كانت أساسية أو مجرد عناصر للحشو (١٣٥) .

١- عناصر زخرفية ذات خطوط مستقيمة

١-١- رسومات قصيرة و متوازية تتكيف مع بعضها فى اتجاه راسى أو مائل خفيفاً عند طرف أو حافة بعض القطع المفتوحة كما فى جزء من الطبق أو الصينية (رقم ٢٣٠٦) ، أو القطع المفتوحة كما فى الفنجان ذى البزبوز (رقم ٧٥٤) ، وفى كلتا الحالتين فإن الرسومات تم تنفيذها باللون الأخضر فقط ، ولكننا نفترض وجود ألوان أخرى وذلك باستخدام التلوين القاتم أو التناوب بين لون وآخر .

١-٢- لقد وجدنا أيضاً هذا النوع من الخطوط الرأسية و المتوازية (الآن رفيعة وطويلة أكثر من سابقتها و ذلك بالتناوب بين اللونين) ، فى الجزء السفلى من جسد جزء من الفنجان رقم (١٢٤٧) ، وهذا النمط من الزخرفة يظهر فى بعض فناجين مدينة الزهراء (١٣٦) .

١-٣- مثلثات أو عناصر على شكل منقلة أو زاوية النجار تشغل وسط القطع شبه المسطوحة (جزء من الطبق أو الصينية رقم ١٢٤١ و جزء من الصينية أو الطبق رقم ٢٣٠٦) ، ومفهومه الزخرفى يذكرنا بالقطع المزخرفة بالمعينات بدون أرضية بيضاء .

١-٤- مثلثات تملأ أو تكمل عناصر زخرفية دائرية (جزء من قارورة أو قنينة رقم ١٢٦٨ ، جزء من الصينية أو الطبق رقم ١٢٤٣) و أحياناً فإن هذه المثلثات لها جوانب منحنية إلى حد ما لى تتكيف مع الأشكال الدائرية أو المستديرة .

١-٥- و هناك عناصر زخرفية هندسية ذات خطوط مستقيمة أكثر تعقيداً وصعوبة عند تعريفها أو تحديدها تم تنفيذها على جسد بعض الأواني (مثل الكأس أو الكوب الإسطوانى رقم ١٢٨٨ و جزء الصينية أو الطبق رقم ١٢٤٦) .

٢- عناصر زخرفية هندسية ذات رسومات منحنية

- عناصر مستديرة أو دائرية

٢-١- دوائر متراكزة أو مكثفة مصفوفة في حليات أفقية أو شرائط أفقية دون تحديد ، وبصفة عامة فإنها تتناوب في اللون ، وتتصل بخارج الأواني المغلقة (أجزاء من الأطباق رقم ١٢٨٥ / ١٢٩٥ / ٢٢٩٧ / ٢٣٠٩) ، ولقد وجدنا الموضوع نفسه في بعض الزجاجات الواردة من مدينة الزهراء (١٣٧).

٢-٢- دوائر متركزة أو مكثفة مصفوفة في حليات أفقية أو شرائط أفقية محددة ، وتُملأ الدائرة الداخلية باللون القاتم ، وتبدو متصلة أيضاً بتطوير تكويني لقطع مغلقة مثل القارورة رقم (٦٧٧) و الأواني ذات البرازيل رقم (٧٥٤ / ٧٦٧) ، وهذا الشرائط أو الحليات تتناوب مع غيرها مختلفة المحتوى والمضمون وهي بصفة عامة نباتية ، ولقد وجدنا عناصر زخرفية مماثلة في أواني وأوعية مدينة الزهراء (١٣٨) ونييلا (١٣٩).

٢-٣- وهناك نوع آخر من العنصر الزخرفي السابق وهو الكائن بالقارورة رقم (١٢٧٢) ، حيث إن الدائرة الخارجية تأخذ شكلاً رُمحياً (شكل الرمح) لكي تستطيع التوغل في الدوائر السابقة واللاحقة ، لقد وجدنا أيضاً عناصر مشابهة بين قطع مدينة الزهراء (١٤٠) ، وجدنا عنصراً زخرفياً مشابهاً من أصل نباتي واضح موجود بقطعة من القلعة القديمة (الكالابايخا) (١٤١) ، كما أن الأمثلة بالخرزف الفالينثي كثيرة ومتنوعة (١٤٢).

٢-٤- دوائر بداخلها أشكال رباعية الفصوص أو دوائر صغيرة كما في أجزاء الطبق أو الصينية رقم (٢٣٠٠) ، وقد ظهر هذا العنصر الموضوع الزخرفي في مدينة الزهراء أيضاً (١٤٣).

٢-٥- أشباه دوائر أو أنصاف دوائر متراكزة أو مكثفة مصفوفة مع شرائط أفقية ومحددة ، ويملاً نصف الدائرة الداخلية باللون العسلي وقطر الأشكال يلتقي مع الأفقى السفلى للشريط (جزء من القارورة رقم ١٠٣٤) ، ويظهر نفس العنصر

الزخرفى فى إبريق أو جرّة بمدينة الزُّهراء ^(١٤٤) ، وفى بعض الأجزاء الأخرى فى نفس المدينة ^(١٤٥) وجدنا بقايا أو آثار بوياسترو ^(١٤٦) .

٦-٢- أنصاف دوائر مصفوفة فى شرائط أفقية ومحددة ، ونصف الدائرة الداخلية ملون باللون القاتم ، أما قطر الأشكال فإنه يتفق مع الخط الأفقى العلوى للشريط (جزء من الصينية أو الطبق رقم ٨٠ —) .

٧-٢- أنصاف دوائر مصفوفة فى شرائط أفقية ومحددة والأشكال تعتمد بالتناوب على خط علوى وسفلى من الشريط كما أن نصف الدائرة الداخلية ملون باللون القاتم كما فى جزء من الصينية أو الطبق رقم ٨٠ —) .

٨-٢- أنصاف دوائر بها خطوط مستقيمة تشكل زاوية قائمة وفى داخلها نقاط صغيرة قائمة تتناوب فى داخل وخارج الأشكال ، وهذه العناصر الزخرفية الهندسية مصفوفة فى شريط أفقى (أجزاء الغطاء رقم ٢١٤٤) و موضوع مُشابه يشغل سطح جزء من الحبل الجاف بمُتحف الحمراء ^(١٤٧) ، كما تعرفنا أيضاً على الموضوع بين البقايا الخزفية لقلعة بنى حمود ^(١٤٨) .

٩-٢- أنصاف دوائر لحافة أو لطرف القطع المفتوحة : ولحشوها أو ملئها يتناوب اللونين الأخضر والبنفسجى (قطع الطبق أو الصينية رقم ٧٨١ / ٨٥٥ / ٢٢٩٦) ، وهذا النوع من الزُّخرفة للقطاعات أو الأجزاء الداخلية لأطراف أو لحافات الألوان يظهر أيضاً فى القطع شبه المسطوحة بمستودعات أخرى ^(١٤٩) ، وهو مُعمَّم فى القطع المزججة (المطلية بالزجاج) الخالية من الأرضية البيضاء .

١٠-٢- أنصاف دوائر مملوءة لتزيين حافات وأطراف القطع المفتوحة والتي تتناوب فى نموها أو تطورها مع أشكال مثلثية (قطع الصينية أو الطبق رقم ١٢٤١ / ١٢٤٥) . وكذلك فى هذه الحالة أيضاً يوجد تشابه مع القطع الواردة من مدينة الزُّهراء ^(١٥٠) ، ويوجد تشابه أيضاً بين قطع أو أجزاء مزججة من مستودعنا خالية من الأرضية البيضاء .

٢-١١- عناصر دائرية مملوءة بشكل متنوع تتكامل بأشكال أو رسومات أو مخططات مثلثية لتتزين أرضيات هذه القطع شبه المسطوحة (أجزاء أو قطع رقم ٢٣١٣ / ١٢٨٣) (١٥١).

٢-١٢- من الشائع ظهور الضفيرة النمطية لعصر الخلافة وهى صغيرة ذات ثلاثة أطراف ، ويتعلق هذا النوع من الزخارف بالقطع ذات الحلق مثل القارورات رقم (٦٧٧ / ١٠٣٤ / ١٢٧٠ / ٢٢٩٤) والإبريق رقم (١٢٣٤) ، وكذلك القطع الخالية من الحلق مثل جزء الفنجان رقم (١٢٧٣) و أجزاء الطبق أو الصينية رقم (١١٤٣ / ٢١٤٦) ، ويظهر هذا العنصر الزخرفى أيضاً بكثرة بين البقايا الخزفية لمدينة الزهراء (١٥٢) وبوياسرو (١٥٣) ومدينة سالم (١٥٤) ومستودعات أخرى بشبه الجزيرة الأيبيرية (١٥٥) أو شمال أفريقيا (١٥٦) .

ب - العناصر الزخرفية النباتية

وتظهر العناصر النباتية و الزهرية فقط على القطع المغطاة بأرضية بيضاء تلك التى تنتمى الألوان ذات الجودة العالية المزخرفة باللون الأخضر والمنجنيز (ولقد حللنا الاستثناءات الممكنة) ، ولكى نُسهّلَ دراستها أعدنا الجول الآتى للأنماط و الأنواع .

١ - موضوع المقرعة

١ - ١ - مقرعة ذات ساق متعرج أو متجدد :

- ١ - تتكيف مع حليات رأسية .
- ٢ - تتكيف مع حليات أفقية .
- ٣ - تظهر وكأنها مركز التكوين فى قاع القطع المفتوحة .

١ - ٢ - مقرعة ذات ساق مستقيم مقوّس بصورة طفيفة :

١ - تتكيف مع حليات أفقية وفصوصها تتجه لأسفل .

٢ - تتكيف مع حليات أفقية وفصوصها تتجه لأعلى .

١ - ٣ - مقرعة فريدة بداخلها تاج رُمحى الشكل .

١ - ٤ - مقرعة مزدوجة أو ثنائية و متناسبة بداخل تاج الزهرة .

١ - ٥ - مقرعة أو ورق شوك اليهود تتكيف مع فراغات مثلثية الشكل .

٢- موضوعات نباتية أخرى

٢ - ١ - تستخدم كأرضية فى تكوينات القطع المفتوحة : الأناناس و الأزهار

الكبيرة لتيجان رُمحية الشكل .

٢ - ٢ - تتكيف مع حليات أفقية : عقود من الأوراق .

٢ - ٣ - عناصر نباتية أخرى تُصاحب و تكمل تكوين موضوعات شبه حيوانية

أو بشرية .

وتمثل المقرعة الموضوع الأكثر شيوعاً فأنواعها المختلفة تتكيف مع الاستخدامات التركيبية المتنوعة وحتى فى العنصر الموجود نجد تنوعاً كبيراً ، حيث يلاحظ التطور الواضح من الموضوعات المنتهية جيداً إلى تلك التى يتم تنفيذها بشكل سريع ومُبسّط ، وإحدى هذه المقارع موجودة بحلية رأسية التى تصاحب جزءاً من القارورة رقم (٢٢٩٤) ، هذا الشريط أو هذه الحلية تتناوب مع أخريات مُصَفَّرة بالداخل . والموضوع كما يحدث دائماً فى هذا النوع من الزُخرفة يُرسم بالمنجنيز على أن يُترك داخل العنصر الزخرفى مع اللون الأبيض للمسند أو المقبض ، بينما اللون الأخضر لأكسيد النحاس ستُطلى به المنطقة الخارجية المحددة بالشكل العام للمقرعة وخطوط الشريط الزخرفى .

كما أنَّ الدقة التى تمَّ بها تنفيذ الموضوع الخزرفى سهَّل علينا إيجاد تشابهات مع خرف مدينة الزُّهراء^(١٥٧) أو العناصر الخزرفية المعمارية لعصر الخلافة^(١٥٨) .

وهذه المقرعة نفسها مُبسَّطة إلى حدٍ كبير ولكنها تحتفظ بخطها المتعرج أو المتعرج لساقها و يظهر ذلك ضمن أجزاء بعض القارورات (مثل رقم ١٢٨٥) التى تتكيف مع إطار أو برواز قطاع أفقى ، ونعترف بوجودها فى قاع بعض الصوانى أو الأطباق (تلك التى بأطرافها تتناوب العناصر الخزرفية المثلثية بأنصاف دوائر مملوءة كما فى أرقام (١٢٤٤ / ١٢٤٥ / ٢٣٠١) ، والتى تؤلف العنصر المركزى للتكوين .

وهناك نوع مختلف شائع بين بقايا مدينة إلبيرا الذى يتألف من المقارع المُبسَّطة ذات الساق المستقيم أو المقوَّس خفيفاً ، هذا الساق الذى فقد جمال شكله المتعرج أو المُتَّجِعُ . إنَّه عنصر خزرفى يظهر متكرراً فى قطع ذات جودة عالية وقد تكيف مع الحليات الأفقية لخزفة القطع شبه المسطوحة (جزء الطبق أو الصينية رقم ٢١٤٣ وأجزاء الأغصية رقم ٢١٤٤ / ٢١٤٥) أو فى القطع المغلقة (القارورة رقم ٦٧٧ وأجزاء القارورة رقم ٢٢٩٥) ، وبصفة عامة فإنَّ الساق يظلُّ ملتصقاً بالخط العلوى للحلية العريضة المسطوحة وفصوص العنصر الخزرفى وإنَّ كان هذا الموضوع يظهر معكوساً أو مقلوباً فى القصعة أو الجِفة رقم (٢١٤٣) . وفى الحالات التى تهمنا أيضاً فإنَّ المقرعة تبدو مرسومة بالمنجنيز و تحتفظ باللون الأبيض ، ولازال اللون الأخضر هو الذى يملأ أو يلون الفراغات وخاصة الخارجية منها بصفة عامة .

إنَّ المقرعة المُبسَّطة مألوفة الاستخدام بين بقايا مدينة الزُّهراء^(١٥٩) بوياسترو^(١٦٠) طليطلة^(١٦١) مورثيا^(١٦٢) مالقة^(١٦٣) وفالينثيا^(١٦٤) .

ويمكن اعتبار الأشكال ذات الفصوص المتعددة التى تنمو داخل أوراق رُمحية الشكل يمكن اعتبارها مقارع أيضاً ، إنَّها شائعة فى خزفة القطع القرطبية^(١٦٥) ، وإنَّ كان بين أجزاء مدينة إلبيرا ظهرت مرَّة واحدة مُصاحبة أو مقترنة لأرضية الطبق أو الصينية رقم (٧٧٤) و التى فيها يتجمع العنصر الخزرفى فى مجموعة ثلاثية ، ويظلُّ معانقاً بمخطط هندسى آخر^(١٦٦) .

وعندما يجمع أحد البراويز البيضاء الشكل بداخله مقرعتين متساويتين يتكون منهما عنصر زخرفي خاص أحياناً يصاحب الحلية ذات الزخرفة شبه نقشية أو شبه كتابية (وهذا ما يحدث على الأقل في أحد أجزائنا رقم ٢٣١٧ ويُفترض أنه يحدث في جزء آخر ناقص رقم ٧٨١) ، وفيما يبدو أن هذا الموضوع الزخرفي قد وُثِرَ من الزخرفة المعمارية ^(١٦٧) و يبدو في كثير من بقايا أماكن أخرى ^(١٦٨) .

ومن ناحية أخرى فإن قاع بعض الأطباق أو الصواني ينقسم إلى أجزاء دائرية ذات أنصاف أقطار متعددة على مسافات متساوية و ينجم عن هذا فراغات مثلثية تُمَلَأُ بعنصر زخرفي نباتي على شكل مقرعة أو ورقة شوك اليهود (أجزاء رقم ٧٧١ / ٧٨٠ / ٤٢ × ١١٥٢ / ١٢٨٦) ، و دائماً يحفظ هذا العنصر الزخرفي في اللون الأبيض للقاع أما لون تسديد الفراغات أو المساحات الخالية فهو بصفة عامة اللون الأخضر، وهذا العنصر السابق يحيط بشكل الورقة .

وعندما يتعلق الأمر بالحصول على عنصر مركزي خاص لأرضيات أو لقيعان القطع الخزفية المفتوحة يوجد موضوع يسمح بتقسيم تكويني إشعاعي لاحق : زهرة كبيرة ذات تيجان رُمحية الشكل ، لقد لاحظناه بوضوح في العديد من نماذجنا أجزاء من الأطباق أو الصواني رقم (٧٧١ / ١٢٨٦ / ٢٣٠٣) ، وتصاحب دائماً تلك التوليفات أو التركيبات التي أشرنا إليها أنفأ ، أمأ لب أو نواة الزهرة كان من المعتاد تكوينها بالمنجنيز ، أمأ التيجان فباللون الأبيض مما يتناقض مع الحشو الخارجي أو تظليل الفراغات باللون الأخضر ، ويجب أن نبحث عن أوجه الشبه لهذا الموضوع في قرطبة ^(١٦٩) ، وأيضاً عنصر الأناثاس الذي اعتقدنا أننا تعرفنا عليه في جزئيتنا رقم ٢٣٠٢ التي تنتمي إلى قاع صينية أو طبق ^(١٧٠) .

وإلى جانب المقارع توجد عناصر زخرفية نباتية أخرى تتكيف مع داخل الحليات الأفقية كما يتضح من رقمي (٧٥٤ / ٢١٤٥) المبسطين ولكنهما يكشفان بوضوح عن أصلهما ^(١٧١) وينفس الصيغة الآنية رقم (٧٦٧) تُنمى عُقْدًا من الأوراق على شكل قلب (موضوعة في اتجاه رأسى) الذي عرفناه أيضاً بين قطع مدينة الزهراء ^(١٧٢) وسنستشهد في النهاية وكوضع خاص أو حالة خاصة جداً بموضوع تلك

الأوراق أو الورقات بجزء القارورة رقم (١٢٦٨) بشكل قلب و ملطخة ببقع دائرية ملونة تتناوب مع الأشكال المثلثية مع ورقات أخرى متعددة الفصوص التى تُذكّرنا بموضوع المقرعة .

أما فيما يتعلق بالموضوعات الحيوانية التى ظهرت على سطح القارور (رقم ٦٧٧ أرانب برية و فى قاع أو أرضية الطبق أو الصينية رقم ٨٥٥ حصان) فإنها تقترب أو تصاحب عناصر زخرفية نباتية منفردة وبسيطة جداً تنتهى بما يشبه الاغصان الصغيرة ذات الثلاث ورقات أو كبساطة زهرة اللوتس (عروس النيل) .

ج- العناصر الزخرفية الشبيهة بالإنسان أو بالحيوان

إن العناصر الزخرفية الهائلة فى الخزارف الإسبانية الإسلامية بصفة عامة تتألف من الأشكال أو الصور البشرية والحيوانية التى ترسم على سطح القطعة التى سبق أن طُلِيتَ بيضاء ، ومن اكتشافها فإن موضوعات الزخرفة البشرية أو الآدمية والحيوانية قد لفتت أنظار كثير من الجهابذة الذين اهتموا بها وطبعوها على الفور (١٧٣) ، ونعنى بهذه الموضوعات موضوعات مدينة إلبيرا .

وبالفعل فإن الموضوعات الآدمية ظهرت مرتين فى خزفنا وقد رُسِمَت بالمنجنيز على أرضية بيضاء ومملوءة بالبقع الخضراء والبنفسجية ، ويتعلق الأمر بأرضية أو قاع طبق أو صينية كبيرة رقم (٢١٤٣) الذى يبرز فى وسطه مُحاطاً بحليات عريضة ومسطحة متراكزة أو مكثفة مليئة بنوع آخر من الخزارف ، حيث يظهر الشكل الجانبي لرجل فى أحلى ثيابه وشعره الغزير المُجعد والقائم السواد وعينه الواسعة وذراع ممدودة ليحمل فى يده عصفوراً كما يبدو من شكله (دائماً كان الصقر هو رمز هذه الزخرفة) وهو شكل مُبسّط وشبه مفقود إلى حد كبير . وفى مكان آخر (الجزء الذى ينتمى إلى قاع الطبق أو الصينية رقم (٢١٤٧) ، التى تخضع لنظام حلية متراكزة ، حيث تظهر رأسان آدميتان مرسومة بالمنجنيز وقد فقدتا أكبر قدر من ملامحهما .

فمن المعروف جيداً أنَّ مسلك الإسلام تجاه التصاوير أو الصور الأدمية (وهذا استثناء من بين الاستثناءات) هو تحريم هذه الصور أو الرسومات ، ولهذا السبب فإنَّ الصورة أو الشكل الأدمي قليل جداً بل نادرٌ في الزُخرفة الإسبانية الإسلامية . ويتأثير من التقليد السَّاساني فإنَّ الوجود الأدمي شائع في بلاد فارس وربما يرجع ظهور بعض الصور والأشكال الأدمية في خِزف منطقة البحر المتوسط الغربية إلى تأثير الخزف الفارسي ، وعلى العموم فإنَّ هذه التصويرات قليلة جداً ، ولم يصل إلينا منها سوى القليل و التي يمكن مقارنته صورنا ورسوماتنا ، وقد أدرج مانويل جوميث مورينو ثلاثة أجزاء خزفية مزخرفة واردة من مدينة الزُهاء تمثل أشكالاً أدمية جانبية وبعضها تُشبه تماماً في ملامحها رأس صائد صقورنا (١٧٤) ، وأيضاً هناك جزء مماثل يتم توثيقه في مالقة (١٧٥) .

وقد كانت في غاية الغرارة والوفرة الزخارف الحيوانية وإن كنا لم نلاحظ سوى ثلاثة نماذج تنتمي لهذه العناصر الزخرفية في البقايا الخزفية الواردة من بلدة الطرف : في قاع أو أرضية صينية أو طبق رقم (٨٥٥) يظهر شكل جانبي لجواد على ظهره يوجد عصفور يمسك بزمامه أو بلجامه بمنقاره ؛ فالرسم هائل وقساتم اللون والشكل موزع بنسب هائلة و يستخدم اللون للتظليل العام باستثناء خصلات من عرف الفرس ، و الذُكر (الجهاز التَّناسلي للحصان) والأرجل تكاد لا تظهر لبعدها و هي مغطاة كلها بالمنجنيز . و على الجدار المركزي لبطن القارورة رقم (٦٧٧) (و هي قارورة بطنها كبيرة ولها عنق ضيق بدون مقبض أو يد) وتظهر حلية عريضة مسطحة مقسَّمة إلى فراغات بين عدة واجهات نظراً لتقاطعها مع العديد من الحلقات العريضة المسطحة الرأسية مملوءة بصفيرة داخل هذه الفراغات المستطيلة وهي تلف أو تُحيط بأربعة أرناب برّية - في وضع واحد وكذلك الحجم - في وضع تَاهِب للقفز . وبالحوانات يقع بمنطقة الظهر و معظم الجسد ملون باللون الأخضر (ومن جديد فإنَّ الأرجل الخلفية بعيدة وبالتالي لونها مختلف) ، كما أنَّ الحيوانات تُمسك بأغصان نباتية صغيرة .

وجدير بالذكر أنَّ الموضوعات الزخرفية الحيوانية التي ظهرت في مدينة الزَّهراء^(١٧٦) يجمع بينها وبين الموضوعات التي نحن بصدد دراستها الآن كثير من أوجه الشبه . وعلى الرغم من أنَّ موضوعات مدينة الزَّهراء شاع فيها استخدام الطاووس - وهو موضوع مجهول تماماً حتى الآن بالنسبة لقطع مدينة إلبيرا - فإنَّ الحمامات موجودة (و هي تشبه العصفورة - الفارس) وكذلك الحيوانات ذات الأربع أرجل ، بأرجل في وضع تأهب للقفز ، أجساد مليئة بالنقط أو البقع البيضاء ويقمها غُصْنٌ صغيرٌ^(١٧٧) . ويعيد مانويل جوميث مورينو مارتينيث^(١٧٨) إنتاج طبق أو صينية وارد من نفس المستودع القرطبي الذي بأرضيته أو بقاعه صورة حيوان يشبه إلى حد كبير الحصان المرسوم على الصينية أو الطبق رقم (٨٥٥) . إنَّ هذه الموضوعات الزخرفية الحيوانية هي أقل كثيراً بين بقايا مستودعات أخرى . وعلى أية حال فإننا سنستشهد بالظبي الصغير الذي ظهر في مايوركا وقام روسيو بنشره في مؤلفه^(١٧٩) ، كما أنَّ العصفور الذي نُفِّذَ باتباع الحبل الجاف أو اليايس الذي ظهر في قلعة الأنهار^(١٨٠) وكذلك العصفور - الحجل بطليطة^(١٨١) ، وطيور مالقة^(١٨٢) ، وأشباه الحيوانات في فالينثيا^(١٨٣) ، أو التصاوير الحيوانية الواردة من قلعة بنى حمود^(١٨٤) ، التي تعود إلى طرح أمور واضحة في تلازمها مع الرسومات الأندلسية .

وقد أبرز بابون مالونادو^(١٨٥) أوجه الشبه الموجودة بين هذه الحيوانات المدونة بقائمتنا وبين الحيوانات الكائنة بالمستودعات الشرقية ، ومن المرجح أن تكون وسيلة انتشار هذه العناصر الزخرفية هي المنسوجات أو العاج ، وعلى العموم فلقد وجدنا تشابهات كثيرة بين حيواناتنا وتلك التي ظهرت في الخزف الفارسي في نيسابور^(١٨٦) .

د - الزُّخرفة بالنَّقْش أو بالكتابة

إنَّ العناصر الزُّخرفية النقشية أو الكتابية - أو على الأصح - شبه النقش أو الكتابة - تنحصر في نماذج قليلة بزخرفة مرسومة على أرضية بيضاء ،

وتظهر هذه فى الجزء العلوى لجسد قارورة رقم (١٠٣٤) وكذلك فى الغطائين رقم (٢١٤٤ / ٢١٤٥) وفى حافة رقم (٢٢٩٩) وكذلك فى أرضيات الأطباق أو الصوانى رقم (١٢٨١ / ٢٣١٧ / ٢٣٢٢ / ١٢٧٧) . وعلى أية حال فإن الرسومات أو الخطوط لا اتجاه لها وقد نُقِذَت على عجل وبدون تمهل بالاستفادة من التخطيطات القائمة للمنجنيز وكذلك كما فى كثير من الأطباق أو الصوانى تندرج تماماً تحت خطة من خطط الزخرفة الهندسية وهكذا أخفت أصولها أو مصدرها ، ففى مدينة إلبيرا لا يوجد التاريخ الخاص بكتابات بالخط الكوفى و البرامج الكتابية الكبيرة التى ظهرت فى قطع مدينة الزهراء^(١٨٧) أو بمستودعات أخرى إسبانية إسلامية^(١٨٨) .

د - اعتبارات موجزة عن البدايات التكوينية

فى القطع الخزفية المرسومة فى مدينة إلبيرا

نودُ استكمال دراسة الموضوعات الخزفية لهذه القطع الخزفية المرسومة على أرضية بيضاء مع الإشارة إلى بعض الاعتبارات حول التنظيم التكويني لهذه العناصر الخزفية أى طرق تجميع هذه الموضوعات وعلاقة هذه التجميعات مع شكل القطع المراد زخرفتها وفى هذا الصدد لقد وضعنا مبدأً أساسياً أو قاعدة جوهرية للإشارة إلى التكيف العام بين الشكل والزخرفة التى وجدناها دائماً فى الخزف الإسلامى وعلى وجه الخصوص فى هذه الأوانى أو الأوعية القادمة من بلدة الطرف .

وهذا التكيف ينعكس تماماً فى الأنماط التكوينية المحددة ، أنماط قد لاحظها باسيلييو بايون^(١٨٩) فى دراساته عن الخزف فى مدينة الزهراء والتى سيعكسها أيضاً جبيرمو روسيو^(١٩٠) عند التطرق إلى الخزف العربى فى جزيرة مايوركا ، وسنبداً نحن من التمييز المؤلف بين الشكل المغلق والشكل المفتوح .

١- التكوين فى القطع المغلقة :

تُطبَّق العناصر الزُخرفية - من الناحية المنطقية - على القطع المغلقة بالحوائط الخارجية لها بينما الداخلى (الغير مرئى فى القطع الكاملة) يُغطَّى بطبقة زجاجية ذات لون متجانس ، وفى مدينة إلبيرا نجد أن القطع المزودة بشُجُب أو بزائيز و مزخرفة بالنحاس والمنجنيز تتحصر فى مجموعة القارورات أو القنينات الخالية من المقابض وبعضها بيزبوز طويل ، تسود هذه القطع الخطوط الأفقية فى التكوين الزخرفى بالشكل الذى يجعل من المالكوف وجود شرائط أفقية ومتوازية ذات السمك المتنوع ومملوءة بالعناصر الزخرفية التى تحدثنا عنها فى الأجزاء السابقة ، فالحليات العريضة المُسطَّحة الأكثر أهمية (هذه الأهمية تتأتى أحياناً من عرضها وأحياناً أخرى من أصالتها وتعقيد أو ثراء عناصرها الزخرفية الكائنة بداخلها) فى الوسط أو فى النصف العلوى لبطن الإناء (أحسن جزء مرئى عندما يكون الإناء على المنضدة) بينما الأجزاء السفلية لأجساد هذه الأوانى تخلو بصفة عامة من الزُخرفة ، كما أن أى عنصر زخرفى أو وجود مقابض أو بزائيز على سبيل المثال فى بعض الأوانى ، وفى هذه الحالة القارورات يجعل الشريط الزخرفى الأفقى ينقطع محترماً وجود هذه المقابض أو البزائيز .

وفى بعض الحالات لاحظنا وجود أجزاء أو أقسام رأسية (عادة تستخدم فى تقسيم أفضل للشريط الأفقى ، كما يحدث فى القارورة التى بها الأرناب البرية) وفى حالات متعددة جداً فى القنينتين أو القارورتين رقم (١٢٧٠ / ٢٢٩٤ على سبيل المثال) الخطوط الرأسية هى المهيمنة أو الوحيدة فى التنظيم الزخرفى للمجموعة .

٢- التكوين فى القطع المفتوحة :

ونحن نشير بهذا أساساً إلى الزُخرفة على أرضية بيضاء لداخل الأطباق أو الصواني . وفى مثل هذه الحالات فإنَّ الجدران أو الحوائط الخارجية هى التى تبقى بصفة عامة دون أرضية بيضاء ، ولكنها مع ذلك تُطلى بطبقة زجاجية متجانسة باللون الأخضر أو العسلى لحمايتها .

هذا وقد وضع بابون^(١٩١) قائمة بعشرة أنماط مختلفة لشكل زخرفة الأرضيات بهذه الأوعية وقد عزيت هذه التكوينات إلى موضوعات زخرفية محددة ، واستناداً إلى نظرية أو علم الأنماط فقد درسنا قطعنا الخزفية ولاحظنا افتقارات هامة وكذلك وجود بعض الأنماط التي لم تظهر في المستودع القرطبي ، فلم نجد على سبيل المثال بقايا من الكتابات أو النقوش الكوفية الكبيرة الكائنة في نمط رقم (أ) وإن كان لدينا إشارة إلى أطباق عليها عناصر زخرفية شبه نقشية أو كتابية مرسومة على ذراعى صليب ، كما أنه ينقص أيضاً أنماطه ب ، ج ، د ، هـ ، و ، ل ، م ، ولدينا شهادة واحدة ذات مغزى بسيط وهي الزهرة الكبيرة ذات التيجان الأربعة الرُمحية الشكل ذات القاعدة العريضة (النمط E) نعم ، يجب أن نبرز وجود نمودجين في قطعنا الخزفية مزخرفين بحلقات صغيرة بداخل دائرة كبيرة (نمط G) ، إن أهمية النمط K في مخطط صليبي الشكل بنوعيه يملأ أجزاء الدائرة الناجمة عن الدوائر أو الحلقات والأشكال البيضاوية في مدينة الزهراء .

ونوجز باقتضاب ما سبق أن عرضناه قائلين : إن من بين القطع المفتوحة بخرنطة وجدنا ما هو مجزأ أو مقسّم إلى تكوينات إشعاعية متراكزة أو مكثفة وبين هذه الأخيرة تكثر النماذج التي يبرز فيها أهمية العنصر المركزي (أيأ كان نمطه) نظراً للامتداد الكبير الذي يشغله هذا العنصر في القاع أو الأرضية .

الاستنتاجات

إن الخزف الذي حللناه وصنّفناه في الصفحات السابقة متنوع و ذو جودة عالية ويتفق من حيث الصفات أو المميزات العامة مع القطع الخزفية الأخرى التي عثر عليها في مستودعات أخرى بالأندلس ، والدراسة المستفيضة لهذا الخزف والمقارنة بينه وبين قطع واردة من أماكن أخرى جعلتنا نتطرق إلى بعض الأمور الموسعة والتي سنحاول هنا الإجابة عنها في هذه الاستنتاجات : وهي مكان أو موطن الإنتاج وتاريخ الإنتاج في المقام الأول .

ففيما يتعلق بموطن أو مكان الصناعة فمن المعتاد اعتبار الأصالة في المقام الأول و هذه نظرية نرتضيها ولكن سنضيف إليها بعض الإيضاحات . بالفعل نجد من المنطقي التفكير الاعتقاد بأن مركزاً إقليمياً مثل مدينة إلبيرا كان من بين سكانها قطاع للحرف اليدوية تخصص في صناعة الفخار المطبوع وأن إنتاجه كان يكفي إحتياجات السوق المحلي أو الإقليمي وحتى يمكن بيع هذه المنتجات الخزفية خارج نطاق المحافظة نفسها . والاعتقاد في هذا الإنتاج المحلي له ضماناته المادية مثل الحواجز من الفخار المطبوع كما في (الحواجز التي كان يضعها صانع الفخار بأرضية الفرن وكذلك حتى لا تصل إليها النار مباشرة في الفرن وهي قطع لا غنى عنها بالنسبة لصانع الفخار . هذه الحواجز - والبقع العارضة التي وجدناها على هذه الحواجز - توضح لنا استخدام الطلاء الزجاجي ووجود أكسيد النحاس والمنجنيز بين أملاح الرصاص والآن يمكننا إدراك الفارق بين الخزف المفيد أساساً ثريدي اللون أو المغطى بطرق بسيطة بطبقة من الزجاج وهو عادة خال من الزخارف وهو شائع و مألوف بين جميع البلدان و بين مجموعة القطع عالية الجودة الخزفية التي تزخرف على أرضية بيضاء (أكثر القطع جاذبية بين النماذج التي درسناها) التي ظهرت في مدينة إلبيرا ذات التصميمات الرائعة التي تكشف عن أيدي فنانة وعقول واسعة الثقافة ، هذه القطع تم إنتاجها في نفس المدينة ، وفي حالة الإيجاب فإننا سنمنح صانعي الفخار بمدينة إلبيرا أهمية واهتماماً يضارع ما كان نظراًؤهم في عاصمة الخلافة الأندلسية (قرطبة) وربما يكون صانعو الفخار بمدينة إلبيرا ينتمون إلى أجداد قرطبيين ، أمّا في حالة السلب أو النفي فليس من غير المنطقي اعتبار هذه المنتجات دقيقة الصنع ثمرة العلاقات التجارية التي ربطت بين عاصمة الإمبراطورية والمراكز الإقليمية الرئيسية ، ولكي نوضح هذه المعضلة نحن في حاجة إلى أدلة قاطعة لم نستطع الإسهام بها في هذه الدراسة : التحليل الكمي للفخار الذي يسمح لنا بالتحقق من مصدر الطين أو الفخار أو التتابعات الأثرية الواضحة والتي نفتقر لها حالياً .

وفيما يتعلق بفترة إنتاج هذا الخزف تتفق الأطروحات التقليدية التي تستند إلى أخبار تاريخية معترف بها والتي تؤكد أن القطع السالف ذكرها ودراستها تنتمي إلى عصر الخلافة ، ومن الصحيح أيضاً أنه لم يتم التمييز على الصعيد العام بين المنتجات الخزفية لعصر الخلافة بالنسبة لمراحلها السابقة (الإمارة) واللاحقة لها مباشرة (الطوائف) و لكنَّ الزخرفة الخضراء والبنفسجية على أرضية بيضاء والتشابهات الواضحة بين خزفنا وتلك التي ظهرت بمدينة الزمراء تمثل أهمية إنتاجنا في القرن العاشر الميلادي . ونعرف من ناحية أخرى أن مدينة البيرا لم تبق على قيد الحياة أكثر من الربع الثاني من القرن الحادي عشر الذي فقدت فيه دورها كعاصمة لصالح غرناطة ، وقد دُمِّرَت المدينة وخُرِبَت و سُلِبَت ، وبالتالي فقدت مصانع الفخار بها .

ولن ننسى أن نُسجِّل في هذا الجزء أيضاً التشابهات الوثيقة التي لاحظناها بين خزفنا (المجموعات الموجودة بدون زخرفة أو تلك المطلية بطبقة زجاجية فقط) والواردة من مصانع فخار مجاورة وإن كانت من المفترض أن تكون لاحقة لها - الميريا ومالقة بصفة أساسية - وهذه التشابهات يجب تبريرها ببقاء تقليد أو عرف شكلي أو فني تقني الذي سيتغير أو سيعُدَّل بوصول الموحدين وعلى وجه الخصوص اعتباراً من الإبداعات النُصْرية .

الهوامش

- (١) توريس بالباس ، ل " الخزف الإسباني الإسلامي " مجلة الأندلس عام ١٩٣٩ ص ٤١٢ و التالية لها .
- (٢) ونستشهد بالنص أو حرفياً : و لكن بينما تُرى هذه الحفريات (يشير بذلك إلى القصبية بمالقة) من الضروري طبع و نشر الخزف في عصر الخلافة و كذلك في كل من غرناطة و مالقة لكي يكتمل التطور الرائع لفن صناعة الفخار في بلدنا .
- (٣) قبل عام ١٩٣٩ طبع مؤلف عن مدينة الزُهراء لبيلاثكيث بوسكو و بحثان عن الحفريات . بيلانكيث بوسكو ج ر " مدينة الزُهراء و ألييريا " مدريد ١٩١٢ . نفس المصدر حفريات بمدينة الزُهراء (قرطبة) مذكرات عما تم اكتشافه في هذه الحفريات J.S.E.A بحث رقم ٥٤ مدريد ١٩٢٢ ، خيمينيث رويث كاسيخوان ايرنانديث ، حفريات في مدينة الزُهراء (قرطبة) مذكرات بالأعمال التي قامت بها اللجنة المنتدبة المشرفة على الحفريات J.S.E.A بحث رقم ٨٥ مدريد ١٩٢٦ .
- (٤) جوميث مورينو ، م . مدينة إلبيرا ، غرناطة ١٨٨٨ .
- (٥) ميرخلينا - ث - دي . بوياسقرو ، مذكرات عن الحفريات التي تمت في ميساس دي بيبا بيردي ، الشرو (مالقة) J.S.E.A بحث رقم ٨٩ مدريد ١٩٢٧ .
- (٦) ميليدا خ . ر (مدينة سالم) بحث عن الحفريات التي تمت في ١٩٢٤ - ٢٥ J.S.E.A بحث رقم ٨٢ مدريد ١٩٢٦ .
- (٧) يشير على وجه التحديد إلى الخزف الإسباني الذي قام مانويل جوميث مورينو قام بطباعته مؤخراً (برشلونة عام ١٩٢٣) .
- (٨) جوميث مورينو ، م . الخزف الإسباني في العصور الوسطى ، برشلونة عام ١٩٢٤ .
- (٩) هنا سنتذكر تقارير استيبي جيريرو عن (خيريث) استيبي جيريرو ، م . حفريات أستياريخيا في A.E.A العدد ١٥ مدريد ١٩٤٢ ، نفس المصدر حفريات أستياريخيا (ميساس دي أستياريخيا خيريث) حملة عام ١٩٤٥ - ١٩٤٦ المأمورية العامة للحفريات الأثرية . تقارير وبحث رقم ٢٢ مدريد ١٩٥٠ . نفس المصدر اكتشاف جديد للخزف العربي في ميساس دي أستياريخيا (خيريث) في الأندلس العدد ١٥ ، ١٩٦٠ (وكذلك ليوبيس وف . ماتيو عن الخزف في فالينثيا (ماتيو وليوبيس . ف . اكتشافات خزفية في فالينثيا مجلة الأندلس العدد ١٥ ، ١٩٥١) أوتشورينا والخزف في ألييريا (أوتشورينا ، ف . الخزف العربي في بتشينيا ألييريا في M.M.A.P العدد ١٤ ، ١٩٥٢) دراسة كاسامار عن بقايا قلعة الأنهار (كاسامار م . الخزف الإسلامي في القلعة القديمة ، الأندلس ، العدد الثالث و العشرين ١٩٥٨) تقارير جييروم روسيو عن القطع

الخزفية التي ظهرت في جزيرة مايوركا (روسيو بوروي ج. اكتشافات خزفية في مدرسة مونتسيون) بالملا دى مايوركا) في مجلة الأندلس العدد التاسع والعشرين ١٩٦٤ ، رسيو و آخرون قناديل إسلامية أكتشفت في مايوركا ، مايوركا ١٩٦٩ ، روسيو بوروي ج. تجربة لتصنيف الخزف العربي في مايوركا ، بالملا دى مايوركا ، ١٩٧٨ (كاريثو حول الخزف في أشبيلية (كاريثوج - أخنود أو خندق في أرض أشبيلية في كراسات الحمراء ١٩٧٤ - ١٩٧٥) أو باسيليو بابون عن الخزف في تالابيرا (بابون مالدونادو ب. الخزف الإسلامي في تالابيرا دى لا رينا طليطلة في القنطرة العدد الأول مدريد ١٩٨٠) أو طليطلة (بابون مالدونادو . ب الفن الإسلامي و الأندلس الإسلامي في طليطلة ، مجلة القنطرة ، العدد الثاني ، مدريد ١٩٨١ .

(١٠) جوميث مورينو ، م. الفن العربي الإسلامي حتى الموحدين ، الفن الإسباني ، الجزء الثالث مدريد ، ١٩٥١

(١١) كاسوس كثولا ، ي. الخزف الإسباني في العصور الوسطى مدريد ١٩٤٣ .

(١٢) جونثالث مارتى ، م. خزف الشرق الإسباني ، القرون الوسطى مدريد ، برشلونة ١٩٤٤ - ١٩٥٢ .

(١٣) لوييا . ل. م. الخزف الإسباني في العصور الوسطى ، برشلونة ، ١٩٧٣ .

(١٤) بابون مالدونادو ، ملحوظات عن الخزف الإسباني الإسلامي في مجلة الأندلس ، العدد الثاني والعشرين ، ١٩٧٢ .

(١٥) فونانديث سوتيلو . أى . الخزف الإسلامي الإسباني بمتحف الآثار في سبته ، سبته ١٩٧٧

(١٦) روسيو بوروي ج. تجربة لتصنيف الخزف العربي في مايوركا بالملا دى مايوركا ، ١٩٧٨ .

(١٧) ثوثايا ، خ. الخزف الإسباني وتصنيفها إلى أنماط . وكذلك الخزف في عصر الخلافة وأنماطه . كلاهما في مجلة الخزف في العصور الوسطى بمنطقة البحر المتوسط الغربية ، العدد الخامس والعشرين ، فالبون عام ١٩٧٨ ص ٢٦٥ و التالية لها . انظر أيضاً مؤلفه عن الخزف الأندلسي في كتابه " الخزف الإسباني المزخرف " برشلونة ، ١٩٨١ .

(١٨) باثانا ، أ. الخزف في العصور الوسطى ، الأدوات المنزلية ذات الاستخدام الشائع في ميلانجيس كاسا بيلاثيليث ، ١٥ ، باريس ، ١٩٧٩ ، و أيضاً لنفس المؤلف " الخزف في العصور الوسطى في ميلانجيس كاسا بيلاثيليث ، ١٦ ، باريس ، ١٩٨٠ باثانا وآخرون ، الخزف الإسلامي في مدينة فالينثيا (١) فالينثيا ، ١٩٨٣ .

(١٩) أجوادو ببالبا ، خ. الخزف الإسباني الإسلامي في طليطلة ، مجلة المجلس الأعلى للبحث العلمى ، مدريد ، ١٩٨٣ .

(٢٠) يويرتاس تريكاس ، ر. الخزف الإسلامي الأخضر والبنفسجى في القصبة بمالقة . كراسات الحمراء ، ٢١ ، غرناطة ، ١٩٨٥ .

(٢١) نابارو بلاثون ، خ. الخزف الإسلامي في مورثيا - مورثيا ١٩٨٦ .

(٢٢) إيجواراس ، خ. خزف إلبيرا في 1945 M.M.A.P من ٧٢ و التالية لها .

(٢٣) لا نعرف عن يقين في أى حالة تم العثور على هذه القطع . ففي الصفحات التقديمية لمانويل جوميث مورينو (المصدر المذكور آنفاً ١٩٨٨) تسمح لنا افتراض أن عمل المحترفين اختلط بعمل الهواة والعمال الذين كانوا يبحثون عن بعض المكاسب . ويخبرنا جوميث مورينو نفسه ... نأسف لأن الحفريات لم تتم بشكل منتظم ولو تم ذلك لتمكنا من الحصول على الثمرة المرجوة الضرورية لتاريخ الفن والآثار والمعتقدات تحصيلها من جراء هذا النوع من الأعمال ولتمكنا أيضاً من دراسة المدينة التي كانت في حضن سلسلة الجبال المسماة إلبيرا وشكل وتوزيع وأهمية مبانيها . فالعمل بالطريقة التي ذكرناها أدى إلى اختفاء الكثير من المعلومات بالغة الأهمية لأن هدف الحفريات كان في المقام الأول العثور على أشياء لتحقيق مكاسب منها أو للاستفادة من مواد الجدران والأسمنت وقد تضمن التقرير المعد عنها بأن هذه المواد قد تهيئت واندثرت .

(٢٤) لقد ظلت هناك ما يزيد على مائة عام . و مصيرها في المستقبل هو متحف الفن الإسلامي

الإسباني بالحمراء .

(٢٥) جوميث مورينو ، المصدر السالف ذكره (١٨٨٨) .

(٢٦) نعد اختياراً لنفس المراجع والمصادر .

(أ) كتب الملك عبد الله في القرن الحادى عشر تاريخ أسرته (القرن الحادى عشر مع ضمير المتكلم . مذكرات عبد الله آخر ملك لغرناطة الذى أطاح به الموحدون من عرش غرناطة . ترجمة ليفى بروفينثال وإيميليو جارثيا جوميث . (مدريد ١٩٨٠) والتي فيها يصف مدينة إلبيرا الواقعة في سهل من السهول ويقطنها أناس لا يطبق بعضهم البعض الآخر ويضيف أيضاً كيف أن المدينة قد هجرها أهلها ولجئوا إلى غرناطة .

(ب) وفي النصف الثانى من القرن الحادى عشر كتب أيضاً أبو عبد البكرى في مؤلفه جغرافية إسبانيا (كتاب المسالك والممالك ترجمة اليسيو بيدال بيلتران ، سرقسطة ١٩٨٢ يحدد لنا موقع مدينة إلبيرا داخل المنطقة السادسة في الجنوب) التي كانت عاصمتها أشبيلية .

(ج) أبو عبد الله محمد الإدريسي بعد ذلك في القرن الثانى عشر في مؤلفه " تسليمة من يريد التجوال في العالم " هناك وصف لأفريقيا وإسبانيا للإدريسي ليندين ١٨٦٦ يقول لنا فيه أيضاً أن عاصمة المحافظة كانت مدينة إلبيرا حتى هاجر أهلها إلى غرناطة .

(د) الخطيب (أنظر دوزى ، مظاهر من الأدب الإسباني في العصور الوسطى - أمستردام ، ١٩٥٥ يحدثنا فيه عن الشهرة والإزدهار اللذين تمتعت بهما مدينة إلبيرا وقد أسهب في وصف مسجدها .

(٢٧) سنعد قائمة لهم :

(أ) أحمد الرازى في النصف الأول من القرن العاشر (ليفى بروفينثال . وصف إسبانيا للرازى في مجلة الأندلس ١٩٥٣ ص ٥١ و التالية لها) يقول لنا إن كاستيا هي عاصمة حي إلبيرا وإن كان قد أكد فيما بعد بأن ما بين قرطبة وإلبيرا حوالي ٦٠ ميلاً .

(ب) ابن حيان ، تاريخ الخليفة عبد الرحمن الثالث الناصر بين السنوات ٩١٢ ، ٩٤٢ - المقتبس ، الجزء الخامس ، ترجمة دى بيجيرا كوريتى ، سرقسطة ، ١٩٨١) ويذكر أيضاً أن كاستيا هي عاصمة إلبيرا .

(ج) ياقوت (أنظر جمال عبد الكريم ، الأندلس فى مجمع البلدان لياقوت ، أشبيلية ، ١٩٧٢) الذى بأن المدن الرئيسية لمحافظة إلبيرا كانت غرناطة وكاستيا . وهذه المشكلة الخاصة بالازدواجية بين كاستيا و إلبيرا لها حل بسيط إذا فكرنا بأن الأولى كانت تسمية مدينة قبل أن تصبح عاصمة ، تسمية ظلت تتلاشى شيئاً فشيئاً لصالح الثانية - اسم المحافظة نفسها - اعتباراً من عصر الخلافة . وفى وصف الرازى نجد التسميتين لمرقة مكان واحد .

(٢٨) سيمونيت ف.خ. وصف لمملكة غرناطة طبقاً للمؤلفين العرب ، غرناطة ، ١٩٦٢ .

(٢٩) هذه البقايا الأثرية المعروفة قديماً تم تصنيفها بواسطة مانويل جوميث مورينو فى مؤلفه آثار رومانية وقوطية غربية فى غرناطة . غرناطة ، ١٩٨٢ .

(٣٠) من المحتمل أن يكون الهمارى (النصف الثانى للقرن الخامس عشر الذى ترك لنا الملاحظة الكبيرة أو الوصف الكبير عن المدينة (مدينة إلبيرا) فى كتاب الروض المعطر (ترجمة م . ب . مايسسترو فالينثيا ١٩٦٣) حيث قام بتجميع وتلخيص أخبار سابقة . ويقول لنا إن عبد الرحمن الأول هو الذى أسسها وكانت بين أجمل العواصم وأنبى المدن بالأندلس ومسجدها - يواصل قائلاً - أسسها أنس الصفانى وتم ترميمها بأمر من عبد الرحمن الثانى وبين فضوليات المنطقة أنه كان بضواحي المدينة (مدينة إلبيرا) تمثال حصان منحوت من حجر صلب . الهمارى يذكر لنا الشخصيات الشهيرة من أبناء هذه المدينة .

(٣١) وتوجد هذه الآثار حالياً بمتحف الآثار بغرناطة وقد تم جردها بواسطة مانويل جوميث مورينو (المصدر السابق ذكره ١٨٨٨) وقد ضمناها ملاحظة خوالنا ايجواراس عن اكتشافات مدينة إلبيرا عام ١٩٤٦ و ذلك فى تقارير المتاحف الأثرية الإقليمية . وتتناول بصفة خاصة الآثار البرونزية و التى يبرز من بينها أجزاء من خمسة مصابيح كبيرة - مكونة من أسطوانة مسطوحة أفقية مفرغة تعلّق بواسطة ثلاث سلاسل أو جنازير - وقنديل أو مصباح هائل ذات قاعدة متعددة الزوايا وقنديل ذو ثقب طويل . كما جمعت أيضاً أجزاء أعمدة من الأحجار و أجزاء من زخارف حائطية على الخزف والزجاج وبعض العملات .

(٣٢) روسيو بوردوى ، ج. المصدر السالف الذكر (١٩٧٨) ص ١٥ والتاليات لها .

(٣٣) استيفى جيريرو ، م. المصدر سالف الذكر (١٩٦٠) ص ٢٠٠ والتالية لها .

(٣٤) بابون مالدونادو ، ب. ملحوظات على الخزف الإسلامى فى نيبلا ، مجلة القنطرة ١٩٨٠ ، ص ٤٠٧ .

(٣٥) بابون مالدونادو ، ب. المصدر سالف الذكر (تالابيرا ١٩٨٠) ص ٤٠٢ .

(٣٦) دى لوس سانتو خينير ، س. مشتريات المتحف الآثار بقوطية ، مجلة M.M.A.P 1948 - 1949

الشكل ٢٧

(٣٧) المؤلفات من الخزف بالمستودع القرطبي الغنى تركّزت بصفة أساسية فى دراسة الموضوعات الزخرفية وهى خالية من الجدولة النمطية أو من التقسيم النمطى النسبى من حيث الشكل . وهناك تقسيم

نمطى أو تصنيف نمطى أعد بشكل مُقتضب بواسطة كامبوس (كامبوس كاثولا) أى الخزف و الزجاج فى عصر الخلافة بمدينة الزهراء (قرطبة) وكذلك فى مقتنيات المتحف الوطنى للآثار ١٩٤٠ - ١٩٤٥ مدريد ١٩٤٥ شكل (٧).

(٢٨) بودا ، د. الخزف الإشبانى الإسلامى فى الميريا ، الجزء الثانى عشر ، مكر ، ١٥ جابوندرت ، هامبورج ١٩٧٠ صورة (١).

(٢٩) أجوانو ، خ. المصدر المذكور أنفاً (١٩٨٣) صورة (٢).

(٤٠) بويرتاس ، ر. المصدر السالف الذكر (١٩٨٥) شكل (١).

(٤١) نابارو ، خ. المصدر السالف الذكر (١٩٨٦) رقم (٣١٢ - ٣١٥ - ٣٢٠).

(٤٢) يوثانا ، أ. المصدر السالف الذكر (١٩٨٣) رقم (١٥ / ١٦ / ١٨ / ٢٠ / ٢١).

(٤٣) ثوثايا ، خ. المصدر السالف الذكر (١٩٧٨) ص ٢٦٥ و التاليات لها .

(٤٤) وهذه الوفرة أو الكثرة تسمح لنا بالحديث عن التشابه والقرابة بين خزف مدينة الزهراء ومدينة إلبيرا / أنظر بيلانكيث بوسكو المصدر السالف الذكر (١٩١٢) فى الصورة (٤١) حيث تصور جانبيين أو صورتين جانبيتين للطبق أو الصينية .

(٤٥) أوتستورينا ، ف. المصدر المذكور أنفاً (١٩٥٣) فى الشكل (٧٣) حيث ينشر صورة جانبية لطبق أو صينية مشابهة جداً لما ندرسه حالياً .

(٤٦) أجوانو ، خ. المصدر المذكور أنفاً (١٩٨٣) الصورة (٢) .

(٤٧) نابارو ، خ. المصدر السالف الذكر (١٩٨٦) رقم (٣١٦ / ٣١٧ / ٣١٩ / ٣٢٢) .

(٤٨) بويرتاس ، ر. المصدر السالف الذكر (١٩٨٥) شكل (٢) .

(٤٩) أجوانو ، خ. المصدر السالف الذكر (١٩٨٣) صورة (٢) .

(٥٠) نابارو ، خ. المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم (٣٢١) .

(٥١) روسيو ، خ. المصدر المذكور أنفاً (١٩٧٨) ص (٦٣) .

(٥٢) روسيو ، خ. المصدر المذكور أنفاً (١٩٧٨) ص (٦٠) .

(٥٣) نابارو ، خ. المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم (٦٨) .

(٥٤) ياثانا ، أ. المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) شكل (١٢) .

(٥٥) روسيو ، خ. المصدر المذكور أنفاً (١٩٧٨) ص (٥٨) نمط (أ) .

(٥٦) كامبوس . أى ، المصدر سالف الذكر (١٩٤٥) ص ١٤٩ (٢٤) .

(٥٧) نابارو ، خ. المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم (٤٤٠ و التاليات لها) ترجع للقرن الثالث عشر .

- (٥٨) انظر باثانا أ. ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) صورة (٨) .
- (٥٩) جوميث مورينو . م . المصدر المذكور آنفًا (١٨٨٨) صورة (١٣) .
- (٦٠) روسيو . خ . المصدر المذكور آنفًا (١٩٧٨) شكل (٨٠ ٤) إيريقتا ذو الشُخب الضيق و الذي صنّف بواسطته كقارورة أو قنينة .
- (٦١) بيلانكيت بوسكو ر . المصدر المذكور آنفًا (١٩١٢) صورة (٣٩) .
- (٦٢) دي لوس سانتوس . س . الخزف الإسلامي المزخرف فى مجلة MM.AP, ١٩٧٤ ص ٤٦ والتاليات لها .
- (٦٣) كامبوس ، أى ، المصدر السابق ذكره ، (١٩٤٥) ص (١٤٩) (٦٠ ٥) .
- (٦٤) جوميث مورينو مانويل . المصدر السابق ذكره ، (١٩٥١) الصور رقم (٣٧٨ / ٣٧٧ / ٣٧٦) .
- (٦٥) ثوثايا ، خ . المصدر سالف الذكر (١٩٨١) الشكل ص (٤١) .
- (٦٦) دودا د . المصدر سالف الذكر (١٩٧٠) الشكل (١) صورة (١٠ ، ١٥) .
- (٦٧) نابارو . خ . المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم (٦٣ ، ٦٤ ، ٢٢٧) .
- (٦٨) يوييا ، ل . م . المصدر الذى سلف ذكره (١٩٧٣) شكل (١٩) ووفقًا لما يؤكد أنها واردة من مدينة إلبيرا بينما مانويل جوميث مورينو على العكس من ذلك يدرجها فى قطع مدينة الزُهراء (المصدر المذكور آنفًا ١٩٥١) .
- (٦٩) جييرروسيو ، المصدر سابق ذكره (١٩٧٨) يدرجها بين الابرقي أو الجُرأت على الرغم من أنها مزودة ببزبوز مخروطى . و القطع المايوركية تختلف بشكل ملحوظ عن الغرناطية .
- (٧٠) نابارو . خ . المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم (٢٤٦) .
- (٧١) باثانا أ. ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) شكل (٢٤) .
- (٧٢) ثوثايا ، خ . المصدر سالف الذكر (١٩٨١) الشكل ٩ (ب) .
- (٧٣) استيبى . م . المصدر سالف الذكر (١٩٥٠) صورة (٢٨) .
- (٧٤) كاريانو . خ . المصدر المذكور سلفًا (١٩٧٤) .
- (٧٥) روسيو . ج . المصدر سالف الذكر (١٩٦٤) .
- (٧٦) جوميث مورينو . م . المصدر المذكور سلفًا (١٩٥١) شكل (٣٧٦) .
- (٧٧) يابون . ب . المصدر الذى سبق ذكره (نيلا ١٩٨٠) ملحوظة (٨) شكل (٨) .
- (٧٨) دودا د . المصدر سالف الذكر (١٩٧٠) الشكل (٢) .

- (٧٩) فرنانديث . أى . ، المصدر المذكور أنفأ (١٩٧٧) شكل (٢٠١) .
- (٨٠) أجوايو . خ . ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٣) صورة (٢) .
- (٨١) نابارو . خ . ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم (٦٦ ، ٤٩٣ و آخر) .
- (٨٢) باثانا . أ . ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) شكل (٢٥ ، ١٥ ، ٩) .
- (٨٣) بيلانكيث بوسكو . ر . ، المصدر المذكور أنفأ (١٩١٢) يبرز فنجائاً مشابهاً سالف الذكر ، (١٩٤٥) يعيد إنتاج فنجان به إضافة فى الشكل ٧ (٢٠) .
- (٨٤) انظر دودا . د . ، المصدر الذى تقدم ذكره (١٩٧٠) صورة (٢) التى تكون نموذجاً آخر لفنجان من عصر المرابطين - الموحيدين .
- (٨٥) بوثانا . م . ، (١٩٨٣) شكل (٨) .
- (٨٦) نابارو . خ . ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم (٢٤٧) .
- (٨٧) ثوثايا . خ . ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٨) ص (٢٧٧) .
- (٨٨) روسيو . ج . ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٨) ص (٦٦) و التاليات لها شكل (١٥) .
- (٨٩) يوبيا . ل . م . ، المصدر الذى سلف ذكره (١٩٧٣) شكل (٥١) - ص ٤٤ .
- (٩٠) دودا . د . ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٠) الشكل (٤ ، ٣) صورة ١٦ .
- (٩١) نابارو . خ . ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم (١ ، ٢ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣) .
- (٩٢) انظر على سبيل المثال الصورة رقم (٥٧ ، ٧٢) ، يوبيا (المصدر المذكور سلفاً) (١٩٧٣) .
- (٩٣) انظر كاستيخون مارتينيث دى أريثالا ، حفريات الخطة الوطنية لمدينة الزهراء (قرطبة) حملة ١٩٤٣ فى التقارير و المذكرات رقم ٨ المأمورية العامة للحفريات الأثرية ، مدريد ، ١٩٤٥ صورة ١٦ .
- (٩٤) روسيو . ج . ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٨) شكل (١٥) .
- (٩٥) انظر جوميث مورينو . م . ، المصدر المذكور أنفأ (١٩٥١) شكل (٣٧٧ / ٣٧٨) ١- انظر أيضاً بايون ب . ، المصدر المذكور سلفاً عام (١٩٧٢) شكل (١٨) .
- (٩٦) بوثانا . م . ، (١٩٨٦) المصدر سالف الذكر ، شكل (١١) .
- (٩٧) جولفين . ل . ، الخزف فى العصر الحموي (قلعة بنى حمود) الجزائر فى الخزف فى العصور الوسطى فى منطقة غرب البحر المتوسط العدد (٢٥) يالوين ١٩٧٨ ص ٢٠٣ و التاليات لها شكل (٤) .
- (٩٨) روسيو . ج . ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٨) ص ٧٢ و التاليات لها . انظر نمطه أ فى الشكل (١٧) .
- (٩٩) يوبيا . ل . م . ، المصدر الذى سلف ذكره (١٩٧٣) شكل (١١) - ص ٣٥ .

- (١٠٠) كامبوس . أى ، المصدر السابق ذكره . (١٩٤٥) ص (١٤٩) شكل (٣٨ ، ٧) .
- (١٠١) باثانا . أ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) شكل (١٣) .
- (١٠٢) بودا . د ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٠) ج ٢ ، ع ٤ ، ب .
- (١٠٣) روسيور أخرون ، المصدر الذى سبق ذكره ، (١٩٦٠) انظر أيضاً روسيو . ج ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٨) ص ٤٨ والتاليات لها ، الانماط شكل (١٠) .
- (١٠٤) انظر بيلانكيث . بوسكو . ر ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) صورة ٣٩ وانظر أيضاً ثوثايا . خ ، المصدر سالف الذكر (١٩٨١) ص (٤٢) .
- (١٠٥) بابون . ب ، المصدر الذى سبق ذكره (نيبلا ١٩٨٠) شكل (٨) .
- (١٠٦) أوتستورينا . ف ، المصدر المذكور أنفاً (١٩٥٣) ، شكل (٧٤) .
- (١٠٧) أنظر يوبيا . خ . م . ، المصدر الذى سلف ذكره (١٩٧٣) أشكال (٤٧ ، ٤٨) وأيضاً بويرتاس . ر ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٥) .
- (١٠٨) فرنانديث . أى ، المصدر المذكور أنفاً (١٩٧٧) أشكال (٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١) .
- (١٠٩) ميليدا . خ . ر ، المصدر المذكور سلفاً (١٩٢٦) صورة (٥) .
- (١١٠) انظر أجوانو . خ ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٣) .
- (١١١) نابارو . خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) ولنذكر استشهاده خاصاً للقنديل ذى الثقوب الثلاثة - رقم ٦٧١ من التصنيف - الذى عُثِرَ عليه فى محافظة مورثيا وهو يشابه قنديلنا .
- (١١٢) انظر روسيو . ج ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٨) .
- (١١٣) ميليدا . خ . ر ، المصدر المذكور سلفاً (١٩٢٦) صورة (٥) .
- (١١٤) بودا . د ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٠) صورة (٢٧ ، أ ، ب) .
- (١١٥) باثانا . أ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) شكل (٢٣) .
- (١١٦) انظر نابارو . خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) قطع واردة من مورثيا ولوركا رقم التصنيف (٢٥٣ / ٥٦٣ / ٢٥٧) .
- (١١٧) روسيو . ج . ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٨) شكل ٧٨ (١) .
- (١١٨) أجوانو . خ ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٣) .
- (١١٩) باثانا . أ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) شكل (٥٠) .
- (١٢٠) نابارو . خ ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) .

(١٢١) سنتقصر على الاستشهاد ببعض الدراسات الهامة التي أجريت في هذا الصدد وعلى أية حال فإن تصنيفاً نسطياً كاملاً وعلمياً حديثاً لا زال في حيز الإعداد . وسنذكر جوميث مورينو . م . المصدر المذكور سلفاً (١٩٢٤) وجونتايل مارتى . م . المصدر المتقدم ذكره (١٩٤٤) يوبيا . ل . م . المصدر الذى سبقت ذكره (١٩٧٣) روسيو . ج . المصدر سالف الذكر (١٩٧٨) ثوثايا . خ . المصدر سالف الذكر (١٩٨١) أجوادو . خ . المصدر السالف الذكر (١٩٨٣) باثانا . أ . المصدر السابق ذكره (١٩٧٩ - ١٩٨٠) .

(١٢٢) افتقار عام فى الخزف الإسباني الإسلامى حتى انتشار طرق وضع الأختام فى العصر الذى تلى الخلافة مباشرة .

(١٢٣) ظهرت فى مدينة الزُهرء عدة قطع أو أجزاء التى يظهر عليها هذا النمط من الزُخرفة البيضاء (دون طلاء زجاجي) على اللون القاتم للطين أو الفخار . والقطع التى أعاد إنتاجها جوميث مورينو . م . المصدر السالف الذكر (١٩٥١) ويوبيا . خ . م . المصدر الذى سلف ذكره (١٩٧٣) بابون . ب . المصدر الذى سبق ذكره (١٩٦٧) وصامويل دي لوس سانتوس ، المصدر سالف الذكر (١٩٤٧) تبرز زخرفة تملأ كل القطعة وهى زخرفة متعددة العناصر الزُخرفية - بما فى ذلك الموضوعات التى تشبه الحيوان - رسم درجات خمرة وقائمة على لون الطين الفاتح ليس أمراً شائعاً أو مألوفاً إبان عصر الخلافة ويجب الإنتظار حتى القرنين الحادى عشر والثانى عشر لمعرفة تعميمه وقمة إزدهاره ، مالفه ، بالمادى يوركا ، أليريا ومورثيا .

(١٢٤) العثور على خزف مطلى بالزجاج متجانسة اللون كان شائعاً فى المستودعات الإسبانية الإسلامية وجدير بالذكر أن هذا الموضوع قد دخل الأندلس فى أثناء الإمارة أو الخلافة القرطبية ولم تغادر صناعة الفخار أو الخزف شبه جزيرة أيبيريا . وهكذا ظهرت قطع مطلية بالزجاج فى ميساس دى بيا بيردى (أنظر ثوثايا . خ . المصدر سالف الذكر (١٩٨١) ص (٣٩) ، قرطبة ، أنظر يوبيا . خ . م . المصدر الذى سلف ذكره (١٩٧٣) شكل (٢٥) مدينة الزُهرء ، أنظر جوميث مورينو . م . المصدر المذكور سلفاً (١٩٥١) شكل (٣٧٦) . الكالا لابيخا (القلعة القديمة) أنظر بابون . ب . المصدر الذى سبق ذكره (١٩٨١) شكل (٣٩٨) . بيشينا ، أنظر أوتستورينا . ف . المصدر المذكور أنفاً (١٩٥٣) الشكلين (٦٨ ، ٦٩ إلخ ...) .

(١٢٥) ومن المحتمل أن تكون الزُخرفة باللون الأخضر والبني المقترنين بالطبقة الزجاجية العسلية اللون هى تقليد لهذا النوع من الخزاف على أرضية بيضاء التى تظهر فى القطع والنماذج عالية الجودة وعموماً فإنه من الصعب إيجاد تشابه لهذا النوع من البقع القائمة اللون أسفل الطبقة الزجاجية . لقد وجدنا شيئاً مماثلاً بين بقايا نيبلا (أنظر كاسامار المصدر المذكور سلفاً (١٩٥٨) ص (٤٠٦ - ٤٠٧) مدينة سالم (أنظر ميليدا . خ . ر . المصدر المذكور سلفاً (١٩٢٦) ص ١٦) سبته (أنظر فرنانديث . أى . ، المصدر المذكور أنفاً (١٩٧٧) شكل ٢) طليطة (أنظر أجوادو . خ . المصدر السالف الذكر (١٩٨٣) مورثيا (أنظر نابارو . خ . المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) فالينثيا (أنظر باثانا . أ . المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) .

(١٢٦) وأيضاً يتعذر علينا فى هذا الفصل إيجاد تشابهات أوجه شبه ربما لغيبية المطبوعات فى هذا الشأن أكثر من الافتقار إلى نموذج أو نمط حقيقى لهذه الزُخرفة بين الأوانى المنزلية يوبيا (المصدر المذكور أنفاً (١٩٧٣) شكل ٢٥) حيث يعيد إنتاج أنية قادمة من بوياسيرو بنفس البادئ أو العناصر الزُخرفية و أيضاً يوبيا (المصدر المذكور أنفاً (١٩٧٣) شكل ٧٣) حيث يُعزى إلى عصر الطوائف أنية أخرى مُزججة بزخرفة مُحززة أو ذات حوزز . والأجزاء المطلية بالزجاج بزخرفة إضافية ظهرت فى تالابيرا دى لاينا (أنظر بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٨٠) ص ٤٠٣) فى طليطة (أنظر بابون . ب . المصدر الذى سبق ذكره

(١٩٨١) شكل (٢) وقد عُرفَ ذلك عن طريق الختم وهو أمر مألوف جداً في الخزف الإسباني الإسلامي اعتباراً من القرنين الحادي عشر والثاني عشر .

(١٢٧) اعتبر مانويل جوميث مورينو المصدر البيزنطي المحتمل للتقنية الخزفية على أرضية بيضاء وأن عناصر هذه الزخرفة شرقية (انظر جوميث مورينو . م الحجر الذهبي دي مالقة في مجلة الأندلس (١٩٤٠) ص (٢٨٦) نفس هذا الأصل والطرز المرجح لدخول مثل هذا النوع منصوب عليه في كتاب خوان ثورييا (المصدر المذكور سلفاً ١٩٨١ ص ٣٨) لقد أصرّ يابون مالدوناو أيضاً على المنشأ الشرقي لمثل هذه العناصر التي تصاحب التقنية (انظر يابون . ب . ، المصدر الذي سبق ذكره (١٩٧٢) ص ١٩٥) .

(١٢٨) هذا وقد ظهر هذا النوع من الخزف في أماكن عديدة وسنستشهد بتلك النماذج في مدينة إلبيرا (انظر جوميث مورينو . م . ، المصدر المذكور سلفاً (١٩٨٥)) مدينة الزهراء (انظر بيلانكث . بوسكو . ر . ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) ، انظر أيضاً أسبى انظر المصدر المذكور آنفاً (١٩٥٠)) القلعة القديمة (كاسامار ١٩٥٨)

تالابيرا دي لارينا (انظر يابون . ب . ، المصدر الذي سبق ذكره (١٩٨١) طليطلة (انظر أجواو . خ . ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٣)) بيتسينا (انظر أوتشتورينا المصدر المذكور سلفاً ١٩٥٣) سبته (انظر فرنانديث سوتيلو المصدر المذكور آنفاً ١٩٧٧) مايوركا (انظر روسيو . ج . ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٨)) مالقة (انظر بويرتاس . ر . ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٥)) مورثيا (انظر نابارو . خ . ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) فالينثيا (انظر باثانا . أ . ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣)) .

(١٢٩) إنها معروفة جيداً خاصة تلك القطع التي خرجت من مصانع فخار باترنا

(١٣٠) وغيبة الزخرفة هذه على أرضية بيضاء يمكن البرهنة عليها أو من المرجح بين بقايا وآثار مدينة الزهراء وأنها متصلة بصفة خاصة بالقطع ذات الأحجام الصغيرة (انظر في هذا الصدد بيلانكث . بوسكو . ر . ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) ص ٧٧ صورة ٤٨ وانظر أيضاً كامبوس كاثورلا ، المصدر السابق ذكره (١٩٤٥) ص ١٥١ .

(١٣١) الباحث الوحيد الذي لاحظ استخدام اللون الأصفر في الزخرفة الخضراء / البنفسجية كان خوان ثوثويا (المصدر سالف الذكر ١٩٨١ ص ٣٩) ولا زالت هذه القطع الرائعة تحتاج إلى دراسة أكثر تكاملاً وأكثر منهجية وهي تنتسب إلى عصر الخلافة وكذلك تقنياتها الرائعة .

(١٣٢) كاسامار ، المصدر سالف الذكر (١٩٥٨) ص (٤٠٦ / ٤٠٧) .

(١٣٣) مارتايس . ج . ، القطع الخزفية بقلعة بنى حمود القرن الحادي عشر ١٩١٣ .

(١٣٤) أجواو . خ . ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٣) انظر الصورة رقم ١٢ أ .

(١٣٥) يوبيا (المصدر المذكور آنفاً (١٩٧٣) . يعيد إنتاج في الشكل ٨٥ قارورة من ألبيريا مطلية بالزجاج من زخرفة بشخب غامقة أو قاتمة ذات الأصل المائقي وهي الزجاجات التي درسها إيميليو فرنانديث سوتيلو (انظر المصدر سالف الذكر ١٩٧٧) الذي يوجد في متحف الآثار بسبته وهي مزخرفة بنفس الشكل ويعناصر زخرفية متشابهة . انظر أيضاً لفالينثيا كتالوج أو تصنيف باثانا (المصدر سالف الذكر ١٩٨٣) .

- (١٣٦) ثوثايا . خ ، المصدر سالف الذكر (١٩٨١) صورة رقم (٤٢) .
- (١٣٧) ثوثايا . خ ، المصدر سالف الذكر (١٩٨١) صورة رقم (٤٢) .
- (١٣٨) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) شكل (١٧) .
- (١٣٩) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (نييلا ١٩٨٠) شكل (٧٠٦) .
- (١٤٠) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) أشكال (٣ ، ١١ ، ١٧) . انظر بيلانكيث . بوسكو ر . ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) صورة (٤٢) .
- (١٤١) كاسامار ، المصدر سالف الذكر (١٩٥٨) شكل (٢) .
- (١٤٢) انظر باثانا . أ . ، (المصدر سالف الذكر ١٩٨٣) شكل (٣١) .
- (١٤٣) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) شكل (٨) .
- (١٤٤) جوميث مورينو . م . ، المصدر المذكور سلفاً (١٩٥١) ص (٣١٦) .
- (١٤٥) بيلانكيث . بوسكو ر . ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) صورة (٤٢) .
- (١٤٦) مير خيلينا . ب . ، المصدر المذكور آنفاً (١٩٢٧) صورة (٣٣) و ٣ (٢٤) ٣٠ .
- (١٤٧) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٦٧) صورة (١٦) .
- (١٤٨) مارتا يس . ج . ، المصدر المذكور آنفاً (١٩١٣) صورة ١٢ (١١) ، ٢٣ (٤) .
- (١٤٩) فى مدينة الزهراء انظر ثوثايا . خ ، المصدر سالف الذكر (١٩٨١) صور صفحة (٤٢) و التاليات لها . أيضاً انظر بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) و جوميث مورينو . م . ، المصدر المذكور سلفاً (١٩٥١) لصور متعددة نييلا انظر بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (نييلا ١٩٨٠) شكل (٧) ، لفالينثيا انظر باثانا . أ . ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) الشكلين (٢٦ ، ٢٧) .
- (١٥٠) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) شكل (٥) .
- (١٥١) موضوع مشابه وجدناه فى جزء من الأجزاء بمدينة سالم (انظر ميليدا خ . ر . ، المصدر المذكور سلفاً (١٩٢٦) صورة (٦) (٥) وكذلك فى فالينثيا (انظر باثانا . أ . ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) الشكل (٢٩) .
- (١٥٢) جوميث مورينو . م . ، المصدر سالف الذكر ، (١٩٥١) ص (٣١٧) .
- (١٥٣) ميرخيلينات . دى . ، المصدر المذكور آنفاً ، (١٩٢٧) شكل (٥٢) (٤) .
- (١٥٤) ميليدا خ . ل . ، المصدر سالف الذكر ١٩٢٦ ، صورة (٦) (٦) .
- (١٥٥) ظهرت فى ميساس دى أستا (انظر استيبى . م . ، المصدر المذكور آنفاً ١٩٥٠ ، صورة (٢٧) (٢) والقارورة رقم (٢٨) وكذلك فى طليطة (انظر أجوادو . خ . ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٣) صورة (١٤) (أ) فى مالة (انظر بوير تاس . ر . ، المصدر ١٩٨٥ صور ٢) وفى مورثيا (انظر نابارو . خ . ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم ٣٢٠ ، ٣٢١) .

- (١٥٦) فالينثيا (انظر باثانا أ. ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) الشكل (٣٠) .
- (١٥٧) انظر بابون . ب . ، المصدر الذي سبق ذكره (١٩٧٢) شكل (٥) وأيضا انظر بيلانكيث . بوسكو ر. ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) صورة (٤٠) والأشكال ٢١ ، ٤٤ ، وظهر الموضوع أيضا في خزف الميريا (انظر بودا د. ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٠) صورة (١٤) في قلعة بني حمود انظر مارثا يس ج. ، المصدر المذكور أنفاً (١٩١٣) صورة ١٦ (٢) .
- (١٥٨) أنظر بيلانكيث . بوسكو ر. ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) شكل (٢١) وأيضا بابون . ب . ، المصدر الذي سبق ذكره (١٩٧٢) صورة (١٢) .
- (١٥٩) انظر بيلانكيث . بوسكو ر. ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) صورة (٤٢) وأيضا بابون . ب . ، المصدر الذي سبق ذكره (١٩٧٢) شكل (٥٠ ، ٣) .
- (١٦٠) ميرخيلينات. دى . ، المصدر المذكور أنفاً ، (١٩٢٧) شكل (٢٣)(١) .
- (١٦١) أنظر أجوايو . خ. ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٣) صورة (١٤ ب) .
- (١٦٢) نابارو . خ. ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم ٣١٣ .
- (١٦٣) بويرتاس ، ر. ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٥) شكل (١٠) .
- (١٦٤) انظر باثانا أ. ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) الشكل (٣٢) .
- (١٦٥) انظر جوميث مورينو . م . ، المصدر المذكور سلفاً (١٩٥١) أشكال رقم (٢٧٧ / ٢٧٨ / ٢٧٩) . وأيضا بابون . ب . ، المصدر الذي سبق ذكره (١٩٧٢) شكل (١٥ ، ١٦) وصورة رقم ١٠ ، ١١ (١٦٦) .
- (١٦٦) لقد تعرفنا على هذا الموضوع في جزء نُشر بواسطة بابون مالدونا نو ب. ١٩٧٢ ، شكل ١٧ .
- (١٦٧) بابون مالدونا نو ب. ١٩٧٢ ، الفن الإسباني الإسلامي في زخرفته النباتية ، مدريد ١٩٨١ انظر الجدول ١ ، ٢ ، ٣ ، ص ٢١ والتاليات لها للربط بين الموضوع وعناصر الزخرفة المعمارية انظر بابون . ب . ، المصدر الذي سبق ذكره (١٩٧٢) صورة (١٢) وإيجواراس ايبانيث المصدر الذي تقدم ذكره (١٩٤٦) شكل (٧) .
- (١٦٨) للبحث عن أوجه شبه بين خزف مدينة الزهراء أنظر بابون . ب . ، المصدر الذي سبق ذكره (١٩٧٢) صورة (٩) شكل ١١ ، ١٤ ، ١٧ . وأيضا بيلانكيث . بوسكو ر. ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) صورة (١٢) ، شكل ٢٩ . وتوجد مظاهر التشابه هذه في خزف الميريا (أنظر بودا د. ، المصدر سالف الذكر (١٩٧٠) أشكال (٥ ، ٦) صورة ١ ، ٤ ، ٦) والقطع التي عُثِرَ عليها في سبته (سوتيلو إي . ، المصدر المذكور أنفاً (١٩٧٨) شكل ٦) في مايوركا (روسيو ج. ، المصدر سالف الذكر ١٩٧٨ الأشكال ٦٠ ، ٦٧ ، ٦٨) في فالينثيا (انظر باثانا أ. ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٣) الشكل (٢٢) وفي قلعة بني حمود (انظر مارثايس ج. ، (١٩١٣) صورة (١٦ ، ٢٢) .
- (١٦٩) مدينة الزهراء (انظر بابون . ب . ، المصدر الذي سبق ذكره (١٩٧٨) شكل (٩ ، ١١ ، ١٢)) انظر أيضا هذا الموضوع بين نماذج مايوركا (روسيو ج. ، المصدر سالف الذكر ١٩٧٨ الأشكال ٥٦ ، ٥٩ ، والوادة من قلعة بني حمود (انظر مارثايس ، المصدر الذي تقدم ذكره ، (١٩١٢) صورة ١٦ ، ٢٢) .

(١٧٠) انظر بابون . ب . ، المصدر الذي سبق ذكره (١٩٧٢) الجدول (٦) ص ٤٥ ، ٤٧ وقد ظهر نفس الموضوع في قلعة بنى حمود (انظر مارتايس ، المصدر الذي تقدم ذكره ، (١٩١٣) صورة ١٩) . كما وجدنا عناصر مشابهة بين قطع بوماسترو (انظر ميرخيلينات . دى . ، المصدر المذكور آنفاً ، (١٩٢٧) شكلى (٢٤ ، ٢٣) .

(١٧١) هذه العناصر المبسطة المكوّنة من خطوط متعرجة يخرج منها أفرع وأغصان صغيرة وأوراق صغيرة وقد وجدنا هذا النوع من الزخرفة شائعاً فى الزخرفة المعمارية وفى خزف عصر الخلافة .

(١٧٢) بيلانكيث . بوسكو . ر . ، المصدر سالف الذكر (١٩١٢) ، شكل (٤٥) .

(١٧٣) فى المؤلفات ذات الموضوع الواحد عن مدينة إلبيرا وكذلك الكتابات التى ظهرت فيها قطع من هذا المستودع حيث أعيد إنتاج الطبق أو الصينية المرسوم عليه حصاناً وكذلك شكل صائد الصقور أو القارورة الشهيرة التى عليها . أراب برية . وقد طُبِعَت الرسوم الأولى بواسطة مانويل جوميث مورينو (المصدر سالف الذكر ، ١٩٨٨) كما أن نجله قد أسهم بالصورة الأولى للجزء الخاص بالفن الإسلامى للزخرفة " مجلة لابور " . كامبوس كاثورلا (المصدر المذكور ١٩٤٢) خواكين إيجواراس (المصدر الذى تقدم ذكره ١٩٤٥) وكذلك مانويل جوميث مورينو نفسه (المصدر سالف الذكر ١٩٥١ و ل . م . يوبيا المصدر المتقدم ذكره ١٩٧٣ أعيد طبع بعض الرسومات أو الصور للقطع المذكورة .

(١٧٤) جوميث مورينو . م . ، المصدر المذكور سلفاً (١٩٥١) شكل (٢٧٤) .

(١٧٥) انظر بويرتاس . ر . المصدر السالف الذكر (١٩٨٥) شكل (٦) .

(١٧٦) بابون مالتونا نو . ، المصدر المذكور سلفاً (١٩٧٢) ص ٢١٥ والتاليات لها ، درس هذه الموضوعات التى ظهرت فى عمل أو مؤلف بيلانكيث بوسكو المصدر سالف الذكر ١٩١٢ . كاستيخون المصدر المتقدم ذكره ، ١٩٤٥ ، صامويل دى لوس سانتوس المصدر الذى ذكر آنفاً ١٩٤٨ ، كامبوس كاثورلا المصدر سالف الذكر ، جوميث مورينو المصدر سالف الذكر ١٩٥١ إلخ ،

(١٧٧) جمعها بابون مالتونا نو (العمل سالف الذكر ١٩٧٢ شكل ٢٥ ، ٢٦) وقد عُرِفَ بكونه كظباء صغيرة وإن كانت أجسادهم تشبه إلى حد كبير أرائيتنا البرية .

(١٧٨) جوميث مورينو . م . ، المصدر المذكور سلفاً (١٩٥١) شكل (٢٧٨) .

(١٧٩) روسيو . ج . ، المصدر المتقدم ذكره ، ١٩٧٨ شكل ٤٨ .

(١٨٠) لقد أعيد إنتاجه جيداً فى مؤلف ثوثايا . خ . المصدر سالف الذكر ١٩٨١ ص ٤٥ على سبيل

المثال .

(١٨١) انظر أجوانو . خ . ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٣) صورة (١٨) .

(١٨٢) انظر بويرتاس . ر . المصدر السالف الذكر (١٩٨٥) صورة (١) .

(١٨٣) باثانا . م . ، المصدر الذى تقدم ذكره (١٩٨٣) شكلى ٣٥ ، ٣٦ .

(١٨٤) انظر مارتايس ، المصدر المذكور آنفاً ١٩١٣ صورة ١٧ ، ١٨ .

(١٨٥) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٢) ص ٢١٥ و التاليات لها .

(١٨٦) انظر على سبيل المثال الصورة الكائنة بكتاب سكايزى المصدر المذكور أنفأ (١٩٦٦) .

(١٨٧) أفضل تركيبية عن موضوعات نفسية أو كتابية يقرطية تم تنفيذها بواسطة بابون مالدونادو (المصدر الذى تقدم ذكره ١٩٧٢ ص ١٩٦ و التاليات لها و أيضاً فى بلاكيت يوسكو المصدر المتقدم الذكر ١٩١٢ ص ٧٠ ، ٧١ صورة (٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٢) . كاستيخون ، المصدر السابق الذكر ١٩٤٥ صورة ١٧ جوميث مورينو المصدر السابق الذكر ١٩٥١ شكل ٣٨- فى مدينة الزهراء . ويتم التحقق من موضوع الملك (الإمبراطورية) دون أن يكون له مقابل فى مدينة إلبيرا . لقد وجدنا بعض أوجه الشبه بين بعض الأطباق أو الصواني فى كلا المستودعين التى يبرز فيها وجود حلقات عريضة مسطوحة بداخلها التى تجول بداخل هذه القطع ولنبداً بقطعنا أو بأجزائنا رقم (١٢٨١ ، ٢٣١٧) بالرسومات الكائنة فى شكل ٦ أو بالعمل المذكور أنفأ لباسيليو بابون .

(١٨٨) ظهرت أيضاً أجزاء لزخرفة نقشية أو كتابية فى مدينة سالم (أنظر ميليدا خ . ل . ، المصدر سالف الذكر ، ١٩٢٦ صورة ٦ ، ٧ ، ٨) و أوتشتورينا م . ، المصدر المذكور سلفاً ، ١٩٥٣ ص ٣٣١ ، مابوركا (روسير . ج . ، المصدر المتقدم ذكره ، ١٩٧٨ شكل ٤٢) ميساس دى أستا (أنظر استير جيريريو ، المصدر سابق الذكر ، ١٩٦٠) بيشينا (أنظر أجوانو . خ . ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٣) صورة (١٥) مورثيا (أنظر نابارو . خ . ، المصدر السابق ذكره (١٩٨٦) رقم ٣١٤ ، ٣٢٣) ، مالفقة (أنظر بويرتاس ، ر . ، المصدر السالف الذكر (١٩٨٥) صورة (٢) . فالينثيا (أنظر باتانا م . ، المصدر الذى تقدم ذكره (١٩٨٣) شكل ٣٣ ، ٣٤ و للخزف بشمال أفريقيا فى الموضوعات المتشابهة انظر مائيس ، المصدر المذكور أنفأ ١٩١٣ صورة ١٥ ولم يظهر فى أية حالة من الأحوال السابقة برنامج زخرفى معقد مثل تلك البرامج بعاصمة الخلافة .

(١٨٩) بابون مالدونادو ب . ، المصدر سالف الذكر ، صفحة ١٩٦ والتاليات لها . و نعتقد أن هذا التصنيف قد أعد بشكل متسرع ودون تنظيم على الرغم من المساعدة القيمة التى قدمها للدراسات اللاحقة له .

(١٩٠) روسير . ج . ، المصدر المتقدم ذكره ١٩٧٨ صفحة ١٠٠ والتاليات لها .

(١٩١) بابون . ب . ، المصدر الذى سبق ذكره (١٩٧٨) ص ١٩٦ والتاليات لها .

الفصل الثَّاني عشر

القصائد والحياة فى القرن الثالث وفماً للتَّمثيل الأيقونى الملابس وأطقم المجوهرات والتَّزين والتَّبرج

إعداد : جوثال ومينديث بيدال ، وكرمن بيرنيس

الأقمشة :

كان الغزل والنسج خلال القرن الثالث عشر الميلادى من الأعمال المنزلية ؛ فقد كان الغزل عملاً مقصوراً على النساء فقط ، وكان يتم بشكل فردى ^(١) أو فى جماعة، وبما أنه لا وجود للرجال فى المغازل فإنَّ القوانين كانت تسمح بشهادة النساء .

أمَّا النُّسيج حتى عندما كان يتم فى المنازل كان من الشَّائع تكليف رجال محترفين بعمله ، فالنُّسَّاجون الذين كانت لديهم ورش كان من الشَّائع أن يقوم العملاء بتقديم الخيوط إلى النُّسَّاجين ، وكان النُّسَّاجون ينسجون وفقاً للقوانين الفنية المنصوص عليها فى هذا الشَّأن ، وكان النُّسَّاجون يسلِّمون القماش مصبوغاً ومُلبِّداً ومُمَشَّطاً ومَقْصُوصاً ^(٢) ، وكان تشطيب القماش أو النُّسيج يتم فى طواحين خاصة بالأقمشة حيث كانت العجلات الهيدروليكية (المائية) تقوم بالعمل الذى كان يقوم به العبيد والموالى منذ القدم ^(٣) ، ولكن الملبدين وكذلك القصَّاصين كانوا خاضعين للنُّسَّاج الذى كان بدوره مسئولاً أمام صاحب القماش مسئولية تامة .

كان القماش لا يُسَلَّم فقط مصبوغاً ومُلبِّدُاً ومقصوصاً بل جافاً أيضاً كما جاء بالنصوص : لأن وزنه إلى جانب سقط الخياطة أو الحياكة والقصاصية يجب أن يكون مساوياً لوزن الخيط المُسَلَّم آنفاً ^(٤) ، وكان يُشترط ألا يتم استخدام مشطٍ من الحديد لتسريح أو لفرد وتمشيط الصوف ^(٥) .

ويتحدث التشريع أيضاً عن أقمشة تنسج في المنزل ^(٦) ويجب أن نضع في الاعتبار أن مثل هذه الأقمشة كانت بسيطة مثل الكتان أو القنب أو القطن إلخ ... ، حيث كان النَّسَّاج يأتى إلى المنزل ودائماً كانت لا تحتاج إلى معالجات إضافية أو لاحقة ، ولكن كانت مصانع النسيج كثيرة ومتعددة حتى إن التشريع تدخل لحماية الأهالي والجيران من ضوضاء النَّسَّاجين ^(٧) .

وفيما يبدو ويتضح مما تقدم أنَّ الغزل كان يتم بالمنازل وكان بعض نسج القطن أو الكتان أو القنب يتم أيضاً بالمنازل بينما كانت الأقمشة بأنواعها وأشكالها المختلفة كانت تُصنع وتلبَّد وتُقَص وتُمشط أو تُفرد في ورش خاصة ، ومن بين أقمشة الصوف الشائعة نجد " البيكوتى " وهو قماش خشن غليظ من وبر الماعز . وهناك أنواع أخرى من الأقمشة كانت تأخذ تسميتها من مكان تصنيعها ولكن في كثير من الأحيان هذه التسمية كانت تشير فقط إلى النوعية الفنية وهكذا كانت هناك الأقمشة المصنوعة في شيقويا نفسها ^(٨) ، أمَّا الرجال والسيدات الذين يرغبون في ارتداء الملابس الفاخرة كانوا يشترون أقمشة أخرى ، فيقال عن ماريا المصرية أنها لم ترتد قط ملابس صوفية إبَّان سنوات إنهماكها في الخلاعة والملاذات ^(٩) .

وبعد هذه المنوعات النسيجية الشائعة نصل إلى الفاخر منها غالية الثمن القادمة من الأراضي القاصية والتي يهتم بها جباة الضرائب .

فالأقمشة الصغيرة أو المصغرة التي تنتمي إلى القرن الثالث عشر توضح لنا أنَّ العمال والرعاة إلخ ... كانوا يرتدون الملابس غير المصبوغة ^(١٠) ، أمَّا التجار ورجال الدين والفرسان فكانوا يرتدون الملابس ذات الألوان المتنوعة وكان بعض هؤلاء إلى جانب الملوك يرتدون الملابس المزركشة بالذهب والفضة ، كما كانت بعض الملابس تُطرز ومنها على سبيل المثال : القمصان وكذلك وسادات السراير كانت مطرزة أيضاً ^(١١) ،

وكانت أقمشة الستائر فضمة ^(١٢) مزينة في أغلب الأحيان بزخارف وكتابات أو نقوش إسلامية ^(١٣) ، ويمكننا الحديث بنفس الصورة عن مفارش السراير المطرزة أيضاً والمزينة بالنقوش العربية ^(١٤) .

وجدير بالذكر أنَّ الملابس الملكية كانت مزركشة بصورة رائعة ^(١٥) ، أما الأقمشة الهائلة والرائعة فكانت تُخصص للمحراب ^(١٦) عليها صور حيوانات شرقية في حالة مواجهة بينها وكذلك رسوم ونقوشات عربية ^(١٧) ، وكان من الشائع أن تقدم مثل هذه الأقمشة الفاخرة كقربان أو عطايا أو هبات من جانب المتعبدين ^(١٨) .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن الأقمشة الفاخرة كانت مستوردة أو من غنائم الحرب ^(١٩) ؛ حيث إن أكبر مركز لتجارة الأقمشة في شبه الجزيرة الأيبيرية كان في أيدي المسلمين : فمن الميريا كانت ترد الأقمشة الجميلة مثل السقلاطون (نوع من القماش قديماً كان يستخدم للحلة أو الرداء) والستائر ^(٢٠) ، وكذلك الأقمشة المزخرفة بمربعات تشبه مستطيل الشطرنج ^(٢١) .

الخياطون :

إنَّ الحُلَّ والملايس كانت تُشترى جاهزة من السوق أو المولد ^(٢٢) ، أو كان يتم تكليف الخياطين بتفصيلها ^(٢٣) ، حيث كانت تُسلَّم إليهم الأقمشة أو الجلود والبطانات لإعداد الملابس المطلوبة منهم ^(٢٤) .

وكان على الخياطين إعداد الثياب أى تفصيلها ورد ما تبقى من القماش أو الجلود إلى أصحابها وكانوا مسئولين مسئولية كاملة إذا اتلفوا القماش أو الجلود أو حتى إذا كان الثوب المُفَصَّل غير مريح أو به عيب .

أمَّا التطريز وحتى حياكة بعض الملابس فقيما يبدو كان من اختصاص السيدات ، فموجز تاريخ طروادة كان يصور لنا هرقل وهو يحكي بطولاته وملاحمه أمام يولاتى بينما كانت هى تقوم بتطريز الثياب مع وصيفاتها ^(٢٥) ، وفى القصائد الرعائية نجد أن السيدات كن يقمن بقص أو حياكة بلوطريز القمصان ^(٢٦) .

الحلّة المسيحية :

إنّ النماذج المُصغرة لألفونسو العاشر تجاوزت الألف نموذج وتقدم لنا مادة فريدة للتعرف على الحلّة القشتالية فى القرن الثالث عشر ، وهى تشهد على تنوعها وأصالتها وتوضح لنا طريقة اللبس لمختلف الفئات التى كان يتألف منها المجتمع آنذاك ، كما أنها تجعلنا نتعرف بصورة عملية على كافة الملابس المستخدمة فى ذلك الوقت .

فى ذلك القرن كان لأوروبا زياً مشتركاً وخاصة فى غربها وقبل أن تظهر الحلّ القومية فى أوروبا بمائتى عام نجد أن قشتالة ألفونسو العاشر كان بها عدة أنواع وخواص عديدة ومتنوعة (وخاصة فى ملابس السيدات) لم توجد فى أية دولة أوروبية أخرى كيف يمكننا شرح هذه الملامح الأصلية ؟ بعضها كان استمراراً لموضات سابقة ترجع إلى القرن العاشر وبعضها الآخر كان يرجع إلى العالم الإسلامى ، ففتح الأندلس والإقامة الطويلة والممتدة فى أشبيلية قد تركا أثراً واضحاً فى المجتمع المسيحى وهناك البعض الذى كان من أصل قشتالى يرجع إلى القرن الثالث عشر .

فالفارق الإجتماعى بين الأفراد كان يتضح بطريقتين : إمّا لنوع أو لشكل الملابس أو لنوعية الأقمشة والألوان والزخارف المستخدمة فيها .

التّمييز الاجتماعى بسبب الألوان والأقمشة والجلود والزّركشات :

لقد كانت صناعة الأقمشة صناعة راقية كما أنّ استخدام الحلّ ذات الألوان الزاهية كان من أهم سبل التمييز ، وكانت قوانين الكساء قد حاولت دون جدوى تقليص استخدام الألوان ، ففي عام ١٢٢٨ و١٢٦٧ كانت الملابس البيضاء المشربة بالحمرة والخضراء مُحَرمة على رجال الدين ^(٢٧) . وفى عام ١٢٥٨ وافق بلاط الوليد على منع أى حامل للدرع أن يرتدى الملابس ذات اللون القرمزى ولا الأخضر ولا البنفسجى ولا البرتقالى ولا الوردى ولا الدموى ولا أى ثوب أو قماش مصبوغ ^(٢٨) ، وفى عام

١٢٣٨ حرّم بلاط ابورجوس استخدام القماش المصبوغ الأحمر في الثياب والعباءات على الرجال العاديين (العوام) (٢٩) ، وعلى العكس من ذلك تحتم على الفرسان الجدد ارتداء الملابس ذات الألوان الزاهية مثل البيضاء المشربة بحمرة والصفراء والخضراء والزرقاء الرصاصية لكي تضافى عليهم مزيداً من البهجة (٣٠) وتشهد قصيدة اليكساندرى على هذه الثياب ذات الألوان الزاهية :

وكان الناس طيبين والأسعار باهظة

وكانوا يرتدون جميعهم الثياب ذات الألوان الزاهية (٣١)

وقد كان اللون القرمزي يحظى بكبر تقدير نظراً لصعوبة صباغته ، ففي عام ١٢٣٤ أصدر خايمي الأول دي أراجون مرسوماً يحرم على أبناء الفوارس ارتداء الجوارب الطويلة أو السراويل الحمراء إلا إذا كان قائدًا لمجموعة من القوات (٣٢) ، وكان بلاط بلد الوليد قد حرّم في عام ١٢٥٨ الجوارب الطويلة أو السراويل القرمزية اللون على كل من الكتّاب أو الكتبة والقوّاسين والحُجّاب وصاندى الصقور والبوابين وحاملى الدروع وقد نص بلاط بلد الوليد على السماح للملك فقط بارتداء عباءة قرمزية اللون لوقايته من المطر (٣٣) .

وقد كان هناك تجديد في الموضة الأوروبية خلال القرن الثالث عشر سبقتها الموضة الإسبانية في عهد ألفونسو العاشر وهى الحُلّ من لونين مناصفة (حُلّ رجالي) (٣٤) وتشير إليها النصوص بأسماء الأقمشة أو الحُلّ (٣٥) ، وقد سمح بها ألفونسو العاشر عام ١٢٥٢ (٣٦) ، ولكنها كانت محرمة على رجال الدين فى عام ١٢٢٨ وفى ١٢٦٧ (٣٧) .

وبصفة عامة فإن استخدام الجلود لتبطين الملابس مثل جلود الخراف والأرانب البرية (٣٨) ، وفى الملابس الفاخرة كانت تستخدم جلود السمور والسنسار وتعلب الماء وسمور سيبيريا والفاقم (٣٩) ، وقد سمح بلاط أشبيلية فى عام ١٢٥٢ للنساء بارتداء فرو أو جلد سمور سيبيريا والفاقم فى الأجناب فقط أمّا جلود السمور فكان يسمح بها للعرسان فقط .

وقد كان للزركشات نور هام ، وجدير بالذكر أن ملابس الأثرياء كانت تتميز بوضع زركشة عند فتحة الثوب العليا (عند الرقبة) وكذلك عند الأكمام أما إذا كانت الحُل مفتوحة من الجانب فقد كانت تُزين الفتحات الجانبية ، وإلى هذا الحُل المزركشة بهذا الشكل يشير بيرثيو :

عند طرف النافورة كان هناك رجلان

وقد زركشت صدور حلتيهما والأكمام والرأس (٤٠)

وتشير النصوص إلى هذه الزخارف والزركشات طبقاً لخامتها من الذهب أو الفضة أو المادة المختلطة مثل ذهب يحتوى حديداً (٤١) ، صحيفة النحاس الأصفر (٤٢) ، أو الفضة المحتوية حديداً (٤٣) ، أو الحديد المحتوى فضة (٤٤) ، وقد كانت جميعها مُحرمة على كل الناس باستثناء الملك ولكن مصغراتها تؤكد أن هذا التحريم لم تكن له فاعلية .

كما أن الزراير كانت عنصراً هاماً للموضة الإسبانية في القرن الثالث عشر . وكانت توضع عموماً في الجزء الأمامي من الثياب والحُل ، وأحياناً في الجانبين ، وفي بعض الأحيان عند فتحات الأكمام (٤٥) .

ولم تغلح قوانين الملابس في وقف استخدام الزراير ولا الذهب ولا الجلود الفاخرة ولا الملابس أو الأقمشة المصبوغة ، وعلى الرغم من العقوبات المفروضة (في بلاط أشبيلية كان الخياط أو الخياطة يعاقب بقطع إبهام يده اليمنى إذا تمت إدانته) (٤٦) ، لقد أصبحت القوانين المناهضة للرفاهية بلا فاعلية في القرن الثالث عشر كما كانت بالفعل في كافة العصور السابقة .

حُلُّ الرِّجَال :

وتنقسم حُلُّ الرِّجَال إلى ستة أصناف أو درجات كما تدل على ذلك مصغراتها . ففي الصنف الأول تُدرج كافة الملابس الداخلية ، أما الصنف الثاني فكان يختص بالحُل التي تُكبس مباشرة فوق هذه الملابس الداخلية وقد أُطلق عليها في قشتالة اسم

سايأ أى الثوب الطويل وتُنورة فى مملكة أراجون ، أمأ الملابس المُدرجة فى الصنف الثالث فكانت تُرتدى فوق ملابس الصنف الثانى وكانت أطول منها وأى شخص كان يرتدى الصنفين كان يطلق عليه لقب " جيد الملبس " ومثال لذلك القصيدة ١٨٥ ، ويحكى النص عندما كان قاضى شينكوريا يخرج لملاقاة القاضى المسلم لبيلىث فإن رجاله كانوا لا يجسرون على مرافقته خوفاً من الخدعة ويحذرونه أنه كان مجرداً من السّلاح ، وقد دلت مصغرات هذه الملابس على أن القاضى المسيحى كان مرتدياً لحلة من الدرجة الثالثة فوق أخرى كان لا يرى منها سوى فتحة الأكمام . والاسم الوحيد الذى يمكن أن يكون له علاقة بهذه الحُل كما ورد فى النصوص هو " بيوتى " .

أمأ الصنف الرابع فكان يتكون من الحُل الطويلة ذات الأكمام الواسعة ، وكان استخدامها محدود بين المسيحيين وكما كانت ثياب الصنف الثانى تسمح بأن تُرتدى فوق حُل أخرى فإنها كانت تسمح أى الصنف الرابع بارتداء ملابس تحتها .

وجدير بالذكر أن الصفة العامة أو المشتركة التى تُميزُ بين ثياب الصنف الخامس والثالث أنها لم تكن ملابس تُرتدى على الجسد مباشرة ولكنها كانت ثياباً كالمعاطف . وهى كالصنف الثالث تسمح بارتداء حُلّة واحدة فقط أمأ الصنف الخامس فإنه يُسمح بارتدائه فوق حُلّتين ، وفى النصوص نجد اسمين يشيران إلى هذا الصنف " جارتتشو " بدلة القضاة والمحامين و" تابردو " وهى بدلة خدم الملوك .

وفى النهاية الصنف السادس وهو يتعلق بالمعاطف والعباءات والأغطية وهى تختلف عن القسم الخامس ؛ حيث إنها كانت تتكون من قطعة واحدة من القماش المقصوص على شكل مستطيل أو شبه دائرى أو دائرى بفتحات أو بدونها للرأس والذراعين وفى بعض الأحيان كانت تضم غطاءً للرأس ، وكان يُمثل جزءاً من العباءة ، ويندرج تحت هذا الصنف أيضاً المعطف المستدير .

وفى مصغرات هذه الأصناف تبدو هناك علاقة واضحة بين عدد من الأثواب التى يمكن أن يرتديها شخص ما وبين وسطه الاجتماعى ؛ فالملوك على سبيل المثال كانوا يرتدون جميع الأصناف الفخمة ، أمأ الفرسان فإنهم فى منازلهم يرتدون العباءة فوق اثنين وحتى فوق ثلاثة ثياب ، وفى مخطوط التّاريخ حيث يسهل التّعرف على الوضع

الاجتماعى للأشخاص أكثر مما فى مخطوطات ألفونسو العاشر حيث كان الناس يرتدون ثوباً واحداً فوق القميص من الطبقات الدنيا من الفنانين اليدويين (الحرفيين) والعمال والخدم وبعض حاملى السلاح .

وكثير من الثياب التى تميزت بها موضة ذلك القرن كانت ذات الاستخدام العام ، وكانت تختلف من أشخاص إلى آخرين طبقاً لفخامة القماش والزركشات ، وكان هناك مع ذلك بعض الثياب الخاصة لبعض الطبقات الاجتماعية المعينة ، فعلى سبيل المثال كان الملوك والأمراء والفرسان والرجال الأثرياء يرتدون بصفة عامة ثياباً مزركشة كما يتضح ذلك من مصغرات هذه الملابس ، وكان غطاء الرأس المميز هو الطويل على شكل أسطوانى ، وقد كان الوحيون الذين يشبهون الفرسان فى زيهم هم الرواة أو المداحون ، وعلى الطرف الآخر من الوسط الاجتماعى نجد أن العمال والفلاحين والرعاة كانوا يرتدون بطريقة خاصة تميزهم عن غيرهم من أبناء الطبقات الأخرى حيث كانوا يرتدون عبااء من الصنف السادس .

الهوامش

- (١) القصائد الرعائية ٦٨، ١٥٣، ٢٤٧ .
- (٢) قانون كوينكا طبعة رفائيل دي أورينيا ، مدريد ، ١٩٣٥ ، ص ٨٠٣ ، قانون ترويل طبعة ماكس جوردتش ، استكهولم ، ١٩٥٠ ، ٧٥٩ ، قانون زوريتا ، طبعة رفائيل دي أورينيا ، مدريد ، ١٩١١ ، ٨٢٢ .
- (٣) قانون ترويل ، ٢٥٣ .
- (٤) قانون كوينكا ، ص ٨٠٣ ، قانون هيزناتوراف ، طبعة رفائيل دي أورينيا ، ص ٧٨١ ، المنشور مع قانون لوينكا .
- (٥) قانون ترويل ، ٢٥٣ .
- (٦) قانون ترويل ، ٢٥٣ ، قانون هيزناتوراف ، ص ٧٨١ .
- (٧) قانون ترويل ، ٢٨٩ .
- (٨) قانون خيريث ، ١٢٦٨ ، وليون وقشتالة ، الجزء الأول ، مدريد ، ١٨٦١ ، ص ٦٦ .
- (٩) حياة القديسة ماريّا المصرية ، طبعة هـ . كنولت هايلي - ١٨٩٠ - ٢٣٥ .
- (١٠) القصيدة رقم ١ - ١٤٧ ، ١٧٨ ، ٢٨٩ .
- (١١) القصيدة رقم ١٧ - ٤٢ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٣١٢ .
- (١٢) القصيدة رقم ٦٧ - ٨٠ ، ٨٤ ، ١٣٥ ، ٣١٢ .
- (١٣) القصيدة رقم ٢٥ - هـ .
- (١٤) القصيدة رقم ١١٩ ف .
- (١٥) القصيدة رقم ١٠ ف ، ٣١ ث ، ٥٢ د ، ١٧٠ ف .
- (١٦) القصيدة رقم ١٦٣ أي ، ف ، ٢٧٨ ب .
- (١٧) القصيدة رقم ٦٩ أ .
- (١٨) القصيدة رقم ٩٧ أ .

- (١٩) القصيدة رقم ١٧٢ د .
- (٢٠) القصيدة رقم ٤٦ ث .
- (٢١) الحميرى (ابن عبد المنعم - كتاب الرثود ، طبعة ليفى بروفينسال - ليدين - ١٩٣٨ ، ص ٢٢٠ - ٢٢٣ .
- (٢٢) قانون كوينكا ، ص ٢٧٩ .
- (٢٣) قانون زوريتا ٨٢١ ، قانون تريول ٧٥٨ .
- (٢٤) قانون كوينكا ، ص ٨١٠ ، قانون زوريتا ، ٨٢١ .
- (٢٥) ليو مارتى " موجز لتاريخ طروادة " طبعة رى ، مدريد ١٩٣٢ ص ١٤٤ .
- (٢٦) القيدتان رقم ١١٧ بوا ١٤٨٥ ث .
- (٢٧) مجمع بلد الوليد لعام ١٢٢٨ فى إسبانيا المقدسة ، الجزء السادس والثلاثين ، مدريد ١٧٨٧ ص ٢١٩ ومجمع ليخيون (العسكرى) لعام ١٢٦٧ فى إسبانيا المقدسة ، الجزء السادس والثلاثين ، ص ٢٢٩ .
- (٢٨) بلاط بلد الوليد ١٢٥٨ وفى بلاط قشتالة وليون ، الجزء الأول ، مدريد ، ١٨٦١ - ص ٥٩٠ .
- (٢٩) بلاط بورجوس عام ١٢٣٨ ، وفى بلاط الممالك القديمة فى قشتالة وليون ، الجزء الأول - ص ٤٥٥ .
- (٣٠) الجزء الثانى ، القانون الخامس (ألفونسو العاشر الأجزاء الثمانية طبعة الاكاديمية الملكية للتاريخ ١٨٠٧) .
- (٣١) كتاب اليكساندرى - طبعة رايموندس ، ويليس خر برينسفتون - باريس ، ١٩٣٤ ، ١٢٢٨ (١٤٨٠) .
- (٣٢) مازكة إسبانية ٥١٢ ، مذكورة بواسطة كلونارد " خطبة تاريخية عن الحل الإسبانية " مذكرات أكاديمية التاريخ الملكية ، الجزء التاسع ، مدريد ١٨٧٩ ص ٩٦ .
- (٣٣) بلاط بلد الوليد ١٢٥٨ ص ٥٧ ، ٥٩ .
- (٣٤) أطقم ، ٦١ ر ، ٨٥ فى .
- (٣٥) فى القرن الثالث عشر كان اسم القماش يطلق على الأنسجة أو المنسوجات متنوعة الأصناف وكذلك على الملابس التى تم تفصيلها .
- (٣٦) بلاط أشبيلية عام ١٢٥٢ ص ١٢٥ .
- (٣٧) مجمع بلد الوليد ١٢٢٨ ص ٢٢٠ والمجمع العسكرى ١٢٦٧ ص ٢٢٩ .
- (٣٨) بلاط اشبيلية عام ١٢٥٢ ص ١٢٥ - ١٢٦ .
- (٣٩) أمر خايمى الأول عام ١٢٣٤ المذكور فى كلونارد ، خطبة تاريخية ص ٨٦ ، بلاط بلد الوليد ١٢٥٨ ، ص ٥٧ .

- (٤٠) بيرثيو " حياة القديس دومينجو دى سيلوس " طبعة قرأى ألفونسو أندريس ، مدريد ١٩٥٨ .
- (٤١) بلاط أشبيلية ١٢٢٥ ص ٦٨ ، الفونسو العاشر " تاريخ إسبانيا العام " طبعة رامون مينينديث بيدال ، مدريد ١٩٥٥ ، ٦٨٧ .
- (٤٢) بلاط بلد الوليد ١٢٥٨ ص ٥٧ .
- (٤٣) التاريخ العام ٦٨٧ .
- (٤٤) بلاط بلد الوليد ١٢٥٨ ص ٥٧ .
- (٤٥) لايبدايو ، الورقة ١ ، ١٦ ، الصفحة ١ القصيدة ٦٥ | .
- (٤٦) بلاط أشبيلية ١٢٥٢ ص ١٢٥ .

الفصل الثالث عشر

المياه وتعمير الحمراء بغرناطة

إعداد : أنطونيو مالبليكاكويو

تُمثِّل المياه الأهمية القصوى فى مدينة قصرية كالحمرء فى غرناطة ، واللغة الفنية التى تم التعبير بها أدت إلى إجراء فحص أثرى للمجموعة فى المقام الأول وذلك بتقسيم المكان إلى وحدات للتعرف عليها ليس دائماً على أساس وظيفتها أو مهمتها ، والدراسات الميدانية التى أجريت فى هذا المجال لم تتجاوز مضممار قصر الحمراء أو على أقصى تقدير المنطقة التى تربط بين قصرين من تلك القصور كما يقول (بيرموديث باريخا ، ١٩٧٣) . وفى العصور الأخيرة فقط بدأ يتبلور شرح أو تفسير أخذ فى الاعتبار الواقع الطبيعى للأرض حيث بدأ بالإشارة إلى أن المكان له مركز مدنى عامر بالحياة وفقاً لما يراه (بيرموديث لوبيث ، ١٩٨٧) . وإن كان المفهوم السائد يتعلق بآثر هام تم تقسيمه ، كما فهم أيضاً أنه خلال السنوات الأخيرة كان من الضروري إدراك ومعرفة النواحي الجمالية والرمزية التى انطوى عليها القصر أو مجموعة القصور وفقاً لما أرادته السلطة آنذاك وإيضاح ذلك فى مفهومه الشامل استناداً إلى ما يراه (بويرتا ، ١٩٨٧) .

واستناداً إلى النظرية السائدة حتى وقتنا الحاضر كان من العسير أن يتعدى مفهوم المياه كونها عنصراً منظماً وأساسياً للمكان ، أما طبيعته أو خاصيته الإنتاجية لم تظهر واضحة كما أن تقنيات توصيل المياه إلى المكان وتوزيعها بمختلف أرجائه

لم يتم الإفصاح عنها أو بمعنى أدق لم يتم التعرف عليها ، وتلاحظ المياه وكأنها أمر مصطنع في كل أنحاء الحمراء له دور جوهري في هندسته المعمارية الفذة ، ولكنه لم يُعرف شيء عن هذا العنصر الحيوي (المياه) سوى أنها قادمة من نهر الدارو بواسطة ناعورة الملك أو السلطان .

وقد كان محمد الأول أول عاهل من الأسرة النُصيرية الملكية هو الذي قام بتوصيل المياه من نهر الدارو إلى المدينة الجديدة التي كان قد شرع في إنشائها وتأسيسها ، ولم تدع النصوص مجالاً للشك في هذا الشأن ؛ ففي أحد هذه النصوص لمؤلف مجهول الهوية يُقرأ ما يلي : " صعد في هذا العام عبد الله بن الأحمر من مدينة غرناطة إلى المكان المُسمّى بالحمراء وقام بفحصه بتؤدة وروية ، وقد حدد أساسات القلعة ثم أولى بالهمة إلى من يقوم بالإشراف على تنفيذها ، ولم ينقض ذلك العام إلا وقد انتهى تشييد أسوارها ، وبعد ذلك قام بتوصيل المياه إليها من نهر الدارو ، وأقام ناعورة خاصة لهذا الغرض طبقاً لما أوردته (هويسى ، ١٩١٧ : ١٧٣) " .

وفي نص آخر لابن إداري في " بيان الموحدين " جاء فيه ما يلي : " انتقل عبد الله بن الأحمر من غرناطة إلى المكان الذي يطلق عليه اسم الحمراء حيث قام بفحصه كله وحدد أساسات القلعة ، وقد عين من يقوم بالإشراف على حفر هذه الأساسات ولم ينته ذلك العام إلا وقد ارتفعت التحصينات الدفاعية بالمنطقة ، وقد قام عبد الله بتوصيل المياه إلى القلعة من نهر الدارو حيث أنشأ خزاناً وحفر ساقية خاصة لهذا الغرض (هويسى ، ١٩٥٤ : ١٢٥) " .

وهناك نص ثالث ذكره ابن خلدون إلا أنه لم يصف شيئاً جديداً إلى النصين سالفى الذكر طبقاً لما أوردته (جاود فيردى - ديمومبينيس ، ١٨٩٨ : ٣١٩ ، ٣٢٢ - ٣٢٣) .

ومن هذه النصوص نخرج ببعض الاستنتاجات ، وتبرز على وجه الخصوص أن العاهل النُصري أراد تأسيس أو إقامة مدينة تضم العديد من القصور ، ولذلك فقد قام بإنشاء الأسوار حول موقعها ، وهي بالتالي منذ الوهلة الأولى مدينة دفاعية نظراً لاستحكاماتها وحصونها المنيعة ، كما أن الملك النُصري قام بنقل المياه من نهر الدارو

إلى المدينة التي شُيِّدَتْ بالثَّلِّ الأحمر وذلك من خلال خزان بالقرب من النهر الأمر الذى يخفف من فكرة كون المدينة دفاعية من الدرجة الأولى ، ويبدو أن الهدف الرئيسى للعامل النُصْرَى هو إنشاء مدينة حديثة فى كل شئ ، وهناك صورتان واضحتان تكمنان فى رغبة السلطة السياسية فى تأسيس مدن جديدة وذلك من خلال تحويل منطقة طبيعية إلى منطقة متحضرة عامرة بالحياة المستقرة .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن السلطة السياسية تُقيم المدن لكى تبرز هذه السلطة (أسبين ، ١٩٨٧) ، وإبان العصر الإسلامى الأوَّل كان التأسيس يتم بعيداً عن المراكز العمرانية الموجودة آنذاك ولكن اعتباراً من القرن الحادى عشر ساد الاتجاه بإنشاء هذه المدن الجديدة إلى جوار القديمة فى كل من الأندلس والمغرب ، كما يجب أن نبرز أيضاً أن عملية إقامة المدن تعنى تغيير أو تعديل الطبيعة وغزوها من جانب المدينة ، ولهذا السبب نفسه نجد أن المدن التى تأسست فى واقع الأمر تمثل المجموعة الجغرافية لمنطقة أكثر اتساعاً ، وذلك بتعايش العناصر العمرانية الراقية مع العناصر الطبيعية فى حالة أو وضع شبه وحشى أو متوحش .

وبالنسبة للحمراء فإن هذه المزايا والخصائص موجودة برُمُتها وبجلاء تام خاصة إذا فحصنا - وهذا هو مقصدنا - موضوع تزويدها بالمياه وكيفية استخدامه فى هذه المدينة القصرية ، وبهذا يمكننا أن نأخذ فكرة تامة لما نريد قوله أو لما نغنيه .

والمصادر المكتوبة وإن كانت غير مستمرة ويصعب التجانس والتنسيق بينها فيما يتعلق بقيمتها يمكن أن تكون نقطة بداية كما رأينا فى النصوص السالفة الذكر حول التأسيس الأوَّل لمدينة الحمراء ، وقد أوضحت لنا أن المكان لم يكن خالياً ولكن كانت له مهام واستخدامات تختلف عما سيكون عليه بعد ذلك فى عصر النُصْرِيِّين . وأوَّل إشغال للمكان وعلى وجه التَّحديد للثَّلِّ الأحمر تعلق بما فعله سوَّار بن حمون خلال القرن التاسع الميلادى حيث حصَّن العرب الحمراء ووادى أشمونتيشا وبسطا ولاكورا فى جيان ، وهذا النص الذى يشير إلى ذلك مأخوذ من الإحاطة ويقول ما يلى : لقد كان سوَّار بن حمون هو أوَّل من حصَّن مدينة الحمراء لعرب الفحص (ابن الخطيب ، ١٩٥٥ - ١٩٧٨ ، الجزء الرابع ، ص ٢٧٠) .

وفى أثناء التمرد الذى حدث فى ذلك التاريخ ضد الدولة الإسلامية المترامية الأطراف والتي تزايد نفوذها قام عربى من مدينة إلبيرا المجاورة المذكور سوار بتشيد بنية دفاعية وليست مدينة ، وكان هذا التحصين الدفاعى منطقى ؛ لأن المكان كان يقع فى أعلى مروج غرناطة (الفحص) وبالتالي يتمتع بإمكانية الإشراف والتحكم فى الأراضى المجاورة له وهو أفضل بكثير فى هذا الشأن من مدينة إلبيرا ، ويمكن إدراك أن الأشغال التي أقيمت كانت بكل بساطة تشيد حصن أو استحكام ، ومع ذلك فإن النص قد أخبرنا عن هذا الواقع ؛ حيث إنه حتى عصرنا الحاضر فإن العمليات والتحليلات الأثرية التي أجريت فى الحمراء وعلى الأقل التى علمنا بها لم تسمح بالتعرف على عناصر أخرى فى تواريخ سابقة على العالم النصرى .

وعموماً فمن الواضح أنه يجب أن يتركز الحصن الدفاعى فى الجزء القريب جداً؛ حيث توجد القلعة . وقد وُجد هذا الحصن فى القرن الحادى عشر الميلادى استناداً إلى ما جاء فى نص آخر يرجع إلى هذا التاريخ ، وهناك إشارات متنوعة حيث يُقرأ فى إحداها " لقد كانت الهوة تتسع بين اليهودى وبقية الشعب ولقد كان الاضطراب فى تزايد مستمر ، وبعد أن تملك الخوف اليهودى بالمنطقة انتقل بسرعة إلى القلعة انتظاراً لتنفيذ مشروعاته ولكن الناس استاعت من ذلك ومن الذى شيد قلعة الحمراء أيضاً حيث اعتاد اليهودى أن يتحصن هناك هو وأسرتة وخاصة عندما دخل المدينة ابن صمادح وذلك حتى تستقر الأمور وتهدأ الأحوال ويعود الأمن والأمان (ليفى بروفينسال وايميليو جارتيا جوميث ، ١٩٨٠ ، ١٣١ - ١٣٢) . وفى إشارة أخرى تقول : عندما أمرت بتشيد السور المجاور للحمراء نظراً للأحداث البارزة أسعدنا الحظ عندما عثر البناؤون على إناء من الفخار مملوء بالذهب وهم يحفرون الأساسات ، وقد تم إبلاغى بهذا النبأ فوجدت فى الإناء ثلاثة آلاف مثقال جعفرى الأمر الذى زادنى غبطة وسروراً وملاً قلبى فرحة وكان بمثابة فال حسن مكنى من تنفيذ مشروعاتى (هكذا سخر العالم منّا كما سخر من أجدادنا وأسلافنا من قبل) . وقلت فى نفسى : " لقد خرج من حفر الأساسات ما يعين على التشييد والبناء " ، وبما أن بيت اليهودى كان قد أقيم فى زمن سالف فوق هذه الأساسات ، والذى كان يدعى أبو ربيع أمين خزانة

جدي (رحمة الله) فقد أدركت أن هذه الثروة كان قد دفنها اليهودي (ليفي بروفينسال وجارثيا جوميث ١٩٨٠ ، ١٢٩ - ١٣٠) .

ومن البديهي أن يقال شيئان : أولهما : إن الحمراء ستكون قلعة حيث لن تتوقف أعمال التشييد والبناء والتحسينات طوال العهد الزيري طوال القرن الحادي عشر الميلادي . وثانيهما : يتعلق ببناء قصر للوزير اليهودي المدعو ابن نجريلة . ولكن ليس من السهل توثيق أي من الأمرين . وفيما يخص الأمر الأول يتوافر لدينا الكثير من العناصر القائمة على أساس التحليل المعماري من وجهة نظر تاريخ الفن أكثر من الوجهة الأثرية (مانويل جوميث مورينو ، ١٩٦٦ ، بابون مالدوناو ، ١٩٧١) وبالطبع دون إجراء فحص مكاني للمجموعة الصغيرة للقلعة ومنطقياً دون القيام بتوصيف أو ترصيف طبقات الأسوار أو الجدران ؛ حيث إن هذه التقنية حديثة للغاية .

ولا توجد حتى هذا التاريخ بنية مائية واضحة لهذه المنطقة الواسعة المكثفة ، ويبدو فقط أن ثمة نظام خاص للتشيد له أهمية ما . إنه الجب الكبير الموجود داخل الحمراء والذي لا يزال يغذي القلعة بالماء وعلى الرغم من أنه خلال وقت ما في عصر النُصرين كان الجب يملأ بواسطة الساقية الملكية كما سنرى ذلك في وقت لاحق وهو النقطة الأخيرة في مجمع يصعب الحفاظ على تغذيته يومياً بالمياه خاصة لكثرة عدد سكانه في ذلك الوقت .

وعلى الرغم من التعديلات التي أدخلت على الجب في العصر الحديث إلا أنه لا يزال يفهم من تشييده أنه شُيّد في وقت سابق يواظم وقت بناء القلعة نفسها . والجب عبارة عن قسمين كبيرين يفصلهما أعمدة عرضية وبه مناوَر وتوصيلات أو قنوات للمياه يجري فيها الماء حتى الحمام المجاور أو القريب ، كما أن قرب الجب من برج الأسلحة الذي كان بمثابة باب أو بوابة يؤدي إلى القلعة العسكرية وإلى مدينة الحمراء في العصر النُصري يطرح علينا مشكلة مهمة جداً ، والباب المذكور أنفاً أدى إلى تغيير البنية الموجودة سابقاً ؛ وذلك لأن المعروف أن المدخل الرئيسي أو الأول كان عند الباب الكائن بالقرب من الجزء الأسفل لبرج الشمعة ، وعلاوة على ذلك توجد آثار من خط السور الذي كان موجوداً بهذا المكان للنزول إلى نهر الدَّارُ ، وهذا هو الوصف الذي

قدمه لنا بيرموديث (بيرموديث باريوخان ، ١٩٦٦ : ١٤٠) من خلال الكلمات التالية :
 " يمكن الإشارة إلى هذه الأجزاء من خلال قطع السور من الخرسانة الرمادية القوية
 مثلما كان عليه حال الخرسانات إبَّان القرن الحادى عشر الميلادى ، وتوجد حتى الآن
 هذه القطع متباعدة بعضها عن البعض الآخر وجميعها من مادة تختلف عن التراب
 الأحمر الذى بُنى به جزء من السور الذى تم استعادته ، الأمر الذى كان يتميز به
 الأسوار فى عصر النُصرين " .

ويبدو أنه لا يوجد شك بشأن استخدام هذا السور ؛ حيث كان يستخدم للحصول
 على المياه من نهر الدَّارُو ؛ ولهذا فقد اسْتُخْدِمَتْ فى نقطة قريبة منه بنية معقدة
 للغاية ، ويتعلق الأمر بما يُسمَّى بشكل خاطئ بجسر القاضى ؛ لأن توريس بالباس
 حذر من إمكانية استخدامه عنصراً للرقابة والتحكم فى منسوب مياه النهر " ففى
 الأرض الطينية يمكننا الشك بأن قناطر أو أهوسة كانت تستخدم لتهدئة تيار المياه
 بالنهر المذكور وهذا ما يفسره وجود أرصفة أو سدود قوية ومرتفعة من الملاط أو المونة
 فضلاً عن وجود مياه فوق الباب . ويمكن أن تصور أيضاً بُغية خدمة عملية التعمير
 أو العمران وكذلك لخدمة الظروف الصحية السيئة فى ذلك الوقت أنه كان يتم
 نزع أو رفع الأهوسة أو القناطر لتنظيف وتطهير مجرى النهر عند مروره بالمدينة ،
 (توريس بالباس ، ١٩٤٩ : ٤٢٤) ، وقد أشار مانويل جوميث مورينو أيضاً وبشكل
 واضح " أنه أسفل الشبكات وبين الفتحات أو الثقوب الكائنة بهذه الشبابيك كان يوجد
 باب له عتبة علوية كان يتم النزول إليه عبر سُلَّمَيْن متجاورين من أعلى البرج وهذا يؤكد
 استخدامه فى استخراج المياه باليد لتغذية الحمراء به حيث لم يوجد تيار مائى حتى
 القرن الثالث عشر الميلادى (جوميث مورينو ، ١٩٥١ : ٢٦٢) .

ومع ذلك فإن مثل هذه التأكيدات قد أدلوا بها دون معرفتهم لنص الزهرى مؤلف
 من القرن الثانى عشر الميلادى الذى يصف لنا الأهوسة أو القناطر التى كانت موجودة
 هناك لتهدئة تيار مياه النهر والذى جاء فيه ما يلى : " ونهر الدَّارُو هذا يدخل غرناطة
 من الشَّمال ويجتازها من الجنوب من بين القلعتين بجوار قنطرة محصنة مرتفعة البناء
 وقد علق فى هذا الهويس أو القنطرة مصراعان مصفحان لهما صفيحتان من الحديد

وقد تم تشييد أسوار من القلعة الصغرى إلى القلعة الكبرى ، وفى القنطرة المذكورة فتح بابان صغيران للتزود بالمياه فى زمن الحرب (وهذه القنطرة أو الهويس لا نظير لها فى كافة أرجاء الأندلس) (وفقاً لما أورده برامون ١٩٩١ : ١٧٠) .

ومن البديهي أن التأكيدات التى أوردها سلفاً توضح التقارب بين البنية المعروفة على الصعيد الشعبى بجسر القاضى وإن كانت فى الواقع تُسمى بباب الضفاف أو باب القناطر أو الأهوسة كما أن السور الذى ينزل من الحمراء وينضم إلى القلعة ، كان الهدف منه تغذية المدينة بالمياه ، ومجرد وصف ذلك يسمح لنا بالتعمق فى الفكرة ، فقد كان هناك قوس كبير من الحديد ولكن لم يبق منه سوى الجزء الأيسر ، وهو مصنوع أو مُشيد من الحجر الرملى ، وكان يستند على برج سداسى الشكل ، ويدخله سُلّمان متشابهان كانا يهبطان إلى باب مُسطح يسمح بالوصول إلى الماء الراكد خلف القناطر أو الأهوسة ، كما يرى ذلك من الفتحات أو الثقوب الذى كان مثبتاً فيها ، وكان أحد السُلّمان يستخدم للنزول لأخذ الماء من مجرى النهر والآخر للصعود به وذلك فى قَرَب لتزويد الحمراء بالمياه .

والطريقة يصفها باسيليو بابون (بابون ١٩٨٦) : إن باب الضفاف كانت له مهام معقدة . كان باباً يمنع المرور بنهر الدارو ، كما أنه كان بمثابة جراب يسمح بأخذ المياه من النهر لتغذية القلعتين الزيريتين القديمة ، والجديدة ، ومع ذلك يساوره الشك حول وجود خشبتين كبيرتين لتهدئة تيار المياه بالنهر كما يقول توريس بالباس (توريس بالباس ، ١٩٤٩) ، وكما اتضح ذلك من نص الزهرى المذكور آنفاً .

وهذا هو النظام الأول الذى استخدم فى الحمراء للحصول على المياه ويوضح لنا أنها كانت دفاعية فقط ؛ لأنه كان يستحيل بمثل هذه الطريقة التى ذكرناها تغذية شعب كثير التعداد أو إنشاء مزيد من المباني هناك .

وجدير بالذكر أن قرار تشييد المدينة القصرية (الحمراء) أى بشكل واضح إلى تغيير البيئة التى أُقيمت عليها ، فالتل الأحمر عبارة عن منطقة مرتفعة تكونت من تجمعات صخرية فى العصر الجيولوجى الرابع الذى لا يسمح عادة بوجود طبقات من المياه الجوفية ، وكان من المحتم الحصول على المياه من نهر الدارو الذى

كان يغذى مدينة غرناطة ، وقد كان يصل إليها بواسطة ناعورة أو ساقية تُسمى لوس أعشاريس من الجانب الأيمن ولكنها فى نقطة ما عند عبورها للنهر كانت تنقسم لتُكوّن الجانب الأيسر المسماة باسم الرُميلة ، ووجود ساقية أو ناعورة ثالثة وإن كانت لتشييد مدينة السلطان أدى هذا إلى السماح لوصول الماء إلى الجزء العلوى بقل الحمراء والهبوط منه للانضمام إلى المياه القادمة من الساقية الكبيرة ، وخالصة الأمر أن الضفة اليمنى لنهر الدارو فى اتجاه حينيل كانت مخصصة للضيقات ، والبساتين أكثر منها لتشييد المساكن .

وبهذا الشكل نجد أن عهد السلطة السياسية الجديدة يتضح اعتباراً من إنشاء بنية معمارية وعمرانية وسط بيئة عدائية متوحشة ، إلا أنه بعد التشييد تغيرت هذه البيئة ، وأصبحت ملائمة لحياة الإنسان ، ولهذا كله فمن الضرورى فهم النظام الهيدرولىكى (المائى) الذى أقيم فى الحمراء كنقطة انطلاق لمرحلة جديدة ستعنى التحول من قلعة دفاعية إلى مدينة قصور ، وفى النهاية إلى مدينة ، الأمر الذى يعنى مزيداً من التعقيدات فى شغل المساحة وتنظيم أرضها ، فمن ناحية كان يجب مراعاة عدة أمور عند تأسيس المدينة الجديدة وتخصيص مساحات وفقاً للمهام والاستخدامات المنوطة بكل منها على حدة وارتباط هذه المساحات ببعضها البعض الآخر ومن ناحية أخرى مراعاة علاقة المدينة الجديدة بمدينة غرناطة ، وقد ظهر بوضوح فى كليهما أن المشكلة الرئيسية هى المياه ، فالحمراء محدود امتدادها ومساحتها حيث لا يمكن أن تتسع صوب غرناطة وإن كان هذا الاتساع مهماً ومع ذلك فإن إنشاء هذا يعنى قريبا وتجاورها المباشر لمدينة غرناطة ؛ ولهذا فإن أى اتساع كان سيؤثر على غرناطة والعكس صحيح ، وهذا يعنى أنه بالرغم من كون الحمراء مدينة السلطان ، فإنه لا يمكن نسيان أن إنشاءها تم فوق جزء من مدينة غرناطة القديمة .

والشهادات الأثرية لم تدع مجالاً للشك بشأن استخدام وتشغيل بنية النظام الهيدرولىكى (المائى) بالحمراء وإن كان قد عانى من التعديلات والتغييرات ، ولكن لحسن الحظ يمكن توثيق ذلك فى مجمله العملى ، ففى بعض الأماكن ، ويعد إهمال الساقية الملكية عقب إنشاء مجمع أو مستودع للماء فقدت هذه الناعورة وتلفت ، ولكن

ليس من الصعب إعادة رسم تصميمها كما فعلنا ذلك فى موضع آخر (مالبيكا ، ١٩٩١) ؛ فالملاح الكبيرة التى يُحْتَمَّها ما نحن بصددہ يمكننا القول بأن جانباً من خزان مركب خيسوس دى باير موجود بمجرى نهر الدارو ، والسد الموجود حالياً هو عمل حديث من الخرسانة بينما كان القديم مصنوع من الطين والخشب وكان يتم إصلاحه سنوياً فى الوقت الملائم ، وكان يسكب مياهه فى قناة مفتوحة على الجانب الأيمن للنهر ، وبعد أن يغذى الطاحونة المُسمَّاة بطاحونة موكب مسيح الوادى فإن القناة تنتقل إلى الجانب الأيسر لنهر الدارو لى تغذى المياه الساقية الكائنة فى أحد جوانب التل الأحمر متبعة انحدار يقدر تقريباً ٣ فى الألف وفقاً للتقديرات الأولية التى تم إعدادها ، وأمام المُسمَّاة كارمن ديل بارتيدور يُلاحظ وجود موزع ثنائى للمياه بعد أن كان هناك مجرى واحد فقط ، جزء علوى حتى يصل إلى المنطقة المعروفة باسم لوس البير كوسويستمر فى طريقه بهذا الشكل أمَّا الجزء السفلى فإنه يقطع معظم مسافته ماراً بأنفاق محفورة فى الصخور وبالتالي فهو محمى تماماً يدخل الحمراء من المناطق المجاورة لجنة العريف حتى يصل إلى بهوها الفسيح بهو الساقية أو الناعورة ، وكل هذا يشير إلى أن المزرعة الملكية الشهيرة لها صلة وشيجة ومباشرة بعملية جلب المياه إلى مجمع الحمراء ، ولهذا فإن تنظيمها المكانى وفقاً لـ (بيرموديث باريجا ١٩٦٥) يدل على أن المياه هى العنصر الرئيسى والخط الفاصل وكانت منطقة زراعية تنحصر فى ثلاثة بساتين وهى بستان لاكلوراد فى الجزء الأسفل من جنة العريف والبستان الكبير وبستان لافوينتى بينيا ؛ ولهذا فإن الحياة الزراعية كانت منتظمة أسفل الأبنية السكنية وذلك بالاستفادة من الأراضى التى كان يمكن ربيها ، وبهذا أمكن وجود ضيعة زراعية لها مواصفات العادات والتقاليد الريفية داخل منطقة معمارية من القصور ، وهذا ما حدث أيضاً فى مدينة الزهراء حيث توجد كثير من الضيعات والمزارع حول مدينة الخلافة ذات نظم رى خاصة .

ولكن السَّاقية تمتد مهمتها بشكل منطقى لى تقوم بمهمتها الأساسية التى تكمن فى تغذية الحمراء بالماء وكان الماء يدخل إلى الحمراء بما يُسمَّى برج المياه ثم يتوزع على جانبيه ، وكانت هناك بساتين داخل الحمراء وكذلك عدد من الحدائق ، هذا فضلاً عن العناصر الخاصة بالحياة المدنية التى تحتاج فى تغذيتها إلى المياه وخاصة

الحمامات وكذلك الغدران والبرك والنوافير التى تزين المباني هذا علاوة على ورش الصناعات اليدوية (مثل الفخّارات والمدابغ إلخ ...) .

وقد قيل أنفأ إن هذه البنية التى تتكرر بدرجة أقل من مختلف مكونات المدن الإسلامية وقد حدث هذا فى مدينة غرناطة ، حيث كان الجزء العمرانى فى المنطقة السفلى بينما ظلّ العالم الطبيعى فى الجزء العلوى ، أما امتدادها واتساعها فقد كانا حتميين ، لأن الأسرة المالكة استمرت فى الحكم طوال عصر المملكة ، وبالتالي لم يكن من الممكن حدوث تقسيمات ، وقد كان التوسع يتم صوب الجزء العلوى للمجموعة الأولى بقصر الحمراء ، وإذا تتبعنا خط الناعورة أو الساقية الملكية فإننا نلاحظ ما ذكرناه بوضوح ، وكما قيل من قبل تمّ تنظيم وتنسيق جنة العريف وكذلك المجموعة الأولى من قصور الحمراء لخدمة هذه المدينة الجميلة التى شيدت على السفح الأحمر .

وجدير بالذكر أن النمو العمرانى أدى إلى تقليص المساحات الزراعية داخل المنطقة المحاطة بالأسوار بالحمراء وذلك لصالح المدينة . لقد كان النمو ضرورياً ، ولكنه لم يتم إلا فى الجزء السفلى . وقد وضعتنا أعمال الحفريات التى تمت بالمنطقة المُسمّاة بلوس البير كونيس (مالبيكا ، ١٩٩١) على مسرح الواقع بها وإن كان قد عُرف أنّ المنطقة العليا بالحمراء كانت مستوطنة فى وقت سابق (توريس بالباس ١٩٤٨) ، وهذا المجمع الهيدرولىكى (المائى) كائن بأعلى جنة العريف بينها وبين قلعة سانتا إيلينا (القديسة إيلينا) وهى بنية دُرست بشكل خاطئ حتى الآن ، ولكنها ربما كانت لها مهمة الدفاع عن الجزء المرتفع بالحمراء . ويحدّد ذلك انطلاقاً من عنصرين أساسيين وإن كان النظام معقد فى مجمله ، فمنطقة بركة السيدات والبرج كانت نواصيهما مشطوفة ، فالمنطقة الأولى كانت عبارة عن بركة كبيرة للمياه ومقاسها كالآتى : من الجانب الغربى = ١٩,٣٠ متراً والجانب الشرقى = ١٩,٥٠ متراً والجانب الجنوبي = ١٤,٢٠ متراً والجانب الشمالى = ١٤,٢٥ متراً وبجوار البركة الكبيرة ويتغير حركة المياه توجد بركة أخرى فى اتجاه الجنوب قام بتشييدها توريس بالباس ، ولذلك فمن المنطقى أن يهيئ البركة القديمة لكى تنساب المياه منها إلى البركة الجديدة ، وأسفل البركة الجديدة قام برييتو مورينو ببناء بركة أخرى لكى يتمكن من الحصول على مزيد من المياه للحمراء .

و هو مستودع كبير للماء مساحته الأفقية ٢٨١,٣ متراً مربعاً ومتوسط عمقه ١,٣٩ متراً وحجم أقصى يبلغ يبلغ ٤٠١,٣ متراً مكعباً ويستخدم لتخزين المياه لاستخدامها بالتأكيد فى رى المساحات الزراعية .

وقد كانت لبركة السيدات خاصية أخرى إلى جانب استخدامها فى رى الأراضي الزراعية ألا وهى أثريتها ، وعلى الرغم من معرفتنا لبنيات مشابهة فإنها فقدت خاصيتها الأثرية الأمر يلحظ بوضوح فى بركة السيدات ؛ فهى محاطة بأرصفة من الأحجار المرصوفة بجوار بعضها مكونة سنبلة ، وفى الجانب الغربى نجد حوضاً لسكب المياه متوسط عمقه ١٧ سم كان يملأ كما نتصور بواسطة قناة قادمة من البرج المذكور آنفاً ، و جدير بالذكر أن مجمع البرك كان محاطاً بأسوار قوية ومتينة ، بناء من الحجر غير المصقول (الدبش) يحتوى على عناصر زخرفية . إنها عبارة عن ثلاثة أسوار ارتفاعها العلوى يبلغ ٢٠ متراً وفى الأسوار الكائنة بالشمال والجنوب يتم التنبيه على أنها تنساب بانحدار لتفادى الخلل الموجود وتستخدم كأرصفة للوصول إلى القمة أو المنصة . ويتم التنبيه على أن الطرف الجنوبى كان يستخدم لتفريغ المياه ، بينما الجزء الشمالى كان يستخدم فقط لرفعها إلى أعلى ، وهى بلا شك طريقة للحماية إذا وضعنا فى الاعتبار المنحنى الكبير الموجود بالفعل فإن البركة الكبيرة كائنة فى جزء بارز من الأرض ، أمّا السور أو الجدار الشرقى ؛ فهو أهم الجدران أو الأسوار قاطبة وبالقرب من اتصاله بالجدار أو السور الجنوبى يوجد مدخل مكون من قوس يودى إلى بعض السلالم من الطوب اللبن تتكون من ست عشرة درجة سلّم وتُشكل زاوية قائمة للصعود إلى الشرفة ، ويخلو السلم من الحاجز حالياً وإن كانت هناك آثار واضحة تدلّ على وجوده فى الماضى وتعتبر الشرفة كمقرب يطل على البركة الكبيرة .

وإنشاء هذه الجدران أو الأسوار بالشكل الذى هى عليه حيث تبرز الشرفة العلوية مما يوضح لنا بجلاء أننا أمام مكان أعد للاستراحة ، كما أن قربها من جنة العريف ووجودها فى منتصف الطريق بين هذا القصر والقصور الملكية الأخرى الكائنة بأعلى منطقة بالتل أو الجبل يؤكد لنا هذا الأمر ، وإذا أضفنا إلى هذا وذاك وقوعها بين منطقة مروية كثيرة الخضرة المزروعة يمكن التفكير فى أن هذه المنطقة كانت تستخدم

للتنزه والاستراحة وفي نفس الوقت للإنتاج ، وتبرز ذلك تحليلات البساتين الموجودة بكل جلاء ووضوح .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن البركة الكبيرة على الرغم من استخدامها للرّى فإنها كانت تستخدم لأغراض أخرى ، ولكن عصب كل هذه الأغراض كان الماء دائماً ، ونعرف جيداً أن الماء في النهاية كان يأتي من الفرع العلوى أو من ساقية التريثو ، كما أن وجود درج كبير قريب ووجود قناة صغيرة تخرج منه صوب هذه البركة الكبيرة أمر أساسى وجوهري لفهم المشكلة ، والوصف الخاص لهذا العنصر يلقي بمزيد من الأضواء على هذا الأمر .

إن الذى أسميناه البرج الكبير لم يكن برجاً القطع ، ويوجد فى الجزء الشمالى الغربى للمجموعة ، والتطهير الذى تم فى هذه البنية أوضح أنه عبارة عن منصة متعددة الزوايا المشطوفة فى جانبها الغربى وكان بداخلها بئر عميق مستطيل ، ومن هذا البرج خرجت قناة مائية إلى ما يُسمى بحوض صفق السوائل حتى تصل فيما بعد إلى البركة الكبيرة نفسها . وفى الجهة الغربية للبئر كان هناك فراغان لتركيب ناعورة أو ساقية ، وقد أكد وجودها آثار مرور الحيوانات التى كانت تجر هذه الساقية أو الناعورة ، ولمزيد من التدليل على ذلك كانت هناك كميات كبيرة من القواديس عثرنا عليها فى الأعمال والأشغال الأثرية التى قمنا بها .

إن تركيز الأعمال والأشغال فى هذه المجموعة التى أدت إلى تطهير وتنظيف البئر نتج عنها ظهور معلومات فى غاية الأهمية . ففى عمق البئر الذى بلغ ١٥,٨٠ متراً ظهرت بداية لممر فى الجدار الغربى ومع ذلك فعلى عمق ١٩,٢٥ متراً وجدت أرض مبنية من الطوب اللبن أو الأجر كانت تستخدم كعازل يمنع من تسرب المياه . وبمعنى أصح فإن الماء لم يكن يتدفق من باطن الأرض ويل كان يأتي إلى هناك عبر هذا الممر السالف الذكر . وإذا تتبعنا ذلك ستتوافر لنا معلومات قيّمة ، وبالفعل فإن الحفريات التى قمنا بها قد أبرزت أن الأمر يتعلق بمجرى مائى من نوع خاص جداً ، ويبلغ الطول الحقيقى لمجره ٥١,٩٨ متراً وإن اختلفت أجزاؤه ، وقد كان للمجرى ثلاثة أجزاء مختلفة الأول هو الذى كان يبدأ عند بئر الساقية وينتهى عند الجزء الثانى وطوله

٢٠,٣ متراً أما الجزء الثانى فكان بئر الرقابة أو التفتيش لمعرفة منسوب المياه وتدفعها والحفاظ على هذا النظام كان عمقه يصل إلى ١٠,٦٨ متراً ومن هذا الجزء الثانى إلى الثالث الذى بلغ طوله ٥,٥٥ متراً من جزئه السفلى و٦,٤٥ من جزئه العلوى حتى العمق بلغ ٩,٥٣ متراً ، وفى النهاية وبعد ١٨,٤ متراً ظهرت فوهة الممر المذكور أنفاً الأمر الذى أجبرنا على إجراء بحث دقيق للتأكد من مصدر التغذية بالمياه وقد تأكدنا من وجود قناة صغيرة كانت تحمل المياه من الجزء السفلى للساقية أو الناعورة الملكية حتى بئر الساقية وقد تأكد ذلك من المنحدر الموجود ، وبهذا الشكل كان يمكن حمل الماء وتوصيله عبر هذا الممر ، وبالتالي وجدت منطقة زراعية أخرى كانت تستخدم الرى فالحل معقد ولكنه جاء رداً على مشكلة خطيرة : توسيع الرقعة الزراعية عن طريق الرى ، وما حدث بالفعل هو صعوبة التفكير فى أن يكون هذا هو السبيل الوحيد والنهائى . فبداية نمو وتطوير المدينة صوب الجزء المرتفع من الحمراء كان أمراً واقعياً والنتائج كانت تكمن فى زيادة الرقعة الزراعية صوب المنطقة المرتفعة ، وإن كان الأمر لا يتعلق بأرض عمرانية تماماً ومع ذلك كانت تحتاج إلى كميات هائلة من الماء .

والنظام الهيدرولى (المائى) بالحمراء الذى كانت مهمته تغذية الحقول والمدينة بالمياه لم يقض على الأنظمة السابقة التى كانت موجودة من قبل بل إلى حد كبير تم الاستعانة بتلك الأنظمة وإدراجها فى النظام الحديث ، وبهذا الشكل يلاحظ كيف أن جُبَّ القلعة أو الحصن ظل يُستخدم حتى عصور لاحقة خلال عصر النصريين بكل تأكيد (جارثيا جرانادرسوترييو ١٩٩٠) وقد كان لها أهمية قصوى عند استرداد الملوك الكاثوليك للحمراء الذين قاموا بتطوير وتحديث الطابع العسكرى والدفاعى لحصن الحمراء (مالبىكا وبيرموديث) وهذا ما حدث أيضاً مع الأنظمة الصغيرة فى بركة النساء ، وقد استمر هذا النظام سارى المفعول على الرغم من أن الممر المائى الذى كان يحمل الماء من الجزء السفلى للساقية أو الناعورة الملكية قد أصيب بالعطب والأعطال .

فوجود جزء علوى بالساقية أو الناعورة الملكية يجعلنا نفكر أنه تم استخدامه لنفس الغرض ، وعموماً فإن قنوات توزيع المياه كانت لها أهمية بالغة ويمكننا التأكيد على أن الجزء العلوى هذا كان يُسمى بساقية أو ناعورة الترشيو .

فالجزة العلوى من الساقية الملكية أو من التريثو كان يغذى البركة الكبيرة ؛
فالساقية كانت تمر بمنصة أو بقاعدة الناعورة التى تعطلت جزئياً ، والطريق الذى تمر
به القناة هو فى غاية الدقة ؛ لأنه أُعِدَّ من مسافة بعيدة لكى يتم تنفيذه ولكى يظل
مستخدماً .

وبالإضافة إلى الفرع أو الجزء العلوى الذى كان يغذى بالماء قبل وصوله إلى
البركة الكبيرة بنراً كبيراً وعميقاً كان قد وصف فى القرن الماضى بواسطة (جوميث
مورينو ، ١٨٩٢ : ص ١٧٤ - ١٧٥) ، وفى الوقت الحالى لم نستطع التعرف إلا على
جزئه الأول فقط ، لأنه يصعب تتبع مجراه الكلى الذى يبلغ عمقه ٥٩ متراً ، وربما
يكون قد استخدم لرى المنطقة المرتفعة بالحمراء أى منطقة دار العروسة وكل منطقة
ثيرو ديل السول (مرتفع الشمس) ، وهناك توجد نظم هيدروليكية (مائية) أخرى قليلة
الأهمية مثل المُسمَّى بجب الأمطار الذى كان يرتبط باستخدام الماشية فيما يُسمَّى
بمرعى أو مرج جنة العريف ، وكان يقوم بتغذية المنطقة عبر قنوات مائية ضحلة ، وهذا
لا يعنى أنه لم يتم نقل الماء هناك من البركة الكبيرة الكائنة بالقرب من البئر العميق
ثيرو ديل السول (مرتفع الشمس) ، ولكن هذه علاقة طارئة ، كما أنه لا يعرف أيضاً
نظام تغذية بركة الأسود التى كانت تقوم بتوصيل المياه إلى المروج .

وكل هذه العناصر لا تعرف هل كانت ترتبط بنظام خارجى أم كانت مرتبطة
بالنظام الرئيسى ؛ لأن هذه الأمور لم تدرس حتى الآن حيث تتوافر لدينا فقط أوصاف
شكلية لا استخدامية (بيلشيت ١٩٨٢ - ١٩٨٦) .

وعلى أية حال فإنه بات من الواضح أن ساقية التريثو كانت تستقبل ثلث المياه
المأخوذة من السد ومن المحتمل أن سعتها لاستقبال الماء لم تشهد أى تغيير حيث إن
ساعات السواقي الكائنة بالمدينة ظلت على ما هى عليه أيضاً . وعبر ساقية التريثو تم
تشغيل المنطقة المرتفعة وتم توسيع المنطقة الناجمة عن إنشاء بركة السيدات ، ولكن
الأبحاث الحديثة التى لم تنته بعد سمحت بمعرفة أن الفرع العلوى أكثر تعقيداً
عماً كان يسود الاعتقاد بشأنه ، وفى الوقت الذى قمنا بكتابة هذه الصفحات تم
اكتشاف ممر كان قد حفر أسفل المنطقة العلوية لموقف سيارات جنة العريف حيث يتم إعداد

مداخل جديدة للمجموعة الأثرية بالحمراء ، وهذا المر في جزئه الأول بلغ طوله ٢٠٠ متراً ويطلق عليه بالتأكيد ماء ساقية التريثو المتفرعة ربما من قناة (CARMEN DE LOS MÁRTIRES) للتوزيع كانت تستخدم أيضاً لتوصيل المياه إلى منطقة مرتفعة كانت تفصل هذه المنطقة على وجه التحديد من منطقة الشهداء التي يرجع إنشاؤها إلى القرن السادس عشر الميلادي وإن كانت هناك بقايا سابقة على هذا التاريخ ، ويبدو من جهة أخرى أنها تمتد إلى أبعد من هذه المنطقة ، كما أن ساقية التريثو نفسها تشق مجراها بعيداً عن المنطقة القريبة من جنة العريف حتى برج بيرميخاس ، ومن المحتمل أن تكون القناة الجوفية قد استمرت بمنطقة أنتكيرويل و انتهت في حقل الأمير .

وسيكون اقتراباً كبيراً من الواقع إنشاء هذا الجزء العلوى . ففي مناسبة ما (مالبیکا) قدمنا الافتراض القائل بإمكانية استخدامه في تغذية الحمراء المرتفعة إلى جانب بعض الأحياء العمرانية من المدينة منها على سبيل المثال حتى أنتكيرويل الذي بدأ تشييده في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي ، واستمرار البحث في هذا الجزء وممراته الفرعية سيجعلنا نلقى بكل تأكيد بمزيد من الأضواء على هذا الدرب .

إن نظام الحمراء الهيدروليكي (المائي) مثال جيد على تقنية المياه واستخدامها وتنظيمها لتغذية المنطقة المجاورة لها ، كما أنه عنصراً للتحليل من الدرجة الأولى لتقديم تواريخ وأزمنة وعصور تقريبية وإذا عرفنا أن الحمراء قد بدأ تشييدها اعتباراً من جلب المياه من نهر الدارو في بداية عصر النصريين وعلى وجه الخصوص في عهد محمد الأول وأن الجزء العلوى من الساقية أو الناعورة الملكية قد شُيد وفقاً لكافة المؤشرات في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي فليس من المبالغ فيه التفكير بأن البركة الكبيرة والناعورة والمجرى أو المر المائي قد أنشئ فيما بين التاريخين المذكورين ، وتتعلق ربما بالأعمال التي قام بها إسماعيل الأول في جنة العريف أو خلال فترة الإنشاء الكبرى في مدينة القصور في عهد خلفائه اللاحقين يوسف الأول ومحمد الخامس .

وعموماً فإن دراسة المياه تبرز نمط مكان تشييد مدينة غرناطة نفسها التي تنتمي إليها قصور الحمراء .

المراجع

- (١) أسيين ألمانسا ، مانويل (١٩٨٧) " مدينة الزهراء فى العمران الإسلامى " دفاتر مدينة الزهراء ، الجزء الأول ، ص ١١ - ٢٦ .
- (٢) بيرموديث لويث ، خيسوس (١٩٨٧) " ملاحظات على التصميم العمرانى للحمراء وشوارعها الرئيسية " وقائع المؤتمر العالمى الثانى للأثار الإسبانية ، مدريد ، الجزء الثانى ، ص ٤٤٣ - ٤٥٠ .
- (٣) بيرموديث بارىخا ، خيسوس (١٩٦٥) " جزء من سور غرناطة " دفاتر الحمراء ، الجزء الأول ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .
- (٤) بيرموديث بارىخا ، خيسوس (١٩٧٣) " التعرف على قصرى كوماريس والأسود بالحمراء " وقائع المؤتمر الدولى الثالث والعشرين لتاريخ الفن ، غرناطة ، المجلد الثانى ، ص ٥٥ - ٥٦ .
- (٥) برامون دولورس (١٩٩١) " العالم فى القرن الثانى عشر الميلادى " دراسة للرؤية الإسبانية وللأصل العربى لجغرافية العالم ، رسالة الزيرى ، برشلونة .
- (٦) جارتيا جرانانوس ، خوان أنطونيو وتريلو سان خوسيه كارمن (١٩٩٠) " أعمال الملوك الكاثوليك فى غرناطة " (١٤٩٢ - ١٤٩٥) ، دفاتر الحمراء ، العدد ٢٦ ص ١٤٥ - ١٦٨ .
- (٧) جاود فيردى ديمومبينيس . م . (١٨٩٨) " ابن خلدون ، تاريخ بنو الأحمر ملوك غرناطة " الجورنال الأسبوعى ، العدد ٢٠ ، ص ٣١٩ - ٣٢٣ .
- (٨) جوميث مورينو مانويل (١٨٩٢) " دليل غرناطة " غرناطة .

- (٩) جوميث مورينو مانويل (١٩٥١) " الفن العربى الإسلامى حتى عصر الموحدين " المجلد الثالث ، الفن الإسلامى ، مدريد .
- (١٠) جوميث مورينو مانويل (١٩٦٦) " غرناطة فى القرن الثالث عشر " دفاتر الحمراء ، المجلد الثانى ، ص ٣ - ٤٥ .
- (١١) هويتس ميراندا أمبروسيو (١٩١٧) " مجهول مدريد " كوينهاجن ، مدريد .
- (١٢) هويتس ميراندا أمبروسيو (١٩٥٤) ابن إدارى المراكشى " البيان المقرب فى اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب " طيطوان .
- (١٣) ابن الخطيب (١٩٥٥ - ١٩٧٨) " الإحاطة فى أخبار غرناطة " طبعة محمد عنان ، القاهرة فى أربعة أجزاء .
- (١٤) ليفى بروفينسال وجارثيا جوميث إيميليو (١٩٨٠) " القرن الحادى عشر الميلادى ، مذكرات عبد الله " مدريد ١٩٨٠ .
- (١٥) مالبيكا كويو أنطونيو (١٩٩١) " المجمع الهيدرولىكى (المائى) للبرك الكبيرة " دفاتر الحمراء ، العدد ٢٧ ، ص ٦٥ - ١٠١ .
- (١٦) مالبيكا كويو أنطونيو ، " نظام هيدرولىكى فى العصر الإسلامى " الحمراء ، جونتاليث الكانتو وخوسية أنطونيو وملبيكا كويو أنطونيو " المياه ، الأساطير ، الشعائر والواقع " برشلونة .
- (١٧) مالبيكا كويو أنطونيو وبيرموديث لوبيث خيسوس " تعديلات مسيحية فى الحمراء " المؤتمر الإسلامى الإيطالى للآثار فى العصور الوسطى ، سبينا .
- (١٨) بابون مالدونادو باسيليو (١٩٧١) " قلعة الحمراء " دفاتر الحمراء ، العدد السابع ، ص ٣ - ٢٤ .
- (١٩) بابون مالدونادو باسيليو (١٩٨٦) " سواقى إسبانية إسلامية " القنطرة ، الجزء السابع ، ص ٣٣١ - ٣٨١ .

- (٢٠) بويرتا بيلتشيت ج . م . (١٩٨٧) حمراء غرناطة " السلطة والفن والخيال
أو الوهم " دفاثر الحمراء ، العدد الثالث والعشرون ، ص ٦٧ - ٨٥ .
- (٢١) توريس بالباس ليويولنو (١٩٤٨) " دار العروسة وأطلال القصور والبرك
الغرناطية الواقعة في أعلى جنة العريف " الأندلس ، ص ٦٧ - ٨٥ .
- (٢٢) توريس بالباس ليويولنو (١٩٤٩) " باب الخبازين وجسور غرناطة
الإسلامية " الأندلس ، العدد الرابع عشر ، ص ٤١٩ - ٤٣٠ .
- (٢٣) بيلتشيت بيلتشيت كارلوس (١٩٨٦ - ١٩٨٣) " الآثار الباقية من قصر
الحلاجين " الأندلس الإسلامية ، العدد الرابع والخامس ، ص ٣١٧ - ٣٤٠ .

الفصل الرابع عشر

حكومة غرناطة عقب الاسترداد : الأوامر الصادرة عن قصر الحمراء عام ١٤٩٢

إعداد : أحوان أنطونيو جريما تيرفانتس

بدأت منذ أكثر من ثلاث سنوات البحث حول شخصية يحيى النجار الذى عُرفَ عقب ارتداده عن الإسلام باسم السيد /بيدرو دى غرناطة ، والذى من المحتمل أن يكون أحد الأعضاء القلائل من أفراد النبلاء الملكيين فى العصر النصرى الذى استطاع الإفادة من الحرب إلى أقصى درجة والتكيف - ولكن بصعوبات جمّة وأوقات حرجة وعصيبة - مع المجتمع القشتالى المسيحى الذى سيُسيطر على غرناطة عقب الاسترداد المسيحى لها^(١) .

وإبان هذا البحث عن مصادر غير مطبوعة لإنهاء الدراسة المذكورة قمت بالاتصال مع بعض الورثة المباشرين مع عريس العرش النصرى ، والذى كان من بينهم ماركيسة كوربييرا وزوجها ، وبفضل هذه العلاقة وصلت إلى حوزتى بعض أوراق أرشيفية ، ومن بينها صورة للأوامر التى أصدرها الملوك الكاثوليك عام ١٤٩٢ ، والتى جاء فيها تقسيم المدينة إلى دائرتين مختلفتين إحداها الحمراء الخاضعة لناظر عموم تنديا والثانية دائرة المدينة والقرى والبلدان التابعة لها تحت إدارة القاضى أو المأمور القضائى ، والذى تولّاها آنذاك الخريج أندريس كالديرون .

ووفقاً لعرف أو تقاليد أسرة جرانادا - بينيجاس فإن الوثيقة المشار إليها والخاصة بالأوامر سلّمت بواسطة الملوك الكاثوليك إلى السيد / بيدرو دى غرناطة لكى يكون ماسكاً لدفاترهما أو مُحاسباً لهما على أنهما قاما باستخراج صورة منها إلى ناظر عموم تندياو القاضى أو المأمور القضائى ، وفى هذا الصدد لم يشر النص إلى شىء من ذلك . وما هو صحيح أيضاً فإن هذه الوثيقة كانت ضمن الأرشيف الأسرى مثل بعض الوثائق الأخرى ذات الأهمية الحيوية بالنسبة لتاريخ غرناطة (٢) .

١ - الأوامر الصادرة عن الملوك الكاثوليك عام ١٤٩٢ فى مظهرها الشكلى .

إن تعليمات أو أوامر حكومة الحمراء كانت مكتوبة على ورق وكان مضمونها موجزاً ومقتضباً ، وفى واقع الأمر كانت التعليمات أو الأوامر تتكون من عشر تعليمات أو عشرة أوامر ، وقد كُتبت بخط جميل كما كان شائعاً فى ذلك العصر ، وتتكون الوثيقة من ورقتين وورقة ثالثة كغلاف عليه تصنيفه لهذه الوثيقة ضمن أوراق ووثائق الأرشيف الخاص بأسرة غرناطة بينيجاس ، وعلى الوثيقة توقيعان : الأول فيما يبدو يرجع لأوائل القرن الخامس عشر استناداً إلى شكل ونمط الخط المكتوبة به ، ويقول : الجزء ب من حزمة الأوراق الثانية ، أمّا التوقيع الثانى فكان فى تاريخ أحدث يرجع إلى نهاية القرن السابع عشر أو مطلع القرن الثامن عشر ومكتوب عليه الحزمة رقم ٥ .

ومن جهة أخرى فإن الأوامر أو التعليمات موقعة من جانب الملوك الكاثوليك ومن قِبَل الأمين الملكى للشئون الغرناطية فرناندو دى ثيرا . أما مكان صدور هذه الأوامر أو التعليمات فكان سانتا فيه وتاريخها الخامس والعشرون من مايو عام ١٤٩٢ . وهذا القرار الحيوى الهام بالنسبة للمدينة نعى غرناطة يبدو أن الملوك الكاثوليك قد تركوها فى الأيام الأخيرة فى أثناء إقامتهم بالعاصمة النصرىة : لأننا نعلم جيداً أنهما كانا بقرطبة فى الرابع من يونيو عام ١٤٩٢ (٣) .

أما الوثيقة الأخيرة فيها أمر ملحق أو إضافي يبدو أنه كان الأمر الحادى عشر ، ويبدو أنه كان يتعلق بنسيان غير متعمد ، الأمر الذى ظلّ دون تخصيص فى النص الأصلي بالنسبة لأبواب وقلاع ومداخل للمدينة الأخرى التى كانت من اختصاص إشراف ورقابة ناظر العموم أو القاضى أو المأمور القضائى ، وهذا اللبث الصغير أدى إلى ضرورة ختم الوثيقة من جديد ووُقعت مرة أخرى من جانب الملوك الكاثوليك لتصحيحها .

٢ - مدينة غرناطة وقصر الحمراء إبّان الشّهور الأولى للسيطرة القشتالية .

إنّ تحرير وثيقة الأوامر أو التعليمات من قبل الملوك الكاثوليك كان متوائماً مع اللحظات الحاسمة التى عاشتها غرناطة خلال السنوات الأولى لاحتلالها بواسطة الجيش القشتالى، وفى هذا الصدد يهمننا إبراز ما حدث مع قصر الحمراء فى أثناء عام ١٤٩٢ .

ومن الواضح أن مقر الإقامة الرسمى للأسرة النصرية سيلعب دوراً هاماً من الدرجة الأولى فى المعارضات التى سيجريها وسطاء الأمير عبد اللهو الملوك الكاثوليك لكى يتم تسليم عاصمة المملكة كما يتضح ذلك من الشروط النهائية الموقعة فى الخامس والعشرين من نوفمبر عام ١٤٩١^(٤) ، وجدير بالذكر أنّه تم فيها الاتفاق على تسليم المدينة خلال ستين يوماً ، وذلك يعنى تسليم قلاع وحصون الحمراء والحسان والبوابات والأبراج وكافة حصون وقلاع المدينة ، ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً هو أن هذا الموعد النهائى قد تقدّم ؛ لأن الموقف الداخلى بغرناطة قد أفلت زمامه من أيدي الأمير عبد الله وكذلك باقى السلطات الإسلامية بالمدينة^(٥) ، وأدى هذا إلى اتخاذ كلّ التدابير الأمنية لضمان تسليم المدينة ؛ ولهذا فإنه ضمن الشروط نفسها تم إدراج شرط تعهد الغرناطيين التسليم للملوك الكاثوليك خمسمائة شخص مع الحاجب يوسف بن كوميشا وكذلك أبناء أو أشقاء هذه المدينة بما فيها حى الباشسين وكذلك ضواحيها لكى تكون رهائن لدى أصحاب السمو فى غضون عشرة أيام على حين تُسلم الحصون

والقلاع الكائنة بالحمراء والحسان ويتم تعزيز تحصيناتها وقلاعها وإمدادها بالمؤن والمواد الغذائية .

وعلى وجه التحديد فإن تسليم الخمسمائة رهينة يجب أن يتم قبل تسليم المدينة بيوم كامل ، ومع ذلك فإن هذا الاحتلال لم يتم بفتح بوابات غرناطة لكي تدخل القوات القشتالية المدينة وذلك لكونه إهانة للمسلمين ، كما نصت الشروط أيضاً على أن قوات الاحتلال يتدخل المدينة بشكل مُتخفى باستخدام بوابتين : باب الأعشار وباب النجدة وكذلك من الحقل المجاور لهذه المدينة ، كما أنه لا يجب على الأفراد الذين سيقومون باستقبال أصحاب السمو دخول المدينة في الوقت الذي يتم التسليم فيه تفادياً لحدوث تجمعات .

وفي النهاية وكما نعرف جميعاً احتُلت غرناطة في الثاني من يناير ١٤٩٢ ، وفي أثناء دخول المدينة قام الملوك الكاثوليك بتسليم نجل الملك إليه ، والذي كان رهينة بأيدي الملوك القشتاليين منذ مايو عام ١٤٨٦^(٦) .

وكما كان من المعتقد فإن أول مبنى تم تسليمه كان مبنى القلعة نعنى قلعة قصر الحمراء والذي تسلمه رئيس دير مدينة ليون السيد / جوتيرى دى كارديناس على رأس كتيبة قوامها ٥٠٠ جندي من الفرسان و ٢٠٠٠ جندي من المشاة ، وحتى باب الإيخاريس خرج بعض الجنود المسلمين لاستقبال الجنود القشتاليين عند مدخل قصر الحمراء وقاموا بتسليم المسيحيين مفاتيح المدينة والقصر ثم غادروا المكان عقب ذلك ، ولم يبق بالقصر أى شخص مسلم حيث إن الأمير عبد الله كان قد رحل قبل ذلك ببضعة أيام إلى مقر إقامته القديم بالبائسين^(٦ مكر) ، هذا وقد قام رئيس الدبر بتوزيع رجاله على النقاط والمراكز الاستراتيجية بقصر الحمراء وحصونه وقلاعه وقام بعملية استطلاع واسعة النطاق ، وعلى الفور أُقيم قُدَّاس بمسجد قصر الحمراء ويعد مباركة الصليب تم رفعه وكذلك الرايات والأعلام على أعلى برج بالقصر وهو على الأرجح برج الشمعة أو المركب الشراعى ، وفي الأيام التالية على ذلك تم الاستيلاء تدريجياً على جميع أرجاء المدينة ، وبالتالي تم إدخال عدد آخر من القوات والجنود وكميات كبيرة من الدقيق والأسلحة والذخائر وكثير من السلع الضرورية ، أمّا ناظر

عموم الحمراء الجديد فهو السيد / إنيجو لوبيث دى ميندوثا كونت تنديا الذى اختير لهذا المنصب فى الثالث من الشهر نفسه حيث دخل قصر الحمراء على رأس قوة قوامها ١٠٠٠ جندي من المشاة وفقاً لما رواه بيرناردو دى رويو مجهول الرواية الفرنسية^(٧)، وعلى العكس من ذلك فإن الملوك الكاثوليك لم يدخلوا المدينة رسمياً حتى تستتب الأمور الأمنية بها . وقد اختير يوم السادس من يناير لدخول الملوك الكاثوليكو كان ذلك فى حضرة النبلاء وكبار الشخصيات إلى جانب ١٠,٠٠٠ فارسو ٥٠,٠٠٠ من المشاة ، ويُعتقد بأن هذا أكبر جيش شهدته إسبانيا فى ذلك الوقت ، وقد طافت هذه القوات بشوارع المدينة واتجهت إلى قصر الحمراء ؛ حيث تم استقبالها بولائم لا مثيل لها ومشروبات لا تضارعها مشروبات فى تنديا^(٨) .

وخلال الشهور التى تلت ذلك وحتى رحيل الملوك الكاثوليك تجاه برشلونة (لإيجاد حل لكثير من الموضوعات والمسائل المتعلقة مع فرنسا بشأن ملكية روسيونو سردينيا) وقد وضع الأساس لتكوين ولتشكيل حكومة جديدة وذلك فى ظل احترام شروط ونصوص المعاهدة الموقعة مع المسلمين وكذلك إنشاء البنية الأساسية للدفاع عن المدينة للتصدي لأية محاولة تمرد أو عصيان من جانب المسلمين .

ولم يكن الملوك الكاثوليك وحدهم المنوط بهم تنفيذ هذه المهمة بل كان برفقتهم أربع شخصيات مهمة ستظل فى غرناطة فيما بعد لحل المشاكل الحيوية والمهمة ، وهؤلاء الأشخاص كانوا يمثلون السياسة والدبلوماسية والدين والجيش والآداب ، وهم فرناندو ثفرا الأمين الملكى^(٩) وفرانز إيرناندو دى تالابيرا القمص الأول لغرناطة^(١٠) والسيد / إنيجو لوبيث دى ميندوثا كونت تندياو الماركيس دى موندخار قائد عام قوات المملكة وناظر عام قصر الحمراء^(١١) والخريج أندريس كالديرون أو قاضى أو مأمور قضائى لغرناطة والأراضى الواقعة فى دائرة اختصاصها^(١٢) .

٣ - مضمون وأهمية الأوامر أو التعليمات الملكية الخاصة بقصر الحمراء ١٤٩٢ .

فى الواقع يمكن القول بأن وثائق قليلة جداً وأصلية ومهمة قد عُثِرَ عليها لإعادة تكوين التاريخ السياسى للفترة التى تقوم بتحليلها منذ أن قام جاسبار ريميرو جيريرو أثينثا عام ١٩١٠ بتقديم آخر إسهاماتهم^(١٢) ؛ لهذا السبب يمكن التأكيد على أن حرب غرناطة وما تلاها من السيطرة القشتالية على المدينة تم دراستها بشكل موثق فعلاً ؛ ولهذا فلم يبق سوى تفسير مائل وتحليل عميق للمظاهر أو الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وفى هذا الصدد نجد أن الأوامر أو التعليمات الصادرة فى ١٤٩٢ جاءت لتسد الثغرات الصغيرة التى وافقت تاريخ هذه الفترة ؛ لأنها على الرغم من كونها وثيقة مقتضبة وموجزة فإنه لا يستطيع أحد أن ينكر أو يجحد أهميتها وفضلها .

ففى الخامس والعشرين من مايو ١٤٩٢ بالفعل ترك الملوك الكاثوليك تخطيطاً أو خطة سياسية قضائية لإدارة دفة الأمور بغرناطة ، ولذلك فإن الرسائل والشهادات التى صدرت فى هذا اليوم لم تتعلق فقط بالسلطات المسيحية بل أيضاً المسلمة ، فقد تم تعيين المفتيين والمعلمين والعرفاء لمدينة غرناطة . إن الإدارة الحسنة لعادلة المسلمين (ليس فقط من أبناء المدينة) وفقاً لما يمكن قراءته من النصوص الموجودة فى أرشيف بلدية غرناطة ، وفى هذه الوثائق تحديد لوظيفة واختصاص القاضى بنفس الحقوق والصلاحيات التى كان يتمتع بها من قبل وقد تم تعيين كل من محمد البكىنى ، فرج البسطى والفقير محمد بن الفار كرجال فتوى كما تم اختيار من قبل الملوك الكاثوليك فى نفس اليوم الخامس والعشرين من مايو ١٤٩٢ خمساً وعشرين أميناً يمثلون كافة الحرف والمهن (صناعة الحرير وتجارة التوابل والبهارات وتجارة الأحذية ونساجى الخيوط والنقص والحدادين وتجارة الفضة والزيت والدباغين والنجارين وصانعى الطل والأوانى والخبازين والفرّانين والصّبّاغين وزارعى البساتين وصانعى القفف والمقاطف والقصابين (الجزارين) وحدّادى الجياد والحمير وتجّار السّمك والدجاج ، وفيما يتعلق بالعرفاء أو المعلمين فقد تم اختيار أربعة : للبنائين والحمالين والمندانين والفرانين^(١٣) .

وفى ذلك اليوم أو يوم آخر من تلك الأيام طبقاً للوثيقة المنشورة بواسطة دوران ليرشندى - وإن كان بعض المؤلفين الآخرين يعتبرون ذلك متأخراً - أنه تم اختيار مجلس بلدى للمسلمين يتألف من ٢١ من المسلمين الأندلسيين الذين تم اختيارهم من بين القضاة والفقهاء والأئمة والوعاظ من بينهم محمد البكىنى والجواد يكسى بن سليمة إلخ ... وكان هذا المجلس الإسلامى يعقد اجتماعاته وجلساته فى منزل عبد البر وذلك مرتين على الأقل أسبوعياً أيام الثلاثاء والسبت (١٥) .

وفى الخامس والعشرين من شهر مايو عام ألف وأربعمائة واثنين وتسعين تم اختيار العمال لى تبدأ هذه البلدية أو هذا المجلس البلدى الإسلامى مزاوله المهام المنوط به ، وعلى وجه التحديد فإن هذه المناصب كانت تنحصر فى شاهد أو كاتب عدل أو موثق عقود أو حارس للاختام وثلاثة كُتَّاب (أحدهما مسيحى والآخران مسلمان) وستة بوابين ومترجم ومندوبون عن المدينة (أحدهما مسيحى لم يذكر اسمه وآخر مسلم) ووقع الاختيار على محمد البكىنى السالف الذكر (وكيلان مسلمان) محمد أبو الدين (١٦) ومحمد بن العسكر) ونظر أسواق لتحصيل ضرائب البلدية من السوق ومفتشان للنظافة (نظافة الشوارع) وقد أُرِجى اختيار كبير خدم المجلس وكذلك بعض المحاسبين الذين سيخضع أمر تعيينهم للمجلس البلدى الجديد فى أثناء اجتماعه الأول (١٧) .

ويبدو أن الملوك الكاثوليك كانوا حريصين على السماح بتطبيق نفس أسلوب الحياة البلدية فى غرناطة الذين أقروه فى بلدان أخرى بها كثرة من المسلمين كان قد تم الاستيلاء عليها قبل غرناطة ، وكان هذا النظام يكمن فى تشكيل سلطتين متوازيتين أحدهما عسكرية المتمثلة فى الناظر العام الذى اعتاد العيش بالمدن التى بها قلاع على أن يكون قائد الجنود بها أما الثانية فهى المتركزة فى أيدي المجلس البلدى الإسلامى الذى كان يفصل فى القضايا والشئون الإسلامية ، والذى كان مكوناً كما نصت الوثائق من القاضى العام ، والحاجب والفقهاء والرجال المسنين الطبيين . وكعدالة سامية وعليا وعقوبية فى البلدان والقرى الأميرية كان يوجد بها قاضٍ أو مأمور قضائى كان لكل منهم نائب أو مساعد . أما فى البلدان الأخرى ذات السيادة فإن السلطة القضائية العليا ستتركز بجلاء فى أيدي صاحب السيادة

أكبر الملاك ثروة أو صاحب الإقطاعية الكبرى أو حاكم يقوم هذا بتعيينه للعمل نيابة عنه (١٨) .

وهذا النظام كما قلت يبدو أن الملوك الكاثوليك أرادوا تطبيقه فى غرناطة أيضاً أو يمكن استنتاج ذلك من التعيينات التى رأيناها آنفاً ، وهذه التعيينات كان من شأنها تحسين المعاملة التى كان يتلقاها المسلمون الأندلسيون بغرناطة .

١- سيحاكم المسلمون على أيدي قضاة مسلمين ووفقاً لأحكام شريعتهم الإسلامية دون المساس بعاداتهم وتقاليدهم .

٢- سيحصل المسلمون على كافة حقوقهم ومستحققاتهم دون نقص ، وسيكونون محل اعتبار من جانب الملوك الكاثوليك ، كما أن عاداتهم وتقاليدهم لن يمسها تبديل أو تغيير وستظل كما هى .

٣- إذا نشب خلاف بين المسلمين فإنهم سيحاكمون وفقاً لما تنص عليه شريعتهم الإسلامية .

٤- إذا نشب خلاف أو نزاع بين مسلم ومسيحى أو مسلمة ومسيحية أو مسلم ومسيحية أو مسيحى ومسلمة فإن هذا النزاع سيحل فى حضور قاضٍ مسلم وآخر مسيحى حتى لا يحتج أى منهما بالحكم الصادر فى هذا الشأن (١٩) .

ومن الواضح أن البلدية الإسلامية أو المجلس البلدى الإسلامى ستكون له صلاحيات فض المنازعات بين المسلمين الأندلسيين وحكومة هذه الجالية . ففيما يتعلق بالشئون القضائية ستطرح المصالح الإسلامية والمسيحية للدفاع عنها وفقاً لقاضيين مسلم ومسيحى (٢٠) ، وفى تلك الأيام أيضاً فإن يحيى النجار المعروف بالسيد / بيدرو دى غرناطة عقب ارتداده عن الإسلام كان المأمور القضائى الكبير فى غرناطة وقد ظهر هذا المنصب فى رسالة بعث بها إليه الملوك الكاثوليك من برشلونة فى السابع عشر من نوفمبر ١٤٩٢ (٢١) ، وقد انتهك هذا التعيين شروط الاتفاقية الخاصة بتسليم المدينة (غرناطة) . والتى حرمت تحريماً باتاً على معاونى الملوك تولى أى منصب عام بالمدينة (٢٢) .

وكانت للمأمور القضائي صلاحيات النظر فى جرائم المسيحيين والمسلمين باستثناء دائرة اختصاص قصر الحمراء التى لن تخضع لسلطانه ، وربما يكون هذا الاختيار للسيد بيدرو فى هذا المنصب لكونه مسيحياً ؛ حيث كان قد عُمدَ عام ١٤٨٩ ، وهذا الأمر يُخفف إلى حد كبير من انتهاك شروط معاهدة تسليم المدينة ، هذا بالإضافة إلى توافر عدة ظروف أدت إلى هذا التعيين ؛ ففى المقام الأول : كان الملوك مضطرين لمكافأة السيد بيدرو دى غرناطة على الخدمات الجليلة التى كان قد قام بها لجلالتهم . ثانياً : كان الدم الملكى يجرى فى عروق السيد / بيدرو دى غرناطة - فقد كان حفيداً ليوسف الرابع - وقد منحه هذا صيتاً وشهرة كبيرين بين مسلمى غرناطة وخاصة الذين ألقوا بالمسئولية على أبى عبد الله فى هزيمة غرناطة من جرأ طموحاته الشخصية . ثالثاً : كان معروفاً فى غرناطة اليخارُس فهو بالإضافة إلى كونه معاوناً للملوك الكاثوليك يمكن أن يكون الوسيط الجيد لإيجاد حل للمشاكل الناجمة بين السلطات المسيحية والمسلمين من أهل غرناطة .

وفى هذا التفسير الذى سقناه حتى الآن عن هذا التمويه أو الغموض الخاص بالحكومة البلدية الإسلامية يتفق كل المؤرخين الحاليين الذين تطرقوا لهذا الموضوع ، ومع ذلك فإن لى رأياً شخصياً (يقوم على أساس أسباب يطول سردها وشرحها وحصرها ، وستخرج عن موضوع الدراسة الحالية) أعتقد أن الملوك الكاثوليك لم يكن لديهم أدنى استعداد للوفاء أو للالتزام بشروط المعاهدة أو حتى مجرد منح أى امتياز أو مزايا للشعب النصرى .

وبإيجاز فإن الملوك الكاثوليك وجدوا أنفسهم مضطرين ولو من الناحية الأخلاقية لمكافأة بعض الزعماء المسلمين الذين مدوا يد العون أو سهّلوا المفاوضات وتسليم المدينة ، وهذا هو فيواقع الأمر سبب الإمتيازات التى تُصَّ عليها فى شروط التسليم والتى أشرنا إليها آنفاً . وأحياناً كانت هذه الامتيازات عبارة عن دخل مادى مدى الحياة أو هدايا قيمة من الممتلكات أو التعيين فى وظائف ومناصب مهمة ذات حيوية بالغة لهؤلاء الذين ساعدوا المسيحيين سرّاً وعلناً ^(٢٢) ، وسيكون هؤلاء المعاونين الزعماء الوخيديين الذين ظلوا فى مملكة غرناطة إبّان العهد الجديد ؛ لأن معظم النبلاء والمفكرين

المسلمين إما أن يكونوا قد لقوا حتفهم في أثناء الحرب أو أنهم هاجروا في أثناء القتال أو عقب الهجوم النهائي على العاصمة الغرناطية ، وحقيقة الأمر أن الملوك القشتاليين كانوا في حاجة إلى مساعدات المتعاونين لإنهاء الفترة الانتقالية من العصر الإسلامي إلى العهد المسيحي على المدى القريب والبعيد ، وقد أثبت التاريخ اللاحق أنه كان من المستحيل استئصال أو انتزاع هذا الشعب من معتقداته ، وأقصى شئ توصل إليه بفضل مساعدة المتعاونين هو إنشاء هياكل وأنظمة للحكم القشتالي في غرناطة دون التسبب في إثارة ظنون أو ارتياب الشعب .

ومما تقدم يسهل التوصل إلى استنتاج نهائي ، وهو أن الملوك الكاثوليك لم يكن في قرارة أنفسهم أي عزم أو نية لكي يزدهر المسلمون في إسبانيا أو حتى مجرد إمكانية التعايش - أو على الأقل المعاشة - للثقافات والحضارات الثلاث لشعوب العصور الوسطى ؛ فطرد اليهود عام ألف وأربعمائة واثنين وتسعين من بلادنا يؤيد ويعضد تبريرائنا ورأينا علماً بأن هذا الإجراء نفسه جاء انتهاكاً لشروط ونصوص معاهدة تسليم غرناطة نفسها .

" لقد تم الاتفاق على أن اليهود من أهالي هذه المدينة (غرناطة) البائسين وضواحيها أو القادمين إليها من أماكن أخرى سيتمتعون بكافة الحقوق ومن بينها العيش في أمان دون التعرض لهم لا في معتقداتهم ولا في ممتلكاتهم " .

ولكن هناك أسباب عديدة للبرهنة على عزم الملوك الكاثوليك في القضاء على الإسلام في مملكة غرناطة . ومن بين هذه الأسباب الجمة يمكننا إبراز بعض الأسباب التي حدثت عقب انتهاء الحرب مباشرة مثل الضغوط التي مارسها الملوك ضد أبي عبد الله لكي يغادر الدولة ^(٢٤) وإلغاء جميع الامتيازات التي منحت طوال الحرب للقادة المتعاونين ^(٢٥) أو إنشاء هذه البلدية الإسلامية - التي كانت مجرد سراب يحسبه الظمآن ماءً فلم يكن لها أية سلطات فعلية أو حقيقية ، والتي أُلغيت عند أول تغيير عام ١٤٩٧ ، وذلك بعد أن تم تغيير اجتماعاتها وجلساتها من أيام السبت والثلاثاء إلى يوم الجمعة علماً بأن المسلمين الأندلسيين لم يحضروا الجلسات والاجتماعات ؛ لأن يوم الجمعة هو يوم عطلتهم الأسبوعية ^(٢٦) .

وفى هذا الإطار يجب أن نرى الوجه الآخر للعملة نعنى الهيئات التابعة للحكومة القشتالية أو المسيحية التى ستنشأ فى غرناطة بينما يظل الملوك الكاثوليك فى غرناطة وسانتا فيه (يناير - مايو) فإنهما سيكونان الممثلين الوحيديين للعدالة ، ومع ذلك فى الخامس والعشرين من مايو ١٤٩٢ وفى الوقت الذى تم فيه إنشاء أو تشكيل البلدية الإسلامية قاموا بتعيين من سيكون لهم الأمر والنهى بالمدينة .

وفى واقع الأمر لم يكن هناك سلطات حقيقية أو فعلية إلا تلك التى كانت لدى المأمور القضائى أندريس كالديرونو الناظر العام انيجو لوبيث دى ميندوتا طبقاً لما نصت عليه الأوامر أو التعليمات الصادرة عن الملوك الكاثوليك بقصر الحمراء التى سنتحدث عنها بمزيد من التعمق والتفصيل ، ولكن كما قلنا فى موضع آخر فإن المناصب الأربعة المهمة من بينها الأمين العام إيرناندو دى ثفرا والأسقف إيرناندو دى تالابيرا .

وقد تميز ثفرا إبّان عشر سنوات استغرقتها الحرب بأنه مفاوض مكابر وعنيد وخبير بالموضوعات الإسلامية .

أمّا تالابيرا فهو إلى جانب كونه محل ثقة الملوك الكاثوليك وقسيس اعترافاتهم كان أحد شخصيات الكنيسة القلائل الذين أُعِنُوا إعداداً جيداً لكى يتولى عملية التبشير المسيحى بين المسلمين الأندلسيين عن طريق الإقناع والقداسة المسيحية والافتداء الحسن .

وسواء هذا أو ذاك فإنهما سيستمران فى مراسلة الملوك الكاثوليك ، كما أنهم سيشرّفون على تجارات الدولة ذات الأهمية الحيوية ، ويمكن القول بأنهما كانا بمثابة وزيرين مفوضين خبيرين فى مواد محددة بحكم خبرتهما الطويلة وسيكلفان بمهام صعبة وشاقة ، ومن بين المهام التى تولاهما ثفرا خلال السنوات الأولى : إقناع أبو عبد الله لكى يبيع ممتلكاته ويذهب إلى المنفى أو تلك التى لا تقل تعقيداً عن سابقتها ، وهى إعداد العدة لغزو شمال أفريقيا انطلاقاً من تأسيس بنية أساسية من الاتصالات والجواسيس الذين كانوا على أتم الاستعداد للعمل لصالح إسبانيا (٢٧) .

ولم يكن تالابيرا أقل أهمية من الأمين العام ؛ فإذا فشل في إقناع مسلمي الأندلس بالارتداد عن الإسلام وعتناق النصرانية الكاثوليكية على وجه السرعة فإنه كانت تُسند إليه مهام فى غاية الحيوية لخدمة الملكية . وأذكر الآن الصفقات الهائلة للمسلمين الأندلسيين المستعبدين فى فينيانا وأبروثينا عام ١٤٩٨ أو تدخله الإيجابى لإقناع العبادلة زعماء المسلمين الأندلسيين بمنطقة بيليث للموافقة على أن تخضع أراضيهم تحت سيادة الكونت دى ليرين على الرغم من أن نصوص المعاهدة عام ١٤٨٨ نصت صراحة على أن تستمر هذه الأراضي دائماً أميرية أو حكومية (٢٨) .

والآن حسناً فإن حكام غرناطة الحقيقيين إذا وضعنا فى الاعتبار الوثائق والمستندات هم المأمور القضائى والناظر العام فى تنديا وكلاهما له اختصاصات محددة ومعروفة ، فالمأمور القضائى سيتولى الإشراف على غرناطة والقرى التابعة لها ، أمّا الناظر العام فى تنديا فستكون اختصاصاته قصر الحمراء وملحقاته ولكنه مع ذلك سيتمتع بصلاحيات القائد العام ، أو سلطة منصب القائد العام (التى تقع على كاهله) فى بقية مملكة غرناطة حيث سيتولى القيادة العسكرية والقضاء بالنزلة لجميع الأفراد العاملين بالقلع والحصون مما سيجعله المسئول عن الدفاع بالساحل وكذلك لمنع أى تمرد أو عصيان من جانب مسلمي الأندلس (٢٩) .

وفى هذا الإطار لا يمكننا نسيان فى أى لحظة أنه عام ١٤٩٢ كانت غرناطة مدينة بها ما يربو على ١٠٠.٠٠٠ مسلم (٣٠) ، وأنّ الشيء الوحيد الذى كان يخول السلطة للقشتاليين أو المسيحيين هو جيش الاحتلال ؛ ولهذا نصت شروط التسليم على أن يُقدّم أبو عبد الله ٥٠٠ من الرهائن المسلمين على أن يُسلم هؤلاء عقب تسليم غرناطة بعشرة أيام ، فقد كان قصر الحمراء بحاجة ماسة إلى تعزيز حصونه وقلاعه وكما قال مستشارو الملوك الكاثوليك إنّ هذا كان بمثابة مفتاح المدينة ولهذا - كما قال الأستاذ ليدرو - طلب الملوك عمالاً من جميع المدن الأندلسية للقيام بأعمال الإصلاحات والترميمات والتحصينات (٣١) ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن خوان ريخون قام بتسليم المشرف على أشغال الحمراء راميرو لوبيث ٨ مليون عملة مرابطية وذلك لسداد تكاليف هذه الأشغال نفسها طبقاً للحسابات التفصيلية التى مازال محتفظاً بها فى أرشيف سيمانكس (٣٢) .

و هذا التعزيز يُفهم تماماً إذا ما اعتقدنا فيما قاله مؤرخ القصور الملكية الذى أشار بأنَّ الملوك الكاثوليك لم يستطيعوا مغادرة غرناطة عام ١٤٩٢ لحدوث الكثير من أحداث الشغب والتمرد بالمدينة قام بها المسلمون الذين كانت لديهم مناجم مليئة بالأسلحة وقد اختار الملك الكثير من رجال العدالة والنظَّار العموميين لكبح تمردات المسلمين بالمدينة . لقد قام المسلمون بقتل الكثيرين وتمزيق آخرين انتقاماً من المسيحيين وكان رد الملوك الكاثوليك وضع المسلمين تحت نير الخوف والإرهاب والبطش للقضاء على تمردهم نهائياً (٢٣) .

ويستشهد الرَّجُلُ خيرُونيمو منذر الذى زار غرناطة عام ١٤٩٤ ، أى بعد الاستسلام بعامين بتمرد من هذه التمردات التى تزعمها المسلمون الأندلسيون والذى وقع فى يونية من هذا العام .

لقد مرت أربعة شهور فقط منذ شهر يونية حيث تزعم أربعون ألفاً من المسلمين مؤامرة سرّية رغبة منهم فى قتل المسيحيين عن بكرة أبيهم الذين لم يتجاوز عددهم عشرة آلاف رجل ، وقد اكتشفت هذه المؤامرة بفضل أسر أحد المسلمين من جرّاء تهديداته المستمرة لأحد المسيحيين ، وقد عُثِرَ فى بيت المسلم على أسلحة تكفى لأربعين رجلاً . وقد تمّ القضاء على هذه المؤامرة وعلى الرغم من أن لدى المسلمين تصريحاً لكى يعيشوا فى حرية تامة ويمارسون عبادتهم خلال ثلاث سنوات إلا أن مقاومتهم كانت تضعف رويداً رويداً ؛ لأنّه تمّ انتزاع جميع الموانئ البحرية التى كانت بحوزتهم وكذلك أكبر المدن المحيطة بها والتى يقطنها الآن مسيحيون مما سيجعل من الصعب عليهم القيام بالتمرد أو العصيان مرةً أخرى (٢٤) .

ونظراً لهذه التمردات أو الاضطرابات - والتى نعرفها من المؤرخين فقط - ولقد اضطرّ الملوك الكاثوليك إلى فرض عقوبات صارمة على المسلمين كما حرّموا عليهم امتلاك أسلحة وذلك بعد شهر من الاستيلاء على غرناطة أى فى السادس من فبراير ١٤٩٢ وإلى حد ما تمّ الاستفادة من المتعاونين فى أن يقوم هؤلاء بإقناع أهل غرناطة لكى يسلموا أسلحتهم مقابل ٨٠٠٠ قدح من القمح ستوزع بين الذين سلّموا أسلحتهم ؛ فالمسلمون كانوا قد عانوا الأمرين من الجوع إيّان الحرب فقبلوا هذا

القمح الفاسد كما يقول الأستاذ لاديريو ، ومع ذلك فإنَّ هذا الاتفاق جاء ليكون انتهاكاً آخر لشروط التسليم .

فالنص يقول : لن يؤخذ من المسلمين أسلحتهم ، وإن يرسل مبعوثون لجمع الأسلحة أو الجياد لا فى الوقت الراهن ولا فى المستقبل (٣٥) .

ويبدو أن الملوك الكاثوليك كانوا يخشون قيام المسلمين بانقلاب عسكرى والإجراءات التى اتخذت فى هذا الصدد كانت تشير بوضوح إلى ذلك . لقد اتخذت كافة التدابير لتفادى حدوث الانقلاب . لقد رأينا كيف أنه تم ترميم القلاع والحصون والمنشآت العسكرية لكى يكون الأمن شاملاً أو قيام القشتاليين بتجريد المسلمين الأندلسيين من الأسلحة وكإجراء نفسى قام الملوك الكاثوليك بفرض جيش مسيحي للاحتلال سيعسكر فى قصر الحمراء ، وقد بلغ عدد القوات طوال ١٤٩٢ حوالى ١٠٠٠ جندي بين فرسان ومشاة ، وفى العام التالى بعد أن استتب الأمن تم تخفيض هذا الجيش إلى ٤٥٠ رجلاً ، وفى عام ١٥٠٠ تم تقليص هذا العدد إلى ٣٠٠ جندي (٣٦) .

وبعد إيضاح كافة المدلولات السابقة يسهل الآن فهم كنه ومضمون أوامر أو تعليمات الحمراء فى عام ١٤٩٢ .

وبالفعل فإنَّ قضية الدفاع عن مدينة غرناطة التى لا يزال يقطنها كثير من المسلمين كانت تحتاج إلى قيادة عسكرية موحدة ، وقد كُلِّفَ بهذه المهمة الكونت تنديا ذو الخبرة الطويلة الذى كان يعرف تماماً مدى كرم وبؤس المسلمين . وكما يشير الأمر الأول استطاع أن يبرهن منذ وخلال اليومين اللذين زار فيهما قصر الحمراء على أن السيد إينيجو لوبيث دى ميندوثا سيتولى وحده الإشراف على قيادة قصر الحمراء من الداخل على أن يخضع جميع الأفراد لقيادته وفى إطار اختصاصه المدنى والعقوبى (٣٧) ، وهذه السلطة المهيمنة على كل شئ دى تنديا فى غرناطة ستستمر حتى عام ١٧٣٤ وإن كان ثقل المسلمين قد ضعف رويداً رويداً منذ عهد فيليب الثالث (٣٨) .

وفى مقابل ذلك فإنَّ الملوك الكاثوليك تركوا حكومة غرناطة فى أيدي الخريج أندريس كالديريون الذى كان يتولى إلى جانب ذلك منصب المأمور القضائى أو القاضى

العام أو موظف حكومي كان يمارس سلطاته بالنيابة عن التاج ، و جدير بالذكر أن المهام التي كان يزاولها منصوص عليها في رسالة كتوكيل سلمها له الملوك الكاثوليك ويبدو أن هذه الرسالة لم يتم الاحتفاظ بها وسيكون في غاية الأهمية معرفة كيف كان هذا الرجل يزاول مهام منصبه واختصاصاته في غرناطة دون أن تتعارض مع اختصاصاته في ثفرا وتالابيرا وإن كانت الاختصاصات الأخيرة مستقلة وانحصرت في إبلاغ الملوك بما يحدث وتنفيذ الأوامر والمراسيم الصادرة عن هؤلاء والمشكلة الوحيدة التي يمكن أن تنجم بين الكونت دي تنديا والمأمور القضائي هي تعارض الاختصاصات ، ومع ذلك فإن البند الثامن والتاسع نظما هذه الأمور في حالة حدوث صدام بين اختصاصات هذا وذلك ؛ وعلى ذلك فأى جندي يرتكب جناية في مدينة غرناطة أو أراضيتها سيكون اختصاص نظر هذه القضية من شأن المأمور القضائي العام ؛ لأن الأمر يتعلق بأراض تقع تحت دائرة اختصاصه علماً بأن الكونت دي تنديا في هذه الحالة مضطر لتسليم الجاني ، وإذا لجأ هذا الجاني إلى الحمراء فإنه يتعين على الكونت المساعدة للقبض عليه وكذلك السماح لمحضرى المأمور القضائي العام بالدخول إلى الحمراء لإخراج الجاني بعد إلقاء القبض عليه ، ويحدث العكس تماماً إذا ارتكب أى شخص جناية في قصر الحمراء وأراد اللجوء إلى المدينة لتفادي العدالة أى الهروب منها يجب على المأمور القضائي حينئذ إلقاء القبض على الجاني وتسليمه إلى الكونت تنديا لكي يحاكمه هذا ، وإذا تعذر على المأمور القضائي إلقاء القبض على الجاني يتحتم عليه أن يترك محضرى الكونت يبحثون عنه في المدينة وأراضيتها دون إعاقة هذه المهمة بأية حال من الأحوال .

وجانب آخر من التي ستنظم التعليمات أو الأوامر الإضافية التي تخص حراسة ورقابة الأبواب الموجودة بالمدينة ، فبعضها كان ينتمى لاختصاص الكونت تنديا والبعض الآخر للمأمور القضائي على أنه يتحتم على كليهما تكليف عدد كاف من الأشخاص للتعرف على الأشخاص الذين يدخلون ويخرجون من المدينة . وفي هذا التوزيع للبوابات الذي أجراه الملوك الكاثوليك فإن تنديا كان مكلفاً بحراسة الأبواب المؤدية إلى قصر الحمراء والتي كان من بينها باب التوابين وباب جوميرس وإيخاريس وواحدة يُحرم تحريماً قاطعاً وباتاً على النقباء والقادة والجنود ورجال

الحراسة مغادرة قصر الحمراء وملحقاته إلى مدينة غرناطة حاملين أسلحتهم ومن يُضبط بالمدينة أو خارج القصر وملحقاته حاملاً سلاحه سيُصادر منه هذا السلاح باستثناء الكونت دى تندياو أفراد حمايته أو حراسته .

يُحرّم تحريماً قاطعاً وباتاً على النقباء والفرسان والقادة والجنود إخراج جيادهم إلى مدينة غرناطة أو إحدى ضواحيها أو الأراضي التابعة لها أو لكى تقوم الجياد برعى العشب فى المروج الكائنة بالمدينة أو بأراضيها ، ومن يُضبط متلبساً بهذه المخالفة سيُصادر حصانه أو جواده لصالح العدالة أو لصالح الشخص الذى ضبطه متلبساً .

تحريم ألعاب الحظ والقمار والميسر تنفيذاً لقوانين مملكتنا وعلى من يُضبط متلبساً تُطبق عليه العقوبة المنصوص عليها فى هذه اللوائح والقوانين المعمول بها فى مملكتنا .

يُحرّم على المسيحيين تحريماً مطلقاً بيع أسلحة أو جياد للمسلمين ، وستكون عقوبة المخالف النفى من أراضى مملكتنا مدى الحياة ومصادرة أملاكه .

إذا قام أى نقيب أو حارس أو جندي بارتكاب مخالفة أو جناية أو جريمة بمدينة غرناطة خارج أبواب قصر الحمراء سيكون من اختصاص الخُرُيج كالديرون النظر فى هذه القضية ، وفى حالة هروب أو لجوء الشخص المخالف داخل قصر الحمراء وملحقاته فإنه يتعين على الكونت دى تنديا بذل مساعيه لإلقاء القبض على الجانى وإذا تَعَذَّرَ عليه يجب أن يسمح لمحضرى الخُرُيج كالديرون بالدخول إلى الحمراء لإلقاء القبض على المتهم .

أمّا إذا قام أى شخص عسكري أو مدنى بارتكاب جناية أو جريمة أو مخالفة داخل الحمراء وقام بالهروب إلى مدينة غرناطة فإنه يتحتم على الخُرُيج كالديرون تتبع المتهم وإلقاء القبض عليه وإذا تَعَذَّرَ عليه ذلك يجب عليه السماح لمحضرى ورجال الكونت دى تنديا بتتبع المتهم الفار حتى يتمكنوا من إلقاء القبض عليه بالبائسين المطة على قصر الحمراء ، أمّا المأمور القضائى فمن جانبه سيقوم بحراسة باب البيرا والبوابات الأخرى الكائنة بداخل المدينة .

أما باقى الأوامر أو التعليمات الموجهة إلى الكونت دى تنديا لكى يطبقها جنوده .
وهذه الأوامر هى بمثابة لائحة عسكرية ، ومضمونها فى غاية القسوة ، وستبين هذه
اللائحة كثيراً من السلوكيات التى تبدو عادية وطبيعية والعقوبات لا تفرق بين قادة
وفرسان وجنود ، وتتراوح هذه العقوبات ما بين خصم عدة أيام من الراتب الشهرى
حتى عقوبة التغريب والنفى .

ويشير البند الثالث من هذه اللائحة إلى تحريم خروج أى شخص موظف عسكرى
من مبنى قصر الحمراء وملحقاته وحصونه وقلاعته إلا بتصريح مسبق من الكونت دى
تنديا والعقوبات المطبقة نتيجة انتهاك هذا البند أو مخالفته تتراوح ما بين ثلاثة أيام
بدون مرتب فى المرة الأولى للخروج حتى الفصل من العمل دون هوادة فى حالة
الخروج ثلاث مرات .

أما البند الرابع فإنه يجبر جميع الجنود بقصر الحمراء الخروج عزلاً من السلاح
فى حالة ذهابهم إلى المدينة مع الحرمان من السلاح فى حالة ضبطه أو مشاهدته
بسلاحه خارج القصر وملحقاته ، وكان لهذا البند استثناء السماح للكونت دى تنديا
والقادة وأفراد حراسته بحمل السلاح .

وفيما يتعلق بالبند الخامس فإنه يحرم على العسكرىين بقصر الحمراء إخراج
جيادهم إلى المدينة أو أخذهم لرعى العشب بالحقول المجاورة للمدينة ، وكان يُسمح لهم
فقط بإخراج جيادهم داخل قلاع قصر الحمراء وفى حالة رؤيتهم خارج الحمراء مع
جيادهم تُصادر منهم هذه الجياد .

أما البند السادس فكان يتعلق بالعباب الحظ ، وكان التحريم قاطعاً وبناتاً وحاسماً
استناداً إلى تحريمها فى القوانين العامة بقشتالة .

وفيما يختص بالبند السابع فإنه مرتبط بالبند السابقة التى أسلفناها
وعلقنا عليها ، والتَّحريم القاطع على المسلمين امتلاك أسلحة ؛ ولهذا فإنه كان
يُحكم على المسيحي الذى يبيع سلاحاً أو حصاناً للمسلمين بالنفى وفقدان
ممتلكاته .

وبالنسبة للبند العاشر والأخير كان يدين الجنود بقصر الحمراء الذين يتم ضبطهم نائمين بالمدينة دون تصريح مسبق من الكونت دى تندياو كانت العقوبات أو الجزاءات فى هذا الصدد شديدة وصارمة ، فنوم ليلة أو قضاء ليلة بالمدينة دون تصريح مسبق كان يتسبب فى خصم ٣٠ يوم من الراتب ، وإذا تكرر الأمر كانت العقوبة الفصل النهائى من العمل دون هوادة .

وخلاصة الأمر فإنه إلى جانب أهمية الأوامر والتعليمات ونظراً لوجود اختصاصات مختلفة ومتشابهة أحياناً (الحمراء / غرناطة وأراضيها) كانت هذه الأوامر بمثابة الهوية الذاتية للحياة الغرناطية خلال فترة طويلة من الزمن ، أما بقية الأوامر أو التعليمات فكانت أشبه بلائحة عسكرية تضم قائمة لا حصر لها من الأوامر العسكرية ، وكان تفسير كل هذا فى طبيعة الظروف التى أحاطت باسترداد غرناطة ، لقد كانت غرناطة فى تلك الأثناء غير آمنة وكان عدد المسلمين يفوق بكثير تعداد جيش الاحتلال ، ولم يكن هناك بدٌ من فرض لائحة قاسية وأوامر صارمة لحفظ الأمن واستتباب النظام ومنع تحمس الجنود الغزاة و لتفادى الإباحية والبطش من قبل هؤلاء الذين كانوا بصدد استرداد مدينة غرناطة نفسها من أيدي غزاتها وفاتها المسلمين .

ملحق وثائقي

الخامس والعشرون من مايو ١٤٩٢

سانتافيہ ، غرناطہ .

أوامر وتعليمات وجهها الملوك الكاثوليك إلى الكونت دي تنديا والخريج كالديرون وهي بمثابة لائحة تحدد اختصاصات ومهام حكومة الأول بقصر الحمراء وملحقاته والثاني بمدينة غرناطة والأراضي التابعة لاختصاصها .

أرشيف دوقية باسكتلندا ، وثيقة مراسيم أو أوامر أو تعليمات الملوك الكاثوليك التي يجب أن يُحتفظ بها في قصر الحمراء (الملك والمملكة) (إيزابيل وفـرنـانـدو)

الأوامر التي أمرنا بتنفيذها في قصر الحمراء بمدينة غرناطة وكذلك بالمدينة المذكورة وذلك لنشر العدالة بين ربوعها تتلخص في الآتي :

أولاً : سيكون من اختصاص الكونت دي تنديا الحكم بالعدل في الأحوال المدنية والإجرامية والجنائية التي تحدث داخل قصر الحمراء وقلاعه وحصونه وملحقاته .

ثانياً : سيكون من اختصاص الخريج كالديرون الحكم بالعدل فى الأحوال المدنية والإجرامية التى تحدث فى مدينة غرناطة وضواحيها و القرى التابعة لها باستثناء قصر الحمراء وقلاعه وحصونه وملحقاته ، وذلك استناداً إلى التوكيل الذى يوجد بحوزته والصادر عنا نحن الملوك الكاثوليك .

ثالثاً : يجب على القادة والفرسان والجنود والموظفين بقصر الحمراء البقاء فى هو عدم مغادرته أو حصونه أو قلاعه إلا بتصريح مسبق من الكونت دى تنديا وإذا حدث ذلك فإن مرتكب المخالفة يُخصم له أجر ٣ أيام من راتبه لأول مرة وعشرة أيام فى المرة الثانية وشهر كامل من راتبه فى المرة الثالثة والفصل النهائى من العمل والشطب من سجلاتنا ، ويتحتم على الكونت دى تنديا أن يعلن ذلك على الملأ بقصر الحمراء وذلك لى يتحقق الجميع من عدالة الحكم دون ظلم أو إحفاف للمخالف ، كما يتحتم تعيين أفراد حراسة عند بوابات قصر الحمراء وذلك للتعرف على الداخلين والخارجين من المبنى .

كما يُحرم مطلقاً على أى نقيب أو قائد أو جندى المبيت خارج الحمراء بمدينة غرناطة دون تصريح مسبق موقع من الكونت دى تنديا فإذا كان المخالف نقيباً يُخصم له شهر من راتبه أما إذا كان جندياً سيُخصم له من راتبه عشرون يوماً وإذا تكررت المخالفة تتضاعف العقوبة وتصل أحياناً إلى الفصل النهائى من الوظيفة أو العمل وكذلك الشطب من السجلات وستوزع قيمة الخصم بين الذين اكتشفوا المخالفة أو المخالف أو بين الذين قاموا بتنفيذ الحكم .

هذا وقد أصدرنا هذه الأوامر أو التعليمات لى يقوم بالامتثال لها وتنفيذها كل من الكونت دى تنديا والخريج كالديرون دون تسويق أو مماطلة على أن تعلق الأحكام على الملأ لى يتحقق الجميع من إحقاق الحق ونشر العدل بين رعايانا .

صدرت هذه التعليمات أو الأوامر فى الخامس والعشرين من شهر مايو ١٤٩٢ بمدينة سانتا فيه ، غرناطة .

أنا الملك أوقع الوثيقة أنا الملكة أبرم الوثيقة

ونحصر بالقلاع والبوابات ما يلي :

- قلعة وبوابة التوابين من اختصاص الكونت دى تنديا
- بوابة جوميريس من اختصاص الكونت دى تنديا
- بوابة إبخاريس من اختصاص الكونت دى تنديا
- بوابة البيازين (صائدو الصقور) المؤدية إلى الحمراء من اختصاص الكونت دى تنديا
- بوابة إلبيرا من اختصاص المأمور القضائى .

(التوقيعات الملكية)

بأمر الملك فرناندو الملكة إيزابيل أبرم هذه الوثيقة (فرناندو دى ثفرا)
وفى هامش الوثيقة كُتِبَ يجب أن يقوم الكونت دى تنديا والنَّاطِر العام أو المأمور
القضائى بحفظ هذه الوثيقة .

الهوامش والمصادر والمراجع

(١) وكثيرة لهذه الأبحاث قُمت بنشر العديد منها بالتعاون مع ايسبينار مورينو .
 م . " شخصية من الميريا فى التواريخ الإسلامية المسيحية ، الأمير ثيد يحيى النجار
 (١٤٣٥ - ١٥٠٦) توره فى حرب غرناطة " صحيفة معهد الدراسات الألميرية ، العدد
 السابع (١٩٨٧) الصفحات ٥٧ - ٨٤ نفس المصدر السابق وصية ووفاة السيد /
 بيدرو دى جرانادا وتكريم البارون سانتا ماريا مايوركا ٢٢ (بالما دى مايوركا ١٩٨٩)
 الجزء الأول الصفحات من ٢٣٩ - ٢٥٤ السيرة الذاتية الكاملة لا زالت تحت الطبع .

(٢) إحدى هذه الوثائق الهامة لمعاهدة تسليم غرناطة الأصلية وهُبت من الماركيز
 دى كوربييرا إلى بلدية غرناطة فى مطلع هذا القرن ، انظر التعليقات التى أعدها فى
 هذا الصدد جاريديو أتييتا عن هذه الهبة فى كتابه معاهدة تسليم غرناطة ١٩١٠ .

(٣) ماريانو جاسبار أى ريميرو يشير فى دراسته " غرناطة فى حوزة الملوك
 الكاثوليك ، السنوات الأولى من السيطرة على غرناطة " مجلة مركز الدراسات
 التاريخية لغرناطة ومملكتها ، الجزء الأول رقم ٤ (١٩١١) ص ٢١٢ واقعة معروفة
 جيداً وهى تسليم غرناطة لقوات الملوك الكاثوليك وقد ظل هؤلاء بها وكان لهم
 قصراً فى سانتا فيه حتى الأيام الأولى من شهر يونيو عام ١٤٩٢ . وفى هذا
 الصدد يقدم الأستاذ لاديو كيسادا رسالة من الملوك الكاثوليك مؤرخة فى الرابع من
 يونيو ١٤٩٢ بقرطبة مما يؤكد أن الملوك قاموا قبل ذلك بأيام بمغادرة غرناطة (أنظر
 غرناطة بعد الفتح السكان الجدد والمسلمون الأندلسيون ، غرناطة ١٩٨٨ ص ٢٨٩ -
 ٣٩١) .

(٤) المصدر السالف الذكر ص (٣٦٦ - ٣٨١) .

(٥) جاسبار أى رميرو . م . " دخول الملوك الكاثوليك غرناطة فى وقت التسليم " RCEHGR الجزء الأول رقم ١ (١٩١١) ص ٧ - ١١ الاتفاق وقبول الشروط الخاصة بتسليم غرناطة من جانب حكامها وشعبها يقول المؤلفون المحدثون لم تكن هناك حاجة لانتظار اليوم المحدد للتسليم وفقاً لنصوص المعاهدة لكى يستولى الملوك الكاثوليك على المدينة ، ونظراً لخوف أبو عبد الله من تمرد الشعب على شروط المعاهدة فقد قام بدعوة الملوك الكاثوليك بتعجيل قدومهما لغرناطة ، وحقيقة فإن الطريقة غير الصحيحة التى تمت بها المفاوضات من قِبَل الأصدقاء الحميمين لعبد الله وانعدام الثقة الملحوظ بين مختلف طبقات الشعب الغرناطى فى أثناء الحرب كانت أكبر مبرر على تخوف أبى عبد الله .

(٦) جاريديو أتيتنا (المصدر السالف الذكر ص ١٦٦) يشرح كيف أن هذا الأمير وصل إلى حوزة الملوك الكاثوليك كرهينة لكى يمثل والده عبد الله لنصوص الاتفاقية ويقوم بتسليم غرناطة للقشتاليين عندما تنتهى الحرب .

(٦ مكرر) جاسبار إى رميرو . م . " دخول الملوك الكاثوليك غرناطة فيوقت التسليم " ص ١٣ ، ١٦ ، ١٧ .

(٧) معلومات دى ب دى روى فى تاريخ الاستيلاء على غرناطة بواسطة الملوك الكاثوليك وفقاً لوجهة نظر بيرناردو دى روى ترجمة خوان ف دى ريانيو ، مجلة الحمراء رقم ١٥ (غرناطة يناير ١٨٩٨) وفيما يتعلق بالخطاب الفرنسى المجهول الهوية فقد ترجمه إيجيلاث يانجواس . ل . ، والذي نُشرَ فى محامى غرناطة رقم ٣١٧ فى الثانى من يناير ١٨٨٣ .

(٨) وفى هذا الموجز للهوامش عن الاستيلاء على غرناطة فقد تتبعنا الاستنتاجات التى توصل إليها جاسبار إى رميرو . م . " دخول الملوك الكاثوليك غرناطة فيوقت التسليم " المصدر السالف الذكر سابقاً الصفحات من ١٣ - ٢٤ .

(٩) على الرغم من الأهمية التى تمتع بها هذا الشخص فى الموضوعات الغرناطية يجب الاعتراف بأن المعلومات عنه قليلة ونادرة ، وأنا أعرف فقط . ، وجامير أ . ، المذكور سلفاً ص ١٥ وهما يعتقدان بأن هذه البلدية الإسلامية قد تم تشكيلها فيما بعد وفى تاريخ لاحق .

(١٠) عن فرأى إيرناندو دى تالابيرا الأمر يختلف تماماً ؛ لأن الأعمال التى تبحث عن كنه شخصيته وحياته وفيرة وكثيرة وكعينة لذلك نختار الأعمال التالية مدريد . خ . عن الحياة المقدسة لسانت إيرونيمو أسقف غرناطة - مدريد ١٨٦٦ ، فرنانديث دى مدريد . أ . ، حياة فرأى إيرناندو دى تالابيرا أول أسقف لغرناطة مدريد ١٩٣١ .

(١١) الشخصية السيادية للسيد إينيجو لوبيث دى ميندوثا كأحد دارسى الروحانيات فى إسبانيا الأمر الذى أدى إلى دراسة شخصيته مراراً وتكراراً ، فهناك الكثير من الأعمال الكلاسيكية التى تناولت شخصية هذا الرجل وآخرين من الأفراد البارزين بأسرته من بينهم إيبانيث دى سيجوييا . ج . ، (ماركيس دى مونديخار) تاريخ بيت مونديخار ، المكتبة الوطنية مخطوط رقم ٣٢١٥ لينا سيرنوف ، تاريخوادي الحجارة وأهل ميندوثا إبأن القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، مدريد ١٩٤٦ ، مجلدان وأبحاث مدعومة بوثائق جديدة مثل مؤلف ثيبدا أدان . خ . تنديا العظيم رجل العصور الوسطى وعصر النهضة ، دفاثر التاريخ ، الجزء الأول (١٩٦٧) الصفحات من (١٥٩ - ١٦٨) ولنفس المؤلف الكونت دى تنديا أول ناظر عموم لقصر الحمراء ، دفاثر الحمراء ، العدد ٦ (١٩٧٠) الصفحات ٢١ - ٥٠ ، مينيسيس جارثيا إى غرناطة والكونت الثانى دى تنديا ، مجلة إسبانيا (١٩٧٢) الصفحات من ٥٥٠ - ٥٦٢ ، ولنفس المؤلف مراسلات الكونت دى تنديا (١٥٠٨ - ١٥١٣) سيرة ذاتية ، دراسة ونسخ (١٩٧٣ - ١٩٧٤) مجلدان وأخيراً السيرة الذاتية الحديثة جداً من أعمال الأمريكية الشمالية هيلين نادر أفراد أسرة ميندوثا والنهضة الإسبانية ، وادى الحجارة ، ١٩٨٦ ترجمة إلى الإسبانية لرسالتها للدكتورة للمؤلفة نفسها ، نبيل قشتالة فى القرن السادس عشر وقضية ماركيز مونديخار ، ١٤٨٠ - ١٥٨٠ فى مراجعة التاريخ الاقتصادى ، السلسلة الثانية العدد ٣٠ الجزء الثالث (١٩٧٧) الصفحات ٤١١ - ٤٢٨ وأيضاً الأستاذ سيمولكا كلاريس له بحثان فى الصحافة عن شخصيتنا .

(١٢) شخصية المأمور القضائى أندريس كالديرون غير معروفة تماماً وتحتاج إلى من يتجرأ لدراستها بدقة وتمحيص و الإشارة الوحيدة التى أعرفها عن سيرته الذاتية

هي التي أعدها دوران لير شندى . خ . ، المصدر السالف الذكر الجزء الثاني ص ٥٤١
أما ما عدا ذلك فهي فقيرة ونادرة المعلومات وتنحصر في جملتين كتبهما مارمول
كاربخال عن أندريس كالديرون .

(١٣) انظر جاسبار إي رميرو . م . ، إلى جانب الأعمال المذكورة الاتفاق الأخير
ومراسلات الملوك الكاثوليك مع أبي عبد الله بشأن تسليم غرناطة ، محاضرة في جامعة
غرناطة في الافتتاح المهيّب للسنة الجامعية أو الدراسية ١٩١٠ - ١٩١١ ، غرناطة عام
١٩١٠ ووثائق عربية من البلاط النصرية في غرناطة ، الاتفاقيات الأوليو المراسلات
الحميمة بين أبي عبد الله الملوك الكاثوليك بشأن تسليم غرناطة ، مجلة الأرشيفات
والمكتبات والمتاحف ، العدد ٢٢ (١٩١٠) ٤ ملازم ، دى جاريدى أنيتا مؤلفه نصوص
معاهدة تسليم غرناطة ، غرناطة ١٩١٠ .

(١٤) أرشيف بلدية غرناطة كتاب الإمدادات والوثائق الملكية الأوراق ٥٢ و ٤٦٩ ،
تفسير وشرح لهذه الوثائق في عمل جاييجو يورين . م . و جامير سانديبال . أ .
مسلم والأندلس في مملكة غرناطة عام ١٥٥٤ ، غرناطة ١٩٦٨ ، ص ١٤ - ١٦ .

(١٥) ورأى الشخصى أن هذا المجلس الإسلامى تم تعيينه يوم الخامس
والعشرين من مايو عام ١٤٩٢ وبهذا أتفق مع جاسبار ريميرو . م . " غرناطة تحت
سلطة الملوك الكاثوليك ... " المصدر المذكور أنفاً ص ٢١٨ - ٢١٩ ومن ناحية أخرى
دورات لير شندى . خ . ، المصدر سابق الذكر الجزء الأول ص ١٢٢ - ١٢٧ الذى
أشار إلى أن المجلس الإسلامى قد تم تشكيله فى مطلع عام ١٤٩٢ ، وأخيراً جاييجو
أ . ، وجامير أ . ، المذكور سلفاً ص ١٥ وهما يعتقدان بأن هذه البلدية الإسلامية قد
تم تشكيلها فيما بعد وفى تاريخ لاحق .

(١٦) وبالنسبة لهذه الشخصية الذى ينتمى إلى أميريا من لوس بيليت توجد
مطبوعات تعكس حياته ، تابيا جاريدو . خ . أ . ، عبد الله الأخير ، مجلة بيليثانا ،
العدد ٥ (١٩٨٦) ص ٤١ - ٤٥ ، جريما ثير باتيس . خ . ، الشروط المتفق عليها فى
١٤٨٨ وفى ١٥٠١ بين الملوك الكاثوليك والمسلمين الأندلسيين ، دى بيليث بلانكو
وبيليث روبيو ، مجلة بيليثانا ، العدد ٦ (١٩٨٧) ص ٧٥ - ٨٦ .

- (١٧) جاسبارو ريميرو . م . ، المصدر سالف الذكر ص ٢١٨ .
- (١٨) هذا المخطط يبدو أكثر تطوراً أو بأمثلة في جريما ثير بانتيس . خ . تصحيح بيرا باثا قبل عام ١٥٠٠ ، المجلة الملكية ٧ - ٨ (١٩٨٦ - ١٩٨٧) ص ٥٥ - ٨٧ .
- (١٩) لاديرو كيسادا . م . أ . " غرناطة بعد الفتح " ص ٢٦٦ - ٢٨١ .
- (٢٠) وعلى الرغم من أن هذا هو خط الوثيقة فالواقع أن مرأت قليلة اجتمع فيها القاضى المسيحى والقاضى المسلم للنظر فى قضية طرفاها مسلم ومسيحى . وأكثر من ذلك إذا صدقنا كلمات إيرناند وثقرا الموجهة إلى الملوك الكاثوليك يجب أن نستنتج بأن المامورين القضائيين كانوا دائماً ينتهكون نصوص المعاهدة وكانوا دائمي التدخل فى القضايا التى طرفاها مسلمان . فى المنازعات بين مسلم ومسلم لا تتم محاكمتهم وفقاً للمعاهدة بل طبقاً لقوانين جلالتهكم وفى الحالات الإجرامية والجنائية سيخضعون أيضاً لقوانين المملكة وإن كان هذا الأمر قد سبب الكثير من شكاوى الفقهاء . سيكون رهن إشارتكمو طوع أو أامر جلالتهكم (كودوين ، الجزء الحادى عشر ص ٥٠٤) .
- (٢١) أكاديمية التاريخ الملكية ، مجموعة سالاتار ، مخطوط رقم ١٩٥/٩ (مجهول الأصل) تاريخ قصر غرناطة ، الورقة ٣٧ و ٣٨ .
- (٢٢) لاديرو كيسادا . م . أ . المصدر المذكور أنفاً ص ٢٨٠ .
- (٢٣) أمثلة كل هذه النعمو الفضائل والجوائز يمكن الاطلاع عليها فى لاديرو كيسادا . م . أ . " مسلمو قشتالة فى عهد إيزابيل الأولى " بلد الوليد ١٩٦٩ .
- (٢٤) انظر فى هذا الصدد جاسبار إى ريميرو . م . " رحيل عبد الله مع أسرته وخدمه الرئيسيين (حاشيته) " R.C.E.H.G.R. الجزء الثانى ، رقم ٢ (١٩١٢) ص ٥٧ - ١١١ .
- (٢٥) هذا الموضوع لم يتم التصدى له حتى الآن منوجهة النظر هذه . نعرف جيداً أن الملوك الكاثوليك قد أجبروا حكام غرناطة على التخلي عن أملاكهم وممتلكاتهم فى كاستياخر وكورتيسو يوثا كوردبلا وتيخولا إلى محمد حسن دى سيرون ويحيى النجار

إلى طه مارشينا إلخ ... حتى لم يبق أى شئ منها فى أيدي أناس يعتنقون الديانة الإسلامية أو لمن ينتسبون إلى هذه الديانة . وهناك دراسة تدور حول هذا الموضوع خلا . ب . سانشيث ، أ . " السلطة المسيحية وتعاون المسلمين الأندلسيين فى مملكة غرناطة " (١٤٨٥ - ١٥٠١) فى دراسات عن مالقة ومملكة غرناطة فى الذكرى المئوية الخامسة لذكرى فتح غرناطة ، مالقة عام ١٩٨٨ ص ٢٧١ - ٢٨٩ .

(٢٦) أرشيف بلدية غرناطة ، كتاب المجالس الحكومية والدينية لعام ١٤٩٧ حتى عام ١٥٠٢ الورقة ٢١ ف .

(٢٧) فيما يتعلق بتدخله لإقناع أبى عبد الله لمغادرة إسبانيا فإن إيرناندى ثفرا يحكيه لنا فى مذكرات خدماته عندما أكد عقب انتهاء الفتح لقد غادر الملوك الكاثوليك غرناطة وتركوا هناك . وقد تفاهمت مستخدماً كافة سبل الدماء والإقناع والدبلوماسية لإقناع الملك المسلم بمغادرة إسبانيا . ولقد كلفنى ذلك - لكى يؤتى ثماره المرجوة - كمية من النقود ويغال أعطيتها للملك المسلم وأشياء أخرى (جاريو أتيتنا . م . المصدر المذكور سلفاً ص ٣٢٦ - ٣٢٩) .

(٢٨) وفيما يخص العبيد فى أكاديمية التاريخ الملكية ، مجموعة سالا ، المخطوط ١٩٥/٩ المجهول الهوية ، تاريخ قصر غرناطة الورقة (٧٣ ق) و (٧٤ ق) . وفيما يتعلق بأفراد بيليث فإن الأمر يتعلق برسالة مؤرخة فى الرابع من ديسمبر ١٤٩٣ موجهة من الملكة إيزابيل إلى تالا بيرا دى تتعلق بكثير من أمور الدولة الهامة بين الأمين العام والأسقف رئيس الأساقفة سنقوم بنسخ جزء منها . ولما أننا سنستفيد جيداً من أفراد بيليث ؛ لأن الأمر أمرنا ولم يكن بوسعنا إعطائهم إياه ؛ لأنه قد أقسمنا على ذلك لهذا نرى أن إيرناندى وثفرا يجب عليه أن يتفاهم بالشكل الذى يراه مع المحضر من أجل الحصول على موافقة هؤلاء الأمر الذى يبعد عنا أى شبهة وأرجو التفاهم بوسيلة أو بأخرى وبالشكل الذى يحلو لكم دون أن يدري أحد بالموضوع لما تركه المسلمون عند رحيلهم " (مذكرات أكاديمية التاريخ الملكية ، الجزء السادس ، مدريد ١٨٢١ ص ٣٧٢ - ٣٧٣) .

(٢٩) هذا المنصب كقائد عام لمملكة غرناطة إلى جانب الاختصاصات القضائية في المجال العسكري ستصطدم على وجه السرعة مع العدالة العادية التي سيتم تشكيلها اعتباراً من عام ١٥٠٥ والتوترات بين العدالتين المدنية والعسكرية سيكون من بين الأسباب التي سيستشهد بها المؤرخون الكلاسيكيون كالشرر اللازم لإشعال حرب البخارأس عام ١٥٦٨ وخاصة على أساسوصول السيد / بيدرو دى ديثا إلى رئاسة العدالة المدنية (انظر هذا الموضوع بتوسع في أورتانو دى ميندوتا . د . " حرب غرناطة " طبعة بلانكو جونثاليث ، مدريد ١٩٧٠ ص ١٠٣ - ١١٣ .

(٣٠) منذر . خ . ح . " رحلة في إسبانيا والبرتغال " مملكة غرناطة ، غرناطة ١٩٨٧ ، ص ٤٨ في أرض المسيحيين منزل كبير يشغل مساحة أكثر من خمسة منازل إسلامية ومن هنا فمن الملائم القول بأنه كان يوجد في غرناطة ١٠٠ ألف منزل كما أعتقد أنا . وكذلك بيتينتي . ب . ، نظرة دورويامي دى غرناطة للمسافرين أو الرحالة الأجانب خلال القرنين الخامس والسادس عشر ، التاريخ الجديد ، العدد ١٥ (١٩٨٦ - ١٩٨٧) ص ٣٠٩ يشيرون في هذا الصدد (نعني شعب مدينة غرناطة) حوالى ١٠٠,٠٠٠ نسمة منهم ١٤,٠٠٠ بتل البانسسين وقد تم طرد ٢٠,٠٠٠ عام ١٤٩٢ ويقول بيدرو دى ميدينا إن تعداد شعب غرناطة بلغ ٤٠٠,٠٠٠ نسمة .

(٣١) لاديروكيسادا م . أ . ، المصدر سالف الذكر ص ٢١٤ انظر أيضاً أرشيف بلدية أشبيلية ، جزء الملوك الكاثوليك ، الثالث ، الورقة ٢٧٠ - ٤٧٦ في ١٢ فبراير و ٦ مارس ١٤٩٢ حيث طُلبَ عمال للقيام بأعمال الترميمات والإصلاحات والتحسينات ٢,٤٠٠,٠٠٠ طلبية من أشبيلية .

(٣٢) الأرشيف العام تسيमानكاس " الحسابات الكبرى " دفتر ١٤ .

(٣٣) بيرنانديث . أ . " تاريخ الملوك الكاثوليك " BAE الجزء ٧٠ ص ٦٦٤ .

(٣٤) منذر . خ . ، المصدر سالف الذكر ص ٤٩ .

(٣٥) لاديروكيسادا م . أ . ، المصدر المذكور سلفاً ص ٢١٤ ، منذر . خ . ، المصدر المذكور آنفاً ص ٣٩ ، ٥٩ .

(٣٦) منذر . فى المصدر سالف الذكر ، ص ٦٠ .

(٣٧) إقامة منذر بالحمراء ورأيه الهائل أو الأسطوري عن الكونت دى تنديا
لا يترك مجالاً للشك بالنسبة للتعليق الذى سردناه .

(٣٨) مورينو أوليدو م . أ . وثيقة من أرشيف الحمراء عن أفراد ميندوتا بغرناطة
دفاتر الحمراء العدد الرابع (١٩٦٨) ص ٨٩ - ٩٨ .

الفصل الخامس عشر

اقترح مُتْحَف قصر الحمراء

إعداد : ماتيو ريبيا أوثيدا

بعد فترة من انفصال المتحف الإشباني الإسلامي عن مجموعة قصر الحمراء بإدارة مستقلة يعود مرة أخرى للانضمام إليه ، ورغبة الانضمام مرة ثانية تمت الموافقة عليها في الجلسة التي عقدتها هيئة المتاحف في السادس والعشرين من نوفمبر عام ١٩٩٣ ووزارة الثقافة في أمرها الوزاري الصادر في الثامن عشر من مايو ١٩٩٤ لإعادة تنسيق وتنظيم المتاحف التابعة للدولة الخاضعة لإشراف الوزارة والكائنة في إقليم الأندلس المستقل ذاتياً قد غير اسم المتحف إلى مُتْحَف الحمراء ، ويعيداً عن الشكليات المحضة فإنها محاولة للتعرف على اتصاله وارتباطه بالآثر الخالد .

وبالفعل فإن أصله وتاريخه وتطوره ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ المجموعة النصرية الذي أُعلن عن كونه أثراً وطنياً عام ١٨٧٠ وذلك من خلال الأمر الحكومي الجمهوري (الصادر في العشرين من مارس ١٨٧٣) التي اختار قصر الحكام الكائن فوق المشوار والحجرة الذهبية ليكون مقراً للمتحف .

وفي بداية الأمر كان يحتوى على القطع التي تم تجميعها من نفس الحمراء ، وقد تم توصيفها وتصنيفها منذ منتصف القرن التاسع عشر بواسطة محافظه رفائيل كونتريراس . وبعض هذه القطع كان دائماً موجوداً هنا مثل إبريق أو جرّة الغزلان وهو

أكبر شاهد على عظمة الأثاث المفقود وأشياء أخرى مثل أسود مارستان تم إحضارها من خارج الحمراء أما الباقي فقد عُثِرَ عليه في الحفريات التي تمت في مبنى الحمراء وملحقاته وقلاعته وحصونه وذلك منذ القرن الماضي والتي ستستمر بشكل منظم ومنهجي في القرن الحالي .

ولتطويره كان في غاية الأهمية المستودع لأسباب تتعلق بحفظ القطع الفنية المعمارية الواردة من القصور النصرية مثل مشربيات قاعة الشقيقتين أو الحمامات وتيجان الأعمدة وقطع قماش من الجص والزليج .

كما أن الإدارة ستتنازل عن كثير من القطع لإثبات أصالة الواردة من هذا الأثر ، قطع أندلسية ومغربية ومصرية وتركية أو فارسية لا تعنى فقط عملية إثراء المتحف ذاته من جرأ القيمة الخاصة والمستقلة لهذه القطع بل لعلاقتها وارتباطها بالحمراء مصنفين إياها في إطار الفن الإسباني الإسلامي والحضارة الإسلامية والعناصر الزخرفية (التخطيطات الهندسية واستخدام النباتات والزهور) وتقنيات (الحجر المذهب على سبيل المثال) توجد على قدم المساواة على الرغم من اختلاف بيئاتها وأزمانها ولكن يجمع بينها الفكر والنوع الرفيع المتقاربين .

وتستحق على انفراد بعض الهبات والهدايا الخاصة ، ومن بينها تبرز تلك التي قام بها السيد / مانويل جوميث مورينو الذي قدم بعض القطع ذات الأهمية الحيوية والبارزة والكائنة حالياً : كرسى الأفخاذ أو علبة الطلي والمجوهرات من العاج أو ذات الأهمية للغاية ، وهى عبارة عن جزء من القرآن الكريم التي تُعرض لأول مرة وتُدرس . إن تصرف السيد / مانويل جوميث مورينو هو مسلك رائع ونموذجي بيننا . ونظراً لارتباطه بعمليات وأعمال قصر الحمراء وملحقاته في العديد من اللجان المتابعة والإدارات المتتالية لم يسهم فقط بمعلوماته وعلمه بل ترك بالوصية العديد من القطع التي تُثرى المتحف اليوم مادياً .

وعملية انتقال أو نقل المتحف كانت مشكلة بالغة الأهمية منذ بدايتها ، واليوم نود حلها واضعين في اعتبارنا آراء وخبرات المختصين والمتخصصين من خلال هذا القرن الطويل لحياة هذا المتحف .

و كما أشرنا في البداية فبعد اعتبار الحمراء وملحقاتها وقلاعها وحصونها تراثاً وطنياً بثلاث سنوات فإن أمراً حكومياً خصص القاعة الكائنة بأعلى المشوار والحجرة المذهبة لتكون مقراً للمتحف ، وقد أقيم بالفعل هناك وبمرور الزمن اتسع المتحف وتطور وامتد ليشمل غرف الإمبراطور كارلوس الخامس وقاعة الملوك الكاثوليك وأماكن أخرى مجاورة ، وفي صورة قديمة يمكننا رؤية حوض الغزلان والأسود في ركن من القصور يشعُ نسيماً غريباً بالبيئة الكائنة بها ، هذا الانتقال الرومانسي (الإبداعي) الذي ينأى تماماً عن المطالب المتحفية وللوضعية العلمية السائدة في نهاية القرن التاسع عشر لا يمكن أن تُرضى أو تُسرَّ علماء الآثار والمحافظين ، وإلى جانب المسائل التقنية كان من المستحيل أن يكون هناك تتابع منظم ومُنسَّق لهذه القطع (المبعثرة في صالات عديدة والبعيد بعضها عن البعض الآخر) لاختلافات زمنية ونمطية أو إقليمية طرازية متماسكة متألّفة وكذلك نظرتها أو رؤيتها المقبولة ؛ ولذلك ففي عام ١٨٨٥ نجد أن السيد مانويل جوميث مورينو جونتاليث اقترح أن يكون القصر المتهدم للإمبراطور كارلوس الخامس لكي يكون مقراً ملائماً يليق بالمتحف العربي الإسباني مستنداً إلى ضرورة استمرار الإدارة العلمية للأثر دون التعارض مع النشاط المتحفى الخاص بالآثار .

" إنه لمن دواعي احتياجات أيامنا هذه إنشاء أو إقامة مكتبة ومتحف وطني عربي إسباني حيث يُمكن دراسة القطع الأثرية وكل ما يتعلق بتاريخ هذا العصر الخاص بالسيطرة العربية على إسبانيا حيث سنُعدُّ مآكيتاً ونماذج للمباني التي كانت موجودة إبّان هذا العصر من تاريخنا سواء في ذلك المباني الوطنية أو غيرها وذلك لإعداد دراسة مقارنة لفنون هذا الشعب وتاريخه وعلومه وأدابه . وغرناطة التي تضم بين جنباتها وحضنها أجمل وأغرب الآثار العربية يمكن جعلها أكثر شهرة بين بلدان العالم ، هي المكان الملائم جداً لإنشاء هيئة من هذا النوع ولن يتوفر بأي مكان آخر الظروف الأمنية والعزلة والقرب من القصر الخاص بالملوك المسلمين وكذلك أهم الآثار العربية مثل قصر الإمبراطور كارلوس الخامس في الحمراء " (مانويل جوميث مورينو جونتاليث ، قصر الإمبراطور كارلوس الخامس في الحمراء ، مدريد ١٨٨٥ . وأستشهد على ذلك بالنسخة المكتوبة على الطابعة والمحفوظة في مكتبة الحمراء وجئة العريف ص ٢٤) .

ومنذ هذا الاقتراح حتى حقبة الأربعينات من القرن الحالى بدأ العمل لتنفيذ هذه الفكرة ، وتتعالى بعض الأصوات المعارضة مثل العالم الضليع بياردار لفكرة إقامة متحف الحمراء مُحْتَجاً بعدم وجود آثار كافية لإقامة هذا المتحف وينادى بضم المتحف إلى متاحف أخرى وجعله مُتَحَفًا للفنون الجميلة ولكنه لم يعترض على الإطلاق على فكرة استخدام القصر الذى ينتمى إلى عصر النهضة كمقر للمتحف . ومن الإنصاف الاعتراف بالوعى التاريخى لهذا العالم الغرناطى الجليل الذى اقترح بكل شجاعة أن يُغطى القصر بأسقف زجاجية ؛ لأن هذا سيساعد على إضاءته الطبيعية - الملائمة للمتحف - لن يغير على الإطلاق من طبيعة المبنى الناقص المهجور منذ بضعة قرون مع السماح للقراءة بالتدخل الحديث (خيسوس بيرموديث لوبيث " متحف الحمراء قرن من الزمان لتنفيذ الفكرة " فى AAVV قصر كارلوس الخامس ، قرن من الزمان لاسترداد أثر من الآثار ، غرناطة عام ١٩٩٥) .

و بمقتضى مرسوم ملكى مُوقَّع من جانب الملكة الوصية على العرش ماريّا كريستينا والمنشور فى مجلة مدريد فى الرابع عشر من يوليو ١٨٨٩ والذى خصص الجزء الشرقى من قصر الإمبراطور كارلوس الخامس لمتاحف الفنون الجميلة والآثار وقد ضُمَّ إلى متحف الآثار القطع التى كانت موجودة بالمتحف الصغير بالقصر العربى ، وبهذا القرار تم حل مشكلة تواجد القطع التى تنتمى للفنون الجميلة والقطع الأثرية لمتحف غرناطة وكذلك منحه مهمة تليق بالمبنى لضمان الحفاظ عليه .

ويجب التنويه هنا بالروح المتقدمة والصَّاسَة للدَّقة الأثرية البالغة التى تنبثق عن هذا البند الذى يشير بوضوح وجلاء تام إلى إنَّه لتكييف قصر المتحف يجب فقط القيام بالأعمال الضرورية والمُلحَة مع احترام الطُّرُوف المعمارية للمبنى الناقص ؛ " لكى يمكن تخصيص الصالونات والمبنى المستدير الذى يقع فيه هذا الجزء من المبنى المخصص لمتحف الفنون الجميلة والآثار تطبيقاً للمرسوم الحالى ، وسيتم الشروع فى عمل الأنوار وتسقيفها وفقاً لرسومات وتخطيطات المبنى القديم وكذلك فيما يتعلق بالنوافذ والأبواب " .

و فى عام ١٩٢٠ قَدِّمَ بيلانكيث بوسكو رسماً عاماً لما سيكون عليه تشطيب قصر الإمبراطور كارلوس الخامس والذى يطالب فيه بضرورة استخدامه مقراً للمتحف ، وهذا ما سيتم تنفيذه بعد بضع سنوات على أيدي تورييس بالباس ولكن لزم تدخل كبير وحُرِّبَ ما فيه الكفاية وقد تمَّ تبرير ذلك بأنَّ المبنى لم يكن ذا أهمية أثرية (كارلوس بيلشيث ، الحمراء ليوبولدو تورييس بالباس ، غرناطة ، ١٩٨٨ ، ص ٧٥) .

وفى عام ١٩٢٨ بدأ تركيب المُتَحَف . وفى عام ١٩٣٦ كانت هناك قاعتان مفتوحتان ، ولكن فكرة تحويل القصر إلى مُتحف بدأت فى غاية البطء ومُحفوظة بكثير من الصُّعوبات ولكنها مع ذلك بدأت فى التَّبلور رويداً رويداً . وفى عام ١٩٤٣ تمَّ استقطاع القاعات ونقل ما بها إلى الأجزاء العليا للمشوار والحجرة المذهبة وعاد الوضع إلى ما كان عليه فى عام ١٨٧٣ . وجدير بالذكر أنَّ رصيد المتحف بدأ فى التزايد نتيجة القيام بعمليات حفريات جديدة إلى جانب المقتنيات . وبعد مرور عشرين عاماً عادت من جديد مشكلة نقل المتحف وأصبحت أكثر إلحاحاً عن ذى قبل كما فى مطلع القرن الحالى .

وفى عام ١٩٦٣ فإنَّ إدارة قصر الحمراء وجنَّة العريف بدأت فى البحث عن مكان لإقامة المتحف على أنْ يضم بوراً جديداً ، وقد اقترحَ حَلان أو احتمالان الأول : الأرض الرملية داخل جدران الحمراء ويستبان دى فوينتبينيا بجوار جنَّة العريف . وفى عام ١٩٧٢ وفى المكان الثانى بدأت أعمال هذا المشروع الطموح لمتاحف المدينة الثلاثة - الآثار الإقليمى - الفنون الجميلة - ومتحف قصر الحمراء نفسه - وليس الوقت ملائماً لسرد الصُّعاب والمصائب التى رافقت هذا المشروع . والحقيقة أنَّ هذه المباني بعد الانتهاء من إنشائها لم تستخدم كمتاحف نظراً للمشاكل الفنية وكذلك التَّنظيم غير الملائم للمساحات والفراغات وصعوبة الصِّيانة .

و اليوم نعود إلى وضع ١٩٤٣ : استخدام قصر الإمبراطور كارلوس الخامس كمقر لمتحف الحمراء والآن وبدون أن نستبعد احتمالات أخرى التى تتضمنها الصالات أو القاعات العلوية للمشوار والحجرة المذهبة وقصر كوماريس وضرورة منحه استخداماً عملياً للأجنحة أو السرايات المشيدة خارج جدران قصر الحمراء خلال السبعينات .

ولكن لقمهم هذا الاختيار الذى ننفذه اليوم فمن الضرورى شرح المشروع الخاص بالمتحف الذى نقترحه ، كما أن رصيد المتحف تجاوز ١٠,٠٠٠ قطعة تم جردها ومعظم هذه القطع هى بقايا مقسمة أو مجزأة عُثِرَ عليها فى الحفريات وكذلك عناصر معمارية وزخرفية واردة من ترميمات متتابعة للأثر ، وقد جُمِعَت هذه العناصر سواء المعمارية أو الزخرفية أو التقنية وتم حفظها بعناية فائقة لكى يتم التعرف على هذه العناصر ودراستها نعى الهندسية والمعمارية والزخرفية فى العصر النصرى ، وكذلك تم الاحتفاظ بعدد كبير من القطع الخزفية المنزلية وكذلك الكثير من الأغراض والأشياء الأخرى ذات الاستخدام المتعدد والمتنوع الواردة من أماكن أخرى - و جدير بالذكر أن بعض هذه القطع تمثل المعرض الدائم التى نقدمها اليوم بعد إجراء بعض الإصلاحات والترميمات للقطع المعارة التى نقدمها اليوم .

أما باقى هذه الأرصدة فسيتم إعادة تنظيمة فى احتياطى يمكن زيارته ومستودع يكفى لاختواء مئات الأجزاء التى تم توصيفها وتصنيفها وفقاً لمادتها وبالشكل الممكن وفقاً لنمطها وطرازها وخاصة تلك الواردة من المجموعة النصرية ، وهذا الاحتياطى الذى يمكن زيارته وكذلك المستودع سيوضعان تحت تصرف الباحثين أما باقى المعرض فسيعرض لقطاع كبير من الجمهور .

وفى النهاية ، لدينا منطقة للعرض المؤقت : كنتيجة للتصنيف والدراسة والترميم التى استهدفت أرصدة المتحف غير المعروضة إلا من حين لآخر ، ويمكن إعداد عينات ذات موضوع واحد بالشكل الذى يجعل هذه الأرصدة تُعرض بالتناوب .

وكمقر للمعرض الدائم تم تكييف وتهيئة قاعات قصر الإمبراطور كارلوس الخامس ، وبالنسبة للمعارض المؤقتة تم تجهيز المصلى والمناطق المتاخمة له . وبالنسبة للاحتياطى الذى يمكن زيارته سيتم استغلال المساحات الجاهزة والمخصصة حالياً للمتحف وذلك فى أجزاء من قصر الأسود وقصر كوماريس والحجرة المذهبة والمشوار وكذلك المباني المجاورة لجنة العريف حيث يمكن استغلالهما كمستودع بعد إدخال بعض التعديلات عليها .

إن مشروع الاستعانة بقصر الإمبراطور كارلوس الخامس لجعله مقراً لمتحف الحمراء لا يتضمن الصالات العليا التي يشغلها في الوقت الحالي متحف الفنون الجميلة ، وعلى أية حال ظلّ الاحتمال المستقبلي المزيج لهذه المنطقة قائماً : إما لاستمرار متحف الفنون الجميلة بها أو لاستخدامها على المدى الطويل لتوسيع متحف الحمراء والمكتبة وأرشيف هيئة إدارة الحمراء .

واليوم يمكننا تقديم المكانين الأولين لمتحف الحمراء ونحن راضين تماماً وذلك للمعارض الدائمة والمؤقتة أو الموسمية ، وقد كان معيار التدخل هو الاستفادة من المساحات الداخلية لهندسة معمارية ناقصة وذلك بتنظيف وإلغاء العناصر الزخرفية القديمة وتعديل أو تصحيح التغييرات المساحية (بين الأدوار وتقسيم الصالات والقاعات تقسيماً فرعياً والممرات الموصلة إليها) التي تم تنفيذها خلال هذا القرن كي تظهر بقدر الإمكان الشكل الأصلي لقصر الإمبراطور كارلوس الخامس .

كما أن عمليات التقوية والتدعيم والتجهيز وإعداد الفراغات بشكل مثالي قد تمت بشكل يمكن معه قراءة واضحة : القديم والجديد يتعايشان مع الحفاظ على الفارق بينهما ، إلا أنه قد تم تنسيقهما وتنظيمهما بتجانس هائل من خلال الوضوح الجلي للأول والصرامة المضمونية والنقشف الشكلى للثاني .

كما أن تتابع القاعات يسمح بوضع القطع بشكل منطقي وبسيط ، كما أن الإضاءة الطبيعية الرائعة ومن خلال النظرية الخاصة للفراغات تُوجدُ مناخاً من الشفافية الهادئة وذلك بتوارد أو باقتران الإضاءة مع النظرية التاريخية ومعرفتها وذلك بإبعادنا عن فكرة ما لمتحف أثرى كمحل لبّيع الفخار أو مظلم وغامض .

إن ارتفاع الفراغ المزيج الذي تم استرداده يُوجدُ مساحة واسعة ليست مفرطة أو مبالغاً فيها لعرض القطع ومعظمها صغير نسبياً ، أمّا الأحجار العارية أو المجنومة للجدران بدرجة لونها الساخن الأمر كما كانت مهجورة طوال سنوات كثيرة فإنها ضمت القطع المعروضة بين جنباتها في مناخ يجعلنا نسترجع صورة الزمن وتأثيره .

إن التّقييب عن الآثار قد أدى إلى العثور على جزء من الشّارع الملكي والسّاقية التي كانت تغذى القلعة الإسلامية بالمياه ، كما أن الاستفادة الطّبيعية من المساحة

لإقامة القصر الذى يرجع لعصر النهضة والذى تُرك مكشوفاً وقد ضُم أيضاً ليكون جزءاً إضافياً من المتحف .

كما أن القصر الذى أُعدّ لكى يكون مقراً لإقامة الإمبراطور كارلوس الخامس يلائم تماماً إقامة المتحف عليه مع احترام المساحات بدقة بالغة كما كان مصمماً لغرضه الأساسى وكأن القصر قد أنشئ فى بداية الأمر لكى يكون متحفاً ، لقد أُقيم القصر لكى يتم الاحتفال به بانتصار المسيحية على الإسلام وقد فقد القصر اليوم الاستعارة المعمارية وأصبح فقط شكلاً فنياً وجمالياً رائعاً وفى داخل القصر حضرنا الاحتفال الوحيد بذكرى الماضى والجمال البراق للفن .

إن اختيار ٢٥٥ قطعة فنية وأثرية كأساس للمتحف الذى نقدمه اليوم يأتى من الأرصدة الخاصة التى أثريت بـ ٣٠ قطعة من متحف آثار غرناطة من بينها حوض الحكم الثانى ومصباح إلبيرا ونتيجة هامة ذات نمط معمارى فذ من إلبيرا أيضاً والطبق أو الصينية المرسوم عليه الحصان وفخ أو شرك صيد الطيور الذى ينتمى للعصر النصرى ووسامين فضلاً عن العديد من تيجان الأعمدة ، وبهذا لم نرد استكمال ولو بشكل مؤقت مجموعة متحف الحمراء فقط بل الإشارة والإشادة بثراء الفن الإسلامى الذى يمتلكه المتحف الغرناطى الآخر والتى ينبغى أن تكون زيارته إجبارية للمهتمين بشئون الفن .

وهناك قطع أخرى فريدة واردة من خارج الحمراء : مثل مصباح المسجد الكبير بالحمراء وهى قطعة أساسية من الفن النصرى والتى أعارها المتحف الوطنى للآثار وبعض الأبواب الخاصة بالخزانات من متحف الفنون الزخرفية والتى جاءت لتنضم إلى باب التطعيم (باب من الخشب المطعم) من القرن الرابع عشر الميلادى والتى أتت من أطلال قصر أمراء سيدتى مريم . وفى النهاية ، دينار من متحف المصنع الوطنى لسك العملة والتمغة ، ونسيج من الكتان والحريز من النوع الشعبى إلى جانب نسيج آخر مطرز من الحمراء الذى منحَ تَكَرُّماً لكى يُعرَضَ بالمتحف ، ومعظم الأشياء المعروضة والتى كانت بالأجزاء العليا بالمشوار والحجرة المذهبة وإن كانت ظروف حفظها ومشاهدتها مختلفة تماماً . ولم نعتن فقط بالجوانب التقنية فى الحفظ (الإضاءة

وتكيف المناخ) بل أيضاً بعملية الإدراك والفهم حتى لا يتم تقييم الاهتمام الأثرى فقط بل البعد الجمالى أيضاً .

ولم تقتصر فقط فى العودة إلى عرض القطع التى كانت معروضة من قبل بل أيضاً لجأنا إلى اختيار قطع أخرى من المخازن تمت دراستها وعرضها للجمهور لأول مرة ، وأهم شئ فى هذا الصدد هو عرض ٢٩ قطعة من العملات وإبراز مختلف طرق السك بالذهب (دينار) وبالفضة (درهم) وبالنحاس (فلوس) منذ العصر الأميرى (جسم صلب ذو مميزات أو نقوش لاتينية) حتى العصر النصرى (دينار مسكوك فى مراكش) وكذلك جزء من القرآن يتكون من ٤٤ ورقة (يشبه إلى حد كبير قرآن من ٦٠ مجلداً) والتى أجزأه الثمانية المعروفة موزعة بين العديد من المكتبات مثل المكتبة البريطانية ومكتبة معهد دون خوان فى فالينثيا) من عصر الموحدين (نهاية القرن الثانى عشر ومطلع القرن الثالث عشر) ذو كتابة بحروف كبيرة وفى غاية الأناقة والتنسيق .

وكما تمّ عرض لأول مرة قطع من النسيج : سجادتان تركية وقوقازية من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أو قطعة من الحرير يرجع تاريخها إلى القرن الخامس عشر أو السادس عشر ذات النوق النصرى الواضح ومزخرفة بعناصر زخرفية حيوانية حيث يوجد أسدان يتشاجران على ثمرة أناناس على شكل شجرة الحياة .

لقد أردنا تقديم نظرة عابرة عن الأرصدة غير المعروضة والحث منذ البداية على القيام بعملية ينبغى أن تكون أساسية فى المستقبل ألا وهى : دراستها وعرضها دورياً .

وفيما يخص العرض فقد انتهجنا الترميم لبعض المواد التى ستعرض وكانت أهم قطعة تم ترميمها - بلا شك - هى إبريق أو الجرّة الغزلان . وفضلاً عن انكسارها فقد تم التأكد من متانة العجينة الفخارية مما جعل أمر التدخل لترميمها يقتصر فقط على التنظيف الميكانيكى بفرشاة ومشط أو مبضع وخيط من الزجاج . وأكبر أدلة على ذلك طبقة القذارة التى أثّرت على درجة اللون الرائع للخزف .

ومجموعة الخزفيات والجصّيات (إبريق فورقونى - سيمونيتى ، جويتى ، هيريش ، نافورة دار العروسة ، هذا إلى جانب العديد من القطع من الخزف المذهب وبعض

الأنسجة) وقد رُمِّت على النحو التالى : إزالة المعادن ، تنظيف القطع ، إزالة الكربونات ، تثبيتها وتقويتها سواء بالمعجون أو بطلاء زجاجى وطبقة للحماية النهائية .

مجموعة خزفيات تتكون من ٢٩ قطعة من مادة حجرية وقد تم تنظيفها من الكربونات وإلغاء الأسمنت والعناصر الضارة والمسامير القلاووظ وإزالة الأملاح منها كما تم تقويتها وطلائها بطبقة عازلة للحماية ، أمّا فيما يخص مجموعة الخشبيات وتتألف من باب الشقيقتين وباب الصوان أو الخزانة لسيدتى مريم وكذلك بعض أعمال النجارة المعمارية تم ترميمها على الشكل الآتى : تطهيرها من أكالات الأخشاب ، تقوية بنيتها ، معالجة معادنها ، تنظيف الأخشاب وألوانها وتثبيت هذه الألوان ، إعادة الحوامل إليها ، تغذيتها وطلائها بطبقة حماية نهائية .

وأخيراً تمّت أعمال الترميم فوق عمليات ترميم سابقة كما حدث فى نافورة دار العروسة وذلك بإزالة بعض المحاليل غير الملانمة ومراجعة تكاملها من حيث الحجم والتناغم ، وتم حذف البراويز الخشبية التى كانت بالبسط الجصية والتى كانت تقريها من مفهوم اللوحة إلى حدٍ كبير وذلك لتثبيت طابعها الشكلى كأجزاء معمارية .

كما تمّ احترام ترميمات قديمة قد أُجريت بشكل أكثر راديكالية مثل حوض الفسيل الكبير من الحجر الأزرق والمذهب والذى زُخرف بشجرة سواء لكون القطعة فريدة من نوعها وكذلك للقيمة الفنية بالنسبة لتاريخ ثقافة الترميم .

وقد قمنا بنقل العديد من القطع من قصر الحمراء إلى المتحف مثل الوسامين الخاصين بالمر أو البهو العلوى لمر لاريخا المزخرف بتيجان أعمدة غاية فى الجمال والروعة من المقرنصات وبقايا من الألوان الكثيرة الأصلية وكتابات فى غاية الأناقة ، وصحن نافورة لينداريخا القطعة الفريدة بسبب القصيدة الشعرية المنقوشة عليها ، وأسود البارتيال الواردة من مارستان وباب الشقيقتين النموذج الفريد نظراً لنجارته الرائعة ولم يتم ترميمها قبل ذلك وإن كان شكلها فى حالة تردى .

وبدايةً نحن من أنصار حفظ القطع على الطّبيعة فى مكانها ولكن فى هذه الأحوال فإنَّ أسباباً قهرية نصحت بتحريكها باستثناء باب الشّقيقتين . أمّا بقية القطع فلم تبق أى منها فى مكانها الأصلى ، فالوسامان الموجودان ببهو لاريخا

قد أُعيد استخدامهما ونقلهما في القرن السابع عشر وكذلك صحن نافورة ليندريخا والأسود قد تم نقلهما بالقرب من جُبُّ البارتال في خلال العشرينات من القرن الحالي .

و نظراً لكون هذه القطع فريدة ولتردى حالتها بسرعة كبيرة - تلف الشغل ، اختفاء الألوان أو تشقق الأحجار - قد اضطرنا إلى نقلها لحفظها بشكل أجود يسمح بدراستها وتأملها بدقة .

هذا وقد تم ترتيب القطع وفقاً لتطورها الزمّنى والطُرَازى والجمالى ولكن ليس بشكل جامد وذلك لإيجاد توازن بين الأشياء والقطع من جانب والمواد المصنوعة منها من جانب آخر بمختلف الصالات ، ولهذا فعلى سبيل المثال فإنَّ تيجان الأعمدة فى البداية كانت مرتبة فى تتابع جمالى وزمّنى مع بعض الاستثناءات كما فى القاعة رقم ٤ (الدهليز الجنوبي) وذلك للتمكن من إعداد مقارنة بين بعضها والبعض الآخر .

وعلى وجه التّحديد فإنَّ تاج العمود يشغل مساحة هامة نظراً لأهميته المعمارية والزُخرفية ، وهو يمثل العنصر المتكامل الذى يشير بكل جلاء ووضوح إلى المزايا المميزة للهندسة المعمارية الإسلامية خلال مختلف العصور فضلاً عن كونه المجال المتميز للتعبير التشكيلي منذ البدايات الطبيعية ذات الاشتقاق الكلاسيكى حتى الصيغ الإسلامية المميزة حيث الاهتمام بالمظهر الجمالى والتجريد للأشكال نجد دائماً الأصل القديم ، كما أن السلسلة أو المجموعة الثرية التى يحتفظ بها المتحف والتى تم توسيعها بقدم الكثير من القطع من متحف غرناطة للآثار والتى تمتد من العصر الأميرى حتى العهدين الموحدى والنُصرى ، وجدير بالذكر أن كثيراً من تيجان الأعمدة هذه تم نقلها وأعيد استخدامها فى عصور مختلفة وبعد تجريدها الآن من مهمتها التركيبية أو البنائية فإنها توجد موزعة بمختلف القاعات كقطع نحّية ذات قيمة مستقلة فى مواجهة بقية القطع ونفس الهندسة المعمارية للقصر .

وكذلك فإنَّ العناصر اللجنيتية مثل واجهة دير ثفرا وكذلك السقف المطعم بخيوط الذهب وهو عمل إسلامى أندلسى موجود فى القاعة الثالثة بجوار القطع

التي تنتمي لعصر الخلافة الموحدية والنصرية وذلك بإحداث تناوب زمني من شأنه البحث عن التوازن الذي تحدثنا عنه والهادف إلى تقوية المزايا الجمالية للقطع الفنية والأثرية .

وتبتعد القاعة الأولى عن مخطط التطوير العام للمعرض أو المتحف واعتباراً من قطعة تنتمي إلى القرن الحادي عشر والتي استخدمت كزخرفة معمارية في كنيسة سانتا أنا (القديسة أنا) ، وقرآن يرجع إلى القرنين الثاني والثالث عشر ومجموعة من العملات وبرواز وكرة زرقاء اللون . وأثرنا أن تتضمن المقدمة ما استرجعته ذاكرتنا من أمور فكرية وعملية تنبثق عن الفن الإسلامي : القلق الديني ، الحياة المادية ومعرفة المكان والزمان .

وفي الدهليز الجنوبي (القاعة الرابعة) بجوار أسود الماريستان توجد قطع نصرية فريدة حيث تنبض بالكثير من التأثيرات الشرقية والتي تضمنت العديد من النقوش على هيئة شاهد تذكاري للقبور .

و هناك نقشان باللغة اللاتينية موجودان بالحمراء بجوار شاهد قبر ثييريانو الذي عُثِرَ عليه في البيرا والموجود حالياً في متحف الآثار بفرنطة . وهذه هي أفضل الأدلة على الوجود الروماني السابق والقوطي الغربي والتعايش بين ما هو لاتيني ومسيحي وإسلامي .

وجدير بالذكر أن دينتيل دي بيرسوس الذي يرجع تاريخه إلى القرن الثاني الميلادي يطرح تخميناً حيث عُثِرَ عليه في لاتوري ديل أجوا (برج أو صهرج المياه) ويمكن أن يكون هذا بمدينة البيرا ثم تم نقله إلى الحمراء في وقت مبكر لاحتمال وجود قرية بها قبل ذلك . أما نقوش الكنائس الثلاث للقرن السادس الميلادي والتي وجدت في سانتا ماريا بالحمراء يذكر اسم ناتيولا يمكن أن يكون الحمراء نفسها وهذا يؤكد أيضاً استمرار استخدام المكان كدار للعبادة منذ العصر القوطي الغربي وقد ظل كنيسة حتى تم تحويله إلى مسجد ثم بعد ذلك إلى كنيسة مرة أخرى كما حدث في مسجد قرطبة .

وأمام هذه النقوش اللاتينية ذات القيمة الهائلة من الناحية الوثائقية كما تم وضع النقوش التذكارية النصرية للماريستان والمدرسة (من القرن الرابع عشر) وكليهما بالخط النسخ وقد كتب بعناية فائقة .

ويمكن تقسيم الأشياء المعروضة بصفة عامة إلى نمطين كبيرين : معمارى وأثاثى . فالأول منهما يضم العناصر النباتية والزخرفية التى ترجع للعصر النُصرى والتى تساعد على فهم الهندسة المعمارية فى ذلك العهد . كذلك فهم معمار قصر الحمراء بصفة خاصة البوابات والمشربيات والأنسجة أو البسط الجصية والنافورات إلخ ... ومن بينها نُبرز نمودجين فريدين وثمانين لفهم النجارة المعمارية : المشربية وباب الشَّقِيقَتين وقد تم تنظيف هذا الباب ويبرز الرُسومات الهندسية على الباب وتطعيمه بالذهب وبقايا ألوان برّاقة .

أمّا النوافير فإنها تُشكّل مجموعة أخرى من المجموعات الهامة من هذه السلسلة حيث توجد أنماط متنوعة (مستطيلة وذات فصوص متعددة ومستديرة إلخ ...) ومهام (شعائرية وزخرفية إلخ ...) ويجب أن نُبرز منها حوض الخليفة ذا الغزلان والأسود من القرن العاشر والوارد من قصر المنصور حيث يمثل إلى جانب الإبريق المزخرف بالغزلان أهم القطع بالمتحف .

و من قطع الأثاث على وجه التحديد يجب الإشارة فى المقام الأول إلى إبريق الغزلان وهو أحد أنماط الحمراء وقد اشتهر الإعجاب به فى القرن الثامن عشر وقد تحمس له كل من ريجنالت وفورتونى . إنه يمثل أحد العلامات التاريخية البارزة فى التاريخ العالمى للخزف لأمرين : أولهما شكله القوى المتين ومحيطه الجميل وثانيهما العجينة الزُجاجية الجميلة المصنوع منها . أمّا العيوب الكائنة به فإنها تضافى على الإبريق جمالاً مرتجلاً لا يقارن كما كان ريجنالت محقّقاً عندما رآه واقترح على والده مدير ثيبريس أن يصنع تقليدًا له دون إصلاح عيوب الإبريق الأصلى . ماريا برى مارينيو " رحلة إلى إسبانيا " للرُسام هنرى ريجنالت ، مدريد ، (١٩٦٤) .

إن إبريق الغزلان قد استكمل بأخر امتلكه فورتوني حيث تم تنظيفه وعرضه بالشكل اللائق به مما جعل لونه الأبيض يُشعُّ بريقاً ولمعاناً ويتميز هذا الإبريق بتوازن شكله وحجمه .

وفضلاً عن القطع التي تنتمي للبلاط الملكي مثل كرسى الأرداف وشواهد القبور الملكية والخزف المزجج فإنه يجب علينا إبراز قطع أخرى أكثر تواضعاً وشيوعاً من الأبريق والنوافير والبواب لتدخين القنب الهندي أو هذه اللعابات أو الدمى الفخارية .

وعرض بالقاعة الأخيرة سجادة تركية وأخرى قوقازية فضلاً عن مجموعة من القطع الخزفية الفاطمية والتي إلى جانب الكرة الزرقاء اللون ذات الأصل الفارسي من القاعة الأولى فإنها تؤلف مجموعة متنوعة من القطع الشرقية والتي أدرجناها هنا لسببين أولهما : جمالها البراق وثانيهما : تنفيذاً لرغبة المتحف في أن يكون مفتوحاً وشاملاً في المستقبل للمظاهر الفنية التشكيلية بالعالم الإسلامي حيث يُعدُّ متحف الحمراء أحد مراكزها البارزة الهامة .

وجملة الأمر أننا أردنا - من خلال الحديث عن القطع الأخيرة والعناصر الهندسية المعمارية وقطع الأثاث وانطلاقاً من التقشف الأثري للقصر والعرض المتحفى المحدود والناذر- أردنا الإشادة بالقيمة المزدوجة لشاهد حضارة وفن يتضمنان : تقوية الجودة الشكلية دون أن نغفل المغزى الأثري وربط المعرفة التاريخية بالوظيفة الجمالية.

الفصل السادس عشر

مجموعة متحف الحمراء

إعداد : بروفيسور مارتينيتو سانشيث

استناداً إلى قول السيد / ليوبالو توريس بالباس " سيكون هناك متاحف أثرية قليلة في إسبانيا قد تكونت بشكل طبيعي مثل متحف الحمراء " .

رويداً رويداً تمّ تجميع مجموعة هامة حتى منتصف القرن التاسع عشر: أولاً : القطع التي أُعيدَ استخدامها في عهد النصرين بالحمراء مثل حوض الظباء والأسود وهو من عصر الخلافة وقد أُحضِرَ الحوض إلى القلعة في عصر محمد الثالث عام ١٣٠٥ . ثانياً : الاحتفاظ بعناصر زخرفية قد أُهمِلت في العهد الإسلامي مثل إبريق الغزلان الكبير والمعروف وضعه ومكانه منذ القرن السابع عشر حيث كان يوجد في حديقة أداربيس . ثالثاً : الحفاظ على قطع تم اكتشافها في الحفريات مثل الخزفيات والجصيات وكأثلة هامة شواهد القبور الرخامية التي أُخذت من بقايا الروضة والتي تم اكتشافها عام ١٥٧٤ . رابعاً : القطع التي بدأت تختفي أو التي تلفت في مكانها وقد اعتبر حفظها هو أفضل سبيل لصيانتها مثل الباب المُغطى بالرقائق البرونزية في واجهة كوماريس وحلقات واجهة قصر كارلوس الخامس التي تم انتزاعها بعد منتصف القرن التاسع عشر وفي كلتا الحالتين تم إعادتهما إلى مكانهما الأصلي إلى جانب مواد أخرى وذلك للتأكد من حفظها والحفاظ عليها .

وبدأت هذه المجموعة خلال هذا القرن التاسع عشر تأخذ طابعاً متخفياً مصنفاً ومُبوياً ومجموعاً فى قطاعات الحمراء لعرضها للجمهور . وفى الثلاثين من أكتوبر عام ١٨٧٠ أُعلنَ على الملأ تعيين لجنة لإعداد تصنيف لأرصدة المتحف وذلك بتكليف السيد / كونتيريراس (تورييس بالباس . ل . ١٩٤٤ ص ٢٣٦) لوضع المجموعة فى مكان مناسب . أولاً : ما يجرى التفكير فى أن تكون قاعة الفواكه والقاعات المجاورة وفقاً لمحضر لجنة الآثار فى ١٥ - ١ - ٧١ وفيما بعد فى منزل المحافظين كما جاء فى محضر لجنة الآثار فى ١٨٧١/٦/٢٥ وفى النهاية فى أواخر نفس العام فى الغرف الكائنة بالجانب الشمالى لبهو الأسود وكوماريس (محضر بتاريخ ١٨٧١/١٢/١٠) (بيرمودثا ياريخا . خ . ١٩٤٣ - ١٩٤٩) وفى اليوم الثانى عشر من مارس ١٨٧٣ عندما قدم السيد رفائيل كونتيريراس قائمة بالأشياء التى أودعت متحف الآثار بالحمراء ، وقد عُثِرَ عليها فى الغرفة الخاصة بها بين بهو الأسود وقاعة الشَّقِيقَتَيْنِ ، وقد تم الاستغناء عن الصاليتين فى الجرد العام من المخازن المادية لتكوين مجموعة من الأثرية واردة من آثار الحمراء ، ومن العجيب أنه تم إبراز القطع الخشبية مثل المشربيات والإفريزات والأسقف والأغطية ، ومن الأحجار شواهد القبور ومن الخزف يبرز إبريق الغزلان ضمن مجموعة واحدة ٤٥٢ تضم قطعة من الخزف مختلفة الأشكال والصنع (أرشيف الحمراء . ل . ٣١١ كى يصل عدد المجموعة إلى ٦٥٢ قطعة على الرغم من القائمة التى أعدّها فى بحثه عن الحمراء والذى خصص فصلاً عن المتحف وأعدّ قائمة منفصلة عن أرصدته من القطع الأثرية وتحقق من أربعين قطعة فى سجل واحد) (رفائيل كونتيريراس سجل ١٨٧٣ : ٢٨٨ - ٢٩٤) .

وفى عام ١٨٧٢ عُرِفَ موضع إبريق الغزلان بأحد أركان قاعة الشَّقِيقَتَيْنِ ، وفيما بعد تم نقله إلى قاعة الملوك فى إحدى الفترينتين وحوض الخلافة وأحجار أو شواهد القبور تم وضعها فى جدران قاعة الملوك مع تخصيص الغرف المسيحية للإمبراطور كارلوس الخامس لكى تضم السُقُوف والأبواب والأجزاء الخشبية وتم إسنادها إلى الجدران ، أمّا بقية قطع المجموعة فإنها محفوظة فى غرف المحافظين فوق المشوار ، وأضيفت لهذه المجموعة الأولى قطع كثيرة أخرى تم العثور عليها فى

عمليات الحفر والأشغال وهي ذات أهمية حيوية مثل المشربيات ، سقوف وأغطية وأطراف دعائم السقف الخشبية وتيجان الأعمدة وأجزاء خزفية ومن الجص .

وقد ارتفعت قيمة مجموعة القطع وفقاً للسيد / ألمانرو كارديناس في عام ١٨٨٦ حيث عنون أحد مؤلفاته " مُتحف غرناطة للآثار العربية " حيث قدّم في هذا العمل مجموعة من تيجان الأعمدة في بهو القصر وقد نُقِلَ منها العديد إلى مُتحف الآثار بغرناطة وبعد مرور بضع سنوات وعلى وجه التحديد في ١٨٩٠ أصرّ السيد بايادار على أن تكون هذه المجموعة أساس مُتحف الآثار بالحمراء الذي كان يجب أن يُقام منذ سنوات طويلة ، وقد تزايد نشاط المُتحف بشكل ملحوظ وقد تزايدت أرصده رويداً رويداً وذلك بفضل تحمس اللجنة الخاصة التي شكّلت بمقتضى المرسوم الملكي الصادر في التاسع عشر من مايو عام ١٩٠٥ واللاحقة له في الرابع عشر من مايو ١٩١٣ والصادر في السادس والعشرين من يناير عام ١٩١٤ حيث تم تشكيل أو إنشاء هيئة الحمراء وتمّ تكليفها وفقاً للبند الخامس بإنشاء مُتحف للفن العربي في العاصمة وتؤكد أهمية المُتحف في المقالات الصحفية في السنوات الأولى من القرن العشرين .

وقد أشار كل من السيدين / جوميث مورينو وجوميث تورثوسا في بيان أصدره بعنوان " الحمراء " ونشرته " صحيفة محامي غرناطة " في التاسع والعشرين من يوليو ١٩٠٦ حيث تحدثا فيه عن " تنظيم وتصنيف قطع مُتحف الحمراء " وفي مقال آخر نشرته صحيفة غرناطية تُسمّى " الحمراء " ضجّت فيه الشكوى من السيد / ماريانو كونتريراس لإعاقة تشكيل أرشيف ومُتحف الحمراء . وفي السادس من أغسطس عام ١٩٠٧ في صحيفة " محامي غرناطة " يشير السيد / مانويل ثبالا إلى أعمال الصيانة والترميم والحفظ " ظهرت بين الانقراض أجزاء كثيرة زخرفية تنتمي إلى عصور مختلفة وقد تم أخذ هذه الأجزاء بعناية فائقة حيث أثرت مجموعات مُتحف الحمراء ويتم تصنيفها وترتيبها حالياً تحت إشراف رئيس اللجنة الخاصة السيد / جوميث مورينو . ويستمر التمسك بالموضوع من جانب عضو الأكاديمية السيد / تيثيليو رودا في مقال نشرته صحيفة النوتيشيرو الغرناطية وفي مجلة إيبوكا بعنوان " الحمراء رأى نو ثقل " في أواخر عام ١٩٠٧ ذكر فيه : " تمّ مؤخراً تصنيف القطع الأثرية العربية الموجودة والتي تمّ اكتشافها حديثاً نتيجة الحفريات وقطع

القيشاني القديمة التى تظهر بصفة مستمرة فى تلك الأشغال وقد تم وضعها بالمتحف فى القاعة الكبيرة بمنزل المحافظين بحجرات القصر المسماة بحجرات الإمبراطور .

ولا تعتبر المجموعة فى ظروف جيدة من العرض لأنها تبدو وكأنها مخزنة بدون اهتمام أو حذر ويجرى التفكير لنقلها إلى بيت المحافظين ولكن الأمر لم ينفذ على الرغم من إلحاح السيد / أوسما . وهناك محاولة أخرى قام بها السيد / كونت دى رومانونيس بصفتة وزيراً للتعليم العام وذلك فى يونيو ١٩١٠ الذى يحاول تقوية وتعزيد تشطيب أعمال قصر كارلوس الخامس ليكون مقراً لمتحف الفن الإسلامى الإسباني مع التفكير فى إقامة معرض فى ١٩١٣ على غرار متحف ميونيخ حيث قدم مشروعاً لذلك يضم قاعات العرض ويبلغ عددها ثمانى قاعات .

أمّا السيد / لويس سيكودى لوثينا فقد تحدث فى مقال له نُشر فى مجلة تريبونا (فى شهر أبريل عام ١٩١٤ بمدير) عن المتحف وقد تعمق فى ذلك إلى حد كبير حيث وسع قائمة أرصدة المتحف ، وقد ضم كثيراً من القطع التى لم يُشر إليها أنفاً مثل قطع القيشانى ذات الانعكاسات المعدنية والباب من الفخار وولود لنعال الأخذية وأجزاء من أباريق كبيرة وتيجان أعمدة وقطع مطعمة أو مُرصعة وفراغات مثالية الشكل بين المربعات والدوائر . وقد بدأ المقال بتقييم القطع الأثرية التى لم تكن لها قيمة حتى الآن وإن كانت لم يتم تسجيلها إلا أنه تم تخزينها فى زنايل (قفف) الشغل فى أماكن متعددة بالحمراء (توريس بالباس . ل - ١٩٤٤ - ٢٣٨) ولا يمكن أن ننسى كيف أن السيد / رفائيل كونتيريراس فى أول تصنيف أو قائمة أعدها للقطع قال إنه أخرجها من " مخازن المواد " مما يوضح أنه ربما كان يختار القطع الفنية البارزة فى نظره لعرض مجموعة بالغة الأهمية .

ولا يزال مكان المجموعة كما هو . وقد حظيت المجموعة بدقعة جديدة عندما وصل الحمراء السيد / ليوبولفو توريس بالباس كمهندس - مشرف حيث وجد مخازن المتحف مبعثرة فى سرايب قصر الإمبراطور كارلوس الخامس لتزين منزل المهندس - المدير أو المشرف إلخ ... وقد ازدادت المجموعات نتيجة الحفريات وأعمال أخرى قام

بها السيد / توريس بالباس في الفترة من ١٩٢٢ - ١٩٢٦ كما أنه في نفس الوقت قام بشراء كثير من القطع من تجار العاديات .

وقد بدأ مشروع المتحف في الهواء الطلق وذلك بتركيب باب دى لاس أورخاس منذ التخزين الذي حدث بالمتحف الأثري في غابة الحمراء ومعرض القطع في السيكانو كما يمكن رؤية القطع الكلاسيكية الآن .

و في عام ١٩٢٣ عُنّت لأنطونيو جايجو بورين فكرة إنشاء معمل للفن العربي في غرناطة وقد عرضها على مجلس الهيئة التنفيذية للأرشيفات والمكتبات والمتحف الأثرية .

وقد استفاد السيد / ليوبولدو توريس بالباس من أعمال الترميم في حجرات الإمبراطور كارلوس الخامس حيث قام بفك القطع الفنية من الجدران وأعدّ معرضاً بفترينات واختار المواد المعروضة وبدأ ترميم القطع وقد استكملها من الجص بإعادة تنظيم الأرصدة الموجودة .

إن أعمال ترميم وتشطيب وتسقيف قصر الإمبراطور كارلوس الخامس في أثناء حكم اللواء بريمو دى ريبيرا وبدافع من الكونت دى لاس إنفانتاس الذي أيد فكرة توسيع القاعات التي سيقام عليها المعرض للقطع الأكثر أهمية وعلى الرغم من أن هذا لم يكن بمثابة متحف مفتوح للجمهور ، إلا أنه كان فرصة ذهبية لكي يتعرف الأشخاص الذين يهمهم الأمر على المجموعة .

و في عام ١٩٢٨ خُصصَ مبلغ ١٥٠,٠٠٠ بيزيتة في الميزانية العامة للدولة للمتحف العربي في غرناطة وبعد ذلك بعام عندما أُقيم معرض برشلونة الدولي تم اختيار القطع والأعمال الفنية التي ستُرسل إلى المعرض وقد مثّلت المتحف في هذا المعرض ٤٩ قطعة فنية رائعة من بين مجموعاته ، هذا وقد كافح السيد / مانويل جوميث مورينو من أجل إنشاء والدفاع عن متحف للفن العربي الإسلامي الإسباني من المجموعة الموجودة ، بالإضافة إلى قطع متحف الآثار الإقليمي وفقا للسيد / ليوبولدو توريس بالباس .

وَبِمُقْتَضَى الْمَرْسُومِ الْمَلَكِيِّ الصَّادِرِ فِي التَّاسِعِ مِنْ مَارَسِ ١٩٤٠ (الصَّحِيفَةُ الرَّسْمِيَّةُ لِلدَّوْلَةِ فِي الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ أِبْرِيلِ ١٩٤٠) تَمَّ تَشْكِيلُ هَيْئَةِ الْمُتَحَفِ بِقَصْرِ الْإِمْبَرَاتُورِ كَارْلُوسِ الْخَامِسِ فِي غِرْنَاطَةِ مَعَ الْإِشَارَةِ فِي الْبَنْدِ الثَّانِي إِلَى مُهْلَةِ قَدْرَهَا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ لِإِنْشَاءِ الْمَشْرُوعِ . وَقَدْ اتَّسَعَ نِطَاقُ الْهَيْئَةِ عَلَى الْحَمْرَاءِ فِي الْمَرْسُومِ الصَّادِرِ فِي الثَّالِثِ عَشَرَ مِنْ أَوْغُسْطُسِ ١٩٤٠ (وَالْمَنْشُورُ بِالْجَرِيدَةِ الرَّسْمِيَّةِ لِلدَّوْلَةِ فِي الرَّابِعِ مِنْ سِبْتَمْبَرِ ١٩٤٠) حَيْثُ تَدَخَّلَتْ هَذِهِ الْهَيْئَةُ وَبِشْكَلٍ مُبَاشِرٍ جَدًّا بِفَضْلِ تَحْمَسِ الْأَسْتَاذِ / مَانُويلِ جُومِيْثِ مَوْرِيْنُو حَيْثُ اقْتَرَحَ إِدْرَاجَ ذَلِكَ فِي الْمَجْمُوعَاتِ الْخَاصَّةِ بِالْدَّوْلَةِ (الْمَجْمُوعَاتِ الْحُكُومِيَّةِ) الْهَيْئَةُ التَّنْفِيزِيَّةُ لِلْأَرْشِيفَاتِ وَالْمَكْتَبَاتِ وَالْأَثَارِ (الْجَرِيدَةُ الرَّسْمِيَّةُ لِلدَّوْلَةِ رَقْمَ ٢٤٩ - فِي التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ أَوْغُسْطُسِ ١٩٤٢) مِثْلُ مُتَحَفِ الْأَثَارِ بِغِرْنَاطَةِ .

وَفِي الْأَيَّامِ الْأُولَى مِنْ عَامِ ١٩٤٣ تَمَّ تَعْيِينَ السَّيِّدِ / خَيْسُوسِ بِيْرْمُوْدِيْثِ بَارِيخَا الْمَوْظَفَ بِهَيْئَةِ مَوْظَفِي الْأَرْشِيفِ وَأَمْنَاءِ الْمَكْتَبَاتِ وَعِلْمَاءِ الْأَثَارِ مَدِيرًا لِلْمُتَحَفِ حَيْثُ أَكْمَلَ الْعَمَلَ الَّذِي كَانَ قَدْ بَدَأَ عَلَى الصَّعِيدِ الرَّسْمِيِّ . وَقَدْ خَصَّصَ السَّنَوَاتِ الْأُولَى لِلْبَحْثِ عَنْ مَقَرِّ الْمُتَحَفِ .

هَذَا وَقَدْ كَانَتْ أَرْصَدَةُ الْمُتَحَفِ فِي أَثْنَاءِ عَامِ ١٩٤٣ مَعْرُوضَةً بِصُورَةٍ مَبْعُوثَةٍ . وَقَدْ كَانَ لِلْمُتَحَفِ ثَلَاثَ قَاعَاتٍ لِلْعَرْضِ بِقَصْرِ الْإِمْبَرَاتُورِ كَارْلُوسِ الْخَامِسِ . هَذَا وَقَدْ كُفِّ السَّيِّدِ / فِرَانْتِيْسْكُو بَرِيْتُو مَوْرِيْنُو الْمُهَنْدِسُ الْمُشْرِفُ عَلَى الْحَمْرَاءِ بِإِعْدَادِ مَشْرُوعٍ لِتَرْكِيبِ وَتَصْنِيفِ الْمُتَحَفِ . هَذَا وَقَدْ تَمَّ تَخْصِيصُ الطَّابِقِ الْعُلَوِيِّ لِلْمُتَحَفِ مِنْ قَصْرِ لُوسِ كُومَارِيْسِ وَالْأَسْوَدِ الْخَالِيَيْنِ مِنَ الزَّخْرَفَةِ الْمَعْمَارِيَّةِ وَلَيْسَتْ لِهَمَا أَهْمِيَّةٌ أَثَرِيَّةٌ لَزِيَارَتِهِمَا . وَقَدْ أُعِدَّ لِهَمَا مَدْخَلٌ عَنْ طَرِيقِ سَلَمٍ يُوْدِي إِلَى الْمَشْوَارِ . وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَّتْ الْمَخَازِنُ مَبْعُوثَةً حَتَّى عَامِ ١٩٧٩ - ١٩٨٤ حَيْثُ بَدَأَتْ أَعْمَالُ التَّصْنِيفِ وَتَجْمِيعِ الْأَرْصَدَةِ فِي مَخَازِنِ الْقَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْمَتَاحِفِ الْجَدِيدَةِ .

وَبَيْنَ ١٩٤٤ وَأَوَائِلِ ١٩٤٦ تَمَّ فَتْحُ الْمُتَحَفِ لِلْجُمْهُورِ وَقَدْ نُفِّذَتْ أَعْمَالُ التَّرْكِيبَاتِ مَعَ الْإِبْقَاءِ عَلَى مَعْرِضِ بِقَصْرِ الْإِمْبَرَاتُورِ كَارْلُوسِ الْخَامِسِ .

وفي عام ١٩٥١ استقل المتحف في زيارته عن الحمراء عندما تم تغيير مدخله من الباب الشمالي لقصر كارلوس الخامس إلى مدخل عبر بهو قصر كارلوس الخامس إلى الطابق الأول لبهو الرّيّاين .

و مع أوّل مدير للمتحف بدأت أعمال جديدة للتصنيف الخاصة بأرصده الفنية مع احترام قواعد ولوائح السجل الرسمي . وطوال هذه المرحلة استمرت روح العمل على زيادة أرصده الواردة من الحمراء وذلك من خلال أعمال الحفريات بالبرك أو بمستودعات المياه أو بقطع كان يهددها خطر الاختفاء والتلف مثل متطفلات الغرفة المذهبة وكذلك بشراء قطع من أصل إسباني إسلامي أو إسلامي شرقي أكملت ثغرات هذا الفن مثل مجموعة خزف مانيسيس فضلاً عن قبول الهبات الخاصة مثل الانضمام الدائم للمجموعة الخاصة بالسيد مانويل جوميث مورينو . وهذا النشاط الدائم أدى إلى تقديم مجموعة أكثر تكاملاً أدى عام ١٩٦٢ بمقتضى المرسوم الملكي رقم ١٩٦٢/٣٣٩٠ الصادر في الثالث عشر من ديسمبر ١٩٦٢ (والمنشور في الجريدة الرسمية للدولة في التاسع والعشرين من الشهر نفسه) إلى اعتبار المتحف من بين المتاحف الوطنية باسم المتحف الوطني للفن الإسباني الإسلامي الذي تكون من أرصدة متحف الحمراء والمتحف الإقليمي للآثار بغرناطة ، وبهذا القصد تم إخلاء المخزن الكائن بالدور السفلي للقاعة من قصر الإمبراطور كارلوس الخامس وتمّ ترميمها وإعداد مدخل جديد لاحتواء القطع الإسلامية والإسلامية الأندلسية لمتحف الآثار الأمر الذي لم يتم بعد أن أعدت الماكينات الخاصة بالفتريات المعدنية للتركيب الجديد وإعداد ٢٠٠ صندوق خشبي لنقلها .

وفي أواخر الشهور الثلاثة الأولى من عام ١٩٦٦ تم فتح الزيارة المستمرة للأعمال الكائنة بالغرفة المذهبة وذلك عندما تمّ فك القوس الإسلامي الأندلسي واستراحة كائنة بالطابق العلوي كانت تطل على الغابة مما أدى إلى تخفيض مساحة المعرض .

ومن خلال مذكرات المتحف الأثري الإقليمي بدأ المدير خطأ أو نهجاً من الأبحاث والدراسات لمجموعات المتحف حيث نشر خلال عدة سنوات أبحاثاً عن أرصدة المتحف (١٩٥٣ - ١٩٥٤) .

وفى عام ١٩٧٤ تم تعيين السيد / أنطونيو فرنانديث بويرتاس نائباً للمدير والذي شغل منصب المدير عام ١٩٧٩ بعد الاشتراك فى مسابقة لهذا الغرض عقب بلوغ المدير السابق سن المعاش ، وقد واصل المدير الجديد عمل سلفه فى المنصب . وقد استمرت أعمال التصنيف والتبويب بحماس منقطع النظير لأرصدة المتحف بعد أن تم تجميعها من مخازنها المبعثرة فى الحمراء فى الطابق العلوى لقصرى كوماريس والأسود وكذلك بالمبنى الجديد بجنتى العريف بعد أن تم تصنيف المخازن على أساس علمى صارم للعصر أو الزمن وكذلك التاريخ ، كما تم إعداد العديد من الأبحاث الهامة كثمرة لهذا التصنيف ضمت رسائل ماجستير ودكتوراه مثل دراسة المجموعات الخزفية الزرقاء والمذهبة والخضراء والمانيسيس والزجاجية والحجرية إلخ ... وإلى جانب هذا النشاط الدؤوب كان هناك عمل هام لتسجيل هذه القطع .

ووفقاً لكلمات السيد / خيسوس بيرموديث بارىخا (١٩٦٨) ولكى لا تفشل هذه الأبحاث والدراسات وخطط نشرها ولكى يتم تحسين الإمكانات الهائلة المتاحة للمتحف الوطنى للفن الإسلامى الإشبانى فإن هيئة الحمراء قد وافقت فى الثلاثين من يونيو عام ١٩٦٧ على تخصيص خدمات ومنشآت المتحف تضم منطقة واسعة من بستان فوينتى بينيا بجوار جنتى العريف ومداخل كرسى المسلم الأندلسى والطريق الدائرى فى المستقبل وتركيب المتحف الجديد بعيد إلى الأذهان فكرة تجميع المجموعات الإسلامية لمتحف الآثار الذى يتحدد بالترميم والتأليف عام ١٩٨٥ لحوالى خمسين قوساً من الجص النصرى والمسلمين الأندلسيين التى تم انقاذ الكثير منها من المنازل والقصور المتهدمة عند افتتاح الطريق الكبير بغرناطة ومن قصور أخرى قد اختفت وكذلك بفضل المقتنيات من خارج غرناطة ، كما تم أيضاً تنفيذ أعمال تركيب وترميم ودراسة للمجموعة الخشبية الإشبانية الإسلامية (نوبرى . إى . ١٩٨٢ ، ١٩٨٩ ، ١٩٩٠) التى تستطيع أن تقدم لأول مرة مجموعة متكاملة مقترنة بالتقنيات والزخرفة الطليطلية والغرناطية من عصر الموحدين وتطورها الزخرفى طوال العصر النصرى وذلك بإبراز الثراء الزخرفى لهذه الفترة الأخيرة فضلاً عن نظرة شاملة واسعة للأسقف الخشبية المستوية ، والمائبة والمزخرفة ذات الأشكال والأحجام المتنوعة والتى تنتمى لعصور مختلفة فى إسبانيا الإسلامية وعلى وجه الخصوص النصرية

والإسلامية الأندلسية وكذلك عمليات الزخرفة الخاصة بالطراز وعصر الملوك الكاثوليك
فى سقوف نصرية .

وكذلك تم تنفيذ أعمال تصنيف وترميم كانت قد بدأها عام ١٩٢٣ السيد / مانويل
أوكانيا والآن هى فى حوزة السيدة / ناتيبيداد جوميث مورينو والسيد / دافيد
كاستيخو حيث تم إعداد تصنيف متخصص مع دراسة مختلف المدارس الخزفية .
وترميم ذلك على أيدي السيدة / ناتيبيداد جوميث مورينو سمح بتأمل مجموعة خزفية
نصرية زرقاء ومذهبة لم تكن معروفة حتى الآن وكذلك ترميم الخزف الشرقى ذى
العاكس المعدنى (خزف قاطمى) مما يجعله يقبل المقارنة مع مجموعات خزفية شرقية
رائعة بمتحف القاهرة وبيناكى .

وبفضل هذه الأعمال والأبحاث الخاصة بالتصنيف والتبويب والترميم فإن المدير
الجديد أعد تركيباً جديداً للمتحف أكثر حداثة وعناية متكيفاً بشكل مؤقت مع المساحة
المتاحة وذلك بترتيب القطع زمنياً ومادياً كاختيار دقيق للقطع مقترنة بلوحات إيضاحية
فى المساحة المتاحة بقصر كوماريس .

ودون أن ننسى عملاً دؤبياً من الدراسات للأرصدة الفنية من قبل السيد / مدير
المتحف وعلى سبيل المثال دراسة القطع التى نُقِشَتْ بالخط الكوفى مثل القناديل
البرونزية والأفاريز الخزفية لحمل السقف والعملات (١٩٧١ ، ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ ،
١٩٧٤ ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٦) والقطع الحجرية مثل دُفَايَات عصر الخلافة (١٩٧٢)
ودراسات للجص (١٩٧٣ - ١٩٧٧ - ١٩٨٤ - ١٩٨٥) والقطع الخزفية (١٩٩٢)
والخشبية (١٩٨٧ - ١٩٩٢) وحفريات بقصر الحمراء مثل :

- حفريات بحجرة المشوار (خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر ١٩٧٧) .
- حفريات بقصر بنى سراج خلال شهرى أكتوبر ونوفمبر ١٩٧٨ ومارس
وأبريل ١٩٧٩ .
- البحث عن الآثار فى باطن أرض قاعة ابنتيراخيس بقصر الأسود .

وحالياً يمكن التأكيد بأن هذا المتحف الذى عاد من جديد إلى تغيير اسمه وأصبح يُسمَّى متحف الحمراء (الأمر الصادر فى الثامن عشر من مايو ١٩٩٤ بالجريدة الرسمية للدولة عدد ١٢١ والمنشور فى الحادى والعشرين من مايو ١٩٩٤) وقد ضُمَّ إلى الهيئة المشرفة على الحمراء وجنَّة العريف ويضم بين جنباته أعظم مجموعة من الفن الإشباني الإسلامى التى تكمل النظرة والدراسة للبقايا والآثار المعمارية التى ما زالت موجودة فى المنطقة الفنية من شمال شبه الجزيرة الأيبيرية إلى شمال أفريقيا وتكتمل بمجموعة من القطع الفنية الشرقية تساعد على فهم تنوع الأسلوب المعاصر فى مختلف المناطق الإسلامية بهمة وصل تصل بينها تتمثل فى البحر المتوسط .

المصادر والمراجع

- بيرموديث باريخا ، خ . مُتحف الآثار بالحمراء . مذكرات المتاحف الأثرية بالأقاليم ، ١٩٤٢ ، وزارة التعليم الوطنية ، مدريد ، ١٩٤٣ .
- مُتحف الآثار بالحمراء (غرناطة) مذكرات متاحف الآثار ١٩٤٣ (مستخرجات) الجزء الرابع ، وزارة التعليم الوطنية ، مدريد ، ١٩٤٤ .
- مُتحف الحمراء ، مايو ١٩٤٥ ، أرشيف المُتحف .
- تغييرات مكان مُتحف الآثار بالحمراء ، أرشيف المُتحف .
- مُتحف الآثار بالحمراء (غرناطة) مذكرات متاحف الآثار الإقليمية ، ١٩٥١ ، الجزء الثاني عشر .
- مذكرة أنشطة مُتحف الآثار بالحمراء والمُتحف الوطني للفن الإسلامي أثناء ١٩٦٦ ، أرشيف المُتحف .
- المُتحف الوطني للفن الإسباني الإسلامي ، دفاتر الحمراء ، العدد الرابع ، هيئة الحمراء ، غرناطة ١٩٦٨ .
- " مباحر الحمراء " مذكرات المتاحف الإقليمية الأثرية ، مدريد ، ١٩٥٣ .
- آثار من العصور الوسطى بمتحف الحمراء ، مذكرات متاحف الآثار الإقليمية ، مدريد ١٩٥٤ .
- كبانياس رودريجيث . د . وفرنانديث بويرتاس . أ . " نقوش شعرية ببوابة وواجهة قصر كوماريس " دفاتر الحمراء ، ١٠ - ١١ ، ١٩٧٤ / ١٩٧٥ .

- كوتتيراس . ر . الحمراء ، القلعة والمسجد الكبير بالغرب ، طباعة ونقش حجرى لأنطونيو روديرو ، مدريد ١٩٧٨ .
- مرسوم التاسع من مارس عام ١٩٤٠ (وزارة التعليم الوطنية) الخاص بإنشاء بيوت لإقامة موظفى المتحف واتخاذ قصر الإمبراطور كارلوس الخامس مقراً للمتحف بغرناطة (الجريدة الرسمية للدولة فى الثامن عشر من إبريل ١٩٤٠) .
- مرسوم الثالث عشر من أغسطس عام ١٩٤٠ (وزارة التعليم الوطنية) الذى يوسع سلطات الهيئة على الحمراء والمكلفة بإنشاء بيوت للإقامة والإشراف على جعل قصر الإمبراطور كارلوس الخامس مقراً للمتحف فى غرناطة (الصحيفة الرسمية فى الرابع من إبريل ١٩٤٠) .
- المرسوم رقم ٣٣٩٠ / ١٩٦٢ الصادر فى الثالث عشر من ديسمبر (وزارة التعليم الوطنية) إنشاء المتحف الوطنى للفن الإشباني الإسلامى (الجريدة الرسمية للدولة فى التاسع والعشرين من ديسمبر ١٩٦٢) .
- هيئة الحمراء ، صحيفة محامى غرناطة ، ٢٠ يناير ١٩١٤ .
- فرنانديث بويرتاس . أ . " جدول النقوش الكتابية ، عصر المرابطين أو بدايات الموحيدين " مزيج من الدراسات العربية والعبرية - ١٩٧١ .
- لوح نقوش الموحيدين - مزيج من الدراسات العربية والعبرية ، العدد الحادى والعشرين ١٩٧٢ .
- دُفَايَات إسبانية إسلامية ، دفاتر الحمراء ، العدد الثامن ١٩٧٢ .
- تجصيص زخرفى لبرج السَّيِّدَات ، دفاتر الحمراء ، العدد ٩ - ١٩٧٣ .
- جداول النقوش الكتابية لعصر المرابطين والموحيدين ، مزيج من الدراسات العربية والعبرية ، العدد الثالث والعشرين ، ١٩٧٤ .
- مصابيح وقناديل منقوشة بالكتابة منذ أواخر القرن الحادى عشر أو بدايات القرن الثانى عشر ، مزيج من الدراسات العربية والعبرية ، العدد الرابع والعشرين ، ١٩٧٥ .

- مبخرة من عصر المرابطين ، مزيج من الدراسات العربية والعبرية ، العدد الخامس والعشرين ، ١٩٧٦ .
- قصر البوابة ، التكوين الخزفي ذو المهام الثلاث المختلفة ، دفاتر الحمراء ، العدد الثامن ١٩٧٢ ، ص ٧٧ - ٨٦ .
- دفأيات إسبانية إسلامية ، دفاتر الحمراء .
- مذكرات بالأبحاث التي أُجريت في القطاع الشمالي من المشوار بقصر كوماريس ، دفاتر الحمراء ، العدد الثامن عشر ، ١٩٨٢ .
- زخرفة الجص الأندلسي الإسلامي في الفن الأندلسي الإسلامي ، معرض قدمته اللجنة الوطنية في الاحتفال بالذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف أمريكا ، بلدية غرناطة ، غرناطة ١٩٨٤ .
- ظاهرة الإسلام الأندلسي في زخرفة الجص لمبانيهم MEAH ، العدد الثالث والثلاثين ١٩٨٤ - ١٩٨٥ .
- كمرتان من عصر الخلافة بالمُتحف الوطني للفن الإسباني الإسلامي ، تكريم للأستاذ داريو كيانياس رودريجيث بمناسبة ذكراه السبعين ، جامعة غرناطة ، ١٩٨٧ .
- نزهة أو جولة بالمُتحف الوطني للفن الإسباني الإسلامي ، مزيج من الدراسات العربية والعبرية ، جامعة غرناطة ١٩٨٨ .
- كرسي الركوب في الفن والثقافة عام ١٤٩٢ ، المعرض الدولي بأشبيلية ، ١٩٩٢ .
- مشربية في الفن والثقافة عام ١٤٩٢ ، المعرض الدولي بأشبيلية ، ١٩٩٢ .
- لوحة من المقرنصات المغطاة بالزليج القرن الخامس عشر والسادس عشر في الفن والثقافة عام ١٤٩٢ ، المعرض الدولي بأشبيلية ، ١٩٩٢ .
- قيشاني من القرن الخامس عشر في الفن والثقافة عام ١٤٩٢ ، المعرض الدولي بأشبيلية ، ١٩٩٢ .

- فلوريس ايسكوبوسا . إى . دراسة وتصنيف للخزف المذهب دى مانيسيس من أرصدة المتحف الوطنى للفن الإشبانى الإسلامى ، غرناطة ١٩٨٢ (رسالة ماجستير) .
- " مجموعة الخزف المذهب دى مانيسيس " دراسات مخصصة عن السيد / خيسوس بيرموديث بارىخا ، غرناطة ، ١٩٨٨ .
- بعض الاعتبارات عن الخزف المذهب ، حوليات المدرسة الجامعية فى ألميريا ، مجلة الآداب ، العدد الخامس ، ألميريا ١٩٨٣ - ١٩٨٥ .
- دراسة تمهيدية عن الخزف الأزرق والمذهب النصرى ، الحمراء ، دفاتر الفن وعلم الآثار ، العدد الرابع ، المعهد الإشبانى العربى للثقافة ، مدريد ١٩٨٨ .
- بعض الأنماط للخزف الأزرق والمذهب الذى عُثِرَ عليه فى الحمراء ، أعمال المؤتمر الثانى للآثار الإشبانية فى العصور الوسطى ، الجزء الثانى ، مدريد ١٩٨٧ .
- جاريڤو جاريڤو . م . " الخزف المذهب المصرى " مجموعة المتحف الوطنى للفن الإشبانى الإسلامى ، غرناطة ، ١٩٨٢ (بحث ليسانس) .
- مشاهد من البلاط الملكى على الصينى الفاطمى المذهب بالمتحف الوطنى للفن الإشبانى الإسلامى ، دراسات مخصصة عن السيد / خيسوس بيرموديث بارىخا ، غرناطة ، ١٩٨٨ .
- جوميث مورينو مانويل ، دليل غرناطة ، طبعة إنداليثيو بينتورا ، غرناطة ١٩٨٢ .
- بيان : الحمراء ، صحيفة " محامى غرناطة " ٢٩ يوليو ١٩٠٦ .
- الحفاظ على الحمراء ، صحيفة " محامى غرناطة " ٦ أغسطس ١٩٠٧ .
- الحفاظ على الحمراء ، صحيفة بوبليثيداد أو النوتيتيرو الغرناطى ، ٢٠ يناير ١٩١٤ .
- مارينوت تشيت . ب . " تيجان الأعمدة من عصر الخلافة " بالمتحف الوطنى للفن الإشبانى الإسلامى ، دفاتر الفن ، العدد الثامن عشر ، غرناطة ١٩٨٧ .
- قطع من العاج من ورشة كوينكا ، مزيج من الدراسات العزبية والعبرية ، الجزء السادس والثلاثين ، الملزمة الأولى ، جامعة غرناطة ١٩٨٧ .

- دليل تربوى وتعليمى للمُتحف الوطنى للفن الإِسباني الإسلامى ، غرناطة ١٩٨٧ .
- المياه فى العالم الإِسباني الإسلامى ، حوضان من عصر الخلافة لم ينشر عنهما شىء (الآثار الإِسبانية فى العصر الوسيط) أعمال المؤتمر الثانى للإتصالات ، مدريد ١٩٨٧ .
- دراسة وتصنيف لمجموعة من بابب التَّدخين ، تكريم للأستاذ خاشيتو بوش بيبلا ، الجزء الثانى ، جامعة غرناطة ، قسم الدِّراسات السَّامية ، غرناطة ١٩٩١ .
- ميليرو رودريجيث . م . ث . " العطور فى حوض البحر المتوسط من خلال الأدب " الزَّجاج الإسلامى بالمُتحف الوطنى للفن الإِسباني الإسلامى ، غرناطة ، ١٩٨٢ (بحث تخرج) .
- تحليل نمطى للزُّجاج النِّصرى ، دراسات عن السَّيد / خيسوس بيرموديث باريجا ، غرناطة ، ١٩٨٨ .
- نويرى ماتاوكر ، إى . " ترميم الأعمال الخشبية الأندلسية الإسلامية " باتباع قواعد النُّجارة التى أملاها السَّيد / لوبيث دى أريناس ، ندوة دولية عن الفن الأندلسى الإسلامى ، الفن ، أعمال ترويل ، ١٩٨٢ .
- النجارة الإِسبانية ، وزارة الثقافة ، مدريد ١٩٨٩ ، نجارة الوصل أو الربط .
- المُتحف الإِسباني الإسلامى فى مداخلات فى التُّراث المعمارى (١٩٨٥ - ١٩٨٠) وزارة الثقافة ، مدريد ١٩٩٠ .
- أوليفير أورتادو ، خ . وم " غرناطة وآثارها العربية " طبعة مانويل أوليبير نابارو ١٩٧٥ ، مألقة .
- أمر ضم الهيئة التَّنفيذية للأرشيفات وأمناء المكتبات وعلماء الآثار لخدمات مُتحف الحمراء (الجريدة الرُّسمية للدولة رقم ٢٤١ الصَّادرة فى ٢٩ أغسطس ١٩٤٢) .

- باولا بايادار . ف . " دليل غرناطة ، تاريخ وأوصاف ، فنون وعادات وتقاليده وأبحاث أثرية " باولينو بينتورا ترابيسيت ، غرناطة ، ١٩٠٦ .
- ريباس إيرنانديث . م . أ . بقايا نصرية وديرية مسيحية للقديس فرانثيسكو بالحمراء ، غرناطة ، ١٩٨٢ (بحث تخرج) .
- بقايا قصور نصرية وديرية مسيحية للقديس فرانثيسكو بالحمراء ، دراسات عن السيد / خيسوس بيرموديث باريخا ، غرناطة ، ١٩٨٨ .
- رودا . ث . الحمراء " رأى نو ثقل " ، صحيفة النوتيشيرو الغرناطى ، غرناطة ١٩٠٧ .
- الحمراء " رأى نو ثقل " ، إيبوكا ، مدريد ١٩٠٧ .
- رويث جارثيا . أ . الخزف المنزلى النصرى المطلق بالزجاج الأخضر بالمتحف الوطنى للفن الإشباني الإسلامى ، غرناطة ، ١٩٨٠ ، (بحث تخرج) .
- سيكو دى لوثينا . ل . الآثار الوطنية فى الحمراء تم انقاذها ، أبحاث أثرية ، لاتريونا ، إبريل ١٩١٤ .
- الحمراء كيف كانت وكيف تكون الآن ، غرناطة ١٩٣٥ .
- سيرانو جارثيا . ث . حلوق ومقابض الأباريق النصرية ، غرناطة ، ١٩٨٢ (بحث تخرج) .
- الأباريق بالحمراء ، دراسات عن السيد / خيسوس بيرموديث باريخا ، غرناطة ، ١٩٨٨ .
- تويريس بالباس . ل . متحف الآثار بالحمراء ، مجلة الأندلس ، الجزء التاسع ، مدريد ، غرناطة ١٩٤٤ ، مجلة مدارس الدراسات العربية لمدرسة وغرناطة .

المترجم فى سطور

- ولد الدكتور / صبرى محمدى التهامى زيدان فى ١٩٥١/٤/٢٠ م بقرية بهنيا - ديرب نجم - محافظة الشرقية .
- ليسانس لغات وترجمة ، قسم اللغة الإسبانية وآدابها ، مايو ١٩٧٥ بتقدير عام ممتاز (أول الدفعة) .
- دبلوم دراسات عليا بالقاهرة ومدرّد بتقدير عام امتياز .
- دكتوراه فى اللغة الإسبانية وآدابها فى ١٦ فبراير ١٩٩٥ بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف .
- قضى فى إسبانيا خمسة عشر عاماً ونصف العام زاول خلالها أعمال الترجمة فى المكتب الصحفى بسفارة مصر وبوكالة الأنباء الليبية وفى السفارة الكويتية التبعية والتحريرية والقورية السياسية والعسكرية والاقتصادية والعلمية والتجارية والقانونية ... إلخ .
- مترجم فوري منذ عام ١٩٨٥ زاول أعمال الترجمة الفورية فى كثير من المؤتمرات الدولية وخاصة مؤتمر السلام بمدرّد ومؤتمرات الأديان وكذلك الندوات واللقاءات الثقافية العربية الإسبانية .
- صدرت له بالاشتراك مع اثنين من زملاء بقسم اللغة الإسبانية وآدابها ترجمة لتفسير القرآن الكريم فى ٢٠٠١ م - ١٤٢١ هـ .
- صدرت له ترجمة لمسرحيتى " ورود الخريف " و " عش الغريب " للكاتب الإسباني الأشهر خاينيتو بينابيتتى الفائز بجائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٢٢ وذلك بالمجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٢ .
- صدرت له عدة كتب منها " رحلة إلى الجنود " للكاتب الكولومبى جارتيا ماركيت و " جوارات مع خوان رامون خيمينيث " و " السيدة بيرفكتا " لرائد الواقعية الإسبانية بينيتو بيريث جالدوس و " السيد سيجوندو سومبرا " للقصاص الأرجنتيني ريكاردو جويز الديس .
- له تحت الطبع " روائع أندلسية إسلامية " و " وفورتوناتا وخاينيتا " .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومي للترجمة

١- اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	شوقي جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كارينتيكوفا	أحمد الحضري
٥- ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفتيش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكي
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو. س. جودي	محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معصم وعبد الجليل الأزدي ومهر حلي
١١- مختارات شعرية	فيسوالفا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣- بيانة الساميين	روبرتسن سميت	عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسي للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥- الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إيوارد لوسى سميت	أشرف رفيق عفيفي
١٦- أثنية السوداء (ج١)	مارتن برنال	يشارفد أحمد عثمان
١٧- مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوي
١٨- الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولي وبدوي عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجي	ماجدة العناني
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصري
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سميد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك باوندر	بكر عباس
٢٥- مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشري الخلاق	مجموعة من المؤلفين	يشارفد: جابر عصفور
٢٨- رسالة في التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الخوجي وعبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣- التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بليغ
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	حصه إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول ب. ديكسون	خليل كلفت
٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

جمال عبد الرحيم	بريجيت شيفر	واحة سيوة وموسيقاها	٢٧-
أنور مغيث	ألن تورين	نقد الحداثة	٢٨-
منيرة كروان	بيتر والكوت	الحسد والإغريق	٣٩-
محمد عبد إبراهيم	أن سكستون	قصائد حب	٤٠-
عاطف أحمد وإبراهيم فتمى ومحمود ماجد	بيتر جران	ما بعد المركزية الأوروبية	٤١-
أحمد محمود	بنجامين بارير	عالم ماك	٤٢-
المهدى أخريف	أوكتايفر باث	اللهب المزيج	٤٣-
مارلين تادرس	ألدوس هكسلى	بعد عدة أصياف	٤٤-
أحمد محمود	روبرت دينيا وچون فاين	التراث المغنور	٤٥-
محمود السيد على	بابلو نيرودا	عشرون قصيدة حب	٤٦-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج١)	٤٧-
ماهر جويجاتى	فرانسوا دوما	حضارة مصر الفرعونية	٤٨-
عبد الوهاب علوب	ه . ت . نوريس	الإسلام فى اليلقان	٤٩-
محمد برادة وعثمانى الميلاد ويوسف الأتلى	جمال الدين بن الشيخ	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	٥٠-
محمد أبو العطا	داريو بيانوفيا وخ . م . بينياليستى	مسار الرواية الإسبانية أمريكية	٥١-
لطفي قطيم وعادل دمرdash	ب . نوليس وس . روجميفيز وروجر بيل	العلاج النفسى التدعيمى	٥٢-
مرسى سعد الدين	أ . ف . ألتجتون	الدراما والتعليم	٥٣-
محسن مصيلحى	ج . مايكل والتون	المفهوم الإغريقى للمسرح	٥٤-
على يوسف على	جون بولكنجهوم	ما وراء العلم	٥٥-
محمود على مكى	فديريكو غرسية لوركا	الأعمال الشعرية الكاملة (ج١)	٥٦-
محمود السيد و ماهر البطوطى	فديريكو غرسية لوركا	الأعمال الشعرية الكاملة (ج٢)	٥٧-
محمد أبو العطا	فديريكو غرسية لوركا	مسرحيتان	٥٨-
السيد السيد سهيم	كارلوس مونييث	المحبرة (مسرحية)	٥٩-
صبرى محمد عبد الفنى	جوهانز إيتين	التصميم والشكل	٦٠-
بإشراف : محمد الجوهري	شارلوت سيمور - سميث	موسوعة علم الإنسان	٦١-
محمد خير البقاعى	رولان بارت	لذة النص	٦٢-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج٢)	٦٣-
رمسيس عوض	ألان رود	برتراند راسل (سيرة حياة)	٦٤-
رمسيس عوض	برتراند راسل	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	٦٥-
عبد اللطيف عبد الحليم	أنطونيو جالا	خمس مسرحيات أندلسية	٦٦-
المهدى أخريف	فرناندو بيسوا	مختارات شعرية	٦٧-
أشرف الصباغ	فالنتين راسيوتين	نتاشا العجوز وقصص أخرى	٦٨-
أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى	عبد الرشيد إبراهيم	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	٦٩-
عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد	أوخينيو تشانج رودريجت	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	٧٠-
حسين محمود	داريو فو	السيدة لا تصلح إلا للرمى	٧١-
فؤاد مجلى	ت . س . إليوت	السياسى العجوز	٧٢-
حسن ناظم وعلى حاكم	چين ب . تومبكنز	نقد استجابة القارئ	٧٣-
حسن بيومى	ل . ا . سيمينوفا	صلاح الدين والمالايك فى مصر	٧٤-

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندرية موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التجليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسپنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	پوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر پوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (ج١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شبيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والفلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتقريب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيننز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	رسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وأخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	السرحد والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونيك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	نصائب مضامين المسرح الإمبريالى المعاصر	كارلوس ميغيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبى	مسمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإنسانى	أنطونيو بويرو بايبيخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات وردية وقصص أخرى	نخبة	إنوار الخراط
٩٧-	هوية قرنسا (مج١)	فونان برويل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساطة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليت	رشيد بنحنو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإنريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آباء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكارى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبينرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	مدرة الغدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون يولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم التامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

- ١١٣- راية التمرد سادى پلانت
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستقع وول شوينكا
١١٥- غرفة تخص المراء وحده فرچينيا وولف
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق) سينثيا نلسون
١١٧- المرأة وانجنوسة فى الإسلام ليلى أحمد
١١٨- النهضة النسائية فى مصر بث بارون
١١٩- النساء والأسرة وثلاثين الشلق فى التاريخ الإسلامى أميرة الأزهرى سنبل
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط ليلى أبو لغد
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية فاطمة موسى
١٢٢- نظام العبرية القديم والنموذج المثالى للإنسان جوزيف فوجت
١٢٣- الإمبراطورية العشائية وعلاقتها النواية أنيئل ألكسندرو فنابولينأ
١٢٤- الفجر الكاتب: أوهم الراسمالية العالمية چون جراى
١٢٥- التحليل الموسيقى سيدرك ثورپ ديفى
١٢٦- فعل القراءة فولفانج إيسر
١٢٧- إرهاب (مسرحية) صفاء فتحى
١٢٨- الأدب المقارن سوزان ياسنيت
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة ماريا دولورس أسيس جاروته
١٣٠- الشرق يصعد ثانية أندريه جوندر فرانك
١٣١- مصر القديمة التاريخ الاجتماعى مجموعة من المؤلفين
١٣٢- ثقافة العولة مايك فيذرستون
١٣٣- الخوف من المايا (رواية) طارق على
١٣٤- تشريح حضارة بارى ج. كيمب
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت ت. س. إليوت
١٣٦- فلاحو الباشا كينيث كونه
١٣٧- مذكرات شايب فى العملة الفرنسية على مصر جوزيف مارى مواريه
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف أندريه جلوكسمان
١٣٩- باريسقال (مسرحية) ريتشارد فاچنر
١٤٠- حيث تلقى الأنهار هربرت ميسن
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى ديرك لايدر
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية) كارلو جولونوى
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية) كارلوس فويتتس
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية) ميچيل دى ليبس
١٤٧- مسرحيتان تانكريد دورست
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية إنريكي أندرسون إميرت
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس عاطف فضول
١٥٠- التجربة الإغريقية روبرت ج. ليتمان
- أحمد حسان
نسيم مجلى
سمية رمضان
نهاد أحمد سالم
منى إبراهيم وهالة كمال
لميس النقاش
بإشراف: روفع عباس
مجموعة من المترجمين
محمد الجندى وإيزابيل كمال
منيرة كروان
أنور محمد إبراهيم
أحمد فؤاد بلبع
سمحة الخولى
عبد الوهاب علوب
بشير السباعى
أميرة حسن نويرة
محمد أبو العطا وآخرون
شوقى جلال
لويس بقطر
عبد الوهاب علوب
طلعت الشايب
أحمد محمود
ماهر شفيق فريد
سحر توفيق
كاميليا صبحى
وجيه سمعان عبد المسيح
مصطفى ماهر
أمل الجبورى
نعيم عطية
حسن بيومى
عدلى السمرى
سلامة محمد سليمان
أحمد حسان
على عبدالرؤف البعبى
عبدالغفار مكاوى
على إبراهيم منوفى
أسامة إسبر
منيرة كروان

- ١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، ج١) فرنان برودل
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى مجموعة من المؤلفين
١٥٣- غرام الفراغة فيولين فانويك
١٥٤- مدرسة فرانكفورت فيل سليتر
١٥٥- الشعر الأمريكي المعاصر نخبة من الشعراء
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو
١٥٧- خسرو وشيرين النظامى الكنجوى
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢) فرنان برودل
١٥٩- الأيديولوجية ديفيد هوكس
١٦٠- آلة الطبيعة بول إيرليش
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسباني أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا
١٦٢- تاريخ الكنيسة يوحنا الأسبوى
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (ج ١) جورنون مارشال
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور) جان لاكوثير
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال) أ. ن. أفاناسيفا
١٦٦- العلاقات بين الفئتين والعلمانيين في إسرائيل يشعياهو ليفمان
١٦٧- فى عالم طاغور رابندرناث طاغور
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة مجموعة من المؤلفين
١٦٩- إبداعات أدبية مجموعة من المؤلفين
١٧٠- الطريق (رواية) ميجيل دليبيس
١٧١- وضع حد (رواية) فرائك بيجو
١٧٢- حجر الشمس (شعر) نخبة
١٧٣- معنى الجمال ولتر ت. ستيس
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء إيليس كاشمور
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية لورينزو فيلشس
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية توم تيتنيرج
١٧٧- أنطون تشيخوف هنرى تروايا
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث نخبة من الشعراء
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال) أيسوب
١٨٠- قصة جاويد (رواية) إسماعيل فصيح
١٨١- الله الذى الأمريكى من التليفزيون إلى التليفزيون فنسنت ب. ليش
١٨٢- العنف والنبوة (شعر) و.ب. بيتس
١٨٣- جان كوكو على شاشة السينما رينيه جيلسون
١٨٤- القاهرة: حالة لا تنام هانز إندورفر
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ توماس تومسن
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل ميخائيل إنود
١٨٧- الأرض (رواية) بزرع علوى
١٨٨- موت الأدب ألفين كرتان
- بشير السباعى
محمد محمد الخطايبى
فاطمة عبدالله محمود
خليل كلفت
أحمد مرسى
مى التلمسانى
عبدالعزیز بقوش
بشير السباعى
إبراهيم فتحي
حسين بيومى
زيدان عبدالعليم زيدان
صلاح عبدالعزیز محجوب
بإشراف: محمد الجوهري
نبيل سعد
سهير المصايدة
محمد محمود أبوغدير
شكرى محمد عياد
شكرى محمد عياد
شكرى محمد عياد
بسام ياسين رشيد
هدى حسين
محمد محمد الخطايبى
إمام عبد الفتاح إمام
أحمد محمود
وجيه سمعان عبد المسيح
جلال البنا
حصه إبراهيم المنيف
محمد حمدي إبراهيم
إمام عبد الفتاح إمام
سليم عبد الأمير حمدان
محمد يحيى
ياسين طه حافظ
فتحي العشرى
نسوقى سعيد
عبد الوهاب طوب
إمام عبد الفتاح إمام
محمد علاء الدين منصور
بدر الديب

١٨٩-	السيرة الذاتية مقالات في ثلاثة النسخ المعاصر	بول دي مان	سعيد الفانمي
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجاني
١٩١-	الكلام وأسماء وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازي السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (ج١)	زين العابدين المرافي	محمود علاوي
١٩٣-	عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الانجلو-أمريكي الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شقاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	فالتين راسپوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلي التعماني	جلال السعيد الحفناوي
١٩٨-	الاتصال الجماهيري	إدوين إمري وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية	يعقوب لاندوا	جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التتمية: المقاومة والبدائل	جيرمي سيبورك	فخرى ليب
٢٠١-	الجانب البني للفلسفة	جوزايا روس	أحمد الأنصاري
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألفاف حسين حالي	جلال السعيد الحفناوي
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شارازر	أحمد هويدي
٢٠٥-	الجنات والشعوب واللغات	لويجي لوقا كافاللي- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهوية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	علي يوسف علي
٢٠٧-	ليل أفريقي (رواية)	رامون خوتاسنديز	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سناني (شعر)	سناني الغزنوي	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فريدنان لوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدي عبد القني
٢١٢-	قصص الأمير مرزيان على لسان الحيوان	مرزيان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مسرح منذ قدم نابليون حتى رحيل عبد القاسم	ريمون فلافور	سيد أحمد علي الناصري
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع	أنتوني جيندز	محمد محيي الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)	زين العابدين المرافي	محمود علاوي
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوي
٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاان	علي إبراهيم متوفي
٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كارو إيشجور	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهوية في الكون	باري باركر	علي يوسف علي
٢٢١-	شعرية كفاي	جريجوري جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراي	نسيم مجلي
٢٢٣-	العلم في مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نقادي
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابريل جارشيا ماركيت	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هويت لورانس	طاهر محمد علي البربري

- ٢٢٧- المسرح الإسباني في القرن السابع عشر خوسيه ماوريا ديث بوركي
- ٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن چانيت وولف
- ٢٢٩- مازق البطل الوحيد نورمان كيجان
- ٢٣٠- عن النياپ والفقران واليشمر فرانسواز چاكوب
- ٢٣١- النرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية) خايمي سالوم بيدال
- ٢٣٢- ما بعد المعلومات توم ستونير
- ٢٣٣- فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي آرثر هيرمان
- ٢٣٤- الإسلام في السودان ج. سبنسر تريمنجهام
- ٢٣٥- ديوان شمس تبريزي (ج١) مولانا جلال الدين الرومي
- ٢٣٦- الولاية ميشيل شوكيفيتش
- ٢٣٧- مصر أرض الوادي روبرين فيدين
- ٢٣٨- العولة والتحرير تقرير لمنظمة الأنكتاد
- ٢٣٩- العربي في الأدب الإسرائيلي جيلا راماز - رايوخ
- ٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار كاي حافظ
- ٢٤١- في انتظار البرابرة (رواية) ج. م. كوتزي
- ٢٤٢- سبعة أنماط من القموض وليام إميسون
- ٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١) ليفي بروفنسال
- ٢٤٤- الغليان (رواية) لاورا إسكييل
- ٢٤٥- نساء مقاتلات إليزابيتا أديس وآخرين
- ٢٤٦- مختارات قصصية جابريل چارشا ماركيث
- ٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحدثة في مصر والتر أرمبرست
- ٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية) أنطونيو جالا
- ٢٤٩- لغة التمزق (شعر) دراجو شتامبوك
- ٢٥٠- علم اجتماع العلوم بومنيك فيتك
- ٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (ج٢) جورديون مارشال
- ٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية مارجو بدران
- ٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية ل. أ. سيمينوفا
- ٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة ديف روينسون وجودي جروفز
- ٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون ديف روينسون وجودي جروفز
- ٢٥٦- أقدم لك: ديكارت ديف روينسون وكريس جارارت
- ٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة وليم كلي رايت
- ٢٥٨- الفجر سير أنجوس فريزد
- ٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمني عبر العصور نجبة
- ٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (ج٣) جورديون مارشال
- ٢٦١- رحلة في فكر زكي نجيب محمود زكي نجيب محمود
- ٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية) إدواردو مندوتا
- ٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن جون جرين
- ٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة هوراس وشلي
- السيد عبدالقاهر عبدالله
- ماري تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
- أمير إبراهيم المعري
- مصطفى إبراهيم فهمي
- جمال عبدالرحمن
- مصطفى إبراهيم فهمي
- طلعت الشايب
- فؤاد محمد عكود
- إبراهيم الدسوقي شتا
- أحمد الطيب
- غنايات حسين طلعت
- ياسر محمد جادالله وعربي مدبرلي أحمد
- نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
- صلاح محجوب إدريس
- ابتهسام عبدالله
- صبري محمد حسن
- بإشراف: صلاح فضل
- نادية جمال الدين محمد
- توفيق علي منصور
- علي إبراهيم منوفي
- محمد طارق الشراوي
- عبداللطيف عبدالحليم
- رفعت سلام
- ماجدة محسن أبانقة
- بإشراف: محمد الجوهري
- علي بدران
- حسن بيومي
- إمام عبد الفتاح إمام
- إمام عبد الفتاح إمام
- إمام عبد الفتاح إمام
- محمود سيد أحمد
- عبادة كحيلة
- فاروجان كازانجيان
- بإشراف: محمد الجوهري
- إمام عبد الفتاح إمام
- محمد أبو العطا
- علي يوسف علي
- لويس عوض

روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض	٢٦٥-
مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم علي	٢٦٦-
فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عروكي	٢٦٧-
ديوان شمس تبريزي (ج٢)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا	٢٦٨-
وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١)	وليم جيفور بالجريف	صبري محمد حسن	٢٦٩-
وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج٢)	وليم جيفور بالجريف	صبري محمد حسن	٢٧٠-
الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سي. باترسون	شوقي جلال	٢٧١-
الأديرة الأثرية في مصر	سي. سي. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم	٢٧٢-
الأمور الاجتماعية والاقتصادية لحركة عرابي في مصر	چوان كول	عتان الشهاوي	٢٧٣-
السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود علي مكي	٢٧٤-
ت. س. إليوت شاعرًا وثقافيًا وكاتبًا مسرحيًا	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد	٢٧٥-
فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التمساحي	٢٧٦-
الحيثيات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزي	٢٧٧-
البدائيات	إسحاق عظيموف	تليف عبدالله	٢٧٨-
الحرب الباردة الثقافية	ف. س. سوندرز	طلعت الشايب	٢٧٩-
الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم	٢٨٠-
الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوي	٢٨١-
طبيعة الظم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق	٢٨٢-
السهل يحترق وقصص أخرى	خوان روافو	علي عبد الرعوف البعبي	٢٨٣-
هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عثمان	٢٨٤-
رحلة خواجه حسن نظامي الدهلوي	حسن نظامي الدهلوي	سمير عبد الحميد إبراهيم	٢٨٥-
سباحة نامة إبراهيم بك (ج٢)	زين العابدين المزاغي	محمود علاوي	٢٨٦-
الثقافة والعملة والنظام العالمي	أنتوني كنج	محمد يحيى وآخرون	٢٨٧-
الفن الروائي	ديفيد لودج	ماهر البطوطي	٢٨٨-
ديوان منوچهری الدامغانی	أبو نجم أحمد بن قومن	محمد نور الدين عبدالمنعم	٢٨٩-
علم اللغة والترجمة	چورچ مونان	أحمد زكريا إبراهيم	٢٩٠-
تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج١)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر	٢٩١-
تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج٢)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر	٢٩٢-
مقدمة للأدب العربي	روجر آلن	مجدي توفيق وآخرون	٢٩٣-
فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت	٢٩٤-
سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل موريز	بدر الديب	٢٩٥-
مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي	٢٩٦-
فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازي	ماجدة محمد أنور	٢٩٧-
مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازي السيد	٢٩٨-
ثورة في التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد	٢٩٩-
أسطورة بروجيكتس في الأدب الإنجليزي والفرنسي (ج١)	لويس عوض	جمال الجزيرة وبهاء جامين وإيزابيل كمال	٣٠٠-
أسطورة بروجيكتس في الأدب الإنجليزي والفرنسي (ج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرة و محمد الجندي	٣٠١-
أقدم لك: فنجنشتين	چون هيتون وجودي جروفلز	إمام عبد الفتاح إمام	٣٠٢-

٢٠٣-	أقدم لك: بوذا	جين هوب وبيرون فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٤-	أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٥-	الجد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٢٠٦-	الحصاة: النقد الكانطي للتاريخ	جان فراسوا ليوتار	نبيل سعد
٢٠٧-	أقدم لك: الشعور	ديفيد باينيو وهوارد سليفا	محمود مكي
٢٠٨-	أقدم لك: علم الوراثة	ستيف چونز ويورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٢٠٩-	أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٢١٠-	أقدم لك: يونج	ماجي هايد ومايكل ماكجنس	محبي الدين مزيد
٢١١-	مقال في المنهج الفلسفي	روج كولنجود	فاطمة إسماعيل
٢١٢-	روح الشعب الأسود	وليم ديويوس	أسعد حليم
٢١٣-	أمثال فلسطينية (شعر)	خاير بيان	محمد عبدالله الجعدي
٢١٤-	مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباي
٢١٥-	جرامشي في العالم العربي	ميشيل بروندينز والطاهر لبيب	كاميليا صبحي
٢١٦-	محاكمة سقراط	أي. ف. ستون	نسليم مجلي
٢١٧-	يلا غد	س. شير لايموثا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٢١٨-	الأب الروسي في السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٩-	صور دريدا	جايتري سيفاك وكريستوفر نوريس	حسام نايل
٢٢٠-	لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٢٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ١)	ليفي برر قنسال	باشراف: صلاح فضل
٢٢٢-	وجهات نظر حثية في تاريخ الفن الغربي	ديليو يوجين كلينياور	خالد مقلح حمزة
٢٢٣-	فن الساتورا	تراث يوناني قديم	هانم محمد قوزي
٢٢٤-	اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدي	محمود علاوي
٢٢٥-	عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كريستين يوسف
٢٢٦-	المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٢٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (ج ١)	نخبة	توفيق علي منصور
٢٢٨-	يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٢٢٩-	رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٢٣٠-	كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شيرد	سامي صلاح
٢٣١-	عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراي	سامية بياب
٢٣٢-	شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	علي إبراهيم منوفي
٢٣٣-	إسلام في بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٢٣٤-	لقطات من المستقبل	أرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣٥-	عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالي ساروت	فتحي العشري
٢٣٦-	متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٢٣٧-	فلسفة الولاء	چوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٢٣٨-	نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوي
٢٣٩-	تاريخ الأدب في إيران (ج ٢)	إنوار براون	محمد علاء الدين منصور
٢٤٠-	اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلر	فخري لبيب

حسن حلمي	راينر ماريا ريلكه	قصائد من ولكه (شعر)	٢٤١-
عبد العزيز بقوش	نور الدين عبدالرحمن الجامي	سلامان وأيسال (شعر)	٢٤٢-
سمير عبد ربه	نانين جورديمر	العالم البرجوازي الزائل (رواية)	٢٤٣-
سمير عبد ربه	بيتر بالانجيو	الموت في الشمس (رواية)	٢٤٤-
يوسف عبد الفتاح فرج	بونيه ندائى	الركض خلف الزمان (شعر)	٢٤٥-
جمال الجزيرى	رشاد رشدى	سحر مصر	٢٤٦-
بكر الحلو	چان كوكتو	الصبية الطائشون (رواية)	٢٤٧-
عبدالله أحمد إبراهيم	محمد فؤاد كوبريلى	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (ج١)	٢٤٨-
أحمد عمر شاهين	أرثر والدهورن وآخرون	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	٢٤٩-
عطية شحاتة	مجموعة من المؤلفين	بانوراما الحياة السياحية	٢٥٠-
أحمد الانصارى	چوزايا رويس	مبادئ المنطق	٢٥١-
نعيم عطية	قسطنطين كفافيس	قصائد من كفافيس	٢٥٢-
على إبراهيم منوفى	باسيليو يابون مالدونادو	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	٢٥٣-
على إبراهيم منوفى	باسيليو يابون مالدونادو	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	٢٥٤-
محمود علاوى	حجت مرتجى	التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	٢٥٥-
بدر الرفاعى	بول سالم	الميراث المر	٢٥٦-
عمر الفاروق عمر	تيموثى فريك وبيتر غاندى	متون هرمس	٢٥٧-
مصطفى حجازى السيد	نخبة	أمثال الهوسا العامية	٢٥٨-
حبيب الشارونى	أفلاطون	محاورة بارمنيدس	٢٥٩-
ليلى الشربيني	أندريه چاكوب ونويلا باركان	أنثروبولوجيا اللغة	٢٦٠-
عاطف معتمد وأمال شاور	ألان جرينجر	التصحر: التهديد والمواجهة	٢٦١-
سيد أحمد فتح الله	هاينرش شيبول	تلميذ باينبرج (رواية)	٢٦٢-
صبرى محمد حسن	ريتشارد چيبسون	حركات التحرير الأفريقية	٢٦٣-
نجلاء أبو عجاج	إسماعيل سراج الدين	حادثة شكسبير	٢٦٤-
محمد أحمد حمد	شارل بودلير	سام باريس (شعر)	٢٦٥-
مصطفى محمود محمد	كلاريسا بنكولا	نساء يركضن مع الذئاب	٢٦٦-
البراق عبدالهادى رضا	مجموعة من المؤلفين	القلم الجرىء	٢٦٧-
عابد خزندار	جيرالد پرنس	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	٢٦٨-
فوزية العشماوى	فوزية العشماوى	للرأة فى أنب نجيب محفوظ	٢٦٩-
فاطمة عبدالله محمود	كليلا لويت	الفن والحياة فى مصر الفرعونية	٢٧٠-
عبدالله أحمد إبراهيم	محمد فؤاد كوبريلى	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (ج٢)	٢٧١-
وحيد السعيد عبدالحميد	وانغ مينغ	عاش الشباب (رواية)	٢٧٢-
على إبراهيم منوفى	أوميرتو إيكو	كيف تعد رسالة دكتوراه	٢٧٣-
حمادة إبراهيم	أندريه شديد	اليوم السادس (رواية)	٢٧٤-
خالد أبو اليزيد	ميلان كونديرا	الخلود (رواية)	٢٧٥-
إنوار الخراط	چان أنوى وآخرون	الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	٢٧٦-
محمد علاء الدين منصور	إدوارد براون	تاريخ الأدب فى إيران (ج٤)	٢٧٧-
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد إقبال	المسافر (شعر)	٢٧٨-

جمال عبدالرحمن	ستيل باث	٢٧٩- ملك في الحقيقة (رواية)
شيرين عبدالسلام	جونتر جراس	٢٨٠- حديث عن الخسارة
رائيا إبراهيم يوسف	ر. ل. تراسك	٢٨١- أساسيات اللغة
أحمد محمد نادی	بهاء الدين محمد اسفنديار	٢٨٢- تاريخ طبرستان
سمير عبدالحميد إبراهيم	محمد إقبال	٢٨٣- هدية الحجاز (شعر)
إيزابيل كمال	سوزان إنجيل	٢٨٤- القصص التي يحكيها الأطفال
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد علي بهزادراد	٢٨٥- مشتري العشق (رواية)
ريهام حسين إبراهيم	جانيت تود	٢٨٦- دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوي
بهاء جاهين	چون دن	٢٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)
محمد علاء الدين منصور	سعدى الشيرازى	٢٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)
سمير عبدالحميد إبراهيم	نخبة	٢٨٩- تفاهم وقصص أخرى
عثمان مصطفى عثمان	إم. في. روبرتس	٢٩٠- الارشيفات والمدن الكبرى
منى الدروبي	مايف بينشى	٢٩١- الحافلة اليلكية (رواية)
عبداللطيف عبدالطيم	فرناندو دى لاجرانجا	٢٩٢- مقامات ورسائل أندلسية
زينب محمود الخضيري	ندوة لويس ماسينيون	٢٩٣- فى قلب الشرق
هاشم أحمد محمد	بول ديفيز	٢٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون
سليم عبد الأمير حمدان	إسماعيل قصيح	٢٩٥- آلام سياوش (رواية)
محمود علاوى	تقى نجارى راد	٢٩٦- السافاك
إمام عبدالفتاح إمام	لورانس جين وكيتى شين	٢٩٧- أقدم لك: نيتشه
إمام عبدالفتاح إمام	فيليب تودى وهوارد ريد	٢٩٨- أقدم لك: سارتر
إمام عبدالفتاح إمام	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	٢٩٩- أقدم لك: كامى
باهر الجوهري	ميشائيل إنده	٤٠٠- مومو (رواية)
ممدوح عبيد المنعم	زياد بن ساردر وآخرون	٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات
ممدوح عبدالمنعم	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكينج
عماد حسن بكر	توبور شتورم وجوتفرد كولر	٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايات)
طلبية خميس	ديفيد إبرام	٤٠٤- تعويذة الحسى
حمادة إبراهيم	أندريه جيد	٤٠٥- إيزابيل (رواية)
جمال عبد الرحمن	مانويلا مانتاناريس	٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩
طلعت شاهين	مجموعة من المؤلفين	٤٠٧- الأدب الإسباني المعاصر بقلم كتابه
عنان الشهاوى	جوان فونشركنج	٤٠٨- معجم تاريخ مصر
إلهامى عمارة	برتراند واسل	٤٠٩- انتصار السعادة
الزواوى بغورة	كارل بوير	٤١٠- خلاصة القرن
أحمد مستجير	چينيفر أكرمان	٤١١- همس من الماضى
بإشراف: صلاح فضل	ليلى بروفسنال	٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ٢)
محمد البخارى	ناظم حكمت	٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)
أمل الصبان	باسكال كازانوفا	٤١٤- الجمهورية العالمية للأدب
أحمد كامل عبدالرحيم	فريدريش نورينمات	٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)
محمد مصطفى بنوى	أ. أ. رتشاردز	٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨-	سيلات الزهر الحاكمة في مصر العثمانية	چين هاشواي	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية	چون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميچاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج١)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوانح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طابوس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحليظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باي إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الفرزاة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سپنسر وأندرجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كروستوفر وانت وأندرجى كليوفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكيافلى	پاتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل قلنت	حمدي الجابري
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	يونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زيريج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فريدريك كويلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندي في بلاد الشرق العربي	شيلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بييرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابي (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحليظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروسند	محمد طارق الشرفاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونلاتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشيسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاني
٤٤٣-	اللفة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستينج	محمد طارق الشرفاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح غلمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز نائل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكيرن وجيفرى سانت كير	أحمد محمود
٤٤٧-	ملحمة السيد	تراث شعبى إسباني	الطاهر أحمد مكي
٤٤٨-	الفلاحون (ميراث الترجمة)	الاب عيروط	محي الدين اللبان ووليم داوود مرقس
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيري
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيري
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزيرون ويورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجينانزى وأوسكار زاريت	محيي الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	چان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فريدريك كويلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تتسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	المورييسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نمو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم فيتنبيرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليترا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكأن	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوريين	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلّة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرقاعى
٤٦٦-	حكايات حب ويطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	چوزايا رويس	أحمد الانصارى
٤٦٩-	جلال الملوک	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد الننة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرزاق إبراهيم
٤٧٢-	بون كيخوتى (القسم الأول)	ميغيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	بون كيخوتى (القسم الثانى)	ميغيل دى ثوبانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	يام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرچينيا دانيلسون	عادل هلال عثمانى
٤٧٦-	أرض الحباب بعيدة: بيرم التونسي	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج ولى شى دونج	عبد العزيز حمدي
٤٧٩-	المقهى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدي
٤٨٠-	تساي ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدي
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير چاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٢-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياكوس	رشيد بنحو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهاوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسْرُل: الفلسفة علماً بقيقاً	إيموند هُسْرُل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار البقاء	محمد قادري	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	چى فارچيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج في النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفي
٤٩٥-	اللوبي	إيوارد تيفان	حسن عبد ربه المصري
٤٩٦-	الحكم والسياسة في أفريقيا (ج١)	إكواند بانولتي	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العثمانية والنوع والنولة في الشرق الأوسط	نادية العلي	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع في الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوي
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	في طوفاني: دراسة في السيرة الذاتية العربية	تيتز رويكي	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء في الغرب (ج١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسي الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبد المنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (ج١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (ج٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	أن تيلر	عبد الحميد فهمي الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضي الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقي فهم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومي	عبد الباقي جليبارلي	عبد الله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان في عصر سلطين المائيل	أدم صبرة	قاسم عبيد قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكورة (مسرحية)	كارلو جوليوني	عبد الرزاق عيد
٥١١-	كوكب مرقع (رواية)	أن تيلر	عبد الحميد فهمي الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائي	تيموثي كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمي
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جوتثان كولر	مصطفى بيومي عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فنتي مالطي دوجلاس	قدري مالطي دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان في علاج الإدمان	أرنولد واشنطن وبونا باوندي	صبري محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات في المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٥٢٠-	الولع الفرنسي بعصر من العلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميت	عبد الوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا في تاريخها	أميركو كاسترو	علي إبراهيم منوفي
٥٢٣-	الفن اللبيلطي الإسلامي والمذجن	باسيليو بايون مالدونادو	علي إبراهيم منوفي
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي
٥٢٥-	مرسم صيد في بيروت وقصص أخرى	دنيس چونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرويل ووليم رانكين	محيي الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفيتس وروبرت كرمب	جمال الجزيري
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكي والماركسية	طارق علي وفل إيفانز	جمال الجزيري
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال في شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	ريزيه چينو	عمر الفاروق عمر

٥٣٦-	ما الذي حدث في «حنت» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء قنحي
٥٣٧-	المغامر والمستشرق	هنري لورنس	بشير السباعي
٥٣٨-	تعلم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشراوى
٥٣٩-	الإسلاميون الجزائريون	سيفرين لوبا	حمادة إبراهيم
٥٤٠-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامي الكنجوي	عبدالعزیز بقوش
٥٤١-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل منتجنون ولورانس هاريزون	شوقي جلال
٥٤٢-	الحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالفار مكارى
٥٤٣-	النفس والآخر في قصص يوسف الشاريني	كيت دانيال	محمد الحديدي
٥٤٤-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٥-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رؤف عباس
٥٤٦-	هي تخيل وفلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٧-	قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٨-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٩-	أقدم لك: ميلاني كلابن	روبرت هنشل وآخرون	حمدي الجابري
٥٥٠-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٥١-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٥٢-	أقدم لك: بارت	فيليب تودي وأن كورس	جمال الجزيري
٥٥٣-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن ويون فان لون	حمدي الجابري
٥٥٤-	أقدم لك: علم العلامات	بول كويلي وليتا جانز	جمال الجزيري
٥٥٥-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرد	حمدي الجابري
٥٥٦-	الموسيقى والفولة	سايمون ماندي	سمحة الخولي
٥٥٧-	قصص مثالية	ميجيل دي ثريانتس	علي عبد الرؤوف البعبي
٥٥٨-	مدخل لشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٩-	مصر في عهد محمد علي	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٦٠-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادي والعشرين	أناثولي أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصر الدين الجبالي
٥٦١-	أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدي الجابري
٥٦٢-	أقدم لك: الماركيز دي ساد	ستوارت هود وجراهام كرولي	إمام عبدالفتاح إمام
٥٦٣-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين سارداروويدين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٦٤-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجي	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٥-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٦-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٧-	بلايين وبلايين	كارل ساغان	عزت عامر
٥٦٨-	ورود المخريف (مسرحية)	خاثنيتو بينابيتنى	صبرى محمدى التهامي
٥٦٩-	عش الغريب (مسرحية)	خاثنيتو بينابيتنى	صبرى محمدى التهامي
٥٧٠-	الشرق الأوسط المعاصر	ديورا ج. جيرونر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٧١-	تاريخ أوروبا في العصور الوسطى	موريس بيشوب	علي السيد علي
٥٧٢-	الوطن المقتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٧٣-	الأصول في الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩ - موقع الثقافة	هومي بابا	ثائر ديب
٥٧٠ - نول الخليج الفارسي	سير روبرت هاي	يوسف الشاروني
٥٧١ - تاريخ النقد الإسباني المعاصر	إيميليا دي ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢ - الطب في زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣ - أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتي	جمال الجزيري
٥٧٤ - مصر القديمة في عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعي
٥٧٥ - الاقتصاد السياسي للعملة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦ - فكر ثريانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشري محمد
٥٧٧ - مغامرات بينوكيو	كارلو كولو دي	محمد قنري عمارة
٥٧٨ - الجماليات عند كيتس وهنت	أيومي ميزوكوشي	محمد إبراهيم وعصام عبد الرفيع
٥٧٩ - أقدم لك: تشيسكي	جون ماهر وجودي جرونز	محيي الدين مزيد
٥٨٠ - دائرة المعارف النولية (مج ١)	جون فيزر ويل سبترجز	بإشراف: محمد فتحي عبدالهادي
٥٨١ - الحققي يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢ - مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣ - الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤ - سفر (رواية)	محمود دولت آبادي	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥ - الأمير احتجاج (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦ - السينما العربية والأفريقية	ليزيث مالكموس وروي أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧ - تاريخ تطور الفكر الصيني	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزیز حمدي
٥٨٨ - أمخوتب الثالث	أنيس كابرول	ماهر جويجاني
٥٨٩ - تمبكت العجبية	فينكس نيبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠ - أساطير من المرويات الشعبية الفنية	نخبة	محمود مهدي عبدالله
٥٩١ - الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالقواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢ - الثورة المصرية (ج ١)	محمد صبري السوريوني	مجددي عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣ - قصائد ساحرة	بول فاليري	بكر الحلو
٥٩٤ - القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أماني فوزي
٥٩٥ - الحكم والسياسة في أفريقية (ج ٢)	إكوانو بانولي	مجموعة من المترجمين
٥٩٦ - الصحة العقلية في العالم	روبرت نيجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧ - مسلمو غرناطة	خوليو كاروياروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨ - مصر وكثمان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومي علي قنديل
٥٩٩ - فلسفة الشرق	هرداد مهريز	محمود علوي
٦٠٠ - الإسلام في التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١ - النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلي
٦٠٢ - ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثة	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣ - النقد الثقافي	أزهر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي
٦٠٤ - الكوارث الطبيعية (مج ١)	پاتريك ل. أبوت	توفيق علي منصور
٦٠٥ - مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكي (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمي
٦٠٦ - قصة البردي اليوناني في مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدني

٦٠٧ - قلب الجزيرة العربية (ج١)	هارى سينت فيليبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨ - قلب الجزيرة العربية (ج٢)	هارى سينت فيليبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩ - الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠ - العمارة المتجذرة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١ - النقد والأيدىولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢ - رسالة النفسىة	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣ - السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤ - بيت الأقصر الكبير (رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥ - عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩١٧ إلى ١٩١٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦ - أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧ - الفواكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨ - نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩ - مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠ - السلام الصليبي	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١ - رباعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعى
٦٢٢ - أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣ - نوار جحا الإيروانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤ - شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلوانى
٦٢٥ - الجرح السرى	جان چينييه	محمدة برادة
٦٢٦ - مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧ - حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨ - أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود الميجى
٦٢٩ - قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاى جويات	عزة الخسيسى
٦٣٠ - سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١ - مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	ياشرف: حسن طلب
٦٣٢ - المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣ - الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤ - مكتبة الإسكندرية	روى ماكليود وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥ - التثبيث والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦ - حج يولندية	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧ - مصر الخديوية	ف. روبرت هفتر	بدر الرفاعى
٦٣٨ - الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩ - فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠ - الكسباد	الأميرة أناكومنتيا	حسن حبشى
٦٤١ - بوتراند رسل (مختارات)	بوتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢ - أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر ويورين ثان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣ - سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدرايبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤ - العلوم عند المسلمين	هوارد د.خيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلي ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سبهر نبيج	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	چون نينيه	فتحي العشري
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	چي دي موياسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة في الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسي الذي لا تعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطفلة (مسرحية)	إيريش كستتر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (ج١)	تصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسي
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خير الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	آلفونسو ساستري	ممدوح البستاوي
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبري التهامي
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبري التهامي

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٤٥٧٠ / ٢٠٠٤